



مؤلفات - مارون عيسى

المجموعتنا الكاملة

في الذراية

المجلد الثاني

دار مارون عيسى

مؤلفات مارون عيسى
المجموعة الكاملة

في الدراسة

1917

رَوَاةُ النَهْضَةِ الْحَرَبِيَّةِ



المؤلف

١٨٨٦ - ١٩٦٢

هذه مقدمة

يا سبحان الله !! قلتي خلت عادة من فائدة ، فالمرحوم والدي ، رحم الله موتاكم جميعاً ، كان يجبرنا على الصلاة الجمهورية كل مساء ، فلا ينساها ليلة ولا ينحرم منها حرفاً . اذكر أنه ساقنا كلنا مرة ، وركعتنا بجانب فراش أمي المغنوسة ، وقال لها : « يا أمّ مارون ، صلي معنا تصحّي . » حاولت المسكينة أن تضحك فكشّرت وقالت : « أمي فنجان بابونج أم كاس عرق ؟ » فضحك وقال : « صلي بعد الصلاة يكون الذ وأطيب . »

كانت أمي ، نبح الله نفسها ، من القانتات تحب الصلاة كثيراً ، كيف لا وهي بنت الخوري موسى الذي كان يتوسّل إلى ربه بصلاة أطول من يوم الجوع ، ليرفض عنه الشباب الذين يسهرون عند بناته الكثيرات ... وقد ستمن كلهن على وزن واحد ، واليك اسم المرحومة الوالدة « كاترينا » لتعلمه

وتقيس عليه... ولكنها ، أي امي ، كانت تهوّم منى قامت الصلاة ، فتأخذ بالسجود اللاشعوري ، ثم لا تتفك تفعل ذلك حتى يرفع الوالد عقيرته مرتلاً « طلبة السيدة » . وكثيراً ما كان ينكعها إذا لم توقظها أول كيرباليسون... ثم يمضي غرداً كفعل الشارب المترنم على ما في صوته من بحة وصعل . وإذا استعجلنا نحن أخذ يتمطط هو على هواه ، ففسير الهويناء اتقاء لشره ، ثم لا تتنفس إلا حين ينجي العذراء ويضعنا « تحت ذيل حمايتها » ... ولكنه يعود فيستأنف الصلاة من جديد فتكون كذنب الطاووس في الكبر لا في الجمال ، فيقول : خمس مرات ابانا وسلام لأجل راحة نفس جدّكم ليعامله الله بالرحمة . ويفرض مثلها لجدّنا الآخر ، ولجدتنا الأخرى ، ومثلها لأقاربنا أجمعين ، ومثلها لجميع الموتى المؤمنين ، ومثلها لأجل ارتقاء شأن الكنيسة المقدسة ، ومثلها لكل من آجر في بناء كنيسة الضيعة ، ثم لأجل من له علينا فضل وتعب ، وأخيراً لأجل « المنقطعين » .

قد لا تكون جنابك من « شعب الله الخاص » فلا تفهم ما يراذه « المنقطعين » ، وقد لا تستطيع الوصول إلى الصديق الاستاذ الغلبوني لشرح لك من هم ، فقد ورث الاهتمام بأمرهم عن المرحوم أبيه الفاضل . والاستاذ الغلبوني مفضل على أبي لأنه قام مقامه و قدس لأجل خلاص نفسه أربعين قداساً... كان الاستاذ قد ظن ان والدي من « المنقطعين » وعدّ وجودي كالعدم... فهنئاً لوالدي أما كافأه الله حالاً ، على ذكره المنقطعين بصلاته طول العمر !!

إخالك فهمت من حديثي من هم « المنقطعون » ، انهم أولئك الذين ليس لهم عقب يصلي لأجلهم ويقدم . أظنني أفهمتك ولكن بعد ما فلفقتك فقل : صبر جميل . وإسمع أيضاً .

ولما كبرنا اخذنا نتشاغل عن الصلاة وأمسى والدنا يصلي ووالدتنا ، ولما صار أرمل مثلي - ومن يشابهه أبه فما ظلم إلا في الصلاة - اخذ يصلي وحده ، وظل على ذلك حتى آخر ساعة .

ففي ليلة من ليالي صيف سنة ١٩٣٠ مهر معنا كعادته وأطرينا بنكاته
البريئة ، وأخباره الطريفة . وقبل ان يتدهور الليل قال : يا الله ، علينا
صلاة . فشقّ علينا ذهابه لأنه برغم الخمسة والسبعين كان فقيّ الروح .
فركع على تخته ، قبالتنا ، في بيتنا المناوح بيتي ، وشرع في صلاته ينبر نبراً ،
ويرسل الجمل متقطعة كأنه الحجاج يخطب في الكوفة . وظل يفعل هذا
أكثر من ساعة ، وضيئي الاستاذ جبرائيل ، كان يسمع ويضطرب ، لأنه مصلّ
كوالدي .

وأخيراً صلىّ الوالد صلاة « المنقطعين » وتمتدّ في فراشه وهو يقول :
« حطيت راسي عافرائي » سبع صلبات فوق راسي ... مار مخايل يا
ملاك ، تعينني وقت الهلاك ... الخ ، ثم تلحّف وهو يقول : يا رضا الوالدين ،
يا رضا الرب .

فقلت لجبرائيل : انتهت المعركة بسلام ، وتصالح الوالد مع الله ، ونال
رضاه ورضاهما ، وسينام على سكين ظهره حتى الصبح .

ولما أصبحنا جاء والدنا يسأل جبرائيل عن نومه ، وكيف وجد مناخ عين كفاع ،
أهو مثل مناخ « مار ماما » أم أحسن . فأحسن جبرائيل الرد ولم يزد على
الواقع . أما أنا فقلت : النوم هنيئة ، لا يرغش ولا يبقّ ولا ياموس ، فقال :
لا تقل ولا ياموس ... فضحكت لاستدراكه ، وأعجب به صديقي الاستاذ .

ثم عدت وقلت : ولكن صلاتك كانت عياطاً ، كأنك تقاتل ربك ،
طوّلتها يا شيخ بو مارون ! فأجاب بغلظة : أسكت يا معنوه ، أصليّ عني
وعنك ، وتقول طوّلتها ؟! يا ويلك متى مات بو مارون .

أجل ، لقد بعد العهد بيننا وبين تلك الصلوات ، ولكنني فطنت في هذه
الأيام الى ان الصلاة « للمنقطعين » نفعتني جداً . ان لم يكن في الدين ففي
الأدب وكم للدين عند العلم والأدب من يد . أني ميال جداً الى « منقطعي »
الأدب وكثيراً ما أفكر بهم ، ولهذا دعوت الامة العربية منذ خمسة عشر

عاماً الى الاحتفال بذكرى الحسين ، لاحد فارس الشدياق ، أعظم نوابنا في القرن التاسع عشر . ولكن كلامي ذهب كصرخة في واد .

وها أنا ذا أعود اليوم الى هؤلاء « المنقطعين » جميعاً ، واذا ذكرت معهم من لم يحرموا من يذكر الناس بهم ، ويطري آثارهم ، فلأن سياق الكتاب يقضي بذلك . ثم لأنهم جاهدوا جهاداً حسناً في بناء النهضة التي نفاخر بها . وأذا طالت المدة ولم تقتلنا شدة ، فسوف نكتب كتاب « رجال النهضة » احياء وأمواتاً .

والآن التمس منك أيها القاريء ان تقرأ جيداً ، أو أن لا تقرأ . أترك كتابي في ذقتي اذا رأيتني أقول فيه ما لا توافقني أنت عليه ، فالناس تناضل اليوم لأجل حرية القول ، وها أنا أهبك حرية القراءة ، فهب لي من لدنك ما التمت منك .

نصيحة لا حاشية :

أذا كنت لم تقرأني بعد فنصحتي لك الا تفتش عن شيء ، بل اقرأ كل شيء لتجد ذلك الشيء ... وقد أعذر من أنذر .

فصل المعركة

سنديانة الضيعة

إذا جاز لنا ان نصنف الاشجار أوابد ودواجن ، فالأرزة أبدية ،
والسنديانة داجنة .

الأرزة بادية ، والسنديانة حاضرة . السنديانة أم لبنان . في ظلها تعقد
الضيعة مجلس الشورى ، وتحت جناحيها يستريح الفلاح المنهوك .

هناك في فيثها ينفض الغبار عن حدائه ، وهناك يستريح ريثا يحف العرق
على جبينه كالرب .

في ظلها الظليل يلعب الصبية ويمرحون ، فلا دفانير تقرأ من البنان ، كما
ترامى للمتني في شعب بوآن .

في ظلها كنا نخصب الدوري عندما يغيب عنا الخوري . ومق طلعت

علينا لحيته البحتية من خلف الجدار انكبنا على الكتاب ، وأمنّا بهذه
الحيلة حول الحساب .

*

ايتها الحبيبة ،

هل تذكرين تلك القلوب الصغيرة ؟ ! فكم تكومت في حشاك الأجوف
متوارية عن نظر المعلم ، وكم نبضت فيه ودقت ، فكانت لك فؤاداً يُحِبُّ
وَيُحَبُّ .

في أحشائك الصابرة توارينا صبايا وشباباً ، فاردت عنك حرارة قلوبنا
برودة الشيخوخة وصقيع الهرم .

كم شاهدت من آباء وأجداد يتجادلون ويعبثون وأنت معبسة لا تفارقك
المهابة . تمددين فوق رؤوسهم أغصاناً كأنها أصابع تداعبهم محسنين ، وتنكزم
مسيئين .

يا أم الضيعة ، أي سر من أسرارها تجهلين؟ أخفي عليك شيء من نزواتهم
ساعة يجهلون ! أما كنت لهم دائماً أما حنوناً تستر على بنينا ؟

السلام عليك أيتها الأم ، الممتلئة نعمة ، مباركة أنت بين الشجر ،
ومبارك ثمره بطنك العقل اللبناني .

كأنني بالرئيس اللبناني ^(١) حين قال : « اللبناني والشجرة رفيقا جهاد ،
قد فكر ببنتك المعرفة ، ثم باينك المجداف . أما كنت حياة لهذا البلد
منذ كان ، ولما عرّي منك فقد الرجولة والطاقة .

(١) الشيخ بشارة خليل الخوري .

يا أم أعمدة خيامنا مصيفين ، ويا أم جذوع بيوتنا مشتتين ، إليك نرفع
أبصارنا خاشعين مبتهلين .

إن مسنا القرّ دفأتنا جذوعك وأروماتك . وإن لفحنا الحر برّدتنا
غصونك . وإن شخنا فنك لنا السند والعضد ، منك العصي التي توكأ عليها
الجدود ، ومنك الخشب الذي يحنو علينا في اللحد .
أيتها الأم الحنون .

كم كنا نرشقك بالحجارة الطائشة فيتساقط بلوطك رطباً جنيّاً . يا كسقاء
القدامى ، ونقلهم الشهي في ليالي كانون المعريّة . ما اسمك مرتفعة عن
الاحقاد !

أيتها الشجرة المقدسة ، قدوسة أنت !
لأخينا العربي جمر الغضا ، ولنا فحم السنديان ، وأكرم بناره من
قار خالدة .
منك تعلمنا الحزم والعزم والثبات ، فصبرنا على الزوابع العابرة ، مقتدين بك
يا أمنا الصابرة .

يا بنت لبنان ، يا جامعة الفطرة والزمان ، كم هبط الوحي من أعالي
سمواتك على الرؤوس الحانية على الكتاب .

أتحصين الدفاتر التي حبرتها أيدي من كان جذعك المنخور لهم مسنداً !!
كم نظرت بألف عين إلى من سوّدوا الأوراق فبيّضوا وجه لبنان .
ألست قابلة الحرف يوم وضعته أمه؟ ألست مرضعة الكتاب التي لا تُعقّق .
مرحى يا سنديانة الضيعة الحبيبة . يا جارة الهيكل ما أنت جارة !!
أنت أم ، أنت أخت ، أنت عروس يتجدد كالنسر شبابها . كلك جميلة
يا حبيبتنا السمراء !

يقولون مدرسة تحت السنديانة ، وما أحلى هذا الاسم الخالد . لقد
أنصفك من سماك هكذا . ففي ظلك ترعرع العبقريون ، ومن عودك استمدت
يدم الصلابة .

ما أحسب كنانة عبد الملك بن مروان ، حين كتبها ورأى الحجاج أصلها
عوداً ، الا من خشبك . وكيف يكون ذلك الرجل غير سنديان ؟! أما كان
معلم صبية ...

إذا ضاق عنا صدر الهيكل ضمنتنا كما تضم الدجاجة فراخها .
وإذا أطلت امنا الأخرى القاسية ، تلذعنا أسواط أشعتها ، تحبأنا تحت
أذيالك .

ما أحلى القمر يغمزنا من بين ثناياك كالأنخ الأصفر .

يا جبارة بلا عجن ، يا فارساً جواده الجبل ، ومرجه الجلاميد . ما
أصبرك على الحر والقر !! ان من أبدعك لا يضيع أجر الصابرين .
يا طويلة العمر ، هاتي قصي علينا حديث جهابذتنا . لقد طال صمتك يا
حبيبة القلب ! أجوليت ما هذا السكوت ...

دمع جرى فقضى في الربع ما وجيا . اقسم بك لا بفيرك ان دمعني تفر
كلما تذكرتك . لعلني أبكي على الصبا المولي ، وإن كان المولي ما له صاحب ..

*

ان جذورك تقنات من رفاتنا ، فأني الأعماق تبلغ يا أم المعرفة ..
تعددين الأجيال كما نعد السنين . وورقك النخاس يثير همه الأبدى الخشوشنة ،
وجذعك المشقق القشور كوجوه مشايخنا المجددة . كلا كما صابر يضحك من
الظواهر الجوية . فكلمنا ازدادت احتياجاً ازداد استهزاء ، مستمداً من
رجائه حياة .

ان عند العواصف علم ما لا يعرفه النسيم . في صوتها الجمهوري رعب دونه
حلاوة صوت النسيم الرخيم . شاهدك « رنان » فقال لجدي : عندكم سندية
شاعرنا لامرئين . فهز كتفيه لأنه لم يكن يعدل بمار افرام وأبي العتاهية أحداً
من شعراء العالم .

لقد أدرك ذاك الجد شيئاً من عزك ، وترنم بشعر (الملافنة) حول
جذعك ، وعلم بني ضيعتك الشعر السرياني وما ينبغي لإقامة صلاة البيعة ،
والنثر العربي لعمل الدنيا وحوائجها .

أما شجعت صلاة يا سقي !! كم جيلاً طويت من رجال الهيكل المترفين ،
الذاكرين الله هازجين .

استظلوا بظلك أحياء ، وناموا تحت جناحك على رجاء القيامة .

ترى بماذا كنت تفكرين ، حين كانوا يتمتمون صلاتهم متمشين تحت ظلك ؛
قاديشات الوهو الخ . أي قدوس الله قدوس القوي ، قدوس الذي لا يموت .

هل كنت تحسبين انك قوية ففرتك عينك وحملت بالألوهية كبعض
الناس ! هل ظننت يوماً انك لا تشيخين ؟!

رأت أوائلنا شبابك الغض ، وأبصرت جدودنا اكنهالك المجتمع الأشد ،
ورأى الآباء ورأيت أنا طلائع شيخوختك ، وسرى أحفاد الأحفاد هرمك ،
والله يعلم من الذي يشهد احتضارك .

انه لبعيد ، أيتها الجبارة التي لا تريد أن تموت .

أهـ البرج المعلقة على جدرانها بجناح جبيرة الذكريات . ما أجل
شيخوختك وأروع وقارك !

هاتي الحديث . أعندك خبر هذا الهيكل الذي دكه الزلزال ؟ لم يبق

منه غير بضع حجار ضخمة ، فبقيتا كلاهما تتناظران صاحكين من خفة عقل الطبيعة .

أيرن في آذان جذوعك ما يرن في أذني من ذكريات الماضي ؟ ترى ماذا تقولين لها إذا خطرت على بالك ..

هل تذكرين فتوة أوائلنا ؟ أما كتركرت في الضحك حين رأيت بنيك يشيخون في التسعين وأنت يا أم التسعينات لم ينحن رأسك ولم تحدوديبي ...

كم تسارت وتناجى أبناء القرية وبناتها في ظلك ، فلم تفشي لهم سرّاً ! كم استعاذوا بظلك من ضوء القمر الفضّاح ، فكنت أبرّ من أمّ تستر على بنيتها ، وان آلمها سلوكهم !

أيتها الناسكة الأزلية ، يا بنت الغابة ، كيف عشت وحيدة كل هذا العمر ؟
يا طويلة العمر ، السلام عليك .

يا ناسكة الدهر ، أحسن الله جزاءك والأجر .

مدرسة تحت السندانية



مدرسة ضاهت الجامعات بمن خرجت . لم أقل بمن أخرجت لأنها قائمة في العراء ، ولا باب لها فيخرج منه . فحدّ الهبكل ، في ظل السندانية ، كنا نقعد نتعلم . وإذا ما انهل المطر هرولنا الى صحن الكنيسة ، نقيم الدروس فيها إذا خلا « بيت الجسد » من القرّبان . أما إذا كان القرّبان « مصموداً » ، ومكنا نتمنى ذلك ، فنكرّ الى بيوتنا راكضين ، كما تكرر إلى أوطانها البقر ... وتسقط عنا كلفة المشي على الدرب مكتفين . كان يأمرنا المعلم ألا نتلفّت يمينا وشمالاً ، فنسير وكأن كل واحد منا حصان عربية مكدون . علينا أن نمشي ونصيح كل من نراه على رمية حجر ، ليقال إننا « تلاميذ مدرسة » . أما تحية الظهر كانت : الحمد لله . وجوابها : دائماً لله . وكثيرون كانوا يحتفلون الردّ فيكون « دائماً ، فقط .. » ليستطيعوا ردّ سهامنا المتلاحقة . أما بوس يد الأب والأم والحال والعم وكل نسيب حق الدرجة الخامسة فكان من أقدم الواجبات ...

كانت مقاعدنا فروة شتاءً ، وعلى الأرض أو الحجارة صيفاً . وللمعلم كرسي الكنيسة الدهري ، وهو من خشب التوت المعمر . كان المعلم يجعل تلاميذه خطأ مستقيماً ، حسب مرتبتهم العلمية ، لكيا يصحح المتقدم خطأ المتأخر ، ولا يعود الى المعلم إلا كبش الكتيبة ... وقبل أن نصف المدرسة وطلابها ، علينا أن نعرفك بالمعلم ، سيدها الجبار

المسيطر . السحنة معروفة ، فلا نستطيع تحديد الشخصية وتصويرها لأننا لا نتكلم عن واحد بعينه . فالمعلم يكون غالباً من أصحاب السمات . لباسه غنبار قاتم اللون . يشد وسطه بجزء مختلف عن الغنبار لوناً ، ولكنه يظل أميل إلى السواد ، محافظة على الالبته والوقار . وإذا لم يكن المعلم ملتجئاً فهو لا يخلق ذقنه الا نادراً . عليه ان يظل معيماً ليدب الرعب في قلوب تلاميذه فيحول تجهمه دون شيطنتهم . وكان يزيد في ألبته تلك ، ذلك الطربوش المدور الاحمر - المغربي - الملفوفة عليه شملة سوداء من الحرير الخالص ، ذات خطوط متواضعة اللون . اما « شرابة » طربوشه فحريرية زرقاء ، خيطانها انعم من صوف الهررة ، وكثيراً ما كان يقترض منها اللبقة لدوائه النحاسية المشكوكة في زناره . تلك كانت سمة « المعلم » ولعل شرابة قبعة الجامعيين اليوم مأخوذة من هاتيك « الشرابة » ... ولا فرق بينها إلا ان شرابة هؤلاء من قدام ، وشرابة جامعة تحت السنديانة كانت من خلف .

كان بعض المعلمين يختنون تلك الشرابة ، ومنهم من كان يحور عليها فيستأصل دابرها ... ولا يبقى الا تلك الهناة التي تعلق بها ، فتنتصب فوق قلة رأسه كأنها اصبع يشير الى السماء موحداً المعلم ... الله اكبر .

يجلس على عرش غضبه ، ومن حوله قضبان رمتان ، اذا مات منها سيد قام سيد .. فالرمانة حد الكنيسة ، والسعيد منا من كان يكلفه المعلم قطع القضبان منها ، متى استهلك ما عنده . اما « الفلق » وهو شر ما خلق ، فلا يلجأ اليه إلا في الجنايات الكبرى . والحيانة العظمى تكون حين نضعك من المعلم اذا كان معوها ، وكثيراً ما يكون ذا عاهة . كنا نصطف خطأ مستقيماً حد حيط الكنيسة ، كما مر : في البمين المدل ، وفي اليسرى ورقة الألقباء ، أو الأيحد ، أو القدوس ، مكتوبة بخط يد المعلم الطاهرة ، مشكوكة بعود مفروض ، له مسند تشكيء الورقة عليه . اما حملة الكتب ، أي المتقدمون في الأخوة ، هؤلاء يقرأون بلا مدل ، لانهم « لقطوا » الحرف ، ويقرأون كرجاً .

يبدأ الدرس ، دائماً ، بالصلاة ، وان كنا خرجنا اليه من القدامس توأ .
ثم علينا ان نقرأ جميعاً بجملة ، ومن كان صوته جهورياً اكثر ، كان اشدنا
اجتهاداً . ما على المعلم إلا ان يراقب اقوالنا ليرى اذا كان فينا من لا يقرأ ،
بينما نحن نرميه بطرفنا مزوثرين . واذا ضحك احداً ، ولو في عبه ، جاءه
قضيبي الرمان يخط في بدنه الرخص اثلاما ...

ذاك كان اول واجبات معلنا ، فهو يعرف الكلمة الماثورة :- من ضحكك
بكناك ، ومن بكناك ضحكك فكثيراً ما كان يحدثنا بنعمة قضيبي العز ،
مرصعاً خطبته التربوية بقول ابن سيراخ - كما يزعم - : من أحب ابنه فليهيء
له القضيبان حزمًا حزمًا . واذا تجامر ولد وأقلت من برائته ساعة التأديب
أرسلنا جميعاً خلفه لنعود به اليه محمولاً على الاكتاف والاعناق ، كأنه أحد
زعماء هذا الزمان . وهذا ما كان يطلق عليه اسم « الزيتاح »

اما القصاص فكان يختلف باختلاف الجرائم ، فمن ضرب بالقضيبي او
الخففة - الطبشة - على بطن الراحة ، او على رؤوس الاطفال بمجموعة ...
الى الركوع على الحصى . وكما ان آخر الدواء الكي كذلك كان آخر القصاص
« الفلق » .

وهناك قصاص أمر ، وهو تزيين صدر المقصر بورقة مكتوب عليها
« حمار الصف » . واذا قصر احد ، عند الامتحان ، في قراءة كلمة ، أمر
المعلم من فوقه ان يضربه كفاً ، او يفرك اذنه الخ .

اما ما كان يتقاضاه المعلم - عدا المرتب الذي يتناوله من الوقف - فهو
(سمحة نفس) : بضعة أرغفة من الخبز ، وبضع بيضات ... الى آخر ما
هنالك ، مما تجود به عليه الأم الحنون ليرأف بابنها العزيز ويشمله بالنظر
السامي ، فكان كل الامهات كن يعرفن قول الشاعر :

ان المعلم والطبيب كليهما لا يخلصان النصح ما لم يكرما

وكانوا يعزمون عليه متى كان عند ذوي الطالب أكلة طيبة فيأكل هنيئاً
مريئاً ...

كثيراً ما كانت تلهينا « اوركسترا » العصافير الدورية حين تعزف ،
فيكشها المعلم إما مصفقاً وإما مطبباً ، ثم يعدو اذا لم تظر ، فنضحك حين
ينفجر ثغر غنباره ويبدو سرواله الازرق المفتوق ، فيظن ذلك استحساناً ،
ثم يتهالك على كرسيه بعد ان أدنى واجبه . وعند الفطور كان يهيب بنا :
يا الله ، « هوشة الترويقة » . فيعلو صياحنا ويشد ، فيقصر لنا الوقت بقدر
عياطنا ... وكذلك كان يفعل عند بعثة الغداء ، و « الهوشة الكبرى »
تكون عند اخلاء السبيل قرب الدغيشة .

بقي امر خطير لم اخبرك عنه ، إلا وهو الخروج لقضاء الحاجة ... كان علينا
أن نستأذن قائلين : دستور يا معلمي . فيتناول جلالتـه قبل اعلان الدستور -
صولجان الرمان ، ثم يقول : افتح يدك . ويضرب السائل اما قضيباً أو قضيبين
قائلاً : ان تعوقت « تأكلها » ... قهقها مرة جميعاً ، فطار الينا يبحاخي
غنباره المبهضين ، فعثر بهما ووقع ، فكركرنا في الضحك ، فانشق من الفيظ
وسقانا كأس قضيبه دورين .

وكان بعض الكسالى يطيلون الاقامة في ذلك الموضع ... عندما ينحون
« الدستور » فلكي يستعجلهم كان يبزق على حجر ، والموعـد قبل ان تحف تلك
البصقة ، والويل لمن لا يسبقها . أما الجبناء من التلاميذ فكانوا « يقضونها »
في ثيابهم ، ولا يجرؤون على طلب « الدستور » فيمسي شغل امهم الشاغل
اعداد الثياب وشراء الصابون .

يا ليتك رأيت التلميذ ماثلاً أمام المعلم ، فاتحاً يده ليسلم عليه القضيب سلام
الأحباب . التلميذ يقدمها ويؤخرها ، وجوارحه تنضح خوفاً وذعراً . والمعلم
يتهاى كيلا يخطيء الهدف . التلميذ يتوجع ويبكي سلفاً ، ماداً يده نصف مد ،
والمعلم يكثر ويصرخ : افتح يدك !

أما الرفاق فيتفرجون ، حتى إذا ما انتهت تلك المعركة عادت مياه المدرسة إلى مجاريها ، وقال المعلم بعد النصر المبين: العصا علمت الدب يرقص . ادرسوا يا اولادي .

هذا حديث عام ، اما حديث عبدك الحقيق فهو هذا :

ارسلت إلى مدرسة تحت السنديانة ابن خمس ، فكنت ذنب الصف طبعاً . قعدت أول يوم ولا شغل لي إلا كشّ الذبان ، وتأمل رفاقي ، وسؤال الله ان يفك أسري . وسرّ اليوم الثاني كالأول ، وكذلك راح الثالث ... رأني ابن عمي على تلك الحال فضحك ، أما أنا فاجهشت ، وقلت بانكسار : يا فارس ابن عمي . قل لامي ، مارون (بدّر) يا كل .

وبلغ الخبر الوالدة فصاحت : تقبر المدارس ... يا جرسنا . يه ، يه .

وصبر جدّي الخوري عليّ إماماً ، ولما رأني مصراً بعناد على البقاء حيث أنا ، أي ذنب الصف ، لم يرض بها حالة . أ يكون حفيده في هذا التأخر المخزي !! جرتب اولاده ولم يوفق إلى من يخلفه ، وها ان بوارق إخفاقه تلوح في جو الخيبة من جديد ، فما عساه يعمل ؟

— قم يا مارون احمل ورقتك والحقني

فقال المعلم : لا ، يا جدي الخوري ، اصبر علينا .

فاجاب جدّي ، وهو ممتعض : آخذه جمعة وارده . اتركني .
وقعد جدّي على المصطبة ، وقرفت أنا امامه ، فشرع يعلمني الالف باء ، فضحك والدي وقال لابي : الصبي راضع حليب بقر ... لا تنعب قلبك .
وقرست تلك الكلمة والدتي — لانها لم تكن التي يقال لها : لله درها — فاستعبرت . اما جدي فهزّ لوالدي العوجا — اسم عصاه الموسوية — وقال له : انتم ما تعلم احد منكم ، اترك الصبي يتعلم !!

وما أصبحنا وامسينا حتى كنت تعلمت : الألف والأيجد والقديوس .
فتهلل جدي للفتح الجليل ... فجاء بالمزامير وشرع يعلمني « الطوبى »
و « لماذا » . وبعد جمعة صرت في المزمور الثامن : « ايها الرب ربنا ما اعجب
اسمك في كل الارض . » فشكر جدي الله ، واخذ بيدي كما يأخذ الراعي
بأذن شاته ، وما بلغنا سنديانة الكنيسة حتى دفعني دفعاً فوقعت في حضن
المعلم ، فقال له جدي : افحصه . ولما رأي جدي ، عند الامتحان ، كما يعهد
قال للأولاد : وسعوا له .

فاجاب المعلم طنوس : لا توسيع يا جدتي ، محله فوق ...

وشاء الوالد ان يختبرني في احدى الأمسيات فقعد على عتبة « برطاش »
الباب ، واقعدني امامه ، وقال : اين صرت ؟ ففتحت مزاميري وقلت :
هنا ، في المزمور التاسع عشر . فقال : اقرأ . فقرأت : يا رب بقوتك .
قرأت « بقوتك » كأنها كلمتان ، فاستضحك الوالد وقال : قم عني . المزامير
ما فيه تكوك^(١) فخبجت ونمت تلك الليلة حزينا ، واطنني لم اتعش .

وانتهت القراءة العربية وجاء دور السريانية ، فكان التنافس بين الآباء .
كان جدي يعلمني السريانية في الليل ويعاونه عليّ والدي وعمّاي ، حتى
حسبتي « خروف مور » يعلف للمرافع ... وهكذا ظلت محافظاً على
الأولية الضارية ، وطابت نفس جدي .

وكنا نلحن ذات مساء احد ميامر مار افرام ، فقال جدي : ستكون
انا على « الخورس » ولا ينقصك إلا صوتي . غير ان ذلك الحلم لم يصح ...
ثم انتقلنا الى الفرنسية ، وكان المرحوم لا يعرفها ، فخاف عليّ ، ولكنه
اطمأن حين درى انها ليست في حساب الأوليّة . كنت أنا أكرها لاني
كنت اتعلمها ، وحدي ، دون اولاد القرية . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ،

(١) التّك هو التّاليك بلغتنا المحلية ، والتّاليك عشر بارات تركية .

فك تلك العقدة . وقع خلاف في الضيعة ، فأخذ أحدهم كتبنا خلسة ورمأها في
بشر الكنيسة ولم يدع منها غير كتيبي الافرنسية : القراما طيق وديالوغ حروفوش ،
فاخفيتهما أنا خلف المذبح الصغير ، واسترحت منها حيناً ...

وصرت الاختصاصي في خدمة القداس ، فكنت أزهو حين تعجب الناس
قراءتي « الرسائل » و « السنكار » و « الترتيل » القراميسات ، . ثم صرت
أنافس الكهنة على « القرآنية » حتى في صلاة الحاش - جمعة الآلام - وأخيراً
صرت أجاحش في كل ميدان ..

وهاجر المعلم طنوس ، فحلّ محله غيره ، ثم مات هذا فكان موته عيداً
كبيراً عندنا . وقتلوا عن آخر فمنا أتفقت كلمتهم على واحد ، لانهم كانوا
حزبين ، فكان ذلك عيداً أكبر .

وظللت الضيعة بلا معلم ، فقال جدي لوالدي : رح دبر مدرسة للصبي :
وأنقلت من مدرسة تحت السنديانة الى مدرسة حولها سنديانات ، ومنها الى
مدرسة في غابة من هذا الشجر المبارك - مار يوحنا مارون - ثم كانت
خاتمة المطاف في مدرسة الحكمة .

ما صعب عليّ شيء في مدرسة غير بري القلم ، ومع ذلك قلت في وصفه
حين نظمت الشعر : تعلم بطش الأسد في ضفة النهر .

هذه صورة من صور مدرسة تحت السنديانة ، التي يتحدثون عنها في لبنان
وغير لبنان ، حتى ان آنسة في باريس كتبت الى صديقي الاستاذ جبور
عبد النور تسأله أن أصفها لها ، لأنها تحتاج اليها في أطروحة الدكتوراه ، فما
فعلت الا الآن ، وإن كنت لم اتعدّ جهد المقلّ ولقطة العجلان .

أليس كلامنا في كتابنا هذا عن « رواد النهضة » ؟ وهل هؤلاء الرواد غير
تلاميذ مثل هذه المدرسة ؟ إذن لا بأس علينا ان نكلّمنا عن السنديانة ومدرستها
قبل أن نتكلم عن خريجيها ، وخريجي أمثالها ذوي الآثار الجليلة .

بين الكهف والدار

نسخ وطبع ، ترجمة وتأليف



في اعماق الديورة ، وجوار الجوامع بقي ، للعلم قبس ، كنار المحوس الدائمة .
اجل ، في ثنايا كهوف الجبل كانت تذكي تلك النار بالقلمين : العربي
والكرشوني ، فظل الكهف ، في زمن الرعب ، مستودعاً للمعرفة ، ومعجناً
لخبرة العلم ، فتحت وفاضت على حفافيه . ففي غرفة ذات ثلاثة أذرع
عرضاً ، في أربعة طولاً ، كان يجثي راهب يابس من الصوم ، او يقرفص ،
امامه مصباح من الزيت ، بلا زجاجة ، يرسم نوره المترجرج خيالات واشباحاً
كأنه الفانوس السحري . يحنو على كتابه ، حنو المرضعات على الفطيم ، يقرأ
بامعان ريثما تستريح انامله ويحول خدر رجله ، ثم يعود الى عمله بعدما يتبسط
جلده وتمحي الاثلام التي شقها فيه قش الحصر .

اما الدواة النحاسية ذات الأنبوب الطويل فهي امامه على « سكملة »
والمرملة حدها . يتكبيء قلم « الفزّار » على صدرها كما ينام الطفل على عنق
امه . إن له في احشاء الدواة اخوة يحلّون محله متى كلّ ، والسكين مشعوذة
دائماً لقط رأسه ، أو بري سواء . وعن يمين الناسخ ، كاهناً كان أو شدياقاً ،
لوحة مشبوحة بالخيوط شبعاً متناسقاً مستقيماً ، يصلب الناسخ عليها الورق
للتقيم له السطور .

ذاك كان عمل رجال الدين من كل ملّة ، وخصوصاً رهبان لبنان المتزويين
المنقطعين في اشدّاق الجبال وحناجرها . لا عمل للقاريء الكاتب منهم غير
التعليم ونسخ الكتب ، او ترميم ما رث منها ، كما قال جرير في وصف قبر
أم حذرة :

وكان منزلة لها يجلاجل وحي الزبور 'تجيد'ه الأحبار

او كقول ابن ابي ربيعة :

لئن دمنّ بخيف منى قفور كأنّ عراض مغناها الزبور

أجل ان الزبور كان اكبر حظاً من غيره عند النساخ . ثم كان اول ما
طبع ، وسبب ذلك تلك الشاعرية والصوفية التي كانت تستأثر بهوى نفوس
الناس يوم لم يكن للمادة هذا الطغيان ، ويوم كان الناس يؤمنون ، ويخشون
الخطيئة فيتشبهون بصاحب الزبور خاطئاً ، ويستغيثون بمزاميره قائلاً .
ان الله لتواب رحيم .

اما الأميون من هؤلاء النساك فكانوا للحراثة والحياكة والسكافة والنجارة
وكل ما يقتضيه اسلوب حياتهم . وهكذا حفظوا العلم من الضياع قبل ان
انبرت له المطبعة . فمن قلم الغزار ، الى المطبعة الخشبية ، فالحجرية ،
فالرصاصية الحديثة السريعة الخطى ، كل هذه المراكب الثقافية ازجأها ،
اولاً ، الدين ورجاله . فجلّ هؤلاء بل كلهم قد نشروا العلم إحياءً للدين ،
ولكن العلم كان عقوقاً ، فصحّ فيه القول : اتقى شرّ من احسنت اليه .

اما تاريخ المطبعة فقديم العهد عندنا . استهلّت اول مطبعة في المشرق سنة
١٦١٠ أهديتها رومة الى الرهبانية اللبنانية في دير قزحيا . وما دير قزحيا
غير ذلك الكهف الذي اسمع جبال لبنان اول شعر عربي فصيح ، بعد ما
كان يقال زجلاً . وما ذاك الشاعر اللبناني الاول ، غير الراهب جبريل ،
الذي صار ، فيما بعد ، المطران جرمانوس فرحات اول رواد الفصحى . ثم
أنشأت هذه الرهبانية مطبعة اخرى في دير طاميش .

وفي حلب الشهباء انشئت اول مطبعة عربية عام ١٦٩٨ ثم كانت مطبعة
الشوير سنة ١٧٣٢ ، ثم مطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٧٥٣ ، ثم مطبعة
بولاق عام ١٨٢١ .

وعمت المطبعة هذه الربوع وكان اكبرها وأعما فائدة مطبعة الاميركان
ومطبعة اليسوعيين ، والمطبعة الادبية لتحليل مركيس . فطبعنت كتب كثيرة
ساعدت على نمو النهضة واشتداد ساعدها . وانشأ الرواد المهاجرون
- الشدياق وغيره - المطابع العربية في الاسنانة وباريس وغيرها من عواصم
الدنيا، فانتشرت لغة الضاد وذاعت حيث حلت ركاب ابنائها .

وعرف الشرق الصحافة فكانت « حديقة الأخبار » اول جريدة أهلية
لا تشوب لغتها تلك الركاسة التي كانت تشوب لغة الجرائد الحكومية « الرسمية »
وولدت بعدها جريدة « مرآة الاحوال » لرزق الله حسون ، ثم جريدة
« الجوائب » لأحمد فارس التي استقام معها لسان العرب .

أما المدارس فأقدمها عين ورقة ، التي أنشئت في القرن الثامن عشر ،
وفيها نشأ كبار الرواد كالشدياق والبستاني والدحداح الخ . أما أوفرها فضلا
على هذه النهضة المباركة - وأن كان الفضل للمتقدم - فالكليتان اليسوعية
والاميركية . أنها منبع التجديد والتطعيم ، بعد اولئك المهاجرين الذين سبقوا
مولد هذه الكليات في الشرق .

وقد أدى نشوء مثل هذه المدارس الكبرى الى أنشاء جمعيات أدبية
كثيرة ، فتماضت عناصر عديدة كالتشرق والتغرب . فخلقت هذه النهضة
الميمونة فكان لنا أدب جديد . ولسنا نعدو الحق اذا قلنا ان كتب الأب
لويس شيخو اليسوعي تجلة ، والسرياني نبعة ، والعربي لسانا ، قد كان لها
أبيض يد على هذا التوجيه ، فهو واضح أول دفتر من روائع الاستاذ فؤاد
افرام البستاني وعلى أثره تمشي . وشيخو ، ايضاً ، هو واضح مجاني الأدب ،
أول مجموعة من المختارات الأدبية ، على النسق الغربي ، مع المحافظة على التبويب

العربي . وسأتي الكلام عن هذا الرجل وآثاره الجليلة النفيسة .

لقد كان التنافس الديني الاجني في لبنان من أهم بواعث هذه النهضة الحديثة ، وحسبك دليلاً عليها تلك الكلمة الماثورة عن قنديك : « رايح افتح مدرستين » . يعني أنه متى أنشأ مدرسة بروتستانتية ينشئ اليسوعيون مدرسة كاثوليكية ، كما أنشأوا البشير قبالة النشرة الاسبوعية ، والمطبعة الكاثوليكية بإزاء المطبعة الاميركية . كل هذا يجري والمسلمون جامدون ، ينظرون الى هذه المدارس الاجنبية بحذر ، والى هذا التجديد في التفكير والتعبير بتحفظ . ولكنهم لم يلبثوا أن جرّوا ، أخيراً ، في الميدان ، مقتدين بالغزالي حين بلّ يده بقائم سيف المنطق ، وأنبرى للمعتزلة .

ولا ننسى معرفة اللغات الاجنبية فهي النبع الأغزر الذي روى تربة النهضة فنمت فروعها ، ونضرت غصونها . عرف قدماء « الرواد » الطليانية التي خلقت النهضة الأدبية الفرنسية ، ولكنهم كانوا منصرفين عن الأدب الى ما هو ديني ، فعرّبوا ما يتصل بالدين دون غيره ، ثم ترجموا الى اللغات الاجنبية بعض الآثار العربية .

ان معرفة اللغات الاجنبية والتضلع من السريانية كان لها هذا الأثر الأبعد في تعبير هؤلاء ، فجاء ميمزاً من تعبير أصحاب اللغة الواحدة . كان هؤلاء كما قال النابغة في مدح الفساسنة : عصائب طير تهتدي بعصائب ، فما وقفوا عند حد ، بل تنافسوا في كل فن ومطلب ولم يتركوا باباً من ابواب العلم الا طرّقه . لقد فعلوا كما فعل مشايخنا الخوازنة في زمن الاقطاع ، فلأوا كسروان ديورة لمختلف الامم والنحل . كان اذا وقف شيخ منهم عقاراً على رهبان طائفة ، وقف شيخ آخر شطراً مما يملك على رهبان طائفة اخرى ، وهكذا صارت المقاطعة الكسروانية كعلية صهيون ، حين فاجأ البارقليط التلاميذ فيها ، فنطقوا بالسن عديدة ...

اما النسخ ، وقد كان مدرسة ثانية للناسخين ، فلم ينقطع ، اذ لا يزال

عندنا كتب لم تطبع ، كالسنكسار - سير القديسين - ففي نسخ هذا الكتاب كان يتبارى النساخ في اضافة عجائب ومعجزات الى قديسين محبوبهم . نخذ مثلاً ، مار روحانا - شفيح قريتنا - فهذا القديس لا يعرف بهذا الاسم في السنكسار العام ، ولكنه لم يعدم من كتب سنكساراً خاصاً ، فضمنه من العجائب ابعداً مدى ، ومن المعجزات أغربها . زعم الناسخ ان قديسنا المكرم أنقذ غلامين بين أسد كاد يفترسهما . وجاء المصور فيما بعد ، فرسم نهراً كبيراً بين الغلامين ، وصور الأسد مقعياً عبر النهر ، ينظر الى فريسته بعين حمرة ... فعل المصور ذلك لتستسيخ معدّ المؤمنين العجيبة ، ولكن تعليقه لها زاد في الطين بلة . أما كان في مكتبة القديس المعظم ، وهو صاحب القدرة ، أن يكتم فم الأسد ، مثلاً ، ولا يصدع خاطره في اجراء نهر لا بد ان يكون كنهر العاصي كيلا يقطعه ذاك الأسد . اذا كان في استطاعة أولياء الله ان يشفوا المريض بوضع اليد ، فأية حاجة الى الدمل الاصطناعي .. ثم شامت العاصفة ، بعد سنين ، فحطت الصورة من عل ، فصورت ثانية مستعيدة بساطتها .

هذه بعض آفات النسخ ، ولا نذس الأخطاء والتعريف والتصحيح . لقد انبرى اليوم للتصحيح والتمحيص علماء مختصون فاصلحوا ما افسدته يد النساخ ولكن النسخ ، في كل حال ، قد كان من عناصر النهضة الحاضرة ، شارك في انمائها مشاركة مثلى ، فحفظ آثاراً كثيرة من الضياع ، كما طبع الكثيرين من الرواد على غرار البلغاء الذين كانوا ينسخون كتبهم .

وقصارى القول ان الضعيف المقهور يلجأ إما الى بيت مهجور ، او الى كهف ، وهذا ما اصاب اللغة العربية في بدء نهضتنا . هربت من وجه طغيان التركية فأووها في الديورة ، فصح فيها مثل جريح أرمحا ...

ونحن في الشرق مطبوعون على التشبه وتوارث المهن ، ولهذا ترى ان العلم يكاد ينحصر في بيوت وأسر دون سواها . وفي كلمة قالها صرّوف عن منافسته للشميل : « وكان كل واحد منا يتشبه بابن بلده - اي الشدياق واليازجي ، - اصدق برهان على ما قلت . اما الآن فقد حان ان نعرفك بالرواد « المنقطعين ، واحداً فواحداً .

الرواد العماني
شعراء نساك ومتصوفون

بدايتنا

لقد احترت في تبويب هذا الكتاب. لم استطع فصل الشعراء عن الكتاب، لان كل من حمل قلماً قال شعراً .. فن يدريني ، بعدما قرأت قصيدة لفرح انطون ، قال انها «بيضة الديك» ، ان ليس لكتابنا الآخرين بيوض ديكة ، ولكنهم آثروا أن يكتبوها ، كما كنّ الحجاج أهل الشام ...

وإني لأخرج من هذا ، بعد هذا ، مصداقاً قول من زعم : إن الأندلسيين جميعاً ، نساءً ورجالاً ، قالوا الشعر ، ومؤيداً قول الآخر : ان الشعر أسبق من النثر في آداب الشعوب . وأخيراً خرجت من ظلمات هذه الحيرة فاحصيت كل « رائد » حيث وجدته أبعد أثراً ، وأخطر شأنًا ...

وإني انذرك ، منذ الآن ، ألا تنتظر مني ذاك النقد المرّ الصارم ، لان عيوب الاوائل منهم كثيرة .

واقراراً بفضل هؤلاء ازيد : ان الادباء كمنارة الشاطيء ، فهي تضيء ابداً ولا يقرّ جيرانها بفضلها الذي يعرفه القادم من بعيد ...

المطيران والنحوري



المطاران جرمانوس فوحات

هو أول رائد اعجبته خضرة الدمن ، واذا ما تحدثنا عن فجر النهضة الادبية فلسنا نعني البلاغة العربية ، فالعالم العربي لم يخلُ قط من الفصحاء ، بل ممن هم افصح وابلغ من اكثر هؤلاء الذين نسميهم الرواد العتاق . فعندها يتكلمون في الأدب عن أثر النصارى في نهضتنا الادبية ، فما يعنون ولا نعني نحن ، الا هذا العنصر الجديد الذي احده فيها نصارى الامس ، كما احده من قبل نصارى العصر العباسي ، وبخاصة السريان منهم . فأوضح آثار اولئك كان بما نقلوه الى اللغة العربية ، وها ان هؤلاء ينحون نحوم . فاول من ترجم كتابي هوميروس كان من اولئك ، وهو ثاوفيل بن توما الرهاوي الماروني رأس منجمي الخليفة المهدي ؛ وقد كتب عنه صديقي البحتة الاديب نور الدين بيهم .

فأولية جرمانوس فرحات ، اذن ، ليست في شعره ، فقد كان في زمنه شعراء مسلمون ابلغ منه قولاً ، واصح كلاماً ، ولكن كونه اول شاعر من مستعربي لبنان ، قال الشعر معرباً بعد ما كان زجلاً مرياني الوزن ، أحله هذا المحل . فالشعر ابتداءً في لبنان من حيث انتهى في الاندلس . نشأ في الاندلس شعراً رصيناً بليغاً ؛ ثم صار موشحات . وصارت الموشحات مهملات ؛ ثم اخذت تنحط رويداً رويداً حتى امست ازجالاً ، بل كلاماً بارداً .

ان لهذا الأسقف المولود في القرن السابع عشر ؛ فضل التأليف في النحو ؛ فهو اول نصراني ألف فيه ، بعدما اخذ هذا العلم عن الشيخ سليمان النحوي المسلم في حلب^(١) . وله ايضاً فضل اكبر واعم إذ صحح الترجمة العربية للزمير والانجيل ، وسائر كتب الموارد الكنائسية ، فعرفت الكنيسة فصاحة العرب . وحب المطران العربية حملة على تعريب الانجيل مسجوعاً ، وهذا التعريب محفوظ حتى الآن بمكتبة حلب المارونية

ولم يقف المطران عند حد التأليف في النحو بل تصدى ، قبل كل رجال النهضة الحاضرة ، الى وضع معجم صغير ، ولكنه صحيح ، سماه « الإعراب عن لسان الأعراب » .

الترجمة : ان دور النصارى في الادب العربي كان ينحصر في الترجمة ، قبل ان استقام لسانهم العربي . ففي النهضة العباسية كانوا تراجمة الخلفاء ، فنقلوا لهم كتب القوم ، وها ان التاريخ يعيد نفسه في فجر هذه النهضة . فها هو هذا المطران يؤلف في حلب « مجعاً علمياً » يعنى اعضاؤه بالترجمة ، ومن هنا جاء التجديد . فهم لم يتفوقوا بالكلام العربي الذي لا غبار عليه ، بل بما ترجموه من كتب وغيرها . كانت هذه الترجمة أولاً دينية ، ولما صدرت كتب الشدياق و« جوائبه » اصبحت ادبية وسياسية . ثم اضحت في « جنان »

(١) كتاب بحث الطالب الذي طبع مرات . علق عليه اولا المعلم بطرس البستاني ثم الشيخ سعيد الشرتوني ، فالمعلم عبدالله البستاني ، فالخوري نعمة الله بالحوس .

وه دائرة معارف ، المعلم بطرس البستاني ، تاريخية وقصصية وعلمية . ولما
انشأ صروف المقتطف صارت علمية صرفاً فكانت مجلته ، ولا تزال ، سجلاً
للاكتشافات الحديثة والمذاهب العلمية ، وهكذا مشيت الترجمة في مدارج
زمن النهضة الادبية ، حتى بلغت اليوم ما بلغت مع ادباء وقتنا الحاضر .

ان سير الامور قلما يختلف ، فلولا ان تترجم فلسفة اليونان الى العربية لم
يكن للعرب فلاسفة كالفارابي ، وابن سينا ، والفزالي ، وابن رشد ، الذين
استعان علماء المغرب بكتبهم على تفسير كتب ارسطو وتفهيم معانيها ^(١) .

ان هذا الاسقف كان المترجم والمصحح لما يترجم . شغفته اللغة العربية
وكل ما يتصل بها ، فغاطر بنفسه وأمّ الاندلس ، راكباً البحر ، يوم كان
المركب لا يزال لبنانياً ؛ ليمتّع نظره بآثار العرب الخالدة فيها ؛ ويقرأ في
مكتباتها ما لا تقع عينه عليه في الاقطار العربية .

كتبه : له ، عظم الله اجره ، مئة واربعة كتب ، بين مؤلف ومترجم
ومصحح ومختصر . بعضها ادبي ولغوي وشعري ؛ واكثرها ديني على هوى
ذلك الزمان . فهو واضح اول حبر في صرح النهضة في لبنان .

نعم قد سبقه مترجمون آخرون في القرون الوسطى ، ولكن تعبيرهم
كان ركيكاً جداً ، وهذا ما حمل احمد فارس الشدياق ، حين آلت اليه
زعامة النهضة ، على التهمك بلغة رجال الدين ، والتنادر عليهم في فارياقه . ولم
يحترم منهم احداً غير هذا الحبر فقط .

الشاعر : كان هذا العلامة يعرف اربع لغات على حقتها : العربية
والسريانية والطلبانية واللاتينية . فهو في تفكيره متأثر بما عرف ، وقد استغل
هذا في شعره حين قال :

(١) شيخو : الاداب العربية في القرن ١٩ جزء ١ ص ٧ .

احاول في عمري من الدهر راحة وهل تطلبن العقل والظرف من زنجي
 فاصبح دهري عاجزاً عن سعادتي كأني حرف الحلق والدهر إفرنجي
 وتضلّعه من العربية حمله على نظم (المثلثات الدرية) فقال قصيدة طويلة
 من طراز مثلثات قطرب ... وهاك هذين البيتين منها :

طوباك يا رامي السلام وقيت من رمي السلام
 احفظ يمينك والسلام من حر نار الغضب
 وجدّ يوم السبت وشدّ نعل السبت
 وكلّ حشيش السبت تقشفاً للنهب

اما اغراض شعره الاخرى ففي مدحه تعالى ، والسيد المسيح ، وامه ،
 والرسل ، والرهبانية ، وغير ذلك ، فكانت صوفي من طراز آخر
 حين يقول :

الله الله انت الفوز والوטר في العاشقين وانت الفوز والوטר
 هويتكم والهوى مني على صغر يا حبذا والله قد زانه الصغر
 الذكر صورتكم ، والقلب مركزه والحب دائرة شعاعها الفكر
 كان وجهك مغناطيس انفسنا فحيثما درت دارت نحوه الصور
 خسرت في عشقكم دمعي واسعدني ياربج قوم بكم بالربح قد خسروا
 أروم رؤيتكم ، والدمع بمنعني اذا تراحم عندي الدمع والنظر

اما في مريم ، حبيبة الموارنة التي لا تخلو قرية من قراهم من كنيسة على
 اسمها ، فيقول قصيدة غراء هذا مطلعها .

لو كان للافلاك نطق أو فم لترغبت بديحك يا مريم

ويقول في مكان آخر :

سموت يا بتولة في العذارى على كل الأنام 'على' وفقت
 خلقت درّة لا عيب فيها كأنك مثلاً شئت خلقت

وعندما انتدب رئيساً عاماً على الرهبان وصف اعباء الرئاسة في قصيدة قال فيها :

أرى أحداً بل طورسينا ويذبلأ أدق وأخفى بل أخف ثبيرها
ان أثر التقليد بادٍ في شعر الرائد الأول ، والا فما شأن ثبير ، بل ما
شأن طورسينا وأحد في جنب الجبل القاعد في احشائه هذا الشاعر ؟ والتقليد
ايضاً هو الذي حمل المطران على شن غارات عديدة على الأولين ، ففي
قصيدته (اللبنانية) وقد مرّت ابيات متقطعة منها ، يقول في الله :
ان تهجروني أجد في وصلكم طمعا كالشمس ترجى وجنح الليل معتكر
فهذا المعنى أخذه أبو تمام عن نخت ، وها هو « سيدنا » يأخذه عن
أخذه . ثم لا يتورع سيادته عن أن يقول مثل الصوفيين المتطرفين فيخاطب
الله بلهجتهم :

كن في حياً ، واني فيك أنت أنا كالشمس ليس لها في برجها كدر
أما توبخ الرهبان ووعظهم وارشادهم فشائع في ديوانه الضخم ، وهو لا
يحرم اليهود من التقريع فيقول :

دع اليهود فلا ينفك مكرم يبيدي لدينا دخان الكفر والكذب
ولا عجب في هذا فسب هؤلاء لا يزال قائماً عند الموارنة على المذابح منذ
خمس عشرة جيلاً ، وخصوصاً في سب الآلام .

وللشاعر هذان البيتان الطريضان ، وقد حاول فيها القول بالموجب :

قال الحبيب : رغبت ، قلت : عن السوى
وعشقت ، قلت : جمال وجهك في الورى
وسلوت ، قلت : رغيد عيشي والهنا
وهجرت ، قلت : لذيد غمضي والكرى
وله الى جانبها بيتان رائعان يصوّر فيها حرب « التجربة » :

إني بليت بأربع لم يخلقوا إلا لشدة بلوتي وعنائني
إبليس، والدنيا، ونفسي، والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي!!
أما ما لي على ديوانه من مأخذ فكثير. فالمطران يسكن ويحرك ويخفف
ويشدد، ويقصر ويمد على هواه، ويشبع ويختلس ولا يبالي. ولكن شارح
ديوانه، معلمنا الشيخ سعيد الشرتوني، مستعد دائماً لتبرئة ذمة الشاعر كما فعل
عند بيته هذا:

إن كنت تجهل مربعي فاعشوا إلى نار تشب بزفرة الصعداء
قال شيعي رحمه الله: وأثبت الواو في د أعشوا للوزن على حد قول
الشاعر:

وتضحك مني شيعه عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً
أما الأخطاء اللغوية والجوازاات فكثيرة لا تعد، وما إعجابنا به - في
شعره فقط - إلا كإعجابنا بالأطفال الحديثي العهد بالنطق. أما ميله القوي
إلى التسكين فأظن أنه جاءه من السريانية. وإذا ما غفرنا له كل هذه الهفوات
فما هذا بكثير منا، فهو أول شاعر من ملة قيلت لأجلها هذه الكلمة: أبت
العربية أن تقتصر. ولكن شاعرنا الأول نصرها، وجعلها سيدة في الكنيسة.
أجلسها عن يمين مذبح البخور فعملت محل السريانية التي أجهز عليها سيادته،
كما قلت في « صقر لبنان ».

الخوري نيقولاوس الصائع

عندما كنا طلاباً في المدارس ، وكلها إكليزيكية ، أو برأسها إكليزيكي ، كنا نقول : ديوان المطران ، وديوان الخوري . أما الخوري فهو نيقولاوس الصائع ، تلميذ المطران جرمانوس ، ومن قافلة رواد النهضة الأولى . فذاك المطران وهذا الخوري ، هما شئنا نهضتنا ومهلهلها . ولا بأس علينا إذا عرفنا القاريء بالرواد الذين قادم فرحات وهم : الفيلسوف التسولاوي ، وميخائيل حكيم ، وعبد الله زاخر ، أبو الحرف المطبوعي العربي ، وعبد الله قرألي ، ونعمة بن الخوري توما ، ومكرديج الكسيح ، وأصغرهم وآخرهم ، في مقياس الزمن ، الخوري نيقولاوس الصائع . وكل هؤلاء كهنة وشمامسة وأساقفة وبطاركة ، وهذا ما دفع استاذي خير الله خير الله إلى الإشادة بفضل الاكليروس الأدبي ، في كتابه « سوريا » .

ليس للخوري نيقولاوس الصائع ما لفرحات من آثار ، فأشهر ما ترك ديوانه . أصلح الشيخ إبراهيم اليازجي كثيراً من عيوبه ، حين وقف عليه ، ومع ذلك لا يزال لنا فيه مرتع خصب ، ولكننا لا نغنى بهذا ، فما قيل في « ديوان المطران » يصح أن يقال في « ديوان الخوري » ، وحسب التلميذ أن يكون مثل معلمه الذي قال في رثائه :

إمامي وفخري ، بل غنائي ومضني غنمت به غنماً تجل غنائمه
وان يكفر الاحسان من ليس شاكراً فأشبهه بالكفرات من هو كاتم
حلبت به وسع الاثاء معارفاً يلزمني جنح الدجى والأزمه

تغلب في ديوان الخوري قصائد المديح والثناء والتهاني والتواريخ ، فهو
أكثر تقليداً في أغراضه من معلمه المطران . نظم بديعية على طراز بديعية
المحوي ومن وزنها وقافيتها ، أما الموضوع فمتقارب . بديعية المحوي في مدح
النبي الكريم ، ^{صلى الله عليه وسلم} ، وبديعية الخوري في مدح السيد المسيح ، له المجد ،
وحوارييه ، سلام الله على اسمهم . ولعله نما في بديعته نحو استاذة حين ألف
بحث المطالب . هناك جعل الكثير من أمثلة كتابه آيات انجيلية مضارعاً في
ذلك ألفية ابن مالك ، وشارحها ابن عقيل . وهذا عارض المحوي جاعلاً
موضوعه مدح سيده ورسله .

اما ما أعجبني من مواضيع المطران والخوري فهو وضعهم النقاط على
الحروف ، وتأنيبهم وتوبيخهم الاكليريكيين ، علمانيين وقانونيين ، وهاك شيئاً
من قصيدة ، هي أولى قصائد ديوان الخوري ، قالها في بعض هؤلاء :

كثر العثار بعثرة الرؤساء وغوى الصغار بغرة الكبراء
لما رأيت الرأس وهو مهشم أيقنت منه تهشم الأعضاء
وإذا الطبيب تضاعفت أسقامه أنتى ينال أولو الضنا بشفاء

أما الروح الدينية فشائعة في ديوانه كما تشيع في ديوان فرحات ، ولا بدع
فكلامها راهب يترجى أن يكون له مكان يسند اليه رأسه في ملكوت الله ،
ولهذا نراه يعمل بقول القديس بولس : عظّ ووبّخ بكل سلطان ولا يستهن
بك أحد .

وللخوري في آخر ديوانه ، رسالة ، تأتق فيها . كتبها نثراً وشعراً مجيباً بها
الشماس مكرديج الكسيح احد أفراد هذه القافلة ، ونحنا في اسلوبها نحو

المتصنعين فملأها تشابيه واستعارات وكنائيات وأفكاراً تدل على معارف ذاك الزمان وثقافته فمن أمثلة الصنعة فيها قوله : وصار عقلي تابعاً لمعناها « كالأربع التوابع » ، والعقل غدا « مرتفعاً » نحو « عامل معنوي » ، حسنها « رفع المبتدأ » ، وليس عجيباً أن يرفع النجرد والابتداء . ثم يقول : ومع ذلك فالفكر أبدته « بالاشتغال » ، والجسم اذبته بالاشتغال . ولعل الخوري نهج في هذا نهج معلمه المطران الذي قال قبله :

خذ حبهم « يا ضمير الرفع » ملتزماً « فصلاً ووصلاً » فلا يخلو ولو هجروا
 كأنني « الفعل » والمحجوب « فاعله » سيان « متصل » فيـدـ « ومستتر »
 وفي آخر هذا الديوان احجيات كثيرة ، انقل لك واحدة منها . قال
 محاجياً في لفظة « رجبعام » :

يا راقداً في علمه نبته سنالك من السنة
 ماذا اسم ملكٍ مثله «سعة» تضاف الى «سنة»

فسعة بمعنى رجب ، وسنة بمعنى عام ، فتفهم ان كنت لبيباً ، وكفى
 الله الناس مؤونة الكلام ...

والخوري أشد ميلاً الى صناعة البديع من معلمه الذي كان يقول الشعر
 عفو الطبع وما هو قرن « التاريخ » الشعري بذراً في ديوان الخوري ،
 فنقرأ فيه تواريخ للموت والولادة ، والكنائس والدور ، والخانات والسبل
 « الينابيع » ثم يتعاضم شأن « التاريخ » في القرن التاسع عشر حتى يسمي
 معجزاً ومضحكاً في وقت معاً ، كما ستري . إنا نسأل هذين الرائدين الجزاء
 بالمد ، فقد غفرت لهما ، كالمجدلية ، خطاياهما الكثيرة ، لأنها احبا لغة
 الضاد كثيراً .

النايلسي والحرو والنحلاوي

قلنا انه كان في لبنان والأقطار العربية شعراء، قبل فرحات، وفي عهده
فاقطاعيو لبنان، وقد كانوا عرباً خلصاً، قالوا الشعر، كما قاله الخاضعون
لسلطتهم مديحاً فيهم، ولكنه كان من طراز شعر القافلة الأولى، وبعضه
ضعيف التركيب جداً.

أما أصح معاصري فرحات كلاماً، فكان القطب الصوفي الشيخ عبد الغني
النايلسي، وهما شيئاً من شعره الصوفي المتطرف الذي قاله في ذاته :

وعلمي ليس يدركه	سوى من لم يزل مثلي
وعلم الجفر من علمي	وموسى رشحة البلى
واني مهدد الأخبار	للقوم الأولى قبلي
واني لست مخلوقاً	ولا شرقي ولا أكلي
ولا اني انا الخلاق	ذو صنع وذو فعل
ولا من ابناء الله	اني، أو من الرسل
واني أنا أنا عيسى	ولا المهدي الى السبل
أنا بي حارت الأفهام	ما يدرون من أصلي
أنا الشامي، أنا الهندي،	أنا الرومي، أنا الصقلي
أنا المعروف في الدنيا	وفي الأخرى بندي الفضل

واني لست إنساناً ولا من ذلك النسل
وما عبد الغني اسمي وهذا مقتضى شكلي
فيامن رام في الدنيا يراني طالباً وصلي
تجرد وانتزح واخرج عن الأكوان بالعقل
وكن خمرأ بلا كأسٍ وكن شمساً بلا ظلٍ
وسد الباب عن غيري وعالج وافتتح قفلي

فردّ عليه معاصره الشيخ ابراهيم الحرّ ، الصوريّ ، فقال :

رويداً يا أخا الفضلِ مزجتَ الشهد بالخل
أذعتَ السرّ يا هذا شريتَ الجور بالعدل
فتحتَ القفلَ يا شامي فقدتَ العلم بالجهل
أيا عبد الغني مهلاً فليس القول كالفعل
لقد أكثرتَ من هذرٍ يضاهي صبرة الطفلِ
فما المشكاة يا رومي ! وما المصباح يا صقلي !
وما الزيتون يا هندي ! فقل يا قاتح القفل
ألا يا همدد الأخبار خبّر بالورى واجلِ
فكم من همدد أضحي كفرخ البوم يا خلتي

وكان للشيخ عبد الغني النابلسي تلاميذ أشهرهم السيد عبد الرحمن
النحلاوي ، وقد ردّد في مدحه ما قيل فيه :

لله درّة همام جبهذ وطشت أقدامه شرفاً هام السموات

وسياتي ذكر هذا التلميذ الظاهر وشعره في مولاه عبد الغني ، صاحب
المقام الأقدس السني ، حين نتكلم عن (التأريخ الشعري) وهو إحدى
الظواهر الفنية في جو هذه النهضة . كان التأريخ الشعري نجمة سديية قبل
الرواد فصيروه نجمة قطب تأتمّ به سفينتهم الأدبية .

وكما عني المطران فرحات المتصوف المسيحي بتحليل أمرار البيعة شعراً ،
ونثراً ، انصرف الشيخ النابلسي ، قدس الله سرته ، إلى تحليل رموز الصوفية ،
شعراً ونثراً . ولكثرة ما لعبد الفني من تأليف وتصانيف شعرية ونثرية قد
سمّاه المطران يوسف الدبس في تاريخه جهنم الجهابذة واستاذ الأساقفة .

ويضارع هذا الشيخ المطران في الرحلات . رحل المطران إلى رومة
وزار الاندلس ، وارتحل الشيخ إلى دار الخلافة ، وزار القدس ومصر والحجاز
ولبنان وكتب كتاباً في كل رحلة .

أحمد البربر

القرن الثامن عشر في الآداب المشرقية هو « قرن الساعنة » الذين حفظوا آثار العرب القليلة . فهم الذين أذاعوا الآداب المشرقية في أوروبا ، وصانوا كنوز الفلسفة في مكتبة الفاتيكان وغيرها . أما في الشرق فكان أدب هذا العصر أدب رسائل ديوانية ، كما ابتدأ الأدب العربي في جميع عصوره . كان كتاب الدواوين هؤلاء يقولون الشعر متملقين به أسياهم كالجزار وسواه . فمن هؤلاء الكتاب الأولين أبناء الصباغ ، وأبناء البحري ، والياس اده .

وقام الى جانب هؤلاء متمشرون كثيرون عنوا بالآداب العربية وغيرها من المشرقيات ، حتى أنشأوا جمعيات سموها الأسبوية ، فافضلوا على لغة الضاد بإذاعة الكثير من كتبنا مصححة .

ثم طلع في صباح القرن التاسع عشر الشهاب الثاقب محمد علي الكبير فشت النهضة قدماً بخطى ثابتة وسريعة. أنشأ مطبعة بولاق، ومدرستها، وجريدة الوقائع. وظل الانشاء في ذلك العهد ثروة عامية ممزوجة بالتركية تضحك من يقرأها، حتى جاء شيخنا الشدياق فصيح لغة الوقائع، وهذب عبارتها العربية. اما من يعنينا ان نقف عندهم هنيهة، فشاعران: احمد عبد اللطيف البربر، وابن الافرنجية

ولد الشيخ البربر سنة ١٧٤٧ ومات سنة ١٨١١، ولهذا الأديب مقامات طريفة، وبديعية نحا فيها كغيره نحو المحوي، وله أيضاً كتاب «الشرح الجلي على بيتي الموصلي» وهو شرح استوعب كثيراً من فنون الآداب والعلوم، وتناول تحليل الكثير من الرموز والأحوال الصوفية.

والبربر هذا شاعر بليغ إذا قناه بشعراء عصره والذين سبقوه. وقد قال فيه مخائيل البحري، احد رواد هذه القافلة، من قصيدة طويلة نشرتها مجلة المشرق:

احمد البربر من أنشا الأدب وعلوماً بين عجم وعرب
وحوى فخراً سما أسمى الرتب قدره، ثم السهاكين ارتقى
فرد البربر له التحية بأحسن منها، قائلاً:

كم بيان من معانيه بديع قد رفناه على نظم البديع
في مبان مثل أزهار الربيع ناظراً تسبك أو منتشقا
فطن من بعده «العاصي» بكى وباصوات النواعير شكا
ودجت حمص وكانت فلكا لهياه فمادت غسقا

لم يتديء تقارض الشعراء المدح والثناء بالبحري والبربر، بل ولد مع شعراء القافلة الاولى، وبلغ اقصى مداه مع الذين اتوا بعد هؤلاء حتى صار شغل الشعراء شاغل. ولم ينطفىء نور هذا الغرض من الشعر إلا في هذا

الوقت ، ولكنه امسى يقال في حفلات التكريم - وما اكثرها عندك - بدلاً من الرسائل .

أما شعر البربر فلم نقف إلا على نتف منه في مجلة المشرق ، ولكنها تدل على نخيلة شاعر أصيل قال رحمه الله يصف العنب الشامي :

دمشق حازت عنباً بضرب فيه المثل
كانه لآليء بضان فيها العسل

وقال في الشيب :

نذير شيب منذر بالذهاب فجدد التوبة قبل الحساب
واحذر سطى جارح باز هوى من هوله طار غراب الشباب

وقال في الليل :

ليلة كالغراب قص جناحاً ليس يرجو الكئيب فيه صباحا
خافها أعزل الساكين حتى صار ذا رعدة والقي السلاحا
وقال في الدينار ، وهو من باب حسن التعليل :

لما رأى الدينار ان مقره في ملكه مقدار طرفة عين
لاحت على خديه صفرة وجهه جزعاً وأصبح وهو ذو وجهين

وقال ، وهو من التلاعب باسماء ابواب النحو ، كما فعل المطران والخورى قبله ، فأجاد أكثر منها :

وعجبت من راياته المحر التي شربت مراراً من دم الأعداء
«رفعت» «فجرت» بخرجيش خلفها وتولعت «بالنصب للاغراء»

وقال ناصحاً حاضاً على الكرم :

ان رمت نيل المعالي فأكرم الأخيارا
فليس يكبر إلا من صفّر الدينارا

ابن افرنجية

شاعر متأثر بالقافلة الأولى . نقَّب عنه الأب شيخو فأحيا ذكره ، وقد ذكر لنا في « مشرقه » ان لهذا الشاعر كتاباً خطياً في لندره عنوانه : « المجموع المنتظم من فرائد الكلم » . في هذا الكتاب كثير من النوادر والنكت وبعض قصائد وأبيات من نظمه ، ونظم والده وبعض شعراء عصره . قال : على عادة ذلك الزمان ، بيتين في وصف مجموعته هذه :

مجموعنا هذا له رونقٌ كرونق اللؤلؤ في عقده
كادت مجاميع الورى دونه تنسى لديه من سنا مجده

أما الخطأ فقد كفانا الشاعر مؤونة الاشارة اليه حين قال في كتابه هذا :

كتبته مجتهداً وليس يخلو من غلط
فقل لمن يلومني من ذا الذي ما ساء قط

وقد بدأ هؤلاء الرواد يصنعون المعجزات الأدبية في شعرهم ، وما ان ابن افرنجية ينظم دائرتين في المديح . أما أقواله الطريفة فمنها أبيات قالها بلسان قهوة الحرة تهجو قهوة البن :

سمعت لسان الحال في قهوة الطلا
تقول هلموا واسمعوا نص اخباري
فباسمي تسمت قهوة البن في الملا
ولكنها لم تحك بالفضل أخاري
فمن كذبا قد سوّد الله وجهها
وعذبتها بعد الاهانة بالنار
ومن «معجزاته» الشعرية أيضاً هذان البيتان اللذان يقرآن طرداً فيكونان
مدحاً ، وإذا قرئنا عكساً استحالاً هجاءً ، قال :

عدلوا فما ظلمت بهم دولٌ سعدوا فما زلت بهم قدمٌ
بذلوا فما شعت لهم شيمٌ رشدوا فلا زالت لهم نعمٌ
أما عكسها فهذا هو :

قدم بهم زلت فما سعدوا دول بهم ظلمت فما عدلوا
نعم لهم زالت فلا رشدوا شيم لهم شعت فما بذلوا

وإذا قالوا في أبي تمام: انه كان في انتقاء شعر حماسه اشعر منه في ديوانه،
ليدلوا على سلامة ذوقه ، فمثل هذا القول يصح ، ايضاً ، في مجموعة ابن افرنجية
الحافلة بالطرائف وما نحن ننقل منها شيئاً . قال شاعر في وصف ليل :

وليلٍ بتّه رهن اكتئابٍ ألاقٍ فيه انواع العذاب
إذا شرب البعوض دمي وغنى قلبرغوث رقص في ثيابي

وقال آخر :

ثلاث باءات بلينا بها البق والبرغوث والبرغش
ثلاثة أوحش ما في الوري ولست أدري أيها أوحش

وقال غيره في صابغ لحيته :

قلّ للذي يطمع في صبغته برّدر ما قد فات من صبوته
هب انه أنكر ما لم يكن يكفيه ان يكذب في لحيته

سید علی اکبر

التاريخ الشمرى



يصح أن نسمي القرن التاسع عشر قرن التاريخ شعراً ، فكما اخترع الحريري معجزاته البهلوانية في نظم قصائد رقطاء وغير رقطاء ، كذلك كان لرواد النهضة معجزة التاريخ في الشعر ، فما هو هذا التاريخ إذن ؟

انه مجموعة كلمات منظومة يأتي رصيدها حروفها الأيجدية دليلاً على السنة التي يقصدها الناظم . وهكذا صار للحساب حساب في دفاتر شعرائنا .

أما الحروف « الأيجدية » ، لا الألفباء ، فحسابها معروف . سمّاها القدماء حساب « الجمل » ، ولكن ابن دريد يقول : وما أحسبه عربياً . أما الزمخشري فاعترف به في « أساس بلاغته » وقال : وأجل الحساب والكلام تعلم الجمل . فعروف كلمات « أيجد هوز حطي » يعبر بها في عرفهم عن الآحاد ، من الواحد حتى العشرة . ولفظتنا « كلمن سعنص » تعبر عن العقود ، من العشرين إلى التسعين وحروف « قرشت نخذ ضظغ » تعبر عن المئات فالألف .

أخذ السريان هذا الحساب عن العبرانيين ، وهم لا يزالون عليه حتى اليوم . ولعله أبو الرقم الروماني الذي لا يزال يستعمله الفرنجة في بعض الأماكن . ولهذا أزعج أن نواة « التاريخ الشعري » سريانية ، لا كما زعم المير حيدر في تاريخه : ابن السيد عبد الرحمن شاكر النحلاوي ، تلميذ الشيخ عبد الغني النابلسي ، هو الذي اخترع التاريخ على حساب الجمل ^(١) أما الذي يحملني على هذا الزعم فهو ان السريان لم يستعملوا قط في حسابهم غير الحروف ، ولا يزالون على هذا حتى اليوم . وقد لامهم المطران يوسف دريان مؤلف كتاب نحوهم وصرفهم لأنهم لم يستعملوا الرقم العربي الذي عدّه بدأ من أيادي العرب البيضاء على العلوم الرياضية . ونعى على قدمائنا تسميته بالرقم الهندي ، ونفى معرفته عن الهنود ^(٢) .

وإذا قيل : ولكن أيجدية السريان لا تفي بهذا الغرض ، لان أرقامها لا تتجاوز الاربعمئة ، فالجواب على ذلك عند القسّ نعمة الله الكفري أحد علماء النهضة في السريانية ، قال في غراماطيقه :

« لما كان السريان لا يستطيعون أن يعدّوا بهذه الحروف - الأيجدية - إلا الاربعمئة ، أوجد الأولون نوعاً يعدّون به المئات ، والالوف والربوات ، فيضعون علامة المئة نقطة من فوق الحرف العشرات - كمن سفص - وإذا أرادوا أن يبينوا الآلاف يضمون خطأ منعرفاً من تحت أحرف الآحاد . أما الربوات فيوضع لها خط مستقيم تحت الحرف » ^(٣) .

وهناك شيءٌ غير هذا سأذكره لك ، يجعلنا نشك بزعم المير حيدر في القصيدة التي قال انها أدهشت أهل عصر النحلاوي حتى قال بعضهم ان الجن

(١) تاريخ المير حيدر (مغيب) ص ٧٦٥ .

(٢) راجع حاشيته في كتاب الاتفاق ص ١٤٣ وعنوانها : في أصل وضع الأرقام العربية المعروفة .

(٣) مورد التحقيق في اصول الغراماطيق ، طبعة دير قزحبا سنة ١٨٧٣ ص ٢٠٢ و ٢٠٣

لقتنه ايها . والمشهور عند الجمهور ان روح الشيخ عبد الغني حلت عليه
فاستفاد بها ذلك (١) .

ورحت أبحث هنا وهناك في الكتب السريانية على غير جدوى ، واخيراً
استعنت ببطريركية السريان فأفادتني أن ابن العبري استعمل شكلاً من التأريخ
الشعري فذكر السنة بحروف الجمل في سياق الشعر ، وتفضلت علي بنص
البيتين . ثم رأيت ابن الشيب من شعراء القرن السادس للهجرة ينحو نحو ابن
العبري ، تقريباً ، فيقول في الخليفة المستنجد بالله ، وهو الثاني والثلاثون من
العباسيين ، دالاً على ذلك بلفظة « لب » ، فاستقامت له تورية لطيفة :

اصبحت « لب » بني العباس كلهم ان عُدَّت بحروف الجمل الخلفاء

وعلى هذا المنوال نسج شاعر آخر فقال في كهل مزواج :

من كان « آدم » ، جملًا في سنه هجرته « حواء » ، السنين من الدهى
أي ان ابن « ٥ » ، سنة ، وهي جمل آدم ، تهجره ابنة خمسة عشر ،
وهي جمل حواء .

وقرأت لصلاح الدين الصفدي ، وهو من شعراء القرن الثامن الهجري
بيتين في وصف قلم ممدوحه بدر الدين نقاع الم فيها بشيء من حساب الجمل
فقال :

لصفات بدر الدين فضل شائع تصبو له الأفكار والأسماع
انظر الى « القلم » الذي يحوي فقد صحّ الحساب بأنه « نقاع » (٢)

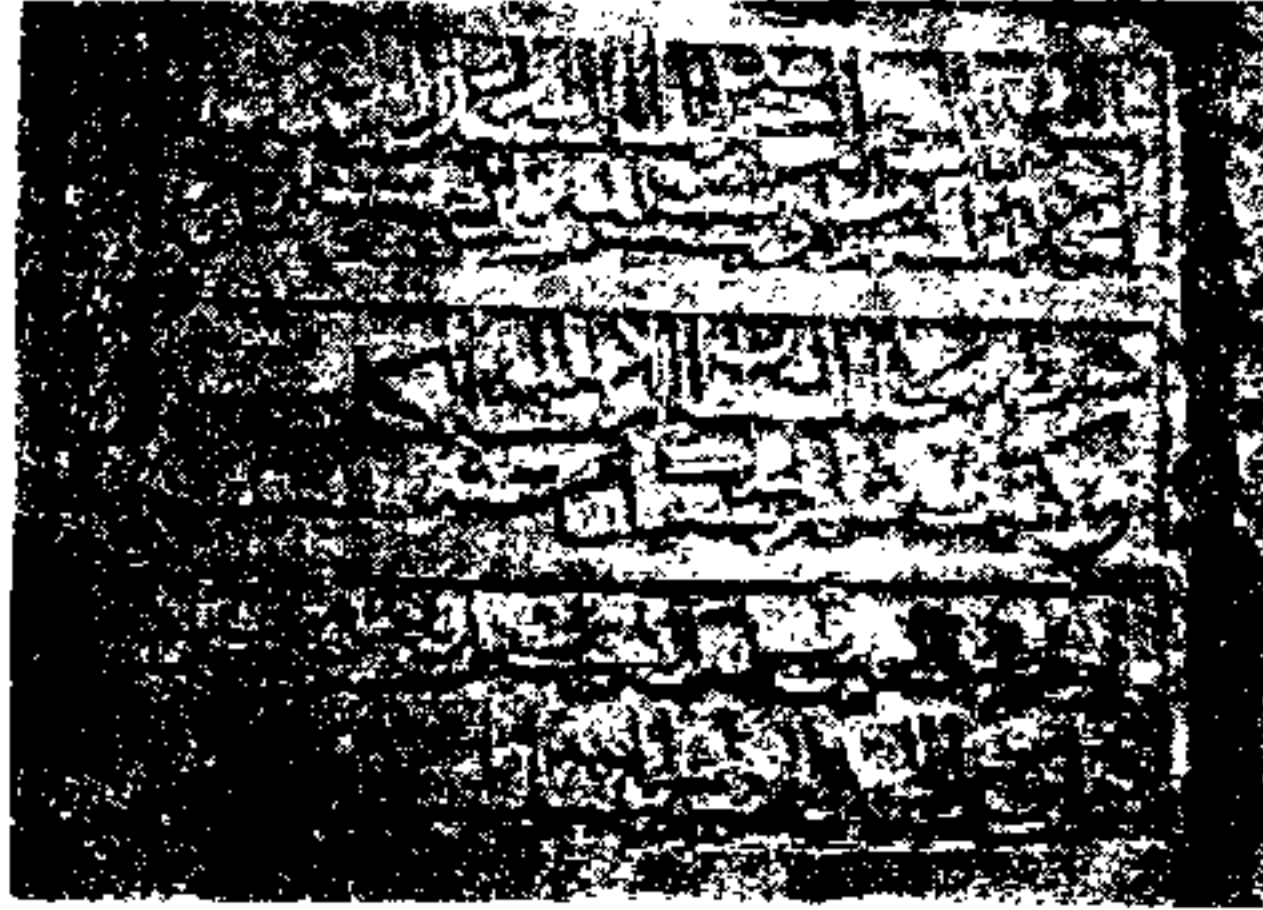
أي ان كلمتي القلم ونقاع تتفقان في حساب الجمل فنكون كل منهما ٢٠١
ثم رحت استقصي تاريخ حساب الجمل ، فاهتديت الى بلاطة عمرها ٣٨٦

(١) تاريخ المير حيدر ص ٧٦٠ ، طبعة مقبب .

(٢) اتعفى بهذا صديقي الأديب البعثة الأستاذ نور الدين بيهم امين المكتبة الوطنية .

سنة - العمر كله - لا تزال حتى الساعة في عاليه ، فوق عين ، تعرف بعين الضيعة ، وهي تقع جنوبي الجامعة الوطنية على مسافة مئتي متر ، كتبت عليها هذه الكلمات :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا السبيل المبارك العبد الفقير صالح ابن محمد الحلبي نسبه ثبت الله حسنته وجزاه جزاء الآخرة وبخلود دولة مولانا السلطان مراد حفظه الله كل حفظ . وكتب في شهر شعبان المبارك سنة (هـ ٩٨٥) أي سنة ١٩٨٥ بحساب الجمل .



ويأتي بعد ذلك ما يحسبه الناظم شعراً :

يا وارداً للعين قصدك لا يخيب اشرب وطهر جسمك من ماء صبيب
اشرب وقول الحمد للمولى على انعامه هنيئاً يا من قد شرب

حتى هنا لم نصل الى التاريخ الشعري بالصورة المعروفة اليوم ، أي بوضع كلمة «تاريخ» وما يشتق منها من لفظ ، قبل الالفاظ التي تنظم لتجمع فتدل على العام الذي يقصده الشاعر ، ولعل أقدم هذا الطراز هو قول احدهم في وفاة الشيخ تاج الدين ابن بخشي المتوفي عام ٨٧٢ هـ :

انتقل الشيخ وتاريخه قدسك الله بسر رفيع

ثم يليه قول ابن المبلط مؤرخاً جلوس السلطان سليم العثماني :
تولى ملك العصر ، وابن مليكه يعزّ وتأييد ونصر وسلطان
ودولة ملك قلت فيها مؤرخاً سليم تولى الملك بعد سليمان
وقال شاعر ، وهو لا شك امام عالم ، يؤرّخ ظهور التبغ في البلاد ،
وما أحسب هذا الشاعر إلا حديث العهد ، وإن كان الزمن الذي يؤرخه
يرجع الى سنة ٩٩٩ هـ ، وهذا هو تاريخه كما ورد في كتاب علم النبات للدكتور
بوست الاميركي :

سألوني عن « الدخان » وقالوا هل له في كتابنا إيماء
قلت ما فرط الكتاب بشيء ثم أرّخت يوم تأتي السماء

فهذا التاريخ مجتمعة فيه جميع شروط التاريخ الشعري الفنية ، فهو يشير
إلى الآية الكريمة : « يوم تأتي السماء بدخان » . فالتاريخ متى كانت رصف
الفاظ يجيء بشعاً ، ومن أصوله ان يحتوي إما على نكتة طريفة ، كتورية
جميلة ، او على آية كريمة ، او كلمة مأثورة توافق المقام ، كما فعل شاعر
حين أرّخ موت شاب قُتل خطأ ، فاختد شطر الفارض القائل : انا القليل
بلا إثم ولا جرح ، وعمل منه تاريخه .

ثم يجيء بعد هذا تاريخ آخر لمقتل السلطان عثمان بن احمد سنة ١٠٣١ هـ .

مات سلطان البرايا فهو في الأخرى سعيد
قال لي الهاتف أرّخ إن عثمان شهيد

فالتورية هنا هي في قوله : إن عثمان شهيد ، حيث يشير إلى ابن عفان .
وأذكر تاريخاً قبل قبل هذا ، جاء فيه :

بنى سلطاننا برقوق جسراً ومن تغدو الأنام له مطيعه
مجنّاز بالحقيقة أرّخوه وأمر بالسلوك على الشريعة

أي نهر الأردن الذي يسمى نهر الشريعة . وقال الشيخ عبد الرحمن التاجي مؤرخاً بناء قصر الأمير عمر الحرفوش سنة ١٠٧٧ هـ :

أبديتَ فيه للعيون بدائعاً في الحسن تصدر عن علاك وتورد
ولذلك ثغر السعد قال مؤرخاً قصر زهيّ للأمير مشيد

ويحبو التاريخ الشعري نحو التطور فدى الشيخ احمد ابن ناصر الدين الحنفي يؤرخ فتح الموره على يد علي باشا المعروف بابن الحكيم في بيتين كل منهما برمته تاريخ لذاك الفتح الذي كان عام ١١٢٧ :

قد صاغ بيتين في كل يؤرخه من بعد هذا كعقد زان ذا عطل
في كل حرب دهي الاسلام من نوب قد أيّد الله فيها احداً بعلي
لا زال بين الوري إعلاء عدلها ما دام عزهما في السهل والجبل

والآن يأتي دور الشيخ عبد الغني النابلسي الذي استعمل التواريخ في البديعيات^(١) وعنه أخذ تلميذه النحلاوي صاحب الاعجوبة التي أدمشت الناس .

وبعد هؤلاء أرّخ الحوري نيقولاوس الصائغ شعراً ، ثم كان احمد البربر أول المتقنين في التاريخ فجعل الحروف المهمة في البيت كله تاريخاً ، وكذلك الحروف المعجمة .

أما أول من أرّخ في السريانية على الطريقة الحديثة فهو المطران يوسف اسطفان القسطاوي المتوفي عام ١٨٢٢ نظم قصيدة سريانية بليغة في رثاء عمه البطرك يوسف اسطفان ، افتتحها واختتمها ببيت فيه تاريخ وفاته عام ١٧٩٣ ، وهو منشور في كتاب بصائر الزمان للأب بولس عبود .

والآن فلنعد إلى ذاك الذي أملاه الجتن على النحلاوي ، كما روى لنا المير

(١) دائرة المعارف للبيستاني ، ص ٢٤١٩ .

حيدر في تاريخه ، كما مرت ، فيها بيتان تضمن كل بيت منها اربعة تواريخ ،
وهذان هما :

أهديك مدحاً بليغاً . يا سني غداً	بحر الفتوحات . باهي الفضل والمنا
١١٣٦	١١٣٦

ألفاظه كنجوم ، فهي تشرق ما	بدا سنا بدرها . أرّخه عبد غني
١١٣٦	١١٣٦

ثم بنى على حروفها قصيدة يتضمن كل شطر منها تاريخاً . فأدهش الناس كما
قال المير .

ثم كان ناصيف اليازجي ، بعد النحلاوي ، أول من حاول محاولة «تاريخية»
أخرى جديدة ، فنظم تلبية لاقتراح مولاه الأمير بشير الشهابي تاريخاً لفتح
عكا في بيتين ضمنهما ثمانية وعشرين تاريخاً . وذلك يحصل من كل شطر منها
مئة جمع . ثم من مهمل كل بيت منها ومن معجمه . ومن مهمل كل شطر مع
معجم كل شطر فيها . وبالعكس صدرأ لصدر ، وعجزاً لعجز . وبالحلاف
سوى التاريخ الناطق لفظاً . أما البيتان فهذان هما :

في فتح عكا برد نار معاطب	دار الخليل ، وللديار به البكا
رأس الثمان وأربعين بطيه	مستان مع ألف ، فبارك ربكا
١٢٤٨	

ولما قرأ ابراهيم باشا البيتين أرسل يطلب قصيدة على نسق قصيدة
النحلاوي ، فنظم ناصيف القصيدة وجعل كل شطر منها تاريخاً ، وصدرها
ببيتين ضمن كل شطر منها تاريخين ، ووزع - مثل النحلاوي - حروف
البيت الأول على أوائل بيوت الغزل من القصيدة ، وحروف البيت الثاني على
أبيات المديح منها ، أما البيتان فهذان هما :

أنت الخليل وفي . الأطلال برد لظى أطلال عكا ورفض الرعب والحذر

١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨

كن بالغاً أوج سعدٍ . ما به ضرر أو غالباً لم يزل في . أول الظفر^(١)

١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨

ثم نظم ناصيف جلوس السلطان عبد العزيز بيتين كبيتني فتح عكا ، ضمنها
ثمانية وعشرين تاريخاً ، ونظم قصيدة أخرى في مدح هذا السلطان على نسق
القصيدة النحلاوية .

ولليازجي تواريخ مفردة عديدة جداً ، جمعت في آخر النبذة الثالثة من
ديوانه المسماة « ثالث القمرين » .

وحذا اليازجي الابن حذو والده فنظم تواريخ جمّة ، ولكنها ذات
طلق واحد ، وليست ذات طلاقات من نوع التومغات ، ولا من نوع
المترليوزات كما سترى ...

وظل اليازجي بعد النحلاوي سيد الموقف حتى نظم استاذنا المعلم عبده
البستاني عند غياب شمس القرن التاسع عشر ، قصيدة في مدح المطران الياس
الحويك عند انتخابه بطريركاً .

عنوان هذه القصيدة « فتاة الأناة » . وقد أتم السبعة جامع كتاب « لهجة
الحق » فقال : وهي آية في المعجزات ثم راح يعرفنا عليها بقوله : وهي
قصيدة « تاريخية » تتضمن ٦٢١٦ تاريخاً ، وذلك ان كل مصراع من مصارعها
يتضمن تاريخاً للسنة ١٨٩٩ . ثم ان مهمل كل مصراع إذا ضم اليه معجم أي
مصراع أردته ، كان تاريخاً للسنة الموما اليها . ومعجم كل مصراع اذا ضم
اليه مهمل أي مصراع أردته كان تاريخاً أيضاً للسنة نفسها ، فتكون التواريخ
بمقتضى ذلك ٦٢١٦ تاريخاً^(٢)

(١) النبذة الاولى من ديوان اليازجي ص ٢١ - ٢٢ المطبعة الشرقية ، الحدث .

(٢) لهجة الحق ص ٧٩ وهذا الكتاب مجموعة ضخمة لقصائد الشعراء الذين امتدحوا البطرك
رهناؤه .

اني أنقل لك ، أيها القاريء العزيز ، بعض أبيات منها لتجرب وتتسلى .
افترضها سؤالاً من تلك المسائل التي تطلب بعض الصحف حلّها ، وامتنحها في
ساعة فراغك ، فالعلم بالشيء خير من الجهل به . قال الشيخ عبدالله :

يا بطيربك الشرق رقتك النهى رتباً رقت لها السرور مع الله
مرحت بك الأقمار مسفرة ولم تؤثر سواك فسرّاً أو سرّاً بالسها
ومنها :

وسهرت للفقراء تمكل كرههم ترفوا وأمرك قد أبار الترها
وافخر ومر ، وابشر وسد ، واسلم ودم ، ترع المكارم فاحرسن متنبها
أما هذه القصيدة ، وهي معجزة حقاً ، فهي ثمانية وعشرون بيتاً ،
فاعمل حسابك ... ثم احمد الله على اننا لسنا في عصر المير حيدر لننسبها
لابليس وجنوده ..

وهكذا « كسر » المعلم عبدالله البستاني « ركورد » اليازجي والنحلاوي ،
واستولى على الأمد ولا يزال .

تذكرني هذه « الآيات » بذاك الأمير الذي وقف بخضرته بهلواني وفي يده
مئة ابرة ، فجعل يرميها من فمه جاعلاً رأس كل ابرة بخرم الأخرى ، ثم لم
يخطيء أبداً . فأجازه الأمير بمئة « كرباج » ، لأنه أضاع مهارته فيما لا فائدة
فيه ، وأعطاه مئة دينار جزاء تعبته ونصبه .

عفوك استاذنا ، تحت التراب . لقد كنت نافعا ، بل كنت الجسر الذي
عبر عليه رجال النهضة من ضفة الركافة والوطانة الى ضفة الفصحى وواحتها .
ولعل قارئ العزيز يقول في قلبه : ما دام هذا لا ينفع فما لك تحدثنا
عنه ؟

— ان الأمانة الأدبية تقضي بهذا لقد تعب الجماعة فلنذكركم بما عملوا .

وقد تكلمت عن هذا قبل التحدث عن شعراء الأمير ، لأنهم ومن جاؤوا بعدهم - حق الشدياق وهو عدو التقليد - قد نظموا جميعاً تواريخ . ولا يزال في عهدنا من ينظم منها حق الداعي .

أما التراسل بالشعر ^(١) أو التراسل به ، فهو أيضاً من ابتداع هؤلاء الرواد . فكان سوق الشعر قد بارت فأمسى لا ينطق عند أحد ، فأخذ شعراء هذا القرن يمدح بعضهم بعضاً فيما سمّوه رسائل ، فصيح فيهم قول المثل : حك لي أحك لك .

ولا يزال أدباء اليوم على هذا ، فيتقارضون الثناء على كتبهم وغير ذلك ، وقد صدق من قال : حب الثناء طبيعة الانسان . فالطفل إذا ما امتدحته تبدو على وجهه غبطة دونها الغبطة التي تمرره ساعة أكله قطعة حلوى يحبها . - صحتين . كلوا حتى تشبعوا ... ولأم الناقد الهبل ...

(١) وهذه أيضاً من الظواهر الجوية في القرن التاسع عشر .

نقولا الترك

كان الشاعر اللبناني الأول ، الأسقف جبرائيل بن القلاعي ، زجّالاً فنظم حوادث بلاده زجلاً ، منذ خمسمائة سنة . ثم استحال ذلك الزجل شعراً فصيحاً ، بمقدار ، لما تزلّع اللبناني من لغته . وكما كان الزجال الاول أسقفاً كذلك كان الشاعر الاول أسقفاً أيضاً .

كانت قيّارة المطران جرمانوس فرحات تملأ حنايا كهوف لبنان وتلافيق أوديته ترانيم وتهاليل روحية . يرتفع الضباب بخوراً قدسياً نحو الأعالي ، فترتفع معه روح الشاعر الزاهد ، ويحدو نهر قدisha موكب عرسه الخالد ، فيتبعه قلب الشاعر المتصوّف منفصلاً عن عاطفته المكبوتة بذلك الغزل الإلهي ... وكأن حرب ميوله لم تضع أوزارها حتى هتف معترفاً لنا : إني بليت بأربع لم يخلقوا .

وبعد قرن كان للبنان أمير كالمملك . له بلاط ، وله شعراء يكدون قرائنهم ليعملوا شعراً يليق بسعاده ، فيهزّونه هزاً الكهانة عوالي المران ، فتتدفق الصلوات في قصر بتدين العامر .

يدور كثيراً على الألسنة في هذه الأيام ذكر البشير الشهابي أمير لبنان ،
وتذكر كثيراً بيت الدين حيث عاش الأمير العظيم سيداً تراوده الدول العظمى ،
فيستقبل في « قاعة العمود » السفراء والوزراء والقواد والقصّاد ، وعليه أبهة
الملوك ، وسباه الاسود .

كثيراً ما يذكرون هذا الأسد اللبناني وعرينه الذي جدد « عهد » الشيخ
بشاره خليل الخوري شبابه ، وأعاد صاحبه إليه زفاتاً لا عليه ولا له ، بعد
مئة عام ونيف . يذكر الناس أعمال الأمير ونضاله وبطشه وينسون أنه كان
له شعراء ، وأنه كان سيف دولة زمانه ، لم يجتمع بباب ملك من ملوك عصره
أكثر مما التفت حوله من أمراء الكلام في زمانهم ، ولكل دولة رجال .

أجل لكل دولة رجال فلا يطلب من نقولا الترك وبطرس كرامه وناصيف
اليازجي وأمين الجندي ، أكثر مما عملوا في خدمة الأدب ، فهم والشدياق
والبستاني والاحدب والأسير و خليل الخوري وغيرهم قد بنوا هذه النهضة
فأعلوها ، والقلم يقرع القلم ...

أنعمش الأمير العظيم الأدب العربي في عهده ، مدفوعاً إلى ذلك من نفسه
المطبوعة على الأريحية ، ومن طموحه إلى تأييد امارته وإذاعة صيتها ، رأى
أن لا بد لها من شعراء يؤيدونها باقلامهم ، ويدعون لها بالسنتهم الفصيحة ،
كما كانت الحال في جميع الادوار العربية ، فقرّتهم وأدثام من السرير فسمعنا
شاعره الأول نقولا الترك يمدح مولاه بعد وقعة غلب فيها :

سواك إلى المعالي ليس يدعى	لأن الله أحسن فيك بدعا
أمير ، لا أمير سواه يرجى ،	ملك كامل خلقاً وطبعاً
بشير خول الدنيا بشراً	به طاب الوري قلباً وسمعا
شهاب أوعب الآفاق نوراً	على نور الثريا فاق سطعا
إذا أعدده يوماً بفرد	من الأفراد كنت تراه «سبعاً»

ندى كفيه جلّ عن انكفاف .. كأن الله أجرى فيه نبعا
فما الفضل بن يحيى ، وابن طيِّر .. وهل معنى «لمن» بعدُ يدعى
بصارم عدله كم بتّ جورا .. وأحبا لانتصار الحق شرعا

ولست أشك في أن سعادة الأمير استطاب هذا الثناء ، واجزل لقائله
العطاء ، فحركت مواهبه قريحة شاعره ، فراح يفتش عن نول آخر
ينسج عليه فتناول إلى الحريري وبديع الزمان . فدبّج لسيدة المقامات ،
كما نظم القصائد ، ليريه ان في دولته على صغرها ، من يعنو لهم النثر كما
يطيعهم الشعر . كتب مقامات ، بلغة ضعيفة طبعاً ، ولكن فيها جداً
وهزلاً مما من طبع هذا الشاعر . وأشهر مقاماته تلك التي سماها
« المقامة الديرية » كتبها طالباً من الأمير داراً يسكنها فراح يتخيل فيها ما
استطاع حتى أخرجها بصورة حلم ابصره في نومه ، ثم عبّره في ختام تلك
المقامة الطويلة كما يأتي :

« فقال المعبر : أما حدوث الزلزال ، وقلقلة الجبال ، وهياج الرياح ،
وقيام الصياح ، فهذا دليل على ما بك من البلوى ، لعدم المأوى ، وأما
ارتفاعك في اللجج ، وقطع الآمال من الفرج ، فهذا دليل نهاية النحوس ،
واضمحلال البؤوس . ورؤياك لذاك النير الساطع ، ذي السيف القاطع ،
هو عبارة عن ذلك الملاذ المنعم ، والأمير المعظم ، بشير السلام ، وشهاب
الأنام . أما ما أصبت منه من المنزلة ، والهبة الجليلة المكلمة ، فدليل على
حلوك في قطره الزاهر ، وحماه الباهر ، المعروف بدير القمر ، المنظوم في
سلك عدله الذي اشتهر . وستعطى ارضاً خلية ، تبني لك بها داراً سنية ،
وبالقرب من قبة الشربين ، فهذا ما رأيته باليقين . »

بهذه البراعة الفنية تملك الشاعر داراً كما اشتهى . وكان كلما ازداد من
مولاه قرباً ازداد براعة طلب ، فاسمع كيف يطلب منه «شروالاً» وعمامة :

وشروالٍ شكا عتقا وأمسى
وكم قد قال لي : باللهِ قلني ،
أما تدري بأني صرتَ هَرَمًا
فدعني حيث قلَّ النفعُ مني
ولا تعباً بتقليبي ، لأنني
ولم يبرح يحدِّد كلَّ يومٍ
فقلت له عتقتَ اليومَ مني
فاشعرتِ العمامةَ في مقالي
فراحت ، وهي تشدو فوق رأسي
يراودني العتاقَ فما عتقتُ
وهبني كنتُ عبداً وانطلقتُ
وزاد عليّ أني قد 'فتقتُ'
وعاد من الحال ولو رتقتُ
بعمر أبيك نوحٍ قد لحقتُ
عليّ النعمي حتى قد قلقتُ
لأنني في سواك قد اعتقلتُ
له فاستحسننتُ ما قد نطقتُ
ليَ البشري إذنَ وانا عتقتُ

أشهد اني أستلشق من «شروال» الشاعر العتيق رائحة الأمير وشعراء بلاطه،
فعبقرية شاعره الظريف فوّاحة العبير ، فهو ، وإن لم يؤزّر بالبلاغة ، طافح
بالشخصية الظريفة والخيال الفاره .

كان الترك عند أميره شاعراً ونبياً وكاتباً . يقول له ما يرضيه ، ويحيب
على كل اقتراح يصدر عن سعادته ، ومن يطلع على ديوان نقولا - هكذا
قالوا حين «لزّموه» - يقرأ صفحة من تاريخ لبنان الحديث . وقيل لي ،
أيضاً ، إنه طبع ولكني لم أحصل على نسخة رغم السعي وراء ذلك .

رووا لنا من شعر الترك ، يوم كنا على مقاعد المدرسة ، هذا المطلع :

عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ عجبٌ
قطط سودٌ ولها ذنبٌ
تصطاد الفارَ من الأوكار وتطيحُ الحيطَ فتقلبُ

وكان لنا رفيق في مدرسة الحكمة اسمه سعيد جوهر من (وادي الست)،
فكان معلمنا الخوري يوسف أبي صعب يمازحه بهذا البيت الذي ينسب إلى
شاعرنا :

ورحتَ تحطّ بوادي الستِ وغرّكَ فيها الشيطانُ

ونقل الأب شيخو مناظرة شعرية أجراها الشاعر بين الزيت واللحم ،
ولعلها اقتراح من سعادة المير. وهاك بعض ما نظمه الشاعر في هذا الموضوع :

أنا الزيت الذي كلُّ اليه	بمحتاجٍ ووصفي قد تنوع
فنوري شاهدٌ في عظم فضلي	إذا ما في ظلام الليل لعل
وكم قومت من عرجٍ وكم قد	أقمت مكسحاً وشفيت أكتع
ومني يكسب الصابون عرفاً	ذكياً يشبه المسك المضوع
به قد تغسل الأدران طراً	عن الأبدان والملبوس أجمع
وكم لي من مزيات تنامت	فضاق بوصفها الشرح المومع
فقال اللحم مفتخراً عليه	لقد وسعت ذا الشدق الخلع
فشحمني في الليالي عنك يُغني	ضياء، بل وفي الاشرار يسطم
فريحك كيفما حاولت تردّي	ودهنك أينما قد جلّ بقمع
وأكلك منكراً عند الأطباء	لأنك محرق للكبد تلذع
وإما أن تسل عني فإني	أنا اللحم الذي قدري ترفع
ومطبوخي لذيذ مستطاب	شهياً الأكل طاب لكل مبلع
كذلك طعم أمراقى شفاء	يقوي كل من منه تجرع
وأفواع البقول وكلّ نبت	نما للأكل لي خدم وتبع
ولي دم يذكّي كل نوع	من الطبخ الذي لي فيه إصبع
لذاك ترى ملوك الأرض طراً	لهم في مأكلي ولع ومطعم
فعد يا زيت عما أنت فيه	ومن هذا الجدال الشاذّ دع دع

وإلى جانب هذا الهزل نرى للشاعر شعراً آخر رصيناً يقوله حسب مقتضى
الحال . فن يدخل قاعة الأمير في بتدين يرى قصيدة ، من عمل شاعره هذا ،
مكتوبة على عالي جدرانها وهذه هي :

الله انت الواحد الأحد والسرمد الأزلي الدائم الصمد
حي ، عزيز ، قدير ، خالق ، وله من في السماء ومن في أرضنا سجدوا

لا ربّ غيرك يا مولاي نعبده أنت الغنى والمنى والفوز أجمعه ما لي سواك غياث لي أطلبه خولّتي يا إلهي خير تسمية قاللّب والروح كلّ فيك مشهده بل كلّ جارحة مني وعاطفة إذ أنت علة نفسي، أنت مركزها يا ربّي امننّ بعفو منك لي كرماً وجد بخاتمة يا ربّ يعقبها ولا سواك إلهاً فيه نعتقد والعون والغوث والانجاء والمدد كلا وغيرك ما لي في الورى سند فكنت فيك بشيراً، أنت لي عضد والفكر والقلب والأحشاء والكبد تصبو اليك ، وثار الحب تتقد يا ربّ كلّ ومنه الخلق قد وجدوا واغفر جنايات عبد منك يرتعد ذاك النعيم السعيد الثابت الوطد

ولكن الخاتمة ، والأسفاه ، لم تكن في هذه الدنيا كما انتهى الشاعر لأميده ، أما الآخرة فلا أعلم عنها شيئاً .

هذا هو شاعر الأمير الأول ، وهو الذي قرّب المعلم بطرس كرامه من مولاه ، فصار شاعره الأكبر ، ونجيّه ، ومستشاره .

كان نقولا طيب القلب دمث الاخلاق ، مرحاً طروباً حسن البديهة ، وهو ابرز معاصريه شخصية في شعره وان قاله ركيكاً كما ترى ، فنّان طمع الى التجديد والادب الرفيع فأدرك ما قدر عليه ، ولهذا ترى الطرافة عنده في كل مقام ومقال ، وإذا قصر في ميدان الفصاحة والبلاغة فهو معذور لأنه ابن نفسه .

بطرس كرامه

- إمارتي من سيفي هذا .

هكذا أجاب الأمير بشير حين سأله شريف باشا : إمارتك من أين ؟ لم
يبال بطل و المزة ، بما أحدثته كلمته في نفس محدثه ساعتئذ ، إلا أنه ، بلا
شك ، قد تذكرها في إحدى ليلات مالطة ، كما تذكر نابليون ، في جزيرة
القديسة هيلانة ، كلمات كهذه .

صدق الأمير . أعلى الممالك ما يُبنى على الأسل ، كما قال المتنبي منذ ألف
وأكثر . الأسد يمنع عرينه الصغير ، أما سطوته فتحمي الغاب كله ، ولهذا
تطاول الأمير بشير إلى جميع آلات الملك فاصطنعها كلها . فللبلاط بروتوكول ،
وللديوان مراسيم ، يحري عليها في مخاطبة العظماء ، ومناصب البلاد ،
وللدخول على المير والجلوس بحضرته أصول تطبّق وتراعى . أما السيطرة وما
يتبعها من بطش فسماعته أمها وأبوها . كانت مهابته كما قال المتنبي في
سيف الدولة :

قد تاب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة ما لا تصنع البهيم
كان الأمير عادلاً بلا رحمة ، يدعم عرشه يهدم كل ما يراه خطراً عليه ،
سيان عنده في ذلك ما بناه الله ، وما بناه الانسان . إذا رجع من « شر »
وقعد يستجم في بلاطه ، بسين ندمائه وشعرائه ، فكأنه يضرب أخماساً
لاسداس ، لأن « الشر » دائماً خلف الباب . يجلس سعادته في قاعة العمود ،
جائياً ، فتخاله القمة المائلة . ينسبه ثناء شعرائه تعب أمسه ومشاكل السياسة
وعقدها حيناً ، فيستأنس بالشعر والأدب .

كان سعادته يضرب في الشعر بسهم ككل أمير عربي فيساجل
شعرائه ، ويأمر بالقول ارتجالاً ، تخميساً وتشطيراً . وقد رُويت له هذه
الآبيات التي قالها متغزلاً في عاصمة دولته بيت الدين :

سرى النسيم ببيت الدين ذكرني حديث من كنت أهوى ، والزمان صبا
وقد شفى كبدي الحرى بروضتها جري «الصفاء» الذي في سفحها انسكبا
أهدى لنا نسيمات من نوافحه مبسامها ، فأزال الهم والكربا
وبث عرف الاقاصي والحزام ضحى وادي الجنان فأحيا قلبي الوصبا

وفي سنة ١٨١٣ دخل نقولا الترك على أميره مقدماً له المعلم بطرس كرامه ،
فعهد إليه الأمير في تعليم ولده أمين . وبعد فترة قصيرة أضحى هذا المعلم
شاعر الأمير ، ثم صار كاتباً للشؤون الخارجية ، لاجادته التركية ، ثم أمسى
مدبر الأمير وقهرمانه يستسفره إلى الأبواب العالية في الخطوب الجسام ،
ويدير مالية الامارة ، وهكذا أمست شؤون لبنان كلها في يده . وظل
كذلك حتى مغيب الشهاب عن سماء لبنان ، فرافقه شاعره ومدبره إلى منفاه ،
ثم كان له في الاستانة العلية شأن آخر .

لست ممن تعنيهم السياسة إلا بمقدار ما تلبس الادب ، فهني هنا أن
أصف عهداً نتغنى به لنفهمه على حقه .

كان هم بطرس كرامه أن يظل خاطر المير صافياً ، والأمير ككل البشر
يرضيه الثناء ويمجبه ، فلم يدع شاعره فرصة تمر حتى قال فيها شعراً . فكل
ما يحدث في البلاط ، وفي ساحة الوغى ، وفي الصيد ، وفي ساعات الفراغ ،
يستحق عنده التسجيل شعراً ، فكان قريحة شاعرنا عداد « تكسي » لا يقف
أبدأ . لو سئل سعادة المير سعة رفاته ، أو تجشأ بعد عشاء ثقيل شمته شاعره
بالمنظوم ، فيطيب خاطر العاطر .

وكان « سعادته » ماهراً في حلب القرائح يستفزها بطرق شتى ، كاهداء
« باقة زهر » إلى الشاعر فيقول هذا في وصفها :

وباقة زهر من مليك 'منحتها' معطرة الأرواح مثل ثنائيه
فأبيضها يحكي جميع خصاله ، وأصفرها يحكي نضار عطائه
وأزرقها عين تشاهد فضله ، وأحمرها يحكي دما أعدائه

فيختمها ويعارضها نقولا الترك ، فتعجب أبياته الأمير ، فيأمر بتخميس
التخميس ، وتشطير المعارضة ، فتخمس وتشطّر في حضرته ، وتقال كلها
إعجابه العالي ، ويعلم الله ماذا كانت جوائز صاحب السعادة ، وعطاياه في
تلك الساعة .

أما قصائد بطرس الضخمة فكانت تقال في « الخلع السنية » التي تُهدى
إلى الأمير كل عام ، وفي الحوادث الجسام ، وكل ذلك منشور في ديوانه
المطبوع عام ١٨٩٨ أما المناسبات الصغرى فحدث عنها ولا حرج :

يرخي الأمير عذاره فيقول شاعره « مؤرخاً » هذا الحادث الجلل !! :

إن البشير الذي جاد الزمان به قد ساد بالمجد والافضال واللفظ
بدا عذار البها في سجد طلعتنه يحكي أساطير بسم الله والطرف
لله عظمه قدراً وجمله أرتخ وزينه في حلية الشرف

وَهْدَى الْأَمِيرَ أَشْجَارَ سُرُورٍ فَلَا يَحْجُمُ شَاعِرُهُ عَنِ الْقَوْلِ فِيهَا :

جاء سرورٌ فقلت هذا سرورٌ يتجلى في روض مجد البشير
حيث يروي النسيم عنه ، فحيوا يا وجوه الأنام فضل الأمير

وبصطاد الأمير فينخصّ شاعره بحجل من صيد يمينه المباركة ، فيقول في
هذا شعراً. ويزيده الأمير فيزيد الشاعر وهكذا دواليك ؛ وإذا انقطع الوارد
الملمح الموحى ورأى الشاعر مولاه جالساً في الأيوان في إحدى الدكتين المختصتين
يحنّاه العالي ، أنشد الشاعر :

وأيوان مجدٍ برجٍ ليثٍ تخاله به كوكب الاقبال أصبح مشرقاً
حوى منزلي عزّي كأنها به «الساكنين» والبدر البشير به ارتقى

وإذا سكّت الطائر هتجه مولاه ، فأهدى إليه (بز كهرياء) ،
فألمحه المناظرة بين (البز والماسورة والأركبة) فيبذل في هذا الموضوع
جهده ، ويقول :

وربّ خرّساءً اضحت بعد لكتها « فصحاء » ذات فم للضدّ ردّاد
قامت ببسمها الزاهي تردّ على نرجيلة ، فجرت في قولها البادي :
تندّدين باني غير ناطقة ألم تري منطقي يروي ظمأ الصادي ؟
ألم تري ما جداً نعم الأمير ومن أحيا وجود الندى في كفه النادي
فهو الذي قد غدا لي منجداً وبه ثغري يغرد في مدحٍ وانشاد

وإذا غفل الأمير عن اعطية التبغ نطق الشاعر ملتصقاً « الدخان » من
سعادته ، كما طلب نقولا من قبل داراً ومبرواً وعمامة .

وإذا كان الشاعر قال حين رمت مولاه بناء سبيل ، فما تراه يفعل ومولاه
قد جرّ نبع الصفا وبنى الجسور ؟ إن رمت الأمير باباً أو فتح طاقة تنفتح
للشاعر ابواب وابواب على دنيا عبقر . . . ما أحلاها حياة لا أدري كيف

اصفها ، فليته كان لها شعراء اكبر ... فقصيدة « نهر الصفا » طويلة كالقناة
التي هندسها للمير « أخوت » شانيه ، ولكن الركاكة تشينها .

وللصيد وراثاء البزاة مقام جليل في ديوان كرامه ، وكذلك وصف الهوك
وكل مكان تشرفه ركاب صاحب السعادة . دخل الأمير بستاناً فقال الشاعر :

وبستان زها شرفاً وحسناً بزورة كوكب الشرق المنير
حللناه فماس النصن قدّاً ومال مقبلاً ذيل الأمير

وتظهر الحصة في جسم « سعادته » الشريف فيقول شاعره في ذلك :

قالوا حبييك محسوب فقلت لهم لا . لا . فقولكم زور ويهتان
وإنما جسمه مذ راق جوهره الصافي ، فنقطه بالحسن مرجان

ويصف الشاعر ما في قصر بتدين فتخالك في الحمراء اذ يقول :

ما ترى البركة العذبية اضحت تلثني كصفحة الهندواني
جاد فوارها العجيب برقص حين غنت سباعها كالقيان

ومدة سعادته يمينه المباركة فوق البركة ، فتهرع الأسماك اليه ، وتأكل من
يده فئات الخبز ، فيصرخ شاعره :

حيّا الاله بشيرنا المولى الذي ضاءت بنور شهابه الافلاك
خضع السماك للثم راحت التي نهضت للثم بنانها الاسماك

ويتعمّم « سعادته » بعامة سوداء فيقول شاعره فيها :

بعامة سودا اتى ربّ السنّا ففدا الرجا يسمو على النبراس
ما ذاك حياً بالسواد وإنما يروى ثناء عن بني العباس

ويبني سعادته إيواناً في مقام النبي يونس فيستلهم الشاعر الكتاب ويقول :

فانزل بحضرة يونس تأمن به حوت الطريق

واقراً بفاتحة الشا حداً لمنشه العريق
أعني الشهابي البشير بكل سعدٍ للصديق
وانشق نسيات الصبا من عرف لبنان العريق

وقضت الأيام فابتعدوا عن بتدين ثم عادوا اليها فقال الشاعر في ذلك
قصيدة طويلة :

هذي الديار ديار بيت الدين فتمني يا مهجتي وعبوتي
داراً بها طاف الصفاء فاصبحت تهذي السرور لقلب كل حزين
ان دنت عيني برؤية غيرها طهرتها بصيب ماء جفوني
ولا نستغرب هذا بعد ما قرأنا للأمير نفسه شعراً في بتدين كما مر .
ويوفد الأمير شاعره إلى مصر فيسمع هناك غناء قينة تدعى أم رضوان ،
فيقول فيها :

رعى الله مصرأ ان مصرأ لجنة يزول بها عن صاحب الهم هـ
ففي جنة الفردوس رضوان وحده وفي مصر رضوان كذاك وأمث
ودارك الفلك ، لما اتت الساعة ، فاذا الأمير في مالطه . وجاءت نوبة
المدير السياسية فلعب دوره على المسرح العالمي . أرسله مولاه - الأمير بشير
المالطي - إلى اسطنبول رائداً فكتب اليه كلمته المشهورة : « الصندوق في
اسطنبول والمفتاح في لندره ... » ثم رغبه في الإقامة بها ، فجاءها الأمير
وقضى فيها أعواماً سكنت في خلالها طبل المديح ومزماره . تحول عنه
شاعره إلى مدح وزراء الدولة العلية وصدورها العظام ، ولم نسمع صوته إلا
حين أرنخ ضريح مولاه المتوفي سنة ١٨٥٠ :

قد كان صاحب هذا اللحد ذا شرفٍ مدى الزمان رفيع غير منخفضٍ
لاقى المنية في التسعين متشعاً برء الفضائل في عمدٍ وفي عرضٍ
أولت ولايته لبنان طيب ثنا وشاد بالعدل فيه كل منتفضٍ

فهو الأمير الشهابي البشير ومن غير العلى لم يكن يرتاد عن غرض
قضى فأظلمت الدنيا مؤرخة أما البشير شهاب في الجنان يضي
ثم يقول قصيدة طويلة في رثاء الشهاب الذي انطفأ . ويمضي الشاعر لسبيله
لاحقاً بمولاه بعد عام ، فقال شاعر الأمير الثالث - الشيخ ناصيف اليازجي -
مؤرخاً وفاته :

مضى من كان اذكى من إياس بحكمته وأفصح من زهير
فقل يا ابن الكرامة قرّ عيناً لبطرس أرّخوه ختام خير

ضوضاء الخالية

كان المعلم بطرس كرامه أرصن وأصحّ قولاً من شاعر الأمير الاول ،
ولكن هناك كان ، كما قلنا ، أخف روحاً . كان القدماء يرون الهزل والضعف
في الادب قلة هيبة ، ولهذا طارت لكرامة شهرة لم يكن لنقولا شيء منها .
وقف نقولا نفسه على اميره فما تطاول الى ولاية الاقطار حتى يذيع له صيت ،
أما بطرس فما احجم عن ذلك ، فاحدثت قصيدته ، الخالية ، ضوضاء ادبية
اشتركت فيها الاقطار العربية .

قال بطرس هذه القصيدة جاعلاً قافيتها لفظة واحدة ، ولكنها مختلفة
المعاني ، قال في مطلعها :

أمن خدّها الوردي أفتنك الخال فصح من الاجفان مدمعك الخال
ثم ختمها بقوله :

لكل جاح إن تمادى شكيمة ولكن جاح الدهر ليس له خال
ولما وقف عليها الشيخ عبد القادر الموصلي ، وكان يومئذ ببغداد ،
عارضها ممتدحاً واليها المشير داود باشا فقال :

الى الروم أصبو كلما أومض الخال فسح من الاجفان مدمعك الخال
وعن مدح داود وطيب ثنائيه فلا القد يثنيني ولا الخد والخال
مشير الى العليا أشار فطاطات وأصبح مندكاً لهيته الخال
ثم ختمها بهذا البيت :

فذي معجزاتي ما أرى ابن كرامةٍ يُعارضها حتى يصاحبه الخال^(١)

وخمسة « خالية » بطرس الشيخ ابراهيم ابن الشيخ صادق آل يحيى العاملي الشامي . وخمسة أيضاً الشيخ موسى المشهدي . ثم عارض وامتدح هذه القصيدة كثيرون من شعراء ذلك العصر ، ولكن الشيخ صالح التميمي شاعر المشير داود باشا قال قصيدة يعتذر فيها إلى مولاه حين كلفه معارضتها ، فابتدأها مخاطباً اياه قائلاً :

عهداك تعفو عن مسيءٍ تعتذرا الا فاعفنا عن ردة شعرٍ تنصرا
وهل من مسيحيٍ فصيحٍ نعدّه إذا أبنع الشعر الفصيح وأثرا
عداه « شبيب » والاحص ، وفاته من الرند والقيصوم ما كان أزهر
دع الشانيء المخصوص بالنصر إننا نراه بميدات البلاغة أبترا
به سمةٌ من صبغة الخال سوتت بصيرته ، لو كان ممن تبصرا

ثم يقول بعد استعلاف المشير بصفاته المثلّي :

لجَمٌ غفير صير الخال قبلةً مكان القوافي بالقوافي مكرّرا
لعمرك ما « كعب » وما الشيخ قبله « زهير » بتكرار الروي تصدرا
وما الشعرُ الا ما أبانت صدوره قوافيه ، لا ما السمع فيه تحيرا

فرد عليه بطرس بقصيدة طويلة هذا مطلعها :

لكل امريء شأن تبارك من برا وخصّ بما قد شاء كلا من الوزى

(١) أي الكفن .

ولو شاء كان الناس امة واحداً ولم تلق يوماً بينهم قط منكر
اذا انحط قدر الدر من أجل بائع فذلك جهل بالآلي بلا امترا
كما عاب شعري قائل في قريضه : الا فاعفنا عن رد شعر تنصرا

وبلغت هذه الضوضاء مسامع الادباء في كل قطر فكتب الشيخ رشيد
الدرداح في كتابه « قطرة طوامير » انتقاداً مطوّلاً حمل فيه على التميمي ،
واخيراً كان الكلام الفصل في هذه المعركة الادبية للسيد عبد الجليل البصري
الذي قال :

حكمت وحكمي الحق ناء عن المرا بأن التميمي الأديب تمثرا
بذم قواف في بديع جناسها وذلك نوع في البديع تقورا
ثم يمدح شعراء نصارى رداً على قول صالح :

فمن كابن عباد يحاري مهلهل وكان مسيحياً تقدم يشكرا
وكالاخطل المعروف شاعر تغلب يسوق به القيس في الدير كالغرا
ثم يتطرق إلى مدح بطرس فيقول :

فصيح رقى أوج البلاغة يافعا فاشعاره حلى بها ربع قيصرا
أتى منه نظم هد حجة صالح وان كان في المنظوم قدماً تصدرا
وقد كان لي من صالح خير صعبة وعند اتباع الحق ما زلت اجدرا
لكل تراني قد قضيت بحقه واسأل بارينا الهدى والتبصرا

وهكذا القت الحرب اوزارها ، واستراحت اقلام شعراء ذلك الزمان .

ولما كان بطرس « كاخية » الامير ورئيس ديوانه وجب علينا أن نعرف
القارىء بنثره الديواني ، ولكن ذلك النثر كان يكتب للبشر على مقدار
افهامهم ، ولهذا لا يعول إلا على بعض رسائل اخوانية ، وقد رأيت في
هذه ينحو نحو الحوري الصائغ . كتب كرامة يحيب الشاعر الناثر فتح الله
الطرابلسي :

« غير انه لما عاندي الدهر » برؤياكم « ، واعدني وانتحل مذهب عرقوب بلقياكم . ونأت » افعال المقاربة « وتدانت » المعمولات « بعوامل » عطف ، الفؤاد عليه « عطف نسق » المحتاج اليه ... الى أن يقول : وانتصب القلب « بالاختصاص لحبكم » ، « وجزم » ان لا يحله غيركم . »

ولم يقف عند هذا الحد بل شاء ان يزيد على من تقدموه « فهرع الى علم العروض فقال : وتحقق ان » طويل « البعاد » بالسريع متقارب « ، ولم يزل يعري » الاسباب مقتضياً متدارك « . ثم لا يكفي الصرف شره فيقول : ففؤادي » الاجوف بلفيف « حبكم » مقرون « ، وشوقي » المتضاعف مزيد غير مهموز « ولا » معلول « النخ .

ولم يهمل هؤلاء الرواد المرشحات ، فلبطرس والأنسي وغيرهما موشحات وتشطيرات وتخمينات وبديعيات . وهكذا خاضوا غبار كل ما سبقهم اليه « إمامهم » صفى الدين الحلبي ، ومن جاء بعده من شعراء عصر الانحطاط .

ولست اقول لك « كما قال القدماء : وحسبك من القلادة ما احاط بالعنق ، فليس في شعر هؤلاء لآلئ » ، وان كانوا جهابذة زمانهم « وشعراء عصرهم .

ناصر اليازجي

الشيخ ناصر اليازجي هو شاعر الأمير الثالث أو آخر شاعر « رسمي » دخل القصر . ولا شك أنه أفيضهم قريحة وأنعام ديباجة . دخل قصر بتدين حين اعتدل ميزان نهار العهد البشري ، فقرّب الأمير شاعره الجديد وأدناه ، جعله كاتب سره ، فاتبع في رسائله بروتوكول القصر ، يكتب إلى هذا « محبنا » فيظل كما هو... وإلى ذلك « أخونا » فيصير شيخاً مكرماً يتوارث بنوه هذا اللقب . وعلى هذا النسق جرت عادة الوزراء في الكتابة إلى سعادة المير . تفتتح مراسيمهم بهذه التوطئة : « افتخار الأمراء الكرام ، مرجع الكبراء الفخام ، ولدنا الأمير بشير الشهابي الجزيل الإكرام ، دام مجده على الدوام ، بحفظ الملك العلام » .

لا بد من أن يكون القارئ ، بعد ما قرأ ما قرأ عن شعراء الأمير ، مشتاقاً إلى التعرف بسعادته خلقاً وخلقاً . اسمه يلا الأذهان حتى الساعة ، وهناك قصص تروى وحكايات تسرد ، فتقوم إلى جانبها صور عنها فيها الخطأ وفيها الصواب . أما معاصروه فرسموه في التاريخ هكذا : أشقر اللون ،

معتدل القامة ، طويل اللحية كثها ، نحيف ، أفتى الأنف طويله ، أشهل العينين . أما صفاته فقالوا فيها : جامع كامل الصفات الحميدة ، عاقل ، عادل ، حلیم ، شجاع ، فاضل ، كريم ، دین ، عفيف ، مهذب ، شهم ، يقظ ، فطن ، صادق ، رزين ، حزم ، جبار ، فتاك ، صبور ، غيور .

أما سلسلة نسبه فيرونها صاحب كتاب أعيان لبنان - كما ذكر صفاته - مبتدئاً بإبراهيم وسام بن نوح فأدم حتى يمر المؤرخ ، أو صائغ تلك السلسلة ، بموسى وعيسى ومحمد « عليهم السلام » . . .

أما « أيام » الأمير فكانت شغل شعرائه الشاغل ، تفتق وقعائه قرائعهم ، وتخلق لهم كل يوم موضوعاً جديداً . « وسعاده » يسمع ما يقال مفتبطاً ، يهب بما نهب ، وكذلك هي الحرب خيرها لناس وشرها لآخرين . ينظر الشعراء إلى حصه الأسد فيسيل لعابهم ، وأميرهم جواد لا يبخل عليهم بما يسند قلوبهم ، فلا يقنون على الريق .

وهذا شاعره وكاتب ديوانه ناصيف اليازجي يرفع عقيرته ضاماً صوته إلى صوت شاعر الأمير الكبير وغيره ، فتألف من هؤلاء جميعاً « جوقة » لم يشهد مثلها بلاط من بلاطات ملوك ذلك العصر ، لأن أكثر من وظف لهم الأمير كانوا يقولون الشعر ، بل خير أهل زمانه علماً وأدباً ، فيكونون كتاباً في الديوان أيام العمل ، زمناً حين وصافين لأيامه المشهورة في أعدائه .

على هذا كان أبو سعدى البعید الأماني ، الذهبي الاحلام ، ولكن النعم تأبى التأييد ، والكلمة الماثورة : توقع زوالاً إذا قيل تم ، صادقة دائماً ، فهؤلاء مناظرو الأمير وخصومه ينصبون للأسد الشباك في الخفاء ، ويحفرون دائماً في أساس ولايته ليدكسوها ، فما مرت سنوات حتى قام قائمهم . كانت الثورات تلي الثورات « والعاميات » تلي العاميات ، فمن عامية انطلياس إلى عامية لحفد ، حيث لا تزال « قلاعي لحفد » التي حن إليها ابن القلاعي في شعره ، تخبر عن بطش الأمير ، وأشهر تلك القلع لا يزال يطلق عليه اسم « شير العمية » . .

أسكت الأمير تلك العاميات فسكنت الارض بين يديه زمناً إلى ان كان آخر العهد ، ولكل أجل كتاب ، فظهرت عامية حرش بيروت ، وقتلتها عامية سن الفيل ، فاوفد الأمير من استخلصهم لينصحوا الثوار فاذا بهم يشددونهم ، فوجته اليهم من بعض بني عمه فعادوا اليه حاملين خمسة شروط ، فلم يقبل بها الامير وأرسل اليهم البطرك يوحنا الحاج الذي كان يومئذ كاهناً يدرس الفقه في بيت الدين على فقيه عصره الشيخ بشاره الخوري ، فوجدهم قد أجمعوا أمرهم في انطلياس ، فلم يصفوا له وأظهروا العصيان . .

وازدادت الثورة اشتعلاً ، فلجأ الامير إلى البطرك الحبشي فانتدب للداولة معهم أحد مطارينه - بطرس كرم مطران بيروت - فسلمه الامير بشير أحمد اللامي ، شروط الثوار وهي :

- ١ - عزل بطرس كرامه من ديوانه ، وتميين كاتبين من كل طائفة .
- ٢ - رفع السخرة بنقل الفحم الحجري من قرنايل الى بيروت .
- ٣ - ابقاء السلاح الكامل للبنانيين .
- ٤ - تخفيف الاعانة .
- ٥ - رفع الاحتكار عن الصابون ، لانه كان للامير « مصبنة » في دير القمر ، وكان عماله في البلاد يعاقبون وينفرون من يشتري الصابون من غيرها .

وارسلت هذه الشروط إلى بحري بك ، معتمد الدولة المصرية ، فشكر ووعد . وكان على أثر ذلك مدّ وجزر في خضم السياسة ، ابراهيم باشا من جهة والدول من جهة ، فجرف التيار أمير لبنان فتوك عرينه في العاشر من تشرين الاول سنة ١٨٤٠ وغادره معه اولاده الثلاثة ، وزوجته ، ومديره ، ومعه ماله وكنوزه . قال المؤرخون ان خزنة الامير كانت ١٨٠٠٠ كيس من النقود الذهبية القديمة .

وبعد خروج الأسد من عرينه نهبت سراي بتدين ، ونزل الشيخ ناصيف بعياله الى بيروت ، وهناك انقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الشعراء ، يمدحهم ويمدحونه . شاع هذا الصنف من بضاعة الادب لأن الشعراء لم يجدوا من يمدحونه ، كما قلت في غير هذا المقام . ومن شاء نموذجاً من هذا النوع فليفتش عن الجزء الثالث والرابع من منتخبات الجوائب ، إذا تعذرت عليه مطالعة دواوين شعراء القرن التاسع عشر كلها .

وكان لانقضاء عهد الامير ، كما كان لوجوده ، فضل على الادب العربي في لبنان ، إذ استراح الشيخ ناصيف من مشا كل الديوان ومشاغله ، فانصرف إلى التأليف طابعاً على غرار القدماء ، فدنا من الحريري ، في مقاماته ، وضارع ابن مالك في ارجوزته « نار القرى » ، ولم يعف من نظمه الطب والبيات والمنطق ... فكان لنا منه شاعر يخوض وسط الممعة ... ولا يقتصر في جميع الميادين .

أجل كان شيخنا دلال القريض فغاض سوقه وشري وباع . . . فيها هو قابع في بيروت يرسل عرائس الشعراء بشراً بين يدي رحته .. تهمني ديمته على هذا الباشا ، ويسعّ وابله على ذاك الوالي ، ثم لا يبخل بهذه الدرر على قائمقام أو شاعر أو أديب أو وجيه ففي مخزنه بضاعة لكل بندر ترضي أمانة محي الثناء . وهو في كل هذا المنظوم راض عن نفسه ، يرسل الشعر سهلاً هيناً لنا فيدخل الآذان بلا استئذان .

ولم ينسَ ناصيف اميره المألطي ^(١) فأرسل اليه قصيدة نقل بعضها لنري القارئ نموذجاً من شعر الشاعر المدحي :

طال شوقي لطول هذا البعاد فترى هل لذاك من ميعاد
كلما أقبل الرجاء ثناه الدهر عنا ، فكلنا في الطراد

(١) عرف الامير بشير بالمألطي بعد تلك الكنية - ابو سعدى - الكلية المهابة . وعنه مصير من يؤخره الدهر ، فانه يخسر كنيته اولاً ، ثم يعرّى من لقيه .

خمدت نار ذلك الحي ، ويلاه ،
 واستقرت تلك الاباطح من رك
 لم تصبنا أيدي العداة بسهم
 ايها الراحل الذي ضرب الاطناب
 ما سمعنا براجل أوحش الاحباب
 ربما انكر العدى منك أمراً
 علموا ان ذاك قد كان تأديب
 ضاق ذرع البلاد بعدك حتى
 فكان البلاد جسم بدون
 اوقدت يا كليب بعدك نار
 وانقضى القرم بعدكم كل سيف
 كنت دهرأ فبنت لم تغننا منك
 لك خوف لو صادف العين في الحلم
 تفخر الناس بالجدود ولكن
 وبك المنتمي يباهي ولو بان
 ومن لي من جهرها برماد
 ض المطايا ، ومن صهيل الجياد
 فرمات بأعين الحساد
 بين - القلوب والاحساد
 عند ارتحاله والاعادي
 يتمنون هل له من معاد
 أب فانتثوا عن الاحقاد
 لا مناخ لناقة في البلاد
 الروح ، او مقلة بدون السواد
 سال منها في الحي قلب الجهاد
 كنت في عهد سيفكم كالنجداد
 ولا عنك كثرة الاعداد
 لصارت تخاف طيب الرقاد
 انت فخر الايام والاجداد
 أبيه يدعى كمثل زياد

ان في هذه الابيات اصدق وصف للحال بعد نفي الامير ولو كان للأمير
 تشاؤم ابن مروان لتطير من شعرها الناعي اليه نفسه ، ولاشماز ذلك الاسد
 فرامة عند ذكر كليب ، ولكن شيخنا ، رحمه الله ، كان يستوحى الكتب القديمة
 ولا يستلهم غيرها ، فهو في كل ما نظم وما كتب زعيم المقلدين في عصره ، لا
 ينازعه هذه الزعامة أحد . فكأنه ذات مجردة عن المكان والزمان ، فاعلق
 بشعره ونثره شيء منها . فمن لا يعرف انه نشأ في كفرشيا وشب ، واكتهل
 في بتدين ، وشاخ في بيروت ، خاله من مواليد نجد واليمن . وحسبك برهاناً
 على هذا الزعم انه كتب في « مجمع البحرين » مقامة سماها « المقامة اللبنانية »
 وليس فيها شيء من ريحة لبنان ، إلا وصفاً فضفاضاً يصلح لكل أرهن

جبليّة . فالمتنبّي الذي مرّ عرضاً وراء لبنان ، فشهد قفاه ، أو رأى قممه
من حصص ، قد تأثر به أكثر من شيخنا اليازجي .

أما ما يعجبني من شيخنا فهو أن معجزاته اللفظية أربت على شيخ ربعة
الفرس . ما ترك في « مجمع البحرين » شيئاً لم ينظمه شعراً ، فمن أسماء الرياح
حتى جراء الكلاب وخنايس الخنازير ، وهاك من هذا نموذجاً - بلا قيمة -
قال عظم الله أجره ، وشكر سعيه :

للخيل مهرٌ ، وحوارٌ للعجل والجدي للمعزى ، وللشاة الحمل
والعجل للثور ، وللحمير عفوّ ، كذا الخنوص للخنزير
وشبل ليث ، ولضبع فرعل وجرو كلب ، ولفيل دغفل
وخرنق ، لأرنب ، وتفل لشعلب ، ولابن آوى نوفل
وكل ذلك بالسهولة التي اتسم بها شيخنا ، وخصوصاً في غزله الذي عليه
دلّ الحاضر المتنعم كما ترى :

اتظنّ هذا الحال فوق المبسم إلا عبيداً حارساً درّ القمر
أخاف إذا أشار براحتيه لعلّي أنّ روحي في يديه
وللشيخ ، ككرامة وغيره من أدباء وكتاب هذا العصر ، وثبات موفقة
على « العلوم » حتى في الشعر الغزلي كما ترى عند شيخنا :

ما بين أعطاف القدود الهيف « سبب ثقيل » قام فوق « خفيف »
من كان كاتب « نون » هذا الحاجب هيات ليست من بضاعة كاتب
مليح شهدنا ان ثاراً بخده لأننا وجدنا بينها فحم خاله
حقاً ان غزل الشيخ ناصيف اليازجي ادق واحلى من « غزل البنات »
وهو رقيق كنسيم لبنان العليل ، والشيخ فيه مبدع وان كان الابداع في
الغزل يكاد يكون مستحيلاً . أما في غير هذا فحس على سنن من كان قبله ،
واقفى أفرم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ...

كان ناصيف يطلع في سيره خلف القدماء ، وصديقه الشدياق يصبح به :
وراءك ، حنانيك . والشيخ هاجم مشتم الأردان لا يلوي على شيء . يعنيه
أن يكون له في كل معركة غبار ، وحسبه ذلك . وكان له من يوحيه
فيجدة ، ولا يلهث ، ولا يتعب ، ولا سيما حين يأتيه ثناء طيب من شاعر كابن
الصباغ العراقي الذي قال فيه .

كبش الكتائب والكتاب وانه بالنحو ينطح هامة « ابن خروف »
متوقد الأفكار يوشك في الدجى يبدو له المستور كالمكشوف
فطن تنطق بالفصاحة ، وارقدى جلاب علم النحو والتصريف
وكان « التاريخ الشعري » ، وهو من معجزات دهر الشيخ ، رائج السوق
في ذلك الزمان ، فمألت « تواريخ » شيخنا المقابر والقصور ، واغتنبط بها
الأزواج والمواليد . حيا بها الباشوات والولاة بالملات في القصيدة الواحدة ،
فتوالدت في قصائده وتكاثرت « كالأميب » التي يسميها العوام « حبل القر »
ولم يبزه أحد إلا معلنا عبد الله البستاني كما مر بك .

الحكم في شعره

ان قريحة الشيخ فوّارة ، أجاد المدح وتفوق على شعراء عصره بالرقاء
المملوء حكمة . وقد يرثي من لا يعرفه ، كالمتني في اللاذقية ، فيتوسل الى
رقائه بوصف زوال الدنيا ، والحكمة التي نجحها نحن ، فيخرجها إخراجاً بطيئاً
كأنه مشي الشيوخ الأجلاء . انه لا يقذفها قنابل كالتني كان يرمي بها المتني
الناس . فهو يقول مثلاً :

للموت يولد منا كل مولود يا أيها الأم ربّي الطفل للدود

ويقول في مقام آخر ، ونعم القول :

مق ترى الكلب في أيام دولته فاجعل لرجليك أطواقاً من الزرد

لا ترجع الخير من ذي نعمة حدثت فهو الحريص على أثوابه الجدد

ألا ترى مثلي أنه شعر طلي غير انه محتاج إلى شيء لا أدري ما أسميه
ليذهب إلى مدى أبعد من النفس . إني احس بتكسره على ابواب الحواس
فيقف عندها . لست تنابه كما تنساب شعر المتنبي وغيره ممن أرسلوا الشعر
حكمة ، فهو وشوقي ينظمان الحكمة نظماً ، والفكرة إن لم تنبثق من أعماق
نفس صاحبها فلا تبلغ الأعماق . اسمع قوله :

وما للبيت إلا قيد باع ولو كانت له أرض العراق
إذا 'حمل النضار' على نياق فأي الفضل يحسب للنياق
وأقبح ما يكون غنى بخيل يفص' وماؤه ملء الزقاق
إذا أحرزت مال الأرض طراً فالك فوق عيشك من تراق
أنا كل كل يوم ألف كبش ! وتلبس ألف طاق فوق طاق
فضول المال ذاهبة جزافاً كاه صب في كأس دهاق

إذا هلك رجال الحي أضعى صبي' القوم يحلف بالطلاق
أمر' الناس في الدنيا جهول يفكر في اصطباح واغتياق
واتعبهم رئيس كل يوم يكون لكل ملوع كراق

ويقول أيضاً في الحكمة التي نجد أكرها في شعره الرثائي :

تكثر الخيل في المربض ان 'عدت ولكن تقل عند السباق

المعنى تريف - هكذا عبر السلف الصالح - ولكنه يصل إلينا فاراً
ينقصه ' الزخم ' الذي هو من مقومات الشعر .

أما رثاء الشيخ فهو عندي في المثل الأرفع من شعره ، انه كلام يلطف من
حرقه الجرح . وإذا كان لا يرضينا اليوم فقد كان في عصره يستعمل ويستملح
ويحتل صاحبه صدر المحفل . هناك نموذجاً من الكلام الذي درج عليه الشاعر
في مواقف النوح :

ماذا التعلُّ في دنياك بالأمل هل في يمينك ميثاق من الأجل
ان كنت تعلم ان النفس خادعة فحبذا لو قرنت القول بالعمل
إلى ان يقول في رثاء هذا الشاب الذي اسمه خليل مسدية :

بني مسدية أسدي الاله لكم صبراً على هول هذا الحادث الجلل
كن يا أباه كإبراهيم حين سخا لربه بآبته في ذلك الجبل
يا ليت هذا بنفس من أحبته يفدي، كما قد فدي اسحق بالحمل
لسنا نعزيك يا من لا عزاء له وان سكتنا وقفنا موقف الخجل
ان الحزين إذا هونت فجعته زادت فكنت كمطفي النار بالشعل
فاعذره فيما تراه منه وادع له بالصبر فهو له من انفع الحيل

وشعر الشيخ كله من هذا الطراز المهلهل ، وما أراه في هذه السهولة إلا
ضريب ابي العتاهية . اسمع كيف يعزي صديقاً كان تاجراً كبيراً وأفلس :

يا بائع الصبر لا تشفق على الشاري فدرهم الصبر يسوى ألف دينار
لا شيء كالصبر يشفي جرح صاحبه ولا حوى مثله حانوت عطار
ان السلامة كنز كل خردلة منه تقوّم من مال بقنطار
والمال يدعى صديقاً عند صاحبه وقد يكون عدواً داخل الدار
يا من حزنت لفقد المال انك قد خلقت^(١) عار وما في ذاك من عار

فيا له شعراً كان فراج الأزمات ، وبلسم الجروح ، ينتظر شيء منه في
الخطوب الجسام ليكسر من حدبتها ، والشيخ جواد رحيم .

أما في المدح فقد شرّق شعر الشيخ وغرب ، فأصحابنا شعراء هذه الحقبة ،
وبخاصة الشدياق والشيخ ناصيف قد زيتوا محور الملوك والسلطين والأباطرة
بعقود شعرهم الضادي . فاز الشدياق بالحظوة والجوائز الضخمة ، أما ناصيف
فناجاهم من بعيد . إن شعر هذين الشاعرين مختلف جداً ، نفساً وتعبيراً

(١) يريد : انك عار قد خلقت ، على ان عار خبر ان ولكن هذا تعسف شنيع .

وتفكيراً ولغة. الشدياق صلب وناصيف رخو ولكنه غير هش". وبعد فليس
هنا موضع الكلام على شاعريتها ، فلنقل كلمة في أسلوب الشيخ ناصيف :
قد يكون لمزاج ناصيف أكبر عمل في اخراج شعره على هذا النسق ، فهو
في جميع أغراضه يمشي على مهل ، وفي الثاني السلامة .
أجزل الله أجره . لقد عمل جهده في زمن كانت روح الشعر فيه تنازع ،
فحبه انه كان خير شعراء زمانه تقليداً ، فالتجديد في ذلك الزمان ، لم
يكن في الحساب .

السُّعْرَاءُ الْعُصَيَّمَاءُ

الشيخان : الأحذب والأسير



عاشا صديقين ، وكأنها كانا على موعد فلحق الأحذب بصفية الأمير بعد أشهر . فالشيخ إبراهيم الأحذب ، طرابلسي المنشأ والمربي ، دب ودرج على موسيقى نهر ديو علي ، الثرثار ، وعلق بنفسه أريج بساتين الفيحاء . اعطته واعطاها فرد اليها الكيل كيلين ، وعرف بها وعرفت به حقبة من الزمن . كان لجمال طبيعتها يد في طبعه على حب الجمال ، فاستيقظت فيه قريحة الشاعر المعجبية فارسل الشعر عفو الطبع ، وهو لو شاء ان يكون حديثه كلاماً منظوماً لاستطاع . كذا قالوا ، ولكنه قول يصدق فيمن بلغ مجموع ما نظم ثمانين الف بيت ، وكلها من الكلام الذي لا غبار عليه .

نشأ الأحذب في وكنات الكتاب ، وما كان أكثرها في طرابلس ، وأخذ لغة الضاد عن شيوخ زمانه . حفظ كتاب الله فأولى كلامه مسحة رائحة من جمال البيان والبديع . وتبحر في العلوم الدينية واللسانية ، فصار حجة

جيله في الفقه والتأويل والاحاديث المسندة ، وكان له القول الفصل حين
تختلف الآراء في الفرائض فيأخذ الميراث من يستحقه .

وكان طرابلس قد ضاقت على الشيخ ، فرحل إلى عاصمة الخلافة فأحله
علمائها صدور مجالسهم . ثم زار مصر فلقى فيها الحفاوة والاحترام . ثم قفل
إلى بيروت فكان محله من الادباء والمتأدبين محل القطب من الرضى ، فخدم
الوطن والآداب بمن علم وهذب وثقف ، وبما ألف وانشأ وصنف من كتب
جليلة كانت زاوية ضخمة في صرح النهضة الحديثة . واذا كان لا بد لكل قرن
من ثلوث ، تبعاً للتقسيم التقليدي ، فالشدياق والاحدب والاسير هم ثلوث
الفصحى في القرن التاسع عشر .

أخرج الأحدب ثلاثة دواوين من الشعر ، وثمانين مقامة نحا فيها نحو
الحريري ، فلم يقصر عنه بلاغة وصحة تعبير . وبارى الزمخشري في كتابه
« فرائد الأطواق » في احياء محاسن الاخلاق ، فبزه أو كاد ، وجارى ابن
مالك ، ولكن في غير نظم النعمو والصرف ، فنظم ببيان مشرق الديباجة
« امثال الميداني » فجاء كتابه انيق النظم والطبع . أخرجه المطبعة اليسوعية
بجدة قشبية ، فكان آية من آيات الطباعة في ذاك الزمان وهذا العصر .

وكأني بثقافة الشيخ العربية قد دفعت إلى احياء آثار الملف ، فعمد إلى
تحقيق وشرح رسائل بديع الزمان في كتاب سماه « كشف المعاني والبيان »
فكشفت لنا حواشي الشيخ ابراهيم عن ادب وظرف فيما حشى وعلّق ، فصار
الكتاب كتابين ، وكثيراً ما يحدث هذا حين تتقارب الشخصيتان .

لم تكن في ذلك الزمان سوق تنفق فيها بضاعة الشعراء ، فحدث ما
يحدث عادة في القرى النائية حين تهجم علينا الاثام هجوم المستعيت ، فنعتار
كيف نصرف وفودها المتدفقة فنعمد إلى تهامها . وهذا ما أصاب ادباء القرن
التاسع عشر فمدح بعضهم بعضاً ، وهكذا خلقوا نوعاً جديداً سموه « المراسلات »
وما هو إلا مدح شاعراً لشاعر ، كما مر ، فكان لشيخنا الأحدب في هذا الباب

جولات عديدة . راسل شعراء عصره فأطراهم وأطروه ، وحكّ لهم
وحكوا له . هالك ما كانوا يستونونه مراسلة ، ثم قل لي بعدئذ إذا كان المتنبي
وغيره قد بالغوا في المدح أكثر من هؤلاء . قال الاحدب مخاطباً الشيخ ناصيف
اليازجي حين أهدى اليه مجمع البحرين ، فابتدأ بالغزل كمادة الشعراء في ذلك
الزمان ، إلى ان قال مقررظاً :

أبدى « الحريوي » على خده « مقامة » نفسي « بديع الزمان »
أقلامه في الطرس قبدي لنا أغصان روض ، أو فروع القيان
فقل علاه « مبتدا » في الوري من غير « اخبار » ودع ذكر « كان »
« والفرق دان » انه في العلى يقصر عن ادراكه « الفرقدان »
فاتنفض ناصيف للاجابة مبتدئاً بالغزل ايضاً حق قال :

في خدها نار الجحوس التي قام لديها الحال كالموبدان
أو « نار ابراهيم » مشبوبة في مهج الحساد ذات الدخان
هذا « خليل الله » والناس في الدين وفي الدنيا فنعم القران
الشاعر الواري الزناد الذي تحكي قوافيه عقود الجمان
ينسي جريراً نظم أبياته ونثره ينسي بديع الزمان
يا خير من صام وصلى ومن قام خطيباً وارقدى الطيلسان

وهكذا قعد شعراؤنا يتسلون بالترمس الأحلى من اللوز ... ولكن الشيخ
الاحدب لم يكن وكده هذا النوع من الشعر ، بل كان يتطلع دائماً إلى
« الجديد » وان لم يدركه أهل زمانه ، فلأنهم كانوا يدورون على قطب واحد
من أنفُسهم .

كان مارون النقاش أول من ألف في الفن المسرحي بلغة الضاد - كما سيأتي -
فأعجب ذلك أهل عصره فوقف الشعراء يتفرّجون . اما ابراهيم الاحدب
فأقدم ولم يقف . نظم مسرحية مدرسية مؤلفة من ثلاثة فصول ضمنها الكثير
من الفوائد ، وقد طبعت عام ١٢٨٥ وهي تبثىء هكذا : يقف المؤلف

ملخصاً موضوع مسرحيته ، ثم يرفع الستار فيظهر اثنا عشر ولداً يتحاورون
بما يلائم سنهم ، وتنتهي الرواية .

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد الاولي بل تجاوزه الى تأليف مسرحية
أدبية موضوعها ابن زيدون وصاحبته ولادة ، وهي خليط من شعر ونثر
مسجع .

أما قريحة الشيخ السبالة فكانت كنهر بو علي الذي نشأ على ضفتيه كما قلنا .
حدثت الرواة عنه : انه كان يملئ ما يقترح عليه القول فيه بلا توقف وكثيراً
ما كان ينظم القصيدة الطويلة ويرتجل الرسالة او الخطبة في أي موضوع كان ،
فيبرز ذلك تاماً صحيحاً بلا تكلف .

أما كتابه النفيس «فرائد اللال في جمع الامثال» فرفعه هدية الى السلطان
عبد الحميد ، وقد افتتحه كابن مالك في ألفيته . قال ابن مالك :

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

وقال شيخنا :

يقول ابراهيم وهو ابن علي امير ذنبه طليق الأمل

ثم يتخلص إلى مدح السلطان فيقول :

فالقصد فيه عز كل مصر عبد الحميد روح هذا العصر
ظل الاله الوارف الظليلا من لم نجد لعزه مثيلا

أما الكتاب فهذا نموذج منه ، والذي أضعه هنا بين هلالين ، قد أخرجته
المطبعة بالحبر الأحمر ، للدلالة على ان الأمثال ، حتى في الشعر ، لا تقتصر
عن مواردنا :

دع طمعاً يوقع في مأثم « إن الشقي » وافد البراجم ،
وصن أموراً ذو الحجي واراها « ان ورا الأكمة ما وراها ،

لا تخل بالمرأة ، واحذر التهم « ان النسا لحم يرى على وضم »
على الفتى من نفسه دليل « ان الفتي ذيله طويل »
« عن مهجتي » هذا الشقي « أجاحش » فانه قد جاء وهو فاحش
ثم يختم هذا الكتاب القيم الضخم بنبذ منظومة من حديث النبي الكريم ،
وكلام الخلفاء الراشدين وغيرهم .

وللشيخ أيضاً نظم قتاوى شعرية ، وله ديوان مديح لم يغفل فيه عن نظم
الموشحات . لقد عرفت شيئاً من شعره التعليمي ، ولعلك رأيت فيه شيئاً لم
تألفه ، لانك منه كمن يتفرس في متحف فيقع نظره على أزياء يستغربها أو
ينفر منها ، ولهذا أحب ان تسمع شيئاً ، من ديوانه « النفع المسكي في الشعر
البيروتي » قال متغزلاً :

من لي بعطار أراني شامة سوداء فوق الوجنة الحمراء
أمسى يبيع ويشترى أهل الهوى في سوقه بالحبة السوداء

وقال في آخر :

خزنت بمالك لحظة جناته أيكون مالك خازن الجنات
كلي عيون ان تجلى وجهه فلذا أراه من جميع جهاتي
وقال أيضاً :

عرجت في الحب ولهاناً على رشا ما شأنه بين أرباب الغرام عرج
نبي عشقٍ لمشاق الجمال أتى لذاك فوق سماء الحسن منه عرج
وللشيخ أيضاً « توارىخ » وألغاز شعرية كما كانوا ينظمون في تلك الأيام .
وكأني أسمع من يقول لي : وأين هذا من غزل اليوم ؟ قال هذا أقول : لكل
زمان رجال ، ويا ويل الأمة اذا كان الأبناء والأحفاد دون الآباء والأجداد .
فحسبُ الشيخ أنه اسمعنا كلاماً فصيحاً في عهد كانت المعجزة فيه تسوق
الناس بعصاها . لقد عمل ما عليه ، فلنعمل ما علينا .

أما الشيخ يوسف الأسير فولد في حجر بساتين صيدا، ثم انتقل إلى دمشق حيث أتم دروسه الأولية ، ورحل إلى مصر للتحقق في العلوم العقلية والنقلية وعاد من الأزهر بعد سنين فكان شاعراً وشيخ علم أكثر منه مؤلفاً ومصنفاً . شارك في بنيان هذه النهضة بتعليم الكثيرين الفقه وغير ذلك من العلوم ، أما تآليفه فأكثرها في العلوم وقد عرفت من تصفّحي ديوان الأنسي ان للشيخ مسرحية عنوانها « سيف الأفكار » .

كان شيخنا خفيف الروح ، يستطرف مجلسه ويستظرف . وكان شاعراً كالأحدهب وإن لم تكن له غزارة مادته . شعره رائق فصيح ، أكثره مدح حتى يكاد يكون ربع ديوانه في مدح صديقه احمد فارس . وللشيخ في النقد أشياء طريفة كتبها يوم دارت رحى المعركة الأدبية بين الشدياق واليازجي والبستاني ، فعلى الشيخ يوسف في ذلك المضمار منتصراً لحليفه الشدياق ، وإن كان الشيخ ناصيف قد امتدح ديوانه « الروض الأريض » قائلاً :

أسير الحق في حكم تساوى فما يدري الحبيب من البغيض
إمام الشعر يبتدع القوافي ويأمن دونها حول القريض
أصار ليوسف بيروت مصرأ تدفق بحر علم مستفيض
يقول له الثناء لو أخذنا قوافيه من « الروض الأريض »

وكأنني بك تقول لي : والشيخ يوسف شاعر أيضاً ؟ نعم يا سيدي ، فقلما نجد واحداً من هؤلاء الجهابذة لم يقل الشعر . فاهيك ان الشيخ يوسف الأسير شاعر مجيد وفي ديوانه القصائد والموشحات والمقطعات الحكمية ، وهناك شيئاً مما قاله في شعراء عصره :

خليلي كم قد جد في النام شاعر وليس له بيت من الشعر عامر
وأحسن شعر ما تراه مهذباً بليغاً به يلتذ بادٍ وحاضر
به تطرب الأسماع من كل منشدٍ وتجري به الأمثال وهي سوائر

وللشيخ الأسير أبيات في وصف لبنان ونهضته الحديثة ، بعد مذابح سنة ١٨٩٠ التي عقبها ما كان يعدّ استقلالاً في ذلك الزمان :

تري لبنان أهلاً للتهاني	فقد نال الأمان مع الأمان
وأضحى جنة من حل فيه	قريب العين مسرور الجنان
وجدت للعلوم به دروس	وكانت في الدروس وفي التواني
وللأخبار قد وجدت سلوكاً	كذلك طبع ذي الصحف الحسان

وللشيخ أيضاً رسائل نثرية وشعرية ، وتلك خطة كان لا بد للاديب من ركوها في ذلك الزمان .

(١) يقصد الاسلاك التلفزيونية ، والجرائد .

عَمِيرُ الْأَنْسِي

قال شيخو : « ولما كانت مصر تفتخر بطهطاويها ، والعراق بأخرمها كانت بيروت تأنس بأنسيها . قلدته الحكومة السنية عدة مناصب كنظار النفوس في لبنان ، وعضوية مجلس بيروت ، ومديرية حيفا ، ونياية صو فتقلب فيها كلها وأظهر فيها دراية وعفة نفس وعلو همة ^(١) » .

ويقول جامع ديوانه ، وهو ابنه الدكتور عبد الرحمن ، انه جمع من ديوان أبيه ما عثر عليه ، وبعد ان نقعه ما استطاع رتبته على حروف الهجاء تارة ما كان في الهزل إلا ما نزر من الملح جلباً للأنس وترويحاً للنفس ^(٢) .

فليت الدكتور ترك لنا ديوان أبيه بعفشه ونقشه لتبدو لنا نفس الشاء المرحه كما خلقت . فلولا الترك والشدياق لم تبين للادب من في هذا العصر حتى خلنا ان الضحك محرم على هؤلاء . ان شعر الانسي رصين التعبير ، بري من الركاكة . قال الشعر المدحي مثل معاصريه مهتدياً بالصناعة اللفظية الا

(١) شيخو . الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ٢ ص ١١ .

(٢) المورد المذهب ص ٣ .

كانت نجمة قطب الشعراء . قال كرامة قصيدته الحالية ، فقال الانسي قصيدة أطول منها قافيتها لفظة « العين » وهي في مدح الأمير أمين أرسلان ، وهذا مطلعها :

خذي من ودادي العين يا قرّة العينِ ومن عبد عينٍ ما رأى منك من عينٍ
ولا تبعديني عمدَ عينٍ ، فلتشقي وشاقي ، وتغري في الملامة بي عيني
ثم يطلع الانسي علينا بمعجزة لفظية جديدة فيقول قصيدة من أبحر متعددة ، وقواف مختلفة ننقل منها مطلعها :

يا للهوى من لصبّ لم ينل أرباً عطفاً على مستهام رق وانتحبا
ولك ان تقول في الصدر : « املا ، أو « وطرا ، بدلاً من « اربا » .
انك تجد القوافي مبهأة أمامك طيعة للسانك ، فاختر ما تريد . وهكذا نصير
هذه القصيدة الطويلة مثلثة القافية متعددة الاوزان ، فحكم ذوقك واقرأ ...
وإذا أردت حساباً أدقّ من حسابي هذا فراجع مشاهير القرن التاسع عشر^(١) ،
تعلم ان هذه القصيدة تستحيل تسع عشرة قصيدة وأكثر ، وتقر معي ان
عصر النهضة هو عصر المعجزات .

ليس هذا ما يعني من الانسي فهو في كل ذلك كغيره من الروّاد .
ولكن شيئاً لم يبد له أثر في شعر هؤلاء قد رأينا أثره واضحاً جلياً في شعر
الانسي ، فلو أبقاه لنا ولده لعثرنا على كنز من الهجاء جزيل . فالانسي هجاء
روّاد هذه الحقبة ، ولعله هو الذي أوحى ما قيل في الشاعر الياس صالح كما
سرد في حينه . قال الانسي في قهوجي اسمه هلال :

تعس الهلال القهوجي^(٢) لأنه قد قطع الأنفاس من « أنفاسه »^(٣)
هذا الهلال هو الهلاك ، وإنما غلطوا ولم يضعوا العصا في راسه

(١) جزء ٢ ص ٢٦٣ ، الطبعة الثالثة .

(٢) يريد ما يسمونه (نفس) الاركية .

كان شيخنا يدخن النارجيلة كما يستدل من بيته الاول ، والمولع بها يولع
طبعاً بالقهوة حتى يرى اساءة طبخها والبخل بالبن كفراً لا غفران له ، ولهذا
قال الانسي يهجو قهوة أحدهم :

سحقاً لقهوة من امسى يحود لنا بقهوة من سحق الفهم سوداء
سوداء صفراء ، يبدو من فواقها ريحٌ يهيج سودائي وصفرائي
ما خلت من باسط كفتاً ليشربها الا كباسط كفيه إلى الماء

وقال في اقرع :

رأيتُ أقرعاً في الرأس منه عجيب بات يخفيه ويبيدي
يفطيه فيستر سلح هري ويكشفه فيظهر إست قرد

وبما قاله في هجو بيت وصاحبه وهي طويلة جداً ، مع ان ابنه يقول :

حذفت منها جملة أبيات :

حتى وصلت لداره ، لا حييت هذاك ، ولا رحبت فناً ومعرساً
فنظرت بيتاً لا أشك بأنه بيت الحلاء لمن يريد تنفساً
تسابق الجرذان في عرصاته زمراً تنوع جيشها وتجنساً
وبه العناكب طالما قد خيئت او طنبت حتى تستر واكتسى
بيت تجاوره القبور وما به من يستحق إذا قضى ان يرما
فيه الذباب تنوعت ألوانه ملأ الفضا لو رام أن يتشمساً
وبعد أن قلب ذلك الرجل على نار هجائه حتى صار كسفود النابغة ،
ختم كلامه بقوله له :

كلفني نظم الهجاء ولم يكن دأبي ، ولكن الأمى لا ينتسى
ولقد أتنك فريدة لو شأها ابليس يا ابن الارذلين قبلساً
قابلت طولك يا بليد بطولها بل ليس موضوع هناك فيمكننا

وتمجرت ألفاظها بمجرف فهي العلى حيث كنت غلما
لكن معناها أرق من الصبا لطفاً لدى من بالقريض استأنسا

لقد صدق الشيخ في وصف قصيدته ، ففيها الكثير من الالفاظ الغريبة
الحشنة ، ولهذا قدّم احسن العذر بين يديها ، فكأنه ابن الرومي حين اعتذر
لصاحب المهرجان ، عن خفة الأوزان بأشرف المعاني .

ونلحق بهذا الباب من شعره بعض أبيات من قصيدة قالها في رثاء بردون :

كديش كان ذا صبر إذا ما	رماه الجوع بالأمر العسير
وكان إذا ألمّ به اضطرار	لأجل التبن يقنع باليسير
وكان يودّ لو في العمر يوماً	رأى في نومه طيف الشعير
توفي وهو في ضنك ينادي :	أليس لمستجير من مجير
رمته يد الخطوب قصيرته	طعاماً للوحوش وللطيور
فيا أسفي ويا كدري وحزني	على عنقٍ حكى عنق البعير
ويا أسفي على كرش عريض	رمته يد الجماعة بالضمور
فكم سوطٍ له صوتٌ عليه	ونذب في الاصائل والبكور
وأقلام العصي لها صرير	بطرس أذنيه فوق السطور
لقد نشبت نخالبها المنايا	به فرأى الحياة من الغرور
وقد أوصى لصاحبه برحلي	وجلّ أخلقته يد الدهور
وأوصى بالخزام له ولكن	لبس كالوشاح على الخصور
وأوصى بالزمام وكان ممن	يرى حفظ الذمام الى العشير

قلنا ان شيخنا كان يدخن النارجيلة ، وها نحن نقرأ خمسة أبيات قالها
بلسانها فنكتفي بثلاثة منها للدلالة على ابداعه :

قالوا تحمّلت نيراناً فقلت لهم : النار في حبّ من أهوى ولا العار
شهرت حتى غدت تعشوا السراة الى ناري ، ولي بمزيد الفضل آثار

فيها انا مثل «صخر» حين قيل به : كأنه علم في رأسه نار
كان مجلس الشيخ الأنسي ، كما أرى في شعره ، مجلساً حافلاً بالأنس ،
تستهوي صاحبه الطرافة فيصفها بكل طريف : فاقراً هذين البيتين من قصيدة
بين بين في الطول بنى «عروضها» على السين ، و «ضربها» على الشاء ،
لتكون تناورة طريفة بينه وبين ألتغ اسمه سليم . قال الشاعر :

اقول له : يا بدر مالك عابساً 11 يقول دلالاً : انني بك عابث
فقلت : وما للطرف اصبح ناعساً 1 فقال هو الفتان للعقل ناعث
ثم يمضي في هذه القصيدة بين قلت وقال ويقول ، حتى يقول عشرين بيتاً
مطبوعة على هذا الغرار ، وأظنه مبتدعاً في هذا ، غير متبع أحداً . أما في
الغزل فله تفنن قصصي من نوع آخر . قال :

لثمت يد المحبوب يوماً فقال لي	على خجل : حوشيت يا علم المجد
مقامك أعلى انت أراك مقبلاً	يحسمي غير الجيد ، والثغر ، والحد
فقلت أرى إحياء نفسي بقبلة	برجلك أولى من هلاك اخي الوجد
وما أنت إلا كعبة الحسن حيثما	لثمتك نلت الأجر يا غاية القصد
فأعجب حتى قال : سبعان من برى	لنا دولة مولاي اضحى بها عبدي

والشيخ أحاجي كما لشعراء زمانه ، وله غير ديوانه الشعري رواية ثقيلية
عنوانها « كشف الظنون عما جرى بين الأمين والمأمون » ، دلنا عليها ذكره لها
في ديوانه .

هذا هو الرائد الأنسي الذي ابتسم معه الشعر في القرن التاسع عشر ، كما
ضحك مع الترك قبله .

القاسم الكسبي

كل هؤلاء الرواد من الملتين ان لم يكونوا تلاميذ « مدرسة تحت السنديانة » فهم تلاميذ مدرسة تشبها ، فلا حاجة الى التكرار والمراجعة . والشيخ الكسبي ، كقطا حل زمانه ، شاعر له ديوانان : مرآة الغريبة ، وترجمان الافكار ، وله ايضا رواية تمثيلية عنوانها « حكمة الافكار » يدلنا عليها تقريظ لها في ديوان الأنسي .

وللشيخ الكسبي اراجيز طويلة اشهرها مقصورة كأنه يمارض بها المقصورة الدريدية في حكمها . والكسبي يحاري صديقه الأنسي في مواضعه ، فيقول ارجوزة فكاهية في وصف الملوخية ، منها :

خيوطها بيضاء كاللجين	تظهر كالصبح لذي عينين
لو انها قد نبتت في اللد	يشمها في بلاد الهند
ان ملئت بها بطون القصع	تشرقها الابصار قبل البلع
تري عليها كثرة الملاعق	تقرع بالاسنان كالصواعق
كانت للقمان الحكيم ما كلا	وجوفه لها استقر منزلا
وكان يوصي سائر الأطباء	بقراط ان يستعملوها شربا

كذا ابن سينا قال في القانون لا تبخلوا بها على البطون
وخصها بالذكر أفلاطون وقال منها يصنع المعجون

وكما يرى الأنسي ابن الرومي في الهجاء ، رأينا شيخنا الكسبي يباريه في
وصف المآكل ، ثم يتفق مع الأنسي في رثاء المعجهاوات ، ولكنه لا يرثي
كديشاً بل كناراً ، ولا يهجو صاحبه كالأنسي بل يعزيه ، وهما بعض
ما قال :

يا صاحبي عزيت بالكنار	فانه من أحسن الاطيار
ما مات من جوع ولا من قلة	لكن رماء ريشه بقله
عليه لا تحزن وكن صبورا	والترم الشكر تكن مأجورا
لو كان يفدى بالنفيس الغالي	فديته من طارق الليالي
لكن إذا ما حدث الموت نزل	لا ينفع الحزم ولا تغني الحيل
عوضك الرحمن عنه طيرا	يكون بالتفريد منه خيرا

ويصف شكل ذلك الكنار فيقول :

ذو ذنب فاق ، والله العجب ،	على اللجين وهو بالحسن ذهب
مزين بالتاج كالطاووس	ملون الرداء كالعروس
له حسن ذلك المنقار	من ذهب قد صيغ لا من قار
قد كان في الدنيا من الزهاد	ملازم الخلود بانفراد
وعاش عبوساً ولم يشك الضجر	حتى أباده القضاء والقدر
فانني أهدي اليه الفاتحة	وان يكن من الطيور الصادحة

أشهد انني شممت رائحة شعراء يتيمة الدهر ، في هذا القريض ، رحم
الله من قاله .

محمود قبّادو والدحداح

رشيد الدحداح رائد هاجر فأفاد الادب من هجرته . كان كاتباً شاعراً من طراز مناصره فصار كاتب صر الأمير أمين ابن الأمير بشير ، ثم هاجر فاستحال تاجراً في مرسيلية ، وادركته حرقه الادب كهلاً فأنشأ جريدة برجيس بباريس . ونشر معجم المطران جرمانوس بعد ما أصلح ما أفسدته فيه يد النساخ . ثم نشر ايضاً شرحي ديوان ابن الفارض للشيخين الصوفيين البوريني والناقلي ، وهو اول من نشر بالطبع كتاب فقه اللغة ، وله كتاب قمطرة طوامير مع كتب أخرى .

ومتى ذكرت «القمطرة» تداعت الافكار فذكرنا اسم السيد محمود قبّادو التونسي صديق الدحداح الذي نشر له في القمطرة تصديره وتشطيره - ارتجالاً - القصيدة المنسوبة لبشر بن عوّانة : أفاطم لو شهدت ببطن خبت .

لقد أحسن الكونت رشيد الدحداح تقديم صديقه الشيخ محمود الى القراء قبل نشر التصدير والتشطير . ليست القمطرة عندي لأنقل تلك المحاور الطريفة ، ولكنني أذكر العبارة التي اعتذر بها قبّادو عن ركوب هذا المركب

الحسن . قال قبادو : قريحتي صدئت ، فأجابه الدحداح : اجعلها بالنظم ، فقال : اكتب اذن على خيرة الله : ثم كان ذاك اللشظير فتكافأ الشاعران قبادو وابن عوآنة ، وزاد عليه رائد النهضة تصديره الجميل . والناس يذكرون عن قوة ذاكرة قبادو مثل ما ذكروا عن أبي العلاء

ولهذا الشيخ ديوان كبير جمعه تلميذ له في جزئين . وهو من أصحاب « المعجزات التاريخية » وقد فائقنا أن نشر اليه مع أصحاب تلك الخوارق ، في مقال « التأريخ الشعري » .

يوسف الشلقون

رائد متسلل من جد حكم ساحل لبنان تحت ولاية الامير بشير ، وقد أصدر أربع صحف : الزهرة ، والنحلة ، والنجاح ، والتقدم ، بالاشتراك مع المطران الدبس ، ثم إسحق ، وصابونجي ، وأنشأ المطبعة الكلية . له ديوان عنوانه « أنيس الجليس » قال أكثره في مدح ذوي السلطان ، وكبار أولي الأمر في زمانه ، وقد « راسل » أدباء وشعراء عصره . أما غزله فأراه يقلت فيه معاصره الشيخ خليل الخوري ، فهو يقول مثله ، وإن قصر عنه في الابداع .

هي الميون وإن تسأل هي الأجل لم تُبقِ صَباً وما في قلبه وجل
يا دولة حاجباها ناظران لها قرّت لسطوتك الأيام والدول
ويذكر لبنان مثل خليل ، ولكنه لا يبلغ شأوه في وصفه ، ولا بدع ، في قصيره فقد كان ، أولاً ، عاملاً في مطبعة خليل كمنضد حروف ومصصح مسودات .

وقد حاول كغيره من « الروّاد » اجتراح العجائب البيانية فنظم قصيدة تقرأ من الكامل ومجزؤه ، وله أيضاً موشحات . وقد نظم « تواريخ » من ذوات الطلق الواحد !!...

فجيرة التجريد

خَيْلِ النُحُورِي



هو أول رواد التجديد ، وقد تناساه الناس كما تناسوا سواء من السلف الصالح . ليس الأدباء بأقل بأساً من الملوك الذين اعتادوا هدم آثار من سبقهم ليبنوا بجاراتها قصوراً يحملونها اسمهم زوراً . فلو كان للشدياق والنحوري أسباط لما اهتمها لبنان هذا الإهمال المخزي . ولما اسودت وجوه عند ذكر الأول منها .

يقول لك بعضنا اليوم ماذا عمل عمرو ؟ وأي اثر يؤبه له تركه زيد ؟ ماذا عمل هؤلاء الذين تعدم لنعتد بهم ؟

صهْنُ ، أيها المغرور الأحمق . أما ترك لك أبوك وجدك بيتاً كان معدوداً في زمانه ، فإذا تطلب منه أكثر ؟ افتح أنت باباً ، بل شباكاً ، بل طاقة في ذلك البيت ، ثم عد الى اللوم والنمي ، ضع فيه على الأقل حبراً يبقى ان كنت ذلك الرجل . زد على قامة بيت الامة الادبي ولو شعرة ثم قل ما شئت . يظن من أعمى أعينهم ، الغرور انه لم يفكر أحد قبلنا في إنعاش الادب ونفخ الروح فيه ، فيرون ان كلماتهم الملفقة خلقت الادب العربي خلقاً جديداً

وان من سبقهم لا يستحقون أن يحلّوا سير حذاء زارتومثرا ، كما قال نيتشه ،
يوم كان مجنوناً غير مشهور ...

قالوا : لكل عصر رجال ، والقول حق ، فالذين مرّوا على الطريق قبلنا
عملوا ما عليهم ، فما علينا نحن إلا الاعتراف بذلك تشجيعاً ، لسواهم من العاملين
اليوم ، أقول هذا بمناسبة الكلام عن الشاعر خليل الخوري ابي الجريدة
العربية الاهلية .

ولد خليل في الشويفات عام ١٨٣٦ ، وتلقّى العلوم في مدارس زمانه ، ثم
على أساتذة خصوصيين . قال الشعر فكان طريقه الى أبواب الولاة ، فكتبه
من اصدار أول صحيفة عربية اهلية هي حديقة الأخبار ، ثم أحدث إلى
جانبا مطبعة قطبها سماها المطبعة السورية .

طرب المعلم بطرس البستاني الأول لصدور هذه الجريدة ومطبعتها ، فقال
في خطابه « آداب العرب » الذي ألقاه عام ١٨٥٩ في الخامس عشر من شباط :
« وما لا يشوبه ريب أن الجرائد من اكبر الوصائل لتمدين الجمهور ،
وزيادة عدد القراء اذا استعملت على حقها . والأمل ان هذه الفتاة - المطبعة
السورية لحديقة الأخبار - التي هي أول مطبعة عربية خصّصت بالجرائد
تتقوى ، وان أتعاب مالكا ومديرها العزيز خليل افندي الخوري تكفل
بالنجاح ، فيخلد ذكره عند أبناء الوطن كفاتح لهذا الحصن الحصين الذي غفل
المتقدمون عن فوائده . وكأني به واقفاً على شاطئ البحر الكبير الفاصل
بين العالم القديم والعالم الجديد ، يستشرف تارة على الجديد ويلحظ اخرى الى
القديم ، ولدى انتشار ديوانه الموسوم « بالعصر الجديد » الذي أفرغ فيه الشعر
القديم في قالب جديد يتضح المعنى المقصود ^(١) . »

أشاد البستاني بذكر خليل الخوري ودلّ على فضله الأسبق في حقلي

(١) مجالي الفرر ليوسف صفيّر طبعة ١٨٩٨ ص ٤٠

الصحافة والشعر ، وترجى له خلود الذكر كفاتح أدبي ، ولكن الخليل خلد في شعره لا في نثر جريدته ، وقد كان في استطاعته ذلك لأنه لم يكن في الشرق يومئذ إلا الصحف الحكومية ، ولكن سياسة ارضاء الدولة العلية كانت أقصى أمانيه ، فرقع في النعم الشاهانية ، وتقلب في مناصب عديدة محترمة ، ونال أرسمة كثيرة من الاستانة وغيرها من العواصم .

لم يبرز خليل في النثر لانه لم ينصرف اليه ، فهو شاعر أولاً ، بل لا يعنيه إلا الشعر الذي كان سُلّمه إلى المناصب . ومن عثر على دواوينه العديدة النادرة الوجود وأجال فيها نظره رأى في : زهر الربى في شعر الصبا ، والعصر الجديد ، والنشائد الفؤادية ، والسمير الأمين ، والشاديات ، والنفحات ، مدحاً كثيراً لرجال الدولة وغيرهم .

أما ما يعنينا نحن ، اليوم ، فهو التجديد الذي أشار اليه المعلم الأكبر بطرس البستاني ، والذي قال ناصيف اليازجي في مدح قائله :

يا هلالاً قد أرانا في الدجى وجهاً جميلاً
سوف نلقى منك بديراً كاملاً يُدعى «خليلاً»

وعندما بزغ فجر القرن العشرين كنا لم نزل على مقاعد المدرسة ، نسمع الجديد ولا نراه إلا في شعر اثنين : خليل الخوري وفرنسيس مراش . فالمراش ، وهو المقتفي آثار خليل الخوري في ديوانه «العصر الجديد» ، سوف نصف آثاره البديعة على ما فيها من ضعف لغوي . أما خليل الخوري فهو أسبق وأطرف وأمتن عبارة ، وألطف أسلوباً . انه ، بلا منازع ، أول من أفرغ الشعر القديم في قالب جديد . امدّه في ذلك خياله الخصب فخلق صوراً رائعة . ثم ظلّ ذلك السراج الوهاج يرسل نوره حتى انطفأ عام ١٩٠٧ في ٢٦ تشرين الأول .

امتدح البستاني ديوان العصر الجديد ، فماذا في هذا الديوان الذي أطريناه

نعتاً ؟ كان يقال الشعر قبله اما حكمة ، واما زهداً ، واكثره كان مديحاً ورفاءً ، فلم يترك خليل الخوري المديح ، ولكنه فعل ما لم يفعله غيره من قبل ، فقال القصائد الطريفة في مواضيع مستقلة ، واذا لم يبلغ فيها شأو الشعراء للعظام فصاحة وبلاغة ، فحسبه أنه كان رائد الجديد الاول في ابداعه .

في ديوان العصر الجديد قصائد غراء أخرجت الشعر من الصيرة التي زرب فيها أدهاراً وعصوراً ، وان كان جلته في مدح السلاطين العظام ، والوزراء الفخام ، والوجهاء الكرام . أعجب هذا الشعر أعلام ذلك الزمان لانه لم يكن للشعر العربي عهد به من قبل ، فاثبتوا على قائله . واذا تصفحنا هذا الديوان برزت لنا قصيدة عنوانها « الغرام » ثم قصيدة « الخداع » التي منها هذا البيت :

ان ابتسام الثغر يذهب باطلا ان كان قلبك عابساً لم يبسم
ثم « وداع الغرام » ، ولكن الشاعر لم يودعه إلا ليعود اليه في قصيدة « الفجر » لان العاشقين كما قال ابو نواس :

كأهل النار ان نضجت جلودُ أعيدتُ للشقاء لهم جلودُ
فها هو الشاعر في قصيدة « زيارة الدجى » ينادي حبيبته :
قومي افتحي الباب غيري ليس يقرعه فأنما خشية الأقدام تمنعه
ويظهر ان بيت هذه الفاتنة الحسناء كان على سيف البحر ، فتأمل كيف يغررها شاعرها بتلك الليلة الحلوة إذ يقول لها :

فاصني به لحنين البحر منتحباً كأنه يشتكي بيناً بررّعه
والشطّ مدّ ذراعيه على ظمأ يعانق البحر والأمواج تصفعه
تلقى على صخره الفضي موجته وتقتني بعدما بالقرب تطمعه
كفادة صادفت محبوبها فغدت تدنو اليه دلالاً ثم تمنعه
ثم ينتقل الى وصف السفينة ويشبّه شراعها بالآزار ، والى السماء ونجومها

الغمازة البسامة راجياً ان تنشط تلك الحبيبة حين تسمع وصف هذا الجبال .
ولم يحرم الشاعر لبنان من قصيدة رائعة جسّدها خياله ، وأروع ما فيها
هذا البيت المبتكر في وصف الأرض :

يا صفحةً بقيتْ لهذي الأرض من أضل الكتاب تُرى بها الاسفار
ألا ترى مثلي ان بيت شوقي :

هذا الأديم كتاب لا كفاء له رثّة الصحائف باق منه عنوان
ينظر الى بيت الخليل ؟ ثم يصف الشاعر عواصف الجبل المجنونة ، ويأتي
على ذكر سوريا وصور وصيدا ويعلمك التي درس الكثير من معالم مجدها
ليستطرد قثلاً للبنان :

وبقيتَ وحدك أنت منتصباً على هام العظام تحتك الإدهار
هل حلت عن قدم الثبات مشيعاً إذ اشغل الرومان عنك سفار
وهل ارتعدت مروعاً لما سطا بالروم ذاك الصارم البتار
كأن شاعرنا قد نظر في الأمس إلى ما رأيناه نحن أول من أمس . وفي
هذا قال رئيس لبنان الشيخ بشاره الخوري ، في ختام إحدى روائع خطبه :
الحكومات تزول ، ويبقى لبنان .

ثم ينقلنا الشاعر الى قصيدة عنوانها « الاشتباك » فندعه وشانه لأن
المصلح ثلثي القتلة ... ويدهش البخار شاعرنا فيقول قصيدة عنوانها
« معجزات العصر » يصف فيها قدرة العقل البشري على الخلق . أما شعراء
اليوم فيرون أكثر مما رأى الخليل فما يخفّ وقارهم كما خفّ وقاره ، ويظنون
ساكتين لأن الذهب خير من الفضة ...

قيل ان المنصور عندما مات ابنه طلب من ينشده : أمن المنون وريبها
تتوجع ، فلم يجد في حاشيته من يعرفها فقال : ان مصيبي بابني أهون عليّ من
هذه المصيبة . فالى شعراء اليوم نحول هذه الكلمة ليفكروا فيها .

ثم يأسف الشاعر لتأخر الشرق ، ولكنه يعود الى غزله فيقول قصيدة
عنوانها « العهد » ، وأخرى عنوانها « البعاد » . ثم ينظم قصيدة طيبة عنوانها
« الحلم » يهديها الى الخواجه اسكندر التويني ، الذي صار فيما بعد بمقام وزير
الخارجية في عهد المتصرفية . ليس في هذه القصيدة شيء من المدح ، بل كلها
غرام وعبرة ، وما للتويني فيها غير الاهداء . وهناك قصائد أخرى من هذا
الطراز المعلم لا يتسع المجال للامام بها . ويخص الشاعر « البدر » بقصيدة فيها
التخييل والخلق الرائعان ، ويتبعها بقصيدة عنوانها « الحب المغدور » ، وليس
هو أول سائر غرّه قمر ... وبعد ان تاب توبة نصوحاً في هذه القصيدة
سمع صوتاً ، فقال قصيدة عنوانها « البيضة » وهذا مطلعها :

أصوتك أم صدى عود يعاد وانت أم الملاك له ارتباد

ثم ينثني فيقول قصيدة طويلة النفس كقصائد ابن الرومي يهديها إلى
التويني أيضاً ، ويخصه ببضعة أبيات في ختامها ثم نظم في مدينة صور
قصيدة طويلة أيضاً حتى قال بلسانها :

ما كان لي أبداً نظير في العلى والآن ما لي بالخراب نظير

هذا مؤسف ، والثابت وجه الله ، كما يقول اخواننا الدروز . ويصف
ليلة في لبنان وما قصده فيها إلا وصف لبنان الذي يذكر كل شيء من شؤون
الأمس إلا عباقرته .

لقد أفضت في الكلام عن « العصر الجديد » لأن فيه خيرات كثيرة ،
فلنترك ولو قليلاً ، لأحد دواوينه الآخر وعنوانه « الشاديات » ، فنخص بالذكر
رائعة خالدة فاقت بخيالها العجيب « حديقة الشعر » لابن الرومي ، وأرتنا ان
القائل : ما ترك الأول للآخر ، قد كان واحماً . فمضى وجدت الأرادة كانت
الابداع ، وما هو التحليل يقص علينا أحسن القصص في قصيدة « الرمان

والعنتاب ، فتضجّ بالحياة التي لم نرَ لها أمراً في حديقة ابن الرومي ، قال :

ما بالُ صاحبِ ذا البستانِ قد علّقاً بربة الحسنِ يبيدي الغيظَ والحنقاً
ما باله انقضّ من هول الهوم على تلك الغزالة كالصيتاد وانطبّقاً
هياً اسرعوا لنرى ما ثار بينها من الخصام الذي قد أوجب القلقاً
أراه مشتبكاً معها بمعمعة كطالب الثأر للغارات قد سبقاً
معلقاً برداها وهو يصرخ يا اهل الحميّة ، ان الروض قد سرقاً
يا لصّة غافلتني وهي مائة بين القصون تناجي الزهر والورقاً
سرفت ويحك رماني ومنه لنا قوت العيال الذي ألقى به الرمقاً
وقد سرفت لي العنتاب معه وذو أيديك قد حملت من حبه طبّقاً
وكانت معركة كلامية حامية الوطيس بينها ، وظل البستاني مصرّاً على ان
الفتاة تخبىء رّمانه في عبا ، وعبثاً حاولت الفتاة إفهام من لا يفهم ، بل
ظل يصيح :

ردّي عليّ ثمّاري لست أتركها أو لا فأرجع مالي كيفما اتفقاً
ففضبت الحسناء غضبة مضرية ، واحمرّت وجنتها من الغيظ ثم :

قالت له : ويك . لا تمدد إليّ يداً إذا سرت نحو صدري كسرّها سبقاً
وبعد كدّ الذهن اهدت تلك الحسناء الى برهان ذي حدين فقالت
للبستاني :

هل عندك الورد في البستان أسرقه صباحاً ، وانشرّ منه للملا عبّقاً ؟
فقال لا وردّ عندي والربيع مضى وما تريد من وردٍ إذا سرقاً !
فدلته على الورد - في خدّها - فشدّه المغرور وفارقه ذلك العناد :

فقال ويحي لا رمان كان ولا عنتاب سبحان بارينا الذي خلقاً !!
اما الفتاة :

فاستضحكت ثم سارت وهي قائلة الحسن يدهش في أنواره الحدقاً

والله ما سرقت كفاي في زمني إلا العقول وإلا القلب منسحقاً
هذا هو شاعرنا واضع الحجر الاول في صرح تجديد الشعر المعاصر بعد ما
أقوى وطال عليه سالف الامد ، قال أطرف شعره في منتصف القرن التاسع
عشر ، وظل يقول حتى مات في صبح القرن العشرين . وكيف يموت من تروء
له الألسن مثل هذا البيت :

هاتوا المطارق ان قلب حبيبي أضى حديداً فاضربوا ليلى لي

فرنسيس المراثش

كان فرنسيس المراثش على قصر عمره زعيماً أدبياً ترك دويماً ، إن لم يكن في الدنيا ، كما أرادته أبو الطيب المتنبي ، فقد بلغ الفرات زثيره والنيل... وكيف لا يسوغ لي أن أستمير له وصف المتنبي لأسده وهو الذي اجتراً على نشد الحرية يوم كانت الأفواه مكبومة ، والحزامة في الأنوف والشفاه . وسياطيك الخبر حين نتكلم عن « غابة الحق » .

قلت انه زعيم أدبي قبل أن أعرفك به ، كما هي الخطئة عند من يكتبون عن الأدباء ، أظن انك تعرفني فمن طبعي أن أسير في أبحاثي كما يشاء القلم فهو الذي يسيّرني ولست أنا الذي أسيره .

أما زعامة المراثش الادبية ، على ومن عبارته ، فبرهاني الاول على إثباتها هو هذه الذكرى التي مرّ عليها نحو نصف قرن ، وهي تستحق احتفالاً بيوبيلها الذهبي . كانت ذلك عام ألف وتسماية ، وكان استاذ اللغة العربية يلقي علينا آخر درس من دروس ذلك العام ، فقال لنا في ختامه : التليذ كالبيت يحتاج إلى مؤونة ، ومؤونة من كان مثلكم الكتب ، فاذا أردتم رسوخ

القدم في الانشاء فاقرأوا نهج البلاغة ، والدرر لأديب إسحق ، وكشف الخبايا ،
وكنز الرغائب لأحمد فارس الشدياق ، ومشهد الاحوال ، وغابة الحق لفرنسيس
المرآش . المرآش يا أولادي ، شاعر كاتب محدد ، ولكي يهتدي الواحد منكم
إلى ذاته ويكون شخصيه يحب عليه أن يقرأ هذا وهناك ، ومن قراءة
الكتاب المختلفين تظهر الذات ، وما نفع كاتب ار شاعر بلا ذاتية .

ابي أقف عند هذا الحد من كلام استاذنا ، فقد كان وقت درسه ساعتين ،
فودّعنا بالكثير من الوعظ لأنه كان خائفاً أن يضيع في الصيف اللب ،
ونعود اليه وقد نسينا ما شقي هو في تلقيننا إياه من فرائد . تركنا المدرسة
في العاشر من تموز ، وكدت لا اصدق انني اطللت على الضيعة . تسعة أشهر
ونصف مرّت ولم أر لها صورة وجه . قل وصلنا بالسلامة ورأيناها
ما زالت حيث كانت ... وكما كانت . . فالقرى أشد محافظة من كل الذين
يزعمون أنهم محافظون .

وكانت السهرة في بيئنا تلك الليلة . أما في الليلة التالية فكانت في بيت
عمتي لحاً ، فعمتي هذا ذاهب الى بيروت ولم تكن الرحلة إلى بيروت هينة في
ذلك الزمان . سوف ينام الليلة القادمة في جونية اذا عجل ، ويتابع في
الغد سيره الى بيروت التي لا يعود منها قبل اسبوع . فالطريق وحدها تقتضيه
أربعة ايام . تلطّف ذاك العم وسأل ابن أخيه عما يتمنى من « المدينة »
فأجبتة على الفور : كتابين يا عمتي : مشهد الاحوال ، وغابة الحق .

وكان الوالد ينتظر أن أطلب من عمي شيئاً له قيمة وشأن . فبرز برأسه
كعادته في تلك المواقف الحرجة وقال : غابة وحق يا صبي !! الحق ضائع
في العلالي والقصور فمن يجده في الاحراش !! أما العم فرأى أخاه غير
مصيب ، طبعاً ، لأن الطلب هين ، فأنزله حالاً في دفتره ذي الغلاف الاسود
اللامع . وسكت الوالد ، وسكت أنا ، أما العم فقال : ابن ألقه ؟

— في المكتبة العمومية لابراهيم صادر وأولاده .

فأجاب وهو يزجّ دفتره في عبّته : عرفته .

وبعد العود الميمون من تلك الرحلة السندبادية جاء الكتابان وغرقت فيها إلى أذنيّ ، وقرأت لوناً جديداً وذكرت معلمي الجليل بالخير

ففرنسيس مرّاش حليّ ، وعن حلب الشهباء اخذ لبنان لغة الضاد ، وأعطاهما ما عرفه في القرن السابع عشر من لغات أجنبية ، وهكذا لقتحت الثقافة الضادية بدم جديد منذ ذلك العهد . ذكرت هذا لأن له الأثر البارز في ما كتبه المرّاش .

المرّاش ابن بيت علم ، ولبيت اثره في الاولاد عندنا ، فبيت العلم يخرج العلماء ، وبيت الصناع يخرج صناعاً حاذقين ، ففرنسيس هذا من أسرة مثقفة ، أبوه تاجر له من العلم نصيب ، واخوه عبد الله عُرف بالفضل والادب وقد زار مكاتب أوروبا فلندن وباريس ونسخ منها آثاراً عربية اعجبته ورأى فيها فائدة لابناء جنسه الناطقين بالضاد . واخته مريانا شاعرة كاتبة . ففرنسيس اذن ابن بيت يذكرنا ببيت زهير وجريّر مثلاً .

ولد بمدينة حلب ، واعتلّ بصره في الرابعة من عمره . قال الشعر وهو ابن تسع كما رووا عنه وعن اديب اسحق وغيرهما . ولما حذق العربية شاء أن يكون طبيباً فتلمذ لطبيب أنكليزي بحلب ، ثم طمع في ان يكون طبيباً قانونياً فرحل الى فرنسا طالباً هذا العلم ، وقد حدثنا عن سفرته في رسالة عنوانها « رحلة باريس » . وصف في هذا الكتاب الطريق التي قطعها بين حلب والاسكندرونة وصفاً دقيقاً رائعاً . أقول هذا لأني قطعها بعده ، في السيازة طبعاً . وهاك بعض ما قال لنستدل به على قوة مخيلته وتصوّره :

« أوعار ملقاة في وسط الطريق كأنها امواج البحر الجامد معدة لتمزيق سفن البر . صخور منفردة في العراض الخالية كأن الأيام نخرتها والرياح صقلتها لتكون أوتاداً لمضارب الخراب والكآبة . جبال صلعاء القمم ، معممة بسحب القتام ، ولا مزية لها سوى الشمخ الى السماء ، فهي كالجاهل المتكبر او الاحق

المدعي .. اوهاد فاغرة الافواه لابتلاع السالكين على شفاهها ، وهضمهم في
ظلمة وظلال الموت ... قناطر مقطعة الاوصال هابطة تحت ثقل الشيخوخة
ودوس اقدام الزمان ، . ثم يقول :

« وفي احدى مراحل هذه الطريق انفردت مساء إلى جهة من تلك البرية
الساكنة وجلست على صخرة مضطجعة في حضن الوحدة ، وأخذت أقامل
هذه الفلاة الحزينة بينما كانت شمس الغروب تصبغ وجه الطبيعة بصفرة المنون ،
والافق يحوك على سراج الشفق ثوب الظلام ، .

ثم عاد الرائد من باريس مكفوفاً ولم يستفد منها طبعاً . اراد هو الطب
وأراد القضاء الادب ، فكتب « مشهد الاحوال » و « غابة الحق » ،
وكلاهما مستوحيان من باريس . وظل فرنسيس يكتب ويؤلف ، ولما اصبح
غير مستطيع امتعان باصحابه الذين يكتبون ما ييلي ، وظل على ذلك حتى
مات عام ١٨٧٤ تاركاً كتباً عديدة .

شخصيته : كان الشدياق في ذلك الزمان ، يلي من وراء بحرنا فرائد يحلوها
خرائد ، وكان اليازجي والبستاني والاحدب يؤلفون ويصنفون ،
اما هذا الشاب فكان يتناول الى انعاش الادب ، ويحاول بث دم جديد في
الجسم المترهل . كان هو بلبل الشمال الصداح . ادركته حرفة الادب فازور
لتجارة أبيه وأخيه الواسعة ، ورقف فكره وقلبه على النظم والنثر وقفاً
خالصاً لوجه الادب والفكر ، فكان كاهن الحرية الأعظم في هيكلها الذي بناء
لها رفيع العماد في برية الشهباء كما سترى في « غابة الحق » .

نظم الجديد من الشعر متعمداً ، وكتب الطريف من النثر قاصداً ، وقد
قال عن نفسه في معرض الرد على احدهم :

وشيوخ مذ رأى نظمي ونثري فقال وطبعه شرّ الطباع :
ارى معنالك مطروقاً كثيراً فقلت : نعم بمطرفة اختراعي

كان مفكراً يعنيه ان يقول شيئاً ، وضالته الحكمة في كل ما كتب ،
فكثيراً ما كان يخلط الغزل بالحكمة نارة ، وبالنصائح الاجتماعية حيناً ،
وبالفلسفة طوراً . فبينما نراه يتطوَّح في الحب حتى يخرّ الى ذقنه اذا به ينهض
ناقضاً ما علق بأذياله من غبار التذلل ، رافعاً عنقه بإباء الجواد الاصيل ،
ثم يحجم :

أأذوب لا والله لست أذوب ؟ ان قال : ترك . قلت : ذا المطلوب
رح يا رسول الى الحبيب وقل له : مات الغرام ، لك البقا فتطيب
ان المحب سلاك قابشر بالمنى ، واذهب فانت لمن تشاء حبيب

ان مخيلة المراثى ككأس ابي نواس - فأنسى انجهت في شعره ونثره تجدها
منتصبة امامك كالمنارة أمام السفن الضاربة في عرض البحار .

قال اكثر شعره في اغراض جديدة ، وعبارته رقيقة سهلة واحياناً
ركيكة . غزير الافكار وكثيراً ما يعجز عن تأديتها بعبارة صحيحة . مثقّب
المواضيع ، تغلب اللهجة الخطابية على ما يكتب شعراً ونثراً . واضح الصور ،
واسع الوصف ، تشابه واستعاراته وصوره مؤثرة ، ولكنها تفيض عذوبة
وحناناً . يغلب عليه التشاؤم حتى في غزله ، وفي اشدّ مواطن الفرح ترى على
وجهه جهومة ابتسامة حزينة إلا انها صادقة . واني اعزو هذا الى الحصبة التي
أصيب بها صغيراً ، فتركت تشقّقاً وتصدّعاً في بنيان هيكله ، فأدّى ذلك إلى
كفّ بصره وموته الباكر .

وشعر المراثى ونثره يدلّان دلالة صارخة على حبه للعلم ، فكأنّ الطبّ
الذي تعلمه أحاله فيلسوفاً في مشهد الأحوال ، و « غابة الحق » وكذلك
أصاب أصعابنا الاندلسيين اذ استحال طبيبهم فيلسوفاً . وللغربة أثرها البين
في شعر المراثى ونثره ، كما نرى في مشهد الأحوال حين يصف لنا مشاهد
باريسية . كان الشاعر أميل إلى وصف الحضارة والمدنية منه الى وصف

الطبيعة ، وان سمعناه يحنّ إلى جبل أبي العلاء المعري - جبل سمعان -
قائلاً :

فحق أرى الأظمان تعدو بي على « سمعان » حيث مطالع الشهباء
ومنى أرى جبل اللكام يمدّ لي باعاً يطول على حبال النائي

مرآة الحسناء

عنوان ديوان له يقع في ٣٤٨ صفحة ، وهو لو طبع كما تطبع دواوين
اليوم لفصلنا من ذلك القماش دواوين عديدة ، واستقلّ كل من مواضعه بديوان
خاص به . ولكنه طبع في ذلك الزمان ، يوم لم يكن هذا التنظيم والترتيب
الذي يكثّر ورقه ويقلّ كلامه . .

يشور المرائش في مقدمة ديوانه على القديم فيقول : ان المدح اطراء ورياء ،
والقدح حسد وعباء . ثم يعلن في قصيدة لامية الثورة على القديم ، ولكنه لا
يجهل أنه دونهم تعبيراً ، فيعلن ذلك في كل مناسبة ، وحسبنا ان نذكر هذه
الابيات التي ختم بها ديوانه « مرآة الحسناء » معيداً الأمر كما بدأه ، قائلاً :

هفواتي كثيرة ليس تحصى ومن الفضل ليس لي من مزيه
غلطي فاضح فانت سترته فئة الفضل قلت نعم السجيه
واذا رام كشفه ذو كمال كان شكري له اقلّ هديه

وفيه يقول عن نفسه :

تأفف الرقد والجوائز مهمل كنّ ، فالذلّ كله في العطيه

ويحمل المرائش على الشعراء الذين يبيعون شعرهم بالجوائز والرتب والالقب
فيقول :

لا امدحنّ سوى لبيب فاضل او صاحب حامي الدمار مؤاس
ما لي وللألقاب ، فهي بأهلها جاءت كأجراس على أفراس

كم دولة ، أو رفعة ، أو عزّة ، شريت بمال ، أو برشقة كاس
كلمات تعظيم على مستحقّر لم يسو فلساً في غلاء الناس
ان نفس المرائش تحسّ كل ما حولها ، فهو يفتش عن مواضعه تفتيشاً ،
بل يستلهم المكان والزمان وينتزع منها مواضعه . اما رأي المرائش في الشعر
فقد عبّر عنه بيت في احدى القصائد اذ قال :

والشعر ليس يحله شيء سوى لفظ جميل فيه معنى مطرب

وأشهد أنه لو أطال الله عمره وأسست له العبارة قيادتها لكان شاعر
عصره . ولم تعد العروبة حظها من شاعرتنا - وهو العائش في ظل الاتراك -
فاسمع كيف يخاطب الفرنج وان كان من المعجبين بتقدمهم :

حتّام تزرون يا افرنج بالعرب مهلا فلا خير بان قد زرى بأب
ان كان بالعلم جئتم تفخرون فمن معالم العرب كل العلم والأدب
تذكروا ما غنمتم يوم ندوتكم في أرض اندلس من تلك الكتب
وهو يذم الزمان كغيره من شعرائنا ، فقد شاع ذم الزمان عندنا حتى
حملناه ، ومازلنا نحمله ، ائقال كل تقصير ، ولكن الزمان قادر على حمل
الدنيا وما فيها ...

ثم يلوي على شاعر اسمه ابن خياط فيقول متكبّماً بشعره :

رأينا لابن خياط قريضاً يقرّضنا بلا ناب وضرر
اذا ما قال في تموز شعراً أعاد الثلج قنطاراً بفلس

وقد نظم المرائش الموشحات حتى كان ينطلق احياناً من قيود القافية فينظم
قصيدته مقاطع ذات قافية يلتزمها هو كما فعل الاندلسيون قبله . وهو لا يحرم
العلم والاكتشافات الحديثة من شعره ، فيلجأ اليها ليخلق معنى جديداً لم يسبق
اليه فيقول :

تكهرب القلب من برق الطلى ففدا يحاذب العشق لكن قط ما دفعا
وتراه يترسم خطى ابي الطيب ، فينحو نحو ولكن في معنى غير معناه :
الحسن يمنح والتدلل يمنح والقلب يعشق ، والتدلل يردع
كثرت عيون الراقبين وانما عندي قبالة كل عين اصبع
ثم ينحو نحو البهاء زهير في قصيدته : رفعت رايتي على للعشاق فيقول :
انا هو سلطان الفرام وربّه وكل فق يرى الهوى هو من جندي
بيد ان هذا الطموح الى الجديد قد اندفع مع التيار المصري فقال كفيه ،
تواريخ والغازات ، ونظم على طريقة الحلتي قصيدة يبتدىء كل بيت منها بالحروف
الهجائية من الهمزة الى الياء . كما قال ابياتا كلها من المهمل .
وفي الديوان ايضا ما يشبه المواليا ولكنه افصح لغة واصح . وقد لاحظت
في استقراي هذا الديوان ان الشاعر لم يدع حرفاً إلا قال عليه شعراً حتى
حرف التاء والظاء وغيرها . وقد راسل أشهر أدباء عصره ومدحهم كالشدياق
واليازجي وغيرها ، وتلك كانت خطة متبعة في ذلك الزمان كما ذكرنا .
هذا هو ديوان مرآة الحسناء وسأعرفك بمشهد الاحوال وغاية الحق ليس
لأنها كتابان نادران لا تجدهما إلا على رفوف المكاتب الخاصة ، بل لأنها كتابان
من نط جديد .

مشهد الأحوال

وعلى كتاب « مشهد الاحوال » و « غابة الحق » قامت شهرة المراثي ،
فقد كان هذين الكتابين شأن حين ظهرا فأحلا مؤلفهما مقاماً رفيعاً في دنيا
الادب . لم يكن ذلك لبلاغتها ولكن طرافتها - في زمن قل فيه الطريف -
انزلتها تلك المنزلة . بنى المؤلف كتابه « مشهد الاحوال » على احوال الحياة
والمجتمع : حال الكون ، حال الجماد ، حال النباتات ، حال الحيوان ، حال
الانسان . وما قاله في هذا المخلوق الاثني العجيب :

« فغدا يصارع الحاضر، ويرتعد من المستقبل، ويأسف على الدابر. فما ابتسم إلا وبكى ، وما شكر إلا وشكا ، اذا فرح بضعة ايام ، حزن بعض اعوام الى ان يقول شعراً :

انما المرء لا يرى غير بلواه فلا ين الانسان عين قصيره
ولا تعجب ان رأيت السجع في هذا الكتاب فما أرى صاحبه إلا ناحيا
نحو اصحاب المقامات ، ولكن بموضوع غير موضوعهم لأن ثقافته غير
ثقافة اولئك .

ثم يمر بحال الرجل وحال المرأة فيظهر محبته العظيمة لها كالشدياق
حقى يقول :

ان كل اللطف والظرف لقد جمعا في ذلك الجنس العجيب
ويعود فيفصل الانسان : حال الطفولية ، حال الفتوة ، حال الشبوبة ،
حال الشيخوخة فيقول فيها قولاً طيباً . وينتقل الى العمران فيبدأ بحال
العيلة ، وحال الهيئة الاجتماعية ، وحال البلاد ، فيتطرق هنا الى ذكريات
باريس التي فتنته انوارها ، وعاد منها بلا عينين . قال في هذا ' موشعاً من
طراز « جادك الفيث » ، ولما توغّـل في عاصمة النور ذهل وهتف في
قصيدة اخرى :

لست ادري في اي كون مكاني هل انا في باريس ام في الجنان
كل ما جاء في السماع عن الجنة القاه ها هنا بالعيان
ها انا وسط جنة تحتها الانهار تجري لكن بها كوثران
هكذا انثني وخلقي وقدما مي بحال للهور والولدان
حينما الحسن والهوى وهما الاكثر لعباً في مسرح الانسان
فهما للحياة اصل كما اللادوت اصل لبنية الانسان
وكأنه كان مرة على ميعاد مع فاتنة فاوحى اليه الواقع هذه القصيدة التي
انقل لك منها ما يلي وعنوانها « في حرش بولونيا » :

من ذا ينبتني ! فقالت لي : انا قم فالدجى ولتى وصبعك قد دنا
فوثبت أُمسح اعيني واجبتها اهلا وسهلا بالصباح وبالسنا
والله قد قضيت ليلى باكيا واذا غفلت ، فذاك مفعول الضنا
فتأملت ضحكاً وقالت طيباً فلا عتب على من يستخير الأحسنا
ان الخناثة للرجال سجية وهم الذين الى النساء نسبو الخنا

ثم يصف ما يسميه « جسر القناطر » فيقول في وصف حسان باريس :

وقوام كأنه صنم الامرار يوحى بعشقه للسرائر
هيكल الحسن واللطافة لم يحرق عليه سوى بخور الضمائر

ويقول في قصيدة اخرى فيبدع في الوصف :

والصبح ذو مكانس الشعاع يسمى بكنس الظل في البقاع
يرش ماء الوهج اللعاع فينثر الشعاع كالشراع
وتنطوي غبائر الديحور

من لا يرى باريس في دنياه لم يدر ما الجنة في اخراه
ذي جنة ليس لها أشباه ما صاح في جوارها : ويلاه ؟
سوى عديم الذوق والفقير

وينتقل الى حال الشرق والغرب ، وفي هذه الحال الأخيرة يصف لنا ليلة
رقص باريسية في قصيدة طويلة. وينتقل الى حال الزمان ، وهنا يشعر الشاعر
بما رماه به الدهر في باريس ، فينظم موشعاً هذا مطلعها :

جئت أرض الغيث كي اطفئ الظما فطفت ، عزمي وزادت عطشي

ثم يمضي في موشعه حتى يقول :

لم أجد والله في هذي البلاد غير داء لي وللغير دوا

وينتقل الى حال العلم ، وحال الجهل ، وحال التمدن ، وحال المال ،

فيعقد محاورة بين غني وفقير . وتأتي حال الحرب والسلام ، وحال الحب
فيفتح إحدى قصائده في الحب :

ما للمليحة غضبي لا تكلمي كأنها بي لم تسمع ولم ترني

والمرأش شاعر غزل قبل كل شيء ، ولهذا كثرت قصائده في « حال
الحب » . وتأتي حال البغض فلا يحود عليها بشيء من شعره ، ولكنه يرى
البغض مدمراً كما يرى الحب معمراً ، ويختتم هذه الحال بهذه العبارة : فلا ريب
ان البغض آفة الكل والبعض .

ويظل ينتقل من حال الى حال إلى ان يختم الكتاب بأحوال تجعل من
المرأش الاديب عالماً وفيلسوفاً ، ولا عجب ان يلم بكل هذا من رحل الى
باريس في طلب العلم في ذلك الزمان الصعب القاتم .

واذا كان لم يخطر ببالك خليل الخوري الذي تقدم ذكره ، فعد اليه
وقابل بين الشاعرين لتري بينها اقرب النسب . واني اظن ، وان قيل بعض
الظن لائم ، ان المرأش لم يقصد الا زميله خليل الخوري ، حين قال ما مرّ
بك في ذم الالقاب والرتب ...

غابة الحق

كتاب يكاد يكون قصة . طالب فيه مؤلفه بالحرية لجميع البشر حتى
العبيد . دعا فيه الى السلام دعوة صارخة ، ولكن هل سمع العالم دعوة غيره
ليسمع صوته ؟ وكل ما يقال هنا هو ان الاديب قد أدى رسالته ، ورفع
الصوت جهره يوم كانت اعاصير الاستبداد تجتاح الكون ، وحين كان ذكر
الحرية ، بله المطالبة بها ، جريمة لا تغتفر . ولكن الكاتب اللبق عرف كيف
يرفع عقيرته مطالباً بحرية الانسان في عهد سلاطين بني عثمان .

فالمرأش شاعر كاتب خيالي من الطراز الاول ، ألف كتابه « غابة الحق »

على نسق رؤيا يوحنا . جعل القصة حلاً ابتداءً في مطلعها وانتهى في ختامها .
وإذا طالعت هذا الكتاب تعرف ان أسلوبه ، وإن كانت عبارته كثيرة
الخطأ ، قد اتبع زهاء نصف قرن حتى تأثر به الكثيرون من ادباء القرن
العشرين .

تخيّل المرائش انه يستعرض دول الارض منذ البدء ، رآها في فجر التاريخ
دولا عمرانية ثم استحوالت دولا غازية فاتحة تتقاتل على حطام الدنيا وتتناحر
فيلسب الغالب المغلوب وبعد هذا العرض قال : « وانفتح لبصيرتي باب رحب
مكتوب على قنطرتي « العقل يحكم » ، ومنه عاينت وراء هذا الباب برية
فسيحة جداً ، ولاج لي عن بعد يبرق يخفق متقرباً ، فوضعت نظارة الاختبار
وأمنت النظر فرأيت مكتوباً به « العلم يغلب » . وظهرت حينئذ من ورائه
جيوش التمدن الزاهر ممتطية متون الاختراعات العجيبة ، والمعارف الثمينة ،
وهي تخطر متموجة بأنوار أسلحة الحكمة والعدل ، متدعة بدروع الحرية
الانسانية » .

ثم رأى بمالك الظلام تندحر أمام الحكمة والعدل والحرية ، فهدت دولة
العدل سلطانها وقوتها على كل بقعة ومكان ؟ وعم السلام أقطار المسكونة .
ثم رأى الشاعر - في نومه طبعاً - عرشين منصوبين قرب صخرة ينبثق
منها غدير . على العرش الاول يجلس جبار معتقل سيفاً ذا شفرتين - كأنه ذو
الفقار - وعلى رأسه تاج مكتوب على اكليله « يعيش ملك الحرية » . وإلى
جانبه على العرش الآخر امرأة على اكليلها الذهبي سطر من أحرف نارية « تحيا
ملكة الحكمة » .

ها هو ذا ملك الحرية غضبان يتوعد مملكة العبودية بالاجتياح والتخريب ،
وها هي ملكة الحكمة تطايب زوجها وتداوره ، وفيما كان الحوار على أشده
إذا بقائد « جيش التقدم » ووزير محبة السلام ، يقبلان ، وقد أتم كل منهما ما
عهد به اليه . قاتل « السلام » البغض حتى استظهر عليه بسلاح التعليم والتربية ،

وبعد محاورة بين الملكين وقائدهما قرأ الرأي على هذه الكلمات الحكيمة :
« الظالم يرتد وجمعه على رأسه ؛ وعلى هامته يهبط ظلمه » . فخير سجايا
الانسان محبته للسلم ، ونفوره من الحرب والخصومات ؛ فبالسلامة تنمو الهيئة
الاجتماعية ، وتوسع دائرة تقدمها بالثروة والمعارف والآداب . وبالسلامة تخلص
الحقول ، وتعطي الارض غلتها ، وتجود الفلاحة ، ويكثر الحصاد . وبالسلم
تعمر البلاد والقرى ، وتوسع التجارة التي يقوم عليها مدار الاشتراك مع العالم
كافة . وبالحرب تنقطع الشعوب عن مشاركة بعضها بعضاً » .

ألا ترى مثلي ان كاتبنا قد دعا منذ ثمانين عاماً الى ما تدعو اليه
« الاونكو » اليوم ، وانه قد أدرك ما قاله أشهر علماء الاجتماع اليوم : « ما
من أمة بعد ، ولا إنسان ، يستطيع أن يعيش في جزيرة ، قصير الواحد
مرتبط بمصير آخر انسان في أبعد نقطة من الأرض » .

ويحمي وطيس الجدال بين الملكة والملك ، ملك الحرية يريد الشدة والعنف ،
ومملكة الحكمة تنشد الرحمة والرأفة ، فيستدعى الفيلسوف الذي جعل المؤلف
مقره في مدينة النور ، فيأتي ويشرع في بسط آرائه العلمية ، فتتكسر شوكة
غضب الملك . ولكنه يسأل الفيلسوف عن « مملكة الروح » التي سمع بها ،
وانه يريد تدوينها وإخضاعها ، فينبه الفيلسوف للدفاع عنها ويمنع ملك
الحرية من مهاجمتها لانها تؤدي لعرشه معونة جلي ، فهي التي تردع شرائعها
الآثام الخفية التي تعجز الحكومة المدنية عن مقاومتها ، فيرضخ الملك لبراهين
الفيلسوف ويدعن لحجته القوية .

ثم تتشعب المباحث بين صاحبي الجلالة والفيلسوف ، فتدور حول السياسة
والمملكة ، فيشير الفيلسوف بنشر العلم والمعرفة لتقوى دعائم الملك وتثبت
وتتآخى العناصر المختلفة المتشعبة . ثم يجري الحديث حول التمدن فيبنيه
الفيلسوف على خمس دعائم :

١ - تهذيب السياسة .

٢ - تثقيف العقل .

٣ - تحسين المعاداة والأخلاق .

٤ - صحة المدينة .

٥ - المحبة .

ويفيض المؤلف بلسان الفيلسوف في تبسيط موضوع المحبة فيجسدها ويجعلها تحتج على الأدمغة الكبيرة التي سمّتها أسماء علمية مختلفة . قال :

« صاحبة المحبة بعد أن صعدت على منبر النظام الكوني :

أنا التي أوثقت هذه الأجرام برباط الانضمام فكانت أفلاكاً تدور حول بعضها ، فلماذا دعيت التصاقاً ؟ !

أنا التي الفتُ بين العناصر المختلفة فكانت مملكات تزهر بمجد الارتباط ، فلماذا لُقيت غماسكاً ؟ !

أنا التي قد فتحت في أجناس الحياة مسالك الميل لتحافظ على أنواعها ، فلماذا دعيت تناسلاً ؟ !

أنا التي جمعت أشتات البشر إلى هيئة واحدة فكانوا متعاضدين في حروب الحوادث ، فلماذا سميت اغتصاباً ؟ !

أنا التي أقفلت مصارع البحر ، واتخمت كبرياء لججه ، فلماذا أدعى جزراً ومدأ ؟ !

أنا التي حيثما نزلت عمّرت ، وحيثما رحلت خربت ، أنا التي اتخذني التمدن دعامة قوية ، وبدوني لا يثبت له بناء ، فهل يهدمني إلا كل متوحش ؟ » .

ثم يتخطى الفيلسوف أخيراً إلى القول : فلا يخطي من يسمي المحبة الهة الهيئة الاجتماعية .

وبعد أن يعدد الفيلسوف الفضائل جميعها ويشخصها بحجيء دور الرذائل :

الجهل ، والكبرياء ، والحسد ، والطمع ، والبخل ، والحقد ، والنميمة ، والكذب ، والنفاق ، ثم يحشر هؤلاء الذين جعلهم شخوصاً ، في مكان ما من « غابة الحق » ليحاكمهم ملك الحرية . ويتكلم الفيلسوف مقبلاً العبودية بحضرة ملكها المائل للمحاكمة . وبينما المحاكمة جارية اذا بعبد زنجي قد دخل القاعة وشرع يقص على محكمة ملك الحرية كيف أمره وأخاه القرصان واسترقوها . وبعد الحكم على الرق والاستعباد بالموت تجري محاكمة الجهل والكبرياء وجميع الرذائل التي مر ذكرها ، فتظهر منها « غابة الحق » .

وقبل أن يستيقظ المؤلف وينقطع حله ، يرى نفسه في برية الشبهاء موطنه فيراها جنة خضراء ، فيتساءل من أين يأتي الخير هذه القفار المجدبة ، والساقطة من عين العناية ، منذ الف عام وأكثر ؟ فيسمع صوتاً يدوي في الضمير قائلاً : « ابتهجي يا شهباء سوريا ، فها العناية الملوكانية ، مقبلة اليك ، والمراحم السلطانية هاجمة عليك . قد وقعت تحت انظار عناية حضرة ذي الشوك والاعتدار السلطان عبد المجيد خان ، دام ملكه مدى الدوران » .

وهكذا سلم المؤلف رأسه وظهر كتابه « غابة الحق » ومشى بخطوات ثابتة في سوق الادب ، واستقر على رفوف المكاتب ولا يزال .

ان في « غابة الحق » ملامح من كتب الفلاسفة العظام كافلاطون ، ومن حذوا حذوه ، ففيها يحاول المرائش خلق دنيا اجتماعية يسودها السلام والاطمئنان فجعل عمادها « المحبة » القادرة على كل شيء .

والخلاصة ان عمل الخيال في غابة الحق يبلغ مداه الابد ، وقد استولى فيها المؤلف على الأمد . فالعرض والسياق جيدان ، والقص يمشي على رسله وان ركزت العبارة أحياناً . أما الأبطال فلا سمات لهم . لم يستمر المؤلف لشغوصه الأجساد التي تنبثق منها اعمالهم ، وآراؤهم وافكارهم ، بل تاب هو عنهم جميعاً مكتفياً بأسمائهم ، ثم راح يقول بلسانهم ما يقول .

قد يعذر على ذلك لأنهم رموز لا اشخاص ، ولكنه في كل حال مسؤول عنهم لانه خلقهم . اما العبارة فخيالية سهلة ولكنه ينقصها شيء لتخرج ناتئة بارزة . انها كتلك الرسوم التي لم تفز بحظها الكامل من الالوان والخطوط ، فأنشاء المراس على ما فيه من خيال وصور قلما نحس فيه تلك الحركة ، وذلك الزخم .

ليس للمرأش شغشة تعبير اديب اسحق ولا هديره ، ولا صحة تعبير الشدياق ولا ظرفه ولا تهكمه ، ولكنه أقوى غيلة منها . وقد ذكرت هذين لانها كانا سيدي الموقف في الحقبة التي وجد فيها المراس ، فهو ولا شك من قرأء الجوائب .

والمراس يختلف عنها جميعاً في تفكيره ومبادئه ، فهو متأثر بالعلم والفلسفة اكثر من جميع كتّاب عصره ، نزاع الى اصلاح المجتمع ، يدعو الى الاخذ بالحضارة الحديثة . اما ثقافته فتأثرة بالدين ، ولغته تكاد تكون لغة الكنيسة المستعربة حديثاً . . . ولا تنس ان المحيط الذي نشأ فيه كان محيطاً تركي اللسان . فعلمب التي سرت منها الفصحى الى لبنان كانت اللغة التركية تجري على ألسن معظم سكانها .

وبعد ، فلست احدثك عن الأخطاء اللغوية في كتب المرأش هذه لأنها كثيرة جداً . ولا عن الاسهاب في التعبير لان عبارته غير مرصوفة ولا متلازمة ، وهو يزج في شعره ونثره الالفاظ العامية غير الفصيحة ، ويتصرف كما يشاء في الاشتقاق والجموع ، ولو خلا نظمه ونثره من مثل هذه العيوب لكان اكتب واشعر اهل زمانه .

شاعرا الكلية

هما الياس صالح وسليم عازار وكلاهما ماتا في شرح الشباب .

كان لهما يد في التجديد والتوليد ، ولم يقولوا الشعر مقلدين . قال الياس صالح شهادة بكوريوس علوم سنة ١٨٨٨ ومات عام ١٨٩٥ . قال زيدان فيه : « ومن غريب قريحته انه جمع بين الشعر والانشاء ويندر ان يتفق ذلك لواحد ، ولذلك استدعته جريدة المقطم ، فتولى التحرير فيها حتى مات . ولو فسح في أجله لأتى بمعجزات البيان . كان متضلعا من قواعد اللغة قابضا على أوابدها وشواردها ، وعارفا باشتقاقات الألفاظ ومواقعها . »

وينعت زیدان بحلاوة النكتة . ولعل هذه الحلاوة هي التي أمرت عيش أحد معاصريه حتى استولى على بيت الانسي ليحرقه ويقول فيه :

هو طالح لا صالح لكنهم غلطوا ولم يضموا العصا في رأسه

أما أشهر قصائده ، ولعلها هي التي اطارت صيته ، فهي قصيدته التي عنوانها « الحرية » . ولها حكاية كنا نسميها في صبانا ، ولهذا أحب الآن أن أمتنع القاريء بها . كان ذكر الحرية يخيف السلطان عبد الحميد ورجاله ،

وكان خطيب حفلة الكلية - الجامعة الاميركية - تلميذها المتخرج الياس هذا . وكانت الحفلة تحت رعاية والي بيروت ، فقام الياس بفشد :

خلّ عنك الوقوف في دارميّة واعتزل ذكر زينب وأميّه
رحم الله كل من قال شعراً في ربوع الاسلام والجاهليه
انما دارنا بمن شرفوها عن سليمى وعن سعاد غنيّه
لا تلمني يا عاذلي بهوامها فانا قيس هذه العامريّه
وعلام الملام والقلب قلبي وممي فيه « حجة شرعيّه »
فاذا كنت تدعيّه فقدم « عرض حال » للأعين التركيّه
الى هنا كان دولة الوالي منشرح الصدر ، حتى اذا ما أنشد الشاعر .
هذا البيت :

واتخذنا سلاسل الشعر قيداً فنسينا المسكينه الحرية
تجهّم وجه الوالي واستعد للطوارئ . ومضى الشاعر في إنشاده حتى قال :
أنت حرّ يا أيها المرء فاعلم ولك الملم فيه والاسبقيّه
يتمنى الانسان لو كان عبداً ويُقيم الأدلة العلميّه
ولكم قد رأيت من حيوان يقضمُ الحبلَ بغية الحرية
يا بني أمتنا ذوي الفضل بل يا معشر الناطقين بالعربيّه
لست عبداً أنا ، ولا انت مولى ايها اللابس الحلّ الذهبيّه

انتفض الوالي لما اشتدت الأزمة ، ولم يبق في استطاعته السكوت فوقف
وقال للشاعر : باسم جلالة مولانا السلطان أقول لك : قف ! فهب ، عندها ،
رئيس الكلية ، متذكراً الامتيازات الأجنبية ، وقال : وانا أقول لك :
باسم حكومة اميركا كمتل .

وكان الشاعر أقوى بديهية من الوالي والرئيس فأتّم كلامه مادحاً جلالة
السلطان ارتجالاً ، دون ان يفلت منه خيط الموضوع ، وهكذا أنقذ الموقف .

هذه هي حكاية معلقة « الحرية » في عصارى القرن التاسع عشر ، وأن
لشاعرها مقدرة على ارسال الكلام حلواً مبتدعاً كما قرأت ، وكما ترى في
هذين البيتين :

ونحوية ساءلتها أعربي لنا : حبيبي عليهالبين قد جار واعتدى
فقلت حبيبي مبتداً في كلامهم فقلت لها ضحية ان كان مبتداً

أما سليم عازار فكان شاعراً له حلو الكلام كما كان له كالياس صالح قصر
العمر ، فكلاهما ماتا مسلولين . كان الياس نحيلاً كما وصفه زيدان ، أما سليم ،
وقد عرفته شخصياً ، فكان عملاً ضغماً ، ولكن الداء لا يهاب طولاً
ولا عرضاً ...

لم تكن شهرة سليم عازار في الكلية دون شهرة الياس ، فكلاهما تقريباً
من معدن واحد ، وكلاهما طريف ظريف ، وأشهر ما قرأنا لسليم هذه
الآبيات الرائعة من قصيدة :

تقلبين تقلب الطقس	جار الزمان وصرت يا نفسي
في اليأس أو أشقي من اليأس	طوراً على أمل وآونة
فيك ربّات الهوى أمس	أين السرور ، وأين ما عهدته
بالحزن ، بالانشاد ، بالدرم	أزهدت في دنياك قانعة
لمأ عبت معاهد الأنس	عودي الى الماضي فقد عبت
زهو الصبا ولطافة الجنس	عودي فليس بما اهتمت له
للحب ، للشعار ، للكأس	عودي فقد صيرتني ظمناً
شئت افعليه ، فليس من بأس	او لا فكوني كيف شئت ، وما
من نفسه ، أسمع يا نفسي ؟	لا خير في من ليس ذا ثقة

وبما اننا في الحديث عن رائدين مسلولين ، لا بأس ان نذكر بعض قصيدة
قالها رائد يصف مسلولاً ، ثم مات هو بعدئذ ، بالداء الذي وصفه ، وما
هذا الشاعر إلا محمد إمام العبد أحد الرواد . قال :

عشق الموتَ حكرها في شبابه ربّ موتٍ بحار في أسبابه
قبل أن يدفنوه في الرمس ميتاً دفنته الأيام في جطبابه
فاذا رمت ان تراه بعين لا ترى غير أنه في ثيابه
لو تقي مكانة الملك ومما لاكتفى بالنحول عن حجابيه
كيف تقوى كفاه في موقف المرض اذا كلفوه حمل كتابه
قطرته المتون في الليل قطرا تكتفي بالنجوم من أصعابه
أيها الموت ، لا عدمتك خلا طالما أنقذ الفتى من عذابه

ولإمام العبد هذا حلاوة النكته ، ولا بدع في هذا لأنه مصري . لأمه
أحدم على تركه الزواج ، فأجابه بيتين لا أذكر غير الأخير منها ، ولكنه
الزبدة ، قال :

أنا ليلٌ وكل حسناء شمسٌ فاجتماعي بها من المستحيل
أرأيت أنه ، بعد عنقرة ، قد احسن استغلال سواده . ، والأرض السوداء
مغلل ، كما قلت في كتاب « الرؤوس » .

انتعاش الشعر

البارودي وأرسلان

صدق من قال : الشعر اسبق في آداب الأمم من النثر . أليس هذا ما رأيناه نحن عند روادنا الأولين ؟ أما قرزموا الشعر جميعاً فجاء علينا سقيماً يسأل الله العافية والستر ؟ وظل ركيكاً غير مصقول حتى كان له محمود سامي البارودي فأقال عثرته ونهض على يديه من كبوته .

قال البارودي الشعر عباسي الديباجة ، وإذا غلبت عليه الحماسة فلا عجب لأنه أحد الشعراء الفرسان الذين تغنوا بالسيف والرمح ، ولم لا يكون كذلك وهو بطل الثورة العربية .

لا تمنينا هنا مواضيع الشاعر بل ديباجته التي أعاد بها إلى الشعر رونقه القديم . وإذا سمينا هذا الرائد زعيم مدرسة فلا نقول إلا الحق ، فهو الموطئي ، لاسماعيل صبري ، وأرسلان ، وشوقي ، ومطران وحافظ ، وقامر الملاط ، وتقي الدين ، ووديع عقل ، وغيرهم من شعرائنا الأحياء .

كان البارودي متأثراً بفصاحة القدماء وقد أسعفته قريحته وإرادته فقل شعراً لم يسمع في عصره مثله ، فذكر الناس بالبحري وسواه من شعراء الديباجة الدمقسية . ستقرأ شيئاً من شعره بمناسبة الشيء بالشيء يذكر ، أما الآن فأرجو منك ان تقرأ له هذه الابيات الثلاثة :

هل من فتى ينشد قلبي معي بين خدور العين بالجرع
كان معي ثم دعاه الهوى فمرّ بالحَيِّ ولم يرجع
فهل اذا ناديته باسمه يفيق من سكراته أو يعي ؟

وكان الأمير شكيب ارسلان طريّ العود يوم تطاول الى مقام البارودي الرفيع ، فساجله ، وهو في منفاه بسلان ، ولا بأس عليّ إذا ما أعادني تداعي الافكار نصف قرن الى الوراء ، وعدنا معاً الى المعهد الذي نشأ بين جدرانهِ الأمير شكيب ارسلان . ففي ضحى النهضة كنا في مدرسة الحكمة ، وكان لا يعنيننا غير الشعر وقائليه . كنا ننظمه بلا ملل ، وتبارى فيه بلا وجل ، وكان شكيب ارسلان قدوتنا . كان نجمه قد لمع ، ثم طبع ديوان شوقي الاول وفي مقدمته ذكر لشكيب فكبر في أعيننا حين قرأنا قول شوقي فيه :

صعبت شكيباً برهة لم يفر بها سواي ، على ان الصحاب كثير
وضخم أمر الأمير شكيب في أذهانتنا حتى كنا نفضله على شوقي لولا قصيدة شوقي « خدعوها » التي حفظناها جميعاً ، ولم نبال بتعنيف معلنا الخوري « ص » المحافظ على طهارة أجسادنا لنظل هيكلاً للروح القدس .
وأول ما أذكره من شعر شكيب هو رثاؤه للبارودي . استقبلني هذا الرثاء عام دخولي مدرسة الحكمة سنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥ . وقد كان الشيخ رشيد تقي الدين ، إمام حلقتنا المعكاظية ، يلبجج بهذه القصيدة ويردد مطلعها :

يا ناظريّ ألياً تذر فان دما أمكذا عهدنا أن نحفظ الذما

ويطفي رشيد إذ يبلغ هذا البيت ، حتى تخاله الفرات وقد زعزعته
رياح الصيف :

فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبةً معه ، وقولوا لشوقي : انه يتنا
ثم ننتقل الى قصيدة حافظ ابراهيم في رثاء محمود البارودي أيضاً
فنتطرق بمطلعها :

ردوا عليّ بياني بمعد محمود إني عييت ، وأعيا الشعر بمحمودي
فنرى في حافظ رشاقة كما رأينا في شكيب متانة ، ونرى في «لأيا»
بمطلع قصيدة الأمير ما يذكرنا بالنابغة ، فتعلو كفته على كفة حافظ ، تلك
كانت عقليتنا ... بل عقلية من علمونا . ويزداد شكيب علواً حين يروي
لنا رشيد بصوته العريض قصيدة البارودي لشكيب :

أدّي الرسالة يا عصفورة الوادي وباكري الحيّ في قولي وإنشادي
لعل نعمة ودّ منك شائقة تهزّ عطف شكيب كوكب النادي
هو الهام الذي أحيا بتطقه لسان قوم أجادوا النطق بالضاد
ثم يهلف بنا : شباب ، سمعتم هذه الشهادة !! بلا طقّ حنك يا مارون.
سعيد ، - سعيد عقل الشهيد - اسمع جواب المير شكيب :

هل تعلم العيس اذ يحدو بها الحادي ان السرى فوق أضلاع واكباد
تحمّلوا ففؤادي منذ بينهم في إثرهم نضو تأويب واستاد
الى ان يقول شكيب للبارودي ، رئيس النظار - الوزراء - المعزول :
ان يحجبوك فما ضرّ النجوم دجى ولا زرى السيف يوماً طي أغماد
وننتقل الى مساجلة ثانية . وهي قصيدة كتبها محمود سامي من منفاه ، في
جزيرة سيلان ، الى الامير شكيب ، فنروي جميعنا أبيات البارودي الرائعة
في وصف الليل :

أرعى الكواكب في السماء كأن لي عند النجوم رهينة لم تدفع
زهر تاللق في السماء كأنها حبيب تردّد في غدير مترع
والليل مرهوب الحية قائم في مسحه كالراهب المتلفع
متوشح بالنيرات كباسل من نسل حام باللجين مدرّع
حسب النجوم تخلفت عن أمره فوحى لهنّ من الهلال بأصبع

ويحتاج الشيخ رشيد القصيدة ، هادراً كنهر الباروك ، حتى يبلغ مدح
البارودي للامير فيمشي الهوينا ، وعينه عليّ ، عند هذه الآيات :

نبراس داجية ، وعقلة شاردٍ وخطيب أنديّة ، وفارس مجمع
صدق البيان أغص جرول باسمه وثنى جريراً بالجرير الاطوع
لم يتخذ بدر المقنع آية بل جاء خاطره بآية يوشع
أحيا رمم الشعر بعد هوده وأعاد للأيام عصر الاصمعي

ويفتقل رشيد الى انشاد جواب الأمير ، فلا يروي وصفه المجرة والليل ،
بل يروي لنا فخره :

وطلمت اعثر بالسيوف ولو درى أهل السيوف مقامتي لم افزع
أيعول مهجتي الكفاة وماهم فخر سواي اذا اغتدوا في جمع
وترى تخون الخيل فارسها وهل يُردّي الحسين على يد المتشيع
او من لهم مثلي اذا عبس الوغى وتضاحكت انياب ثغر المصرع
وتشاجرت سمر القنا وتجادبت بذواثب ، والسيف شبه الاصلع
ولقد بذرت السابقين فمن لهم بوقوف سير بالمكارم موضع
وبلغت من سامي الفخار وجاءني التقريظ من محمود سامي الارفع
خنذيد هذا الدهر ، واحد أهله مقدم حلبته الأغر الأبتع
القاتل الفصحى التي عن مثلها يشني المقفع في بنان مقفع

ونظّل سكارى بهذه المذاكرة حتى يصيح بنا هادم اللذات : هوب ، لا

Vous parlez l'arabe فنثر بعض ألفاظ فرنجية ، ويتفرق العشاق ...

وينقضي عامي الأول في مدرسة الحكمة فالتلمذ في عامي الثاني والأخير للشيخ سعيد الشرتوني . ونأتي على ذكر أسلافنا الذين أخرجهم معقل الضاد ، حتى إذا جاء ذكر شكيب انتفعت حدقتنا شيخنا سعيد وقال : المير شكيب قفلة .

فقلت : وما معنى قفلة ؟ فاجاب شيخنا الجليل : أي يحفظ كل ما يسمع ولا ينساه ، فكأنما يضعه في صندوق ويقفل عليه . ثم طفق بطري ثروة شكيب اللغوية كل الإطراء ، وقال في شعره وشاعريته كلاماً كثيراً .

ولما افلتت من قفص المدرسة وزاولت الصحافة صرت أقرأ للأمير شكيب شعراً في كل مناسبة خطيرة . إنقلب شعره مطية سياسته ، فلم يمر حدث في الشرق الا تناولته قريحته بما حضر ، فشارك في كل معضلة بقلعه ورأيه ولسانه . لم يمدح غير العظام ، وقلما قال شعراً في غير الحوادث الجسام ، وكثيراً ما تلاقى مع شوقي ومطران وحافظ وبارام في خطوب الشرق . واول مرة سمعته فيها ينشد كانت عام اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، بيد انه لم يعنف ، ولم يَلْم ولم يهاجم مثلاً . عدّ الدستور منة من جلالة السلطان ، واوصى بالتعلق بالعرش ، فلم ترق قصيدته للمتطرفين منا .

وظل الامير ، على توالي المحن ، صديقاً للدولة العلية يشدّ ازرها ، ويرى فيها العروة الوثقى . فبينما كان افذاذ العرب يمثلون في الاستانة رواية صلاح الدين الايوبي قبل الحرب العامة بسنة ، وكلهم ساخط حائق ، وفي مقدمتهم مبعوثهم - نوابهم - كالزهرراوي وفارس الخوري ، وغيرهم اذا بالأمير شكيب يقول للحفل من قصيدة :

فمن كصلاح الدين تمنو لذكره رؤوس أعاديه ومن ذا يعادله

الى أن يقول :

وكيد على الأتراك قيل مصوب ولكن لصيد الأمتين حباله

تذكرُ قديم الامر تعلم حديثه فكلُّ أخيرٍ قد نمته أوائله
إذا غالت الجلى أخاك فانه لقد غالك الأمر الذي هو غائله
فليست بغير الاتحاد وسيلة لمن عاف ان تغشى عليه منازل
وليس لنا غير الهلال مظلة ينال لديها العز من هو آمله
ولو لم يفدنا عبرةً خطب غيرنا هان ولكن عندنا هم نائله
سيعلم قومي انني لا اغشهم ومهما استطال الليل فالصبح واصله

ان للأمير قصيدة رائعة هي بالملاحم أشبه . قالها في وصف وقعة حطين ،
وهي أبلغ قصائده ان لم تكن خير ما قيل في موضوع كهذا .

أما الرأي في شعر الأمير فقد قاله خليل مطران : « حضري المعنى ،
بدوي اللفظ ، يحب الجزالة حتى يستسهل الوعورة . نبغ منذ طفولته وكان
أبكر الفتيان في نشر ديوان له . وجاء ديوانه في وقته آية ، غير أنه لم يلبث
أن ترك الشعر وانصرف إلى الترسل فحبس فيه ما أوتيه من العبقرية . على أنه
قد يدعو دواع من النفس فينظم . ينظم كما ينثر ، فيتاض الفكر غير تعب ،
ولكن نظمه يحمل في عهده الأخير أثراً من نثره . » هذا رأي مطران في
شعر شكيب ، وقد أثبتته الأمير في صدر ديوانه . أما رأي الأمير شكيب
في الشعر فهو هذا ، كما جاء في كتابه « شوقي أو صداقة أربعين سنة » :

« ولو كانت المقدمة مما يهجن الشعر لوجب ان يكون هوامير منبوذاً فانه
أقدم شاعر . ونحن نقول لهؤلاء الذين لا يفتأون يتكلمون في القديم والجديد
من الشعر ، ويزعمون ان لكل عصر مدرسة : ان هذه المدرسة تكون في كل
شيء إلا في الشعر ، فان مدرسته هي القلب ، وأن طريقته هي النفس ،
وان النفس البشرية لم تتغير ولن تتغير - فهي هي في اذواقها ومشاربها
ومواردها في الحياة ومصادرها . »

« هذا من جهة الشعر على العموم ، أما من جهة الشعر العربي الذي تريدون
أن تفرنجوه ، فالشعر العربي لا يكون شعراً إلا اذا وافق ذوق العرب ولام
مشارب أنفسهم ، وجانس مذاهب لغتهم ، واتصل بمناحي حياتهم . فاذا باين

الشعر العربي أساليب العرب في بيانها ربما لم يفهموه أصلاً ، على حد ما قال
الاستاذ محب الدين الخضيب : ان الواحد من هؤلاء يظل يومه يسطو على
منظومات الافرنج يستل منها معانيها الغريبة عن الاذواق العربية ، فيصوغها
بألفاظ وتراكيب يلحن بعضها بعضاً ، فلا يفهم منها القارىء العربي إلا بقدر
ما أفهم أنا من الصيني ،

ثم يعقب الأمير على هذا الكلام بقوله : « وأنا أيضاً اعترف بأنني لا أفهم
هذه اللغة التي يكتبون بها ، »

هذه آراء الأمير وغير الأمير في الشعر ، أما أنا فأرى ان الأمير متأثر
بمستأذه الشيخ عبد الله البستاني . والشيخ عبد الله كان معجباً ناطقاً قلما فاتته
شاردة أو واردة . يقول الشعر كطرفه وعنترة . واليك مطلع قصيدته التي
هنا بها الخوبك بالبطركية :

حي القطين وناسم عني الدار دارا ودر مع اليمن فيها كيفما دارا
وهو متأثر كشاب في أول حياته الادبية ، باحمد فارس الشدياق ، علم
اللغة المفرد . فلا تعجب ان رأيت في الأمير نفحة جاهلية وثروة لغوية .
فشعره الأول ، وخصوصاً نقائضه مع البارودي ، هو أصفى شعره وأنقاه ،
مع انه لم يكن اجتمع أشده .

أما ترسله ، وخصوصاً في كتابه « اتاتول فرانس في مبادله » ففيه شبه ،
لفظاً وسرداً ، بأسلوب الشدياق الذي أثنى عليه الأمير حين ذكر رثاء له فقال
عنه : « امام اللغة وفارس ميدان الانشاء » الذي عرفته باثارة وقطفت من نوارده .
وبكلمة بحلة أقول : لو لم ينصرف الأمير شكيب ارسلان إلى خوض غمار
السياسة التي تتطلب الترسل أكثر من النظم لكان هو أمير الشعراء لا شوقي .
وسبحان مقسم الارزاق .

شّاكر بك النخوري



قال لي موسى صفيّر صاحب مكتبة المعارف : كلفني شاكر بك النخوري ان افتش له عن واحد يقرأ عليه كتابه « جمع المسرات » فيصحّ له الخطأ النحوي والصرفي ، فخطرت انت ببالي ، فما رأيك ؟

و كنت قد فصلت من الكلية اليسوعية ومدرسة الفرير لأنني محرر جريدة « النصير » المطالبة بتأليف « مجلس ملي » لأبرشية بيروت المارونية ، فأجبت : نعم .

فقال موسى : يدفع لك البيلك عشر ذهبات عثمانية عند النهاية .

فوجئت ثم أجبت : لا بأشّ.

وبلغ الخبر أحد أصحابي فقال لي : شاكر بك « عملته رديّة » وهو هجاء ، قلما سلم من لسانه أحد ، كبيراً كان أم صغيراً ، فلا تعرّض نفسك .

فقلت له : وأنا عندي ما عنده . أتخاف عليّ !

واجتمعنا أول يوم في دار البيك وشرعنا نقرأ ، فرّثت كلمة « التقنيس »
فقلت له : « التقمص » فتفكر قليلا وقال : التقنيس مفهومة أكثر . وبعد
قراءة جملة او جملتين ، مرّثت كلمة « تقاصصه » فقلت له : تقاصّه . فقال :
وهذي أضرب من هاتيك .

فقلت له : إذن ماذا تريد مني ؟ قال : إبداء الرأي ، وأنا أرى الموافق .
ثم جاء دور الشعر ، فعرض عليّ أبياتاً نظمها لتكتب تحت رسمه ، كما
جرت العادة في ذلك الوقت ، قال الدكتور :

لا بد من وبخته لقباحة يبدي الغضب
أو من مدحت قريبه بزيادة عنه انورب

فهزّرت رأسي ، فقال : مالك انوربت انت ايضاً ؟ فقلت : لو غيرنا هذا
الشطر الأخير ، فأوما برأسه أن لا ، وأنشد :

مها فعلت فأنتي ما بين قومي في عتب
لي أسوة بمسيحنا فأقام ميتاً وانصلب

وهنا وقعت الواقعة ، فأصررت انا على القول : أحيا لعازرَ وانصلب ،
وأصرّ هو . وأخيراً صاح بي :

أفضل كسر الشعر مع حسن سمعه على نظم موزون لسامعه قتل
ثم كانت الكلمة الأخيرة له ، فعلت ان لا طبّ مع هذا الطبيب ، واني
شاهد زور لا أكثر ولا أقل . وكان البيك مصاباً بالسكري ، فكانت
يبول بلا حياء فيذكرني ببشار ... ورآني امتعضت فقال لي : مارون أنت
مثل أولادي . لا تؤاخذني ، أنا ملازم سريري ، وفي روحتي ورجعتي ، كل
نصف ساعة ، تضييع وقت كثير .

وكان الظهر فقمت ، فقال : اقعد . خبزي اسود ولكنه صحّي اكثر من
خبز السوق الأبيض . وأنا جبلي مثلك . تتفدّي معي كل يوم ، وتأخذ
أجرتك وحبّة مسك ...

فضحكك والتفت الى « الكوميدينا » فأدرك حالا وقال : يظهر انك اخو راسي ...

ومضينا في عملنا ، فأنستني نظافة طعامه كل ما عداها . كان على المائدة يشرح لي أموراً كثيرة ويحدثني عن كتابه : « صحة المتزوج وزواج العازب » ويصارحني بما يتعلق بي من موضوع الكتاب ، ويقول : هذه دفعة ، قيدها . فيدق قلبي وأتذكر قول صديقه « في عمله » . ثم حدثني عما ينفعني من كتابيه الآخرين « نائب الطبيب » و « صحة العين » وأفاض ، ولما انتهى قال : هذه دفعة ثانية ، قيدها معك .

فقلت له : انا لا اقبض « عملة حكي » هذي بضاعتي ، ولو كانت تجوز كنت اغنى البشر .

فقال : قال لي صاحبنا موسى انهم خوفوك مني . لا تخف يا ابني . انت لست بمن أطمع فيهم . كل ملوخيا . كل لا تستح .

فقلت : اخاف ان « تملخ » رقبة حسابي ، فضحك وقال : خطيئتك في رقبتي . احرق دين « الجاط » . كلته كله . حسابك رقبته غليظة لا تملخ ...

وكان شاكر يتنادر حتى على أولاده ، فلما دخل علينا ابن له طويل ، قال لي : تعرف ماذا انتقيت له وظيفة ؟ فبهت . فقال : ان يضوي قناديل البلدية لانه لا يحتاج إلى سلم . طول بلا غلّة . . . وظللنا شهرين ثلاثة نقرأ ونتغدى ، وقبضنا اجرتنا علاوة ...

هوذا حق خبزاتك أهـ الرائد الذي لم يكذب أهله . فكتاب « جمع المسرات » فارياق من طراز آخر . كشكول طريف ، وصاحبه مطبوع على النكتة القارصة . كان يشتريها بالثمن الموجه كل من يتعرض له ، ولذلك هابه معاصروه كما هابوا بشار بن برد . كان هجاء محترفاً لا هاوياً كالخاج عمر

الأنسي . وقد أبقي هجاءه السخن لديوان سماه « مجمع الحشرات » ولكنه لم يظهره في حياته . ولست أدري اذا كان « قبض » ممن هجاءه حين فتح باب الاشتراك بكتابه « مجمع المسرات » فعدل عن ذاك كما حذف الكثير من هذا . لقد كان الاشتراك بكتابه جزية أو ضريبة أداها الأغنياء عن يدٍ ، ليسلموا من لسانه ..

فكتاب « مجمع المسرات » ترجمة حياة ، ومذكرات مكتوبة بأسلوب ، طرافته في بساطته . ليس يسأل صاحبه عن التحليل ولا الفراء . فيه صفحات من تاريخ لبنان ووصف للحياة في عصر مؤلفه ، وفيه اشياء عن مصر وغيرها من الامكنة التي حلتها ركابه . فالرجل بشاري فاريافي ، ولو كان في عصر الشدياق وقرأ ركاكته ورطانته ولحنه لشمرت الحرب عن ساقها . فهو من هذه الناحية فقير جداً جداً . وأما من ناحية الشخصية ففني . إلا أنه يظل في الحالين هجاء عصر النهضة ، ولونا طريفاً من الوانه ، فكل كتابه نكات ونوادر . والذي لابس كما لابسته ، ورآه في مبادله كما رأيت ، يقول مثلي : انه نكتة النكت .

والآن فلنعرض عليك نماذج بضاعته لتحكم أنت بنفسك . وصف شاكر بك حياته من أولها الى آخرها كما تذكرها ، فهو يزعم لنا انه لم يدون شيئاً منها قبل ان فكر بتأليف كتابه هذا الذي يقع في سبعمائة صفحة من القطع الكبير والحرف الوسط . حدثنا شاكر عن « درسه العربي » في المدرسة الوطنية ، للمعلم بطرس ، قال :

كان معلنا الشيخ ناصيف الشهير . فكان يقول لنا - في الصف - أول موّال عمله ، ويبتدئيء بعمل « مطلع » على المعنى . وكان يقول انه هو الذي علّم ذاته ، وان المعلم بطرس البستاني يعرض عليه تأليفه القاموس المحيط المحيط . وكان يعطيني الكرّاس المصلح لأعطيه إلى المعلم بطرس ، وكان يقول لي عند ذلك : أنا « القاموس السيار » .

وعند غيابه كانت يوكل ولده الشيخ ابراهيم بالدرس . وكان لابساً أي الشيخ ناصيف - عمامة سوداء مع قفطان وجبة وصرماية حمراء ، يخلق لحيته وهو بن الشيخوخة ، وكان بيته قريباً من المدرسة وهو من المولعين بشرب القهوة والتدخين ، وقد كان يعهد إليّ بأشغال سيكارتة أو غليونيه ، فكنت أذهب إلى خارج الدرس وأشعل له الغليون بعد ان ادخن فيه قليلاً ... وكثيراً ما كنت أهمل دروسي ولا أجيب على السؤالات ، فكان يلتفت إلى المرحوم أخي خليل ويقول له :

اخوك أخو مكاسلة وجهل فقل لي يا خليلي كيف أنت
وكان له صوت جرش ولسانه غير فصيح لا تفهم كلامه إلا بصعوبة ، وهو مولع بفن الموسيقى وصوته لا يطابق النغمات . وكان معنا احد التلامذة له صوت جميل ، كان الشيخ يغني أمامه بعض تواشيح يتعلمها ^(١) .
ونخبرنا شاكر ايضاً انه اسس مدرسة لما أيس من الوظيفة ، ثم تركها عندما وفق إلى عمل . ألا يدلنا هذا على ان مهنة التعليم كانت ، كما هي اليوم ، عمل من ليس له عمل !

ويحدثنا عن الخوري موسى الذي علّمه الهجو . ويقول : « ان الخوري موسى آية في الفصاحة والعلوم والعفة والاستقامة ولكنه مصاب بداء البخل فكان يجمع كثيراً ولا يصرف شيئاً . ما اضاف أحد بزمانه الا لغاية أو لخدمة او لجرّ منم » . ووقعت العداوة بين الخوري موسى والدكتور بسبب امرأة فقيرة عاجلها هو ، وكتب الى الخوري موسى « لاعطائها كم رطل من الطحين » فمزق الخوري الورقة ولم يعطها شيئاً ، فاشتد الخصام بينها فصار الخوري موسى يشيع ان الدكتور « كافر بلا دين » فكتب شاكر « قانون ايمان » جديد هذا هو :

« أوّمن بخوري واحد ضابط كل وقف الموارنة ، ما يرى ولا يرى ، وبشامس واحد ابنه الوحيد ، لا ينقص ولا يزيد في بيع ، ونؤمن بطانيوس

(١) مجمع المسرات ص ١١٦ و ١١٧ .

بو ناضر المنبثق من الخوري والشماس، وبكنيسة واحدة بسكنتاوية . وبخوري واحد يبقى لدهر الداهرين ، ليكفر الأحياء والأموات ، امين .
ثم قال في المحترم شعراً ، كان باكورة الهجاء :

لا تعجبوا ان رأيتم بعض طائفة	في البخل قد شهروا سرّاً واعلانا
لأنهم قبلوا عند السلام بدأ	للأب موسى فأعدام كما كانا
لو مسّ حاتم طيّ كفاً حضرته	لكان أبخل خلق الله انسانا
ولو حوت داره ماء الفرات وقد	تملك النيل اكراماً وإحسانا
وفي الصليب أتى يسوع سيده	وقال يا ابني موسى، بت عطشان
ما جاد عن كرم في بلّ اصبعه	وقال: مت. ان فضل الموت ظمآن
قد سنّ موسى عموداً في شريعته	وقيّة العهد للإيمان أعطانا
من جسها كان متقاداً الى عدم	يموت في الحال محروماً ومنهانا
فقبّة الأب موسى بيت موته	رغيفها بات كالأقداس منصانا
عزريل يحرسها من كل ناحية	انّ حضرة الاب عنها بات غفلانا

هكذا شقّ شاكر طريقه ، وراح يهجو الاصدقاء والاعداء ، فالتكتة عنده اقوى من المحبة ، وان قيل ان المحبة اقوى من الموت ، ولهذا قال يهجو لمحبة صديقه الدكتور سليمان مشاقه ، معارضاً قول المتنبي : نشرت ثلاث ذوائب :

ذو لمحبة دكتور ابن مشاقه قصد الغدير بعصر يوم الاربعاء
خلع الثياب وغاص قصد سباحة فاراني ، الذقنين ، في وقت معا
وقال في أمير كان يلزم السكوت ولكنه نطق حين قابل الدكتور :
أمير حافظ أبدا سكوتاً وقد عدوّه من بكم الزمان
وقد أنطقته لما رأي فظنوا أنني بلمام ثاني
وقال يهجو قسيساً لم يعجبه لسميه بين الناس :

وقسّ للفساد غدا إماما ولم يقض الصلاة ولا الصياما
ولم يحفظ من الانجيل الا سوى : ماجئت كي القي سلاما

وقال كاهن الرومي في صاحب الحية :

لحبة أبشع منها وجه حاوياً المؤرخ
بقمط أرخوها فاستحقت قلب أرخ

وقال في طبيب كبير الشاربين :

في شخص جرجس مارون قد اجتمعت حاجات طبيب حوت كل العقاقير
رؤياه مسهله ، أيدي قاذضة ، وشارباه رباط للبواسير

وقال هجو قاضياً :

إذا قاضي بلادك صار يبطي فذاك دليل « أيجد ثم حطي »
وقال في أناس أرادوا لعب الورق راغبين عن سماع شعره :

ولقد حفظت عن المسيح وصية وهي التي لا تحقدوا بل إصفحوا
وعصيته في طرح شمري بينكم ياليتني قد طمت في لا تطرحوا..

أي : لا تطرحوا جواهركم أمام الخنازير .

وحضر رواية الوردتين للمعلم عبد الله البستاني ، فكثرت المقرظون حتى لم
يبقى وقت لاستماع الرواية ، ففض هو المشكل بقوله :

رواية الوردتين اليوم قد ظهرت فقرّظت كل تقرّظ كتليخ
لا شك في أن ذا التقرّظ ينفعها لا بدّ للورد من زبل للتسبيخ

قال : وقلت في جريدة استغنم صاحبها فرصة نفوذه ، فكان يطرحها
للاشتراك حتى اشترك ثلاثمائة شخص لا يعرفون القراءة :

هذي الجريدة في البلاد جرادة امسى بها « لبنان » اصلع أجردا
مأكولها من ابيض أو اصفر وبرازها ابدأ تراه أسودا

ومرّ على دير رهبان لم يعجبهم ولم يعجبوه فقال نختما قوله فيهم :

لم يشبهوا يسوع في تاريخهم الا بملاد لهم بين البقر

وامتدت لشاكر الخوري شهرة حتى صار كالحطيئة واكثر ، ويا ويل من لا
يكرمه ، ولهذا تراه يصب جام غضبه على هؤلاء ، فقال في كاهنين كانا
« يقدسان » معاً :

لما رأيت صليبا فوق مذبحه ما بين حنا وجبرائيل قسّين
حسبته واقفاً من فوق جلجلةٍ وانه لم يزل ما بين لصين

ودخل على رجل مقامر فقال له : الهيّتي . فقال :
الهيّتي يا شاكرأ ما هكذا فعل الصديق
فاجبته اني الذي يلهي الحمار عن العليق

وقال في دراهم بخيل :

لا لذة لبخيل في دراهمه إلا برؤيتها في الجيب كاهرم
دراهم البخل كالأسنان في رجل تأتي وتذهب بالأكدار والألم

وقال في كاهن اعترف له :

من بعد تعداد ذنبي والقرار به قد « حلني » كاهني من كل تقصير
ناديته : يا أبي ، ارجوك مغفرة نسيت ذنباً . فاني شاكر الخوري

ونظم للبطرك الياس الشهير ابیات مديح وقعها هكذا :

قديماً شاكر الخوري جديداً شاكر البطرك
واحياناً لمطران اذا قاسمني شكرك

ودخل على هذا البطرك بعد سنة ، فسأله اذا كان لا يزال شاكر البطرك
فقال رجل اسمه سليم بك : ان شاكرأ يظل شاكرأ ما دام ذنبه محفوظاً ،
فقال الدكتور له : صدقت ، والذنب ذنبهم اذا لم يبقوا لي ذنبي « سليم » .

فالرجل في اجوبته المسكتة لا يقصر عن بشار : قالت له مرة سيدة
تدعي الجمال : يا دكتور ، لماذا كل أهل الجبل وجوههم ملخبطة ، فأجابها
على الفور لأنهم لا يغيرون البدار ...

وقال في رجل ضخم انكسر « الديوان » تحته :
ثقل قد علا ديوان داري وكسر جعشه وبغى اعتذارا
وقال بخور جحشك. قلت كلا فان الجحش لم يحمل حمارا
والشاعر مخترع في كل غرض من اغراض الشعر ، ولا يعنيه إلا تصيد
النكتة ، فاسمع كيف يخاطب عباس حلمي خديو مصر :

اثبت لمصر منقاداً لأمر من الله المحيط بكل علم
يقول لخلقه هيتا اليها بأمن وارتعوا بديار سلم
ديار للفراعنة ادخلوها ولا تخشوا اذى رقي وظلم
لئن ارسلت مع فرعون سخطي فقد ارسلت مع عباس حلمي
وظل في مصر حتى عيد الاضحى ، فمر امام فخامته مع وفود المعبدین ،
فناداه عباس باسمه واستقدمه ، وأعطاه يده ، فقال له مرتجلاً :
حلمت ان زرت مصرأ اثال جاهأ لعلمي
فالعلم اضحى يقينأ ماعشت اشكر وحلمي
وفي الوصف لا يقصر شاعرنا عن الابداع ، قال في مرملة :

ومرملة تمرمرها حشاها تعزّي مَنْ بغمّ قد يراها
اذا سكب اليراع دموع حزن قنشفها برق مقلتها

وقال في « ندبا وإيزا » بنتي اخت مظفر باشا متصرف جبل لبنان :
كأن عيون ندبا ثم إيزا اصابت قلب «مركوني» بفتك
تحرك قلبه لحراك عين قنبه فكره من دون شك
لسير الجاذبية دون وصل فأنشا التلغراف بدون سلك

وآخر دليل على قوة بديته تعطيك اياه هذه الحادثة التي رواها . ترك
شاكر بك بيروت عام ١٩٠٧ قبل الميعاد ، فسألت عنه المركيزة مدام فريج
فقالوا لها انه جنّ لتعطيل شغله ... وعاد شاكر ، وراح ليهنيها باحد الاعياد

فشهقت لما رآته وقالت : خبروني انك جنت .. فاجابها : لو كنت ممرضاً لهذا المرض لكنت « جنت » يوم رأيتك اول مرة . فضحكت وضحك المركيز !

هذا هو شاعر الخوري . أخاف الناس هجوه ربع قرن وأكثر ، وهو اليوم لا يخطر لاحد ببال ، إلا عند ذكر بعض ما يؤثر عنه من نوادر . لقد نقلت منها ما يقبل ، أما الحامضة كثيراً فظلت في كتابه .

ان شاعر الخوري يقتبس من الكتب الدينية أكثر نكته ، فهو في هذا كأبي نواس . وان كان في غيره كابن الرومي وبشار .

ورب قائل قال : لم يذكر شاعر الخوري الا ليخبرنا انه اصلح كتابه . عفواً سيدي ، فالكتاب مشحون بكفلك نوح بالغلط ، فلا فخر لي في هذا ، ولكن الرجل يستحق ان يقف مع كبار هجائي العرب ، لو صحت عبارته ، فما أصح قول مثلنا العامي فيه : يا حينه لولا عينه .

أسعد رستم

أما الشعر الهزلي الانتقادي فكان رائده أسعد رستم ، وقصائده مشهورة بدور الكثير منها على اللسان . وهذا الشاعر مثل شاعر بك ، فقلما يبالي بالفصاحة . عاد من أميركا عام ١٩٠٨ فكان إذا مشى في بيروت تغوص رجلاه بالوحل ، فقال قصيدة هذا مطلعها :

بلدية بيروت انتحست بطرت من كثرة ما لحست

وعلى هذا الفرار طبع أكثر شعره ، فلذت للناس مطالعته ، لان هزله كهزل أبي نواس يضحك ولا يؤلم ، في حين ان نكتة شاعر الخوري توجع بل تقطع الظهر ألماً وضحكاً ..

وإذا لم اتعرض كثيراً لأسعد رستم فلأنه لا يزال حياً ، وليس هو من « المنقطعين » ...

شعراء و مفلسفون

محي الدين النخيب



شاعر رائق الدباجة متينها ، تلمذ للشيخين الامير والأحدب ، فكان رائداً كبيراً من رواد النهضة بما ترك لنا من تأليف في الأصول والتاريخ حتى الفقه ، فهد الطريق للناشئين. كان محرراً لجريدتي الاقبال ، وثمرات الفنون ، وله مقالات شائقة ، وقد عرب عن التركية رواية « الوطن » التي وضعها تامق كال بك ، ومن ترجمته لها ندرك انه كان حر النزعة . وله أيضاً تعليق على شرح نهج البلاغة ، وتفسير لغريب ديواني أبي تمام وابن المعتز .

أما أشهر ما له من الشعر فقصيدة عنوانها « سوانح وبوارح » بناها « مخمسة » على احرف الهجاء ملتزماً في كل مخمس قافية توحد القصيدة ، وهاك مطلعها :

هيولى الكون في صور الهباء إلامَ نجول في هذا الفضاء
أتبقى يا فناء بلا فناء ؟ أم الافناء سلسلة البقاء
أم الابقاء مجلبة الفناء ؟

إلى أن قال مخاطباً الإنسان ، وقد رآه خلاقاً مبدعاً يريد أن يطاول خالقه :

فسر في الارض زهواً أو زميلاً فلن تصل الجبال الشم طولا
وليس لحرقها تبغي سبيلاً نعم حاولت فيها المستحيلاً
ولكن ذاك حول الكهرباء

ولم أنقل ما نقلت للرواد إلا لأدل المتأخرين على ما عاجله الأولون من مواضيع ، وانهم فكثروا ، كجميع البشر قبلهم ، بما تفكر به نحن اليوم ، وليس شكنا بالجديد ولا البدع .

سليم بن خوري

هو مؤلف ماروت ، او شهر في بيروت . والجوهر الفرد أو الشعر
العصري . وله كنز الناظم أو مصباح الهائم . ورواية الانتقام العادل والجن ،
وله مقالات شتى في الجنان ، وفي المقتطف منذ نشأتها . الشاعر مطبوع حسن
الديباجة حاول أن يحول الشعر عن مجراه فقال في مواضيع علمية وأخلاقية
وادبية ، وفلسفية اجتماعية ، حتى تناول ما وراء القبر أيضاً . فكان رائد
تجديد في ما نظمه من مواضيع . فمن قصائده المشهورة « غادة العصر » التي
يقول فيها :

اذا لا امدح الغادات إلا إذا كان العفاف لمن يردها
ولا أدعو النساء ظباء خدر إذا ما صرن بالتهذيب أسدا
فنفس الحر تأبى حب خود تريك تهتكاً زنداً ونهدا
تريد تغنجاً وتلبه عجباً متى لحت ، ولو بالوم ، مرّدا
ثم يمضي في وصف حركات ، غادة العصر وسكناتها ، حتى يقول :
تجوز الأربعين وان تسليها تقل لك بنت عشرين وإحدى

تسامر في الدجى أوراق هو وان برعت فشطرنجاً ونردا
لتستلب النضار بلا حياء من الضيف الذي تضنيه سهدا
فيا ليت شاعرها عاش إلى هذه الأيام ليسمعنا قصيدة جديدة ... وللشاعر
عنحوري لامية عنوانها « الجاسعة » كأنها معارضة للامية ابن الوردى ، وهو
يقول في أولها :

فتلق الآت عني حكماً غير ما أثبتته القوم الأول
ولكنني ، ويا للخبية ، قد رأيتها نظم آيات وكلام مأثور ، فلم يأتنا
بجديد إلا حين حث الناس على تعليم المرأة والرفق بها .
وتحت عنوان « أوربا » قال قصيدة يخاطب فيها ملوك الغرب :

وفقرتم لابتلاع الارض طراً شفق كاسر
وانتزفتم ثروة الناس مكوساً وخسائر
أملوك يصلحون الارض أنتم أم عناتر
فدعوا العالم يرتاح فما السلم بضائر !

وقال تحت عنوان « حقيقة الكون » ، والضمير عائد إلى الانسان ، وان
ذكر الحيوان :

بالتبت يعيش ، وبعد الموت لعيش النبات هو الحبب
فيعود جماداً ، ثم نباتاً ثم حيويئناً يشب

ويقول بعد هذه القصيدة بيتين في الموضوع نفسه :

يتغذى النبات من حيوان بعد موت كما رواه الثقات
ومن النبات يغتذي حيوان اذن الموت للحياة حياة

ثم يختم هذا الديوان بقصيدة مملوءة توبة واستغفاراً ورجاء . ولعل مصيب
إذا قلت : ما أرى الشاعر سليم عنحوري في ديوانه « الجوهر الفرد » إلا
شاقاً الطريق للزهاوي وغيره ، ممن عاجلوا هذه المواضيع المعرّية شعراً .

تأمر الملائكة

شاعر أفسدت شعره السياسة ، ثم جنت عليه فقال في مصيبتة أروع
ما قال . قال تأمر يوم مات واصا باشا رابع متصرفي لبنان :

قالوا قضى واصا وواروه الثرى فأجبتهم وانا الخبير بذاته
رنوا الفلوس على بلاط ضريحه وانا الكفيل لكم برد حياته

وعزل تأمر في عهد مظفر باشا من منصبه القضائي وحبس ، فخربت
ناحية من دماغه ، وقد قال في ذلك :

وإذا الدماغ تناولته علة خاب الرجاء وضاع جهد الآسي
وقد وصف نفسه في قصيدة عظيمة أولها : ايه فما تحت السماء جديد ،
قال فيها :

فلئن تروني نضو خطب باليا فالقول فخم والكلام جديد
وبرئت ساحة تأمر ، ولكن بعد خراب البصرة ، وبعد ما قال في تحليل
شخصيته ميمته التي حفظها الكثيرون في لبنان .

دعاني أجمع الغما	فجفني بالأمى غما
ونخلاني اصبحاي	وسهم الغدر قد أصمى
فلم ابصر أخاً يرجى	ولا خالاً ولا عمّاً
رأيت الناس تخشاني	كأنى وأبىء الحمى
فلا أدري أحياً بتّ	أم ميتاً قضى ظمّاً
أشكّ اليوم بي حتى	وجودي خلته ومما
مقود غير مختار	كأنى آلة صمّاً
ويأتيني البكا عفواً	ويعصيني البكا لمّاً
ولا اسطيع جذب النفس	عن ضحك بيّ اثماً
وحال كالغنى شكلاً	بفقر مدقع نمّاً
وقالوا جنة عاثت	بعقلي فالتوى رقماً
وقالوا انما القيس	فيه نافع حسماً
خرافات واوهام	تعيب العقل والعلماً

وللشاعر قصيدة سينية طيبة عنوانها « وحدة الدين » قال فيها :

واعمد الى الوجدان لا تعدل به شيئاً ، ولو مطر الغمام طقوساً
فالدين ما سنّ الضمير محذراً يوماً على المتعطلين عبوساً
واذا نظرت الى الوجود رأيت بالحبّ يحيا سائساً ومسؤوساً
والدين آخر ما يزول اذا اغتدت هذي العوالم ظلمة حنديساً

وله دالية تاريخية تقدم ذكر مطلعها . وقال قصيدة كالتى قالها البحتري في
« الذئب » ، اما شاعرنا فتخيل انه يقاتل غمراً فقال :

وليل تكاد الكفّ تلمس جلده ترامت به الظلماء سداً على سدل
ومضى يطبعها على غرار « لامية العرب » في الغريب ، حتى ختمها كما
ختم البحتري قصيدته :

وقمت فاعدت المدى ، وسلخته ، واقلعت عنه أنفض النمل بالنمل
كان تامر في قصائده الأخرى مجدداً ، فلا يضيره ان كان في هذه مقلداً .
ولتامر في الفكاهة ، يوم كان سليماً غير مَوْسوسٍ ، تشطير لآبيات قالها
محمد باشا المخزومي في « كبوت الشيخ نوفل » الذي يضرب به المثل عندنا .
فهذا النسر اللقمانى لم يمت حتف أنفه ، بل اغتالته المنية في ساحة النضال .
سقط تحت دولاب العربية في « نزلة الشحار » على طريق بتدين ، فمات ميتة
الأبطال بين سنابك الخيل ، ولهذا تفضل المخزومي برثائه (١) :

« وكبوت له خمسون عاما ، به مرعى لأنواع الذباب
تراه بين ترقيع ورتق . يقاسى بالعنا مرّ العذاب »
« ولما همّ صاحبه بقلب ، على وجه غدا عكس الصواب
وألقاه على متنيه عجباً . يعيد له به زهو الشباب »
« ترامى فوق دولاب وفادى ، أنوفل كن جلوداً في مصابي
وحسبي انني عمّرت دهرأ . فمالي راحة بسوى التراب »

(١) الكلام المغط بهلالين للمخزومي باشا ، والآخر اي التشطير ، للملاط .

سليمان البستاني

لا بد للبناني من لغة ولغتين مع اللغة التي يتكلمها ، أما ذو اللغة الواحدة فيعدّ نصف قاريء وكاتب . فنذ أعصر كانت السريانية والعربية مشدودتين في قرآن عند أهل لبنان ، ثم عرفوا لغات عديدة معها . أما سليمان البستاني ففاق من تقدموه من الرواد ، فعرف خمسة عشر لساناً حتى لغة « النور » ان صدق من ترجموا له ... لأنهم رويوا مثل ذلك عن المطران يوسف الدبس .

استهلّ سليمان كغيره من الرواد فكان معلماً ، ثم عاف التعليم وطاف أقطار المسكونة ، فكانت له من تلك الرحلات ثقافة أخرى هي غير ثقافة الحبر والورق .

أما الألياذة ، وهي أجل أعماله ، فليس هو أول ماروني نقلها الى لغته

الأصلية . فالرهاوي ، قبله ، قد نقلها إلى السريانية منذ مئات السنين .
ثم نقلها غير الرهاوي إلى العربية نثراً . ولكن إلياذة سليمان كان لها شأناً
لما ظهرت ، فاحتفلت مصر بصاحبها يوم لم يكن يحتفل برجل لأجل كتاب ...
فاقيمت حفلة تكريم لسليمان بالقاهرة خطب فيها صرّوف وغيره .

ان لألياذة سليمان فضلاً على غيرها بما علّق عليها من شروح تقرّبها من فهم
القاري . فالألياذة شعر يوناني تاريخي أفرغت فيه جميع معارف القوم في ذلك
الزمن . أما موضوعها فوصف وقعة من وقعات حروب طروادة ، توسّع فيها
هوميروس فكادت ان تكون موسوعة . وصف فيها طباع الناس وعاداتهم
وعمرانهم وطرق عبادتهم ، فدلّتنا على ان اليونان كانوا اصحاب فلاحه وصناعة
وتجارة وعلم وفلسفة وعتاد حرب . وإذا بلغت اوروبا اليوم ما بلغته اليونان
في كل ما ذكرنا ، فهي لا تزال مبصرة عنهم في النقش والحفر وصنع التماثيل .

قضى سليمان عشرات السنوات في دراسة الألياذة ، وتعلم جميع اللغات
التي توطّئها له ، وظل دائباً يرحل ويقيم حتى رأى بعينه أخيراً مواطن
حوادثها فأفاد منها ما كان قد فات . وأخيراً انبرى لها ، ونظمها ، وشرح
لنا غوامضها . وكأنه رآها لا تكون تامة بلا مقدمة فقدم لها بمثني صفحة ،
فجاءت تلك المقدمة كتاباً أشبه بمقدمة ابن خلدون لتعدد اغراضها ، ودقة
بحثها . حلل فيها أولاً نسب هوميروس ، وخبرنا انه « ابن النهر » الذي ولد
على ضفته ، وان أباه جني . ثم مات ذاك الجني ... فتزوّجت أم هوميروس
معلماً كفل الشاعر . ثم مات المعلم ايضاً فعلم هوميروس محله . وفي إحدى
السفرات فقد هوميروس بصره فأطلق عليه هذا الاسم الذي معناه الكفيف .

ويحاول البستاني إثبات شعر الألياذة لهوميروس ويقدم آراء وجيهة تؤيد
ما زعم . اما ناقد الطان الشهير – ديشان – فيقول : الألياذة والأوديسة
هما شركة أدبية .

وينتقل سليمان الى الكلام على التعريب فيقول انه « نقل المعاني ورسمها

رسماً صحيحاً ينطبق على لغة النقل ومشرب قرائها، وهو يرى ان اللغة العربية خلو من الملاحم ، ثم يعد رسالة الغفران من الملاحم ، ولكن غموض عبارتها وخلوها من الأسلوب الشعري يخرجها من هذا النطاق .

ويخبرنا الاستاذ في مقدمته انه بدل التشابه بمثلها لأن اليونان يشبهون بالخنزير البري من تشبه نحن بالأسد . ثم تحدث عن الأدب العربي وشعره بما لا حاجة الى ذكره هنا ، لأن طلاب اليوم يعرفون اكثره . أما يوم ظهرت الألياذة فلم يكن لنا شيء من هذا الطراز .

ويفيض سليمان في موضوعه هذا حتى يقسم الشعر إلى انواع ، ثم يذكر توارد خواطر هوميروس وامريء القيس ، وغيره من شعرائنا الأقدمين . ولا عجب في ذلك ، فمتى تساوت البشر جاهلية تساوت تفكيراً .

ويذكر الاستاذ خاصيات الاوزان العربية فيرى ان بحر الخفيف أكثرها ملاءمة للقصّ والشعر الملحمي . ويقول في بطل الألياذة انه كعنترة في حادثته ، ثم يقابل بين شعر هوميروس وشعراء العرب في المواقف المتشابهة وينبئنا أن هوميروس كان لاهوتياً وقد جعل وكده إنصاف المرأة . ولا ينسى ، أخيراً ، ان يشير الى ان الأرز ذكراً في الألياذة ، وقد رُسم على وشاح هيلانة !!.

لقد شارك البستاني هوميروس في الشعر ، ثم شاء القدر أن يشاركه ، ايضاً ، في آخر العمر ، بالعمى ، جزى الله الشاعرين عن الأدب خيراً .

وللبستاني غير ترجمة الألياذة كتاب « عبرة وذكرى » الذي طبع عام ١٩٥٨ يوم كنا نبث له الدعوة ليكون نائب بيروت في مجلس المبعوثان ، فكان ، ثم صار في مجلس الأعيان ، وأخيراً أمسى وزيراً خطيراً يرجع الى رأيه في الجلى . ولعل نثر البستاني لا يقل عن شعره جودة .

أما شعره في الألياذة فهذا رأي فيه :

أنا لا أعرف اليونانية لاحكم ، ولكن شعر هوميروس - كما يبدو لي من خلال الترجمة - شعر قليل التخيل ، ولست اعلم الى من أعزى هذا التقصير . فاذا اردنا أن نعذر سليمان قلنا ما قاله الجاحظ : الشعر لا يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، وإذا ترجم سقط موضع التعجب منه .

وقد رأيت سليمان في ترجمته الشعرية مقصراً عن سليمان في المواقف الوجدانية . فمن يقرأ شعره السويسرائي يحده فيه أقوى شاعرية . قد يكون تراكم الأعلام من أهم اسباب التقصير البشع كقوله معرباً :

أو إكسَدِ أو ثيسَسَ بن أغيسَ من قد كان مثل الخالدين رزينا
وكقوله :

كذا ابن هرطاقس آسيَسُ البطل
وأكباس بن أنطينور يصعبه أخوه أرخَلِيخُ كانا بصحبته

ان البستاني ، في ترويض هذه الأسماء اليونانية لتصير شعراً عربياً ، هو شبه بمن ينفق السنين ليعلم الدبّ الرقص ، ثم لا يفوز أخيراً الا برقصة دبّ . . .

اما داء الغريب ، ، وستحدث عنه في بحث رواد المعلمين ، فيبدو لنا أيضاً في شعر صاحب الاليادة . فيا ليت سليماناً عربياً نثراً .

وإذا سألتني لماذا لم ينظم العرب ملاحم ؟ أجبتك مع ابن الأثير : ان الشاعر اذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ذوات معان مختلفة في شعره ، واحتاج إلى الاطالة بان ينظم مثني بيت أو ثلثائة أو أكثر من ذلك ، فانه لا يجيد في الجميع ، ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرضي .

وقبل وبعد ، فالأليادة تظل وتبقى عملاً جليل القدر من أعمال الرواد ، وكم للرائد من فضل على قومه .

المرئيات

بسم الله

الوردتان

والغريب أيضاً ان أوليات الرائدات ، كأوائل الروّاد ، قد كان أديهن شعراً فعندما مات فرنسيس المراسش نظمت أخته مريانا قصيدة في رثائه وبعثت بها الى « الجنان » ، فتهلّل لذلك المعلم بطرس ، ورحّب بها في جنانه ، لأن المعلم كان أول من دعا لتعليم المرأة .

فلمريانا المراسش دَوَّيُون شعر مطبوع . أما الرائدات الأخريات فهن وردة الترك ، ووردة اليازجي ، وعائشة تيمور .

فلوردة اليازجي ديوان سمته « حديقة الورد » افتتحته بأبيات وجهتها الى سميتها وردة نقولا الترك وهذا مطلعها :

يا وردة الترك إني وردة العرب فبيننا قد وجدنا أقرب النسب
أعطاك والدك الفن الذي اشتهرت الطافه بين أهل العلم والأدب

أما عائشة تيمور الرائدة العصرية فلها شعر طيب ، وهي عندي أخطر شأنًا من وردتين ومن مريانا . كما أنها تفوق ، ديباجةً ، الكثيرين من طلائع

الرواد . لعائشة ديوان « حلية الطراز » أهدت نسخة منه الى اليازجية فشكرتها هذه بقصيدة . ومن حق النساء أن يتشبهن بالرجال ، وخصوصاً في تقارض الثناء الذي قال شوقي انه يفرهن ... قالت وردة :

يا نسمة من أرض وادي النيل وردت فاطفت بالسلام غليلي
أنت الفريدة في النساء فكيف لا أهوى حبیباً بات دون مثيل
علمتني قول النسيب وهجت بي ما هاج حب بثينة يحميل

ولوردة مشاركة في قول الرثاء فكأنها فيه بنت أبيها حين تقول راثية
مارون النقاش :

الموت للناس كالجزار للفنم فليس يترك من طفل ولا هرم
وكان القدر قد أطال عمر وردة ، لترثي جميع أهلها حتى أخاها ابراهيم
فلقبه نفسها بالخنساء ، حين تقول ، والضمير عائد الى الخنساء :
بكت وحيدا وأبكى ستة ذهبوا لكل محبة بين الوري وجدوا

عائشة تيمور

هي بنت اسمعيل باشا تيمور ، اخذت العلم من وراء الحجاب ، عن جلة المشايخ وكانت تصغي الى مذاكراتهم كلما اجتمعوا في مجلس أبيها ، ومن شعرها قولها في وصف نفسها :

بيد العفاف أصون عزّ حجابي	وبمصمقي أسمو على أترابي
فجعلت مرآتي جبين دفاتري	وجعلت من نقش المداد خضابي
كم زخرقت وجنات طرسي أنملي	بعداد خط ، أو إهاب شباب
ما عاقني خجلي عن العليا ، ولا	سدل الخمار يلقي وتقابي
ما ضرّني أدبي وحسن تعلّمي	إلا بكوني زهرة الالباب

وقد قالت بعد شفائها من رمد اصاها :

سفينة العين قد فازت من الغرق	واشرقت تزدهي من ساحل الحدق
ثم عاودها ذاك الرمد ، فقالت :	

فوا اسفي على انسان عيني غدا في سجن سقم واعتقال
نسى المصحف الأسمى يميني وقد وضعت على قلبي شمالي
وانشده : لآيك طال شوقي ومالي غيرها عز ومالي

وهذه الشاعرة الكبيرة - بالنسبة الى العصر - من فئة المستعربين ، فهي تركية اصلاً ، ومصرية وطناً ، ولها شعر قسمته « مي » ، في درسها لها إلى خمسة أقسام : الغزلي ، والاخلاقي ، والديني ، والعائلي ، وشعر المجاملة . ولعل اروع شعر عائلي قرأته لها ، فاحسست بقشعريرة ، رغم ان جلدي سميك ... هو قول الشاعرة بلسان ابنتها « توحيدة » التي فقدتها :

أمّاه قد عزّ اللقاءُ وفي غدٍ سترين نعشي كالعروس يسيرُ
قولي لرب اللحد : رفقا بابنتي جاءت عروماً ساقها التقدير
أمّاه ، لا تنسي بحقّ بنوّتي قبيري لئلا يحزن المقبور
صوني جهاز العرس تذكّاراً ، فلي قد كان منه الى الزفاف مرور

أما الام فتجيب في القصيدة نفسها :

لا توصي ثكلى قد اذاب وتينها حزن عليك وحسرة وزفير
قسماً بنض نواظر وتلهفي مذ غاب انسان وفارق نور

هذه هي الرائدة الكبيرة التي درستها « مي » في المقتطف درماً مطولاً . فهل تنبري كاتبة من كاتباتنا لدراسة باحثة البادية ومي فتقضي ما وجب علينا من الحقوق نحو هاتين اللتين يصح فيها ما قاله النابغة في الخنساء .

الزوار والتائب

المسرح، وأبجدية، والقصة

برز روادنا في النثر اكثر منهم في الشعر . كانوا في ذاك زعماء تجديد ،
أما في القريض فظل بينهم وبين كبار زعمائه اشواط ، وان جدّوا فيه .
وإذا كان قد لقي شعرهم المدحي استحساناً في عصرهم ، واجيزوا عليه بالمال
والمراتب السنيّة ، فما ذاك إلا من باب قول المثل : من قلة الرجال سموا الديك
أبا قاسم . .

أما أثرهم في النثر فيسجل لهم في تاريخ الادب اسم الفاتحين . اعانتهم على
ذلك معرفتهم اللغات المتعددة ، فطعموا الأدب هذا التطعيم الذي جنى ثماره
« رجال النهضة » .

وراح هؤلاء يطعمون ويطعمون حتى صارت روضة آدابنا فواحة العبير
دانية القطوف .

اللهم ، زد وبارك .

اللهم ، اجعل المستقبل أمامنا لا وراءنا .

يا فتاح ، يا علم .

زوائد والقصة



أظن ، وظني حق هو ، أن ادبنا الحاضر كأكثر الآداب العالمية الحديثة ، ترعرع وشبّ في حضن « الجريدة » . فالأدب الانكليزي الحديث ، كان ، أولاً ، ادباً صحفياً ، وما ظهر الكتاب عندهم الا بعد ما اشتدّ ساعد المنشئين في ساحة النضال الصحفي .

أما الكتاب عندنا « في هذه الحقبة » ، حقبة النهضة الحديثة ، فكان أول ما ظهر منه إما ترجمة كتاب ديني لا بد منه « لخلاص النفوس » ، يخرجونه كما تخرج دول اليوم كتاب « الدليل » للسائحين والمصطافين لهدى الناس سواء السبيل . . ودلهم على مفاتيح بلادهم ومحاسنها - وأيّة رحلة أجل وأخطر من الرحلة الأخيرة - وأما أن يكون تصحيح كتاب تعليمي أو تأليفه أو طبعه .

ولما عرفنا الصحف والمجلات كان أدب المقالة أولاً ، فكتبت لتوجيه القراء في ميادين الحياة العديدة والشؤون والشجون . ثم تلاه أدب القصة

والأقصوة والحكاية . وهذه الألوان كلها من « مقبلات » المأدبة الصحفية
ليقبل عليها القاريء بنهم ولذة ، يوم لم يكن يعني القاريء ما يعنيه اليوم من
انباء ومشاكل اجتماعية مختلفة .

أما للكتاب العربي الأدبي الأول فخرج من دهليز الجاحظ البصري العراقي
منذ ألف ومئة سنة ونيف ، كما خرج الكتاب العربي الحديث من كوخ
أديب لبناني شرّفته عوادي الزمن عن وطنه ، وهو أحمد فارس الشدياق الذي
يربطه بالجاحظ أقرب النسب . أخرج الشدياق أبكار الكتب الطريفة -
الواسطة ، وكشف الخبايا ، والفارياق - قبل أن أخرج للناس جريدته
« الجوائب » التي صارت فيما بعد ، بطرفها النفيسة من مقالات وحكايات ،
ونوادر وأخبار ، ووجمل ، أدبية ، وسياسية ، مدرسة سيارة تثقف القاريء
العربي تحت كل كوكب .

وعرف اللبناني ، قبل غيره ، لأسباب دينية ، كثيراً من الألسن الأجنبية
وتعرف إلى ما عند نوابغها من روائع ، فترجم واقتبس واقتدى بهم في كل
فن ومطلب .

تكلمت فيما مرّ عن شعر طلائع النهضة ونثرهم ، ولا بد لي هنا من الكلام
عن القصة ، ذلك اللون الأدبي الذي يكاد يطنى ، اليوم ، على ادبنا الحديث .
كان اكبرهم الأديب ، فيما مضى ، أن يكون شاعراً ، أما أقصى ما يروم ،
اليوم ، فهو أن يحصى في عداد القصصيين .

فأدب القصة الذي أضحي قبلة الشباب حين يقفون في هيكल الفن ، قد
كاد يطمس كل لون من الألوان الأدبية . ان هذا الضرب من ضروب الادب
يكاد يكون كل شيء في آداب الدنيا جمعاء . فعنينا الى رؤية ادب عربي
عالمي لا يأتينا الا من هذه الناحية ، فاحية الادب القصصي . قرأت كتاباً
أوروبياً يتحدث عن الآداب العالمية مقارناً بينها ، ودالاً على تراث كل أمة

فيها ، ولو لم يكن لنا كتاب ألف ليلة وليلة ، الذي يعدّه اندره جيد ، بمنزلة الألياذة وغيرها من الكتب المحتلة أعلى قمم الخلود ، ما كان هذا المؤلف أتى على ذكرنا . فالقصة اليوم ، على اختلاف أنواعها ، هي قوام الأدب الحديث وملاكه . رافقت الإنسانية من المهد ، وسوف تماشيها إلى اللحد . كانت ، في الأمس ، أحلاماً بشرية حافلة بالجنّ والعفاريت والمردة ، مملوءة حنيناً إلى بساط الريح ، وخاتم لبيك ، والقضيب السعري ، والقبع الأخفى وغيرها ، فاصبحت الآن حقيقة ، بل قل قطعة من الحياة ، إذا لم نقل أنها الحياة بعينها . فأعظم الروائي الحاذق مبدعاً يخلق عالماً لا يموت . فالخطبة ، والمقالة ، والقصيدة ، لا تستهوي الأطفال والصبيان والشباب ، بل الرجال الذين نسميهم بحق أطفالاً كباراً ، كما تستهويهم تلك القصص الرائعة التي تلقي على الحياة أشعة ثاقبة تمزق ظلماتها ودياجيرها .

تذكر جدّك الشيخ كيف كان يرى كل اللذة في أن يقص عليك وعلى غيرك حكايات حياته وما فيها من مغامرات . ألم تر إلى غصون جبينه كيف كانت تمتليء نوراً إذا رأى في وجوه السامعين إصغاء إليه وارتياحاً لحديثه ، وإعجاباً بقصصه .

فالقصة حديث البشرية منذ تجمع الناس في الكهوف ، بل الإنسانية برمتها حكاية أبدية متشابكة الخطوط ، حجة الألوان ، أبطالها عباقرتها . ومن تأملها رأى جمالاً كثيراً حتى في أشد مشاهدتها قبحاً ، وما هذه القصص الدهرية ، ذلك الميراث الخالد ، إلا فصول رائعة من هذه القصة الكبرى .

وفي نظري ، أن القصة ، كلما شخصت الواقع ، تكون قد قربت من الكمال الفني . فالروائيون مصورون بغير الألوان ، وهم أوحى الملهمون منهم إلى نوابغ المصورين رسوماً رائعة ، ولوحات خالدة في دنيا التصوير . والمصورون كالروائيين أيضاً ، خيرهم من أحسن تقليد الأشباح والظلال . فعسن التقليد هو قمة الفنون الجميلة . فنهياً لمن أوتي من الروائيين سلامة

الذوق ليختار من ألفاظ اللغة ألوانه ، ويبعد من تراوج الفاظها قوس قزح .

الروائي خالق مبدع ، ومصوّر مثالي ، وشاعر كلي الخيال . يخلق عالماً يتحرك ، وينطق ، ويحيا ، ويخلد ، ويخلوده يخلد الفنان معه . فالحياة والخلود متبادلان بين الروائي وشخصه . فما يخلقه الفنان وهب له جزءاً من حياته يحيا الى الأبد . يتحرك كلما حركته يد مفكرة أو تداوله لسان . فبين دفقي كل كتاب من كتب القصص الخالدة عالم يتحرك كالبحيرة الساهية متى داعبها النسيم . الروائي الفنان يجعل من القصة ساحة لعالمه الذي يخلقه قلمه ، فيتمثل لنا كل بطل من شخصه بشراً سوياً . وتنتصب حولك تلك الأبطال فتنسبك العالم الخارجي حتى تصبح في عالم آخر لا يختلف عن العالم إلا أنه وهمي . ينقلك الروائي إلى الساحة التي خلقها فترى البيوت والاسواق ، وترى الجبال والأودية ، وتسمع خريف الأنهار ، وتبصر كل شيء حتى نجوم السماء صلاة الظهر ، والشمس في منتصف الليل .

فحين ترج نفسك في عالم الروائي الاصيل لا تعود تعلم اين انت . فقد يملك الريح بمخلبه ، وقد تركب بساط الريح ، وتلبس « القبع الاخفى » فاذا بك تطير وتحط ، وتقوم وتقع ، وانت ما زلت في فراشك ، أو مستلقياً على كرسيك .

يخلق الروائي الموهوب اشخاصاً لا ينقصها غير الروح ، بل قل لا تنقصها الروح لأنها تتقمص نفس قارئها فتعيا بها حيناً ، كما عاشت زمناً مع من أنشأها وابدعها .

وبكلمة وجيزة نقول : ان اول آداب الأمم والشعوب هو القصص ، والمشرع ، ولو وثقياً ، يفكر بقصة الخلق قبل عرض رسالته على البشر . فالحياة ، اذن كلها قصة ، ووجودي ووجودك ، يا سيدي القارئ ، قصة طويلة عريضة ، جعل الله خاتمتها خيراً .

- هل في الادب العربي القديم قصة ؟ هذا سؤال يرد على ألسنة الناس كثيراً . أما الذين قرأوا منا اعظم كتاب الغرب واغرموا بروائعهم ، فلا يرون للعرب قصة ، ولا يرون لهم خيالاً يحترم ، ولا يرون شعرهم شعراً يستحق ان يحيا .

هذا ضلال منا اذ نحكم على اسلافنا هذا الحكم الطائش الجائر .
قال جيمس بريستد المتمشرق العظيم : ان انخزال المسلمين في اسبانيا كان بمثابة انخزال المدنية امام الهمجية .

وقال السر تشارل باتريس في خاتمة تاريخه لاسبانيا : ان عصر الآداب الاسلامية فيها كان من أزهى عصور امتزاج العناصر في تاريخ الحضارة .

ويقرر المستر جبّ المتمشرق الانكليزي الذي لا يزال حياً يرزق ، وهو عضو في المجمع العربي الملكي المصري : ان النثر العربي اخرج نثر اوروبا في القرون الوسطى من جموده وصرامته التقليديين ، بما منحه اياه من خياله الذي يشبع الحواس . أما نحن فنقرّر ، ويا للأسف ، غير ذلك ، بماشين المتمشرق أليري القائل : العربي جامد العواطف ضعيف الخيال .

هذا من حيث نثرنا وشعرنا القديمان . أما القصة فالعرب هم الذين عتلوها الغرب ، وان لم يكتبوها كما تكتب اليوم . وبرهاني على ذلك قول الاستاذ جبّ أيضاً ، وهو اختصاصي بدراسة القصة قال : اسمع العرب اوروبا حكايات السندباد البحري وما إليها ، فكانت خيرة للأدب الخيالي الاوربي الجديد الذي زحزح الادب التقليدي ، وحل محله ، فنشأت في اوروبا الروايات الرومنطيقية .

ويقول ايضاً : ان قصة الف ليلة وليلة التي ترجمت عام ١٧٠٤ كانت أقوى عضد للأدب الخيالي ففتنت اوروبا ، وقلدها كتابها في قصصهم ، فأشبعوا نفوس الأمة وميول العالم ، واتلذت منها قصتا روبنصن وجيلفر وغيرها .

ونحن كغيرنا من أمم الأرض قد مررنا في أطوار ومآزق ، وقد خرجنا منها بقوة الفكر والخيال الذي لا يفتأ يعمل حتى في أدجى الظلمات . فنذ عرف الشرق الطباعة والصحافة ألم كتابه بمقدار من القصة والأقصوصة والرواية . فترجم أحمد فارس الجريدته « الجوائب » بعض حكايات ، ولما ظهرت « الجنان » بعد عشر سنوات ، شرع سليم البستاني ابن المعلم بطرس يعرّب ويؤلف لها الروايات والقصص فما خلا منها عدد منذ مولدها حتى مماتها . ومثله فعل جرجي زيدان في هلاله ناحياً نحو اسكندر ديماس في رواياته التاريخية . ومثل هؤلاء ألف صروف قصصاً لمقتطفه ، وكذلك فعل شيخو في مشرقه فنشر روايات شرقية مؤلفة ومعرّبة .

أما فرح انطون صاحب مجلة الجامعة فكان ميالاً الى الفلسفة ومشاكلها ، فآلف لمجلته رواياته الفلسفية الاجتماعية . ثم كات إلى جانب هؤلاء كتاب كثيرون يترجمون القصص على اختلاف أشكالها وألوانها ، فراجت الروايات البوليسية لأن فيها مغامرات وعقداً تستثير فضول الناس حين ينتظرون النهاية . ولعل طانيوس عبده كان المترجم المجلتي في هذا المضمار الأدبي .

أما الأقصوصة ، وهي التي يهاجمها ، اليوم ، المبرز والمقصر ، فجبران خليل جبران كان أول من حاول تأليفها وفقاً لأصولها الحديثة ، فأخرج مجموعته الأولى « عرائس المروج » ثم أتبعها بالأرواح المتمردة وغيرها فهذه الأقاصيص تمتاز بخيالها الرفيع ، وبما يشيع فيها من ألوان يندر وجودها عند الكتّاب الآخرين ، لأن مؤلفها مصور ، يفكر بالصور ويكتب بالألوان لا بالخبر والورق . أما مواضيع أقاصيصه فكانت اجتماعية تحارب تقاليد يقدسها المجتمع . ان أقاصيص جبران كالواقعية في حوادثها ، ولكن خيال صاحبها يخرج فكرته الاجتماعية بقلب خيالي يبعدها كثيراً عن الواقع ، ولعل هذا هو عيبها الصارخ .

وبعد تلك الآونة بوقت قليل ظهرت في مصر أقاصيص لمحمد تيمور الذي

مات ولما ينضج . والقصة اليوم تكاد تكون هدف كل كاتب موهوب ، يلجأ إليها في تأدية اغراضه ، وبث فكرته ، إن كانت له فكرة ، وانني كبير الامل بالشباب وأرجو أن يبدعوا في هذا الفن ، فتبلغ القصة والاقصوصة والرواية عندنا المستوى الذي يجب ان تبلغه امة كان ادبها ، فيما مضى ، منارة للشعوب ، كما يعترف بذلك رجال الفكر المنصفون .

لو جئت أعدد القصصين لضاق المقام ، ثم انني أخاف أن أنسى أحداً منهم فتقوم القيامة ولذلك اكتفيت بمن ذكرت من الرواد اما الاحياء فالقراء يعرفونهم جميعاً ، وهم يحسنون الحكم عليهم دون أن أكون لهم مستشاراً .

وبعد فلي كلمة أوجهها الى القصصيين عندنا ، وهي ان اللغة ليست جماداً ساكناً ولكنها حيّة نامية ، فيجب أن يوفق بينها وبين ضرورات التعبير التي تتغير بتغير العصور والبيئات ، فالاسراف في التمسك بالأساليب اللغوية العتيقة لا يلائم قصتنا اليوم . وهو يؤدي حتماً الى تغلب الاسلوب المبتذل . فليكن إذن اسلوب القصة صحيحاً ، أولاً ، ثم قريباً من التعابير المألوفة في الحياة ، والتي تدور على الألسنة . وإني أذكرهم بان القصة العالية هي قطعة فنية لا بد لها من العنصر الشعري . فليست القصة حكاية تروى كما هي في الحياة والواقع ، ولكنها تصور الواقع كما يراه الكاتب الملمهم . نعم ليست القصة مقالا ولا فصلاً تاريخياً ، فعلينا أن نجعلها لابسة أجمل أثواب الأدب الرفيع .

ولا يعني قولنا هذا أن نجعل الحوار شعري التعبير ، فالحوار لغته ، وللوصف اسلوبه ، وبهذين العنصرين تحيا القصة وبدونها لا تعيش . ان بث الحياة في أشخاص قصصنا يقتضينا هذا وذاك ، فلنكن حكماً .

وقبل ان نطوي سجل هذا البحث الوعر نقول للقارئ العزيز بلسان فلوبيير وتورغنيف : « لا تكتب القصة ليكسلي بها ، ولكنها قطعة فنية يجب ان تكتب جيداً » .

أجل ، على قدر ما في القصة من شاعرية يكون نجاحها أما شعرها، وما
نعني الا النثر الشعري ، فيجب أن يكون منبثقاً من أعماق اعساق الكاتب
الاصيل ، وأن يتفجر من شخوص الرواية ومشاهدها لا من شخصية المؤلف .
وهنا لا بد من لفت النظر الى أمر مهم وهو انه على القصصي أن يقطع
السرة بينه وبين أبطاله فيجب ألا نتطق بلساننا إلا عما لا يمكن ان ينطق
بسه اشخاص . قصتنا . فالحوار ، كما قلت هو ملاك القصة وروحها وفيه
فنها كله .

طبعاً تريد أن تعرف ما هي مقومات القصصي لتعرف نفسك . وعليه أقول
لك يا عزيزي :

ان الروائي خلاق كما قلت لك سابقاً ، فاذا كانت الطبيعة لم تهبك قوة
الابداع فلن تستطيع أن تكون قصاصاً . كما انك إذا تجاوزت الحد في الخلق
الغريب كنت كمن يخلق مسوخاً وعجائب ، ثم إذا استطعت ان تبتكر ولم
تحسن القص تعرقل سير شخوصك ووقفت حركة قصتك ، والجهد قتال .

فعلى القصصي أن يمسك سلك قصته ثم لا يفلقه ، وإذا أقبل وأدبر وكان
غير لبق و تشر كل ، الخطئ فالقصة محتاجة إلى حسن وتنوع في الموضوع ،
وإلا قتل القارىء صبراً .

والقصصي محتاج إلى كل علم وخصوصاً علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وقوة
الملاحظة ليستطيع خلق ابطال لهم مميزات الخاصة ، وعلاماتهم الفارقة . وبغير
تصوير هؤلاء أتم تصوير لا تحيا القصة مهما اسبغنا عليها من حلل
الفصاحة والبلاغة .

وبعد كل هذا ، بل قبل كل هذا ، عليك ان تقرأ روائع القصص العالمية
قراءة عميقة ، وتطالع كتب النقد وما علقوه على هوامشها .

وأخيراً اذا سألتني كيف أكتب القصة ، أجبتك : اعمل بباعك وذراعك

فالفن لا يعرف المقاييس . والام عندما تضع ولدها لا يعنيها ان تبعت عن
كيفية تكوينه من بويضة الى كتلة لحم ذات محرك-موتور - يعمل بلا انقطاع
عشرات الاعوام .

ان المقاييس لا تخلق الفنان ولكنها تهذب من خلق فنانا ونصيحتي لك
هي أن تكون قارئاً مدمناً لا يفرق بين قديم وحديث ، فالفن الصحيح
كالخمر ، كلما عتقت جادت .

مارون النقاش

أمامي د أرزة لبنان ، وهي مجموعة روايات مارون النقاش ، أبي المسرح العربي . احتفلت مصر بالذكرى المئوية لروايته الأولى ، منذ ثلاثة أعوام - ١٩٤٨ - وكى لا أطيل المقدمة وأزعجك بشقشة الكلام عما أحدثته مسرحيات مارون النقاش ، أدع الكلام لمعاصره الشيخ يوسف الأسير الذي قال فيها :

هذي رياضٌ أثمرت	فكاهة كالرطبِ
أم حكمٌ قد ركبت	في قالب من لعبِ
يكاد ان يرقص من	يسمعا من طربِ
أم ذي ثمار فكر من	حاز فنون الأدبِ
اعني به مارون من	ابدها بالعربي
شكرا له من فاضل	فاز بكل الأربِ
حق على نقاشها	نقشٌ بماء الذهبِ

فأولم يكن الفضل للمتقدم لما عناهنا شيء من أمر هذه المسرحيات لضعف أسلوبها ، ولكن فهم مؤلفها للفن يشفع لها ، فقد تعرّف إلى أصوله في كتب القوم ، ثم عندما زار أرباباً ، وخصوصاً إيطالياً . تعلم ذلك حين تقرأ مقدمة « أرزة لبنان » وتصل إلى التعبير عن خشبة المسرح بـ « البانكوشينكو » .

ثم يقول في تلك المقدمة بعد أن يتحدث عن التمثيل الأمثل : « نحن الآن لا نطلب من أصحابنا الوصول لهذه الدرجة بل نرجوهم الانتباه لذلك قليلاً . وأشور عليهم ألا يزيدوا الحد أيضاً بتكثير الاشارات والانفعالات ، بل الموافق أن يكون كل شيء سائر طبيعياً بالاعتدال كما لو كان الحادث الواقع أكيداً حتى لا يضيع رونق الرواية وتعب المؤلف ، لأنه إذا لم تحسن الاشارات فالرواية هي كالعديم . »

هذا ما قاله نقولاً ، أخو مارون ، طابع روايات أخيه عام ١٨٦٩ . وهو يقول في آخر مقدمته :

« أما المرحوم أخي المصنف فقال : أما أنا فلا استحسن هذه الاشارات بل إنما أنا على رأي مولير « أشهر المؤلفين بهذا الفن » الذي قال : ان من لا يحسن تشخيص روايتي بدون إشارات تدلّ على ما ينبغي عمله ، فالأحسن ألا يشخصها ، والقصد بذلك ظاهر . ان المعنى هو ذاته ينبّه اللاعب للحركة اللازمة (١) . »

أما كيف مشى التمثيل في ظهور الليالي يرجو التلاقي ، كما قال المتنبي لكافور ، فهو ان مارون جعل من بيته مسرحاً ثم بنى آخر في جوار بيته ، ولكن هذا صار كنيسة ، بعد موته . وهنا لا بد لنا من وقفة لفهم القاريء ان هناك معاصرين لمارون اقتدوا به وألفوا مسرحيات . وهناك أعيان كانوا جعلوا مثله من دورهم مسارح ، فهذا ديوان عمر الانسي ينبئنا ان

(١) أرزة لبنان ص ١٩ و ٢٤ و ٢٥ .

رواية مثلت في دار بني الغندور ، وان رواية ثانية كتبها الأمير محمد ارسلان ، ومثلت في دار بني حمادة . وقد مرّ بنا ذكر الرواد الذين ألفوا مسرحيات . ثم احتضنت المدرسة المسرح ، وانصرف الى تأليفها وترجمتها ، معلمون كثيرون .

أما المسرحيات الشعرية فتصدى لها خليل اليازجي ، ثم المعلم عبد الله البستاني الذي نظم خمس مسرحيات أشهرها « رواية الوردتين » التي « قرّظ » مقررظها شاكر بك الخوري كما مر بك .

أنشأ مارون مسرحياته ليجذب الناس الى محبة هذا الفن لأنهم أعداء كل جديد . ثم تنوّعت المسرحيات بعده مع لبيب اسحق ، والحداد ، وفرح انطون وغيرهم مما ترجموا وألفوا ،

أما في سوريا فأبو خليل أحمد القباني كان أول من أحيا هذا الفن في دمشق عام ١٨٦٥ ، فاستمد مواضيع مسرحياته من التاريخ العربي ، فأقبلوا عليه في مصر ، ولم يُخرج منها كما أخرج يوسف الخياط الذي مثل رواية « المظلوم » بحضرة الجديو اسمعيل .

ان هذا الفن - كما كان في اوربا - نشأ وترعرع في لبنان ، وان آلت زعامته بعد حين الى مصر . وهي لا تزال في ذلك القطر في رقي بفضل مناصرة الدولة لأربابه ورعايتها لهم . فاذا كان لبنان مثل أول رواية عربية فمصر أنشأت أول « اوبرا » ملكية . أما مسرح سميتي مارون ، وهو بكر المسارح العربية الشرقية ، فاستحال الى كنيسة ^(١) كما قلنا .

(١) كنيسة السانطا قرب حي الجيزة . المكشوف . العدد ٥٢ سنة ١٤ ص ٨ .

نجيب الحداد

ولد في بيروت عام ١٨٦٧ ، ومضى لسبيله عام ١٨٩٩ فكان خاتمة كتاب القرن التاسع عشر . دبّ في حجر خاليه ابراهيم و خليل اليازجي فتلقى منها اصول اللغة العربية . ثم هاجر الى مصر وهو صغير السن فأدخله ذووه إحدى مدارس الاسكندرية فأتقن اللغة الفرنسية . ولما نشبت ثورة عرابي باشا عاد الى بلده وأتم دروسه في المدرسة البطريركية ببيروت . ولما هدأت عاصفة تلك الثورة رجع الى الاسكندرية وانصرف الى الكتابة فخاض غمار الصحافة وبرز في ميدانها . كانت المقالة في زمن نجيب بضاعة الوقت الرائجة في سوق الأدب ، فانتجت منها قريحته روائع وطرائف ، فطارت شهرته وبعُد صيته . وكان المرح في طور صباه ففذهاه نجيب بروايات تمثيلية عديدة كان لها أحسن وقع في النفوس ، فطغت على مسارح الشرق العربي .

كان بلبل هذه الروايات الشادي الشيخ سلامه حجازي آية دهره في الانشاد ، فاستيقظنا نحن على اسطواناته ذات الاهتزازات الساحرة تغني لنا من شعر نجيب الحداد .

ان كنت في الجيش أدعى صاحب العلم فأنني في غرامي صاحب الألم
يا من تملكتم قلبي ، فكان لكم عبداً ، وكنت له من أطوع الخدم
هذا من رواية صلاح الدين الأيوبي التي راع السلطنة التركية تمثيلها . ثم
الأنشودة الثانية من رواية روميو وجولييت :

سلام على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه او تمحو هواه من القلب

وهناك روايات اخرى عديدة شهدت تمثيلها في بيروت لجوقة رحمن بيبس .

أتم نجيب الحداد ما بدأ به مارون وسليم النقاش وأديب إسحق ، فمضى
بالمسرحية قدماً ، كما احسن إنشاء المقالة وإن قصر عن أديب اسحق فيها .
فالفرق بين الاديب والنجيب هو ان اديب إسحق كفر من سبوح جموح
والنجيب يمشي مشياً وثيداً . في نجيب الحداد شيء من نفس خاله ابراهيم
فيسير الهوينا حين يكتب . وقد رأيت ابن الاخت هذا يترسم خطي الحال
في مقالاته الأدبية . إن هؤلاء الذين اسميهم اساطين كتاب المقالة — بعد
ابيهما الشدياق — وهم سليم البستاني ، والمراش ، وإسحق ، وتقلا ، وإبراهيم
اليازجي ، ونجيب الحداد ، وخاتمهم المنفلوطي قد ساروا بالمقالة الى أمدى
البعيد . أما الذين جاؤوا بعدهم ، وإن كتبوا المقالة مثلهم ، فقد تغيرت
عناصرها على يدهم ، وبرزت من تحت سن قلمهم فائنة مغرية كما نلاحظ حين
نقرأ الريحاني ، ابا الشعر المنشور ، وجبران وولي الدين يكن ، وعمر الفاخوري
وغيرهم .

كان للمقالة الشأن الاول في فجر النهضة ولهذا نرى اثر الشدياق وإسحق
ظاهراً في جميع من أتوا بعدهم ، فقد كان يوصينا أساتذتنا بقراءة مقالات هؤلاء
وخصوصاً درر الاديب ومنتخبات النجيب ، فكان هذان الكتابان في قماطرتنا
— طبقاتنا — إلى جانب نهج البلاغة ، نظل ننهل منها ونعلق حتى نخرج من
قاعة الدرس جارين الذيل تيهاً كالتغلي ...

كان يعجبنا الحداد أولاً لسهولة وليونته ، حتى اذا تمكنا من ناصية لساننا المبين ملنا الى اديب ، ثم عدلنا عن الاثنين الى نهج البلاغة ، وأمسينا ولا كفء له في نظرنا . لقد اجملنا فلنفصل الكلام عن الحداد النائر .

لنجيب منتخبات طبعت مرات لتهافت الناشئين عليها . كانت مثالا لنا في ذلك الزمن نطبع على غرارها ، اما موضوع هذه المقالات فأكثره أدبي اجتماعي ، لأن معالجة القضايا الأخلاقية كانت أغلب في ذلك العصر . وفيها أيضاً مقالات عديدة ، سياسية ، وفيها حكايات وملح ، وقصائد معربة عن الفرنسية ، وكلها ذات مغزى ترمي إلى غرض أدبي اجتماعي . لا يتسع المجال لتحليل أسلوب الحداد في نثره الطريف ، فم كالشعر في التخيل ، وصفاء العبارة وموسيقاها ، واني لأكتفي بعرض نموذج يدل دلالة واضحة على طريقته الكتابية وغرضه الاجتماعي . قال من مقالة عنوانها « الخادم والمخدوم »

« متى ترى الرجل مطرقاً مهموماً يفكر في مستقبل ايامه ، وحزيناً يحسب لعهده قبل عامه ، ويحرص على صحته كما يحرص على رأسماله ، إذ لا مال له سواه ، وهو مع ذلك ينفقها عرقاً يسيل من ثنايا الجبين العابس ، ونوراً يبعث من حذقة تلك العين الكلية ، وفكراً تقسم بين عمله المندوب اليه بدافع العيشة والاحتياج ، وبين عيلته المدفوع اليها بداعي الحنو والتسخير ، فقل هذا هو الخادم رب البيت والاولاد ، يعمل لطعام اليوم من شغل اليوم ، ويسأل الله السلامة في العد ليعمل في الغد ، ولا أمل له في هذه الحياة الدنيا سوى مخدوم أوى اليه ، وعافية يستعين بها عليه ، وصبية صفار يرجو ان يقوى على قوتهم وسد حاجاتهم ، قبل ان يرجو لهم بلوغ الشباب ويأمل منهم النفع والاسعاف .

ومنى رأيت الرجل يمشي في الأرض مرحاً ، ويختال في مشيته فرحاً ، ويرفع ابصاره الى العلاء كبراً ، قبل ان يرفعها شكراً ، ويدخل الى حاتوته آمراً تاهباً ، يسخط على خادم لا يرضيه ، أو يتظاهر بالفضب عليه لكي لا

يطمع فيه ، أو يدعي القلة والخسران لكي لا يزيد في راتبه ما يكفيه ، فقل
هذا هو المخدم ، أو البعض من أمثاله

يحاسب على الدرهم ويخزن في الكيس ، وبعد مؤونة الدهر ، ويجمع لأحر
الأبد ، وقد أنساه الفنى ان في الأرض موتاً دائراً ، وقضاء محتوماً ، وان
وراءه خادماً عاملاً لا أمل له بعد الله إلا به ، ولا معرّج إلا عليه ، ولا رجاء
إلا عنده ، ولا طمع بمستقبل العمر والاستعانة على شئ . الدهر الا فيه ، وفي
مكارم أخلاقه ، وقد لا يكون من اصحاب تلك الأخلاق كما يكون خادمه
من اصحاب تلك الآمال .

أرأيت أي مشكلة يعالج نجيب الحداد في ذلك الرمان ، انها مشكلة اليوم
بعينها ، ولهذا نقول : ان الأدب الحي لا يموت ، بل يصلح للقراءة في كل
زمان ومكان . اظنك أدركت ممي بعد ما سمعت تلك الفقرات ان هذا
الجيل من الادباء متأثر بكتاب القرن الرابع ، أي مدرسة ابن العميد .
وقد ذلك على ذلك لالة واضحة تفننه في استخدام حروف الجر كما كانوا
يتقنون .

وهناك أيضاً نجيب الحداد الشاعر وهو في نظمه الهيس اللين متأثر جداً
بجده المرحوم ماضي اليازجي ، وهذا ما يؤيد مزعم الهادة الفرنسي «تين»
في العرق . انظر الى دباحيتها فتحسب انها نسجها على نول واحد ، ففي
سر نجيب سهولة وبساطة كلام جده ، تأمل كيف يفتح رائعة مسرحياته
«صلاح الدين الايوبي» :

ان لم اصن بمهندي وبميفي ملكي ، فلست ، اذن ، صلاح الدين
تحمي الممالك ربها أما أنا فأريد أحمي الملك لا يحميني

ونجيب الحداد شاعر مطبوع ، وله ديوان كنا تقتله مدارس . نطوف به
من الجلد الى الجلد مرات ، واشهر قصائده قصيدة في وصف القمر ، كأنها

نظمٌ لمقالة خاله الشيخ ابراهيم التي هي اروع نثر القرن التاسع عشر الشعري
ومستوى منها نموذجاً .

أما أسيرُ قصائد نجيب وأروعها ، فهي التي قالها في وصف القمار
فدارت على كل لسان .

لقد غذى نجيب النهضة بما ألف وترجم من مقالات طريفة ومسرحيات
رائعة . عاش زهاء ثلث قرن صرفه في خدمة امته ووطنه ، ومرة ذكرى
وفاته المحسنة كما مرت ذكرى الشدياق من قبل ، فلم يأبه لها احد ، فكان
الرجل لم يكن ذلك الرائد العامل .

رَوَاةُ الضَّحَافَةِ

الشدياق

لم نسمّ أحمد فارس الشدياق « صقر لبنان » عبثاً واعتباطاً ، ولكنه استحق هذا الاسم لأنه قرّ كما قرّ صقر قريش . هذاك شيد دولة عربية غربية ، وهذا شاد دولة أدبية وبنى النهضة الحديثة على أسس راسخة . أقرّت له بذلك مصر ، فوضعت جائزة سنوية لمن يكتب عنه - من الكتاب المصريين - كتاباً موضوعه : « أحمد فارس الشدياق وأثره في اللغة والأدب » ووضع المصطلحات الحديثة .

كيف لي أن أحدثك عن أحمد فارس في فصل صغير بعد أن كتبت عنه كتاباً ، ولم أحط فيه بجميع نواحي تلك الشخصية الجامعة التي يصح فيها قول الشاعر :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهو امرؤ قيس عصره ، وجاحظ زمانه ، وفولتير جيله ، وخليل القرن التاسع عشر . أبو الجريدة العربية المثلى الجامعة الأدب والسياسة والعلم ، وأبو الكتاب في هذه النهضة التي نتحدث عن روادها .

ذهب أحمد رائداً فأصبح مستعمراً وباني دولة أدبية شرقية غربية . وإذا ظل المنهاج اللبناني متذكراً له ، فعبثاً يحاول اللبنانيون البحث عن مجد أدبي صحيح في صبح عصر الانبعاث . انهم لن يجدوه .

أن أدبنا ، ككل آداب الأمم المعاصرة ، نشأ أولاً صحفياً ، كما قلنا ، والشدياق هو أول من كتب المقالة لجوائبه . فهي الجريدة العربية الأدبية السياسية الأولى ، وإن كان نشأ قبلها صحيفتان ، فمن الظلم أن نحسبه مع الرواد وهو أبو الكتاب الأدبي في الفارياق وكشف المخبا . وهو أول من وضع لنا المصطلحات الحديثة . فإذا شئت أن تعرف شيخ العربية المعاصر ، فاقرأ « صقر لبنان » لتلم بكل نواحيه إماماً . أما هنا فسأريك نموذجاً من انشائه لتري الأسلوب الذي مشى فيه على أثره كتاب زمانه ، وكتاب العصر الحاضر .

إن الشدياق من كتاب التضال . وهو نصير المرأة قبل أن يهب شرقاً لنصرتها ، وهو المطالب بحريتها قبل قاسم أمين^(١) . كان الرجل مفرماً بالحرية حق طالب بها للعبيد في زمن الرق والاستعباد ، وإذا كنت لا تصدقني فافتح الصفحة الخامسة والثمانين من الجزء الأول من مختارات الجوائب ، فلا بدع إذا أن طالب بحرية المرأة ، في ذلك العصر . أليس هو القائل في مقدمة فارياقه أنه بناء على أساسين : المرأة واللغة .

وإذا نشرت لك نموذجاً فليس قصدي أن أدلك على نزعة الفكرية فقط بل لأريك بعض ما ابتكر في المقالة التي كان أباً لكتابتها جميعاً . تأمل كيف أخرج جملته « الأدبية » - هكذا سمي المقالة أولاً - فعلم بذلك معاصريه ومن جاؤوا بعدهم . ليس لهذه المقالة عنوان ، ولكني أنا عنونتها « حرية المرأة » . قال الشدياق بعد مقدمة لا يتسع كتابنا هذا لذكرها :

« أما سن الزوجين وقت الزواج ، فليس فيه قول فاصل مبني على

(١) راجع زيدان في مشاهير القرن التاسع عشر جزء ١ ص ٣١٢

الاحتجاج ، ففي بلاد اوروبا لا تتزوج المرأة رجلاً إلا إذا كان ترباً لها ،
والا فزيادة بضع سنين ، وما زاد على ذلك فهو من الشذوذ الذي يشين
وذلك كأن يتزوج شيخ فان ، وهو الشريف النسب ، بفتاة لا أصل لها ولا
حسب ، فهي انما تتزوجه لكي ترث منه اللقب ، لا لكي ترأيه رأم من
أحب . وفي بلاد الشرق قد يتزوج الرجل من لم تبلغ نصف عمره ، ولا يرى
في هذا الفرق سبباً يحملها على تركه وهجره ، لانه يعتقد ان الذكر خير من
الانثى ، وأفضل منها قنساً ، وأكرم جنساً .

وعلى هذا فله أن يغيرها بضرائر شتى ، وأن يآلت حقها ألثاً ، ولا يعضها
الوداد محناً ، ولا يُعنى بشأنها اذا امتحنت ، ولا يرثي لها اذا امتهنت ، وما
ذلك إلا لأن الذكر خير من الانثى ، وانه افضل منها قنساً ، واکرم جنساً .
وان له ان يسهر الليالي مع أحبابه ، وهي مقصورة على حجرتها ، ولا
تري إلا وجه ضررتها ، وان يغيب عنها دهرأ ، ويقادرها مقيدة باسمه كرهاً
وجبرأ ، ويجعل عليها من ترقبها ، فتقصوها وتحجبها ، فلا تخرج الى الشارع ،
ولا تبرز الى المصانع ، ولا تستنشق الهواء إلا من خروق الشباك ، ولا تلمح
بشرأ إلا على وجل من الهلاك ، وايجاس من الانتهاك . وما ذلك إلا لان
الذكر خير من الانثى ، وأنه افضل منها قنساً ، واکرم جنساً .

وان له أن يدعي الولاية والكرامات ، والمقام الذي يختص بالصالحين
ذوي الرياضات ، فيختلي بالنساء ويقرأ عليهن ، ليحمل أزواجهن على
ودادهن ، ويصرفهم عن إبعادهن ، فيقبلن عليه زمراً ، ويصرف أوقاته
معهن مستهتراً . وزوجته إذ ذاك تتلمل من الكمد ، وتتقلب في النكد ،
فليس لها من تشكو إليه ، ومن تعول عليه ، ولا من ينقذها منه ، أو
يصرفها عنه ، وليس لها ان تماري في ولايته ، وتتطلع على حبالته . وما
ذلك إلا لأن الذكر خير من الانثى ، وأنه افضل منها قنساً ، واکرم جنساً .
وان له أن يدعي العلم فيجمع لديه غلماناً يتلذذون له ، فيأتي منازلهم
ويأتون منزله ، ويتلو عليهم الخزعبلات ، والنوادر المستميلات ، فيلازمون .

حضرته ، ويكرمون طلعتة ، ويؤثرون مودته ، وينوثون بفضائله ،
ويعجبون بشيائله ، حتى تتمكن محبه في قلوب أهلهم ، ومن اتصل بهم ،
فيودوا أن يصل نسبه الى نسبهم ، ويعرضوا عليه عوانسهم ، ويستزيرونه
ليوانسهم . وزوجته إذ ذاك ، تسمع وتتأسف ، وتدمع وتتلطف ، وما ذلك
إلا لأن الذكر خير من الانثى ، وأنه أفضل منها قنسا وأكرم جنسا .

وان له أن يصر على ما اكتسبه من المال ، ويخفيه عنها كخفايا عن الرجال
فلا ينض لها منه ، إلا ما لا يحيد عنه ، وهو قوت من لا يموت ، ولباس من لم
يودع بعد في الأرماس ، وهو على نفسه أكرم الناس . فان قالت له : ان فلانة
ذات حلي ، وإني ذات عطّل ، وما لي غير هذا الثوب من بدل ، قام على
مببر الوعظ والانذار ، وقال لها : ان المرأة الصالحة تكتفي بالادام والأطمار
وقد طالما عهدتك من الصالحات ، فكيف صرت من المسرفات الطالحات . قال
الله تعالى... قال النبي صلى الله عليه وسلم... قال زيد... قال عمرو... أنبأنا...
حدثنا . فيسكنها ويخجلها ، وعلى كيده يحملها ، اذ هي تعلم ان الشرع
الشريف لم يحرم على النساء الزينة ، وانما هو سفاهة من الرجل وسوء كينه .
وأقبح من ذلك اذا كان الرجل يحرمها على عرسه ويستحلها لنفسه ، وما ذلك
الا لان الذكر خير من الانثى ، وافضل منها قنسا ، وأكرم جنسا .

ثم اذا قالت له : ان جارتي تخرج الى المنازه ، وبين حالي وحالتها مشابه ،
فدعني أخرج معها ، وارقع مرتعها ، وأجري مجراها ، وأسري مسراها ،
قال لها : ان شأن الحرة أن تكون ملازمة للزوايا ، مداومة على الخبايا ، لا
تتفرج ، ولا تتبرج ، ولا تتلوج ، ولا تتلغج ، ولا تفكر في منتديات النساء
ولا تصبو الى الكساء . وكل انثى خرجت من دارها ، فقد باءت باوزارها ،
وترجت عن شئارها ، ثم اندفع يقول : قال الله ... قال الرسول ... وما
ذلك الا لان الذكر خير من الانثى ، وأفضل منها قنسا ، وأكرم جنسا .

واذا قالت له تلاطفه ، اذ ترى الهم يواكفه ، والغم يرادفه ، وهو ينفخ
متضجراً ، ويتلطف متوغراً : هالي اراك اليوم مهتماً ، فكدت تذب أسي

وغما ، فلا تجيد خطاباً ولا تحير جواباً ، ولا تهتم بما أهمتنا من عوز الطعام ، وفقد الائتدام ، بلبه اللباس الفاخر ، والحلى والجواهر ، فقد انسانيها عدم القوت ، وما بعد ذلك الا الأجل الموقوت قال لها : كأنك تنبشين اسراري حتى تبعثرها ، وتنبشين أطوارتي حتى تغوثرها ، فهل يوم ربقي الاحتياج في ربقة هذا الزواج ، اشترطت عليّ ان أبشك مكتومي ، فضلاً عن أن أطعمك مادومي ؟ فهلا تنتهين عن هذا اللجاج والخصام المؤدي الى الشجاج واللكام . وما ذلك الا لأن الذكر خير من الأنثى ، وأفضل منها قلناً ، واکرم جنساً . وهكذا يعيش الرجل والمرأة كالضدين المتعاندين ، والقرنين المتناكدين ، فبيبت كل منها والاحتياال شاغله ، والاغتياال شاعله ، الى أن يصلح بينهما الطلاق ، ونعم المصلح الفراق .

ولكي يبدو لك جلياً أثر هذا الاسلوب اقرأ الكثيرين من الكتاب بعده ، بل اقرأ بعضاً من مقال للدكتور شلي الشميل 'نشر في هذا الكتاب . ان مثل هذه الفصول هي التي وجهت كتاب النهضة فيجب ان يذكر صاحبها مع الجاحظ وغيره . واذا قال واضعوا المنهاج اللبناني : ان في كتب أبي النهضة أحاضاً ، قلنا لهم : وعند الجاحظ وأبي نواس وابن الرومي ما يُستحي من ذكره . أفلاجل هذا صار الشدياق لا يستحق الذكر !!

قليل : محبة الآباء تتصل مع البنين . ولعل الآية معكوسة عند من يستشارون « سرّاً » حين تعديل المنهاج ، فيطبخونه لنا على نار حسّهم وبغضهم الموروث ، فيجيء مادوماً بما استسمنوه من ذوي الورم .

بطرس البستاني وولده

يقول المثل : عاشر القوم اربعين « يوم » فأما أن تصير منهم أو ترحل عنهم . واستاذ الجميع المعلم بطرس البستاني عاشر العلماء الاميركان زماناً فصار منهم . وحسب النهضة من هذا المصير انها غنمت ما غنمت من تأليف علمية ولغوية ، ومدرسة وطنية ، ومجلات ثقافية ، ودائرة معارف ، ان لم تكن كالدائرة الانكليزية فحسبها انها اول موسوعة عربية ، ومحيط المحيط الذي ضم تعريفات حديثة لم تكن في المعاجم القديمة .

يذكرني اسلوب المعلم بطرس بتراجمة العصر العباسي الذين اغنوا النهضة الاولى علماً ومعرفة . ليس للمعلم بطرس بلاغة الكتاب الكبار ولا ابداعهم ولا صحة عباراتهم ... فهو مترجم وناقل ، وقد أصاب فيما فعل ، لان البلاغة ، وان كانت تنقصنا في ذلك العصر ، فقد كنا أحوج الى الفنون الحديثة وعلوم العصر الجديدة . فالرواد الاول لم يترجموا الى العربية إلا ما احتاجوا اليه من الكتب لخدمة الدين . فمن يقرأ آثار المعلم بطرس ، جرائده ومجلاته ، وتأليفه يجد ان هذا الرجل العظيم القدر ، الفذ الهمة ، كان يهيم ان ينقل الى لسان العرب ما ينفع ويفيد ، وان يجد طريقة التصنيف .

وحبه التسهيل في كل ميدان حمله على الكتابة بالاسلوب الذي اعتمده
القراجه النصارى ، في عهد هارون والمأمون وغيرها . وها انا أجول واياك
في « جناته » دون كتبه الاخرى التي يعرفها كل قارئ . فشعار الجنان :
حب الوطن من الايمان ، ولعل هذا كان من أسباب تمسك المعلم بزيته اللبناني ،
فهو وطني صميم ، وفرد قام بأعمال تعجز عنها الجماعات ، وان لم نبالغ قلنا
كما قالت فيه المقتطف : « واذا أعملنا النظر في الأعمال التي اصطنعها لوازنت
أعماله أو فاقت أعمال ثلاثة رجال من فضلاء الناس بعيدي الهمة ماضي
العزيمة غزيري العلم والمعارف »^(١) .

يبدأ الجزء الأول من الجنان - كانون الثاني ١٨٧٠ - بمقال مترجم لم
يوقع ، ويختم برواية « الهيام في جنان الشام » كتبها ابنه سليم ، ونشرت
متسلسلة في أجزاء السنة الأولى فانتته بانتهاؤها . أما جميع المقالات الأولى
بعد العدد الأول فكتبها كلها سليم . وسليم ذو ملكة انشائية ليس لأبيه
بيانها ، فتنتقل من موضوع الى موضوع . وفي السنة الثالثة جعل سليم عنوان
مقالته الدائم « جملة سياسية » كما سماها الشدياق في جوائبه من قبل .

وظلت البساطة ، بل الركاكة ، مرافقة قلم الجنان حتى دخلت سنتها
الثانية ، وعلت صيحة صاحب الجوائب ، فأعلن المعلم بطرس : « أنه لما كان
الجنان قد تجنب استعمال الألفاظ اللغوية في السنة الأولى من سنوات نشره ،
وكان من المفيد ان لا يتجنب ذلك بعد ان يكون جمهور القراء راغباً في
توسيع دائرة اللغة باستعمال الألفاظ الكثيرة ... وكان لا بد لنا من القيام
بحق ذلك الامر المهم فنسأل الله التوفيق ، ونطلب الى حضرة قرائه ان
يعذرونا ، اذا اتعبناهم بتكرار مراجعة القواميس »^(٢) .

أما ولده سليم فودّع قراء الجنان في آخر سنتها الأولى بقوله عن روايته
المتسلسلة : « وقد اعتنيت يجمعها من صفات الفضلاء والردلاء والعقلاء

(١) اعلام المقتطف ص ١٢٢ .

(٢) الجنان سنة ١٨٧١ ص ١٧٧ .

والجهلاء ، ولم أترجمها عن عجمي ولا نقلتها عن عربي ^(١) ووعد ان يقدم للقراء رواية حبية تاريخية في العام المقبل ، وقد برّ بوعده فألّف رواية « زنوبيا ملكة تدمر » ونشرها متسلسلة . ثم استمر على ذلك فنشر في السنين التالية رواية « بدور » ، ثم رواية « أسما » التي لم يكف فأنشأ لآخر عدد اقصوصة عنوانها « غانم وأمينة » فسد بها ذلك الفراغ . ثم نشر عام ١٨٧٤ قصة « الهيام في فتوح الشام » ، وقد أكثر في هذه القصة من الترصيع بالشعر القديم ، لأنها عربية تاريخية كما يصهم من عنوانها ، ولعل سليماً هو أول من كتب رواية تاريخية . ولست أقول انها أوحى الموضوع الى زيدان بعده لأن زيدان عارف مثله بما عند القوم من هذه البضاعة .

وبقي سليم يموّن الجنان بروايته سنة كاملة ، أما في نهاية هذه السنة فأعلن عدوله عن التعمين الكلي . وفي سنة ١٨٧٥ كتب للجنان رواية « بنت العصر » فقام بكفايته نصف سنة . وكأنه ملّ التأليف فشرع يترجم بدلاً من ان يؤلف ، فنشر بالتتابع روايات : « كاملة » و « الغرام والاختراع » و « الصواعق » و « الحب الدائم » و « ماذا رأيت من دارنكتون » و « السعد في النحس » و « جرجينه » التي ختمت بها السنة ١٨٧٥ .

وترجم لسنة ١٨٧٦ « حلم المصور » و « سم الافاعي » و « سر الحب » و « حيلة غرامية » و « حكاية الغرام » و « زوجة حون كارفار » . وفي عام ١٨٧٧ عاد فألّف رواية « فائقه » ومملأ العددين ٢٣ و ٢٤ باقصوتين مترجمتين « لا تنسني » و « قمرية » .

أما في السنة ٨٨ و ٨٩ فما عرفت ما ألّف وما ترجم لأن هذين المجلدين ليسا عندي . وفي سنة ١٧٨٥ لم يذع روايات له بل لغيره . وكذلك فصل عام ١٨٨١ الذي جرى في نهايته « اتحاد الجنان والجنة ولسان الحال » . وبعد هذا انصرف سليم الى تعريب « تاريخ عام قديم » أحله محل رواياته . ثم عاد فكتب رواية « سامية » ونشرها في النصف الأخير من مجلده

(١) الجنان سنة ١٨٧٠ ص ٧٣٥ .

عام ١٨٨٢ ولكنها لم تنته في هذا المجلد ، وفي مجلد ١٨٨٣ لا أثر للروايات قط ، وفي عام ١٨٨٤ مات سليم لاحقاً بأبيه فأصدر الجنان بستانى آخر اسمه نجيب ، ولكن اليتيمة لم تعيش بعد أبويها غير عام .

هذا ما كتبه سليم من قصص ، ولعله رائد القصة الأول ، وان لم يحل في مضارها . والذي يدل على ان سليماً كان صحفياً كما يكون الصحافي ، هو انه كان ينشر رواياته مزينة بالصور ، وهو في هذا ايضاً من السابقين .

ولنعد الآن الى اسلوب سليم محرر الجنان التي لم يخلُ عدد من مجلداتها من مقالة أولى له . فإنشاء سليم أسمى درجة من أبيه ، وأسلوبه بياني أكثر . وإليك نماذج من تعابير المهلة بالاستعارات والتشابه :

« يا أيها الشرقيون . تسابقكم بنات الدهر في ميادين آداب هذه الحقب ، فلا تتركوا مركباتها تسبقكم وتترك مركباتكم مرطومة في حماة التأخر . فان نور هذا الجهر قد رفع اللثام عن محيا ليل الطلام فبان لكل ذي بصيرة بدر المبادي ، الصحيحه فعرفنا بما وقع علينا من الأسعة التي انحدرت البنا في أحدور القرن التاسع عشر ما يقودنا الى أرياف السجاح والتقدم » .

وافتح مقالاً عنوانه الإصلاح بقوله « هل نقول لقد راقت طوابع سعد الأمة فلا تعود إلى افقها ، وقد لبط بها فلا تنهض ، لأن صدر الدهر قد وغر عليها وأيادي الزمان قد تخللتها بذوايل النوائب ، وقد لشت فلا تقدر أن تأتي بما يهيجها بعد أن خدشت نواعم وجنتيها جيوش الرزايا والآفات » .

وقال مفتتحاً مقالاً سياسياً : « أطال الزمان بلاباً فرنسا وحلت عليها أيادي الدهور ، وأمست تعتل إلى الشر وتقاد بعنان الويل والهوان من ذمائر إلى ذمائر ، فكان الشر قد أفاخ ناقته في وسط مركز التمدن والمعارف » .

(١) الجنان سنة ١٨٧١ ص ٢١٣ .

(٢) ص ٢٤٩ .

(٣) ص ٢٢١ .

وقال في صدر مقال « أعجب العجب » : « على مَ الفنج والدلال، والهرم قد هدم صفوف تلك الأسنان ، وقد بيّض الشيب سواداً كان ابيض الخصال؟ فليس اقبح في عيني من عبوز تهتز تيبها وغنجاً الا عرجاء ترقص وتعيد عجباً ودلالاً ، وأقبح منها الذي يعاين الأواقي ولا يعاير الأرطال^١ » .

ثم يتكلم بعد هذه المقدمة عن الحسد فالنميمة حتى يقول : « انه من واجبات الكتاب ان يصلحوا العادات القبيحة فما أقبحهم إذا سلكوا سبيلها ، وأحب اليّ أن أخسر ما اقدر أن أخسره من أن أرى بنات اقلامي ترقص في مراسح النميمة والفساد ، فان للقم عرضاً وناموساً ، وحكمه حكم الفتاة » .

وبلي هذا المقال « تذييل » رده على من انتقد اسلوبه الذي أريته نماذج منه ، وما اظنه إلا الشدياق لأن الحرب القلبية كانت قد أعلنت ، ودارت رحاها على الجبهتين الغربية والشرقية - الاستانة وبيروت - ولكن الملاحظة النقدية التي أبدأها الكاتب الذي لا يذكر اسمه سليم قد حملته على ترك مواضعه الأدبية واستعاراته ، فعاد الى الاسلوب الطبيعي وصار يصدر البيان بجملة سياسية ، بدلاً من تلك المقالات الأدبية .

تلك كانت موضة الكتابة في ذلك الوقت ، كما قال سليم في رده على فاقده ، فالمراش وإسحق ، ثم الحداد بعدم ، كانوا جميعاً يحكون على ذلك النول .

لم ينح سليم نحو والده لأن نشأته غير نشأة أبيه . أما أسلوب المعلم بطرس فاتبه زيدان وغيره ممن كتبوا ليقرروا لا ليتخلوا ، وإذا كان المعلم بطرس قد مات ولما يصقل أسلوبه ، فقد تم لغيره بعده ما لم يتم له .

لقد كان أخرى بواضع منهاج البكالوريا الادبي ، أن يكلف المدارس

(١) ص ٦٠٩ .

تدريس سليم البستاني لا المعلم بطرس . ولكن حكمة « الواضع » شاءت
فحشرت المعلم بطرس مع الجاحظ وغيره من اصحاب الدروس الاخلاقية
والاجتماعية ، وليس للرجل في « الانشاء » غير خطابي تعليم النساء وآداب
العرب ، فاذا كانت حكمة الواضع تعنيها فقد ضلت ولم تصب لنقول : قد
اصابا كما شاء جرير .

ان للمعلم بطرس في نهضتنا دوراً عظيماً ، واننا لظالموه اذا حشرناه
مع الادباء والكتاب . واذا كان لا بد من ذكر بستاني في كل مجال ، فلنذكر
الابن المؤلف ، لا اباه المترجم والناقل .

الشيخ إبراهيم اليازجي

هو احد جنود تلك الكتيبة الماضلة تحت علم الضاد في عصارى القرن التاسع عشر . خاض المعركة مع قائدها المغوار ، فارس ميدان الفصحى ، المستولي على الأمد ، فأكسبه ذلك الشوط ، وإن لم يحلّ فيه ، شهرة أحلته المحل الأرفع بعد ما مضى أولئك الجهابذة وعاش هو بعدهم ليتوغّل في المسلك الوعر الذي شقّوه ومهدوه .

فالشدياق والأسير والأحدب واليازجي الأب كانوا أبطال تلك الساحة يصلون ويحولون حتى طلع إبراهيم فكان صدر أبيه في الانشاء ، ولكنه فاقه علماً وتدقيقاً بأسرار اللغة . نزل إلى الميدان ، بعد موت والده ، وهو ثنيان رخص ، فدافع عنه في تلك الهبة ، التي أثارها ، كبش الكتيبة العاصي والجواد القارح أحمد فارس

فاليازجي كاتب عالم صنع نفسه يوم لم تكن طرق التعليم معبدة . جاور أباه وأخذ من علمه ما حضر ، ثم تعمّق فاكسب برغبته وجدّه لغات أجنبية وآداباً وعلوماً حتى أحصى بين علماء الهيئة - الفلك - وتطاول الى

مناقشة العلامة فلامريون الفرنسي إمام ذلك العلم ، فسمع صوته وأهدى إليه ملك أسوج ونروج نوط العلوم والفنون .

إلى هنا أوصل الجدّ والكذّ الشيخ إبراهيم اليازجي الذي لم يعمل رأسه سقف مدرسة . كان معوّلاً على نفسه معتمداً عليها فخلقت منه تلك الثقة المقرونة بذكاه حادّ رجلاً وقف حارساً أميناً على باب لغة العرب زهاء ربع قرن . لقد صدق لما أجاب من سأله عن اسناده حين قال استاذي الشدياق . فهذا البحر المحيط بجبال اللغة وسهولها وأوديتها وكهوفها جرت اليازجي الى خوض غمارها وعبابها خوفاً من الطوفان الذي طغى من لدن صاحب « سر الليال » و « الجاسوس على القاموس » .

كان إبراهيم في طلعه الأدبية يقول الشعر كآبيه ، فأكثر من نظم « التواريخ » كما مر بنا . ولسنا نعي ان هذا كل شعره ، فلا إبراهيم شعر حماسي قومي أهاب فيه ببني يعرب يوم كانوا يعملون لاسترداد الملك المفقود . نظم قصيدتين شهيرتين نشرتا غفلاً في بيروت ، فأفضت مضجع الوالي فبت جلاوزته ورجال شرطته لينترعهما عن الجدران ، وهذا مطلع كل منها :
تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواظها النواعس

وله قصائد أخرى منها واحدة في وصف الزهرة التي وصفها في مقال من النثر الفني المنمّق كان خيراً من شعره المنظوم . ويقول من ترجموا لإبراهيم أنه عاف الشعر إذ وجد ان استمرار تلك الحال سيفضي به الى الانقطاع للشعر وإهمال ما سواه ؛ فترك النظم بته وعكف على الاشتغال باللغة وسائر فنون الأدب والعلوم العقلية .

فماذا فعل إذن ؟ انصرف الى الكتابة فكانت جريدة « النجاح » عام ١٨٧٢ ميداناً لقلبه ، بعد ان جربه في مجلة « الجنان » مساوراً شيخ العصر صاحب الجوائب ولكنه لم يحرر جريدة النجاح غير بضعة أشهر لأنها

احتجبت « لأن دخلها لم يكف خرجها » . فانتدبه الآباء اليسوعيون ليعرّب التوراة ، فانكب على عمله الجليل تسع سنوات « فجاءت هذه النسخة من أصح ما عرف الى الآن من نسخ هذا الكتاب ، فضلاً عما اشتهرت به من فصاحة العبارة وجزالة الاسلوب » .

ثم طلق الآباء اليسوعيين الثلاث وراح يعلم البيان في المدرسة البطريركية بيروت ، وله في ذلك الوقت خطاب نفيس عنوانه « آداب الدارس بعد المدارس ، أفاض فيه نصحاً وتأديباً للنشء وغيرهم من أرباب صناعة القلم ورجال الفكر ، فجاء من طراز رسالة عبد الحميد الكاتب إلى زملائه . ولما كان الشيخ من المطبوعين على المناقشة والجدل والمطارحة ، ومجال هذا في الصحافة أوسع ، أصدر مجلة الطبيب مع الدكتورين زلزل وسعاده ، فكتب فيها أبحاثاً في اللغة وغيرها ، فعادت شهرته إلى الظهور وطار صيته ، ولكن هذه المجلة أيضاً كانت قصيرة العمر فماتت كالنجاح في المهد وكما انتقلت أختها من قبل إلى رحمة تعالى .

ورأى الشيخ ما صادفه الذين تزحوا من الأدباء إلى مصر مثل صرّوف ونمر وزيدان وغيرهم فتفرّب مثلهم ، وهناك أنشأ مع زميله زلزل مجلة البيان فلم يطل عمرها أكثر من عام . وأنشأ الشيخ ، وحده مجلة « الضياء » الشهيرة ف عاشت ما عاش ، وماتت بموته بعد ان أدت للغة أجلّ خدمة ، وفجع اللسان العربي المبين بالاثنين .

وقف الشيخ في الضياء رسداً على الكتاب يتتبع خطواتهم اللغوية في باب « لغة الجرائد » ، كان يرشدهم ويسدد خطواتهم ، فلم اللفظ من الأخطاء الفاشية ، وصححت عبارة الكتاب ، وكان له في ذلك أبيض يد عند حملة الأقلام . كفاهم مؤونة التنقيح في المعاجم ، وأقرّ الحروف في مواضعها ، وهذه التعمدية بالحروف قوام الكتابة عند البلغاء ، ولهذا كانت قبلة أنظار الشيخ . وما روي عنه - لعلها مبالغة - انه أبرق مرة من الاسكندرية الى مدير مجلته - الضياء - يطلب منه أن يعيد طبع أحد كراريس عدد المجلة ان لم يستطع

إبدال الباء بفي في عبارة ما .

أما شخصية الشيخ فقوامها إباء وعزة نفس ، وحرص على الكرامة ، وانفة كأنها الكبرياء . لذاع النقد قارصه ، ولكنه لا يحتمل الرد برحابة صدر ، وهذا ما أدّى به أحياناً إلى كتابة مقالات كان في غنى عنها ، وليته تزّه قلبه عن تحبيرها .

كان نقد اللغة أحب المواضيع إليه ، وقليل ما كان يعالج النقد من نواحيه الأخرى ، ولكنه أجاد في الدراسة التي ذيل بها ديوان المتنبي المنسوب شرحه إلى والده . فابراهيم لم يصحح من تصانيف أبيه شرح ديوان المتنبي فقط ، بل أعاد النظر فيها جميعاً لأن اليازجي الكبير لم يكن باللغوي المحقق . أما الفضل في هذا التنقيح والتصحيح فيعود إلى الشدياق الذي اضطر الابن إلى جبر عثرات أبيه . فكان من وراء ذلك خير جزيل .

ليس إنشاء الشيخ ابراهيم بالإنشاء المنمق العالي ، إذا استثنينا صدر مقالتي الزهرة والقمر ، حيث أظهر لنا الشيخ انه ناثر فني من الطراز الأول . فخياله فيها طريف ، وسجعه انيق ظريف كأنه الشعر أو فوق الكثير من الشعر ، وسوف نعرض عليك نموذجاً منه .

أما في جل نثره الآخر فيكتب بأسلوب العلماء والمؤرخين ، والكتاب الاجتماعيين ، وهو أكثر ميلاً إلى هذه المواضيع ، التي تتطلبها المجلة ليكون فيها مرعى لكل مرئاد . فتضلع ابراهيم من اللغة وادراكه اسرارها أدى به إلى العدول عن المجاز .

فلليازجي فضل على النهضة بتعابير الصريحة لا بطلاوة أسلوبه وطرافة شخصيته ، فهو على علمه الواسع لم يترك بعده أثراً يخلده ، وهذا برهان على ان الشيخ كان لغوياً لا يجيد عن الطريق المعبدة مقدار فتر حتى كأنه يمشى على الصراط . فكأنه كان يحب الرفق بالألفاظ فلا يريد ان يحملها أكثر من نحوها ، ولهذا تأنى وتغنى حتى أصدر كتابه « نجمة الرائد في المترادف والمتوارد » وما هذا الكتاب غير صورة ثانية عن كتاب « الألفاظ الكتابية » الذي يعلم

الناس كيف يعتبرون عن افكارهم وخواطرهم كما نلقن نحن طفلاً حديث العهد بالكلام ، وما قتل الأدب العربي غير هذه التعابير « الجاهزة » المعدة .
ثم يبدو لنا التقليد أكثر وضوحاً وجلاء حين نقرأ رسائله فنراه ينحرف فيها نحو الخوارزمي والبديع ، وما أعزّو ذلك الا الى المربي الأدبي والنشأة في ظل الوالد ، فهي التي وجهته هذا التوجيه . فنحن لا نرى في آثار اليازجيين ما يدلنا على انها عاشا في زماننا ، مع ان الشيخ كان بخلاف والده يضيف الى ادراكه أسرار اللغة اطلاعاً على الآداب الأجنبية .

ولم يكن الشيخ كاتباً وشاعراً وعالمًا فقط ، بل كان يضرب في كل فن بسهم ، يحسن الرسم والتصوير والحفر ، وهذا الأخير هو الذي دفعه الى خلق هذه الحروف الجميلة التي تطبع بها كتبنا اليوم ، فن نظر الى الحرف المطبعي القديم وقابله بحرف اليوم يسأل للشيخ حسن الجزاء والأجر ، فهو ذو الفضل الأول « في صنع الحروف لعمل الأمهات التي تسبك عليها الحروف والمطابع ، ناهيك انه عني باختصار قاعدة الحروف المعروفة الى يومنا هذا ، فرد عدد الأمهات إلى خمس مائة هي عليه » ، بان حصرها في نحو ستين أمّا ، حال كون عددها في المؤلف لا يقل عن ثلاثمائة ،

هذا ما كتبه زعيم الطباعة الأهلية المرحوم خليل سر كيس في جريدته لسان الحال البيروتية يوم مات صاحبه أبرهيم اليازجي لأن هذا العمل كان بارشاد الخليل ومؤازرته ، وهو الذي ابرز هذا المشروع إلى حيز الوجود في مسبكه .

وقد اطلعت على رسالة بخط يد الشيخ ابراهيم بتاريخ سنة ١٨٧٠ وجهها الى صديقه خليل سر كيس في مطلع هذا العام مهنئاً ، فاذا به يستعمل « رؤياكم » بدلاً من « رؤيتكم » ويستعير « غرة » من الشهر القمري فاستنوق الجمل .. لقد دلني ذلك على ما أصاب من الخير العميم حين انبرى لمناظرة الشدياق ونشبت بينها تلك الحرب القلمية في عام ١٨٧١ وما نحن ننشر هنا رسم تلك الرسالة لتقرأها :

بشركي الهدان قصر عري ، وفرح كلما حلّ الهللس

مولاي

قد تشرفت بسؤال خاطركم في هذا العيد المبارك فلم أسعد برؤياكم المحبوبة فأنه
تعالى شأنه الذي وصلنا إلى هذا اليوم بسلام إن بحسن مشيئة في المستقبل
ويعيد على جنابكم عداً وافراً من مثل هذا اليوم سنة ١٢٨٧

خزعة كانون الثاني سنة ١٢٨٧

إن الوفاء لخدام العلم والأدب يقضي علينا أن نذكر للرجل فضله الجزيل
على كل من حمل قلماً ، فهو وإن لم يترك أثراً بديعاً فقد كان له أبعد الأثر في
توجيه كتاب النهضة نحو الكلام الصحيح السليم . ولئن كان في انشائه جفاف
أساليب العلماء فلا تنس أن فيه صحة وشدة أسرة وهو قبل كل شيء عربي
لا غبار عليه . لم يكن يتعمد المحسنات البديعية ، أما إذا جاءت عبارة جميلة
على الهيئة فأهلاً ومرحباً ، وإلا فهو لا يشد بأذيالها لتجيب صوبه غصبا عنها .
يؤخذ على الشيخ ترديده بعض عبارات وكلمات بعينها فيزرعها في كل مقال
مثل : لا جرم وغيرها ، فتجيب غالباً مثل تلك العبارات التي يكثر الناس
من ترديدها في حديثهم ، كقولهم بعد كل جملة : نعم ، أو فهمت ،
أو سمعت يا سيدي ، الخ .

ويؤخذ عليه أيضاً تشدده وتقصره في معاني المفردات وغيرها حتى عدّه
غلطاً ما ليس بالغلط ولا بالخطأ ، إذا حكمنا عقلنا في اللغة . فكأنه في
أحكامه تلك يريد أن يسد على الكتاب باب المجاز ، بل يريد أن يطين النوافذ
ليمنع تجدد الهواء في حصن اللغة ، مع أن فتح الأبواب والشبابيك ضروري

خوفاً من الاختناق ، فالألفاظ كائنات حية تقدر ان تتولد وتتكاثر إذا
نفستنا عنها .. واللغة كالتحولات يجب أن يكون فيها وفيات ومواليد ،
وإلا صارت مومياءات ومتحجرات ...

وأخيراً هاك من نثره الفني ذاك النموذج الذي وعدناك به : قال في وصف
الزهرة :

« هي ملك جند الدجى بل قائد مصكر الأنوار ، بل إلهة الجمال قد
استوت على عرش من النضار . إذا برزت في ثوب بهائها اكفهرت لها الشمس
من الحسد ، بل غشيتها هرة الخجل بعد ما علتها صفرة الكمد . فاقبل
الهلل وقد انحنى بين يديها وسجد ، وأطافت بها حور الكواكب كأنهن
أتراب كواعب ، فوقفن لخدمتها متضائلات أمام عظمة جلالها ، وقد ارخين
شعورهن من حولها فشبين من جمالها ، فما كادت تتجلى لهن حيناً حتى توارت
عنهن بالحجاب ، وسرن في أثرها متتابعات حتى يرفعن الصبح بأبيض
الجلباب ، .

إلى أن قال خاتماً النثر الفني :

« تلك إلهة الجمال التي عبدها الأوائل ، وأقاموا لها المساجد والهيكل .
ورفعوا إليها الأبصار والقلوب ، في اخريات الليل وقبيل الغروب . فكانت
مناط الآمال ، ومصعد الابتهاال .

أمانى تخرق الفضاء ، وتسافر بين الارض والسماء ، فتنزل مكانها طمانينة
الانكال ، بين حرارة الرغبة وبرد الآمال ، .

وقال في وصف القمر :

« هو بعد الشمس أبهى الاجرام السماوية على العموم ، ونكتة الفلك
الأرضي بل أقرب ما يرى الناظر في عالم النجوم . اذا استقل في فلكه يسبح
فوق الوهاد والآكام ، ورأيت يتراجع مع النجم وهو 'مجد' في وجهه إلى الأمام ،
فتخطى الأبراج وكأنه واقف لا يحس له الناظرون انتقالا ، وظهر بأشكاله

من الهلال الى البدر حتى يعود هلالاً ، فكان قيد الابصار تراه أبداً جديداً
على تقادم عهده ، وتتوهمه على قيد أميال منها وهو الشاسع في بُعده ، على
انه أدنى العوالم من الأرض مقيلاً ، واعلقهن بها حبلاً وأقربهن تمثيلاً .
فهو صورة الأرض في السماء ، ورفيق طبيعتها إلى حيث لا تدري في أجواز
الفضاء ، وشريك بختها فيما أرصد لها من أحكام القضاء . بل هو وليدها وان
تقضي قبلها شبابها ، وشابت دونها اترابه . وقد دفعته عنها منذ فصاله فمر الى
حيث لا مطمع في إيباه ، ثم عز عليها إلا أن يكون بجبالها فأخذت عليه
طريق انسيابه . فهو أبداً يدور من حولها مقطّع النياط ، ويقطع معها
اضفاف ما تقطع من الأشواط .

« كون جامد ، وقفر هامد ، وسكوت سائد ، وحطام خلق بائد ، لا
يخلو هنالك غدير ولا رائح ، ولا يسمع صوت باغم ولا صادح ، ولا يسبح
طائر في السماء ، ولا يدب حيوان على العراء ، ولا يخضر رادٍ ولا أكمة ،
ولا تسحب اذياها نسمة ، ولا ينتشر سحاب ولا ضباب ، ولا يتفرق ماء
ولا سراب ، ولكن جملة ما هنالك طلل دائر . وعالم من عوالم الدهر الغابر ،
بل جنازة يطاف بها حول الأرض وان لم تحملها المناكب ، وقد صلت عليها
السيارات فترحمت عليها الكواكب .

« لا بل هو خلفُ الشمس ومصباح الظلم . ومقياس الأزمان وموقت
الامم ، عنه أخذ حساب الأسابيع والشهور ، وبمركته حددت الآجال
والتواريخ من أقدم الدهور ، فكان السجل الذي يرجع اليه في المعاملات ،
والامام الذي ينزل على حكمه في توقيت العبادات . بل طالما عبده المتقدمون
لأنهم رأوا في فعله ما يشبه أفعال العاقل ، وأنسوا في صورته ما يقرب من
هيئة الناطق وشاهدوا من بقائه ما نزل عندهم منزلة الخالق ، فكان له الحكم

في السعادة والشقاء ، صلاح الفرس والزرع ، وصحة الجنى والقطع . وعلى
الجملة فقد كان الحكم في الاحوال والاعمال ، والمستشار في العزائم والآمال ،
بما يبدو عليها من نقص أو تمام ، أو يتفق له من اقتران بغيره من اجرام ،
مع اعتبار ما يقع ذلك فيه من الايام . شؤون ساق اليها ضعف الأحلام ،
واستبلاء الأوهام ، والله وراء ما يفعلون ، وهو العزيز العلام ... ،

ثم يمضي على رسله في بحشه العلمي ، بنثر مرسل ، فلا بعنيه إذ ذاك شيء
من الخيال .

صروف وزيدان وتقلا وسركيس

أدرك زيدان البستاني وتأثر بأسلوبه ، فكان في هلاله من الرواد
الاركان. اراد أن يكون طبيب اجساد وشاء القدر ان يكون طبيب افكار ،
فنشر رواياته التاريخية التي صادفت رواجاً عظيماً فطبعت مرات ، وترجمت
الى لغات عديدة . لقد سبق الى مثلها سليم البستاني ولكنها لم تكن كروايات
زيدان فناً ، وان لم تكن هذه في المستوى القصصي الرفيع . ولزيدان كتاب
تاريخ الادب العربي الحديث ، فهو أول من فصله على هنداز الكتب الاوربية ،
وقسم عصوره على غرار تاريخ الادب الانكليزي . وله أيضاً كتب عديدة
اخرى في التاريخ وغيره « كتاريخ التمدن الاسلامي » و « العرب قبل
الاسلام » و « الفلسفة اللغوية » و « علم الفراسة » وغير ذلك .

إن لزيدان فضلاً جزيلاً على النهضة الحديثة ، فهو من اركانها الكبار .
قد علّم الناس تاريخهم وسلامهم في وقت معاً .

أما الدكتور صروف فأنشأ مجلته المقتطف ، بعد صدور الجنان بثلاثة
اعوام ، فكانت منذ نشأتها علمية ، وهي لا تزال حتى اليوم محافظة على
صبغتها تلك وزياها الاول . لا تزال لابسة فستانها الطويل غير متشبهة

برصيفتها الهلال التي قصّ شعرها وقصّر فسطانها لثماني الزمن . فالمقتطف
موسوعة تتضمن تاريخ تطور العلم منذ نشأتها عام ١٨٧٣ حتى الساعة . ومن
اجتمعت له جميع مجلداتها فقد وقع على كنز ثمين .

وأهم ما يلفت النظر في المقتطف ان منشئها الدكتور صروف كتب فيها
روايات ذات لون محلي - روايتي أمير لبنان وعروسة النيل - ولعل رواياته
هذه ، وروايات فرح انطون ، اقرب ما كتب ، في تلك الحقبة ، إلى أصول
الرواية الحديثة وفنها .

وفي بدء الربع الاخير من القرن التاسع عشر أنشأ سليم تقلا جريدته
الأهرام . وسليم من تلاميذ المدرسة الوطنية التي انشأها المعلم بطرس ، ثم صار
فيها معلماً . ولما ضاق عنه لبنان قصد مصر حاملاً إلى سمو الحديوي اسمعيل
قصيدة رثانة ، فهدت له سبيل الحصول على امتياز جريدة الأهرام
عام ١٨٧٥ .

لا حاجة إلى وصف الأهرام ، وانما يحسن بنا ان نقدم نموذجاً من إنشاء
تقلا لأن أسلوبه أشبه بأسلوب المنشئين في زمنه . إنه يقول الشعر كما عرفت ،
وليس البستاني وزيدان وصروف بشعراء ليكتبوا بهذا الأسلوب المنق .
قال سليم تقلا من مقال عنوانه « الجامعة العثمانية » :

«جوزيت يا صروف الزمن خيرا عن الشرق، ولئن بلغ سيلك فيه الربي
وفاض منه الوطاب لأنك أمطت لثام الجهل والفرور عن البصر والبصيرة،
فشاهد الصور وادرك مادتها... أعدت له ذكرى ماضيه أيام كانت يحرر
ذيل المعجب والته ويتعثر بالبسط السندية ، ويرفل بمطارف الاجلال ،
ويزدان بحلى الفضل ، ويعتضد بمجاهة الكلمة ، ويشنف السمع بنغمات
الاتفاق ، ثم نقلت به إلى أيام أخذ يحرر فيها ذيل الفقر ويتعثر بشوك القتاد،
ويرفل بمباءة التعقير ، ويزدان بحلى الجهل ، ويعتضد بتفريق الكلمة ،

ويشتف السمع بنغمات الاختلاف ، فتبين بالمقابلة ما هنالك ، وبضدّها
تلبين الأشياء . .

هذا هو الأسلوب الذي عنّف الشدياق سليم البستاني لأجله ، ولكنه ساد
بعد موت الشدياق ...

أما خليل سر كيس فأنشأ مطبعته ، أولاً ، باسم مطبعة المعارف عام
١٨٦٨ بشراكة حميه المعلم بطرس البستاني ، وظلا شريكين مدة سبعة أعوام .
ثم كان الانفصال عام ١٨٧٥ فأنشأ سر كيس المطبعة الادبية ، ثم أصدر بعد
عامين جريدته « لسان الحال » فعرّض بها سليم البستاني بقوله : صدرت في
بيروت جريدة آخر زمانها ، فردّ سر كيس على ابن حميه بلسان الحال قائلاً :

واني وان كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
وثبت خليل سر كيس في الميدان وكانت صحيفته مثال الرصانة
والاعتدال ، فلم ترو قط خيراً لم تستوثق منه . وأقبل على مناصرتها حملة
الأقلام فكانت ميداناً للروّاد ومنبتاً للكتاب والشعراء الذين كانت لهم
أجلّ شأن في تاريخ النهضة .

ولم يكن خليل سر كيس ذلك الكاتب الأنيق العبارة ولكنه كان رجلاً
واقعي التعبير يسمي الأشياء بأسمائها . وإذا لم يعبّد من رؤوس الكتاب فهو
بدون شك ، من رؤوس الصحافيين الذين عرفوا بالصدق وقول الحق ، فلم
يسجلوا في صحيفتهم غير الصحيح من أخبار ، ولم يحملوا حملات غواصم بل
كان تأنيبه نصحاً وتوبيخه مشورة .

كانت أول معرفتي به في آخر عام ١٩٠٦ ، عرّفني به المرحوم خليل
طنوس باخوس صاحب جريدة الروضة وزرناه معاً في سوق اياض حيث كانت
مطبعته وإدارة جريدته ، قرأيت في ذلك الوجه سياء اللبنانيين العتاق .

وكما كان لجريدته لسان الحال فضل على الأدب والسياسة كذلك كانت
لمطبعته يد في نشر الكتب وإخراجها بحلل قشبية . انتشر حرف سر كيس
الأنيق في كل قطر ينطق بالضاد ، وعرف الناس له وللشيخ ابراهيم اليازجي

هذا الفضل على العين والرأس . ومنى سر كيس باحتراق مطبعته فكان
طبيعياً أن يكون الشيخ ابراهيم أشد الناس شعوراً بهذا الخطب الجسم
فكتب إلى صديقه يؤاسيه ، وهذه صورة تلك الرسالة التي تفضل علينا بها
خليل سر كيس الثاني :

جناب الاخ الماحد المحترم حفظه الله تعالى

بعد سوال عن عزيز خاطركم اعرض انه بكل اسف يعني خبر الحياجية
المشؤومة التي الت مطبعتكم الزاهرة ما كان له الوقع الالبس من
قوادكل من عرف ما كلم من الالادي البيضاء في الوطن وما لمطبعتكم
من الآثار التي ملأت المكاتب اذبا وعلى وخذت لكم فيها ذكرا لا يرول
غير انه لما كان ذلك بالعدد الذي لا بدفع قضاؤه ولا يشق نزوله فالحمد لله
ثم الحمد لله على ان الرزول كان في المال لا في العيال وان قد سلمت منه
السفوف وان ذهب بالنفيس فان المال مخلوف وان العائس
مردودة باذن الله تعالى وعونه وهو سبحانه المسؤول ان يعوض
عليكم اصناف ما ذهب وبقيةكم بعدها من كل كاشنة بغير عز وجل ورحمة

من المحمد
الان روى

باريز في ٢٠٢٠

وانه يسرني جداً أن يظهر كتابي هذا في الوقت الذي بلغت فيه جريدة
لسان الحال يوميلها الالامسي يجهد الابن والحفيد .

المبشران : فان ديك وشينجو

كرنيوس فان ديك

منذ مئة وعشر سنوات ونيف ، جاء بيروت شاب أميركي . ثم قضى هذا الشاب حياته كلها في الربوع الشامية طبيباً للأرواح والأجساد ، وعوناً للفقراء والمساكين

وبعد خمسين عاماً شمرت نخبة من الرجال بفضل الدكتور فان ديك الغامر فاحتفلوا بيوبيل مجيئه الذهبي ، وسجلوا الاقرار بفضله على رقّ غزال مقدرين ما صنّف وألّف من كتب مفيدة ، أدبية وعلمية وطبية ، وبما شيد من مدارس وصروح علم ونوادي خير ، وتعليم فقراء ومعالجة مرضى ، وما أعد للبلاد من رجال .

احتال ، رحمه الله ، للعلم فاقتنصه من بين مغالب الفقر وأنياب الفاقة ، تعلم رغم فقر أبيه فصار الطبيب النظامي ، والعالم الناطق بعشرة ألسن ، ومستشرقاً كالأصيل . بل فلنقل مستغرباً لأنه يعرف أسرار لغتنا كعلائنا ،

وأخيراً عادى قومه وارفى عنهم لأجلها ، يوم اقترح ان يكون التعليم باللغة العربية لا باللغة الانكليزية .

جاءنا مبشراً بالفضيلة والعلم ومعلماً مؤلفاً المفيد النافع ، فكان في سيرته النقية سفرأً جليلاً حياً . قرأ أسلافنا في سيرته سطور الشرف وجوامع النبل ومكارم الأخلاق ، ومتى عرفت من عاشر وأحب أدركت سمو أخلاقه . كان عشيره ورفيق صباه المعلم بطرس البستاني فوضع وإياه حجارة ضخمة في أساس نهضتنا العلمية . كانا شريكين ، كل يعمل لحسابه ، أو فرسين كريمين يكران مع الجديدين ، بلا كلل ولا ملل .

فأينما تطلب الدكتور فان ديك كنت تجده . ان طلبته في البرية فهو كالسيد مولع بالنبات وزهور الحقل يصنفها وينظمها ، فكانت له منبئة شرقية اعجب بها كبار علماء النبات . وان طلبته في السماء تجده يسبح بين الكواكب والنجوم في مرصد الكلية الذي أنشأ بماله ، ليرى ويرى الناس محاسن « القبة الزرقاء » ، ويعلمهم أصول علم الفلك . وإن طلبته في الجبال كنت تراه بين المسطحات والمثلثات . وإن فتشت عنه بين الناشئة رأيتهم أبا ومعلماً ، يكتب لهم كتابه الشهير «النقش في الحجر» لينور أذهانهم ، ويؤسس لهم المدرسة الكبرى ليعلمهم ، والمستشفيات ليعالجهم ، ويؤدي ثمن الدواء من كيسه . كان جواداً في الاحسان حتى التبذير ولذلك اشترط عليه تلاميذه ألا ينفق هديتهم المالية في سبيل البر كمادته .

وكان حلو الحديث ظريفاً ، ولكنه لا يتبذل . تمثل بأمثاله ، وعلم أسلافنا الحياة العملية . فكثيراً ما كان يردد : الحلاقة بالفاس ولا جملة الناس . وكم من نكتة وملحة ونادرة وفكاهة تروى عنه ، فتملأ المجالس والأفواه طرباً ونشاطاً .

جاء فان ديك ديارنا لا يملك فلساً ومات لا يملك الا المآثر الطيبة . وأروعها تأسيسه الكلية الاميركية ، وتأليفه اكثر من عشرين مجلداً كلها نافعة .

وفان ديك ، بعد البطريركية المارونية ، هو أول من اختار الأرز ، فكانت شعاراً للجامعة منذ نشأتها . وكان ذلك الفال مليحاً فصارت الجامعة أرزة طارت منها نسور النبوغ .

لست أذكر من قال : الرجل المثقف هو الذي يعرف شيئاً عن كل شيء ، وكل شيء عن شيء . بيد اني أعرف حقاً ان الدكتور فان ديك كان ذلك الرجل ، وهو من كبار رواد نهضتنا واحدُ بناتها على الطراز الحديث .

الأب لويس شيخو

أذكر ان أول كتاب أقامني وأقعدني سروراً ، هو الجزء الثالث من مجاني الأدب . استحضره لي والدي من بيروت فعكفت على مطالعته برغبة ولذة . ثم جرت عجلة الأيام مسرعة ؛ فإذا انا في مدرسة مار يوحنا مارون أتلقي « علم الادب » في كتاب ألفه الأب شيخو ، مصنف « المجاني » في ٦ اجزاء وشارحه في ثلاثة آخر .

لم يعلمنا استاذنا من كتاب علم الادب ، غير علم المعاني والبيان والبديع المنقولة عن القدماء ، أما ما بقي من الكتاب فلم يعنه امره . وسمعنا بكتاب « شعراء النصرانية » فاستقدمناه فإذا هو لهذا العلامة الجليل ، وإذا كل ما عرفناه من شعراء جاهليين قد خرجوا من تحت سن قلمه نصارى كان « التعميد » بالماء ، فإذا به قد صار بالخبز . ولكن هذا ليس يعنيننا الآن . فكل ما يعنى من الاب شيخو هو خطواته الواسعة الجبارة في طريق النهضة .

ثم ظهرت مجلة اسمها « المشرق » ، وإذا هي للأب شيخو أيضاً ، فكان هذا الرجل يكبر في عيني يوماً بعد يوم حتى عرفته في بيروت ، أيام علمت في كلية القديس يوسف أقل من ثلاثة أشهر وأخرجت منها بأمر نيافة القاصد الرسولي ، لأنني خطر على الطائفة المارونية والدين الكاثوليكي ...

ها أنا ذا في غرفة الأب لويس نتحدث وتتضحك ... كانت ضحكته كأنها سوداء ، وكأنه إنما كان يضحك غصباً عنه . فهو ذو نفسٍ لا تمل ، ويد لا تكل . أرسلت إليه من مدرسة الحكمة ، يوم كنت قلميذاً ، قصيدة عنوانها « المراثي » فلم ينشرها . وكان عذره غير مقبول عندي في حينه لأنني لم أكن أبحث عن المفردات في معجم لاروس ...

للأب شيخو اجلّ فضل على النهضة الحاضرة ، فهو الذي عبّد لنا الطريق في كتبه التي يضيّق المقام عن عدما . فكتابه « علم الأدب » تناول كل حديث من الوان الأدب ، وهو يعلم الطالب الاصول من فن القصة والرواية والتاريخ إلى النقد ، وكل ما امتحدث من ضروب . وفي مجلته المشرق التي تعد حجة في المشرقيات ، عرفنا على الروايات الاصولية والأبحاث الدقيقة ، ودلنا على ما في بلادنا من آثار . ثم لم يقف عند هذا الحد بل علمنا أيضاً تاريخنا ، وطبقات أرضنا ، وأحيا ذكر نوابغنا على اختلاف الملل والنحل ، وهكذا أحسن الرجل إلى الادب العربي كل الاحسان بما بعث وحفظ من كتب . وغيرته على الكتب الخطية القديمة التي كانت مبعثرة في هذا الدير وذاك البيت ، حيث لا يعرف قيمتها أصحابها ، أوحى إليه انشاء المكتبة الشرقية ، وهي من أشهر مكتبات الشرق بل هي أغناها في المخطوطات .

ليس الأب شيخو ذلك المنشيء المنمقة عبارته ولكنه الباحث المدقق ، والمناضل العنيف عما تجند للدفاع عنه . بحادثة جريء حمل على الماسونية حملات غواثم ، يوم كان اسم « الفرمايون » يخيف ويرعب . ولكن « الماسون الكبار » حملوه على اكتافهم إلى القبر تعظيماً لعلمه ، واجلالاً لحرية الفكر والقول ، فكان ذلك أبلى رد على كل ما ألصقه بهم من تشنيع وتزييف . وما أنا أحد أولئك انحنى الآن احتراماً لآثار شيخو ، وأقرّ أنه كان المهلي في الحقبة الاخيرة من القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين . ولولا تعصبه لدينه ذلك التعصب العنيف ، لاجمع الناس على تقديره ، ولم يختلف في تقديره

أحد ، على كل من تقدموه من الاحياء في نشر كل جديد وجه النشر ، أصدق توجيه فني .

ومن مقدمة « المشرق » التي كتبها شيخو في غرة عام ١٨٩٨ يتضح لنا انها لم تنشأ إلا لخدمة الشرق أولاً ، ولثلا يقال ان الغريب أدرى بما في البيت من أهله ، لا سيما ولا تزال نرى كثيرين من الاجانب يعكفون على تتبع أخبار بلادنا واستبطن أحوالها وكشف مكنون أمرارها فدعوا لذلك بالمستشرقين ،

وبعد ان وعد القراء بأخبار الاكتشافات والاختراعات الحديثة ، قال : « ولما كانت غايتنا ان نجمع في هذه المجلة بين الأمور المفيدة والمبهجة معاً ، أحببنا أن نفرّد بعض صفحات لروايات خيالية نتخذها وسيلة لتفكيك الخيلة ، وطريقة لتمثيل عوائد الأمم المختلفة في أحوالها وتواريخها ، ورسم تخومها ووصف آثارها (١) » ،

وهكذا فعل خادم الآداب الأمين ، فجاءت روايات المشرق مؤلفة وفقاً للاصول الفنية لان كتبها عارفون بذلك ، وليسوا حديثي العهد كروادنا . كتب الأب لامنس بالفرنسية رواية خريدة لبنان ، ورواية حبس بحيرة قدس ، وعربها نجيب حبيقة ورشيد الشرتوني . وكتب الأب اميل رينغو رواية السفر المعجيب الى بلاد الذهب ، وعربها الشرتوني أيضاً ، وكتب الأب م. ت. اليسوعي بين علي ، وعربها شيخو ، وكتب الأب ليفنكستون زوار الليل ، وعربها الحوري اسطفان البشعلاني .

وهكذا ساهم اليسوعيون في نشأة الرواية عندنا ، بهمة الأب شيخو الذي يستحق شكرنا الجزيل في العام القادم ، بمناسبة ذكرى وفاته الخامسة والعشرين ، فمضى أن لا يفوتنا هذا الواجب ، كما فاتنا غيره من واجبات أخرى .

(١) المشرق . السنة الاولى ص ٣ و ٤ .

البستاني والحوراني والأزهري

ان أكثر الرواد كانوا معلمين وكتاباً وشعراء في وقت معاً ، وقد أطلقت عليهم جميعاً كلمة المعلم ، قبل ان « تأستد » جميع الناس حق الأميون منا .. فبطرس البستاني وولده سليم ، والمشايع الأحمد والأسير ، وناصيف اليازجي وابنه إبراهيم ، وجبر ضومط وغيرهم كانوا جميعاً بمن علموا ، ونفعنا الله بعلمهم .

والشرتونيان الشيخ سعيد صاحب اقرب الموارد ، وأخوه رشيد صاحب مبادئ اللغة العربية ، التي تعرف ، حق الآن بالشرتونية ، ونجيب حبيقة وأنطوان الجميل جلسوا على كرسي التعليم زماناً . وهناك كثيرون من المعلمين الرواد كالخوري يوسف الحداد وغيره من اصحاب الآثار الادبية الذين لا محل لذكرهم في هذا الكتاب لحدائق عهدهم ، فما يعنيننا هنا الا ثلاثة منهم كانوا أبعدهم وأعظمهم أثراً في رجال النهضة .

فالشيخ عبد الله ، كما لقب أخيراً ، كان معجماً حياً يعيش على الارض . وهو أبصر أهل زمانه بنحو اللغة العربية وصرفها ، وألفاظها . كان شاعراً

تفوح رائحة القطران من أردان « بنات أفكاره » ، فكأنه عاش في الصحاري
مع تأبط شراً والشنفرى ، ولهذا يبني قصيدته أعرابية ساعة يشاء

لقد مر ذكر معجزته « التاريخية » ، أما الآن فأريد أن أعرفك بمعجزته
الآخرى وهي « تشطيره » معلقة عنقرة وتحويلها مدحاً للمطران يوسف الدبس ،
فهاك شيئاً مما قال :

« هل غادر الشعراء من متردم »	فتسد ثلثه برأس المرقم
« أم هل وددت ظباء منعرج اللوا »	« أم هل عرفت الدار بعد قوم »
« حيث من طلل تقادم عهده »	حتى التوت عنه نهى المترسم
« يبكي به غدى الرباب لأنه »	« أقوى وأقفر بعد أم الهيثم »
« إن تغدفي دوني القناع فاني »	أدعُ القنوع ومدح يوسف مغنمي
« حبر إذا هزّ اليراع فإنه »	« طبية يأخذ الفارس المستلثم »
« وإذا ظلمت فإن ظلمي باسل »	في الجاحدين عطاءه للمعدم
« فكم اجتداه الملقون ودهرم »	« مرّ مذاقته كطعم العلقم »

أما في وصف الناقة فانظر كيف التقى البطلان كأنها جيلان :

« وكان ربّاً أو كحيلة معقدا »	سالا غداة ذميلها كالحنتم
« فأديرها مثل المجث ودفها »	« حش الوقود به جوانب قمقم »
« ينباع من ذفرى غضوب جيرة »	تحكي إذا وخذت زفيف الزهدم
« أكرم بها من بازل عيامة »	« زياقة مثل الفتيق المكدم »

وأخيراً يقول في التذييل :

« وإليكها بدوية عبسية »	تسدي اليك ثناء عنقرة الكمي
« نسجت لها كف الحضارة مطرفاً »	يزري إذا خطرت بكل مسهم

وأظن أنني أشهد وتشهد أنت معي ان قصيدة شيخنا هذه لم تسمع
بالحضارة قط ، بل ولم تر لها وجهاً . كان التشطير والتخميس والتضمين من

بضاعة عصر الانحطاط ، وقد أكثر « روادنا » من عرض هذه البضاعة في سوق الادب . وكثيراً ما كان معلوناً ، حتى الكهنة الاجلاء منهم ، يقترحون علينا « فروضاً » شعرية ، وجلها من الغزل الدسم مثل :

لو ان لي في من احب عواذلا لسعيت في تشتيتهم وتوصلي
لكن محبوبي تعشق نفسه وغدا العذول فما يكون تحبلي

ومثل :

وامرّ ما لاقيت من ألم الهوى قرب الحبيب وما اليه وصول
كالعيس في الببداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ولهذا عدّ الادباء تشطير معلقة عنقرة فتحاً مبيناً ، وتحدياً عنيفاً للشعر الجاهلي ، فطارت شهرة المعلم فيها وان كان قد نظم التمثيليات كما مر ، والحكايات الروائية مثل قصيدة « الفرصاد » التي مطلعها :

وذات صيانة عقدت يميناً على حب امرئ عقدأ متيناً

ففتح باب الشعر القصصي لتلامذته وغيرهم ، فقال تلميذاه شبلي الملائط وامين تقي الدين قصيدتيهما : الجمال والكبرياء ، والجمال والتواضع . اما المعلم الشاعر الآخر فهو ابراهيم الحوراني وقد كان لغوياً أيضاً ، كما كان معلوم ذلك العصر ، وهناك شيئاً من قصيدة له عنوانها ، حال العالم في اشرق :

ذو العلم بين الطرس والمرم كالثبت بين العضب واللهم
كلامها ينبغي علاء ولا يناله إلا بفك الدم
والأول الأولى بغم لما في سعيه من شامل المغم
طوراً تراه في جوار السهي وتارة في جيرة المرزم
وكم جرى في صحصحان الفلا يشكو الوجى في الغاسق الأهم
يبعث عن آثار عاد وما وارى تراب الأرض من جرم

ثم يتطرق الى وصف شقاء العالم فيقول :

يجلس في أعراس إخوانه	كناكل تجلس في مأتم
تستلزم الدينار ابجائه	وليس في الهميان من درهم
وعرسه الشكلي على جلة	القي بها التعمار للمعدم
ذي حالة العالم في موطن	يكوى به ذو الفضل بالميسم
يركبه الجاهل من حلمه	والممتطي صنو لذي المحزم
لو انصف الدهر امتطى كل ذي	علم اخا جهل فلم يظلم

وخير ما تقرأ للخوراني من شعر هو قصيدته التي قالها في رثاء صديقه ابراهيم اليازجي . ولعل الخوراني اشعر منه الخوراني الشاعر الفصيح .
أما الشيخ أحمد عباس الأزهرى فكانت تجلله ابهة الشيوخ المحترمين ،
ومهابة رجال السمى ، فتخال ، متى وقعت عينك عليه ، انك امام رجل
من السلف الصالح . نذكره هنا وان لم نذكر سواه من مؤسسي المدارس
الوطنية ، لأنه كان منشيء مدرسة ومعلماً فيها في وقت معاً .

وقف بقية عمره على تأدية رسالته فأدأها على حقها . كان رجلاً فعلاً
أكثر منه قولاً . لم يترك أثراً أدبية ولا قصائد كغيره من شيوخ العلم ،
ولكنه كوّن وأنشأ رجالاً كانوا من اركان النهضة الأدبية والقومية .

كان الشيخ متمكناً من لغة الضاد عارفاً اسرار بلاغتها فأخرج الى العالم
العربي كتاباً وشعراء يؤدّون أفكارهم باصح تعبير وأفصح عبارة ، ناهيك بما
بث فيهم من روح وثابة ، وعزة قومية قطارت شهرة كليته العثمانية التي
أنشأها وتعهدها بنفسه طول الحياة فأخذ عنها النشء العربي أسس المبادئ
وأنبأها .

كتاب الفضائل

أوسب استحق



شامي المولد والمربي ، لبناني المنشأ ، مصري الهوى ، عربي النزعة ، كاتب نضال . تعلم العربية والفرنسية في مدرسة الآباء اللعازاريين ، واضطر الى الكدح والسمي لأجل المعاش فبكر في مغادرة المدرسة ليشغل وظيفة في ادارة الجمر ك براتب متقي غرش . فدرس التركية في أوقات فراغه . قال الشعر صبياً فنظم وكتب ، ثم انضم الى والده في خدمة بريد بيروت ، فأطل على دنيا أدبية جديدة استهوته فهام بها وعاف لأجلها الوظيفة ، وبرز في ساحة تلك البيئة عارضاً قله وهكذا ادركته حرفة الأدب .

تفتقت براعم موهبته الأدبية قبل الأوان ، فبشر بها معلمه أباه والغلام لما يبلغ العاشرة ، ثم تحققت تلك النبوءة في بيروت فعهد الى الفتى وهو في السابعة عشرة بتحرير جريدة « التقدم » فلاح في سماء الأدب كوكب جديد .

كان مع عمله الصحفي يؤلف ويترجم عن الفرنسية . وانتمى الى جمعية زهرة الآداب ، ثم صار رئيسها فعرف الناس الأديب الخطيب ، بعدما

عرفوا الأديب الشاعر الناصر فشنها غارة شعواء على العبوديتين : « الطائفية والمدنية » . كان بوقاً صارخاً في بيداء الخمول يدعو النائمين الى الهبوب والمطالبة بالحرية والاستقلال . وفي التاسعة عشرة شارك في تأليف « آثار الأدهار » وعرب اندروماك لراسين ، ثم آزر صديقه سليم النقاش في تأليف المسرحيات وتمثيلها وسافر الى الاسكندرية ملتحقاً به ، فكانت جوقتهما أول جوقة تمثيلية عربية تخطت الحدود ، وتجاوزت تخوم بيروت مهد المسرح العربي . فعرب أديب رواية شارلمان ونقح أندروماك ، وألف رواية « غرائب الاتفاق » وكان في هذا كله مؤلفاً ومخرجاً وممثلاً .

ورأودته الصحافة فصار مشمراً ، إلى القاهرة ، حيث عرف الامام الناصر السيد جمال الدين الافغاني ، فالتقت النار بالنار والتهمت الاخضر واليابس ، فقامى الرجلان ما قاميا من نفي وتشريد . أنشأ أديب جريدته « مصر » فرحب بها محبو الانشاء العالي ، واندفع كاتبها هائجاً كالبركان يرسل نوراً وناراً . فحركت الهمم وأعادت عز دولة اليراع ، فرأى الناس البلاغة تمشي في أسواقهم كأنها أهل الكهف . كانت لهجتها غريبة الوقع في النفوس ، تدفع وتزجر ، وتنتهي وتأمّر .

ثم أصدر مع صديقه النقاش جريدة « التجارة » يومية ، وظلت « مصر » تظهر أسبوعية .

وغاص أديب في السياسة من قدميه إلى قرنيه فاضطرته الاحداث السياسية إلى الفرار فهرول إلى باريس . وكأنه أبى أن تقف المعركة ويضع أوزار النضال فأصدر في عاصمة الفرنسيين كهف الاحرار ومقلهم جريدة « القاهرة » متوجاً أولى نشراتها بهذه العبارة : « ما تغيرت الحقيقة بتغير الاسم ، بل هي « مصر » خادمة مصر » .

وكتب مقالات بالفرنسية عن أحوال الشرق وما يعتلج في صدر الزمان

من طبغات دولية ، فأصغى اليه العالم الغربي ، وهناك عرف كثيرين من كبار ساسة فرنسا وعلمائها وشعرائها . روي عن فيكتور هيفو أنه قال لمن كانوا في حضرته ، على أثر انصراف أديب منها : « هذا نابغة الشرق » .

وحضر جلسات عديدة في مجلس النواب الفرنسي فثقف السياسة وتفاقم هواه للخطابة وأزداد اقداماً فيها . ولكن برد باريس أثر فيه فتمكنت منه علة الصدر فقفل إلى وطنه يتداوى بهواء بلاده وشمسها . وعاد محرر جريدة « التقدم » في بيروت ، فكانت بينه وبين الآباء اليسوعيين معركة « التعليم الالزامي ومجانبة التعليم » فبث أفكاراً وآراء تشبعت بها نفسه بباريس .

ولما تغيرت الاحوال في مصر دعي اليها وعين مديراً لقلم الانشاء والترجمة بوزارة المعارف ، ورخص لجريدته « مصر » بالظهور . وقام بأعباء وظيفته أخرى مع وظيفته وهي كتابة سر مجلس النواب ، ومنح الرتبة الثالثة وسلمه عزيز مصر براءتها يداً بيد .

وكانت الثورة العربية فعاد إلى بيروت ، ثم رجع إلى الاسكندرية بعد احتلالها ، فأعيدت البضاعة إلى مصدرها ، بعد أن زار أديب السجن زيارة قصيرة وقال فيه شعراً . وفي بيروت طبع رواية « الباريسية الحسنة » التي عرّبها .

وأطبق داء السل كاشته على ذلك الصدر الجياش الواسع فأشار الطب بمناخ مصر ، فاذن له بالرجوع اليها ، ولكن حلقة العمر كانت قد ضاقت ، فانقلب على أعقابهِ إلى لبنان ومات في مصيفه بحدث بيروت ولما يكمل تسعة وعشرين عاماً .

وانتدب أهله كاهناً ليصلي عليه فامتنع عن مرافقة جثائه وادخله الكنيسة ، ما لم يكتب والده بخطه وتوقيعه : ان ولده عاش كاثوليكياً ومات كاثوليكياً . وتدبر العقلاء القضية بالتي هي أحسن ومشى الدليل أمام أديب إلى بيته الاخير ، ورخص له بدخول عالم الابدية ...

مكثا جمع الموت ، أخيراً ، بين أديب والشدياق في خراج قرية واحدة عاشا مهاجرين اعرابين ، ثم فلما تحت السماء التي أوجت لها ما أوجت من أدب وحرية فكر ، وطلاقة لسان وظلاوة بيان . فرّ نسر لبنان الشدياق ينشد حرّيته في الآفاق ، فكان يستقر أعواماً حيث يحل ، أما أديب ففضى عمره القصير شريداً طريداً . إن قصر عمر أديب لم يمكنه من الاستقرار فهو لم يتجاوز عمر القمر . فلما اكتمل حتى أحق ، ولكن البقية الضئيلة من تغاريد هذا الطائر الغد تدلنا عليه دلالة لا لبس فيها ولا أشكال ، كما قال في رثائه صديقه الأديب اسكندر العازار :

« كان رايتنا في علم اللسان ، وآيتنا في صناعة البيان ، وغايتنا في حب الانسان ، وكان ، والله ، فتي ولا كالفتيان . كان زهرة الادب في الشام ، وريحانة العرب في مصر ، عاش حر الضمير فكراً وقولاً وفعلًا ، ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعلًا ، فليكنه ضمير الاحرار ولتندبه الحرية . نشأ وطنياً خالصاً صحيحاً ، وعاش جندياً لاشرف الاصول وأسمى الغايات ، وأنفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح ، وجاهد جهاداً حسناً فمات شهيداً حميداً . »

عصره - كان أديب في عصر التناحر على المسألة الشرقية ، ونشأ في أرض كانت الناس تروّح فيها تحت نير الافطاعين : الديني والمدني ، فكيف تنفست قملًا خياشيمك روائح استبداد تضيق لها الصدور وتنكمش النفوس . رسالات دينية اجنبية تتناحر على شطنا-اللازوردي ، يخدمون قيصراً معتقدين انهم يخدمون الله . يلقون امام مخازنهم كالتجار في اسواق الكساد ، كل ينادي على سلعته يجذب هذا ويتمسك باذيال ذاك ، داعياً اياه الى دكانه زاعماً ان عنده البضاعة الصحيحة ، وان بضائع سواه مزجاة ، ودرهمه زيف ... وقامت بين هؤلاء وهؤلاء عشيرة الماسونية تشجب الشيعتين وتدعو الناس الى الاخاء والحرية .

اما المواطنون فأفادوا من تناحر الفريقين - الكاثوليك والبروتستانت -
علماً وثقافة ، فاستنارت الافكار واستضاءت الازهار وهكذا جنينا من
عوسج التعصب تيناً ، ومن قطريه غنباً ... جنينا ثمار علم يانعة وجهتنا توجيهاً
لم يكن في حساب من دعونا الى مآديهم الجدلية وكثيراً ما يؤدي بك الجدل
الى حيث لا تريد .

نشأ أديب في زمن بلغ فيه سيل الركافة الزمار . كان يحاربها و صقر
لبنان ، في جوائبه ، داعياً الى البلاغة والنسج على نول السلف ، فما كاد
يسمع ، بعد صراعه الطويل في تعليم الجيل ، صوت أديب حتى أعجب به
وراق له نهجه فأثنى عليه وترجى خيراً بعد عناء وجهاد طويلين . وكانت
تلك الحقبة حقبة إنشاء المعاهد العلمية فمن كلية اميركية الى كلية يسوعية ،
الى مدارس بلدية ، كالحكمة والبطركية والمدرسة الوطنية للبستاني ، ثم قام
الى جانب هذه جمعيات أدبية تعالج المواضيع العامة ، وتهمس ما استطاعت
لتحريك الهمم محاربة الاستبداد ، ساعية وراء تحرير العقول . كانت هذه
الحقبة غنية بالعلماء كالشدياق مالىء الشرق والغرب ، والبستاني واليازجيين
والأسير والأحديب والدبس والشميل وصروف وزيدان . كل هذه العناصر كانت
تتفاعل في بيروت حين برز أديب للبيدات فكان من أمره ما كان . تعرض
الشدياق للكثلكة لنكبة أنزلوها بأخيه ، أما أديب فتعرض لكل سلطة
مستبدة سيان عنده الدينية منها والمدنية ، وانتمى الى الماسونية فازدادت
نار ثورته انتقاداً ووقوداً .

وقد اجتمع الشدياق واسحق على حب مصر والشرق ، فعاشا ينافحان
ويناضلان وظلا كذلك حتى مدة الدهر يده وانتزع من بين أصابعهم العلم ،
فمات الشدياق بعد ما شبع من السنين ، وقصف غصن حياة أديب ، ولكن
نضاله القصير العمر كان سميناً خطبه وجليلاً شأنه ، كما قال أبو تمام في قلم
ابن الزيات .

واليك إحدى كلمات أديب في مقال - دولة العرب - التي تحسب انها كتبت أمس . فبعد ان عدّد أجداد العرب العلمية والسياسية والأدبية ، قال : « يندهش من يلقيهم مقتصرين من العلم على ما لا يجلب خيراً ، ولا يدفع ضيراً يعتقدون مذاهبهم فيه بالأوهام ، أو باضغاث أحلام ، أو يذيطون أسبابها بالسما فيخطئون من حيث يريدون الاصابة ، ويصيبون من حيث لا يعلمون . وينذهل إذ يخدم راضين عن الكسلة المتراهين ، والجهلة المتعاذبين ، يقبلون منهم أكفأ لا تعرف الطهارة ، ويستحلبون منهم أبداناً أنقت منها الستارة ، حتى صار الكسل عندهم من المعاش ، والتمول من المفاخر ، والجهل من الملاجئ ، والذهول من الكرامات ، كأن لم يبق فيهم من عالم عامل يبدد الأوهام ، ويبدي الحقيقة للافهام »

الى ان قال : « كلا والله ثم كلا : انهم لا يعدمون عالماً ناصحاً ، ولا نزيهاً صادقاً ، ولا نبياً هماماً ، وانما أولئك نفر يمنهم الخوف من الاقدام ، ويردعهم اليأس من الاهتمام . »

ثم يصف الدواء فيقول : « ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل ، بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتعاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد : قد جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة تليها العاصفة ، فذرت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، وألمت بنا القارعة ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نغن بالأمس ولم نكون شيئاً مذكوراً . فلم ننشد الضالة ونطلب المنهوب ، لا نقوم بأمر ذلك فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن اخوان ، نجتمعنا جامعة ، فكلنا وان تعدد الافراد إنسان . »

« أيحسبون ان ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد سدى . أم لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصرأ في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وارهاباً ،

فتعود للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون .

أعلنت إلى ماذا كان يدعو أمته أديب إسحق ؟ إلى جامعة عربية ! هكذا يكون الرجل السابق لزمانه ، والثمر الطيب قبل أوانه . وليقم الشدياق واسحق والريحاني فيروا ما تحقق من أمانهم .

خلقه وخلقه — كان أديب طويل القامة والعنق مع انحناء قليل ، عظيم الأنف ، عريض الجبهة بارزها ، جهوري الصوت ، لطيف الحديث ، ذكياً نبياً ، حاد الذهن ، اشتهر بالخطابة والانشاء فكان إذا خطب أفصح وأعرب وإذا كتب سحر الأبواب بحسن البيان مع السلاسة والبلاغة ، وهو قدوة المنشئين وعمدة الكتاب .

أما الذي يتراءى لي من خلفاته الكتابية ومن أسلوبه فهو انه ثوري الشعور متقد الخاطر ، ثوري من الطراز الاول ، كأنه كان في رفقة الحجاج يوم دخل الكوفة وقد انتشر النهار . يرسل عباراته الخرقاء فتش ازير السهم وقد فارق الوتر ، جلُّ كأنها مقطوعة على نمط واحد ، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ، يشد بعضها بعضاً ، فتؤلف مقالته كتيبة جامحة . اذا أخذتها منفردة لا تحس لها أثراً عظيماً ، ولكنها تؤلف ذكلاً ، تخرج منه النفس وقد ملأها هذا الكلام اندفاعاً واستبسالا . وأما أظن إبعاده مرات عن مصر في خلال مدة قصيرة إلا ناتجاً عن هذا الكلام الحاد الذي يفعل في النفوس فعله العجيب ، لصدوره عن نفس منفعلة ، متأثرة بكل ما تقول ، مخلص لما تدعو اليه ، قنادي بمصر المصريين ، وكلها ايمان ويقين بما تدعو الناس اليه :

« ومصر — ولا حياء في الحب — بلد تركت فيه زهرة أيام الشباب ، وخلفت باكورة غرس الاداب ، وهزرت غصن الأماني رطيباً ، ولبست

ثوب الامال قشيباً ، فما عدلت بي عن حبها النكبة ، ولا انستني عهدها الغربة ،
ولست أول محب زاده البعد وجدا ، ولم ينكث على الصدا عهدا ، فحذار
اهل مصر ان العدو لكم بالمرصاد ، وانكم لمخوفون بالعيون والأرصاد .
يسير أديب الهويناء قاذفاً نظرات كالتفافات النسر ، ولكنه أبداً في
انتظار . يتطلع هنا وهناك على فريسة لقلبه ، حتى اذا لاحت له كان قيد
الاواید حقاً وانشب فيها مخالب قلعه . هجاء يذيب الشحم ويقرض اللحم .

اسمعه بأي لهجة ينافح عن بلاده كاتباً اجنبياً اسمه شارم غبريل :
« أقول ، وأنت أكذب القائلين ، أن السوريين أرباب كذب ونفاق ،
ودفاعة اخلاق ، لا مروءة لهم ولا حياء ، ولا همه فيهم ولا خلاق ؟ ! كذبت
ورب المروءة ، وما هي أول فرية منك ، فقد رميت من قبل نزالة اليونان
في مصر بهذا القول ، فجاءك النذر من الصديق جوسيو : « رد ما كذبت
او تكون من الخاسرين » فابيت فدعاك للنزال ، يحسب ان في عروقتك دم
الرجال ، فتسترت باذيال فواجر القدر ، فلم ان مثلك لا يعامل معاملة
الشرقاء ، فصغمت كما يصنع الانذال .

وتذكر بعض مخدراتنا بالسوء ابتهاراً ، وتورد في ذلك حكاية حال من
سفر بحر وصحبة فتي ، وتزلف والد ... فهلا ذكرت يا ابن الطاهرة ، مكارم
الكرائم حيث دببت ، وحيث شبيت ، وحيث تأدبت . فلا تخرجنا فتخرجنا
من الذود الى الاقدام ، ومن الجواب الى الخطاب . انا نعرف منكم ما لا
تذكرون ، ونعلم ما لا تجهلون .

ثم طبعت هذا القول الهراء يا سقيم الطبع ، فاين تركت ماء الحياء ، ومن
أين جلبت لوجهك جلد خنزير ؟

عفواً سادتي ، عما ترون بي من سورة الغضب ، ولكن هو الوطن ،
والعرض والقوم ، ومن ذا الذي لا يفضب لقومه أن ينالهم لسان مبتذل
ساقط لثيم ... قد عرفت هذا الرجل الذي جاءكم ضيفاً نزيلاً واكرمتموه
فجعل أعراضكم مناديل .

ويا مسيو غبريال شرم هذه أولى رسائلي اليك تنوب عن بد يقصرها بعد
المسافة عنك ، فطوب نفساً . انك التمسست الشهرة بين قومك بما افتريت على
السوريين والمصريين من قبلهم ، واني لاجعل لك بين قومي ذكراً ، يحدده
المستقبعون عصراً فعصراً .

انشاؤه : تعرض اديب لوصف اسلوبه الانشائي فقال عندما اصدر
جريدته في الإسكندرية :

« رأيت أن أصرف العناية والاجتهاد الى تهذيب العبارة ، وتقريب
الإشارة ، لتقرير المعنى في الافهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ،
وانتقاء اللفظ الرشيق ، للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً
وحشياً ، أو مبتذلاً سوقياً . »

ثم قال في تهديد لطلب مطول عنوانه « الشرق » : « قد التزمت لهذا
المطلب أسلوب التقرير ، وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعرية لاعتقادي
بان الأسلوب الخطابي وان كان أسرع تأثيراً في القلوب ، وأحسن وقعاً في
الاذهان ، الا أنه قد يميل بالكاتب الى جانب التخيل الوهمي في مكان التقرير
العلمي ، فيرتفع بيانه عن المدارك التي سبقت اليها الملكات الصناعية الحسية
فلم يبق بها من محل للملكة الخيال المسماة شعراً ، فيفوت الغرض المقصود من
البيان والبلاغة وهو تقرير المعاني في الافهام ، من أقرب وجوه الكلام ، ولهذا
سأرسل فيه الكلام ارسال مقرر مبين ، ولا أتكلفه تكلف منمق مزين .
فان أحكام التقرير منافية لهذا التمويه الذي يسمونه بديعاً . »

هذا ما حكاه أديب عما كان يتعمده في انشائه ، واذا عدنا الى مطالعة
سيرة حياته رأينا ان كل من ترجموا له ذكروا عبارة قالها استاذة لابيهِ : ان
ولذلك سيكون « قوَّالا » أي شاعراً ، لان السجع كان يرد في كلامه عفواً .
أجل ان السجع قوام فن أديب ، فهو يعتمد على تنميق التعبير وترجييعه
وتدبيجه ، يحويه بكلمات ترقص بما فيها من جناس وتضاد ، وينصب لغرضه

شباك الاستعارات والكنايات والتشابه . نثر كأنه الشعر ، يرصعه بابيات اما من الشعر القديم أو من نظمه هو ، فيأتي مقاله عجاجاً زاخراً حين يمتد ويشتد كقوله : « هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ، فتنبت الأرض غناء ، فلا تجدد على سطحها الا جسوما ضاوية ، في ديار خاوية ، وقلوباً تحترق ، في بلاد تحت رق ،

وهو يراعي الموسيقى في نثره أكثر من شعره ، فيتعمد ما كانت تتعمده مدرسة ابن العميد من أفعال مختلفة تتحرك لها الجملة فتتحرك قارئها تواء ، وان ذهب أثرها من عقله بعد حين .

والذي ألاحظه أن الحريري تلاقوا البديع ، ونحنا ناصيف اليازجي نحو الحريري ، أما أديب فأحيا بيان كتاب القرن الرابع . ففي مقالاته حدة البديع ، وتنسيق الصاحب ، وبلاغة الخوارزمي ، وهجوم الحجاج للاستيلاء على المبادرة . عاش أديب مبادراً ابداً ولذلك لم يذق طعم الراحة الا حين أقعده الداء ...

كل مقالات الاديب 'خطب تستثير الهمم ومنبرها صحيفته التي تقيم وتقعده على حد ما قال . وقد كانت تقع في نفوس أولياء الامر المصريين في ذلك الزمن العصيب أحسن وقع فاجلثوا قدر الاديب ، وحفظوا له تلك اليد حق سلمه الخديوي بيده براءة الرتبة الثالثة ، كما مرة .

كان الاديب خفياً للسائلة المصرية ، واقفاً على سلاحه أبداً ، حتى يهيب بالشرق أجمع : « اذا هبت عواصف الفتنة فذرت رماد المداجاة عن جمر ضفائن الدول ، وصار الشرق ، من أطراف الروم الى البحر الاحمر ، محشراً للعساكر يتنازلون فيه ، ويتجاولون على أرض يملكونها ، وغنيمة يصيدونها ، وسطوة يريدونها ، وقوم يستعبدون ...

واذا انقضت صقالبة الشمال على بقايا الاناضول ، واندفعت ألمان الوسط على فضالات البلقان ، ووقعت حيتان بريطانيا على سواحل مصر ، وجزائر

بحر الروم ، وقرامت نسور الفرنسيس على فينيقية وبلاد السوريين ، وقداعى
أبناء الرومان على تونس الغرب وما يليها ، ورجعت عساكر الاسبانيين الى
الغرب الاقصى ، فإذا يحل بالشرقيين وكيف يتقون البلاء وهم على ما نرى من
شغف القلوب ، وقوة الخلاف ، وتفرق الكلمة ... فهم في غفلة الساذج ،
وخدر السكران ، وكسل المهوم ، لا ينتفعون بما يعلمون ، ولا يسألون
عما يحلون .

وإذا جادت الحكمة بماء السلم فأهدت ذلك الجمر ، وعاد الشرق من
جهاته الأربع مجتمعاً للتجار والصناع من جالية الغرب يتجرون فيه ... وإذا
انتشرت جالية الألمان في شبه جزيرة البلقان ، تحيي الموات ، وتفتح
الصناعات ، وانبثت تجار الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين وسائر الأمم
الغربية يجمعون الثروة بما يتجرون وما يستخرجون من كنوز الأرض ...
فأي مكان يكون للشرقيين في عالم الوجود وهم على ما نشهد ؟ .

لقد نما الأدب نحو الشدياق في تنبيه الشرق والانتصار له ، والشدياق
هو أول من دبج مثل هذه الفصول ببلاغة . ولكن لكل منهما روح ،
فالشدياق بُعد عن تقليد القديم ، أما اسحق فأعاد لثر القرن الرابع عصره
اللامع ، كما ترى ، من تماسك عبارة ، وموسيقى رাকضة كأنها النهر في مجراه ،
يمده خياله الرائع وتعبيره البارع . ويحيي كلامه بما يتقد في أحشائه من حية .
ليس للشدياق حية اسحق ، كما أن ليس لاسحق تهكم الشدياق ؛ فكلاهما عالج
قضية مصر والشرق كما أوحى إليه طباعه .

ومن مرّك بعباراته أظنك قد أدركت أسلوبه كل الإدراك ، وإذا اطلعت
على اثره - الدرر - تبين لك أن حذق الرجل لغة الغرب لم يحوّل انشاءه
عن أسلوب العرب . ولأديب رسائل مجموعة في الدرر وهي مطبوعة على
غرار رسائل أبي بكر ومعاصريه ، فهؤلاء كانوا أساتذته في الفن وحسبه أنه
ضارهم . ليس في رسائله شأن يعنينا كثيراً إلا رسالة كتبها عام ١٨٨٢ إلى
جبرائيل نخلع على اثر استظهار الإنكليز على مصر ، ومما جاء فيها :

« نحن في زمان لا يشبه الأزمنة ، وحال لا تماثل الأحوال ، فيومنا
مشبه الخبز ، وغدا مجهول الأثر ، ورئيسنا ليس بأعلم من الرؤوس بما تؤدي
إليه الحوادث . ولذلك تلجلجت الألسنة وترجرجت الأقلام ، وتهدجت
الأصوات ، فصار الاعتزال كرامة ، والخمول سلامة ... فالخمول هو الراحة
لأمثالي في مثل هذه الأيام ، ولا سيما إذ لم أر معارضة ولم أجد نفوراً ،
ولكني ما رأيت مساعدة ولا اغراء بالظهور ، فانا على حالة الرضا بالرزق
الحاصل ، والذكر الحامل ، حق تستقر الحال ، وينجلي ليل الاشكال . ،
واديب كان اعدى عدو للأجنبي ، وما انفك يندد ويصيح حتى قضى .

اديب الشاعر - قلنا ان اديب اسحق كاتب سياسي مناضل ومن دعاة
حرية الفكر وأحد رسلها المبكرين في الشرق العربي ، وهو ممن يؤمنون
بالمقل ، وقد ظهرت مواهبه الخطابية في جمعيات بيروت مثل « زهرة
الآداب » و « شمس البر » و « زهرة الاحسان » وانه كان في عصره من
أشهر الخطباء حتى ذكره الزعيم الخالد سعد زغلول في مقدمة الذين تأثر بهم
خطابياً. أما اديب الشاعر فهو في نثره اشعر منه في شعره ، وان كان فياض
القريحة ، يرسل القريض عفو الطبع . الرجل خطيب اولاً ولهذا أبدع في
نثره ، أما شعره فسوف نريك منه نماذج وتتولى الحكم عليه معاً .

قال اديب الشعر في أغراضه المعهودة : غزل وتشبيب ، ومدح وثناء ،
ووصف وقائع حال في ميدان السياسة والهوى ، وقد كان للتراسل بين
الادباء شأن ، كما عرفت ، فخاض اديب هذه الغمرات أيضاً

وجارى اديب عصره في نظم الألغاز وحلها ، ولم يحرم التاريخ الشعري
من جهود قريحته ، فقال يؤرخ موت شاب من بني الحوري مات بداء الهواء
الأصفر « الكوليرا » :

قتلونا فيه بالتاريخ ان قصف الغصن هواء اصفر

١٨٧٥

وكان يبدأ بعض مقالاته بأبيات من الشعر ، وعلى اثره مشى ولي الدين يكن وغيره ، وكان يخمس ويشطر على نسق أهل عصره . حقا ان في الأدب أزياء تبطل ثم تعود ، وهي كالأنواع فقلما تنقرض انقراضا كليا .

وقد نظم في السجن كأبي نواس ولكن شتان بين السجينين . هذا سجين هوى أمة عظيمة كمصر ، وذاك سجين جام و غلام . وبما قاله في سجنه من قصيدة بعث بها الى محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصري :

أمولاي هذا نظم حرّ وتلوه كلام سجين أوثقته المآثر
أتوه بنكر وهو للعرف مرتج وجازوه بالخذلان وهو مناصر
أبعد ذو فضل ، ويُدنى منافق ، ويسجن وافٍ ، حين يطلق غادر
ويكرم جاسوس عن الصدق حائد ويظلم همّام على الحق سائر
بذا قضت الأيام ما بين أهلها معاييب قوم عند قوم مفاخر
ثم نظم قصيدة تاريخية وصف بها حوادث مصر سنة ١٨٨٢ ، وقد نشرت في الجزء الخامس من تاريخ مصر للمصريين ، وهي من الطراز الذي سبق .
وللأديب أبيات شعر عائرة منها ما لا يعرف انه له كقوله :

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر
والحق للقوة لا يعطاه إلا من ظفر

ومنها ما يعرف أنه له وهي أبيات يدور أكثرها على السن الأدباء :

انما المرأة مرآة : بها كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان اذا أقسدتها وإذا أصلحتها فهي ملك

لقد وعدتك ان سنشترك في الحكم بعد عرض النازج ، أما أنا فقد قلت
كلتي فلك أنت أن تقول ما تشاء .

أثره في اللرية - ان لأديب إسحق أمراً بيناً في أسلوب انشائنا الأدبي ،
فهو وان لم يبدع اسلوباً سهلاً جديداً كالشدياق فقد أعاد للنثر رواءه وفخامته

اقتفى أثر الشدياق واضع أسس أدب المقالة في جملة الأدبية والسياسية، وتوغل في الترصيع والتدبيج حتى سمى هو ما يكتبه بالأسلوب الشعري لعمق التخيل فيه والتعمق . وقد أثر هذا الأسلوب في الأجيال المتعاقبة فاقتفى أثر اسحق زمناً ، فبدت ملامح أسلوبه في جميع من كتبوا « المقالة » بعده ، وإذا أطلقت النظر في أسلوب جبران في أول عهده ، ترى فيه هذا العنصر ، إنما بشكل آخر .

وإذا أخذت مثلاً نجيب حداد رأيت نسخة طبق الأصل عن اسحق ، وإن كان دونه سجعاً وتخيلاً ، وشدة أمر . وكذلك إبراهيم اليازجي في صدر مقالاتيه : الزهرة والقمر . إن هذا الأسلوب الانشائي لا تزال آثاره بيّنة ظاهرة في انشاء الكثيرين من الكتاب .

مجتبى عبده

ولست أبالي أن يقالَ محمدٌ أبلٌ أم اكتظتْ عليه المآثمُ
ولكنّ ديناً قد أردتْ صلاحه احاذر أن تقضي عليه المآثم

هذا ما روي عن الامام أنه قاله عند الاحتضار . ولد محمد عبده في
الريف من أبوين فقيرين ولما كلف طلب العلم أدخل الكتاب ، ولكنه خرج
منه خروج الشعرة من العجين . ثم عاد بعد حين فقرأ القرآن في أحد
الجمامع ، وتحوّل الى الأزهر على كره منه فحصل العلوم الشرعية والعربية .
واتصل بالافغاني وأخذ عنه علم الفلسفة والكلام فكان أنبغ من تلمذوا له .
وقد قال الافغاني ساعة ودّع مصر : « قد تركت لكم محمد عبده » .

عين مدرساً للتاريخ والأدب بدار العلوم ، ثم شكروا له خدماته فلزم
بينه في بلده ... وعين بعد عام كاتباً في جريدة الوقائع المصرية ، فنقد فيها
الحكومة ووزارة المعارف ... وكانت ثورة عرابي فاتهم أنه أفتى بعزل
الحديوي توفيق باشا ونفي إلى بر الشام ، فأقام سنة ببيروت كان فيها
مدرساً . ثم ذهب إلى باريس ليلتقي باستاذة الافغاني فاصدرا معاً « العروة
الوثقى » فكان السيد الأفغاني مديراً لها ، والامام محرراً

ولم تكن العروة وثقى فانقصمت بعد عدة أشهر ، وعاد عبده إلى بيروت فدرس بالمدرسة السلطانية ، وأصلح منهاجها . وفي بيروت ألف رسالة التوحيد وشرح مقامات البديع ، ونهج البلاغة ، وعرب رسالة الافغاني في الرد على الدهريين ، وعفا عنه الحديوي فعاد إلى مصر وتقلب في مناصب عديدة أهمها عضوية مجلس إدارة الأزهر ، فجاهد لاصلاحه . وظل يكتب مناضلاً حق مات تاركاً تفسيراً لستة أجزاء من القرآن أطلق لنفسه حرية فيه ، ولم يتقيد بأحد . ورد على هانوتو ورتان ، وألف كتاب الاسلام والنصرانية . وصفه لنا معلمنا الشيخ سعيد الشرتوني الذي اتصل به وصادقه في بيروت . كان ذلك يوم جاء خبره فيكي استاذنا في الصف ، وبعد ان فكفكف عبراته قال :

« كان الإمام أسمر مربوعاً ، له عينان يشع منها نور ، وهيبته كالأسد . حلیم كريم ، محب لبلاده وللناس . كاتب متين ، وشاعر رصين ، وخطيب . غايته انتقاد الشرق من الجهل ، بتعليمه الدين الصحيح . وما نحن ننقل لك شيئاً من مقال له عن « الانتقاد » لنعرفك على أسلوبه المرسل لا المسجع .^(١) »

« الانتقاد » لغة ، النظر في الدرام وغيرها لمعرفة صحتها من فاسدها وصحتها من زائفها . ومنه انتقاد الكلام لتمييز فاسده من صحيحه وغشه من سمينه . على ان الانتقاد طريق من أوسع طرق الارتقاء ، وان أربابه قادة الناس إلى المراتب العليا من مراتب الكمال والجمال ، فلا عجب أن يعرف العقلاء قدرهم ويحيوا ذكركم ويصدعوا بأمرهم . وحيث كان الانتقاد ميتاً كان الفن ساكناً لا حراك له نحو التقدم ، ولا حياة لأهله . »

وبعد ما جعل الامام الانتقاد أصح دليل على رقي الناس قال : « ان النقد ازدهى عند العرب في عصر نهضتهم ثم توارى حين تأخروا . وكذلك الفرنجة

(١) نشر في المقتطف عام ١٨٨٨ .

فانه لم يكن عندهم انتقاد يوم كانوا في تأخر ، ولما تقدموا أنشأوا للنقد الجرائد والمجلات ... حتى انك لا تكاد تجد مؤلفاً يؤلف عند الافرنج إلا استهدف لسهام الانتقاد والمنتقدين من كل صوب وناحية . بل قد صارت عادتهم ان لا يعرض مؤلف للبيع حتى يعرض على الجرائد لانتقاده فيسمع الناس به ويعرفوا قيمته . والمؤلفون منهم ارغب الناس في توطيد دعائم الانتقاد وتقوية ساعد المنتقدين ، لعلمهم ان جلب الفائدة منه عائد عليهم ، فلذلك تراه يرضخون لحكم المنتقد أخطأ في اعتقادهم او أصاب ، ويعتبرون نقدهم فضلاً عليهم وجيلاً معهم . وإذا اقتضت الضرورة أن يردوا عليه صدروا الرد بالاعتذار عن ذلك ... كل ذلك حرصاً على الانتقاد أن تحبوا ناره .

وأبلغ الكتاب قلماً ، وأقومهم رأياً ، وأجزلهم لفظاً ، وأرقهم نثراً ونظماً ، هم أشد الناس عرضة للانتقاد . وقد يميل المنتقدون عليهم كل الميل ، ويتعاملون عليهم شديد التعامل ، فينتقي الكتاب من انتقاد النقاد ما أصابوا فيه ، ويفضون عما أخطأوا ، وكثيراً ما ينقلون انتقادهم عليهم إلى كتبهم ، اما إقراراً بصحته ، أو إظهاراً لخطئه ، أو لغير ذلك من الأغراض . والانتقاد بين علماء الافرنج دليل على رعاية مقام المنتقد عليه والاحتراف بشأنه . والتدقيق في الانتقاد دليل الاهتمام بما ينتقد . والواسعون في الفهم يعتبرون تشديد المنتقد عليهم مزية لهم ، ويفضلون اظهاره لمعائبهم على مجرد مدحه لهم واطرائه . وإذا رأوا من المنتقد تساهلاً وتساهلاً ساءم ذلك ، وحملوه على الاستصغار لقيمة تأليفهم ، وقوة عقلهم ... ،

ثم قال في الناقد :

« يلزم أن يكون الناقد بصيراً خبيراً يتحرى الصدق في القول ، والاخلاص في النية ، منصفاً ، عادلاً ، باحثاً ، منقّباً ، قاصر النظر على ما قبل ، منفضياً عن قال . ولا حقّ للمنتقد عليه أن يحقد على الناقد إذا أبان معائب تأليفه ،

ولم يسترضه بمدح ذاته وصفاته ، أو إذا لم يفض عن نقيصة أئامها سهواً
أو عمداً .

هذا وصف وجيز لحال النقد والناقدين عند الأوربيين . وأما نحن المشاركة
فقد خبت عندما نار النقد ، منذ غابت عنا شمس معارف العرب وعلومهم .
وختم الامام مقاله هذا متعنياً ألا يكون الانتقاد مخاصمة ومشائمة ، ومهاترة
ومشاجرة ، وتقنى على أصحاب الجرائد اشهار الانتقاد في البلاد .

هذا ما رأينا نقله لك لتعرف أن هذا الرائد المصلح يحول في كل بحث
ومطلب ، ويناضل على كل جبهة . ثم لنعرفك على هذا الأسلوب الرصين الذي
لا غبار صنعة عليه .

شَبلي الشَّيْل

هو احدى حلقات تلك السلسلة الذهبية . ادرك الشدياق ، وناصيف اليازجي ، واسحق ، ومشى مع صروف وزيدان ، رفيقي المدرسة ، فتوغل زيدان في دياميس التاريخ على ضوء هلاله ، وانصرف صروف إلى بساقين العلوم الحديثة يقتطف منها زهوراً فواحة وثمّاراً يانعة ، أما الشَّيْل فجعل وكده العلم والفلسفة . جرت دراسته الطبية الى بحث « الأنواع » فسد ثغرة وملاً فراغاً. تحدث عن العلم والفلسفة بأسلوب ادبي رفيع فكان نسيج وحده . قال صروف : « جاء الشَّيْل المدرسة الكلية الانجيلية - الجامعة الامريكية اليوم - سنة ١٨٦٧ وله من العمر حوالي سبعة عشر عاماً فتجاورنا على مقعد المدرسة سنتين . شاب قصير القامة ، اسمر اللون ، مرتد الثياب الفرنجية يوم كانت نادرة الاستعمال . هو من كفرشيا ضيعة استاذنا ناصيف اليازجي ، وانا من ضيعة الشدياق ، وكلانا يود ان يحتذي بابن بلده ، فكنا تتنافس في اقتفاء اثرهما .

والشَّيْل ابن بيت علم ، اخواه ملحم وامين معلمان ، ولهما تأليف في الفلسفة ، وابوهم من ادباء عصره . وفي سنة ١٨٧١ ترك شَبلي المدرسة اذ صار

طبيباً جسمانياً ، ثم عالماً صريحاً ، وفيلسوفاً جريئاً لا يحابي احداً . كان حاد الذهن ، سريع التصور ، نابغة في التعليل ، ألمعياً في اكتشاف الحقائق . وكان أشهر الاطباء في التشخيص الطبي فكأنما يوحى اليه . وبلغت منه الفراسة أنه علل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتي قبل شيوع هذا العلم في أوروبا .

وهو ، فوق ذلك ، ذو ذاكرة ماضية ، وقوة استحضار فائقة . انيس المحضر ، حسن المحاضرة ، فكاه الحديث ، طلق الحيا ، بشوش ، تخلص ، منصف ، ذو شجاعة أدبية تفوق الحد ، متفطرس على الظالمين ، متواضع للضعفاء البائسين ، كريم لم يستفد من علمه ، ولو حرص على ماله حرصه على مقالاته لكان من الاغنياء ولعاش ميسوراً موفوراً . كان واسع الرواية ، قوي الحججة متحمساً لمعتقده .

وهذا النابغة العظيم هو زعيم فكرة التطور والنشوء والارتقاء في عالم الضاد . حاز شهادة الطب يوم كانت معركة النشوء والارتقاء حامية الوطيس في الغرب ، فنقل رحاها الى الشرق . قرأ عنها في المدرسة سنة ١٨٧١ فهزي بها ، ولكنها شغلت باله ، فظلت تعمل في عقله الباطن ، حتى خطب عند نيله الشهادة في موضوع : « اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقليم والغذاء والتربية » . وكل ذلك عن غير قصد منه . ورحل بعد نيل الشهادة الى اوربا والاستانة فاطلع على المذهب في كتب أصحابه ، وكأنه يعطل تحوله الى هذا الموضوع فيقول : « ان تربيتي المدرسية لم تسمني بطايعها ، فان اعتلال صحي في حدائتي لم يسمح لي بان اكون من متخرجي المدارس ، ما خلا الطب » .

أثار الشميل قضية فلسفة النشوء والارتقاء فقامت حولها القيامة ، وان كنا نقرأها اليوم كما نقرأ فرضاً حسابياً . ولست ابعد بك كثيراً ، انها القاريء العزيز ، فقد جئت والدي ، بعد عودتي من المدرسة ، بنخب أحدث بيني وبينه ما أحدثت فلسفة النشوء والارتقاء بين الشميل ومناظريه . جرتي غرور الصبا والعلم فقلت لمن جاؤوا للسلام علي وامتحان عبقرتي : الارض

قدور . فزأرنى والذي ، ولكني لم اعبأ بعارض جفنيه ومضيت في حديثي .
فاذا به يعرض على شفته السفلى عضة ترعب ، فلم اسكت . اما الناس فكانوا
يسمعون براهيني على دوران الارض ، وهم يضعكون علي ، وانا احسبهم
يضعكون لي . ولكن المرحوم والذي نزل اخيراً الى الميدان ، فخطأني وخطأ
جميع الكتب وسب ديك العلماء ، وحجته الدامغة هو ان بابنا الشمالي يظل
على الشمال ، والشمس تغيب وراء جبل معاد ، وتظل تغيب هناك ... وكان
مسك الحتام : سد بوزك . فسددناه موقتاً ...

لسنا ندرس الشميل الدرويني ، فعلى من يهمه الامر ان يرجع الى كتبه التي
طبعت سنة ١٨٨٤ ثم اعيد طبعها في سنة ١٩٠٩ على حساب الاجاويد
والانصار واولهم الأب بولس الكفوري والدكتور أيوب ثابت وغيرهما من
أحرار رجال الفكر والقلم ، ثم أصحاب الاكياس الوارمة . أما الذي يعنيني
هنا فالشميل الاديب النابغة الحر الفكر الذي لا يؤمن بغير العلم ، والعلم
العملي وحده ، وقد قال في ذلك :

« ان اليوم الذي ينصرف فيه الانسان عن تنميق الكلام الى اتقان العمل
هو اليوم الذي تتقوم فيه طباعه ، فتقل سخافته ، ويكثر جده ، ويقل
رياءؤه ، وينشط من الذل ، ويرتقي ارتقاء حقيقياً ، ويحق له حينئذ ان يعد
نفسه انساناً » .

واذا بحثنا الشميل الاديب فكأننا تناولنا الشميل كله بقضه وقضيضه ،
فهو لم يفارق عمود فكرته في كل ما كتب ، فكأنه استعان ببيانه لايضاح
ما في وجدانه . أسلوب انشائي ثارة ينحو فيه نحو الشدياق ، معلم الجليل في
بساطة العبارة وخفة الروح ، وحيناً ينهج نهج أديب اسحق الخطايي
فينقبض على الموضوع انقباضاً .

فالشميل كاتب جدلي ، مطبوع على الأسلوب الخطايي ، يتم أسلوبه على
لبنانيته . تقرأ مجموعته من أولها إلى آخرها ، فلا تحس أدنى أثر للهجة
المصرية ، بل بالعكس فانك ترى لونا صارخاً من الأسلوب اللبناني واليك مثلاً

هذا التعبير : « كم أنت متمسك بما نشأت عليه ؟ فانا كنت مثلك وأكثر » .
ومثل هذه العبارة كثير في مقالاته .

والشميل عاش وله في كل عرس قرص . يكتب باللغة الفرنسية كما يكتب بالعربية ، لم يدع مسألة سياسية أو اجتماعية إلا ومد إليها مبضعه . عالج جميع قضايا عصره الاجتماعية ، ورمى جميع الأهداف بأسلوب علمي منطقي . ندّد بتنميق الكلام ثم تأنق وسجع ، فبحث الحقائق العلمية متذرعاً بالخيال وسحر البيان .

أما فلسفة الشميل فغمرية ، نحنا نحو أبي العلاء في تفكيره ، وحسبك منه « رسالة المعاطس » ، برهاناً . والشميل وجودي بكل ما في هذه الكلمة من معنى وقوة . قال الشعر ولكن شعره دون نثره . قاله لاثبات نظريته محاولاً تقديمها لك على طبق أنيق من الخيال ، محاولة في إكسير أترك لك نعته :

هو الحب إكسير الوجود بلا مرا ولولاه ما كان الوجود كما ترى
فكل الذي تلقاء في الكون مره وهادي في أفعاله كيفما نحنا
هو الحي مولوداً ، هو الميت فانياً هو النجم قد أسرى ، هو الصبح والدجى
هو الكل في كل ، معيداً ومبدئاً وما نحن إلا فيه من صور الفنا
وليس فناء ما نراه ، وإنما هو العود للأولى ، هو البعث للآلى
قضا فحيننا ، وانقضينا بعودنا اليهم ، وغير « الكل » ليس له بقا
أظنك توافقني ، بعدما قرأت ، على تسميتي هذا الضرب من الأدب
بالصوفية العلمية ، وعلى عدتي الشميل وجودياً ، وإن كان الأدب يغلب على ألوانه جميعاً .

عبد الرحمن الكواكبي

الرجل سبط أسرة حلبية عريقة ذات شهرة وصيت ، ويعود نسبه الى السيد ابراهيم الصفوي أحد امراء اردبيل العظام ، وهو سليل بيت علم . درس العلوم الشرعية في المدرسة التي أنشأها جدوده واليهم نسبت . ثم وقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة ، واتقن العربية والفارسية والتركية . انشأ جريدة الشهاب ، ونزع فيها الى الاصلاح ، وحرية القول والفكر فحبس ، ففر الى مصر ، وطاف أقطار العالم فزار اقاليم عديدة ثم عاد الى المحروسة .

قال زيدان : « كان الكواكبي واسع الصدر ، معتدلاً في كل شيء ، عطوفاً على الضعفاء حتى سماه الحلبيون « ابا الضعفاء » .

وجاء في الرائد المصري : « أنه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث الى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين . ومع قسوة بالاسلامية والمطالبية بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها ، كان بعيداً عن التعصب يستأنس

بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء ، لانه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة ، .

أشتهر هذا الكاتب الخطير بكتابين : أم القرى ، وطبائع الاستبداد . فأم القرى كتاب تخيل الكواكي فيه أن مؤتمراً عقد بمكة المكرمة في موسم الحج عام ١٣١٦ فاختار لهذا المؤتمر اثني عشر عضواً ، منتدبين عن جمعية اعضاؤها من كل قارة وقطر .

أما شعار الاخوان في هذه الجمعية فهو : لا نعبد الا الله . وأما مبايعتهم فعلى عهد الله بالجهاد والامانة .

كان أساس البحث في مؤتمر « أم القرى » ، وهو موضوع الكتاب ، على هذا السؤال : ما هو سبب تعمم الفتور وملازمته لجامعة هذا الدين - الاسلامي - كلازمة العلة للعلة المطول ، بحيث أننا وجدت الاسلامية وجد هذا الداء حتى توهم كثير من الحكماء ان الاسلام والنظام لا يجتمعان .

ونوقش هذا الموضوع نقاشاً صريحاً واضحاً . ولما جاء دور السيد الفراقي - أي الكواكي - بحث أسباب الفتور دينية ومدنية ، فتكلم عن ٨٦ سبباً منها الديني والمدني والسياسي والاخلاقي الخ ، اما عصارة الرأي فكانت كما قال المتنبي :

ولما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

ثم أشار الى نظرة الاتراك للعرب ، وأيد زعمه بعبارات من لسانهم ، وبعد ان عدّد كثيراً من اقوالهم فينا ، قال : ان العرب لا يقابلونهم الا بهذا المثل : ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والترک والجراد .

أما كتابه الثاني ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد فلسب الى الرحالة ذلك ، أي الكواكي ، وخير ما يوصف به هذا الكتاب هو تلك العبارة التي

جاءت بعد العنوان : « كلمات حق وصيحة في واد » ان ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد » . ثم يقول في المقدمة :

« وبعد فأقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان » الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عن قال : انني في سنة ١٣١٨ وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عم النبي العباس الثاني ، الناشر لواء الحرية على أكناف ملكه ، فنشرت في بعض الصحف الغراء ابحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » .

ثم ينتقل الى مقدمة هذه الفصول التي جمعها في كتاب فيتحدث عن كتاب السياسة في الشرق والغرب حتى إذا تناول العرب بالكلام قال : « وأما العرب منهم قليلون ومقلتون » والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم : رفاعة بك وخير الدين باشا التونسي ، وأحمد فارس المبعوث المدني . ولكن يظهر لنا الآن ان المهررين السياسيين من العرب قد كثروا بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة » .

لم يتبع الكواكي خطة معاصريه في السجع ، ولم يتنطع في اللغة ولم يتعذلق . فهو مناضل ضد كل استبداد حتى استبداد المقلدين ، وقد حدد الاستبداد بقوله : « الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما ينبغي الاستشارة فيه . ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة لأنها هي أقوى العوامل التي جعلت الانسان أشقى ذوي الحياة . واما تحكم بعض رؤساء بعض الأديان وبعض العائلات ، وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد ، مجازاً ، او مع الاضافة .

« اما في اصطلاح السياسيين فهو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة . وقد تطرق مزایدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة « استبداد » كلمات استعباد ، واعتساف ، وتسلط ، وتحكم . في مقابلتها كلمات : شرع مصون ، وحقوق محترمة ، وحسن مشترك ، وحياة طيبة .

ويستعملون في مقام صفة « مستبد » كلمات : حاكم بأمره « وحاكم مطلق ،
وظالم ، وجبار . وفي مقابلة حكومة مستبدة كلمات : عادلة ، ومسؤولة ،
ومقيدة ، ودستورية ...

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المترادفات والمقابلات ، وأما تعريفه
بالوصف ، فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في
في شؤون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب محققين .

الى ان يقول وهو يريد السلطان عبد الحميد ، وإن قال في التمهيد انه
« غير قاصد بها - اي مقالاته - ظالماً بعينه ، ولا حكومة مخصصة » :

« المستبد يتحكم في شؤون الناس بآرادته لا بإرادتهم ، ويحاكمهم بهواه لا
بشريعهم ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدي ، فيضع كعب رجله على أفواه
الملايين من الناس ليسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته » . ثم يقول :

« المستبد انسان والانسان أكثر ما يألف الغم والكلاب . فالمستبد يود
أن تكون رعيته كالغنم ذراً وطاعة ، وكالكلاب تذلاً وتلقاً . وعلى الرعية
ان تكون كالخيل ان تُخدمت خدمت ، وان ضربت شربت ، بل عليها أن
تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد ، أم هي جساءت به ليخدمها
فاستخدمها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستमित دون بقائه
في يدها لتأمن من بطشه . فان شمع هزت به الزمام ، وان صال ربطته .
وفي هذا المقدار كفاية لمعرفة ما هو الاستبداد بالاجمال والمباحث الآتية
كافة بالتفصيل . »

ثم يتكلم عن مرتع الاستبداد فيقول أجمل قول : « العوام هم قوت المستبد
وقوته بهم . عليهم يصول ، وبهم على غيرهم يطول ، يأمرهم فيتهللون
لشوكته ، وينصب أموالهم فيعمدونه على ابقاء الحياة . ويهينهم فيثنون على
رفعته ، ويفري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته . وإذا أسرف بأموالهم
يقولون عنه انه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً . ويسوقهم إلى

خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب ، وان نقم عليه منهم بعض الاباة قاتلوه
كانهم بغاة .

والحاصل ان العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن
الجهل . فاذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع ، أي انقلب المستبد
رغم طبعه الى وكيل أمين يهاب الحساب ، ورئيس يخشى عادل الحساب ،
وأب حليم يتلذذ بالتعاب .

ثم قال :

« وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع
فجعل الرعية خادمة للرعاة كأنها خلقت لأجلهم فقبلوا وقنعوا ، كما أن
الاستبداد استخدم قوتهم المجتمعة وهي هي قوة الحكومة على مصالحهم لا
لمصالحهم فارتضوا ورضخوا .

ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور أطلقت
الامم الحرية حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط .
ورأت ان تحمل مضرّة الفوضى في ذلك خير من التحديد لأنه لا ضامن للحكام
أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد ، يخنقون بها عدوتهم الطبيعة
أي الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة « لا يضار كاتب
ولا شهيد » .

وفي فصل عنوانه « الاستبداد والترقي » تخطى الى القول : « وقد يبلغ
فعل الاستبداد بالامة ان يحوّل ميلها الطبيعي من طلب الترقى إلى طلب
التسفل بحيث لو دُفعت إلى الرفعة لأبت وتألّت ، كما يتألم الأجير من النور ،
وإذا ألزمت بالحرية تشقى ، وربما تفنى كالبهائم الأهلية اذا اطلق سراحها...
وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة لا يتفك
عنها حتى تموت ويموت هو بموتها . »

هذه الفكرة قالها أديب اسحق قبل السيد الكواكي ، ولكن هذا لا يضيره .

ثم توغل السيد في هذا البحث فتصور نفسه يخاطب قومه ليحرك قلوبهم ، فنحنا في الكلام نحواً جيلاً يكاد يكون ابتكاراً في أسلوب المقالة فابتدأ هكذا :
« يا قوم ، ينازعني ، والله ، الشعور هل موقفي هذا في جمع حيٍّ أحييه ، أم أنا اخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة .

يا قوم ، لستم أحياء عاملين ولا أمواتاً مستريحين ، بل أنتم بينَ بينَ في برزخ يسمى التنبّت ويصح تشبيهه بالنوم .

يا قوم ، هداكم الله ، ما هذا الشقاء المديد والناس في نعم مقيم ، وعز كريم ، أفلا تنظرون الخ .

يا قوم ، وقاكم الله من الشر ، انتم بعيدون عن مفاخر الابداع ، وشرف القدوة ، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق ، الخ .

نعم يا قوم ، عافاكم الله ، ويا قوم ، اعيدكم بالله ، ويا قوم ، شفاكم الله ، ويا قوم ، رحمكم الله ، ويا قوم ، حماكم الله ، ويا قوم ، هون الله مصابكم ، ويا قوم ، سامحكم الله ، وظل يقول يا قوم يا قوم حتى فرغ جرابه ، وهيات ان يفرغ .

ثم انتقل من يا قوم إلى الشرق ؛ فخاطبه خطاباً يبتدىء كل منه بـ :
« رعاك الله يا شرق . »

ويختتم كتابه بالقول : إن الله ، جلّت حكمته ، قد جعل الأمم مسؤولة عن أعمال من حكّمته عليها وهذا حق . فإذا لم تحسن أمة سياسة نفسها أدّلتها الله لأمة أخرى تحكمها ، كما تفعل الشرائع بإقامة القيم على القاصر أو

السفيه . وهذه حكمة . ومتى بلغت أمة رشدتها استرجعت عزّها ، وهذا مثال . وهكذا لا يظلم الله الناس بل الناس هم أنفسهم يظلمون ^(١) .

هذا هو الكواكي أحد الروّاد المناضلين في العهد الحميدي ، ولعله أمرهم لساناً ، وأعنفهم هجوماً ، وربما كان موقداً نار اليقظة القومية العربية . فبينما كان حزب تركيا الفتاة يدعو إلى تجديد دم الحكم التركي كان الكواكي يهتف : فلنلقِ عنا نيرهم ... ثم كان الذي كان .

(١) أم القرى ، ص : ١٥١ .

مُصطفى كامل

تعلّم أولاً في المدارس المصرية فعاز جائزة التفوق في الامتحان أمام
الحديوي توفيق باشا ، ولحق بمدرسة الحقوق المصرية ثم فصل منها وسافر
إلى فرنسا حيث أتم دروسه وقال الليسانس من كلية طولوز وهو لم يبلغ
العشرين بعد .

وخرج إلى العالم مسلحاً بعلومه ليفوض في بحر السياسة ولا يكون له هم
إلا المطالبة بالجلاء . فيؤلف لتأييد مطلبه كتاب المسألة الشرقية ، وحياة
الأمم ، والرق عند الرومان ، ورواية فتح الاندلس التمثيلية ، والشمس
المشرقة . فحبيب الشعب بالحرية والاستقلال ، فالتف حوله الشباب وصار ذلك
الزعيم بلا منازع .

كان شعاره السيامي « مصر للعصريين » فخاطب الدول كتابياً ، وكتب
فصولاً كثيرة في الموضوع ، وأصدر أخيراً جريدته اللواء بالعربية أولاً ، ثم
بالفرنسية والانكليزية ليبلغ صوته دول الأرض .

ورأى الحاجة ماسة الى تأليف حزب منظم فالتف الحزب الوطني الذي انتخب رئيساً له طول الحياة .

واذا لم يتسع المجال للتحدث عن تطوافه في الشرق والغرب فلنتحدث ولو قليلاً عن صفاته ، فقد كان هذا الزعيم المناضل عصبي المزاج ، شديد التطرف في آرائه ، مخلصاً لها ، ثابتاً عليها . يرجع اليه فضل ايكاظ الشعب المصري ، وتمهيد السبيل للزعيم زغلول ومن جاؤوا بعده من الأحياء الذين هم خارج نطاق بحثنا .

كان هذا العظيم من خطباء العالم المعدودين مسلحاً بصوت جهوري تستحليه ولا تنفر منه . قوي البديهة متدفق البيان رائع . يعرف كيف يأسر سامعيه ببراعة استهلاله ، وكيف يترك في نفوسهم أثراً بليغاً بحسن ختامه ، تؤيده في جميع مواقفه محبته العنيفة لوطنه ، وإياؤه المملوء كرامة قومية .

كان داعيةً عنيف الكلام ولكنه لم يدع الى استعمال القوة والعنف ، بل كان يتذرع دائماً بالسلم ليبلغ الغاية والقصد . يشبه في مواقفه الخطابية اديب اسحق الذي اقتدى كل من جاؤوا بعده بأسلوبه ووقفته ، كما قال الزعيم الآخر الخالد سعد زغلول .

قاسم أمين

جده أمير كردي ، تلقى علومه أولاً في مدارس وطنه ثم بُعث الى اوربا فدرس علم الحقوق ، وعاد ليشغل مناصب عديدة في القضاء .

وأشهر كتبه «تحرير المرأة» ثم كتاب « المرأة الجديدة » ، وهو دفاع عما كتبه في «تحرير المرأة» الذي أقام الشرق واقعه ، وكأن هذا الكتاب تعديل لما في كتاب تحرير المرأة من تطرف . لقد رد على قاسم كثيرون ، اما ابلغ رد كان فهو هذه الحكاية ، ان صدق الرواة :

قيل انه جاءه واحد يوماً يطلب مقابلة « مدامته » . فقال قاسم امين : انت غلطان يا اخي !! زوجتي انا ؟ !! .

فاجابه الرجل : نعم مدام قاسم بك امين . ألت أنت الطالب برفع الحجاب واطلاق حرية المرأة ، فأبدأ بنفسك . اسمح لست ان تقابلنا لتبطلنا ! وبعد ، فليس قاسم امين اول من طالب بحرية المرأة المسلمة ، فالكتاب الاتراك واحمد فارس الشدياق الذي اصدر جوائبه في عاصمتهم ، كانوا اول الداعين الى ذلك لكثرة اختلاطهم بالاجانب .

وقد استدرك قاسم امين فقال : « سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة ،
فاقول نعم ، ولكنها ليست في الاسلام بل في العوائد ، وطرق المعاملة التي
يحمد الكمال فيها » .

وقد نشر لقاسم امين كتاب ثالث سمي « كلمات لقاسم بك امين » ومن
هذه الكلمات قوله : « ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك .
« تعصب اهل الدين ، وغرور اهل العلم ، هما منشأ الخلاف الظاهر بين
الدين والعلم .

لا تكمل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم له . «
ومن كلماته ايضاً ، وهو رأي له في اللغة : « لا ادري ما هي غاية
الكتاب اذا ارادوا التعبير عن اختراع جديد ، انهم يجهدون انفسهم في البحث
عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلاً كلمة
السيارة بدلاً من كلمة الاوتوموبيل . فان كان القصد تقريب المعنى الى الذهن
فالكلمة الأجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة .

وان كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى ،
فقد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً إذ لم توجد ، ولن توجد لغة ، مستقلة عن
غيرها مكتفية بنفسها . «

هذا هو احد روادنا الذين سعوا للتحرر ، وانا لم نضعه هذا الموضوع لبلاغته
وفصاحته بل لمنزلته الاجتماعية التي كان لها اثر بعيد في النهضة الحديثة . فالغاية
من الكتابة الاصلاح ، وهذا كان قصد قاسم امين حين يكتب .

فرح أنطون

كانوا يقولون في تحديد الكاتب : فلان يطبق المفصل ، وصرنا نقول اليوم :
يطبق المنهاج ... كانت المعرفة عياراً للعلم ، فصارت الشهادة قبلة يصلى عليها ،
وكيف يجعلها دبر ظهره من يراها مفتاح قفل الغد ...

أما فرح أنطون فهو كغيره من الرواد ، وتلاميذ ذلك الزمان ، لا تعادل
درجته العلمية الشهادة التكميلية من مناهج اليوم ، ولكنه أخرج إلى عالم
الأدب ما تقصر عنه دكاترة الأدب والفلسفة .

بزغ نجم فرح أنطون الأدبي مع هلال القرن العشرين - ١٩٠٠ - فحمل
إلى العالم العربي وحي رسالته الجامعة الشاملة . فطعم الألباب ونور العقول .
حل هذا البلب الشادي دوح وادي النيل فحنا عليه حنو المروضات على
الفطيم ، وما انفك يعمل حتى صار ثالث اثنين : «المقتطف» للعلم ، و«الهلل»
للتاريخ ، و«الجامعة» للأدب والثقافة العامة ، فكان رائد النهضة الفكرية
الحرّة في الشرق العربي .

حمل فرح على منكبيه رسالة الفكر الانساني فأدتها «جامعته» في سبع

سنوات فقط . ثم انفتل من جهاده يسمى وراء الرغبة لأن الثقافة لا تطعم من جوع ولا تؤمن من خوف .

كان الشدياق يهدر كالجلجل الاورق ، وأديب اسحق يزأر في عرين المنابر ويطاعن خيلا من فوارسها التعصب ، ويحمل على اعداء الحرية حملات حجاجية ، فما تواريا حتى امدت البلاد بمشتها الأولى بنظريف جديد نازل القديم المسيطر بصمصامة الحق ، فانجلى الغبار عن نصر من الله وفتح قريب . ففرح أنطون ابن تاجر طرابلسي زبوي غنيته عن صندوق أبيه فأدركته حرفة الأدب . . سفح على المهارق ريتق شبابه فما اكتهل حتى شب في صدره الامل ، فحمل « جامعته » إلى أميركا يوسع لها في مجالس تلك الدنيا العريضة ولكنه رجع من بلاد الدولار على الريق . فاحترف الادب الرائج يلتمس به قوت من لا يموت . وظل يتحرق على حياة الفن للفن حتى قضى سنة ١٩٢٢ في الثالث من تموز وليس له إلا كفاف يومه .

ماذا عمل الرجل في الخمسين الا عامين ، وأية رسالة أدى ؟

الجواب : وأية رسالة لم يؤد ؟ فهو الذي عرف سواد الشرق الأدنى ببوذا وكنفوشيوس ، وأطلعهم على شرائع حورايي ، وهو أول من أذاع فلسفة تولستوي ، وكان له مع الامام محمد عبده جولات موفقة حول ابن رشد وفلسفته شغلت العالم العربي حصّة من الزمن . وهو من أرانا وجه جون روسكين النبيل ، ونشر تعاليم روسو وبرنردين دي سان بيار وترجم قسماً كبيراً من رائعة نيتشه ، زاراتوسترا . وأخيراً اهتدى إلى مكسيم غوركي فترجم أشهر رواياته « ملفا » . وهو الذي اكتشف تعاليم كارل ماركس قبل أن تحمر روسيا البيضاء .

وفرّح هو الذي عرفنا بـ « رينان » ، وإذا كان عرفه جدي شخصياً حين وقف على اطلال الهيكل الروماني القائمة كنيسة عين كفّاع على أسسه الضخمة الحجارة ، أجل عرفه ولكنه ما عرف منه إلا رجلاً فرنجياً حلّ

عمشيت وغزير ، وكان يعرف السريانية ، وبأخذ بعض الحجارة الاثرية من الكنائس العتيقة .

قام فرح بكل هذا يوم لم يكن يحلم الشرق إلا بقديمه ويرى كل الخير فيه . فهو القصصي الاجتماعي الاول في قصصه : الدين والعلم والمال . والوحش الوحش الوحش . وأورشليم الجديدة ، ومريم قبل التوبة وغيرها . وصاحب المسرحيات كابن الشعب وصلاح الدين وغيرها . كتبها للمعاش فمعاش بها المسرح العربي حيناً ، وتركت في وقتها درياً اجتماعياً .

عشقت نفس فرح الحرية في كل ميدان ، ونظر إلى أهمية التربية ، فترجم آراء جول سيمون ، وظاهر قاسم بك أمين في معركة « تحرير المرأة » ، وهو لم ينس أعظم رجال الغرب المعاصرين فترجم لهم ليبحث الشرق على النهوض وما أحلى ما ابتدأ به كلامه متحدثاً عن باكون وشكسبير : مشاهير الناس آلهة للناس في هذه الحياة ، ولكنهم آلهة لا تعبد إلا بعد الممات . وقد ابتدأ حين تكلم عن هيفو وذكرى ميلاده المئوية بكلمة لكاتب دنمركي شهير : ان ظهور أعظم الرجال منحة من السماء .

ولا يهمل فرح الفلسفة فيعرفنا باوغست كونت وفلسفته الحسية ، كما أذاع سيرة فيليكس فور تحت هذا العنوان : « من معمل الدباغة إلى رئاسة الجمهورية » . ثم لم ينس العلم فترجم لبرتلو هاتفاً : « المجد للعلماء » .

وعلى قلة بضاعته من الشعر نراه يحدد حافظ ابراهيم ، وأحمد شوقي ، تحديد بصير ويبدل على مقامها العتيد في صرح نهضتنا الحديثة .

هذا هو تلميذ الصف الثالث . ما كان ثانوياً ولا جامعياً ، فليتعلم شبابنا ليعرفوا لا ليحوزوا مجموعة شهادات كأنها من طوابع البريد ... فالشهادات لا تشرف إلا من يشرفها بعلم واسع عميق .

شخصيته . التخليل فرح انطوان كالموسمين ، وكأني أراه حائراً ، هادئاً ، يفكر ابداً ، ويحلل القضايا التي تثقل ظهر أمته ، لا يدري بما ينفس

عنها ، ولا كيف يعالج أدواءها ، فليجأ إلى كهوف الدهور ينشر على قومه
تعاليم أهلها فترك لنا هذا الميراث الخالد . لم يكن فرح انطون من أصحاب
العبارات الملساء الجوفاء ، ولا الكلمات التي تملأ الماضفين . لم يكن يعنيه من
الفصاحة إلا الابانة والظهور . أسلوبه ساذج ، همه أن يؤدي ما يعتلج في
خاطره ، ولهذا فاض أسلوبه رقة وحناناً ، وعبر عن نفسه التي تجرحها
النظرة الثابتة . ومن نظر إلى الأزاهر التي قبلتها هذه النحلة الدائبة يدرك ما
في جررتها من عسل .

لم تهمة البلاغة كما اهتم اديب اسحق ، ولا القوالب كما نجدها عند نجيب
الحداد . كان للرجل هدف يرمي اليه ، فهو كاتب أدبي عملي لم يبرز الى
السياسة كالشدياق وإسحق . كان فرح يحرث كرم الفكر وينقيه عن العلق
والقندول لينمو ويثمر . وما أرى الثائرين والمتمردين بعده إلا تلاميذ له ،
فهو الذي شق لهم الطريق ، وأضرهم في النفوس نار الثورة الوجدانية .

في فرح انطون شخصيتان : المؤلف والمترجم ، ولكن الاثنتين واحدة .
يترجم رواية الثورة الافرنسية لديماس ، كما يؤلف ثورة العرب في « اورشليم
الجديدة » روايته الخالدة . لم يكتب الرواية الا لغرض ، ولم يخطط كلمة إلا
دفاعاً عن مبدأ سام ، أو سعيًا وراء مثل أعلى . ومن يقرأ تحيته لتمثال الحرية
يعلم كيف مزج صوفية الشرق بعملية الغرب ، حتى إذا آب بالفشل ودفع
العالم الجديد بخطبته الخالدة امام شلال نياغرا . ففرح هو الفكر المحرر حديثاً
من عبوديته ، فلا يكاد يرى أخاً معتوقاً مثله حتى يضافعه مهنشاً ويتمنى الفرج
للمسجونين الآخرين .

أما آثاره في طور الفن للفن فأربعة وعشرون مجلداً ، وتآليفه في طور
المعاش خمسة عشر . وهو في كل ما ألف وترجم لم يتحول عن خطته
إلا بمقدار .

كان اسم رفان يفرع المتدينين في الغرب ، وكان هذا الاسم في الشرق

مرادفاً للكفر والالحاد ، ألم يقل حافظ ابراهيم رائياً الامام محمد عبده ، ذا كراما له من فضل :

وقفت لهانوتو ورينان وقفة أمدك فيها الروح بالنفثات

ولكن فرح ترجم أخطر كتبه - يسوع - فحملق الشرق به ونظر اليه الكثيرون ، ولكنه لم ينثن . وعندما احتفلت فرنسا بازاحة الستار عن تمثال رينان عمد فرح الى آثاره وترجم «صلاة رينان عند الاكروبول ، ثم علق عليها . وها كم نموذجاً من ذلك التعليق .

« يا أثينا العظيمة ، اسمحي لنا بعد صديقك العظيم - رينان - أن نوجه اليك رجاءنا ، وسؤالنا نحن الشرقيين ، ليس لك أن تتكبري علينا كثيراً فبيننا وبينك قرابة قديمة .

أتذكرين ايها الالهة ، أولئك الاسرى الذين كان يخطفهم بحارة جزائرك في الارخبيل ، من شواطئ صور وصيدا ويسوقونهم الى بلادك ؟

ان هؤلاء الاسرى كانوا من مساعديك على تمدين قومك ، وتعليمهم الفنون الجميلة وهم قواعد نهضتك . ففي عروقك ، اذن ، ايها العذراء الجميلة ، شيء من دماء شرقية ، فحرمه هذا النسب نناشدك .

ابعشي الى الشرق ، جدك القديم ؛ شيئاً من سنا نورك العظيم . علمينا أن نفس اهواءنا ومصالحنا الخصوصية . علمينا ان نجهر بمعتقدنا ولا نخاف فيه قوات الارض والسماء . أفهمينا معنى الحق والواجب والعدل والعقل ، لنتخذها نجوماً نهدي بها في ظلمات الحياة . افتحي عيوننا فنكون مخلصين في طلب الاصلاح ، مهتمين بالجميع على السواء ، وان نبداً بأنفسنا . بشي فينا روح التساهل المطلق ، وبهذا كمال النهضة الشرقية .

واذا كنا لا نشاهدها في زماننا ، فحسبنا ان يشاهدها أحفاد احفادنا ولو بعد عشرين عقبا . »

ولما حمل فرح « جامعته » الى اميركا نظاماً بالرزق قال الشاعر احمد
بحرم مخاطبه :

ان كنت لا تبغي لنفسك راحة فأرح مطيئك والدنى وبنيتها
وتعب فرح الشرقي في ميدان الدولار لان صوفيته الشرقية حالت دون
ذلك ، وهاك مقطعاً من خطابه امام شلال نياغارا ، فهو يدلك بعض الدلالة
على روحية اديبنا وسبب اخفاقه :

وقد غيروا ارضك ومن عليها أيها الشيخ ، وهم يظنون انهم جعلوها ، وما
جاءهم الا كجمال المرأة الدميمة . زخرف خارجي ، وطلاء سطحي . حك
هذا الطلاء قليلاً تجد تحته جيفة منتنة . كنت اجمل منك اليوم حين كان
شاطئك ملجأً للمتوحشين ومعتزكاً للثمور والاسود ، وملجأً للذئاب والتاسيح ،
ومرقصاً للدببة والقرودة .

كان يومئذ جمالك وحشياً طبيعياً يقشع له جلد التصور ، ويرتد عنه
طرف الخيال مذعوراً .

كان يومئذ جمالك جمالاً حقيقياً ، اما اليوم فقد اسروك كما تؤسر الأسود
في الاقفاص ، وتجعل فرجة للناس . قد أصبح شاطئك مرتعاً للذئاب ونمورة
ودببة وقرودة من جنس جديد ، لها طباع تلك ولكنها تنشي على قائمتين :

ان روحاً مادية هائلة هبت على العالمين فضعضعت المبادئ وزعزعت
الشرائع وسعقت الاديان والآداب وسأقت الناس بمصا الحاجة الحديدية الى
مبادئ هائلة . جعلتهم ذئاباً هائلة تتعادي وتتسلح تأهباً لاقتتال افظع من
اقتتال الذئاب ، والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها وقويها ضعيفها ،
كما تفعل اسماكك ، والكمال للدولار وحده .

فهرست الاعمال

٥٩	ابن المبلط	٨٣ ، ٦١	ابراهيم باشا
٨٥ ، ١٦	ابن مروان	٢٧٠ ، ١٤٥ ، ١٤٣ ، ١٤١	ابراهيم حافظ
١٦١	ابن المقر	٢٧٢	
١٦٣	ابن الوردى	٢٧	ابن أبي ربيعة عمر
١٦١	ابو تمام	٥٩	ابن أحمد السلطان عثمان
٦٨	ابو صعب الخوري يوسف	٥٨	ابن بخشي (الشيخ تاج الدين)
٨٩ ، ١٧	ابو المتاهية	١٦٨	ابن خلدون
١٠٨	ابو للملاء	١٢٧	ابن خياط
٢٠٣ ، ١٥٧ ، ١٢٥ ، ١١٦	ابو نواس	٥٥	ابن هريد
٢٤٧		٢٦٩ ، ٣٦	ابن رشد
١٧٠	الاثير ابن	١١٩ ، ١١٨ ، ١٠٦ ، ١٠٣	ابن الرومي
٩٥٠ ، ٩٤٠ ، ٩٣٠ ، ٦٦	الأحبد الشيخ ابرهم	٢٠٣ ، ١٥٧ ، ١٥٤	
١٦١ ، ١٢٤ ، ٩٨		٩٦	ابن زيدون
٢٣٩ ، ٢٢٨ ، ٢١٠		٢١	ابن سيراخ
٤٦	احد الياس	٣٦	ابن سينا
١٠١	ارسلان الأمير أمين	٨٧	ابن الصباغ
١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٤١	ارسلان المير شكيب	١٤٧	ابن المبرد ، طرفة
١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥		٤١	ابن عقيل
١٩١	ارسلان الأمير محمد	٢٤٤ ، ١٩٥	ابن العميد
٢٣١ ، ٢٢٨	الأزهري أحمد عباس	٥٩	ابن عنان
١٣٦ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٠٩	اسحق أديب	١٠٨	ابن عوانة
٢٠٨ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩١		١٠٧	ابن الفارح
٢٥٥ ، ٢٥٢ ، ٢٤٨ الى ٢٣٥		٨٢ ، ٦٥	ابن القلاهي
٢٧١ ، ٢٦٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٢		٩٦ ، ٩٤ ، ٨٤	ابن مالك

٩٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩	اسطفان انطران يوسف	٦٠
١٢٤ ، ١٥١ ، ١٧٣ ، ٢٠٤	اسماعيل الحدوي	٢٢٠ ، ١٩١
٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠	الاسير الشيخ يوسف	٩٨ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٦١
٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨		١٢٤ ، ١٦١ ، ١٨٩
١٦٧ الى ١٧٠ البستاني سليمان		٢١٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩
١٩٣ ، ٢٠٥ الى ٢١٠ البستاني سلم		٤٧ ، ٥٠ ، ٥١
٢١٩ الى ٢٢١ ، ٢٢٨		٢٣٦ ، ٢٤٩
٣٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٧ البستاني عبد الله		١٣٥
١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩١		١٠٥ ، ١٠٦
٢٢٨		١٣٩ ، ١٤٠
٢٨ البستاني قزاد افرام		١٦٩ ، ١٩٩
٢٠٧ البستاني نجيب		٢٠٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٧		١٠٠
٢٢٧ البشعلاني الخوري اسطفان		٨٠ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١
٧٩ البصري عبد الجليل		١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥
٥٩ بوست		١٠٦ ، ١٥٠ ، ١٩٠
٢٦٩ بوذا		٣٣ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٢٠
١٠٧ البوريني		٢٦٨ ، ٢٧٣
١٥٣ بوناظر طانيوس		١٨٤
٤١ بولس القديس		١٤٥ ، ١٩٣ ، ١٩٥
٣٤ بيم نور الدين		١٨٤
٦٠ ، ٢٢٩ قابط شرا		٢٢١
٦٠ التاجي الشيخ عبد الرحمن		٣٥
٧٣ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٦٦ الترك فقرلا		١٧٦
٧٧ ، ١٠٠ ، ١٠٤		١٤١ الى ١٤٧
١٧٣ الترك وردة		٢٧٠
١٩٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠		١٤٢ ، ١٦٥
٢٣٠ تقي الدين أمين		٤٦ ، ٤٧ ، ٨٣
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ تقي الدين رشيد		٢٤٤
٧٨ ، ٧٩ التميمي صالح		٤٦ الى ٥٠ ، ٦٠
٥١ تمام ابو		٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٦ ، ٧٠
		٢٧٦

٨٠	الحلي صفي الدين	٢٥٩	التولسي خير الدين
٢٦٩	حمورابي	٢٦٩	قولستوي
٦٠	الحنفي ناصر الدين	١٨٦	تورغنيف
٢٣١ - ٢٣٠	الحوراني ابراهيم	٤٥٠	التولاوي
١٥٥٠ ١٤٧٠ ٦٢	الحويك البطرك الياس	٢٤٩	توفيق الخديوي
٦٣٠ ٦١٠ ٥٠٦	حيدر الامير	١١٨	التعيني
١٤٧	الحضيب محب الدين	١٧٥٠ ١٧٤٠ ١٧٣٠	تيمور شائسة
١٥١٠ ١١٨٠ ١١٧٠ ١١٥٠	الخليل	١٨٥	تيمور محمد
١٧٦	الحنساء	١٩٥	تين
٢٤٤٠ ٢١٤	الخوارزمي	٢٥٥	ثابت ايوب
	الخوري بشارة (رئيس الجمهورية)	٢٠٩٠ ٢٠٣٠ ١٩٩٠ ١٨١٠	الجاحظ
١١٧٠ ٦٦٠ ١٤		١٨٤	جب
٨٣	الخوري بشارة	٢٤٨٠ ١٩٣٠ ١٨٥٠	جبران
١٠٩٠ ٦٦	الخوري خليل (الشاعر)	١٢٣٠ ٢٧	جرير
١٣١٠ ١١٦٠ ١١٥٠ ١١٤		٢٢٨	الجميل انطوان
١١٣	الخوري خليل	٦٦	الجندي امين
١٥٥٠ ١٥١٠ ١٤٨	الخوري شاكور	١٨٢	جيد اندره
١٩١٠ ١٥٧٠ ١٥٦		٨٣	الحاج البطرك يوحنا
١٤٥	الخوري فارس	٨٣	الحبشي البطرك
١٦١	الخطاط محي الدين	٢٢٨٠ ٢٢٧	حيقة نجيب
١٩١	الخطاط يوسف	٢٤٤٠ ٢٤١٠ ٣٣٠ ١٦٠ ٩	الحجاج
٤٠	خير الله خير الله	١٩٢	حجازي سلامه
٧٧	دارد باشا	١٩١ الى ١٩٦٠ ٢٠٨٠	الحداد نجيب
١٦٧٠ ١٠٩٠ ٤٥	الدبس المطران يوسف	٢٧١٠ ٢٤٨٠	
٢٣٩٠ ٢٢٩		٢٢٨	الحداد الخوري يوسف
١٠٧٠ ٧٩٠ ٢٨	الدحداح الشيخ رشيد	٤٤٠ ٤٣	الحمر ابراهيم
١٠٨		٥٩	الحرفوش الامير عمر
٢٦٩	دي شان بيار برنودين	٩٤٠ ٨٤٠ ٦٧٠ ٥٥	الحريري
٢٧١٠ ١٨٥	ديماس الكسندر	٢٨	حسون رزق الله
٢٣٦	راسين	٤٠	حكيم ميخائيل
١٥٧	رستم أسعد	١٥٦	حلي عباس
٢٧١٠ ٢٦٩٠ ٢٥٠٠ ١٧	رفان	٥٨	الحلي صالح

٢٤٥ ، ٢٤١ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨	٣٤	الرهاري
٢٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٢٤٨	٢٤١ ، ١٩٣	الريحاني
٢٧١ ، ٢٦٩ ، ٢٦٦	٢٦٩	روسكين
٢٢٨ ، ٢٢٧	٢٦٩	روسو
٢٢٨ ، ١٤٥ ، ٣٩ ، ٣٥	١٩٣	روميو
٢٥٠	٢٢٧	ريفو اميل
٢٧٠	٢٦٥ ، ٢٤٦	زغلول سعد
١٠٩	٢١٢	ولزل الدكتور
٢٥٣	١٩٤ ، ٥٥	الزنجشري
٢٥٣ ، ٢٣٩ ، ٢٠٣ ، ٣٠	١٦٣	الزهاوي
٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤	١٤٥	الزهر اوي
٢٥٣	١٢٨ ، ١٢٣	زهير
٢٢٩	١٧٦	زيادة مي
٨١ ، ٧٦ ، ٦٦ ، ٦١	١٨٥ ، ١٣٩ ، ١٣٧	زيدان جرجي
١٠٩ ، ١٠٧ ، ٨٤ ، ٨٢	٢٠٠ ، ٢٢٦ ، ٢٠٨	
١٤٢ ، ١٤١ ، ١١٧ ، ٨٨ ، ٨٠	٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٢	
٢٧٠ ، ١٧٤ ، ١٤٧ ، ١٢٥	٢٥٧ ، ٢٥٣ ، ٢٣٩	
١٠٠ ، ٦٩ ، ٥٠ ، ٣٦ ، ٢٨	٢١٩ ، ٢١٤ ، ٢٨	سركيس خليل
٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ١٨٥	٢٢٢ ، ٢٢١	
٢٢٧	٢١٢	سعادة
٤٨ ، ٤١ ، ٤٠	٢٤٧	سلطان محمد
٦٠	٥٩	سلم السلطان
١٠٩	٢٧٠	سيمون جول
١٢٢	٥٧	الشبيب ابن
١٠١ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٧		الشدياق احمد فارس
١٤١	٣٦ ، ٣٥ ، ٣٠ ، ٢٨ ، ١٠	
٥٧	٩٠ ، ٨٩ ، ٨٧ ، ٦٦ ، ٦٤ ، ٤٧	
٢٥٧	١٢٢ ، ١١٣ ، ١٠٠ ، ٩٨ ، ٩٤	
١٥٠ - ١٤٨	١٨١ ، ١٤٧ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٤	
٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٢ ، ٣٦ ، ٣٠	١٩٩ ، ١٩٦ ، ١٩٣ ، ١٨٥	
٢٥٣ ، ٢٣٩	٢١٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣	الى
٧٩	٢٢١ ، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١١	

١٨٦	فلوبيز	١٠٠	طيطاري
٢٧٠	فور فيليكس	٢٠٩	الطيطاري رفاعة
١٩٩	قولنير	٢٣٨	المازار اسكندر
١٠٨ ، ١٠٧	قيامو محمود	١٣٩ ، ١٣٧	عازار سليم
٤٠	قرألي عبد الله	١٣٧ ، ١١٢	عبد الحميد
١٩١	القباني خليل أحمد	٢٥	عبد النور جبور
١٩٠	كفور	١٣٥	عبد الحميد خان السلطان
٢٦٥	كامل مصطفى	١٨٥	عبد طافوس
٧٥ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٦٦	كرامه بطرس	٢٧٢ ، ٢٦٩ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩	عبد محمد
٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧		٦٠	عبود الاب بولس
٨٣		١٩٢	عراي نوره
٢٥٥	الكفوري الاب بولس	١٤٢	عقل سعيد الشهيد
١٦١	كال بك فائق	١٤١	عقل وديع
٢٦٩	كونفوشيوس	٤٧	علي محمد
٢٦٣ الى ٢٥٧	الكواكي عبد الرحمن	١٤٧ ، ١٤٠	عترة
٢٧٠	كونت ارغست	١٦٢ ، ١٦٣	عنخوري سليم
٢٢٧	ليفنكستون	٢٤٢	غبريل شام
٢٦٩	ماركس كارل	٣٦	الغزالي
١٢٨ ، ١٢١ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٧١	المتني	٨	الغلبوني
٢٥٨ ، ٢١٢ ، ١٩٠ ، ١٥٣		٢٦٩	غوركسي
٢٧٣	محرم أحمد	١٩٣	فاخوري عمر
١٦٦	المخرومي محمد	٣٦	الفارابي
٢٤٥	مخلع جبرائيل	٥٩	الفارص
١٢٨ ، ١٢١ ، ١١٥	المراش فرنسيس	٢٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٩	فان ديك
١٣٦ ، ١٣٢ الى ١٣١		١٤٧	فرانس اناتول
٢٠٨ ، ١٩٣ ، ١٧٣		١٥١	الفراء
١٧٣ ، ١٢٣	المراش مريانا	٣٥ ، ٣٤ ، ٢٨	فرحات المطران جرمانوس
٨٩	مسدية خليل	٤٣ ، ٤١ ، ٤٠	
١٥٣	مشاقه سليمان	٦٩ ، ٤٨ ، ٤٥	
٧٨	المهدي موسى	١٠٧	
١٤٦ ، ١٤٥ ، ١٤١	مطران خليل	١٥٦	فريج مدام
١٦٤ ، ١٥٦	مظفر باشا	٢١١	فلامريون

٢١٢	غفر فارس	٢٠٦ ، ١٢٦	المعري
٢٦٩ ، ١١٤	نيتشه	١٦٦ ، ١٦٤ ، ١٤١	الملاط فامر
٢٥٠	هانوتو	٢٣٠	الملاط شبلي
٦٧	الهمذاني بديع الزمان	١١٧	المنصور أبو جعفر
١٦٩ ، ١٦٨ ، ٣٤	هوميرس	١٩٣	المنفلوطي
٢٣٧	هينغو	٧٧	الموصلي عبد القادر
٢٦٤	واصا باشا	١٩٠	موليير
١٧	لامرتين	١٥٢	موسى الخوري
٠ ١٩٢ ، ١٧٤ ، ١٥٢	اليازجي ابراهيم	١٧٦	مي
٠ ٢٦٠ ، ١٩٦ ، ١٩٣		٢٥ ، ٤٤ ، ٤٣	النايفة
٠ ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١١		٦٠ ، ٥٧ ، ٥٦	النايلسي الشيخ عبد الغني
٠ ٢٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢١		١٠٧	
٢٤٨ ، ٢٣١		٤٠٦ ، ٤٤ ، ٤٣	التحلاوي ، عبد الرحمن
١٩٢ ، ١٩١	اليازجي خليل	٠ ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠	
	اليازجي فاضيف	٦٣	
٧٧ ، ٦٦ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٣٠		٣٥	النحوي
٨٩ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٤ ، ٨٢ ، ٨١		٥٧	نفاع بدر الدين
٠ ١٢٤ ، ١١٥ ، ٩٨ ، ٩٥ ، ٩٠		٢٣٦ ، ١٩٣	النقاش سليم
٠ ٢٢٨ ، ١٩٥ ، ١٥٢ ، ١٢٨		١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٧٤ ، ٩٥	النقاش مارون
٢٥٣ ، ٢٤٤		١٩٣	
١٧٣	اليازجي وردة		النقاش نقولا
١٩٣	يكن ولي الدين	١٩٠	

فهرست

ما هذه مقدمة ٧

قبل المعركة

سنديانة الضيعة ١٣
مدرسة تحت السنديانة ١٩
بين الكهف والدار ٢٦

الرواد العتاق

بلا عنوان ٣٣
المطران جرمانوس فرحات ٣٤
الخوري نيقولاوس الصائغ ٤٠
النايلسي والحر والنحلاوي ٤٣
أحمد البربير ٤٦
ابن افرنجية ٥٠

شعراء الأمير

التاريخ الشعري ٥٥

٦٥	نقولا الترك
٧١	بطرس كرامه
٨١	نصيف البازجي

الشعراء العلماء

٩٣	الشيخان الأحديب والأسير
١٠٠	عمر الانسي
١٠٤	القاسم الكسبي
١٠٧	محمود قبادو والدحداح
١٠٩	يوسف الشلقون

فجر التجديد

١١٣	خليل الخوري
١٢١	فرنسيس مراش
١٣٧	شاعرا الكلية
١٤١	البارودي وارسلان
١٤٨	شاكر بك الخوري
١٥٧	أسعد رستم

شعراء متفلسفون

١٦١	محيي الدين الحياط
١٦٢	سلم عنجوري
١٦٤	ناصر الملاط
١٦٧	سليمان البستاني

الرائدات

١٧٣	الوردتان
١٧٥	عائشة قيمور

الزوّاد الكتاب

١٨٠	روّادنا والقصة
١٨٩	مارون النقاش
١٩٢	نجيب الحداد

روّاد الصحافة

١٩٩	الشدياق
٢٠٤	بطرس البستاني وولده
٢١٠	الشيخ ابراهيم اليازجي
٢١٩	صروف وزيدان وتقلا وسركيس
٢٢٣	المبشران فان ديك وشيخو
٢٢٨	البستاني والخوراني والأزهري

كتاب النضال

٢٣٥	اديب اسحق
٢٤٩	محمد عبده
٢٥٣	شبل الشميل
٢٥٧	عبد الرحمن الكواكبي
٢٦٤	مصطفى كامل
٢٦٦	قاسم أمين
٢٦٨	فرح أنطون
٢٧٥	فهرس الاعلام

القِسْمُ الثَّانِي

يحتوي هذا القسم على :

القرية في أمثالها - ليالي القرية - اللهجة العامية
البنانية - الشعر العامي اللبناني - أطوار الزجل -
القوال الأول . . الخ .

الشعر العامي

أمثال القرية اللبنانية وأغانيها ومهراتها واللفّة العاميّة فيها

القرية في أمثالها

القرى أهراء المدن ، فمنها تستميد القوات ، من
حنطة ، وخضار ، وفواكه وألبان ، ولحوم وخمور .
فكانها معمل ، دواليبه الرجال . وكما لا تقف المعامل
إلا هنيهات ، كذلك يظل الفلاح في حركة دائمة .
فحياته زرع وقلع ، وحلب وضرع . صيفه استغلال ،
إن جادت عليه الطبيعة بالأمطار ، في أوانها . وإن
جاءت قبل الوقت المناسب أو بعده ، فقد حسيراً
كثيباً ، يعلل نفسه بحكمة الأمثال التي علّمتها إياها
التجارب ، وأملتها عليه الأيام فيردد : « إن فاتك عام
استبشر بغيره » . فالقروي صبور ، جلود ، لا يقنط
ولا يياس ، ولا يكاد يسقط حتى يقوم .

لا أدري ماذا يجلب بسكان المدن من حكام وعلماء ،
ومن صناعيين ، وتجار ، وعمال ، إذا وقف هذا
البائس عن العمل ، أو قنط ويش ولم يحزث أرضه

ويربّ نعاجه ؟ !

أيا كلون البضائع التي تعج بها مخازنهم وحوانيتهم ؟
وهل يطعمهم الدولاب خبزاً وخضاراً ولحماً ؟ ثم من
يستهلك منتوجاتهم ، وينفق بضاعتهم ؟ أليس القروي
هو المستهلك والمنتج في وقت معاً ؟ لقد تخيل الشاعر
الفرنسي سولّي برودوم هذه الحالة ووصفها في إحدى
قصائده ، فرأى الموت على مقربة منه :

فلو لم تسخر الطبيعة أبناءها كلاً لعمل ، وتجعل
أسلوب حياته رائقاً في عينيه ، لما كان ابن القرية
يرضى بعزلته وخشونة عيشه . فإذا دخلت القرية
نهاراً فقلّما تجد في بيوتها غير الشيوخ العاجزين ،
والنساء اللواتي لا يستطعن عملاً ، أو اللواتي يهين
الطعام. للرجال الكادحين في الحقول ، حتى اذا دنت
ساعة الغداء ، حملن سلال الطعام في يد ، وأباريق
الماء في يد ، وهروبن الى الحقول حيث تنتظر
الرجال الزاد .

إن أيام القروي مملوءة عملاً في جميع الفصول ،
وهو لا يلجأ الى بيته نهراً إلا اذا دهمه المطر شتاءً ،
وكواه الحر صيفاً ، فلكل فصل من فصول السنة
عمل لا بد من أن يُتمَّه في حينه ، لأن المثل يقول
له : « الفلاحة يد » . فاذا تقاعس أو تماهل فاته
الرزق ، والرزق في نظره قسمة ونصيب ، ولكن
العمل واجب : « فإله قال : قم حتى أقوم معك » ...
فاذا تباطأ أو قصر كان هو المقصر ، وصح فيه
المثل : « اللّي من ابده الله يزيد » .

« الحركة فيها البركة » لذا تراهم لا يستقرون ،
فاذا تركوا الحقل للاستراحة فلا بدّ من عمل ما حول
البيت ، فالزمان « يخلص » والعمل لا ينتهي ،
والتعب وسخ » .

ليس كل أهل القرى يحرثون وينكشون ، بل
هناك فئة تستأجر عمالاً ، فيكون عملها مراقبتهم
لكي يحسنوا العمل ولا يضيعوا الوقت . وكما يتمتع

العمال المدنيون بالموسيقى الاصطناعية التي ينطق بها
المعدن ، كذلك لهؤلاء موسيقى طبيعية ترفه عنهم .
فهنا حسون يغني ، وشحرور يغرد ، وحجل
يتكلم ، وهناك راع ينفخ في شبّابته فيلطف من
شقاء الفلاح ، ويهون عليه مصيبته ، فتصير « نصف
مصيبة » .

النهار ، كما قلنا ، للعمل الدائم . وكيفما التفت
العابر تقع عينه ، إما على حطّاب يقطع الحطب
ويحمله إلى بيته ليدّخره للشتاء ، كما يدّخر مؤوته
تماماً ، لأن المثل يقول له : « في كانون كن » ، ومن
المولود للعمود يقف الماء عامود ، وإما على آخر
يلمّ تينه ليدّخره للشتاء . فإذا كانت « المؤونة في
الصيف على العود ، فأيلول طرفه بالماء مبلول » .
فليستعد له ، « فالشتاء ضيق ولو كان فرجاً » .

وقد ترى مكارياً يسوق بغله وحماره وهو يغني
ليخفف من مشاق الطريق ويبلغ المكان المقصود ،

فاذا « جاء الليل جاء معه الويل » .

اذا كنت رأيتني ، وكما ستراني ، أكثر من ذكر
الأمثال ، فلا تنسَ ان ثقافة القرية في أمثالها .
فالمثل هو أدب الشعب وعنوان ثقافته ، والدليل على
عقلية الأمة الحام ، وأخلاقها الأولية ، ونتيجة
اختباراتها في الحياة . ان الأمثال القروية أحكام
محكمة الوضع في جمل وجيزة يعرفها القروي الأمي كما
يعرف المحامي المتضلع مواد الحقوق الأصلية ، فهو
يحدثك دائما بالأمثال . ولا بدع في ذلك ، فالمثل هو
الثقافة البشرية الأصيلة ، وكما يوجد فلسفة عامة
يعرفها المكاري والمعّاز والاكّار ، فيشارك فيها
العقل البشري على اختلاف طبقاته ، كذلك يوجد
ثقافة شعبية عامة تجمعها هذه الأمثال ، فهي كما قلنا
أشبه بالمواد الكلية في الحقوق المدنية من حيث إيجازها
وبلاغتها وما ينطوي تحتها من معانٍ . فكتب حقوق
القروي تحت لسانه ، وهو لا يحتاج الى مراجعة

المجلات والداياتر ليصدر أحكامه ، فهذه الأمثال
أحكام تتناول جميع الشؤون الحياتية ، وهي تجمع
الحاسن والأضداد ، والكفر والالحاد ، وفي الجملة ،
الشيء وضده في كل باب ومطلب .

المثل ، في نظري ، هو رفيق الأمية عبر العصور ،
وستظل هذه الأمثال حية خالدة ، اذا مات منها واحد
قام عشرات ، وهي تتغير وتتبدل بتبدل أساليب
العيش ، وتتطور بتطور الحياة ، ولا تحرم الانسانية
عقولا ثاقبة ترسل الأمثال وتضربها في كل مناسبة .
وبهذا التبدل فهي تحافظ على بقائها ، لأنها تنبع من
جميع طبقات الشعب ، ولذلك أراها ملائمة لعقلية
الشعوب أكثر من الشعر ، بل هي أصدق من الشعر .
أما هذا التناقض الذي نراه فيها ، فهو عندي طبيعي
جداً ، لأن المثل يمشي الحياة التي لا تسير على نمط
واحد ، وفي سياق واحد .

وقد حرص الناس على أن يقولوا في كل غرض

مثلاً . فللزراعة ، وهي همهم كثير ، أمثال لا تُعدّ ،
نذكر منها قولهم : « غير بذارك ولو من عند
جارك » . و « بعد أختي عني وخذ غلتها مني » .
هذا ما نطق به الزارع والدارس .

ولهم في الطب أمثال أيضاً منها قولهم : « البذرة
التي لا تعرف فيها ، بالنار داويها » .

وكذلك يقولون في الاقتصاد : « على قدر بساطك
مدّ رجلك » . ولهم في السياسة مثل ، يوهك انهم
يكرهون السياسة ، مع انهم غارقون فيها الى آذانهم .
قالوا : « الداخل بالسياسة مثل الداخل بتنكة
الكناسة » .

والامثال منها ما هو وليد الاختبار ، ومنها ما
هو وليد الوجدان والعواطف ، ومنها ما هو وليد
التمرّد والحربان . فهذا القروي الذي وصفته لك
كاداً جاهداً نفسه ، لا تنس أن فيه روحاً عاتية ،
يفكر كما يفكر حكامه . وإذا أكره وأثير ، استحال

فأسه ومنجله ومسحاته ورفشه ومنخس ثيرانه عتاداً
حربية . يضحّي ببنيه وثيرانه وكل ما يملك إذا ما
استفزّه البغي والظلم .

والفلاح ، على بساطته ، هو الذي يسقط الحكام ،
ويقوّض العروش حين تستحيل منجل حصاده سيفاً ،
وعباءته درعاً وترساً ، يهاجم الموت وهو يردّد المثل
القائل له : « مت ابن ... ولا تعش حزيناً » .

فهو يقول لك حين يكون راضياً عن حكمه ،
أو ساخطاً ولا تواتيه فرصة الفتك : « لا سلطة إلا
من الله ، وحاكمك وربك » . كما يستعين بالدهاء
فيقول : « اليد التي لا تقدر أن تعضّها بوسها وادع
عليها بالكسر » . وعندما تأتي الساعة الملائمة يندفع
كالنهر الجارف وعلى لسانه : « عيشة بالذل أنا ما
أريدها » . حتى إذا ما ظفر بذاك الطاغية الذي كان
يقول فيه : « لا سلطة إلا من الله » ، يقول له :
بعد أن يسقط عن كرسيه أو يقتله : « على الباغي

تدور الدوائر ، ولا يحصد الانسان إلا ما زرع .
ثم يتنفس بعد هذا الفوز على ظالمه ويقول :
« قالوا لعنتر من عنترك ، قال : ما لقيت حدا رددني » .
نحن رددناه ، لأن « الوعاء الذي لا يمتلي يكون
معيوباً » .

أعتقد أن لبنان أغنى من غيره بالامثال ، وذاك
لتشابهك المدينيات فيه ، بتواليها عليه ، وتقدر ما
تشابهك الحياة وتتعدد شؤونها ، يهب المثل من
مكانه ليعبر عنها ، ويبقى رمزاً اليها . إن القروي
سياسي مطبوع ، ولذلك قلما ترى قرية ليست منقسمة
حزبين أو أحزاباً . ولعل القروي ، إذا ترك المحراث
وقعد يستريح ، يتحدث مع رفيقه عن السياسة العالمية
على قدر ما يدرك منها ، ثم يتطرق إلى المحلية منها ،
وهناك يجلي في ذلك المضمار ، فهو ينتصر لرجل ،
وربما كان لا يعرفه ، ولعل تحزبه له يكون نكاية
بجاره أو بابن عمه أو أخيه ، وكما يقول مثله : « من

أخذ أُمِّي صار عَمِّي . يقول أيضاً : « أنا وأخي
على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » . ولكن
لا ، فكثيراً ما نرى القروي ينتصر للغريب ويعادي
حتى أخاه ليحقق القول : « البغض بين القراب ،
والحسد بين الجيران » .

وهذه الحزبية القروية كثيراً ما سُفكت دماء
وزَهقت أرواح بسببها . فالقروي عاتٍ جبار ، إذا
استُفْزَ صَغُر الموت في عينيه وقتل خصمه كما يقتل
الحية . وللشارع عندهم مكانة عليا ، ولهذا تزول الاحقاد
بينهم في تلك الساعة وينتصرون لبعضهم ويقولون :
« ابن عمك جمال ذمك » . حتى إذا ما مرت تلك
الفترة عادوا الى عنعناتهم وتنافروهم وتباغضهم .

وحب الزعامة والرئاسة متاصل في القرية ، ولذلك
قسّم أبناؤها الجماعة درجات : فلان يأخذ القهوة قبل
فلان ، وزيد يجلس فوق يد خالد ، وإذا أُخِلَّ
أحد بهذا الترتيب ، كانت العاقبة غير محمودة ، وقد

تؤدي الى قتل من تجاوز حدّه ولم يقف عنده .

أما العيشة في القرية فمشتركة ، فمن عنده يهدي الى الذي ليس عنده ، وقد تكون عند فقير فاكهة ليست عند أبناء قريته ، فهو لا يحجم عن أن يهديهم شيئاً من ثمارها فيأكلون متمثلين : « سنة مباركة ورزق جديد » .

وأبغض شخصيّة في القرية هي شخصيّة البخيل الشحيح ، وفيها يضربون الأمثال : « البخل كشاف العيوب وقاطع المحبة من القلوب » . و « البخيل ييموت عليل » ، « البخيل يياكل من كيسه » ، « الكريم يياكل من كيس غيره » . كما يقولون في الكريم « الكرم مغطّي كل عيب » . و « هين مالك ولا تهين حالك » .

وأحب الناس اليهم من كان جواداً ، فالكريم المضياف : « كرم على درب ، وبيته مفتوح » . وذلك لأن من عاداتهم أن المار ياكل عنباً وتيناً من

كل كرم يمر عليه ، بشرط أن لا يأخذ معه شيئاً ،
وإن أخذ أهين ، وإن كبر رأسه ضرب .

إن الضيافة هي شعار القروي ، ومن العار عليه
أن لا يقوم بواجب الضيف . قد تستخف بالقروي
حين تراه وعليه ثوب العمل المهلهل ، فيكاد يكون :
« ما عليه من الخام ريحه » ، ولكنه اذا لبس ثوب
الاستقبال وادخلك بيته البسيط النظيف ، وقدم لك
طعامه المعد احسن اعداد ظننت انك عند رجل
لا صلة بينه وبين الحقول والمواشي . واذا كان الضيف
كبيراً ذبحوا له خروفاً أو جدياً ، وإلا فدجاجة . وان
كان ممن لا يؤبه له قروه من حواضر البيت : الجبن
واللبن والبيض ، وكانت حلاوته التين . أما الذي
يهرب من وجه الضيف فمثلهم يقول فيه : « الكلب
لا يعرف بابه » . واذا كان غنياً بخيلاً قالوا فيه :
« كلب محمل قروش »

ومن أمثالهم : « الضيف له الكرامة » .

و « ضيف المسا ما له عشا » . أي يقدم له من حيث
كان ، ويقام بواجبه على حقه في الغد ، لأن الضيف :
« أسير المحل » ، فلا يبارح المضافة الا مأذونا :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا

نحن الضيوف وانت رب المنزل

كما قالوا : « الضيف المتعشي ثقلته على الأرض » ،
وإذا كان الضيف ثقیل الدم أو وقعاً قالوا فيه :
« ضيف وحامل سيف » .

أما الرجل الذي لا يرجي خيره ولا يتقى شره ،
فهذا عندهم لا منزلة له وفيه يقول مثلهم : « فلان
لا يمش ولا ينش ، وفشكة كر ، لا بينفع ولا بيضر »
ولما كانوا ، في ذلك الزمان ، لا يعرفون صبغة اليهود
وغيرها من المضمّادات قالوا في البخيل أيضاً : « فلان
لا يبول على اصبع مجروح » .

ومن قيمهم الأخلاقية المثلى عرفان الجميل ، ولذلك
قالوا في الذي يسيء إلى من أحسن إليه : « كل شيء

تزرعه وتقلعه إلا ابن آدم ، تزرعه فيقلعك » .

اما المحافظة على العرض فرأس مكارم الاخلاق
عندهم . قد يقتل الرجل أمه أو أخته ، وقد يتحمس
شباب القرية فيقتلون واحدة اساءت السلوك ، حفظاً
لكرامة الضيعة ، لئلا يقال : في القرية الفلانية بنت
أو امرأة عينها شاردة . ولهذا لا يسمحون للبنت
بالاختلاء بمن يميل إلى تزوجها . وفي ذلك قال مثلهم :
« اربط ايدك مليح تستريح » . والبنت ينصحها مثلهم
بقوله : « عشيقك لا تأخذه ومطلقك لا تردّيه » .
وإذا ماتت لهم بنت قالوا : « ماتت حرة ووفرت صرة » .

اما العلم في القرية فمنتشر جداً ، وهم قديمو العهد
به ، فحد كل معبد مدرسة صغيرة تعلم القراءة
والكتابة حتى يندر أن ترى أميين في القرية اللبنانية ،
وقد أضيف اليها حديثاً مدارس حكومية ، وديورة
كثيرة استحالت مدارس عالية نشرت الثقافة منذ
مئات السنين .

لِيَا لِي الْقَرْيَاتِ وَمَكَا سِمَهَا

أشرنا إلى تعب القروي وكده ، في نهاره . ولا بدّ
لنا من الإشارة إلى لياليه التي يحببها ليرفّه عن
نفسه ، وهي تكون دائماً صارخة حافلة بالأغاني ،
لأن كل ما في هذا الجبل يغني ، العامل يشتغل ويغني ،
والحارث يغني خلف فدّاته ، والمكاري يغني وراء
بغله وحماره ، والراعي يغني ويترنّم وينفخ في مزماره
وشبابته ، فيفرح قطيعه وسامعيه . ولا عرس ولا عيد
ولا مولد ، بدون غناء وشعر ، حتى يصح أن نسمي
لبنان : جبل الزجل ، فقلّما عجز عن قول الشعر
العامي ، أحد . وهذا الشعر يتناول جميع أغراض
الشعر من غزل ، ومدح ، ورثاء ، وحكمة ، وحاسة ،
ومسرحيات ، وملاحم ، وفكاهة ، وهجاء ، ولعلمهم
يتمازون بالارتجال كما سيأتيك الخبر .

. . .

ليس للقرية مسارح ومقاهٍ ، فسرّح القرية ومقهاها بيت

وجيه الضيعة ، ولذلك قال مثلها : « الذي يعمل
جمالاً يعلّي باب بيته » . ففي ليالي الشتاء السوداء ،
يلتفون حلقات حول نيران موقده ، ويشربون
القهوة ويأكلون النقل البلدي ، من تين مجفف ،
وجوز ، ولوز ، وزبيب ، وغير ذلك من الفواكه
المحفوظة . ويغنيهم ، صاحب الصوت الرخم منهم
العتابا والميجانا والمواليسا وغيرها وقد تشارك المرأة ،
في هذه الاغاني ، رجال الضيعة وشبابها كما تشاركهم
في تلك الأهازيج المحلية اللون .

ويطيب للقرويين أن يسمعوا اغاني الفروسية
واقاصيصها ، فيصرفون قسماً من السهرة في سماع
إنشاد قصة « الزير أبو ليلى المهلهل » ، فتعجبهم
أخباره وحوادث فروسيته ، ويطربون لأفعاله
العجيبة ، وعندما يترنم المنشد هاتفاً بقوله :

وأول قولنا نستغفر الله إله العرش لا رب سواه
تطرب النفوس وتخشع لذكر الله حتى في مجال الهزل .

وتمشي القصة حتى تبلغ قتل الزير للسبع :
فرد السبع نحوي يا ابن خبي
فتح تمه ومد لي يده
فضربه بسكيني قتله
وقع مطروح من فوق الوطاه
فتتعالى الأصوات ، وقد أعجبتها هذه البطولة
الرائعة . ثم يرون بالحكمة المنشورة في ديوان الزير ،
فيعجبهم قول المهلهل :
جبال الكحل تفنيها المراد
وكثر المال تفنيه العدا
واما الكذب هو راس المعاصي
والكذاب لا تقعد حده
وفي بيت وجيه آخر ينشد المغني شيئاً من قصة
عنتره ، وفي ليلة أخرى يسمعون فصلاً أو فصولاً
من تغريبة بني هلال ، فيتمثلون الزناتي خليفة ،
ودياب ابن غانم ، وابو زيد الهلالي ، وهكذا دواليك .

وتتعالى الاصوات بالهتاف حين يقول ابو سعدى :
يا سعدى انا اكره دياب وذكره

كما تكره الخالة ولاد رجالها
وإذا كان هناك من تزوّج أبوه غير امه ، كان
الرمز والایماء - وقد تنتهي السهرة الى شجار ، ولكن
خارج بيت الوجيه أو الزعيم لأن لبيته حرمة لا تنتهك .
وفي ليالٍ آخر ، قد يتسلّون بحكايات أحبها الى
نفوسهم ما كانت حافلة بالغريب العجيب ، كحكايات ألف
ليلة و ليلة . والحكواتي يمثّل لهم الحكاية وحده ، فهو
يتقمّص كل شخص ويحاكيه . وقد ينتقلون الى الحزازير ،
وهي الغاز وأحاجٍ يعملون أفكارهم في حلّها .

وقد يقومون بالعباب مضحكة مثل «زي عروستي» ،
و«إجعل مخزنك عبك» ، وغيرها من المضحكات الساذجة
المسلية حقاً .

هذا في السهرات العادية ، أمّا سهرات المناسبات
الكبرى كالولادة والأعراس ، فتعد من ليالي العمر .

فإذا ولد لرجل مولود ، حملوا اليه الهدايا من سكر ،
ورز ، وبن وصابون ، ودجاج . وأبو المولود يقوم
بواجبهم ، فيقدم لهم الخمر الجيدة ، والعرق اللبناني
المشهور ، ثم يعيد المآدب فيأكلون ، ويشربون ،
ويسمرون ، ويغنون داعين للمحروس بطول العمر .
أما في الأعراس فتظل الاجتماعات تعقد في بيت
العريس اسبوعاً بل أكثر ، إذا كان الذي تزوج من
أصحاب اليسار .

في تلك الساعة يشرب الناس ويغنون العتابا ،
والميجانا ، والمعنى ، والقرآدي ، والأغاني المختلفة ،
ويرقصون رجالاً ونساء رقصة الدبكة على نقر
الدفوف ، وعزف الزمار ، وقد ينتهي بهم السكر إلى
المشاجرة ، بل إلى سفك الدماء والقتل .

وللأعياد عندهم أهمية كبرى ، فهي سوق مفاخر ،
وخصوصاً عيد قديس الضيعة حيث تستحيل القرية
إلى مطعم عام . فكل واحد من القرويين يستعد

لذلك اليوم ، ويدّخر له خير محصولاته ليقدّمها إلى ضيوفه ، فاللبناني القروي كريم مضياف ، والقرية لا مطاعم ولا مقاهي فيها ، ولذلك ترى القروي مستعداً دائماً لاستقبال الضيف الطارق ، وخصوصاً يوم عيد القرية . ويرى كل واحد انه من الغبن أن يقصر عن جاره ، فتراهم يتنافسون في هذا ، ثم يتفاخرون بعد ذلك بكثرة ضيوفهم ، فمن كان أكثر ضيوفاً يكبر في عين القرية . وعيد قدّيس الضيعة سوق عكاظ بل يفوق سوق عكاظ بالشعر المرتجل الذي يتبارى فيه الشعراء المقبلون من كل ناحية لإحياء هذه الليلة ، فيبنون شعرهم على وزن واحد وقافية واحدة ، ويكون خطاب وجواب . يبدأون عادة بمجادلة بعضهم ، وينتهون أخيراً إلى التهاجي الذي يسمّيه شعراء القرية قول جفا ، وفي مثل هذا الموقف كثيراً ما تجري اقوالهم على افواه الناس مجرى الأمثال ، كقول احدهم لمناظره :

لا البطيخ بيكسر سيخ ولا الملفوف ينلوي سيوف

وقد تطول الجلسة ويضيق الحرف ، أي القافية ،
فيلجأون الى قافية جديدة .

والقرية ، كما تغنى وترقص في مواسم الأفراح ،
كذلك تفعل في المآتم والمناحات . وقد يستحيل المآتم
الى عرس صارخ حافل بالغناء المحزن إذا كان الميت
شاباً أو زعيماً كبيراً أو أميراً ، فتأتي كل قرية حاملة
ببرقاً ، ولكل قرية يبرق خاص . وتسرح الخيول ،
ويتبارى شعراء القرية في تعداد مآثر الميت وتمجيد
أعماله ، ولو كان غير مستحق ، وتطلق العيارات
النارية ، فتخالك في فتنة صارخة أو في ساحة حرب .
وكثيراً ما يثقل الدين البيت إذا مات منه أحد ،
لأن المبالغة في أبهة المناحة كثيرة التكاليف .

ان الغناء هو الهيكل العظمي في جسم القرية ، وقلماً
يخلو مجتمع منه . ففي كل مناسبة يرفع القروي عقيرته مترنماً .
طبعاً إن أغاني الفرح هي غير أغاني الترح ، وكى نعرف
القاريء بها سننقل نموذجاً من هذا الشعر الشجي الباكي .

ان أغاني المآتم نوعان ، نوع تقوم به الرجال ، وهو
ضرب من الحداء بلحن كثيب ، ونوع تقوم به النوائح ،
أي النساء الناديات ، وله إيقاع غير إيقاع نذب الرجال .
فمن نذب الرجال قولهم في وجيه ، عالم بالشرعية ،
أي محام :

انهزت أقطاب العوالي وانكسف قطب الشمالي
.....

يا جبل عالي وراسي يا مطفطف عالكراسي
كيف حالو بعد منك رسم قانون الأساسي
.....

خزقوا روب المحامي وسكروا باب الشرية
أما نواح النساء فمن نوع آخر ولحن آخر ، وهذا
نموذج منه :

بو شاهين يا بعدي ويا بو شارب الجمدي
وعدت شاهين بالرجعه ورحت وطابت القعدي
والقرية لا تخلو من المهازل أيضاً ، فهم يلجأون
اليها في أيام خاصة ، نذكر منها مثلاً ، « اثنين الراهب »

وهو أول يوم من الصيام ، فتخرج القرية بعد الظهر
لاستقبال الراهب . كانوا فيما مضى يخرجون إكباراً له
وإجلالاً ، وصاروا اليوم يثقلونه مهزلة ، فيركبون
شخصاً ، مرتدياً ثوب الرهبان ، وله لحية عارمة ، على
الدابة ، بالقلوب ، أي وجهه لجهة ذنبها ، فيقودها
أحدهم والجمهير تتبعه ، فيطوفون به في الأزقة
والدروب هازئين ساخرين .

وهناك أيضاً يوم البربارة ، فهو أشبه سخرية بيوم
إثنين الراهب . ولا بد في الحفلاتين ، بل في كل حفلة
قروية ، من الغناء . وهكذا يغنون في يوم البربارة
طائفين على أبواب الأجاويد ، فمن أعطتهم وجادت ،
غنمت المدح ، ومن بخلت كان حظها الشتم .

هيلجي برباره والقمح بالكواره
هيلجي هيلجيننا أيش ما كان عندك اعطينا
...

شيحه فوق شيحه صاحبة البيت مليحه
...

خليه فوق خليه صاحبة البيت نوريه
وقد لا تنتهي هذه المواسم على خير .
أما المرفع فهو موسم سكر وأكل لحم ، وزواج .
يعلف القروي كبشاً ، أو قرقوراً ، أو جدياً ، أو
تيساً ، يسمونه مرفعية ، ويأكلونه خلال أسبوع تنتهي
مدته بيضاء الصوم . وإذا فضل عنهم شيء قدّوه
وحفظوه ليوم عيد الفصح وما بعده . إن هذه العادة
قد أذنت بالزوال ، وأراحت القرية من حوادثها الدامية .
أما الأعراس فتكثر في هذه الفترة ، لأن الكنائس
الشرقية لا ترخص بالزواج زمن الصوم .
وأخيراً ، إن عادات القرية وتقاليدها وثقافتها
التي تعرب عنها أمثالها وأغانيها ، تضيق عنها المجلدات .
وما دامت القرية الواحدة تعرف ما لا يقل عن خمسة
آلاف مثل ، والألوف المؤلفة من الأغاني ، فكيف يمكن
أن توصف في كتاب واحد ؟
فسبحان من عدد مظاهر الثقافة ، وشكرآ له .

اللهجة العامية
البنانية

كنت ، ولا أزال ، وسأظل ، عدو الاثنين :
الداعي الى إحلال اللهجة العامية محل اللغة الفصحى ،
والقائل بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية .

كلا الأخوين أضر من أخيه ، أجهل هؤلاء الدعاة
ان لكل جيل من الناس لغتين ؟ لغة يجري بها القلم ،
وهي مادة الكتاب ، والكتاب سجل المدينة الخالد ،
ولغة تدور على الألسنة ، وبها تفاهم الأمة المختلفة
الأقاليم ؟ أذكر ولا أنسى أبداً أن واحداً من بني عمي
تزوج اميركية وجاء بها اليها ، فحاول أحد طلاب
المدارس أن يحدثها باللسان الانكليزي ، فلم يفهم عنها
ولا فهمت عنه ، إلا : « ريس وأوريت » ،
وغود مورني ..

وزارني ، منذ أعوام ، مراكشيان فما تفاهنا إلا
بالفصحى . وأذكر مرة أخرى أن أحد المهوسين

باللهجة ، قرأ لي محاضرة كتبها بلهجتنا العامية ،
متوقفاً مني ثناء طويلاً عريضاً ، فقلت له هذه الكلمة:
خطابك جميل ، إلا أنه يحتاج الى ترجمة ، فاحمرّ وجهه.
وبعد ، فقد تكون لهجة لبنان العامية أنقى اللهجات ،
وأقربها الى الفصحى لانكاش اللبنانيين وتقلّصهم في
جبالهم الوعرة ، غير المرغوب باستيطانها . هذا ما كان ،
أما ما سيكون فن يدري ؟ ان سهولة المواصلات ،
ومطامع الشركات ، والمهاجرة من .. وإلى ، قد تؤدي الى
إفساد لهجتنا ، والله أعلم .

إذا سمعت لبنانياً يقول للخادم خدمتشي ، فاحكم
حالا انه غير جبلي . فعلى ألسنة اللبنانيين تدور
تعاير قرشية النسب لا تحصى ، وإليك بعض ما
يحضرني منها : « قطعنا له ثياباً » . « من كل فج عميق » .
« أساور من ذهب » .. « لولا كلمة سبقت » . « اسم الله
عليه » . « لا تقع السماء على الأرض » . « ما هذا إلا
بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم » . « سبق عليه القول » .

ان هذه التعابير من كلامه تعالى ، ولساننا يجري بها حتى الساعة ، فاللبناني لا يعرف مضغ الكلام ، وقلما رأى في ضيعته الأعجام ، وإن مرّ بها واحد فكسّر السحاب . اجتمعت في أخريات هذا الصيف بمحمد الأمير ، أمير بني ربيعة ، فقال لي : ان لهجة لبنانكم أقرب اللهجات الى لهجتنا ، واننا نفهم عنكم اكثر مما نفهم عن سواكم .

نعم ، ان ابتعاد اللبناني وانفراده ، حملاه على أخذ مسمياته من أفعالها ، فقال : فلاح ، وفاعل ، وأطلق على القَدِّ ، الذي تُشدُّ به الحلقة الى النير ، اسم «الشرع» . تأمل ما أجمل وأدل هذا الاسم على ما يعدل به الفلاح بين ثوريه ، فلا يُحمَلُ واحداً منهما فوق طاقته . وهو يسمي الأداة التي ينكز بها الفدان «مسّاس» لأنه يسُّ بها مسّاً ، ففي رأس المسّاس نصل كنصل الرمح ، والمسّاس رمح الفلاح ، وساحة طعانه حقله . أما الآلة التي يضرب بها ضرباً فيسميها

« صاموطة » ، وكأنه اشتقها من السميت ، ومعناه
الخط الذي يريد أن يرسمه .

لم يدع قدمائنا ، حتى المتأخرون منهم ، هذا النهج
في مسمياتهم ، فقالوا : « أبو الركب » في حمى الضنك ،
أما اليوم ، فأخذ بعضنا يقول : كورب ، ومكورب ، من
كلمة كريب ، أي مصاب بالرشح . كان القدماء ، إذا
تعذرت عليهم التسمية ، لجأوا إلى المجاز ، طابعين على
غرار جدودهم ، يسمون الشيء باسم جزء منه ، فقالوا :
« لستيك » لنوع من الأحذية .

ومن هذا الطراز قولهم لمن رأوه في بجران
وسهو : « مسطول » ، وقاعد مثل السطل ، « لا يهش ولا
ينش » ، ويقولون للخفيف الرأس : « مشتول » . وعلى
هذا الغرار قالوا للقصبتين المضمومتين « غنَّيَّق » لأن
غنقهم ينتفخ عند النفخ للغنَّاء بهما . أو يسمونها
« قصب » باسم جنسها ، كما يقولون للمريض « ساخن »
من السخونة . ومن تسميتهم الحسنة قولهم : « كف

ورق ، ، الخمس طلاح . ويلفظونها « طراحي » .
ويقولون « حص توم » وفي الحص لغوياً معنى الكثرة ،
ويسمّون أحد أجزائه « سن توم » لما بينه وبين السن
من تشابه . ويعجبني منهم نهجهم في الأسماء والألقاب
والكنى نهج العرب ، فلقّبوا واحداً « الصبح » وهو
أكمه ، وسمّوا آخر « العيوق » وهو يكاد يكون مسخاً .
وكنّوا رجلاً « أعشى » بـ « أبو ضو » كما قال العرب :
« أبو بصير » . وأرى أيضاً في تسمياتهم ذوقاً مرهفاً
حين يسمّون النونة والفحصة « غمّازة » ، وهي نقرة
تبدو في الخدين عند الابتسام ، وكأنها تغمز . ويعجبني
أكثر من ذلك هربهم من الحروف الثقيلة كالذال ،
مثلاً ، فإما أن يلفظوها دالاً ، أو يحذفوها بالكلية ،
فيقولون للماهر في مهنته « أصطا » بدلاً من استاذ ،
وللساذج « سادا » رادين هذين الحرفين إلى أصلهما الفارسي .
قال أحد المتشرقين : إن أهل لبنان يلفظون
الذال دالاً فصدّق ، ولكنه مثل على ذلك إذا ،

فضل كعادة زملائه ، فليس هناك لبناني يقول إذا .
ان العوام ، وخصوصاً اللبنانيين ، أعداء كل حرف
ثقيل ، فأكثروا يلفظ القاف همزة ، كقولهم : « أسكت
باي » وهم يحذفون الهمزة حذفاً كاد أن يكون اجمالاً
فيقولون : « جا ، وجابي ، وجينا » . وإذا سمعت لبنانياً
يعكس همزة جاء ويقول : « إجا » ، فاعلم انه غير جبلي أصيل .
ومن خصائص اللهجة اللبنانية النحت والقلب
والإبدال ، ولنقل الاختزال واللزّ ان صحّ التعبير .
فيقولون : « أيوّه » ، في اي والله ، و« إسا ولسا » ، في
الساعة والساعة . و« هلق » في هذا الوقت ، و« بدّي » ،
بدلاً من بودي . و« أيشو » ، في أي شيء هو . وفي
الشوف يقولون : « شو » بدلاً من أيش . أما من يقول
« شونو » فتحدّق . ان اللهجات في لبنان تختلف
باختلاف الأقاليم اختلافاً جزئياً ، ومن اختلاف اللهجات
نعرف الأقاليم . ومن اختراهم قولهم : « تعانا ناكل » ،
أي تعال حتى ناكل . و« هو » بدلاً من هؤلاء ، كقول

الخادمة : « بدي كَنس هَو » ، أي بودي أن أكنس هؤلاء . وكقولهم : « أينو » ، في أين هو ، و« هيك » في هكذا ، و« ليك » في إليك . ويلحقون بها الهاء فيقولون : « ليكو » أي اليكه ، و « ليكا » أي اليكها ، و « ليكن » أي اليكهم واليكهن . وعلى نسقها تجري « مَعلَيك » أي لا عليك .

أما الضم المشبع في عين المضارع وغيرها فمردّه الى اللغة السريانية التي طلقوها منذ قرنين أو أقل ، وهذا الضم أشيع ما يكون في شمالي لبنان . وهانحن نصفّي حساب السريانية دفعة واحدة . يقول لك اللبناني الشمالي ، وسيّان في ذلك المسلم الطرابلسي ، والمسيحي الاهدني : « طُرابليس » ، « صابُون » ، ويقول : « نُحْنَا » ، أي نحن ، فكانهم يردونها الى أصلها السرياني إحنّا ، مستبدلين النون بالهمزة عدوتهم . وبعضهم يلفظها على حقّها السرياني إحنو ، ويقولون : هَيدي ، أي هذي هي ، فكانها من هودي السريانية . وعندما يقولون

هَيْدُ فهي ترخيم هُودِي السريانية . ويقولون : هاي،
أي تلك ، فكانها هُي السريانية ، ويناديك أحدهم :
هو ، بدلا من ها العربية ، فكانه يردها الى هُ
السريانية . وتحويل الدال ذالا هو من نوع رد الألفاظ
الى سريانيتها ، فيقولون : حِدَا في حذاء ، وحدوة في
حنوة . ويحولون أيضا الضاد دالا فيقولون : ركد في
ركض ، وأحيانا يلفظون فيلفظون الصنارة سنارة ،
وبعكس ذلك يقولون قصمة في قسمة . اما الابتداء
بالسكون في كسروان والشمال ، فآثر سرياني ، يقولون
حديد ، حليب ، سليم . وقولهم إيدين في يدين ، وإيد
في يد ، سرياني أيضا . وكذلك قالوا ابهاتنا في ابائنا ،
وبسببها تندروا على الكهنة فسمّوهم أب هات . وكذلك
يلفظون الكرسي كورسي بالضم العنيف لأن سريانيها
كورسيو . وكثرة النون في اللهجة اللبنانية مصدرها
سرياني فقالوا : هنّي بدلا من هم ، ويقولون ضربتن
قتلتن ، وكيفن أهل البيت ، بدلا من كيف هم ، فميم

الجمع العربي نون في السريانية .

يقول لك الشمالي إلو بدلا من إلا ، وهي آلو السريانية . ويقول بعضهم أيمآت ، وأيمتآن ، وأيمتتي ، وهي بلا شك من آمات السريانية بمعنى متى الاستفهامية . وأظن ، لا بل اجزم ، مخالفاً الباحثين جميعاً ، ان لفظة « كمان » العامية بمعنى أيضاً هي « أكنن » السريانية ، حذفت منها الهمزة . وقول المكارى اللبناني لدابته : هش ، هو من هوشو السريانية ، وهي بمعنى الآن . وكذلك قولنا برأ وجواً فيها لفظتان سريانيتان .

ولا يزال الشمالي حتى اليوم يلفظ ، لا ، بالضم كما هي في السريانية . وكذلك يلفظون يه ، بمعنى إيه . ويلفظون ما يينام بضم النون ، ويقول لك مروق أي مر ، ونظموه أي نظموه وهما سريانيتان . أما وقد شبعنا من هؤلاء ، فلنعد الى الهمزة . ان عداوتها حملت اللبناني على استعمال الصيغة السريانية

فقال بلاع وزراع في ابلع وازرع ، وهما سريانيتان ،
وقاسوا عليهما الأفعال العربية فقالوا : دفاع وقطاع ،
في ادفع واقطع . ويقولون منعطوف عليه ، وهو
مضارع سرياني بلفظه ومعناه . ومن نوع هذا الضم
المشبع قولهم ضروب ، في اضرب ، وكذلك يلفظون
نُاطور بضم النون لأن أصلها السرياني ناطورو .
وتقابل عداوتهم للهمزة صداقتهم للنون فيقولون مريم
في مريم ، وانتلا بدلا من امتلا ، وعلى قاعدة العرب
يلفظون النون ميا إذا تقدمت الباء الساكنة فيقولون :
شو هو ذمي ، أي ذني ، وإذا تحركت هذه النون
لا تلفظ ميماً .

ان هدف العامة هو الخفة ، فالين الحروف أحبها
اليهم ، وقد أدرك العرب ذلك فجعلوا النون الناعمة
لجمع الجنس اللطيف ، أما احتجاج سيداتنا وطلبهن ،
ان يخاطبن بالميم ، ففي غير محله ، فليدعن الميم لأصحابها
وحسبن النون .

وقد أدت عداوة العوام للهمزة الى استعمال الباء بدلا منها فقالوا : بدرس ، بنام ، بلعب . اما قولهم عمبنام فهي اختزال عمال بنام ، ويقولون : منضرب عند التقاء الباء والنون ، وهم يستعملون الميم أحيانا بدلا من ال فيقولون مبارح ، ومبارحا في البارح والبارحة . وبعضهم يقول منيح في مليح ، وفي بعض نواحي لبنان يفكّون ادغام منّا فيقولون مننا .

وكما يختلف معنى اللفظة الواحدة عند قبيلتين عربيتين كذلك حصل عندنا ، فعنى عيّط في فلسطين بكى وانتحب ، أما عندنا فعناها صاح وعربد . وكذلك بسط فإن معناها في العراق يختلف عن معناها عندنا .

والهاء عدوة العوام الثانية فيقولون : عطيتو بدلا من اعطيته ، وكذلك الميم في مواضع ، فيقولون أنتو بدلا من أنتم ، وقد يقلبون الهمزة ياء ليخزوا عجرفتها وتصدرها الابدية فيقولون نكاية بها : خد هذا يما هذا . ويقولون : لمن بتجي ، حبا بنونهم الموروثة .

وحباً بالضم الموروث أيضاً ، يقولون : هون وهونيك في
هنا وهناك . ويقولون : هو فلات ، أي لهجة فلان .
وأظنهم اشتقوها من اللهاة هرباً من ضخامة الجيم .
ولفظ التاء ثاء كثير عند عامتنا ، يقول لك المعاز :
عندي تنيّه ، وتنيان ويوم التنين ، في ثنية وثنيان
والاثنين . ويلفظون الظاء ضاداً ، فيقولون : ضلّ على
رايك ، أي ظل ، ولكن هذا لا يطرد كما يطرد في
الذال والتاء . ويفضلون مرق على مرّ فيقولون دَوْبُو
مَرَقْ ، أي دأبه مرّ . والبعض يقولون : مهنّس
بدلاً من مهندس . وهم يحذفون ما يستثقلون ، فيقولون
زيرة بدلاً من جزيرة . وللخفة ، يلفظون التاء المربوطة
ألفاً ، فيقولون : صورا ، وغندورا . وأحياناً يثقلون
فيقولون : ماضام ومضاليه ، في مدام ومدالية ، ويقلبون
هذه التاء ياء ، فيقولون : شوكي أي شوكة . وحيناً
يقلبونها ألفاً ، فيقولون : من أياً جها جيت .

وهناك قلب آخر في مثل قولهم : « جوز ، ريلّا ،

إجر ، في زوج وليره ورجل . وقد يزيدون حرفاً
للتكبير فيقولون : رجال ، ويصفرون فيقولون يا
خيي ويا خيتي ، في يا أخي ويا أختي ، ومن تحريفهم
قولهم : ضم أو تم أو ضل عندنا ، أي ابق . ومن اختزالهم
للاستفهام عن الثمن قولهم : بقديش ؟ أي بقدر أي شيء .
ومثلها لاش وماش وبلاش ، أي ما شيء ولا شيء وبلا شيء .

وأغرب ما سمعت هذا التحريف : شمس ، ظرص
زوز ، أي شمس وجرس وزوج . كما يقولون يا ريتو
بدلا من ياليتة . ويحرفون كلمة فم فتصير تم ، ويقولون :
سد تمك أو بوزك ، وبوز سريانية مستعربة . وكذلك
يقولون : مهبول ومبهول وبهله . ومن تليينهم قولهم
بيدي يحكي أي بدأ يحكي . ومن ادغامهم ولزهم وصرهم
ما يفعلونه باسم الموصول فيقولون : إلتي ضرب ، ثم
تصير ال فيقولون : مين إلضرب ، وهذه المين والمالان
سريانية . وهم يكتفون أحيانا بالهاء فقط عن هذا
فيقولون : بتروح تقول لفلان يجي لعندي . ويتركون

الباء فتصبح الجملة دعائية كقولنا : الله يحفظك .
وتذكر الباء فتصير خبرية كقولنا : الله ييحفظك .
ويستعمل عوامنا كالعرب كلمات لا معنى لها
فيقولون : كان بان ، أو كان مان ، وخبز ميز ، كما
قال العرب : حسن بسن ، وحيّاك الله وبيّاك .
وهناك من ينقل حركة الحرف الموقوف عليه الى
ما قبله فيقول : كنت عند بكر . وتختلف حركات
بعض الكلمات باختلاف الأقاليم والقرى ، فمنهم من يفتح ،
ومنهم من يكسر ، ومنهم من يضم ، فيقول بعض
البيروتين : فهمت علّاي ، ويقول غيرهم : فهمت علي .
وقد دخل مؤخراً بعض الفاظ فرنسيّة وانكليزية
لا داعي الى ذكرها كما دخل قديماً الفاظ مثل كندرّه ،
وبوط ، وسكريينه ، أما مشايه فاشتقوها من المشي .
ومن شاء أن يتعرف جيداً الى اللهجة اللبنانية فليقرأ
جرائد الزجل التي تكتب باللهجة اللبنانية الأصيلة مثل
مرقد العترة ، وليصغّر كل يوم الى ما يذاع من المحطات المختلفة .

الشَّعْرُ الْعَامِي
اللبَّانِي

في هذا الجبل موسيقى داخلية لا تنقطع أبداً ،
موسيقى بعيدة القرار ، عذبة الهينة . فمن غابة
تَوْشُوشٍ وَتَهْمِيمٍ ، الى وادي يترنم ، ومن نهر
يثرثر ، الى كهوف ناطقة كالنبغاء ، أنغام أجراس
كبيرة وصغيرة ، منها ما يتارجح في القباب ، ومنها
ما ينوس في الرقاب ، رقاب الدواجن على اختلاف
أنواعها ، رنات تحيا وتموت رويداً رويداً ، موسيقى
أبدة لها طعمها ولونها ، لا تطفر على الندى حتى
تهبط الى الأودية ، فتتغلغل في ثناياها قاطعة طريقها
الى اللانهاية .

اللهم رحماك ! لقد استيقظ مارون عبود العتيق ،
ولكن ما يضر ، فلنمض في أسلوب هجرناه
وتنكرنا له . إن لكل شيء في لبنان موسيقاه الهائلة في

منعطفاته ، التائهة في التواءاته ، المندسة في الآبار والهوى .
الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والانسان ،
يتعاونون في لبنان تعاوناً لا تشوبه السياسة ، فيؤلفون
جميعاً موسيقى لاهوتية ، توقظ الناسوت الكامن
وراء اللاشعور .

إذا استيقظت في لجة الليل فلست تظفر
بسكوت تام أن كنت ممن يسمعون . لا بد من
شيء يناجيك فتشرئب حواسك الهاجعة ، وتثور
عاطفتك المهومة إذا كنت لشيء آخر في الليل تسهر .
أشباح وهمسات تهبط مع الندى ، وضبابات تسربل
القمم فتعممها ، فتهم وعليها أبهة المحرم وجلاله ، ثم
ترتفع محتشمة ، جارة أذيالها بوقار لتتحول في الأعالي
صوراً وتمائيل لا عيب فيها غير أنها لا تدوم .

أما الفجر الرمادي فيصب في نفسك ذوب ترانيمه
وطيوبه فتسكر ولا تفيق ، حتى يقبل القرص
الذهبي فتخاله في متناول يدك ، لو تطاولت قليلاً .

إن الشمس في معظم القرى اللبنانية ، وخصوصاً
في ضيعتنا ، قريبة من الناس ، فنحن وهي في مناجاة
أبدية ، لا تباعدنا إلاّ إذا اعتدل ميزان النهار ثم
تعود إلى الدنو منا لتودّعنا ، ولكننا لا نلتقي ،
فكاننا طفلان يلعبان على رمل الأبدية ولا يدرك
أحدهما الآخر .

أما أعراس لبنان فكثيرة . هنا راع ينفخ
في شبّابته أو يرقص أصابعه على حجرات قصبتيه
المضمومتين ، وهناك مكارٍ يزجر بالعتابا ، ويترنح
بالميجانا والمعنى والموالي والروزانا واليادي اليادي على أيقاع
أجراس بغاله وجلجل مركوبه . وفي هذا المنحنى
إمرأة تنتجع لأهلها الهندباء والخبيزة والقرصعني
والحمّاضة والكراث وهي تنسوح على فقيد عزيز .
وإذا قعدت في بيتها تنقي القمح والبرغل من
الزوان والشيلم غنت طروبة ولسان حال سامعيها
يقول : « خليها تنقي وتنقي ، ولا تسلق وتنسوح ! »

حتى اذا ما بكى صغيرها هزّت له السرير وغنت
موتة صوتها لينام على سرور :

نَمْ اللهُ يا عيني وعينك عز من عيني
وعينك عز من حبه وحبه جوات جنيني

يا الله ينام ويالله ينام تدبجلو طير الحمام
يا حمامات لا تصدقوا عجبضحك عابني تاينام

الله الله يا دايِم تحفظ عبدك النايِم
الله الله يا الله ابني يحفظه الله
ابني يحفظه يسوع والعضرا تحفظه يا الله
وهناك فتاة سمراء ترقص حول أهدابها مرده
الأنوثة ، وتسبح في بركتي عينيها جنيات الهوى ،
وقد هاجتها الذكرى فرفعت صوتها العذب بأناشيد
جبلية ، كأنها أغاني الساروفيم حول عرش الراكب
على الكارويم ، صاحب الحول والطول .
وهناك خطاب يوقع أبيات «القرآدي» على

ضربات فاسه فتعاضد الاصوات وتتحد فتخلق
موسيقى الغاب ، ويهب الصدى إلى نجدة الاثنين فيسبح
السامع في عالم الاحلام والخيال ، وإذا شعر أن هناك
من ينصت إليه انتخى وعرض صوته بلسان شاعر
الضيعة ، أميل مبارك :

بتسألني شوفي عندك	بالضيعة حتى مهم
عندي أحسن ما عندك	عندي بسط وعندك هم
عندي البيت الربانسي	والمعبور وكرم الدرب
وعندي قدح و صواني	والضبوة وتتنات الفرغ
في عندي القعدي بكير	تحت صنوبر ضيعتنا
وترويقة قرّة وجرجير	بتسوى الغري وعيشتنا
عندي خلف البيت جبال	بتفسي عا عريشتنا
ويا ما فيها اصطدنا حجال	ويا ما سرحت عزرتنا
ويا ما عيينا السلي	تين أسود من تينتنا
ويا ما لعبنا عا التلي	نحن وبنات جارتنا
وإذا مررت أمام هيكل سمعت الحان الكاهن	

التائهة في حنايا الكنيسة وسراديبها ، الشّمس يوقع
ضربات ناقوسه على ترتيله ، والخوري يرن ويعول ،
واذا كان القداس يوم أحد أو عيد كبير فهناك صنوج
ترعق وتفر أصواتها حتى تملأ الآبار العتيقة فتنتعش وتحيا .
ولا تنبس الاصوات الرخيمة التي تنشرها المآذن ،
انها تنتقل من سطح إلى سطح ، فتجتاز الأبعاد
والآماد حتى تلج أعماق النفوس ، فتطرب
وتهدي وتحيي عظام النفوس وهي رميم . سبحانك
اللهم كم جمعت في لبنان من جمال ، لو كان لنفوسنا
منه قسم وافر ، لكنّا خير بقاع الدنيا .

أما قال شوقي في لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بابهي منها ملكوته ؟
أجل انها موسيقى تصادفها أنى مشيت ، فالأوابد
من طير وحيوان لا تتوانى قط عن اقتناص الطرب .
وهي أيضاً ، كناس لبنان ، فرحة ، جذلة ، مرحة . فبينما
أنت ماشٍ تفكر ، إذا برفّ حجال يتكلم ، أو

يفر ، فترتعد وتبدأ بين حنايا ضلوعك موسيقى
قلبك الرّعاد ، ثم يناجيك حسون معتذراً عن اساءة
الحجل وفضاظته .

هذا عالم ما كنت تحلم به لولا أسراع ما في لبنان
الى نجدتك وتقلك إلى دنيا المعاني . لا شيء صامت
في الجبل ، فمهما حاولت أن تظفر بدقيقة صمت ،
فأنك لا تجدها أبداً إن كنت من المتأملين والملاحظين .
فكل ما في لبنان يوحى الشعر ، بل هو كله شعر
ازلي ، فسبحان الشاعر الأعظم ، ناظم هذه القصيدة
الخالدة . يكاد أن يكون كل لبناني شاعراً ، وما أشبه
اللبنانيين باخوانهم الاندلسيين الذين قالوا الشعر جميعاً .
إن للمحيط أكبر يد في إيقاظ الشاعرية الكامنة ،
وإذا كان للاندلسيين المكان ما كان والقوما ،
والدوبييت ، فللبنانيين العتاق : الميجانا « يا ماجانا » ،
وهلا بالورادا ، « أهلا بالواردة » ، والعتابا « العتاب » ،
والمعنى ، أي شعر الوجد والهيام ، وجميع أنواع

الزجل .

لقد حان لنا أن نغير هذا الشعر الطبيعي شيئاً
من اهتمامنا ، فشعراؤه يغنون لنا أبداً ، ونحن
صامتون لا نقول لهم : عاشت الشباب ! اتبنا معهم
ككافور مع ابي الطيب ، الشاعر يغني كل حين ،
وكافور يشرب ولا يدع في الكاس فضلة ...

عشتم يا اخوتي ، فانتهم شعراؤنا ، أن شعركم
منبثق من نفوسنا ، من قلوبنا ، من أعماق حياتنا ،
من ظلمات أوديتنا ، وثرثرات انهارنا وجداولنا ،
من أضوائنا وظلماتنا ، من عرازيلنا وخيامنا ، من
يقظة عجائزنا ، واحلام صبايانا . انه منسوج من
خيوط شمسنا الذهبية ، لمحة من رواء البنفسج ، وسداه
من خيوط القلوب ، وحياته الفنية من هواء هذا
الجبل المتصوّف ومائه . لقد زال تعجبي من تذوق
الرواة للشعر الجاهلي ، بعدما رأيت إعجاب الناس
بهذا الشعر العامي . فإعجاب الاعراب بالشعر القديم

مَنَاتٍ عَن شَعُورِهِمُ التَّامَ بِمَا سَمِعُوا . الشَّعْرُ الْجَاهِلِيُّ
مُنْبَثِقٌ مِّنْ حَيَاتِهِمْ وَمِنْ لَفْتِهِمُ الَّتِي تَصُورُ مُحِيطَهُمْ أَصْدَقُ
تَصْوِيرٍ ، وَمِنْ لَهْجَتِهِمُ الَّتِي تَرَسِّمُ لَهُمُ الصُّورَةَ نَاتِيَةً
بَارِزَةً . وَمَا الْإِلْفَازُ إِلَّا أَلْوَانٌ وَأَصْوَاتٌ وَأَحْيَاءُ
وَحَرَكَاتٌ ، عِنْدَ مَنْ يَحْسُهَا وَيَدْرِكُهَا . إِنَّ الشُّعُورَ
بِالْحَيَاةِ وَادْرَاكَهَا الْكَامِلَ لَا يَكُونَانِ تَامِينَ إِذَا عَبَّرَتْ
عَنْهَا بغيرِ اللُّغَةِ الدَّائِرَةِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ ، وَبِهَذَا يَثِيرُ شَاعِرُنَا
الْعَامِي النُّفُوسَ ، أَثَرَةً يَعْجُزُ عَنْهَا أَكْبَرُ شَعْرَاتِنَا
« الرِّسْمِيِّينَ » .

إِذَا أَنْشَدَ الشَّاعِرُ الْعَامِي قَصِيدَةً فِي حَفْلَةٍ تَهْتَرِ
الْمَقَاعِدَ وَالْكِرَاسِي استَحْسَانًا ، وَتَمُوجُ الرُّؤُوسَ كَالْأَغْصَانِ
تَحْتَ أَذْيَالِ النِّسِيمِ الْوَلْهَانِ .

إِنَّ مَا يُوحِيهِ الْبِنَا الزَّجَالُ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِّنْ مِّثْلِهِ
شَاعِرُ الْيَوْمِ الَّذِي يَسْتَوْحِي الْكُتُبَ وَيَعْبُرُ لِلنَّاسِ عَنِ
الْحَيَاةِ بِالْفَازِ يَدْرِكُونَهَا رُبْعَ ادْرَاكِ .

إِنِّي أَرَى صُورَةَ حَيَّةٍ ، نَابِضَةً ، رَاقِصَةً ، مَلُونَةً ،

في هذا الشعر ، ولهذا أراني أعيره هذا الاهتمام . قد
سبقت مني كلمة منذ أعوام حذرت بها الشعراء
الفصحاء ، وحششتهم على الدنو من الحياة خوفاً عليهم
من هذا الشعر النابض ، واليوم أرى أن هذا الشعر
قد استقام ، واستوى ، فامسى أدباً قائماً برأسه . صار
فنّاً له تعابير ، وصوره ، واستعاراته ، ورجاله ،
وخياله ، وتشابيهه وكنائياته ، وبديعه ، وسمحوا لي
أن أقول أيضاً : ووزنه ، وعروضه ، وأساليبه ،
فكيف نعى عنه ، اذن ، وكيف نتجاهله ؟

ألأنه غير معرب ؟ ألم يكن الشعر الجاهلي مثله
في ذلك الزمان ؟ يدهشني ما أراه من تطور سريع
في هذا الأدب الشعبي حتى كدت ألس مدارسه من
كلاسيكية ، ورومنطيقية ، ورمزية ، وهذا ما سنتحدث
عنه في قابل . فمن يفتش عن تاريخ عروبة لبنان ،
فليطلبها في هذا القول ، فهو ابن عم الشعر الفصيح
إن لم يكن أخاه . إنه شاهد عدل على حب هذا الوطن

لغة الضاد حتى تعاونت جميع طبقاته على إحيائها والإبداع فيها.
لقد ظفر هذا الشعر بجرائده الخاصة به ، بأنديته
وعصاباته . وله حفلاته التي تملأ النفوس طرباً ، وله
تناطح شعرائه حول الامارة . فهو شعر يباري شعرنا
الفصيح ويبرزه في الإيحاء ، لأنه منبثق من قلب الحياة
والواقع ، ويستمد خياله الحلو من محيطنا الذي ألفناه ،
والمرء على ما يآلف ، فأشد البنين حباً لوالديه أكثرهم
إلفة لهما ... وإلا فلا أبوة ولا أمومة ...

إن لهذا الشعر عباراته التي تخرج من أفواهنا
لتقع في نفوسنا ، وتؤدي لنا المعنى غير منقوص ،
وقد رأيت آفاقه تتسع ، وغايته تذهب إلى المدى
الأبعد . تنظم فيه الأقاصيص ، ويحاول تصوير الوقائع ،
حتى قطع أشواطاً مديدة في زمن قصير .

قال الجاحظ : « متى سمعت ، حفظك الله ، بنادرة
من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع أعرابها
ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بآث تلحن في

إعراهم وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ،
خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك
إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح
الحشوة والطعام ، فاياك وان تستعمل فيها الاعراب أو
أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً
سرياً ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من
صورتها ، ومن الذي أريدت له ، وتذهب استطابتهم
اياها واستملاحهم لها .

وانا ، إن خفت على هذا الشعر العامي من شيء ،
فلست أخاف عليه إلا من تفاسحه .

لا ، يا اصحابي ، اياكم ثم اياكم . اسمعوا نصيحتي وافهموا
ما يعنيه أبو الأدب ، أبو عثمان المليح الذوق والروح .
سوف أتحدث اليكم وعنكم ، وسوف أتناولكم بالنقد
فلا أبخل عليكم بالإطراء حيث يقتضي الحال . انكم
تقولون شعراً حياً ، من وحي مدرسة «تحت السنديانة»
ونعمت المدرسة هي ، وسيظل أشعر الناس منكم

ذاك الذي لا يبرح ظلها ليقعد بين أربعة حيطان...
وبعد ، فما أنا ببخيل بالثناء كما تظنون . ما
حاولت لذع الأدباء والشعراء إلا بقصد الإصلاح وعن
حسن نية : ولكن النقد مكروه كيفما دارت به الحال ،
والانسان يحب الثناء . ما جرحت أديباً أو شاعراً
تشفياً أو حسداً ، كما يتهم المؤلفون نقادهم . فانا لم أبغ
الا استقامة أدبنا العربي وتوجيهه توجيهاً متيناً صحيحاً .
فلبنان كان ، ولا يزال ، الخادم الأمين لهذا اللسان ،
وكذلك يجب أن يظل دائماً ، فلهموا بنا ، يا اخواني ،
الى درس أدبكم درساً يحلّه المنزلة التي أوليناها ادبنا
الناطق باللغة الفصحى .

تعوّد الناس ، كلما ذكروا أدباً ، ان يؤرّخوه ،
وهذا الأدب العامي أرّخه كثيرون ، وأحدث هؤلاء
كان صديقنا امين نخله حين قدّم لديوان أبيه ،
امير الزجل ، المرحوم رشيد بك نخله . ان تلك المقدمة ،
على قصرها ، كافية وافية ، وفيها تحقيق كثير . وأخيراً

ظهر كتاب نفيس للعالم النفساني الاستاذ منير وهيبه
الحازني الغساني . ضمّ هذا الكتاب تاريخ الزجل وأدبه
وأعلامه قديماً وحديثاً ، وقد اعجب الناس حين ظهر
عام اول ، فتنادوا الى تكريم صاحبه . ولقد استحق
الاستاذ وهيبه هذا التكريم مرتين : الاولى لأنه مؤلف
ملحمة « ياجوج وماجوج » التي اخرجت الزجل من نطاقه
الضيّق ، والثانية بمناسبة صدور كتابه « تاريخ الزجل » .
انني اهنيء الاستاذ وهيبه بكتابه ، وان كنت لا
أشايعه على كل ما جاء فيه كتأييد العامية تأييداً مطلقاً .
فأنا عدو هذه العامية بعفشها ونفشها . ولا احب ان
اسمع أن فينا من يدعو اليها في الأدب لأنني أخاف على
مجد لبنان الأدبي ان يتزعزع اساسه .

كنا مرة نفحص تلامذة البكالوريا في مدرسة
حوض الولاية ، ومدرسة حوض الولاية كانوا يقولون
انها عايبة ، فشرع سميّي الخوري مارون غصن ، داعي
دعاة اللغة العامية ، في ذلك الحين ، يتحدثني عن كتابه

الذي عنوانه « ما في متلوا الكتاب » ، فاحتمل الجدل بيني وبينه . كان رحمه الله كبير الهامة ، وقد عملوه منسنيوراً جديداً ، ولكل جديد بهجة ، فكبر الأزرار المحر ، وعرض الزنار البنفسجي ، وغلّ عنقه بسلسلة ذهبية ضخمة ، وحمل عصا كالنبوت ، فكان يخطب بها الارض عند كل جملة ، ولما خفت ان يغلبني بتهاويله ، استعنت بالنكتة فلبتني حالا ، كعادتها في الازمات . قلت له : على مهلك يا محترم ، يقولون ان هذه البناية مزعزعة فكيف تحمل مارونين ؟ فشمع ابونا الخيط ، وقعدنا نضحك .

ان في استطاعتنا ان نستعمل ألفاظاً وتعابير كثيرة دون ان تكتب بالعامية ، فهي أداة غير صالحة للنثر الفني . فالروعة الفنية التي تجدها في شعر « جلنار » ميشال طراد لا تجد شيئاً منها في مقدمته التي كتبها الشاعر سعيد عقل .

ان لبنان لم يبرز في الشعر ولم تكن له فيه مدرسة

الا في هذا الزمن ، اما زجله فتفوق على زجل ، جميع
الاقطار العربية . ولما كان لا بد من كلمة تاريخية ،
اقول ، انني قرأت في كتاب الزجل ، للاستاذ وهيبه
وغيره ان الناس يسألون من أين نشأ وكيف ؟ فالجواب
عندي ، بدون قيل وقالوا وزعموا : انه سرياني اللحن
في اول عهده ، وعربيه فيما بعد . فالزجل الذي يعرف
بالقرادي هو وليد أحد ميامر مار افرام ، الموجود في
صلاة ستار الاحد :

« شوبحو وهدرو وقولوسو
لا لو هو ايتيو شيحو
بريخ ابقروخ من اتروخ ،
على عطرو هونو ديسي
نسبعون خفني من طوييك ،
وسنيقه من بوسوميك ،
واخيراً نظم السريان البسملة على هذا اللحن
فقالوا : « أبو وبرو وروح قودشو » .

وعلى هذا اللحن نظم قدماء اللبنايين المستعربين
قصائد كثيرة ، ألهمهم إياها جهلهم الفصحى ، وشاعريتهم
المتوثبة . اما المعنى فحديث النشأة ، وليس معناه ، كما
زعموا ، من الغناء . انه المعنى ، اي شعر الحب ، بمعنى
لفظة المعنى ، التي عناها الشاعر بقوله :

إن شكوت الهوى فما أنت منا
فاحمل الصد والجفا يا معنى
قلت ، ان الزجل كان ، سرياني الوزن اولاً ، عربياً
ثانياً . فالمعنى ، من البحر الكامل ، كقول شاعر مجهول
الاسم منا :

بدت عد بيوت في شات الملاح
تشبه غصون النخل بايام البلح
يا قمر لولاك ما كان الفلك
خالقك مولاك تقمي للروح
الى ان يقول :

بدنا تكون مبسوط ، خلينا نموت ،
وناكل البلوط ، من بعد البلح

والنوع الثاني ، عربي الوزن ايضاً ، مثل :

نحنا تركنا الجهل وسلينا يا ضيم قلبي راحت علينا
يا عشير ان طالبت الايام ترجع تدور ما تلاقينا
يا عشير ان طالبت الايام عا فراقنا بتصير تتندم
يا مركب الي لو زمان ما عام ياو رابطو الرئيس على المينا
أما صاحبنا القس يوسف الصوراتي ، وهو من
شعراء بلادي ، فراهب خفيف الروح . طبع مرة عند
أحدهم علبة « كرت » وأراد دفع الثمن ، فتمنع صاحب
المطبعة ان يقبض منه ، فشكره ارتجالاً ، بقوله له :

ممنونك كتر خيرك طابعلي اسمي عاكروت

ان ابناء بلادي لم يدعوا لحنا سريانياً إلا نظموا
على وزنه زجلاً عربياً .

والزجلية التي نظمها الخوري نعمة الله القدوم
على عهد القاصد لودي فيكوس ، مشهورة جداً ، وفيها
من الالحان السريانية الكنسية اشكال وألوان كما سيأتيك .
وقد كنت مرة في دير قزحيا وحضرت صلاة

الخورس ، لأنني احب السريانية وصوفية شعرها ، فسمعت
الرهبان الشبان يلحنون صلاة « علمانو ندمخ شنتو » على
نغم : « عالزينو زينو زينو ، أسمر ومكحل عينو » ،
فضحكت ، وسألني رئيس الدير ، بعد الصلاة ، عن سبب
ضحكي ، فأخبرته ، فابتسم ابتسامة صفراء .

والعتابا التي يتفرد بها لبنان مأخوذة من العتاب
والميجانا ، منحوته من : ياما جانا ، كما قلنا ، ولا ننس
انهم نظموا ايضاً بالعربية جنازاً للعب الورق ، وجنازاً
للمهاجر الى اميركا . وأنا عندما كنت طالباً عملت
جنازاً للمطبخ في مدرسة ماريوحنا مارون ، فغضب
الرئيس ، واكلت قتلة مشبعة ، بحجة اني استهزأت
بالطقوس الدينية ، أما الحقيقة فهي اني هجوت المطبخ..

ان حديث ذكرياتي المدرسية أطول من حديث
الحيات ، فلندعه الآن . ومن الزجل شعر كثير مات
بموت الرواة ، وأنا أعرف من قديمه ما ذكرت بعضه
كما مرّ . واني أتمنى على الباحثين ان يجمعوا ما بقي منه

محفوظاً ، فليت الاستاذ وهيبه فتش عنه ، فنحن أحوج
اليه والى شعر ما قبل المعاصرين ، كشعر الخوري الخازني
الطريف في بنته نسيم ، البشعة الوجه ، حينما خطفها أحد
شباب العوام في غيابه .

قيل : عاد الخوري الى البيت فاستقبلته الخورية
بالصراخ والولولة ، ولما عرف الخبر راح يفتش عن
الدف، ولما لم يجده، تناول صينية الكبة ونقر عليها، وصاح:
بحيث إننا نفقت نسيم ما بقا يكسد حريم
ما في فول بلا مكيول ولا في قرآية بلا شحيم
ألا لا رد الله أيام الحرب الأولى التي ذهبت
بالكثيرين من رواة هذا الشعر البلدي ، قبل ان أتمكن
من تدوين عتيقه .

وبكلمة مختصرة أقول : ان العامية اللبنانية لغة
دف ومزمار ودربة ونائي ، ولغة عاطفة وحب ،
وسندرس أطواره ومدارسه إن شاء الله .

أَطْوَارُ الرَّجُلِ اللَّبَنَانِيِّ

الْقَوَائِدُ الْأُولَى

ما أكثر الشعر في هذا الجبل الشاعر . كانت
أساطيره ، والأساطير مراعي الشعراء ، خيرة الحضارة
الأولى ، فطلع عجيبها وأمسى خبزا حيا ، على موائد
الآلهة ، ثم استحال في دنيا الأحلام عشاء سرياً
تلذذت الانسانية الأولى بطعامه المقدس .

أحلام رافخة تراءت للبناني الأول فعبّرها بصور
شتى ، صناعات ونقوش وحروف ، دمي وأرجوان
وزجاج . أوضح فكرته تارة بالنقش ، وطوراً
بالغناء ، وأحياناً بالفتوحات الفنية ، فكان خياله
العجيب منبع أساطيره الغريبة . ومشى لبنان والزمان
في منعرجات التطور ، فاستعرب وراح يتذوق
آداب لغته الجديدة مذ دارت الضاد على لسانه ، وأبى
عليه طموحه أن يقعد حسيراً ، فضرب فيها بسهم ،
وطفق يقول الشعر ، فلم تنقده له اللغة فكان الزجل .
ليس الزجل الذي نعجب به ونهتزُ لسماحه ابن
أمس ، فهو غير صغير السن ولا حديث الميلاد ، كما

قال الجاحظ حين أرخ الشعر العربي . فالزجل اللبناني عريق ، دونه تاريخنا منذ خمسية سنة . فمهلله وأمرؤ قيسه ، أسقف ، استعرب وتمغرب . نظم زجله أو شعره على عروض خاص ، استمد توقيعه من لفته الأولى - السريانية - وخلف للأجيال هذا الوزن ، تراثاً أو أساساً لشعرنا العامي الذي ارتقى الى ذروة الفن الادبي .

المطران جبرائيل بن القلاعي ، اللحفدي ، هو القوال الأول . عاش في القرن الخامس عشر وقال أزجاله في مواضيع أكثرها دينية طائفية .

قال فيه الدويهي ، في تاريخه الشهير :

« ولد جبرائيل بن بطرس اللحفدي في قرية تدعى لحفد من أعمال جبيل ، وهي قرية قديمة ، طيبة الهواء ، كثيرة الديورة والكنائس ، ظهر منها كثير من الرجال الفضلاء . وأما جبرائيل فيكنى بابن القلاعي وابن غورية ، لأنه كان لوالده بيت مبني بين القلاع . ففي

مزرعة تدعى غورية من أرض لحفد ، ومنذ صباه ،
سَلَّمه والداه الى الخوري ابراهيم بن وريع ، وهو رجل
فاضل ، ليدرس عليه أصول اللغة السريانية والعربية ،
فاخذ جبرائيل يجتهد ويحسّد ، وكان رزين العقل
مشغوفاً بالقول ، فنظم الزجليّات . ثم خطب له
والداه ابنة حسنة من ذوات قرباه ، فاعتراه استرخاء
في عينيه ، فكرهته الخطيبة ، ولأجل ذلك زهد في
العالم وهاجر الى القدس الشريف ، وهناك انخرط في
سلك رهبان القدس ، وسافر معهم الى رومية في سنة
١٤٧٠ ثم عاد منها الى بيت المقدس سنة ١٤٩٣ بعدما
تخرج فيها واقتبس العلوم . وبعد جهاد ثلث قرن
سيم مطراناً سنة ١٥٠٧^(١) .

فهذا الشاعر العامي قضى حياته في الغرب بعدما
فجع بحبه الأول ، وكان من هذا ، شعر كثير وتصانيف
شتى . يقول الدبس في ملحق تاريخ سوريا : « ونظم

(١) تاريخ الدبس ص ٤١٢ .

قصائد كثيرة ، وإن كانت منحطة لغةً ، فهي كثيرة
الفائدة ^(١) .

لما رأى هذا الأسقف ، البدع رافعة رأسها في
وطنه ، هبّ مناضلاً مقدم بشري عبد المنعم ، وقد
بلغت رسائله وقصائده النضالية الخمسية ، وهي مكتوبة
ومنظومة في مواضيع شتى . ان الزجل اللبنياني
المدون يبدأ مع هذا المطران الذي حفظت لنا التواريخ
بعض آثاره ، ومنها يستدل أن الزجل ، كالرجز ،
بدأ بسيطاً ساذجاً ، كما يبدو لنا من آثار هذا الحبر
العالم ، المحفوظة بمكتبة الفاتيكان ، بين كتبه .

طبعاً لم يقل ابن القلاعي ؛ وهو الاسقف الراهب ،
زجله غزلاً ومعنى ، بل قاله في مواضيع دينية
قومية اصلاحية . نظم في « ميمر » كبير أخبار
طائفته ونضالها الروحي . فاستهل « ميمره » مندداً
براهبين ، وخرجاً على معتقد طائفتها ، فقال :

(١) الجامع الفصل من ٢١١

ابليس أب كل الطغيات نظر شعب مارون فرحان
حسده ورماء في أحزان لأجل تنين كانوا رهبات
كان الواحد من يانوح والآخر من دار نبوح
كرزوا في السر الموضح تكلم بهم روح الشيطان
كثر الشر وصار غرضين وثار الانشقاق من اجل تنين
في هالسبب بنيو برجين وقسمو الملك بتلك الآن
سمع بذلك سلطان برقوق وانفتحلو باب كان مغلوق
أرسل عساكر تحت وفوق حاصر في جبل لبنات
وما اكتفى الزجال اللبناني الأول بارسال شعبه
بسيطاً على وتر واحد ، فازدوجت قيثارته ، فقال في
ميمر آخر بالموضوع عينه ، وهو قصيدة رثى بها
معلمه الراهب يوحنا :

أرادوا يقولو عنا ، في سر مخفي عظيم
إننا هراطقة قد كنا ، منذ الزمان القديم
جاوب الراهب حنا ، عاد كل عالم بكيم
العقل منهم تحير ، غاب الصواب والبصر

فمن سماع نموذج من هذا الزجل ندرك أمرين :
أولاً ، ان هذا الزجل ، أو الشعر العامي - سمّه كما
تريد - قديم العهد جداً في لبنان ، وانه ، وإن خلا
من الصور الشعرية ، فهو يدل على شاعرية ابن الجبل
الملهم . ومن هذا الزجل القديم تولّد شعر باللغة
الفصحى ، أرقى من الزجل قليلاً . وظلّ يتمشى في
التاريخ رويداً رويداً ، حتى استقامت لغته للمطران
فرحات ولكهنة ورهبان آخرين . ثم خطا مع نقولا
الترك وبطرس كرامه شاعري المير ، وظل يتطور
حتى أوشك أن يبلغ قمة الشعر العربي بصوره الرائعة
وموسيقاه الساحرة .

أما الزجل فما قصّر ، ولا توانى في الطريق .
ارتقى ، بعد ثلاثة عصور ، مع القس حنايا المنير ،
فنحاً منحى الشعر في خياله وصوره ، كما نرى من
قصيدة « البرغوث » الرائعة . فهذا الراهب الشاعر قاسى
من قرص البراغيث ما قاسى يوم لم يكن د. د. ت.

لمكافحتها ، فقال يصف إحدى المعارك الليلية مع
البرغوث بحوار طريف ظريف ، فخلد زجله ، ومات
شعره . قال :

بعد بيوت مع قصدان	تا خبركم بللي كان
طول الليل وانا سهران	وصبح جلدي كالجران
جاني البرغوت وانا نائم	وصار على صدري حائم
وقلتي من شهرين صائم	بحساي خلص رمضان
قتلتو لا تجدني	علامك انت مكاربني
بالله عليك لا تتعني	كل النهار وانا تعبان
وقلتي ما انا بهمك	ان سرك او كان غمك
عشاي الليلي من دمك	وبكره يفرجها الزحمان
قلتي ما هو عاكيفك	هلليي انا ضيفك
عيب عليك ويا حيفك	بكون عندك وبنام جيعان

ويجزم الجدال الشاعر وبرغوته الى المشاحنة ، فيقول
الراهب :

قتلو ويلك يا عقوق	لاه يا اسود ، يا محقوق
بتخدعني وما عندك ذوق	وعجزك عن قريب بيان
قال انا بالعين زغير	وبالليل فعلي فعل كبير
انا ما بفرع من وزير	ولا من حاكم ولا سلطان
بتعيرني بسوادي	وانا اليوم لك معادي
لاجيك انا وولادي	وبعلمك فعل السودان
قتلو ماني بهمك	لا ولادك ولا ولاد عمك
لاحرق ابوك مع امك	وبناتك مع الصبيان
قال بخليك حتى تنام	بيحك انا وولادي قوام
لمن تلبس ثوب الخمام	وعن مسكي تبقى عجزان
وانت ما فيك تربطني	وانا ربي مسلطني
ولمن بدك تلقطني	بصير بقفز قفز الغزلان
قلت الرهبان لا تقربهم	والشرير محاربهم
روح عنهم لا تعدبهم	يكفيهن شر الشيطان
قال الراهب هو ملزوم	بالسهر والصلا والصوم

ليلا يتأدى بالنوم ما هو مليح يكون كسلان
 وانا من يومي بحبو بحبو وبدخل بعبو
 حتى يقوم يعبد ربو ويطلب للعالم غفران
 وبالنهار ان صار فرصه بقرصلي شي كم قرصه
 ولكن خوفي من الجرصه يبقى مراتح غير تعبان
 اما باول الليل بتصيد قوتي مع حيل
 وبصير يحمز مثل الخيل وعاصدرك بعمل ميدان
 ولا يفوت القس حنانا ان يبدع في زجليته هذه،
 فيدمج في زجله سياسة عصره قائلا بلسان برغوته :
 قلبي كلامك كلو فشار قرابي وولادي كثار
 وتربو عند الجزار وتسلطوا على البلدات
 ويعجز ، اخيراً القس ، فيتهدد خصمه بالشكوى
 فيجيبه :

حكم القاضي انا عاصيه ومن يومي انا معاديه
 وفرمانو ما بعمل فيه وعليّ مالو سلطان

قلت يا برغوث قلبي كارك واهديني لباب دارك
قصدي اقطع جدارك واحرق نسلك بالنيران
قلبي لعشيه بقلك وعلى باب داري بذلك
لما بدخل بظلك وبرقصك مثل السعدان
وأخيراً يرمي الراهب سلاحه فيقول :

يا برغوث صدقه عنك عرفني طريقة فنك
وكيف بقدر بخلص منك صرت في امري حيران
فيفيض البرغوث في إرشاداته الكفاحية :

كنس بيتك بطيئون ورشو يزوم الزيتون
وخليه أنصف من ماعون وطينو بتراب ولفات
وثيابك قبل ان تلبسها برغتها أو شمسها
وأرض بيتك كنسها وكذلك اعمل بالدكان

هذه صورة عن الزجل الأول ، اما مدرسة الزجل
الكلاسيكية النابتة فروعها على هذا الجذع فهاك حديثها.

الظُّورُ الْكَاسِي

رافقت هذه المدرسة طفلاً ، فعلى أنغام هذا الشعر
وأصدائه ، استيقظت نفسي ، فهو نشيدة مهدي وترنيمة
سريري ، ولهذا انطبع في ذهني ، وهيهات أن يحو
الزمن ذكريات الصبا . إن هذا الشعر منبثق من أعماق
نفوس اللبنانيين وقلوبهم ، من ظلمات أوديتهم وثرثرات
أنهارهم وجداولهم ، من أضوائهم وظلماتهم ، من عرازيلهم
وخيامهم ، من قلق العجائز وأحلام الصبايا . إنه
منسوج من خيوط شمسنا الذهبية ، لمحته من رواء
البنفسج وسداه من خيوط القلوب ، ولهذا أسموه
المعنى والعتابا . أما حياته الفنية فستمددة من هواء
هذا الجبل المتصوف ومائه .

لقد رافقت هذا الشعر رفقة عمر لا رفقة طريق .
استهواني فعشقتة ، ورأيت فيه أصدق صور المحيط
الذي أمدني بما نسميه حياة . قرأت عن هذا الشعر

في الكتب ، فعرفت كيف نشأ الزجل الأول من ابن
القلاعي اللحفدي ، فكان حافلا بالمعاني ، وكاد يكون
خالياً من الصور والألوان . ثم نظرت اليه فرأيت
كيف تطوّر مع القس حنانيا المنير الذوقي . ثم أخرج
من دائرة الكتب الى السن الرواة وما رواه إلا
أبي وعمي وخالي وجيراني ، فصرت أطيّر فرحاً كلما
سمعت بعرس جديد ، أنتظره لأسمع المعنى والقرآدي
من ابن عمي سر كيس ، ومن ابن عمي طنوس عبود ،
ومن طنوس المير ، والزغنا ، على نقر الدف . ثم نسمع
العمّين أنطون وارسانيوس يتباريان بقصيدة زجلية
موضوعها مفاخرة بين « البيضا والسمر » فتتداول
الأعناق وتتلاقى النظرات ، وتنقسم العرب عربين .

هؤلاء كانوا رواة الشعر اللبناني في ضيقتنا ، ومثلهم
كثير في كل قرية ، فهم الذين غدّوا غيّلتي بهذا الشعر
الرائع الذي لا يزال يهز نفسي اليوم كما كان يهزّها
يوم كنت ابن أربعة عشر . ولهذا أراني ، بعدما

سمعت من هذا الشعر ورويت وحفظت، أستطيع
تقسيمه الى مدارس كالشعر الفصيح .

فالشعراء الأولون هم ابن القلاعي والمنير وغيرها
كثيرون . أما الكلاسيكيون فهم شعراء القرن
التاسع عشر ، وكان روايتهم ، عندنا من ذكرتهم لك .
ان اكثر أسماء هؤلاء الشعراء مجهولة ، وحالهم حال
الشاعر العربي الفصيح المجهول ، فيقولون عند رواية
شعر له : قال الشاعر وكفى . لقد تأسفت أشد الأسف
لأنني لم أدون قصائد غراء من هذا الشعر ، فقد كان
يؤلف صورة صادقة عن الحياة والمحيط لو حفظ ،
ولكن الحرب العظمى الأولى ذهبت بكثير من روايته
ولم تترك في نفوسنا إلا اللوعة والحسرة عليه .

إن ذلك الشعر الذي سمّيته بالكلاسيكي مجهولة
نسبته ، وقد أريتكم نماذج منه كما سمعته من الرواة ،
وأنت ترى وتعرف ان لشعرائه جولات حسنة في
مجالات شتى . أما أكثر أغراض هذا الشعر فحنين

وعتاب ومساجلات .

وينقضي دور الرواة ويحيى دور التدوين بالطبع
فاقرأ أول ديوان من الشعر للياس الفرات ، أشهر
قوالة زمانه . ويقال ان الاستاذ ابراهيم الحوراني جاءه
مرة فرآه معتكفاً يحوك على النول فقال له :

شفت الدب حرير يكب . غمبيحيكُ الأجا
فاجاب الفران فوراً :

ديأت بي الدهر الدب العمل منك خواجا
ثم تعارفا ، ولا تعجب ان تسمع الحوراني يقول ،
فاكثر كبار شعرائنا قالوا الزجل ، أما ما أذكره من
قول الفران فهذه الردة ، وقد قالها في سيدة كانت
ملكة جمال عصرها طول عمرها :

يا من فيك الحسن التم وعندك حطت رحالو
ان شاهد حسنك بدر التم بيروح يينخفي حالو
ارأيت هذا الجناس ؟ ان الجناس قوام نوع آخر
من هذا الشعر يعرف بالعتابا ، وهو يستحق درساً على

حدة . ثم يظهر ديوان شاعر اسمه نعمان فارس من
أداة البترون . افتخر نعمان هذا في ديوانه فقال مورياً
في ختام إحدى قصائده :

..... نعمان فارس والجميع يشهدوا
فردّ عليه شاعر آخر كان يقف له دائماً بالمرصاد
فقال له :

تسميّة بيّك فارس كانت صدفة
وخوري اللي عمّد بيّك فاقع خرفه
وظهرت دواوين أخرى أشهرها ديوان خليل
سمعان ، وديوان شاهين الغريب ، فطفر الشعر العامي
طفرة رائعة ، ونشرت قصة الدست والكيس لحنا الياس ،
فكان القول القصصي ، وسمع صوت حلو هو صوت
المرحوم رشيد نخله الذي انصرف عن الشعر الفصيح إلى قول
الزجل ، فكان أميره بحق . وعلى السنة اللبنانيين تدور
له أبيات عائرة ومقطّعات رائعة ، أمّا اتباع مدرسته
الكلاسيكية فمشهورون يعرفهم القارىء ، وله أولى

الملاحم في القول ، وهي محسن الهزان .

وتطور هذا الشعر تطور الشعر الفصيح فظهرت مدرسة جديدة مع ميشال طراد ، ثم أسعد سابا ، وهكذا نحا شعرنا العامي نحو الشعر الفصيح وظهرت له جرائد ومجلات ، وطبعت دواوين ، وعُنت به الصحف في الوطن والمهجر . وقد أُهدي إلي من هذا الشعر المحبوب ديوان للشاعر أسعد السبعلي واسمه « عطور من لبنان » .

أهداه إلي منذ سنوات ، المرحوم شكري الخوري صاحب جريدة « أبو الهول » البرازيلية ، فرأيت فيه صورة أولئك الشعراء الذين سمعت شعرهم من السن الرواة . رأيت السبعلي طافح القلب بالحنين الى وطنه ، فيصوره لك حتى تكاد تراه ، وكل ذلك بزجل كلاسيكي . أما في ديوانه الذي صدر بعدئذ ، فرأيت متاثراً بالمدرسة الجديدة ولكن بمقدار لا يخرج من المنطقة الكلاسيكية ، وإن كثرت فيه الألوان ،

ففي هذا الديوان تصاوير محلية ذات ألوان كأنها
الواقع المغدّي بمخيلة الشاعر الملهم ، كقوله في مطلع
ديوانه يناجي الضيعة في قصيدة عنوانها « عطور
من لبنان » :

وضيعة يجبل لبنان قلبي ودها
نيسان عمتضحك زهورو بخدها
من جبالها هالسمر إيدك مدّها
بصدر السما بتلعب مثل ما بدّها
وما قدرت عنها روح شعري ردها
هي ضيعتي هي عرس نيسان النضير
تموج بالألوان ترهج بالحلا

ونغمات حلوه تهزّ أوتار الحنان
لمين يا طيور الفلا هالمهرجان
والهدهد تغاوى بتاج وصولجان
وبالقلوب تغل فوحة بوزلان

متبل غلات النسيم بالبيلسان
والبلبل مهودس بسفرة هالغدير
وقبل شق الفجر ولّف عالصلا

فراشات بيض وحر غنجات ودلال
بترف عالآزهار رفات الخيال
وحقله قطع سجاد تضحك للجمال
وجوزات خضر مكبشي بصدرا الجبال
بتبعث هواها عاليمين وعالشمال
وراعي يغني بو الزلف عن كتف شير
والراعيه السمرا تقلّو يا هلا ...

لا أستطيع نقل الكثير لضيق المجال ، ولكن
خيال السبعلي يوقفني أين سرت في ديوانه . لقد أعجبني
جداً تصويره حياة الشاعر القروي بقوله :

وشاعر وحيد يشكي تباريح الهوى

كتابو باول مرحلة حب انطوى
ومن غدير العاطفة قلبو ارتوى
وهيهات بعد الدهر يجمعنا سوى
بعرزال طري عميحصد غمار الهوى
مضبذب على مراجيع عمتهدر هدير
ومفرعا عاسطيحتو شمس الفلا

حلوة هذه الشمس « المفرعة » التي نضت ثيابها ،
كفاطمة امرىء القيس ، وأجل من هذا وصفه أودية
لبنان الرهيبه ، قال :

ووهرة الوديان عجقة عرس جان
ودوار هادي ، مفرعه فيه الحسان
وهالحفاقي ملوحه بالارجوان
وشربين عن الأيام عميلقي بيان
ويعطي متيلي عن خلود السنديان
ومن دير « رشتعمود » بتشم العبير
يبرد عنك لمس حيطانو البلا

الشعر جميل وطبيعي جداً ، ولكن السبعلي يتجه
نحو الألفاظ الفصحى ، فأسأله أن يقل منها ، لأن
التفاسح يفسد جو الشعر العامي ، فجمال هذا الشعر ،
بغرقه في العامية الى أذنيه . ويقول السبعلي من الوزن
المعروف بالقرادي يصف مغارة :

بتمشي بنهر على شمالك صفصافي تهدى بديها
بتشوف مغاره قبالك ضوي شمعاً وفوت ليها

بتدخل ليها بتسمع حس وصرخة نهر تقلك هس
وباشباح الليل تحس وبتقول بها المغاره
غافي الدهر بعينها

صخره معقوده بصخره ملتّمها الدهر بوهره
بوجه الحيطان السمره قبالك بتشوف الأجيال
ومطرح تقلات جريها

ونا تحل رموز الايام وتقرأ تاريخ الأعوام
قدملك نتفه لقدام بتشوف صورة جنيه
وكتب السحر حوالها

وكرسي سودا كبيره كثير ورسم سراج وحق صغير
وصخره مقطوعا من شير بجمرة سبعل باخوس كان
يسكر فينس عليها

ولا أخالك تجهل صيت خمره سبعل التي يقول فيها
أحد الشعراء :

كل النبيذ محرم الا النبيذ السبعلي
أما روح السبعلي الوطنية فظاهرة كالصخور
التي يصفها في ديوانه ، واسمع هذين البيتين لتقدر
تعلقه بوطنه :

دير مار يوسف تحت الشير عليه الوديان بتومي
مهيوب وافخم بكثير من الفاتيك كان برومي

ومن مميزات شاعرنا إجادته الحوار ، وله في ديوانيه
روائع فاقرأها اذا شئت ، ففيها عطور لبنانية حقاً .
هذا هو الزجل الكلاسيكي ، منذ نشأته حتى
الآن ، أمّا المدرسة الجديدة فحديثها يأتيك حين تتكلم
عن «جلنار» طراد ، و« من قلبي » لأسعد سابا ، وفي هذين
الديوانين تتمثل المدرسة الرمزية في الشعر العامي ،
ولعلها وفقت أكثر من اختها في شعرنا الفصيح ، وسنرى .

الشَّعْرُ الْعَامِي
عَوْدٌ عَلَى بَدْعٍ

يريد الدكتور نقولا زياده ، وهو بحثة طريف
الأسلوب ، أن نبحت العلاقة بين الزجل اللبناني والغناء
السرياني الديني . فلدكتورنا العلامة أقول: إن الزجالين
اللبنانيين الأولين موارنة مستعربون ، لم يتمكنوا باديء
ذي بدء ، من العربية وقريضها . تعود هؤلاء سماع
ميامر مار افرام ومار يعقوب في كنائسهم ، فأخذوا
ينظمون الشعر عربياً عامياً ، على تلك الأوزان
السريانية التي عرفوها وفهموها وترنحوا بها صباحاً
ومساءً ، وليلاً في كنائسهم ، فانطبعوا عليها ، ومن هنا
جاءت العلاقة بين الشعرين ، من حيث اللحن والنغم ،
ومن حيث المعاني والأفكار والصور .

وإذا أردنا التعمق أكثر ، وعدنا الى الزجل
المروي عن الخوري نعمة الله القدوم الكفري الجبيلي ،
رأينا في زجلياته التي يتناقلها الرواة عندنا حتى اليوم

ثقافة دينية إنجيلية توراتية ، عميقة الصور ، حافلة بالرموز والتلميحات . شكّا رحمه الله، في هذه الزجلّيات ، من سياسة الاكليروس في زمانه ، وخصوصاً الرهبان الموارنة الذين خاضوها ثورة محلية طائفية ، فalcوا عنهم نير بطركهم، فانتدبت رومية القاصد الرسولي لوديفيكوس لينظّم شؤونهم ، فانفتح باب مغلق لشاعرية ذاك الكاهن الماروني العتيق ، فنظم زجلّيته الشهيرة يصف فيها تلك « الحركة » .

قال يخاطب القاصد ، واللحن سرياني :

لوديفيكوس يا قاصد الفاتيكان

ارسلوك للشرق حتى تدبر الرهبان

ثم مضى يصف زعماء الرهبانية المتآمرين واحداً واحداً ، وهذا نموذج قاله يلوم أحدهم ويبكّته، والايات من وزن ولحن سريانيين أنقلها كما وردت تماماً :

غناطيوس عاكتفك حملت النير

تكلمو بحقك وحكيو فيك ناس كثير

من يك ما هان عليّ كيف رضيت بيه لعمليه
حيث عليك يا ابن معاد تقدم فحس للحداد
واذا رجعنا قرنين الى الوراء - قبل المطران جرمانوس
فرحات - رأينا الصلوات البيعية السريانية من خدمة
قداس وصلوات وزياحات وجنازات قد عربت أزجالاً
ذات ألحان سريانية ، فالميامر التي تعرف عندهم حتى
الآن بالأفراميات - نسبة الى القديس أفرام - لا تزال
حتى الساعة تحمل أثراً واضحاً من تلك الرطانة ،
رغم تنقيح المطرانين الشمالي والديس . وهذا نموذج
عتيق جداً من قولهم في وصف الهالكين الذين يعذبون
في جهنم ، وقاني الله والدكتور العزيز شرثاها الدائمة :
والنار تشفر من فوقاني للتحتاني

وهم مشقوعين مثل الحجارة على حيطاني
وفي « فراميّة » أخرى يصفون وصول قديسهم
مار مارون الى السماء :

والأب مارون ، ملا قديس ، وايش بتقول فيه

حمل عصاتو، وقام التتقيس، ما شله عليه
طلع عالسا، وجات الملايكي كلا تلاقيه
أرأيت هذه الصور الشعرية الساذجة ؟

هذا ما كان في طور استعراب الموارنة الأولين .
وقد يستغرب القارىء إن ذكرت له كل شيء من
أناشيدهم - وهذا لا يستطيع - ولهذا أكتفي بالقليل
القليل . قالوا في أحد أناشيد خدمة القديس :

فلنقف كلنا بسويه
ونسبح رب البريه تا يغفر لنا الخطيه

ثم صارت في تعريب المطران فرحات والشامي هكذا:
فلنقف كلنا أمام الإله الذي كلّمنا من علاه
ونستعطف وجوده ورضاه بأصوات التسبيح والصلاه
ربنا اشفق على شعبك وارحم أولاد رعيتك الخ.
وإذا رجعت الى مخطوطة كرشونية في مكتبتى
كلها أناشيد دينية من « السواغيث » أي الأناشيد، وهي

معربة عن السريانية باللحن والوزن ، رأيت فيها من
هذا الطراز أشياء لا تحصى . وها أنا أتقل للقارىء ما
يلي ليقابله بما سبق ذكره . قالوا في أنشودة «سوغيث»
عشية عيد الأنبا مارون :

نمدح الآن أبانا مارون المتوشح عزاً ونصرا
الى أن يقول :

انفق البار حياته كلها ، بكوخ يعاني بردا وحرًا
ارضى ربه بحسن سيرته ، وأتقن كالا يعملو قدرا
اسمع ربنا ابتهالاتنا وهبنا معه بفيضك اجرا
نعطى معه ربنا حظا في عرش ملكك ونوهب فخرا
وأظن أن هذه الزجلية وما فيها من ركافة
هي التي دفعت أحمد فارس الشدياق ، الماروني المسلم ، الى
تعبير رجال الدين الشرقيين بالركافة . يقرأ ذلك كل
من يحب الطبخ الدسم ... حين يطالع كتابه الفارياق .
أما اذا كان من محبي الصندوش ، فعليه أن يطالع
كتابي « صقر لبنان » .

ولا تزال نسمع الموارنة حتى اليوم ينشدون في
قداس عيد مار مارون :

لك شرف مفرد كبدر الضيا ولك اسم يزهو كالثريا
لك اسم في الشرق مسميا مار مارون فخر سوريا
وبعد ، فاطن ، أن صديقي الدكتور زياده قد
اقتنع بأن هناك علاقة وثيقة بين الزجل والسريانية ،
ولعل هذا هو أحد الأسباب التي جعلت للزجل هذا
الوقع في قلوب اللبنانيين القدامى ، لأنهم أليفوه جداً
في بيعهم ، ونشأوا وشبوا وشاخوا عليه ، ثم لحق بهم
الى القبر والى ما بعد القبر ...

ويطيب لي في هذا المجال أن أدون « قرادية »
يظهر فيها الأثر الديني كل الظهور ، وهي لشاعر
مجهول من بلادي . يستدل على ذلك من لهجتها ، ومن
صورها ومن أفكارها ومعانيها ، وأخيراً من التسكين .
قال ذاك الشاعر المجهول يعاتب محبوبته :

يا أم الوري عبّاسي تأيه عن اسمك ناسي

هواك دب براسي وعطل شغالي عليي
 عطل شغالي وعمالي وفيكي تاهت افكاري
 حلوي لمن تنداري تزيدي الجروحات كيي
 قامي رفيعا وخصر رقيق ييطوي طيبي عاطيبي

جرحك بالهوى ما يطيب دايمن ينضح دامي
 دايمن ينضح ومعدّر يا ام السنجق والزئار
 لاعمل في بيتك مزار وصوم وصلي الفرضية
 يا وصوم وصلي صلاتي وبركع وبفتح باطي
 وان كان المعبد واطي منوطي الدرجة شويي
 منوطيها وبتوطا يا ام الوري والقوطا
 بس تضلي مبسوطا منعمل زياح وردبي
 منعمل زياح وقداس وان كان موجود عندك ناس
 منوقف عالباب حرّاس يحرسوا طريق العلبي
 يحرسوا طريق السرايا وكلامك كلّو مرايا
 وبتقري العشر وصايا يا بنت المغنيي

فكانني أسمع دقّ الصنوج وقرع النواقيس في زياح
هذا الشاعر ، بل أخالني أراه راكعاً ساجداً ملتبساً
كابي نواس .

ثم جاراهم في هذا المضمار غيرهم فاتجه الزجل
اتجاهات لا تحصى حتى بلغ ما وصل اليه الآن ، وتسئم
مع رشيد نخله القمة الفتيّة العليا ، فكان ميسترال
لبنان حقاً ، فهو رافع العامية الى مرتبة الفصحى
البليغة ، وقد ضاهى أصحاب الموشحات في تنويع
هذا الشعر .

إن رشيد نخله شاعر فصيح أولاً ، وقد قال الشعر
في تعبير صحيح ، ولكنّه عمل بقول المثل المشهور :
الأول في ضيعتي ولا الثاني في روميه . وهكذا كان .
كثيراً ما أسمع الناس يعزّون الى الرشيد هذين
البيتين :

قلبي وعيني ضعاف من غير شي وبكل يوم يفتحوا ورشي
العين تهوى كلما شافت والقلب لاحقها على الطحشي

قد كنت ظننت أن الرشيد أخذهما من قول
المرحوم دعبل ، وأخرجهما بأسلوبه العامر باللون
والتعبير المحليين ، فزادهما حباً ، كما يظهر للمتأمل
حين يعارضهما بقول الخزاعي :

لا تأخذا بظلامتي أحدا قلبي وطرفي في دمي اشتركا
بيد أنني رجعت الى كتاب «معنى رشيد نخله»
مفتشاً عنها فلم أجدها .

إن الرشيد خير من حفل زجله بالصور والمعاني
والألوان ، وقد تجد كثيراً من هذه الصور في الشعر
الفصيح ، لأن أبا أمين شاعر فصيح واسع الاطلاع ،
وقف حياته على السياسة والشعر ، وإني اكتفي هنا
ببيتين أويد بهما ما أقول ، قال رحمه الله :

لما الشمس عتقت في سماها شاف ربي الدني بتظلم بلاها
خلق محبوبتي تتنوب عنها وهبها مثل ما بدا وعطاها
ففي الشطر الأخير يلتقي الرشيد بالمطران جرمانوس
فرحات القائل في العذراء مريم :

خلقت درة لا عيب فيها كأنك مثلما شئت خلقت
ولست أدري أي شاعر زجلي قال هذا الشطر
الذيذ موجهاً الكلام الى حبيبته :

طلبي قبـال القمر تاغر تقو شويه

وفي كل حال يظل رشيد نخله امام الزجالين
المتبوع ، فمنهم من اتبعه من بعيد ، ومنهم من اتبعه
من قريب كخليفته شحرور الوادي ووليم صعب .
وسيدو للقارئ في فصل آتٍ وهو الأخير .

الطُّورُ الرَّوْمَانِيَّةُ الترمزي

أحسب ان هذا الشعر العامي قد أصبح محسوباً
على تاريخ الأدب ، وإذا لم يحتلّ الصدر في ديوان
العرب فهو قد احتل زاوية من زواياه ، ولفت إليه
الأنظار حتى تمنى شعراء الفصحى أن يكون لهم مثل
عاطفته وصوره ، وموسيقاه المنسجمة ، وألفاظه الناعمة
التي صقلها الاستعمال . فالشاعر من هؤلاء هو ابن الزمان
والمكان وهذا ما يطلبه ويطلبه النقاد من الشاعر والكاتب .
سال الفرزدق أحد الرواة ، ولعله شيخهم عمرو بن
العلاء : من أشعر أنا أم ذلك الكلب جرير ؟
فأجابه : أنت عند العلماء وهو عند العوام .
فارتاح الفرزدق لحكمه ، ولما بلغ هذا القول جريراً
ضرب فخذه بكفيه ، وصاح : غلبته والله فليس في
الآلف من الناس عالم واحد .
وقال الأخطل في هذا المعنى : قلت بيتاً لم يقل

مثله شاعر قبلي ، فما دار على لسان أحد . ونقضه جرير
فلم تبقى سقاة إلا روت ما قال .

أظن أن هذا السبب هو الذي يقدم اليوم الشعر
العامي على الشعر الفصيح عند الجمهور . حضرت ماتم
شاعر ليس فينا من هو أشد منه إخلاصاً للغتنا العربية ،
فرثوه بنثر بليغ وشعر يستحق أن نسمعه ، فما
تحركت الجماهير ولا ماجت الرؤوس كالخصاد إلا حين
وقف شعراء العوام ، وكلموهم بالألفاظ الدائرة على
السنتهم . ليس هذا فقط هو سبب الاستحسان بل هناك
صور قلما نجدها في شعرنا الفصيح . وإذا وجدت ،
فهي لا تظفر بالكلمات التي تبرزها وتلوّنها ، لأن أكثر
شعرائنا ليسوا من فقهاء اللغة ، وهب أنهم كانوا ، فماذا
ينفع الفقه من لا يدرك ما تقوله له ؟

وإني لأظن أن هذه الحالة هي التي نشرت بيننا
هذه البدع الحديثة : بدعة الحرف اللاتيني ، وبدعة
الخروج على أصول اللغة ، وبدعة اللغة العامية . واللغة

العامية التي يدعون إليها أي غرض تؤدي في ميادين
الفكر ؟ انها لا تصلح إلا لهذا الزجل ، ومتى تخطت
تخومه بدت هزيلة ضعيفة .

لا أصدر هذا الحكم عليها بدون فذلكة ولا حيشيات ،
فحسبك ان تقرأ مقدمتي ديواني : « جلنار » لميشال طراد ،
و « من قلبي » لأسعد سابا ، لتدعن لحكمي فلا تعترض
ولا تستأنف ... كلتا المقدمتين للشاعر سعيد عقل ، ومن
شاء أن يعرف تفاهتها فما عليه إلا أن يقرأ مقدمتي
قصيدته « المجدلية » ، ومسرحيته « قدموس » .

إن سعيد عقل شاعر من الطراز الأول ، ولكنه
يريد أن يكون زجّالاً وشاعراً فرنسياً ، وأنا خائف
عليه من هاتين النكبتين .

قال سعيد في ختام مقدمته لديوان أسعد سابا :
« هنّي - أي شعراء الزجل - اليوم شعراء الشرق » ،
ولعلّ سعيداً لا يكفيه أن يكون من هو ، فحاول ان
يكون من شعراء الشرق فانبرى لمجاراتهم في ميدانهم ..

إني أنصحك ، لوجه الله ، ألا يقدم على هذا العمل ،
فإنه دون شك يقصر عنهم . أما بان هزاله في مقدمتيه؟
ان ميشال طراد وأسعد سابا لا تَطُلُ عليها اللفظة
الفصحية ، وسعيد عقل لا تأتيه الكلمة العامية إلا بعد
اصطدامها بأختها الفصيحة ، وهذا سر الزجل اللبناني
الذي هو بضاعة للاستهلاك لا للتصدير .

عجيب أمرنا كيف نتحدث عن « الإشعاع » ولا
نعمل له . ان الإشعاع الفكري يتطلب زيتاً يصب
دائماً في السراج ، وليس هو راديو مدام كوري ، فإذا
ترك الفانوس انطفأ . كنّا نمتن على غيرنا يوم كانوا
يشكّون خنجراً ونشك نحن دواة وقلماً . كان ذلك
يوم كان تيوفيل الرهاوي وغيره قابضين على ناصية العلم .
وبكلمة مختصرة ان لبنان الفينيقي والسرياني كان لبنان
إشعاع ، فالفينيقيون كانوا صنّاعاً وتجاراً مهاجرين ،
والمهاجرة مدرسة كبرى . والسريان كانوا يحذقون لغة
غير لغتهم الأم فنقلوا وعربّوا وألفوا ، وظهرت هذه

الخاصة في بقاياهم فعملوا مثلهم . أمّا اليوم ، فضاء
سراجنا ينوس . كم أتالم حين أسمع كلمة « إشعاع »
والتفتُ حولي ، فلا أرى إلّا من يحاولون جرّنا الى
الوراء ، طالبين منا أن نتخلّى عن ميراثنا وتركنا
الضخمة في لغة العرب ، لتتصر في لغة عامية لا تفهم
على حقها إلا في بلد معين .

ودعاة الحرف اللاتيني ماذا تقول فيهم ؟ انهم
يطلبون التسهيل ليقعوا في أشد الصعوبات . فمن منا
ومنهم يحسن ضبط الكلمات حتى يكتبها بالحرف
اللاتيني . ومخارج الحروف ماذا تفعل بها ؟ إن للحروف
الساكنة موسيقى يعتدّ بها ، فاللغات الغريبة تعتمد
في موسيقاها الشعرية على الحروف الصوتية ، أما نحن ،
- لو تنبّه شعراؤنا - فعندنا حروف شتى من مخرج
واحد ، فكأنها وضعت لينتقي منها الشاعر ما يلائم
موضوعه ومقامه .

قد يقول قائل : إذا كنت تغار على الفصحى كما

تقول ، فلماذا هذا الاهتمام بالشعر اللبناني العامي ؟
الجواب يا سيدي ، ان في كل فترات تاريخ الأدب كان
يظهر مثل هذا الشعر ويستحلى ويستملح ، كما أن
بين الشعر الأول الفصيح والزجل أقرب النسب ، فلم
يكن امرؤ القيس أعلم من طراد ، ولا النابغة أوسع
ثقافة من أسعد سابا . كان يقال ذلك الشعر قبل علم
العروض ، كما يقال هذا الشعر اليوم ، وميزانه الاذن
والنوق . كما تطور ذلك تطور هذا حتى صار الى
ما صار اليه اليوم . وإذا أعطينا الزجل حقه فلا يعني
أنتا نريد أن نجعل من اللهجة اللبنانية لغة قائمة
برأسها . يكفيننا من الزجل أن يكون لونا محلياً
نباهي به كما نباهي بالتفاح مثلاً ، فهو ثمرة فكرية لذيذة
جداً . وإذا كنت أنا المتضلع من عامية لبنان تعصى
عليّ بعض كلمات ، فما عسى العراقي والحجازي
والمصري وال... وال... أن يفهم منه ؟

إنتا ، نحن اللبنانيين ، وخصوصاً الجبليين، تتذوق

هذا الشعر تذوقاً كاملاً ، ونطرب له كما يطرب البدوي
- أمس واليوم - للشعر الجاهلي ، لأنه يحسّه أكثر منّا ،
ولأنه يصوّر له أشياء لا تزال تقع عليها عينه . وبعد ،
فلإني أرى شعرنا العامي يمشي عند بعض شعرائنا نحو
الفصحى وهذا قتل له . فخير للشاعر العامي أن يلم
ألفاظه من الشارع لا من الكتب ، عملاً بالكلمة الماثورة :
لكل مقام مقال . وأنا لم اختر هذين الشاعرين :
ميشال طراد وأسعد سابا ، إلا لأنهما غارقان الى آذانها
في اللهجة العامية ، ولأن شعرهما يمثلها أصدق تمثيل ،
ولأنهما مدرسة جديدة .

مِنْ قَلْبِي
لَأَسْعِدَ سَابًا

إن زجل أسعد سابا ابن عم الشعر لحاً ، وقد
يكون ما يقوله هو الشعر العالي لا ما ينظمه الوزانون .
فزجل أسعد سابا طافح بالألوان ، يتأجج عاطفة ،
وهو في صورهِ أقرب الى الشعراء الكبار منه الى
الزجالين . وفي استطاعتنا أن نقول أن زجل أسعد سابا
مدرسة شعرية جديدة ، وهو توأم زجلي يناوح توأماً
آخر هو شعر الشباب الحديث الذي يسمونه رمزياً .
إذا قرأت هذا الديوان رأيت أن شعر أسعد ليس
من قلبه فقط بل هو من قلبه وكبدته المقروحة . صور
ساذجة طريفة ، وألوان زاهية ، وألفاظ كالشحنات
الكهربائية تولّد نوراً وثاراً . فمدرسة طراد وسابا
تسير مع مدرسة الشعر الحديث جنباً لجنب ، فكانها
تقول لها : شدي حيلك لنرى من يسبق الى ما يسمونه
اليوم رمزاً .

ولا أحسبني أسىء الى شاعرنا سعيد عقل إذا
قلت أن في ديوانه « رندلى » لفتات كريمة الى ديوان

طراد . وإذا اتقينا غضبه قلنا : ان في ديوانيهما
ملاحح كثيرة من رندلى سعيد ، وهذا ما يثبتهُ من
يعنيهم التحقيق فيما بعد ...

إن زجل هذين الشاعرين يُنحت نحتاً ويُسبك سبكاً ،
وكان العهد بالزجل أن يرتجل ارتجالاً ، ولهذا أقول ،
ان « القول » بدأ مع رشيد نخله ان يكون فناً كالشعر
الفصيح ، ومن مدرسة أبي أمين اشتقت هذه المدرسة
الزاهرة فحفلت بالأوان لم يكن للزجل عهد بها .

إن ديوان أسعد سابا مقسم بين لبنان وحلوات لبنان .
... فأسعد كرج تحت سندية غوسطا ، وتفتحت عيناه
على تلك الظلال والألوان ، فانطبعت صورها فيها .
وهناك بين شماریخ تلك الجبال العاصية التي تقول
للبحر : إن كنت بطاشاً كما قالوا عنك ، تفضل شرف .
« وأبو العين الزرقاء يحتد ويشد . وهكذا ترسم
الصور الشعرية في مخ أسعد سابا ، فيقول في قصيدته
الأولى « بلادي وأهلي وأنا » .

هالصخرة الي متعري حد الفضا
ولفتاتها ع مسد عينك والنظر
للعواصف والبحور معرضا
بتقول : أنا للورد بالو الي خطر

وإذا قرأت قصيدته التي عنوانها « بيتي » اتضح لك
تمسك اللبناني ببيته وضيعته وحنينه إليها :
بيتي السكران القمر حدو
مشتاق ارجع لي
ونفض غبار العتم عن عينيه
ولو نهد عمر الدهر ما يهدو
بيتي الذي وحدو
ربي يرد العز تا ردو

وفي قصيدة ثالثة من لبنانياته يصف سماء
الضيعة فيقول :

عنا سما نجحات مزروعا
وكل هالي معلقا بهالي

بقلاً : تخي ، بتطلع قبالي
بتنزل عا أرزاتنا العالي
وبتغل بضلوعا

ومن قصيدة « أول حرف » يقول :

من هون ... من لبنان حاكينا السما
قبل كل الانبياء وكل العصور
ندهنا الشمس ردت علينا بالوما
فرشنا الدني من وهجها تريات نور

ويتخطى الشاعر إلى وصف يسوع ومريم العذراء ،
وإن لم تعجبني كتابتها بالدال بدل الضاد كما نلفظها
في كسروان منطقة الشاعر .

ويخص الشاعر بعض كتابنا وشعرائنا بقصائد ،
ولكنها لا تنزل أبداً إلى دركة المدح المبتذل ... ويحيى
دور « الحب » فينوب أسعد سابا ، ويصبح شعره
أكسيراً يعلّ القلوب ، ويذكرنا بعهود نسيناها ..

شعر أنعم من غزل البنات ، فيه من الإلتفاتات

الدهشة ما يثبت النظرية القائلة : إن الشعر لا يحتاج
الى منطق وفلسفة ، كما قال البحتري في ذلك الزمان .
ومن يقرأ قصيدة « طقمي » في هذا الديوان يدرك
أن في هذا الشعر العامي خاصة قوية بارزة هي خاصة
التجسيد . فإعجابي بهذه القصيدة لا يقل عن إعجابي
بقصيدة ابن الرومي في وصف طيلسان ابن حرب ذلك
الوصف البارع .

وأما وصف هؤلاء الشعراء ، فعذب طريف ، كما تقرأ :

حد البحر شفتك عارملو مشلقحا

بتحلمي أحلام بيضا مفرححا

والليل عميشلحك فسطان نور

ويقولون الكون؟ والكون انمحا

وعندما يسأل الشاعر شباك المحبوبة الأخضر

نتذكر قصيدة عمرو عندما جاء يسأل المنزل هل

فيه خير :

لوين يا شباكها الأخضر

راحت لوين بتقدر تقلى ؟
هالتاركي فسطانها الأحمر
منشور وحدو بالهوا مدردر
مدهده ، وباصر شي بنامو
لمين عميلولحو كامو !
لمين ! يا شباكها الأخضر
قولك بترجع بعد ؟
بتطل ع مهلا ؟
وعيني بعينا تغيب ، تندهلا
وتفقا ع العهد
وتاخذ منا شي وعد
شو قولتك بعدا بتتذكر
شي بعد ! يا شباكها الأخضر ؟

وبعد ، فارى ان الشاعر العامي يوسع على نفسه
ولا يضيق . فهو يقول : شباكها وفسطانها بدلا من
شباكها وفسطانا . هو بالسليقة يقول هذا ولا يحسن لأن
فريقا من العوام يقولون ذلك .

جُلنار
لميشال طراد

عام مات جبران خليل جبران ، كان ميشال طراد
من تلاميذي في الجامعة الوطنية ، وأقام طلاب مدرستنا
حفلة تأيينية لجبران ، فأجاد ميشال الرثاء . وفي بحر
السنة كان قد قرأ على رفاقه قصيدته « ليلة العرزال »^(١)
فلم يصدقوا أنها من قوله . أما أنا فلم أستغرب ذلك ،
ودفعته إلى الأمام فقال غيرها . وعندما طلق ميشال
المدرسة أرسل قطعة من شعره إلى « عاصفة » الأستاذ
كرم ملح كرم ، فاعجب كرم ما قول ميشال ، فنشره
تحت عنوان : ابن عم الشعر . ولمع نجم ميشال ،
وأعجب به المثقفون ، فاحتل هذا المقام المرموق ، فكان
منه هذا الشاعر الفذ . وأخيراً ظهر ديوانه « جلنار » ،
وهو « جلنار » حقاً ، نور يرسله كلاماً يخلب الأبواب
ويبهر العيون . شعر فيه زبرج وبهرج ريش الطواويس ،
وكرّات الكناري ، وزقزقة الحساسين . صور ألوات

(١) من كتاب جلنار ص ٧٨ .

طاغورية وإن لم تعرف الصوفية . وحكايات عمرية لا
تبذل فيها . قصائد يخرجها الشاعر في ثياب القصة ،
فتأتي مفصلة على القَدِّ ، تحب قراءتها وسماعها لأنها
تكلما بلهجتنا .

إن ديوان « جلنار » مطبوع أجمل طبع ، ومصدر
كديوان أسعد سابا بمقدمة كتبها زعيم الرمزية الشاعر
سعيد عقل ، فاثبت لنا أن لغتنا العامية ، إذا كانت
تصلح أداة للشعر العامي ، فهي عاجزة كل العجز عن
تأدية الفكر ، وهي إن أدته فإنما تؤديه بما يضحك
الشكلي فوق نعش وحيدها .

إسمع ما يقول : « ... كان كل شي بالطبيعا عموعد
بنجمي جديدي . ما بعرف ، ما بعرف أنا كنت متأكد
انو راح يخلق ميشال طراد . التصوير كان من خمسين
سني بلش لعبتو . داوود القرم مش شي عادي .
والفلسفي ما كان بقا الآ تطل . ومثل ما اليوم نحنا
بلهفي وعينين مجروحنا - سلامتها يا حبيبي - ناظرين

تبليشة العلم ، ماكد واحد مثل فؤاد البستاني عندو لفتي
شاملي ع تاريخ الفكر ، ولأنو ع قد هالمعرفي بيقدر
يحب ما كان مستغرب إنو يحسب للنجوم الطالعا .
ألا تقول معي حين تقرأ ديوان « جلنار » ومقدمته:
إننا حين ننتقل من مقدمة سعيد عقل العامية إلى
زجل ميشال طراد نكون كمن ينتقل من قطعة حرش
فيها السنديان والبطم والقندول والعليق والطيون ،
إلى حديقة حديثة أحكم ترتيبها وتنظيمها وهي حافلة
بالخضرة الدائمة والعطر الأبدي ؟.

فصاحبنا سعيد ، بدلا من أن يقدم ميشال طراد
قدم سعيد عقل وحلمه بمارتوما جديد ... وجعل من
الأستاذ فؤاد افرام البستاني ، أبا معشر الفلكي الذي يحسب
للعلم الطالعا .

ان النجوم متى طلعت لا تحتاج الى من يحسب
لطلوعها . أما قلت لك أن اللغة العامية لا تؤدي
الفكرة تادية أنيقة ؟ قلت وأكرر القول : أنا خائف

جداً على سعيد عقل الشاعر ، من سعيد عقل المتفلسف ،
وسعيد عقل الزجال ، وسعيد عقل الشاعر الفرنسي .
إنها ثلاث بطيخات لا بطيختان ؟ اللهم نج سعيد
عقل من سعيد عقل .

أما تلميذي ميشال طراد فشاعر فنان ، والفن عادة
يكون ظاهر التكلف ، ولكن طبيعة ميشال طراد ،
وتألقه يحوان آثار تكلفه ، فتخال ان ما يقوله قد
جاءه عفو الطبع ، مع انه يفتش عن الكلمة شهراً
وشهرين ، ويظل يركض مشمراً خلفها .

وبعد ، فماذا في ديوان « جلنار » من عصارة قلب
ميشال طراد وخلاصة شبابه ؟

الجواب : كل شيء ! ولا عيب في شعره إلا أنه
لا يستطيع قراءته على حقها كل من يحسن القراءة .
فهناك أبيات « قولبتها » مراراً في حنكي حتى استقامت ،
ولكني أعيت عن بعضها فتركها وما « كسرت
كعوبها أو تستقيما » ، كما قال الشاعر .

هذا هو الاجمال ، أما التفصيل فإليك به :
في مطلع الديوان يعتذر الشاعر الى ربّه بأسلوب
« افرامي » لأن اسم « جلنار » يسبق الى فم ميشال قبل
اسم الله . ولا شك في أن الله الغفور الرحيم سيغفر
لميشال كما غفر لمار افرام .

وشاعرنا يعتقد ، كبعض أصحابنا ، أن بين الزهرة
والنحلة والفراشة حباً جمّاً . وفي ذلك قال قصيدة
رائعة جداً بعنوان « نغمشي » يزينها هذا الحوار البديع :

– قديش هالوردي عمتكر حكي
وبتضل هيبي وهالكنار بوشوشي
مبارح غمش عنقا بضفرو الليلكي ،
واليوم بقح صدرها من الغرمشي
شو باك ، يعني شو؟ وانتى شو بكى
حسيت دخلك هيك متلى بنغمشي؟

وعند ميشال ظرف يكاد لا يدرك ، تلمسه في مطلع
قصيدة « تشكيلة الفسطان » حيث يقول بلسان صاحبه :

الله ! بعدو الورد عنا زغير
 ما بينقطف منو
 واهلي بقولولي بعد بكر
 ورداتنا بيظهر بيتاننو
 بلكي بتقطلي من البستان ،
 الله ، كف منكان ،
 من عندكن ، من عند هالجيران ،
 اربع خمس وردات ،
 ياسود خمريات ،
 يا حمر جوريات ،
 تشكّل القسطان

وفي قصيدة « بنت جارتنا » وصف حال دقيق جداً.
 وفي قصيدة « صبيح » تصوير جميل . وميشال كغيره من
 شعراء الرمزية يحب العيون الخضر ، أمّا أنا فلا أفهم
 هذه العيون الحרבائية التي يهيم فيها شعراء اليوم .
 يظهر أن الحسن « موضة » ، ولهذا لم نفكر نحن قط

بعيون خضر .

وننتقل من غرام النحل والزهر الى غرام الزنبق،
فعمش الوردة والبلى ، وهذه مناجاتها :

اجريك ، يا بلى ، مبللها الندى
ضايقتي ، ما تغطى عا غصوني ،
بتضلك تفر فرم حلك تهدي ،
فيقتني من الحلم ، يا عيوني .

وعلى ذكر « فيقتني » تذكرت حكاية تروى عندنا
عن بنت حلال كسدت بضاعتها . كان اسمها وردية
على ذكر الورد - وكان شاب اسمه يوسف يقول لها ،
وهو ماش ، كلما مرّ بباب بيتها : بتاخدينى يا وردية ..

فتشوق وردية « تجيبه : « لا تفيقتني يا يوسف ! »

حقاً إن أحلام هؤلاء الشعراء ، فاقت أحلام
الرومنطيقين ، وتصوراتهم ، فاقت تصورات الأدبية
مي في آخر أيامها ...

وهكذا يمضي ميشال في قصصه الزجلي البديع ،
ومناجاته الرائعة وتصوّراته المستطابة كقوله في وصف
حلوة الحلوين :

بَلَّا سَالَا ، بَلَّا سَالَا ،
يا تلج صنين ،
يا زنبق بعرض الفلا ،
يا فل ، يا ياسمين ،
يا حب عنقود تَلَا
وتالز بتشرين ،
ياسنبلي بسنت الفلا
عليت ويا رياحين
يا عيون ، يا الكلا صلا
وعباد وشعانين
لمين رح يبقا الحلا ،
من بعدها ، لمين ؟
رد ووما الزنبق إلا ،
وصار يغمز النسرين

قولك صحيح؟ قلو : مبلا
هي حلوة الحلوين .

وقصيدة « رح حلفك بالغصن يا عصفور » ، تعدّ في
مقدمة الشعر الوجداني المعاصر حكاية وسياقا ، وحلاوة
تعبير . واني لأخال ميشال من أقطاب الصوفيين
المعتقدين بوحدة الوجود، حين أقرأ قوله يخاطب الحبيبة :

وبنّده لنجمة صبح مشلوحا ،

من طاقة الجنّي

تنصّبك من النور مرجوحا ،

طيري فيها وغني ،

والقمر ، هادا الخلف صنين

متشاورف بحالو ،

بدلو عليكى بسالو : تخمين

عمتطلعي ببالو ؟

ونسير في دنيا ميشال طراد حتى نقف عند قصيدة

« قنديل أحمر » . لم يعجبني هذا العنوان لأن فحوى

القصيدة يدلنا على أن صاحبه لا تستأهله ... وزاد
استيائي ان اللازمة لم يستقم لي عليكها بعد ستة اشهر،
وها أنا أعرضها على ميشال :

وحاج تحرقيني، وحاج تتحرقني .

إن الاختيار من ديوان كهذا صعب جداً ، لأن
هؤلاء الشعراء حريصون على تنقية شعرهم من الزوان
والشليم . وليسوا كشعراء الفصحى الذين يجمعون
دواوينهم بعفشها ونفشها . ومن أجل روائعه قصيدة
« مش فايقا » ولعل القارىء يخاطر بضمن نسخة
فيقرأها وهو رابح . وهناك قصيدة عنوانها « يمكن وقع
دملج » لم أقرأ قصيدة مثلها نعومة ، وأما نخلات
مار عبدا فلا أتعجب إذا هاجمها ...

وهكذا يظل القارىء ينتقل في الديوان من حسن
الى أحسن حتى كدت أقول أن ديوان « جلنار »
كعرس قانا الجليل الذي قدمت في آخره أجود الخمر ..
ولكن هذا لا يعفى تلميذنا الطاهر من النقد وان لم

يكن لاذعاً مثل نخلات مار عبدا المشمر ...
إذا سمح لي تلميذي أن أبدي رأيي في الزجل
قلت، انه حين خاطب العصفور الذي حلفه بالغصن، قال:
وخلّا الذي بلادك وطرز ع منقادك
أليس الأقرب الى العامية أن يقول :
وخلا الذي دارك ، وطرز عا منقارك ؟
العوام يقولون منقار لا منقاد .

ثم قوله في قصيدة : « هالقلب ع الشاطيء الأخضر »
أنسي ميشال أن اللغة العامية عدوة الهمزة ؟ وهناك
هناك أخرى مثل نظراته الى الشعراء الذين تعلم
شعرهم فقال في بيت : « ودّعت قلبي يوم قلبي ودّعتك » .
وقوله في قصيدة أخرى : « متل شي زورق يحمل
ارجوان » يذكرني بزورق ابن المعتز : « قد اثقلته حمولة
من عنبر » . ثم لماذا قال زورق ولم يقل قارب ؟
وكقوله حين أراد ان يختصر الذي بعمر السوسني
وكاس ومجوز وضحكة مرا ... فكانت أربعته من

طراز غير أربعة أبي نواس .

أما تصرفه في بعض اللفظات ليستقيم الوزن
كقوله : « سنان » في سوسان . وغيرها مثل الضيعين
والجنين والدلين وصبيع ، فهذا يفقد القول بعض
روعته ، ان الكلمة تفقد هكذا كثيراً من خواصها ،
ويجب أن تأخذ راحتها وتمدّ رجليها ...

وأخيراً ليت شاعرنا ختم ديوانه الضاحك المتهلل
بقصيدة « الحب زوادي ! لا بقصيدة « حزن » .

حاشية : إني أرى قرابة كبيرة بين « جئار »
و « رندلي » . قرابة لا يحللها بطريقك بل يقتضي لها
باباً لأنها أكثر من درجة رابعة ... فالشال والقمر
والاشياء الاخرى ، وأنت وأنا وحبقه وشي سلة قناني ،
صوت صارخ يؤيد ما أقول .

لا يعني أن أصفّي هذا الحساب ، ولعل أبا معشر
الفلكي الذي قال عنه سعيد في المقدمة « انه يحسب
للنجوم الطالعا » ... يعرف أية نجمة طلعت قبل ...

يَا جُوجَ وَمَا جُوجَ
لَمَنِيرٍ وَهَيْئَتِهِ

خطا الزجل خطوات واسعة ، فيها هي مجموعات
وصحفه تصدر في كل فترة تقريباً . كانت أغراض
الزجل محصورة فيما مضى ببعض مقاطع عاطفية ،
يدور أكثرها على الحب ، وبطلتها أم العيون السود ،
والحدود المحر ، والشفاه السمر ، أما مع ' ياجوج
وماجوج ' فتناول الزجل كليل النابغة حتى مد يده
إلى المواضيع الكبرى ، بل أكاد أقول الى الملاحم .

فهذه المجموعة التي نظمها الاستاذ منير وهيبه ،
المجاز في علم النفس تكاد تكون ملحمة . تناول
نظمها بالدرس أشهر حوادث الخليقة . وبعد أن فرغ
الشاعر من معظمها ، عاد يعالج بعض الأمراض
الأخلاقية والاجتماعية ، فاجاد وأبدع في كل مواضيعه
درسا وتحليلا ووصفاً وجمالاً فنياً رائعاً . فحسب الاستاذ
وهيبه إبداعاً انه نقل الزجل من محيط حبسه فيه

الزجّالون حبساً مؤبداً إلى محيط واسع الآفاق. فليت
الشعراء الفصحاء يعالجون ما عالج من مواضيع جليّة ،
ويتركون ألفاظاً وتعابير بعينها لا يخرجون من دائرتها
زاعمين أنها كل الشعر .

القِسم الثالث

جَدُّ وَقْتِ مَاءِ

روایات، رنجد، وراثت

دودِ جَدُّ وَقْتِ مَمَّا

دِزَانَت، وَنَقْد، وَنَافَسَات

لم تكن في أيامنا ننتقد بنزاهة كما يجب .
كانت تأخذنا في بعضهم موادة ، أحياناً ، فكم
غصصنا النظر ، وكم غمرنا العالم والتعاليم بفيض
من التقريظ والثناء .

ان واجب الناقد هو ان يعرف كيف يجد
الخطأ ، وان يفتقد حيث يجب الانتقاد .

اناتول فرانس

الأدب الساخر

كما تقتضينا بعض الحفلات والسهرات طرازاً معلوماً من الثياب كالسواحلي وغيره ، أو لوناً خاصاً على الأقل كالأسود أو الكحلي ، هكذا قضى نقادنا على أحفاد امرئ القيس ، فأسمى الشاعر كالقطار الحديدي ، ان تنكتب عن سكتته وخطوطه بضع سنتمترات ، تدهور وتحطم .

وكما أن في أوروبا ثياباً معدة تستأجر لتلبس في الحفلات ، هكذا استعار شعراؤنا بزاتهم من عند امرئ القيس ليمثلوا بها في ديوان العرب .

بقي مخزن الملك الضليل مشرع الأبواب مئات السنين ، ينتقي منه الفادي والرائع ثوباً على قدته ، فتفتح له أبواب القصور ، ويهتك دونه الحجاب الصعب . وظلت صفة الطول قيد التجويد والتنقيح أدهاراً ، كأنها أحسد اكتشافات باستور التي لحقت البشر من أعدائهم غير المنظورين .

وكان عنقزة ، ذلك الغراب الفريد ، أول من شك في هذا المذهب الشعري . وما علينا لو سمينا : الطقس الأدبي ، فالشعراء طقوس يارسونها بورع وخشوع . شك عنقزة وآمن في مطلع مطولته المشهور :

هل غادرَ الشعراءُ من متردِّمٍ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهمِ
وكانه لم يطمئن ، ففتش عن مرعى لقريحته ، فرآه في جلده ، فاستغله ،
والأرض السوداء مفلال .

واستيقظ العصر العباسي الأول ، وهو عصر الثورة في الأدب العربي ،

فتفتحت عيون شعرائه الخلقاء على حضارة مجنونة بالترف والجمال ، ففطموا أنفسهم عن الحليب واللبن ، وعبدوا الأحمرين : الثور واللحم . وكان شك ، وكان مجنون ، وكانت حرية بعيدة المدى ، ولكن إلى أجل مسمى . فتقديس القديم من سجايا الناس الرئيسية ، وهو منبع العبودية .

ثم همدت تلك الثورة بانطواء سجل هذه العصابة ، وعاد الشعر بعدها إلى تزمته ، فخلع ثياب المرافع ليلبس البجاد المفروض ، فعاد الشعر إلى سمته ، لا يتمده إلا بمقدار محدود ، فدار شعراؤنا على أنفسهم في حلقة ضيقة اختطها لهم القدماء ، كأنهم أجرام النظام الشمسي ، كل في فلك يسبحون .

وإذا كان النثر كالمشي ، والشعر كالرقص ، فجل شعرا رقص الدراويش . اغراض موجزة كحياة البدوي . في ناقته تتجمع كل مرافق حياته ، من وبرها يكتسي ، ومن درها يفتدي ، وبفحمها يصطلي ... وهي مركبة إذا اسرى ، وخيمته إذا لدعه الهجير ، فمن يلومه إن وصفها جملة وتفصيلا ، ومن ذا يعنفه إن استبدت صورتها بخياله ، فتجلت لنا في تعابيره ؟ فلو لم تخصص الطبيعة بذوق سليم لأضاف : لله وبرها وبعرها ، إلى الله درها ، وأورثناها .

ليس هذا عجيبا ، ولكن العجيب الغريب هو ان يفرض اناس أوليون أساليبهم على من سكنوا الدور والقصور من ذريتهم ، فأنحلت الشخصية العربية ، وذابت في خطة امرئ القيس ، فلم يخرج عليه غير نفر قليل .

وقف هذا نفر في باب الصيرة وتنشقوا الهواء النقي قليلا ، فلا يستسلمون إلى سجيئتهم حتى يثذكروا الوقار والترصن المفروضين ، فيخلعوا مبادلهم ليندسوا في بزة الشعر الرسمية ، وهذا « مالوش » الأدب العربي و « فينو كسيرا » الشعر .

تترأى الشخصية في خلفاء امرئ القيس كوميض الحبساحب في عتمة الفسق ، فيسخر طرفة طرفة عين ، ويتهم زهير بآل حصن عابرا ، ويهزأ ابن حلزة باخوانه الاراقم مقتصدا ، ويرشد الخطيئة بإشاره العافية إلى ذاته ، من

حيث لا بدري ، فيقول لمهجوته التاريخي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
وانتشر نهار الاسلام ، فاضمحلت ظلمات الجاهلية ، وتراجعت لتقعد
القرفصاء في دياميس الشعراء . لم ينسخ الدين الجديد روح الشعر الجاهلي ، فظل
الأخطل وجريز والفرزدق جاهليين قلباً وقالباً ، أكبر مهم من الفن . ضارعة
الأقدمين ، فعبروا عن الحياة الجديدة بالقوالب المعهودة ، اللهم إلا ومضات تفل
عند الأخطل ، وتكثر عند جريز . أما الفرزدق فما انفك يقرع مروة الجاهلية
وصفاتها ...

أرسل الأخطل نفسه على سجيته في هذه الأبيات :

ونجى ابن بدر ركضه من رماحنا ونضاحة الأعطاف ملهبة الخصر
كأنها والآل ينجاب عنها إذا أنفسا فيه يحوبان في غمر
يسر اليها والرماح تنوش فدى لك أُمي أن دأبت إلى العصر
عقاب بغدتها وظلت كأنها عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر
تنق بلا شيء شيوخ محارب وما خلتها كانت تریش ولا تبدي
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر
وهو لو نما في شعره هذا النحو لترك في صحراء الشعر الجاهلي قطعاً من
الرياض . أما جريز صاحب الهجاء الحلو المر ، كما نعته القدماء ، فكان أوقع من
الأخطل وافتح عيناً ، فلم يحفل بجهروت السلطان وأبته سريره ، فضحك في
حضرتة مادحاً فقال :

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن حاجة هذا الأرملة الذكر
وهزي متغزلاً :

وتقول « بوزع » قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع
وامتاح البحور مازحاً :

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم لم تحص عدتهم إلا بعداد

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية " لولا رجائك قد قتلت أولادي
وهجاً ساخراً :

زعم الفرزدق أن سيقتل مريعاً أبشر بطول سلامة يا مريع
وقال في خصمه الآخر :

قال الأخطيطل "إذ رأي راياتهم يا مار سرجس لا أريد قتالا
وما زال ينحو هذا النحو ، كلما انفتح له مجال ، حتى نام عن السخر وتولى
رعيه الأسد الأعشى ، فأطلق لذاته العنان واستولى على الأمد .
سخر بشار من كل شيء ، وفي كل شيء ، سخر في المدح ، وسخر في الرثاء ،
وسخر في الهجو ، وسخر في الحديث وفي وفي .. فلم ينج من وخزاته المؤلمة
وجراحاته الدامية إلا من لا يعرفه .

تهكم مر ، وسخر مؤلم ، لا الصداقة تقي ولا الإحسان يعصم . غريب أمر
هذا الضير فقد بذ البصراء في كل ميدان ، اتخذ مما حوله مادة لصوره ، ولم
تتوار شخصيته في مجالات القريض جميعها . فهو في جده شخصي ، وفي هزله
شخصي ، وفي مدحه ووقوفه على الأطلال شخصي . نفس عاتية منمردة ،
نفقت عنها رماد الماضي ، وأضرمت ناراً جديدة في هيكل الأدب .
ثم نام الجبار على أشواك تمرده نومة الأبد راسماً صورته للذرية في ثلاثة
خطوط خالدة :

عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظنّ للعلم موثلاً
وغاص ضياء العين للعلم رافداً لقلب ، إذا ما ضيّع الناس حصلاً
وشعر كنور الروض لامت بينه بقول ، إذا ما أحزن الشعر اسهلاً

وآلت زعامة السخر بعده إلى المستهتر أبي نواس ، فضحك الأدب العربي
حتى بدت نواجذه . وكانت ثورة أدبية قوّضت الحيام ، وكبت اللين ، وأحلت
الحواري والدوارق على دست الحكم . وما أغنانا عن سرد شيء من شعر أبي
نواس . فكل عربي يلم بطرف منه .

ويطوي الدهر مدرسة الخلقاء فيخلع الشعر طيلسانه ، ويستعيد عباته ،
فتتجهم الوجوه حتى يطلع ابن الرومي بسخره الذي يكشر له القاريء ولا
يبلس . ثم ينطوي العلم مع المتنبي ، ولو أسرف أبو الطيب في سخره لفاز
بسهمي فاطمة امرى القيس . ولكن كبرياءه أبت عليه إلا التزمت والتوقر ،
وقديماً جنت الكبرياء على الملائكة فبدلت الأجنحة الخضراء بأذنان سوداء
وأذان وطواطية ...

ولزم الشعر وقاره ، حتى الساعة ، فما بانث له سن وانتهت به هذه العبوسة
إلى الجفاف فاليبوسة .

أما النثر فما نبه له شأن قبل الجاحظ . أنزله هذا الزعيم العبقرى منزلة
الشعر ، فانفتحت بوجهه القصور . كانت عناكب الأقلام لا تنسج خيوطها
إلا حول رجال الحول والطول والأبهة والوقار ، فإذا بها في يد الجاحظ تدور
حول عبد الرحمن واضرابه ، فخلق الأدب الشعبي . جد الجاحظ ضاحكاً ،
وتفلسف ساخراً ، وحل أخطر المضلات وأدقها هازئاً ، فكان كل من جاء
بعده عيالاً عليه حقاً ، فهو استاذ الاصبهاني في أغانيه ، وهادي أبي العلاء إلى
سلاح العميان وعتادهم ...

قرأت في ملحق لكتاب اليتيمة قال فيه مؤلفه أنه هرف في المرة شاعراً
ظريفاً ، يعني أبا العلاء . لم استغرب نعمت أبي العلاء بالظرف ، فالرجل ظريف
أي ظريف . ولئن لبس الثوب المفروض ليدخل ديوان العرب ، فقد خلعه في
رسالة الغفران ووقف بين الخالدين .

ونام السخر نومة آل الكهف حتى أيقظه الشدياق في منتصف القرن التاسع
عشر ، فكتب « الفارياق » و « الواسطة » و « كشف الخبايا » فأخرج العقل
العربي من دياميس الحريري وكهوف القاضي الفاضل ، فابتسم الأدب حيناً .
ثم عاد إلى تجهمه لا يتجه زعماءه إلى هذا الصواب كأنهم مسكرون على صلبانهم ،
ما خلا كاتباً واحداً طواه الموت منذ أعوام هو فيلسوف الفريكة ، قدبت

روح المرح ، وفاضت الابتسامة على حفاقي كتب رحلاته ، من « ملوك العرب »
إلى « قلب لبنان » .

ثم كانت الضحكات الغامضة النادرة في كلام الكاتب المبقرى عمر فاخوري ،
رحمها الله وخلف علينا ...

أدب الظل

كان أقصى أمني الأديب ان يشارف قصر ملك أو أمير ، والسعيد من ينفتح له الباب ويدنو من السدة والسرير ، حيث ينعم بعيش أخضر فيوهب ويهب حتى القلمان والجواري والضياع ان صار وزيراً. فحسن التحرير والتجبير كان سلباً للوزارة كما قال المأمون لأحدهم حين جود كتاباً عرضه عليه .

وكذلك قس في الشعراء من أبي سلمى حتى شوقي . فالأدب ، وخصوصاً الشعر منه ، ما ثبت وجن إلا في ظلال القصور ، وعنه نشأ هذا الأدب الذي نقرأ - أدب الظل - فما أشبهه إلا بتلك النباتات التي تغرس في الأصص زينة للدار ، تصمر خدها إذا هس لها نور الناظرة الحليم ، وتستقيم اخادعها إذا ضربتها الشمس ضربة فرزدقية ، فتعود إلى البوق كالحلزون .

فلا يلومن أدباء اليوم زملاءهم أدباء الأمس ، فلا يكون القماش إلا على هوى العصر . فصلل أسلافنا نسيج الكلام وفقاً للطراز المرغوب فيه ، فكان منهم الحياط الماهر ، وكان منهم كالذي خاط قباء لبشار فوقع في لسانه . فلا تظن أنهم كانوا أقل عقلاً منا ، يقلدون ولا يطمحون إلى التجديد ، فكم تبرم زعمائهم بشهوة امرائهم للصدخ ، ففرقوا لهم الشناء من بحور الشعر حتى صار المديح كالعبيث والسخرية .

انك تلمح الجديد في آثار هؤلاء الأدباء بين العتيق المعفن ، فكأنك في دكان « سمانة » فيه كل ما يحتاج اليه البيت . ولا غرابة فيما أقول ، فالشاعر أيضاً

كان من حوائج القصر ، كالهراج والتديم والسمير ، فالتناس ألهية الناس .
فلو قرأت عمر بن أبي ربيعة ، ويشاراً ، وأبانواس ، وابن الرومي ،
والبحتري ، لرأيت ان كلا منهم قال شعري : شعراً أرضى به نفسه ، وشعراً
رضي عنه كيبه . أنفق ما أجدها شعر الكيس على إغناء شعر النفس ، والمضي
في الطريق الحديث الذي هداه اليه وجدانه الحكيم .

مساكين الشعراء ، فلا يفرك ما تقرأ في كتب الأدب عن الحفاوة بهم
واعظامهم ، فقد كان يقف الشاعر بباب الأمير الشهر والشهرين ، والعام
والعامين ، ولا تطأ رجله البساط ليقبل بين يدي سيد السرير ، وينشده
قصيدة سداها الكذب ولحمتها التمليق ، وكم كان هؤلاء الأسياد يعبتون
بالشعراء ، بل كم كانوا يثدون بناتهم ، فهذا صراخ ابن الرومي يجرح القلب على
بعد العهد به ، فيقول :

رددت إليّ مدحي بعد مطلٍ وقد دنت ملبه الجديداً
وقلت امدح به من شئت غيري ومن ذا يقبل المدح الرديداً
ولا سيما وقد اعقبت فيه مخازيك اللواتي لن تبيدا
وما للحي في أكفان ميت لبوس بعد ما امتلأت صديداً

أرأيت ماذا تعقب خيبة الشاعر ؟ ! وإن تسمع بالأخطل المدلل فهذا
واحد لا غير ، وقد مات ذلك الدلال بموت ممدوحه عبد الملك ، وعفى عليه
عمر بن عبد العزيز ، فطرد الشاعر ، فانزوى في صحرائه القاحلة حتى مات ،
وهو يذكر بطن الفوطة و « الخبر » الذي أتى ...

مساكين الشعراء ! مات المتنبي وفي قلبه جرح أليم من ضربة الدواة التي
خلد مدادها سيف الدولة ، وإن قال : فما لجرح إذا أرضاكم ألم ، فلا تصدقه ،
فقد رافقه ذلك الألم إلى القبر ... وخيبة أبي نواس بالخصيب ، والمتنبي بكافور
تنبئك كم كان يكدح قوالو الشعر في إدراك الرغيف ، فتركض ويركضون ،
ويعلم الله من يسبق . وإن شبعوا حمدوا الله على تلك النعمة وقالوا في الأمير

ما يزهى به كالغراب ، والجسور منهم كان يهجو إذا استبطأ العطاء ، فطوراً
يأتيه وقارة يقضي عليه .

وما كانت حال الشعراء في غير أمتنا إلا كعالمهم عندنا ، فهذا كورنيل
يسترحم القصر ليجري على بوالو قليلاً من المال يتقوت به ، كما أوصى قبله أبو
تمام امرأ المعرة بآبن البعثري ، فأكرموه على بذاذته ، وأخيراً نهض الغرب ،
فأبى أن يكون كالدجاج ، يزرع في الحوش ، وينثر له الحب ، ويشرب الماء
الأسن من الجرن ، فطار في الأفق الفسيح ، يفتش عن هواء طليق ، وشمس
حررة ، وماء طهور . وألف الجنان ، فاهتمه غناء أطرب القصور ، والأكواخ ،
وزار - والشعراء أمد وطير - فارعد فرائص العروش . وشعر أنه ملك دولة
- الرأي العام - فبسط عليها سلطانه ، وأوغل في طلب حريته ، وذاقت
الأمم حلاوتها ، فتهافتت على ما يطبخ وينضج ، فكان للنابع الثروة والسعادة
والمجد . ألم يتوجوا فولتير قبل موته بأشهر ؟ ألم تمس فرنسا في مناحية هينغو
السخ ...

أما المتطفل على موائد الأدب ، في كل جيل وأمة ، فظل قلبه يتعصر مشتتاً
عضة كسرة ، كاليمازار ، ولا يجدها . وان يش علل نفسه بالجلوس في حضن
ابراهيم ، ولكن ليس في الأدب هؤلاء المعاتيه جنة يخلدون بها .

أما عندنا ، فظل الأدب يتسكع في الظلال حتى كانت الحرب الكبرى التي
نفخت في العالمين روحاً جديدة ، وخلقت أدباً جديداً ، فأدرك أدباؤنا أنهم
خلقوا لغير التسول والشعاعة ، فأبت عليهم أنفسهم أن يظلوا راسفين في تلك
القيود - إلا الذين ما برحوا مداحين نواحين - فنحوا منحى جديداً في كل
ألوان الأدب ، وان لم يعرفوا بعد بصنف خاص ، فانهم سيظفرون بالطابع
ان فكروا بمقولهم لا بمقول جيرانهم كأكثر الناس ، وان عبروا بلفظة جيلهم
وزمانهم تعبيراً صحيحاً ، ولم يروا مثلهم الأعلى في تلك الروامم ، التي يمدحون
من سويقها ولا يتأبتون ، ولم يخالوا الأدب كله في عبارة مقفعية ، وجملة جاحظية ،

وسجعة همدانية . فالجاحظ الاديب الساخر لم تقرر له الأجيال بالامامة إلا لأنه فكر بعقله ، ونطق بلسان جيله ، وأبى أن يتكلم كالمتقدمين ، فقال للناس : أنا أبو عثمان ، أنا الجاحظ ، ولست قساً ولا سحبان ، ولا اكثم بن صيفي .

لسنا نبعث الآن تطور الأدب ونهضته الحديثة - هذا بحث طويل كشر الصوم ، وأنا صائم دائماً ولا أرتجي أجراً - ولكنها كلمة عرضت ، ساقنا اليها فرحنا « ببنك مصر » الواهب الألف الجنيه ، ولمن يأخذونها المنة والشكر . فلا عذر ، بعد اليوم ، ولا شكوى لأدباء القطر الشقيق . فالى الميدان أيها الجياد ، وأرونا فتحاً لا غزواً ، أرونا تأليفاً لا ترجمة ونقل .

قلنا فيما مضى للامتازين الرافعي والعقاد ان المستقبل للقصة ، فليتركها الشباب وشأنهم فيها ، فجادلا وماخكا لأن ليس لها قصة . فما يقولان اليوم وقد رددت أجواء مصر صدى النفير العام . عفواً بل النفير الخاص ، ينفع فيه بنك مصر داعياً الكتاب إلى الجهاد القلمي ، وما علينا نحن إلا أن نردد : نصر من الله وفتح قريب .

أية كلمة تفي بالثناء الواجب لبنك مصر . فتشت فما وجدت إلا كلاماً مبتذلاً ، فلو كلنا المدح بالمدح لمن حقق آمالنا لقصرنا ، فخير من المدح تمنيات قلبية لهذه المؤسسة ، وحث كل عربي ليجعلها بيت ماله فيستثمره ويفيد أمته ، فهي رافعة رأس العرب ، إن شاء الله .

كنا نحس ألماً حين نقرأ في صحف الغرب عن الجوائز الأدبية التي جلت صدأ العقول ، وفتحت للانتاج الفكري أبواباً ، فعقد القوم لكل لون من الأدب جوائز . أما نحن فكنا نلهو بالتفاهة ، كأن الأدب سباق اطفال يحرم فكه في المضمار ، وللعجلي كرة أو ليمونة ..

فكرنا منذ أشهر بخلق جائزة ولو زهيدة ، وطرقنا باب كثيرين فعدنا من عندهم نردد قول الخطيئة :

لقد مرينكم لو أن درتكم يوماً يحى بها مسحي واباسي
لم يخطر على بالنا أن نقرع باب « بنك » لعلنا أن صناديق البنوك حديدية ،
وليقيننا أنها لا تعنى إلا « بمن والى » حتى طلع علينا بنك مصر بهذه الارجحية .
ويأتيك بالأخبار من لم تزود .

نعم أن الجائزة للكتاب المصريين ، كما يدل ما قرأت ، والموضوعات أيضاً
قصص مصرية محضة ، فنحن لا يعيننا من يأخذ المال ، فسواء أعندنا مصرياً كان
أم عراقياً أم مراكشياً ما دام اللسان عربياً . فكل ما نخلم به ونصبوا اليه أن
تربو ثروة الأدب العربي ويرزق مولوداً جديداً ولو انشى ...

وان كان لي ما أقول في هذا الصدد فرجاء إلى طلعت حرب باشا أن لا
تكون لغة « الحوار » ، لأن القصص تفقد طرافتها متى عرضت في الأقطار
العربية التي لا تفهم اللسان المصري العامي ، على ظرافته وحسن جرسه ، فكم
كنت أتألم - لا لشيء إلا لأني لم أفهم - حين أسمع حديثاً تنطق به أشباح
السينما المصرية .

أما الذين هزناهم للجائزة الصغيرة وظلوا جامدين كالصنم فليعذرونا ، ظننا
بهم خيراً فازعجناهم ، وما علمنا أنهم لا ينفقون ما لهم إلا على جاه باطل ،
وصيت زيف ، على موائد خضر ، ودفاتر غير دفاترنا السوداء ...

نحن لم تكلفهم أريجية بنك مصر ، فليتهم أرونا عذرهم ولم يرونا بخلمهم ،
ما طلبنا منهم إلا فلس الأرملة لأدبنا اليتيم ، فكنا من المفلسين ، والسادة
معذورون لأنهم لم يتعودوا الاتفاق على الأدب ^(١) ...

(١) كتبت يوم لم تكن عندنا جوائز .

فرح انطون

سيرته وآثاره وأثره
في مجلته الجامعة
فرح انطون القصصي
الدين والعلم والمال
الوحش الوحش الوحش
أورشليم الجديدة
مريم قبل التوبة

سيرته وآثاره وأثره

في صيف عام ١٩٣٧ أذيعت في القاهرة هذه الكلمة :

في الشهر القادم يكون قد مضى على وفاة فرح انطون خمسة عشر عاماً ،
ويحسن برجال الأدب الذين يعرفون فضل هذا الأديب العظيم في
النهضة الحاضرة أن يحتفلوا به . فإن في الاحتفال تنوعاً بألوان
التجديد التي قام بها في توجيه الأدب الحديث نحو الثورة ، واعترافاً
بفضله على التفكير المصري . ونحن لا نعرف أديباً ممن يؤبه بهم في
مصر لم يتأثر بأحسن التأثيرات من فرح انطون ، وكثير من
النزعات الحسنة في أدبنا يعود إليه . وقد كان دأبنا في كل فرصة
أن نعترف بفضله ، ولذلك نحن ننتهز الفرصة الحاضرة لتنبية
الوجدان الأدبي في مصر إلى ضرورة الاحتفال بمرور خمسة عشر
عاماً على وفاته .

سلامه موسى

هذه كلمة سلامه موسى في عدد حزيران من « مجلته الجديدة » عام ١٩٣٧ .
وسلامه هذا من رؤوس كتاب مصر ، أديب فائز من الطراز الأول ، ينبض كل
قديم حتى نفسه إذا عمر طويلاً . ويرى الخير كله في الغرب الذي يبدل كل يوم
ثوباً ، ويؤله الشرق المنكمش القابع في قميصه وسراويله كأنه السلحفاء . يحذو
سلامه في المعادات والآداب واللغة حذو مصطفى كمال في الدولة . يريد أن

يلحقنا بالغرب في كل شيء ، حتى دعا إلى استعمال الحروف اللاتينية بدلاً من العربية ، وقلع الطربوش ولبس القبعة ، وحجته ان لبس البرنيطة يصير تفكيرنا غربياً ، كأننا عقل الانسان في رأس طربوشه ، كما يقول المثل اللبناني ...

ان سلامة يسير إلى التجديد طافراً ، ونحن نعجب بالكثير من آرائه الطريفة ، وان شجبنا دعوته إلى الحروف اللاتينية وما أشبهها ، أما الطربوش فعسبه أحمد حسن الزيات نصيراً .

ليست هذه ساعة تحليل سلامة موسى وتصويره بالألوان ، ولكنها خطوط فرسها ، لعلها تطبع شيئاً من صورته في أذهان قرائنا . فهذا الأديب الذي يريد أن يخلق مصر خلقاً جديداً يتم بحماسة رسالتين اثنتين : رسالة الشميل وصروف ، ورسالة فرح انطون في الجامعة . وهو ينقل لنا في كل ساعة ما يبتدعه الغرب ، وبحسبنا « العقل الباطن » الذي فتن سلامة موسى ، ففتن به عقل العالم العربي .

لست أضع الأستاذ سلامة على محك الشدياق ، وابن خالويه ، بل أقول فيه كلمة قبل الانتقال إلى فرح انطون : ان سلامة موسى كاتب يجري إلى غاية ، وهدفه تجديد الشرق اجتماعياً وأدبياً . ومجلته التي يدل اسمها عليها نشرة ثمينة لا يسد مسدها غيرها ، وإذا انطوت – وقد انطوت – كان في الشرق فراغ كالفراغ الذي أحدثه انطواء جامعة فرح انطون ومقنطف صروف .

ان سلامة مجدد من مزارب برنيطته إلى شريط بوطه ، والأيام كفيلة بتحقيق الكثير من أمانيه . قد أحسن هذا الأديب بتذكير مصر بأديب أفضل عليها . وهو ، بعد الشدياق ، من رسل اليقظة الفكرية في الشرق كما قلنا عنه مرة في « عكاظ مدرسة الحكمة » وهذه كلمتنا بحروفها :

« وإذا نظرنا إلى المدارس الفكرية رأيناها أيضاً بنت هذا البلد الطيب – لبنان – فقبل الشميل وصروف لم يتحرك لسان في الشرق العربي بمحدث النشوء والارتقاء ، وقبل فرح انطون لم يعالج أحد المشاكل الاجتماعية المويصة ، ففرح فتح باب التفكير الحر وشرّعه للناس ، ولكنه جاء قبل أوانه ، فحولته

الحاجة عن مجراء إلى مسرحي سطحي بكتب ليعيش الخ ، .

وكتبنا أيضاً بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٣٤ في جريدة « صوت الأحرار » ما يلي :

« وهذا فرح انطون ، ماذا لقي في هذا الوطن ؟ واخجلة التاريخ منك يا أبا المدرسة الحرة ! فمن نشر آراء رنان ، ورومو ، وتولستوي ، ورومكين ، ونيقشه ، وغيرهم قبل فرح ؟ وماذا فعلنا نحن له غير الأغارة على آثاره التي اتخذ سويداء قلبه مداداً لتجويرها ؟ فهذا المنفلوطي - غفر الله له - صديق فرح ، قد قرظ قصة بولس وفرجين التي ترجمها فرح ، وعملها قصيدة يوم كانت ينظم الشعر ، حتى إذا مات فرح ، شن القارة على بيت صاحبه فسبى بناته وكساها ثوباً عربياً من طرازه ، فأفسد خطوطها ورسومها ، فصارت لا عربية ملحفة ولا فرنجية مشمرة . »

وفي ذاك المقال عتبت عتياً عنيفاً على خليل مطران ، لأنه كتب مقالاً في هلال حزيران سنة ١٩٣٤ عنوانه « رواد النهضة الحديثة » لم يذكر فيه فرح انطون ، وجبران ، وولي الدين ، ثم لمت فيه مؤلفي « المفصل » لأنهم أغفلوا ذلك ، فقلت في فرح : « وفرح يحيا بآثاره الخالدة يوم يؤرخ الأدب تاريخاً نزيهاً لا عوج فيه . »

فليراجع المقال من يحب التفصيل ، أما نحن فقد طابت الآن نفسنا ، واليوم الذي ظنناه بعيداً كان قريباً جداً ، إذ قام أديب خطير كسلامه موسى ، بارك الله في عمره ، ودعا الغافلين إلى إحياء ذكرى فرح . ليس أبلغ في مجال شكرنا للاستاذ سلامه من الكلمة العربية الماثورة : الفضل يعرفه ذووه .

والآن فانتنا نتساءل : إذا لبث مصر نداء أديبها الحر ، وشاءت أن تزور ضريح فرح انطون ، فهل تعرف أين هو ؟ هل لفرح ضريح خاص ؟ أليس فرح في ضيافة أحد أنسابه كبودليز قبل أن نهض أدباء الأمة الفرنسية وبنوا له ضريحاً ؟ فهل من يعمل هذا لفرح في مصر العزيزة ، منبع الخير والبركة ؟ .

ولكي نعرف فرح انطون إلى شبابنا الذين يجهلون - كما جهلوا الشدياق من قبل - لا بد من كلمة موجزة في سيرة حياته ، نكتبها ونسأل صديقنا الأستاذ جرجي نقولا باز أن يتفضل علينا بترجمة للرجل . فهو يستحقها كالذين يؤرخهم صاحبنا . ومن الرب نطلب أن يوفق إلى إلحاق نسبه بفسان أو قریش ... كما يفعل في كتابة « السیر » غالباً .

ولد فرح في طرابلس سنة ١٨٧٤ وتخرج في مدرسة كفتين يوم كانت جبر ضومط وانطون شحير استاذين فيها . كان أبوه من تجار الخشب في طرابلس ، فأراد أن يجعله مثله تاجراً ، فجرب فرح ثم أبى ، وعكف على مطالعة روسو ، وتولستوي ، ورنان ، وسيمون ، وكارل ماركس ، وبرناردشو ، وغيرهم . ودعي لرئاسة مدرسة للروم الارثوذكس بطرابلس فتولى ادارتها بضع سنين . وشرع يكتب في تلك الأثناء فأعجب الناس ، ورأى مجال القول ضيقاً في طرابلس ، فنزح إلى مصر سنة ١٨٩٧ ، وهناك أنشأ مجلة الجامعة التي ملأ صيتها الشرق وديار هجرة العرب ، وكانت بوق الحرية الصارخ في أذن الرافدين . ثم ضاقت عليه مصر ، فنزح إلى نيويورك سنة ١٩٠٧ ، فقال أحمد محرم أحد شعراء مصر قصيدة في هجرته هذا مطلعها :

إن كنت لا تبغي نفسك راحةً فارح مطبك والدني وبنيها

وفي نيويورك وسع البيكار ، فأصدر الجامعة : يومية بيثاني صفحات ، واسبوعية وشهرية . ولكن اقامته لم تطل هناك فعاد إلى مصر وأصدر الجامعة - المجلة - سنة أو أقل ، ثم حجها عن الناس . وانصرف فرح الأديب إلى تحرير الصحف الوطنية السياسية ، وأخذ يؤلف الروايات ويترجمها . ووضع الروايات التمثيلية الغنائية ، وألف جوقة منيرة المهدي فقامت بتمثيلها ، وأخيراً انضم إلى صفوف الوفديين المجاهدين ، فعاون الأستاذ عبد القادر حمزه في تحرير جريدة الأهالي إلى أن مات بغتة قبل صياح ديك ثالث تموز سنة ١٩٢٢ .

آثاره الأدبية

- الجامعة - مجلة شهرية أصدرها سبع سنوات .
- فلسفة ابن رشد - جدال بين فرح والإمام محمد عبده .
- أورشليم الجديدة - قصة فلسفية اجتماعية .
- مريم قبل النبوة - قصة اجتماعية مات ولم يتمها .
- الوحش الوحش الوحش - قصة خلقية لبنانية .
- الدين والعلم والمال - قصة .
- بولس وفرجينى . الكونخ الهندي . لبرندين ده سانبيار .
- أثالا - لثاقو بريان .
- نهضة الأسد - رواية ديماس عن الثورة الفرنسية .
- تاريخ المسيح - لرتان تلخه تلخيصاً .
- أما رواياته التمثيلية فعديدة : الهرج الهائل ، ابن الشعب ، الساحرة ،
- أوديب الملك ، المتصرف فى العباد ، صلاح الدين . مثلها جميعها الاستاذ جورج
- أبيض .
- كرمن ، كرمينا ، روزينا ، فايدس . هذه الروايات الأربع مقتبسة مثلها
- جوق منيرة المهدي .
- مصر الجديدة ، بنات الشوارع وبنات الخدور . روايتان غنائيتان مثلها
- جوق آخر .

أبو الهول يتحرك . رواية غنائية وهي أبداع ما ألف في التمثيل ، ورواية ذات الورد ، لدياس .

أما ما اودعه فرح في « جامعته » فكنز ثمين ، بل ذخيرة للذين يرغبون في مرافقة الفكر الانساني واتباع تطور الخلق والدين . وفرح أول كاتب عرّف العرب بالفيلسوف الألماني نيتشه والمعلم كارل ماركس .

عندما قرأت في رسالة الزيات أن صديقي ورفيقي الأستاذ فيلكس فارس عزم على ترجمة كتاب فردريك نيتشه « هكذا تكلم زاراتوسترا » فرحت كثيراً لعلمي أن فيلكس يحذق اللغتين ، وهذا أول شرط الترجمة . ثم توقعت أن أقرأ لفيلكس كلمة يترجم بها على فرح وينوّه به ، فإذا به يقول : « لم يفكر أحد بترجمة هذا الكتاب العظيم الخ .. » مع أنني كنت أقرأ وفيلكس ما ترجمه فرح من زاراتوسترا وما كتبه من الفصول عن نيتشه وفلسفته .

ان في صدور أدبائنا حباً شديداً للاحتكار ورغبة في الاستبداد بالأصناف . ففي كل بلاد ألوف من الشعراء والقصصيين والمؤرخين والكُتّاب ، ولكنهم لا يتزاحمون هذا الزحام المزعج ، ولا ينسى المتأخر المتقدم . وأول ضحايا هذه الأناية الجائعة كان فرح انطون . فقد أكلناه ميتاً ، ونحيناه نسياناً مشيناً .

في مجلته الجامعة

كلما رأيت دير كفتين الناظر إلى طرابلس ، تذكرت فرح انطون . وكلما مررت في الشمال ، تذكرت قصته « الوحش الوحش الوحش » ، وتأملت الأمكنة التي وصفها هذا الأديب الشاعر ، من دير حاطوره إلى الحدث والأرز .

فرح ابن الشمال ، ولد في طرابلس ، وتعلم بدير كفتين . رأى التعصب الديني في طرابلس والكورة والجبة ، فثار على محيطه - ومحيطه محيط الشرق كله - ثم أغرق في مطالعة كتب المحررين ، فخلع النير .

قال بول بورجه : « كل من يصفيه التفكير والمطالعة يتعرض لعدم الامتزاج بمجتمعه ، فأما أن يشور على بيته التي يتألم منها ، أو يحاول الدخول في غيرها ، فهو كالنبنة التي تشق جذورها الاناء الذي نشأت فيه ، فيجب ان تنقل منه . » وهكذا فعل فرح ، نزع إلى مصر وأنشأ الجامعة . كانت في عامها الأول عثمانية تدعو الشرق إلى الالتفاف حول عرش الامتانة وتكرمه باوروبا ، فكان فيها فرح شرقياً يحب الكثير من عقائد الغرب الاجتماعية . كان كالبيستاني الحبير يؤصل ويطعم . أذاع مبادئ جول سيمون ، بل أعلن في مقدمة مجلته أنها لسان حال هذا الفيلسوف ، ورأى معه أن تربية المرأة والنشء تمنع كل فساد ، فأنصرف إلى بحث التربية فرآها في ثلاثة أقانيم : بدنية وعقلية وروحية ، وحيث لا تتجمع ثلاثها يظل الإنسان ناقصاً .

ونظر فرح إلى التعليم فرأى المدارس كافية ، فكان أول الداعين إلى اصلاح

تربيتها وتعليمها ، لا إلى زيادة عددها ، والإكثار منها ... وأنشأ في السنة الأولى بابين يدلان على ذوقه السليم : الأول غذاء المعد القوية ، وفيه نشر حكم مفكري الشرق والغرب ، وخصوصاً لابروير ، والثاني غذاء المعد للضعيفة ، وهو للفكاهات والنوادر .

وما اطلت الجامعة حتى قالت فيها مجلة الهلال : « ان الجامعة جاءت الشرق في إبان حاجته اليها » . ورأى فرح في القصة معلماً ومهذباً للناس ، فدعا إلى انشائها ، وألف قصة « الحب حتى الموت » ، أقامها دليلاً على أمانة المرأة المحصنة . وعرب رواية البرج الهائل ، لتكون برهاناً على خيانة الفاجرة وقتلها النفوس اشباعاً لشهوتها .

ففرح انطون أديب اجتماعي قبل كل شيء ، وفي كل شيء . في مجلته ، ومقالاته ، وقصصه ، ومسرحياته ، وهو رسول الديمقراطية في الشرق العربي ، نشر تراجم الرجال ، شرقيين وغربيين ، ليجعلها أمثلة للشرق الغافي . وكثيراً ما كان يذكر مزايا الحيوان ليبكت أخساء الإنسان ، وان ذكر خبراً علمياً فليعجب بالعقل البشري ويتفأل .

شكا في أول عدد من الجامعة قلة الايمان بالله وضعف الثقة به ، ولكنه نسي ذلك أخيراً حين اعتنق مبادئ نيتشه كما سيأتي . ولم يهمل فرح الشعر والشعراء ، فهو أول من اطرأ أحمد شوقي ، لا لأنه شاعر الأمير ، بل لأنه رأى أنه سيكون عظيماً إذا كد واجتهد . ونشر كثيراً من سير الشعراء المتقدمين والمعاصرين حتى حشر الأمير عبد القادر الجزائري في هذا المضيق وأورد شيئاً من نظمه .

فرح كاتب ثوري وعملي بروح رومنطيكية ، فالتربية والمدرسة حديثه الدائم منذ مولد الجامعة حتى موتها ، يشبهه من كتابنا اليوم الذين لهم عقيدة لا ينفكون عنها الكاتبان الشهيران أمين الريحاني ويوسف يزبك ، وكلاهما يتفقان معه في التأليف عن الثورة الفرنسية ، الريحاني في نبذته ، وهي أول آثاره الأدبية ، ويزبك في (١٤ تموز) ، كما لا يختلفان عنه في المثابرة على خطة لا يحيدان عنها .

كل ما خطه قلم فرح انطون يتفق وروحه ، بل قل لم يكتب كلمة تخالف عقيدته ، وروحه الحية ظاهرة في جامعته ، فكأنها كتاب خاص لا مجلة جامعة .

طبع على نصره الضمضاء ، فيما نشبت حرب البوير حتى كتب تحت عنوان « الترانسفال ظالمة أم مظلومة » سلسلة مقالات طار فيها على اجنحة الخيال ، وعذف الانكليز تعنيفاً معقولاً ، وتكلم بلغة آشعيا وأرميا ينذر الدنيا بالويل . ثم رأى حاجة الشرق إلى معرفة سير أصحاب الأديان فنشر المقالات الإضافية عن بوذا وفلسفة الصينيين الخ ، فأنار الأذهان وفتح العيون .

وكان حريم السينودوس - المجمع المقدس - للفيلسوف تولستوي ، فقام فرح يكتب عن هذا المعلم العظيم . نشر سيرة حياته ، وحلل فلسفته ، ومحيطه ، ولخص رواية « البعث » رأس كتبه ، ثم اذاع ما دار حول « حرمة » من مناقشات ، وردده على المجمع ودفع زوجته عنه ، وبعض رسائل تبادلها الفيلسوف ومعاصريه .

ففي الجامعة يتعرف القاريء رجال الفكر العظام ، ولا أظلم صاحب فرح أنطون ان قلت - معرفة وجهه - أو كما يلم ناظر السينما بما يعرض عليه من مشاهد . لخص فرح كتباً كثيرة في فصول ، وهو ان أساء إلى أصحابها والفن ، فقد أحسن إلى الجمهور ، إذ كان كمن يعطي المريض درهم كينا بدلاً من حزمة قنطاريون .

أرانا فرح برزدين دي - ن بيار في الكوخ الهندي ، وبولس وفرجين ، وشانوبريان في أقالا ، وحدثنا طريلا عن الاسكندر ، وبحث نظرية داروين ، وتكلم عن الحلقة المفقودة ؛ ولم يحمل شيئاً حتى سكان الكواكب ، ولكن ليس بتعمق المقتطف ، فهدفه تنوير العقول وتعميقها بأحبابه من الكتاب الغربيين مثل جون روسكن ، رسول الفنون الجميلة ، والمبشر بحب الطبيعة ، والمنادي ببدعة ملكة أيار - الاحتفال بعيد الربيع الذي نعظمه اليوم .

يرى روسكن ان الفن ضرب من العبادة ، لان الانسان لا يبلغه إلا بعد فهم الطبيعة وحبها (ص ٥٦٧ سنة ثانية) أما رأيه الاجتماعي فينحصر في ان سبب الفساد والشقاء هو استبداد أرباب الأموال بالشعب ، وحفظهم هذا الاستبداد بواسطة المعامل والآلات .

وينشر قاسم أمين كتابه (المرأة الجديدة) فينصره فرح ويلخص الكتاب لقراء الجامعة كايخلص أشهر الكتب العالمية ، ويعبر هذا الكتاب اهتماماً عظيماً ، فيقابل بين آراء قاسم وجول سيمون . ويموت المحولي ، موسيقي زمانه ، فيكتب عنه فرح ويعتبره عظيماً ، ويتكلم بهذه المناسبة عن الطفل « أريولا » الذي صار موسيقياً في عامه الثاني .

هذا شأن فرح في كل مناسبة تعرض . اما حبه للتمثيل فشديد ، وقد كتب عنه كثيراً في الجامعة مناصراً هذا الفن الرفيع ، وان عدة الزيات من الادب الخفيف في مجلة « الرسالة » .

وتدخل الجامعة في الحول الثالث فيصدرها فرح بمقال « تاريخ الاندلس من أوله إلى آخره » ، فيستبكي الرافعي ، فينظم قصيدة ندية القافية . وكأنما كان أقصى هم فرح تعريف الشرق بالغرب ، فيلخص كتباً لريدر كلنغ ، وينشر مقالات علمية ترمي كلها إلى غرضه ، حتى اذا عرف أرنت رنان الشهير ، ترجم له ونوه به تنويهاً عظيماً ، ونقل كتابه « حياة يسوع » مع مراعاة مقتضى الحال ... متصرفاً حتى في عنوان الكتاب فجاء أشبه بالشبيبة : « كتاب صلوات وتأملات روحية » .

ولم يلبه كل هذا عن شؤون مصر وسورية خاصة ، والشرق عامة ، كما لم يغفل عن نشر سير العصامين فكتب سيرة فليكس فور بعنوان : « من معمل الدباغة إلى رئاسة الجمهورية » ولا ينسى برتلو الكياوي فيترجم له ويهتف : المجد للعلماء .

ولا يهاب النظر في الشعر ، على قلة بضاعته منه ، فيحدد حافظ ابراهيم

وأحمد شوقي تحديداً جديداً جيداً ، ويتكلم عن باكون وشكبير بأسهاب مبتدئاً هكذا : « مشاهير الناس آلهة للناس في هذه الحياة ، ولكنهم آلهة لا تعبد إلا بعد الممات » .

وتحتفل فرنسا بذكرى ميلاد هيفو المثوية ، فيكتب درساً مطولاً يفتحه بكلمة كاتب دغمركي شهير : « ان ظهور أعظم الرجال في الارض منحة الهية من السماء » - كذا كان ظهورك يا فرح يرحمك الله - .

ويحول في الموضوع جولة صادقة كأنه من كبار النقاد . أقول هذا ولا أشك في انه ممن طالعوا كثيراً النقد الفرنسي في أمم مصادره . ولا يترك فرح مقالته هذه بلا استنتاج ، فيقول لكتاب الشرق وشعراته : « ان رجلاً كهيفو لا ينبت من الارض ، ولا يهبط من السماء ، بل هو ينشئ نفسه بنفسه ، وذلك بالصبر والعمل والسر (ص ٥٢ سنة ٣) » .

قلت : هلا يسمع شعراؤنا الذين يريدون ان يكونوا كباراً غصباً عنا ؟ وقبل ان يختم فرح مقاله عن هيفو يتذكر مهمته التربوية فيدير وجهه صوب النساء ويقول لمن بلسان رويستان : « أيتها النساء ، لا تهملن ولداً ، إذ من يعلم متى ير في الارض ذلك الولد الذي سيكون الها . ومتى أخذت رأس ولدك لتقبيله فلا تضغطن عليه كثيراً فانه ربما كان هذا الرأس وحده يضم عالماً عظيماً » .

ويعطف على رنان فيعرب « حرمة » لحارميه ، ويذيع صلاته المشهورة عند الاكروبول ، ثم جواب أناتول فرانس عليها بلسان آلهة الحكمة ، يوم الاحتفال بتمثال رنان . وهنا ينتقل فرح إلى دارة جديدة فيلخص فلسفة ابن رشد ويذكر محنته ، فتتبعه الجامعة اتجاهاً جديداً تتجلى فيه أبهى خدماتها للفكر العربي ، وهي اذاعة اعقد المسائل والقضايا بلغة يفهمها كل قاري ، فكان فيها فرح من اولئك الذين ينشرون المعلوم بلغة القراءة المصورة ؛ فما انتشر عند ابن رشد حتى نشبت معركة جدلية حوله فينصرف فرح إلى الرد على

الامام محمد عبده .

خبرنا فرح بهذه المناسبة قال : (وعصبت رأسي) كما يقال ، وانصرفت ثلاثة شهور إلى درس هذا الموضوع وحده حتى فقدت النوم والقابلية . ان الأشهر الثلاثة التي صرفها فرح في الرد على الامام لا شبيه لها في التاريخ إلا مناظرة الخوارزمي والهمذاني ، بيد ان فرح انطون الشاب اظهر اسمى الاحترام للشيخ الذي يستحقه ، وهكذا ذاعت شهرة فرح ، الذي نسيناه ، في العالم العربي وتجاوزته إلى الغرب فطلب المتشرفون تأليفه .
قال حافظ ابراهيم شاعر الامام في هذه المناقشة :

وانت لها إن قام في الغرب مرجف وانت لها ان قام في الشرق مرجف

يعني حافظ بالمرجفين : هانوتو وفرح انطون . اما فرح فعلق على هذا البيت بقوله : حافظ ، حافظ ، انك لم تحاسب نفسك لما نظمت هذا البيت . وتدخل الجامعة في السنة الرابعة (١٩٠٣) فيبدأها فرح بإذاعة الفلسفة الحسية ناشراً ترجمة أوغست كنت واضح ديانة الانسانية والعلم . ثم يلخص تاريخ الرسل لرنان . ويقترح على حكومة مصر احداث مدارس زراعية ، كما دعا السوريين في اميركا إلى الزراعة فيما بعد . ونظر فرح إلى السماء فليخص لقرائه شيئاً من كتاب فلامريون الفلكي الشهير . وظهرت اكتشافات بابلية فنشر سيرة حمورابي وشريعته وما احدثه اكتشاف الواحها من قلق فكري وشك في التوراة . وترجم رسالة الامبراطور غليوم لاحد أصحابه العلماء فكأنما كان فرح مديعاً ينقل خطة الفكر في العالم .

كان يعلن احياناً ولا ينجز ، لكثرة أشغاله ، واضطرابه العصبي . بدأ أشياء كثيرة ولم يتمها ، ككتاب فلامريون ورواية مريم قبل التوبة . وقصة اسبانية تحب عربياً ، وعد بها ولم ينشر شيئاً منها .

وفي هذه السنة - الرابعة - الف فرح ثلاث قصص اهداها إلى قرائه . وثامت الجامعة على اثرها سنة كاملة حتى استيقظت في نيويورك سنة ١٩٠٥ ،

وهناك ارخى فرح لقلمه العنان فحيا تمثال الحرية تحية حارة ضمنها أصدق عواطفه الاجتماعية . وكتب بعدها عن عظمة أميركا فصولاً ضافية ، ودرس مدنيته ، ولكنه لم ينس الشرق بل ظل يحن اليه . واستماله روسو فكتب عنه ونشر رسوماً عدة له ولمدام دي وارين التي أحبتة . وعرب رواية ابن الشعب ونشرها متقطعة ، وفتح باباً جديداً نشر فيه روائع الفن التصويري . وكتب عن القصة فصلاً جميلاً (٣٠٦ سنة خامسة) وتحدث عن مشاهير أميركيين مثل تافت وهارست ، ونشر ترجمة مار بولس حبيب الأميركيين .

وفيها عرف فرح الفيلسوف نيتشه ونقل شذرات من فلسفته الهوجاء . وجاءت السنة السادسة فنشر فصولاً من رائعته « مريم قبل التوبة » . وأثرت أميركا المادية به فرأى في نيتشه كل شيء ، وتهوس حتى قال شعراً هو الأول والآخر من نظمه ، فجاء كالاراجيز . وألقى خطاباً امام شلال نيساغرا أشبه بخطبة رنان امام الاكروبول فيه روح نيتشه أو نازيته ، ان شئت ، واليك بعض أبياته الشعرية التي بناها على فلسفة نيتشه :

عج بالجمال ولا تعج بالوادي	ان شئت رؤية هذه الاجساد
واركب لها قطر البخار فقد مضى	عصر النياق وصوت ذاك الحادي
واطلب اليها ان تطير ولا تقل	« مهلا فانك سائر بفؤادي »
فالوقت وقت ارادة صماء تصر	ع كل معترض سبيل جهاد
مات القديم فكفنوه فما له	ما بيننا من رجعة ومعاد
الأرض تحتاج الارادة والعزيمة	والنشاط وليس وحي الدين والارشاد
فيها ارتقت هذي البلاد وانها	مرقاة كل تمدن وبلاد
هذا كلام نيتش ان نيتش كان	مقوم المعوج والمنقاد
في زعم بعض الناس اما مذهبي	فيه فابقيه إلى ميعاد

ولكن هذا الميعاد لم يأت ..

رأى فرح صراع المادة في أميركا وعاد إلى القاهرة مقهوراً غير ظافر ،

فصرف العام السابع دارساً نيتشه . ترجم كتابه الفريد « هكذا قال زاراتوسترا » ولم يتمه . ولخص رأي فاكه وهاليفي فيه ، ونقل ايضاً قول نيتشه نفسه في كتابه ، والبك فقرة منه : ليس داني بالقياس على زاراتوسترا الا مؤمناً ، وما شعراء الفيدا الا كهاناً لا يستحقون ان يحملوا سيور حذاء زاراتوسترا الخ .

وبينا فرح غارق في لجة مبادئ نيتشه الهائجة ، اذا به يقف نشر رواية مريم واعدأ بطبع تتمتها على احدة ، لينشر رواية ملفاً للروائي مكيم غوركي ، وهكذا التقى الصيف والشتاء على سطح واحد . فكان صاحب الجامعة اراد ان يوفق بين اسمها ومساها . وفي هذا العام لفظت الجامعة آخر نفس ، فهانت مبكية من احرار العالم العربي ، أو الكتاب الديمقراطيين كما يسميهم أخي الاستاذ يوسف يزبك .

فرح انطون القصصي

لماذا لا تكتب عن اديب اسحق ، عن نجيب الحداد ، عن ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، عن بطرس البستاني وابنه سليم ، عن الاحدب والاسير ، عن كرامه ومراش وزيدان ، عن البارودي وشوقي وصبري وحافظ وولي الدين الخ .

من كتاب اديب

الجواب يا سيدي : هذا لا يعنيك ، وكتابك يذكرني بلوائح المطاعم ، فاذا كنت جائعاً حتى ترى الحجارة خبزاً كما سيحدث يوم يحيى المسيح الدجال ... أتستطيع ان تزور جميع القصور المذكورة في اللائحة ، أم تختار ما تشتهي نفسك أكثر ، وتؤجل ما تحب إلى علفة ثانية ؟ فبحياتك تدعني ومعلمي ، انا احب الهريسة فلا تكرمني على الملوخية . الادب كالطعام ، يا سيدي ، فكل انت ما تشتهي ، ودعني وشأني . أما لك معدة واضراس مثلي ؟



مات فرح انطون فكتبت مجلة الهلال : ان الجامعة خير آثاره ، ونتاجه بعدها دونها قيمة . فسأت كلمتها هذه شقيقته الكريمة السيدة روزا ، فردت على الهلال . ثم ضرب جورج دوماني في مجلته « الريفوجسيان » على هذا الورق ، فرد عليه الاستاذ محمد لطفي جمعه .

ايس لدي من تأليف فرح الاخيرة إلا مسرحية واحدة « صلاح الدين ومملكة اورشليم » . وهذه اذا وضعت في الميزان قبالة الجامعة رجحت الجامعة وشالت هذه كأبي جرير في ميزان الأخطل . واذا قلنا الجامعة عنينا سبعة مجلدات ضخمة كلها جديد طريف ، وعنينا ايضاً تلك الكتب النفيسة التي فيها فرح : ابن رشد وفلسفته ، الحب هو الموت ، الدين والعلم والمال ، الوحش الوحش الوحش ، اورشليم الجديدة ، مريم قبل التوبة . والتي ترجمها : الكوخ الهندي ، بولس وفرجينى ، أقالا ، ابن الشعب ، نهضة الأمد ، تاريخ المسيح ، تاريخ الرسل ، زارتوسترا ، ملفا ، وكلها من كنوز الادب العالمي . ولن نذكر ما لخص من كتب ، فتد مر ذلك في المقال السابق .

وعندي ان قول الهلال هذا لا يضير فرح انطون كما لا يبعث الجاحظ اشياءه قول القائل : كتاب الحيوان خير آثار الجاحظ عمرانا . فادباء مصر أقروا لفرح بالسبق في ميدان الأدب العالي ، ثم بالنضال السياسي والدفاع عن أسمى قضاياهم فقال فيه محمد لطفي جمعه يؤبنه :

عندما ذهب الآخرون يلعبون بذهب المعز كنت انت أيتها الغريب ، لا تهرب سيفه ، فما أعظم هذا الفضل لك علينا ! ما نحن فئة قليلة من الأقارب والأحباب حول قبرك ، لانك لم تكن من هؤلاء الذين تتحرك في ركاب نعشهم المركبات الضخمة ويسير في جنازتهم ذوو النفاق والخديعة .

وقال سلامه موسى ، زعيم المجددين في مصر ، يوم مات فرح : ان الفراغ الذي أحدثته وفاة فرح انطون في الأدب العربي لن يملأه أحد في أيامنا الهوجاء هذه ... كان ميدانه الأدب ، لا يتعداه إلى غيره ، ولذا بزغ فيه وألم باطرافه وابتدع فيه واخترع . فهو أول من تطاول إلى نجمين من نجوم الأدب الافرنجي تولستوي ونيتشه ، وحاول ان يستضيء بضوئها ولكن الظلام الذي كان يكتنفه كان أشد مما يحسب .

وقال صاحب جريدة الاكسبرس : لم يتزوج فرح لأنه لم يجد متعاً في

وقته لأداء واجب العائلة ، وكان مع ذلك مستقيماً عفيفاً . ولم نره يوماً في كنيسة ، ولا سمعنا أنه حضر قداساً ، على أن ذلك لا يمنع من أن يكون مسيحياً مخلصاً كما يفهم من كتاباته .

وكتب الشيخ ابراهيم الدباغ : كتبت عنه - عن فرح - الصحف بأقلام فاترة عن نفوس جامدة غير جازعة كأنها تكتب عن بعض الافراد ، فأوجد تقصير الصحف تجاه فقيدنا الجليل عندما موجدتها عليها . ثم قال : فرح انطون الكاتب السوري تقوم قيامة تأبينه في جامعة اميركية . أترى الجامعة المصرية تضيق جوانبها بأحياء ذكرى رجل لو كان من الحاضرين فيها لشاد للعالم بنياناً ، وللآداب والاخلاق مكاناً . لم أدر لماذا ضاقت هذه الحظيرة بتلك النفس الكبيرة . لأنه كان من أحرار الفكر ؟؟ ان الدكاترة طه حسين وهيكسل ومنصور من أحرار الفكر أيضاً بل من أشد أحرار الفكر وطأة على العقائد ! أم لأنه سوري مسيحي ، مع أن مصر ليس فيها اليوم مسلم ولا مسيحي ولا يهودي بل فيها مصري فمتى ينصف الشرق أبناء الشرق ومتى يقف الشرق في صفه ويأخذ محله ؟

ويقول عباس محمود العقاد : فقلت له مواسياً : إنك يا فرح طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة ، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر ، وستكون حين تفترق الطريقان خيراً مما كنت في هذا الملقى المضطرب . فأوماً برأسه ايماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال : ماذا يحفل المستقبل بالحاضر ، وماذا يبالي السائر للغد بمن كان قبله في مفترق الطريق (مطالعات ٦١ و٦٢) .

تلك سنة الطبيعة يا فرح ، فكما نذكر الشمس بالاحمرار الذي تتركه بعد غروبها كذلك يذكرنا أبناءنا ثم يوارينا الليل . أراك أحسنت إذ أسأت الظن باناس طويلي الايدي ينقبون البيوت وينبشون القبور ليسرقوا الخبايا والاكفان .



قال فرنسوا مورياك أحد مشاهير كتاب فرنسة الحاليين : « أنا من الذين يؤمنون بالناس لا بالاجناس ، واؤمن بالشعر خصوصاً ، واؤمن انه ليس غير الشعر ، وانه من العناصر الشعرية وحدها يؤلف الفن في كتب الادباء ، وهي التي تهبط البقاء والخلود ، فالروائي هو شاعر قبل كل شيء وهكذا كان تولستوي وبروست لأن قوة الهامهم واستيعابهم كانت واسعة . »

إذا صح هذا القول وممحقنا للقصصي ان يحدثنا كما يشاء ، إذ لم نفرض عليه نوعاً من القصة نجده حتى نرى كل فن القصة فيه وما عداه خرافة ورقاعة كان فرح انطون قصصياً من الطراز الأول . قلت « اذا » ولا بد من اذا لئلا تقوم القيامة . وأزيد على ما تقدم لو لم يولع فرح انطون بالترجمة واذاعة المبادئ الجديدة ، ولو لم يترك بعض آثاره الرائعة ناقصة ، ليترجم للشرق روائع الغرب ، بل لو كمل هذا الأديب المخلوق قصصياً روايته « مريم قبل التوبة » لكانت رائعة من الروائع العالمية ككتاب الفاريابي . إن في الاثنتين والتسعين صفحة يقوم الدليل على ما أزعم فليقرأها المخلصون لهذا الفن اذا لم يصدقوا ما قلت وسأقول فيها ، اما الآن فابتديء باولى قصصه .

الحب حتى الموت

هذه أول قصة ألفها فرح أنطون وهي سلسلة نصف سنة الجامعة الأولى .
قطع فرح هذه السلسلة لترجم قصة ديماس عن الثورة الفرنسية ؛ وملخصها :
شابان لبنانيان من (الكورة) هاجرا إلى أميركا فاجتمعا قبل سفرهما بخوري
الضيعة وهو راهب فزودهما ، مع دعاء وبركة ، بعض آرائه الاجتماعية .
وأستقل الشابان باخرة واحدة وحلا في أميركا بيت واحد تقريبا ، المعلم اميل
عند الخواجا بولس ، وبطرس عند الخواجا حنا عدیل بولس . وكان الزحام
على الآنة ماري بنت الخواجا بولس . بنت وحيدة وأبوها غني ، ولأجلها
سافر الشابان من حامات ، ففضلت ماري المعلم اميل - هذه أول مرة يفوز
بها المعلم ولكن على من ... - على بطرس الذي أرادها له زوج خالتها الخواجا
حنا . وكانت الدعوة لوليمة في بيت أبي ماري أقامها للمعلم ودعا اليها وجوه
الجمالية . فجاؤوا جميعاً ، اما الخواجا حنا فتجاوز حدود اللياقة وأخذ يضحك
على المعلم المحتفى به ويتهم تهكماً لاذعاً . حاول الخواجا بولس اسكات عديله
ووقف حملته على ضيفه فما نجح ، وساء ذلك ماري فاغمي عليها .

وكان لماري صديقة اسمها فدوكي تعمل ككاتب في محل تجاري ، قرأى بها
الخواجا حنا قوة عظمى من القوات المتجمعة على مرشحه بطرس ، فكاد للمعلم
اميل وعطل سمعته فقتله تجارياً وسد بوجهه أبواب الرزق ، وسمى في فدوكي
فعلها من وظيفتها لظنه انها تدبر الأمر لماري واميل ، فتمرض فدوكي وبشير

الطبيب بارسالها إلى كليفورنيا ، فيؤثر الجميع العود إلى لبنان ويعودون كلهم :
ماري وأبوها، وأما ، وفدوكي وأما ، والمعلم أميل ، ويتوجهون إلى الارز
بطريق حامات فيرى أميل أمه والراهب (ظلانور) ويسير الموكب إلى الارز
ولكن الارز لا يحیی الموتی فتسوء حالة فدوكي وتوصي ماري بأميل .

وبعد أيام يلحق بهم الراهب وأم أميل فتتحل عقدة الرواية حين وصولهما
فتكون فدوكي اختاً لأميل . وتفصيل الخبر انه كان لام فدوكي بنت غرقت في
الباحرة مع أبي أميل وسلمت اخت أميل الصغيرة - فدوكي - فاخذتها هذه
المرأة على أنها بنتها لأنها لا تستطيع ان تعيش بلا ولد ، كما اعترفت ، وبراء
لذمتها اشعرت ام أميل بالامر ، وكان هذا التعارف أثر بفدوكي فشعرت بدنو
أجلها فقالت للراهب : باركني يا ابتاه ! فمد الكاهن يده لباركها والجميع
يكون بكاء مرأ حولها ، فعلا نعيب الغربان في اعالي الشجرة : قاق قاق ،
واجتمعت بكثرة على المجتمعين تحتها فنظرت فدوكي إلى أعالي الشجرة وقالت
بهده : أتيت . أتيت .

وبعد شهرين يقترن أميل بماري لابسين ملابس الحداد على فدوكي .



تسير القصة سيراً ليناً وخطتها واسعة فكان الكلام فيها كالثوب المفصل
على القد ، ولكن هذا الراهب الذي افتتحها واختتمها فكانه لم يكن في أولها
إلا ليشهد آخرها ، وبارك الصبية على فراش الموت ، مع أن الحل من الخطايا
- في الكنيسة الارثوذكسية - يجوز بعد الموت ، وليس وجود الخوري ضرورياً
كعندنا ، وإلا هلك الميت إلى ابد الأبدین ودهر الداهرين ... اما نعيب الغربان
فوق الرؤوس فما استطعت تحليله إلا هكذا : كأن الغربان رأت في ثوب الراهب
ما يغريها على التجمع فتجمعت ... قد يكون أوحى إلى فرح هذا السرب من
الاغربة التشاؤم اللبناني بحضور الخوري إلى بيت المريض ، كما انهم يسهون الموت
غراب البين ، وهي عقيدة موروثة مع ما ورثنا من خرافات . امسا قول

فدوكي للاغربة أنيت أنيت فيشبه أسطورة أمية بن أبي الصلت الذي علل نفسه بالنبوة ومات بحسرتها حانقاً على النبي ، ولا شك ان فرح انطون قرأها . قلت انه جاء بالراهب في آخر الرواية ليحضر الدفن ويحنز ويأخذ « الجزء » أما في أول القصة فسخره فرح ليشجب الحياة الرهبانية بلسان أحد أفرادها ، ولا يفل الحديد إلا الحديد ، ولا يقطع الشجرة الا فرع منها كما يقول المثل اللبناني .

ثم فرح بلسان الراهب حياة الكسل التي يعيشها الرهبان ، ودفع الشابين إلى المهاجرة والكسب . اما هذا الاسم الغريب الثقيل ظلانور فيلوح لي ان المؤلف نحته من ظل ونور ، وعندني ان وجود هذا المحترم فضولي في القصة كما هو في غيرها ..

في الرواية شخصيتان بارزتان : فريد مدير العرائس ، فهو طيب الحديث لولا فصاحته وبلاغته ، ولولا أنه افلت من شق قلم فرح نحويًا بسلوك لسانه . والخواجه حنا الذي يمثل اللبناني المهاجر أصدق تمثيل ، فهو جبلي كما كان قبل الهجرة ، لم يتظرف ولم يتكلف مضغ الكلام ، فحواره وتفكيره وحركته ومشيته لبنانية محض ، لم ينس شيئاً من آثار محيطه الذي عاش فيه ونشأ ، فدخوله على المدعوين في بيت عديله ، وسلامه عليهم وسؤاله حالاً : اين مريمنا ؟ ثم صراحته الصارخة ، كل هذا يدلك على ان الرجل لبناني عتيق ، لا يروقه حتى التلفظ باسم ماري . فلولاً الخواجه حنا وفريد لكانت رواية فرح هذه تصلح لكل محيط لا يدلك على شيء على ان أشخاصها من اللبنانيين المهاجرين إلى اميركا ، فماري وامها وابوها متأمركون ، وكذلك فدوكي وامها . يفهم فرح الفن القصصي فهماً صحيحاً والدليل على ذلك لبقائه في المأزق الحرج فانه يحسن الفرار ، أراد ان تتمثل فتاة بيت القنبي فقال : (ولو كانت تعلم الفتاة هذا البيت :

ومن شكك الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقة بد
لردده) .

يشبه همل فرح هذا ما فعله الشدياق في مقدمة فارياقه المعجيب إذ قال
معتذرا عن حديث امرأته فيه : « فان قيل انه - أي الشدياق - قد نقل عنها
الفاظاً غريبة غير مشهورة لا في التخاطب ولا في الكتب ، فلا يمكن ان تكون
نطقت بها - أي الفارياقية - قلت ان النقل لا يلزم هنا ان يكون بحروفه وانما
المدار على المعنى » .

الدين والعلم والمال

فرح انطون كاتب الاشتراكي محموم . حرارته ، دائماً ، فوق الاربعين ، والميكروب اذا افتتح بلداً كان أقوى وأفتك . كان فرح من هذه المبادئ التي تشغل الدنيا في هم مقيم ، وتلك مزية المصلحين الذين يحملون البشرية على ظهورهم . عرف هذه المبادئ في الكتب فصيح فيه قول الشاعر : والاذن تعشق قبل العين أحياناً . جاشت نفسه وفارت كالقدر ، ولو لم ينفس عنه القلم لانشق . كان جو الشرق كالقطب الشمالي فصيرته انقاس فرح صالحاً للاستيطان . وأشرقت شمس المعرفة فأوت الوطاريط إلى خرائبها تنتظر الغروب كالاجير ، ولكنه لن يأتي ، وما هذه الفيوم المعترضة الا سحب صيف ستكنسها ربيع الشمال .

رأى فرح ان تكون القصة معرضاً لأرائه الهدامة ، فنحنأ نحو قصصى اوروبا الاجتماعيين الذين أحبهم . اما « الدين والعلم والمال » فليست قصة مبنية على الطراز الفنى ، ولكنها قضية عظمى البسها فرح ثوب القصة ، فتكرت فيه كابتنكرون في السهرات . يدور موضوعها حول الربين : الله والمال . وليس فرح ممن يعبدون الأخير ، ولا ممن يتكلمون على الأول اتكالا مشيناً للعقل ، شالاً للفكر .

يتناول الكتاب الدين والسياسة بالبحث العميق . والناس في الدين والسياسة قسمان : واحد يهذر ويخرف في منطقته ، وآخر يأبى ان يتعقل . فالذي

نسميه مبادئ، ليس أكثر من ميول قوية عنيفة ليست بواقع نظريات كذابة خداعة ، لان الحياة كالف ، واحدة فقط . اما نحن فنصفها بما يبدو لنا ، اقول : الحياة حلوة بدلاً من أن أقول وجدت الحياة حلوة ، وبالعكس ، فبين « فكر » و « شعر » هوة اعظم من التي قال عنها يسوع في مثل « الغني والفقير » . ان ذواتنا كفلك فيه نجوم منظورة ونجوم غير منظورة ، وهناك نجوم سديمية لم تدرب بعد على ذواتها دورانا وافياً لتكتمل ، وفي هذا الفلك أيضاً شمس قريبة وشمس بعيدة ، وفي أعماق ذات الانسان اسرار قد تبديها « الانقلابات » كما تكتشف الزلازل ارضاً جديدة .

كان فرح كهذا الفلك ، ولكن نجومه لم تكمل ، وشمسه احتجبت صلاة الظهر .

كان من محبي الحقيقة ومحبة الحقيقة واجبة قبل أية محبة أخرى . ولكن البحث عنها بالحاح يحول دون الحصول عليها ، وكثيراً ما يسبب انكارها ، فاهيك ان طلبها بعنف قد يؤدي إلى السفسة والعناد ، فاستنطاقنا الحياة وفحص معاني الأشياء السرية يعرضها للابادة . ان ما نسميه اليوم فضائل سيكون الكثير منه بلا جدوى . والمبادئ الادبية الرئيسية التي تدعم الحياة الحاضرة ستهدم وتقضي الحياة تحت الردم كأولاد ايوب .

ان مرض المعرفة آكلة قلتهم السعادة البشرية وتشل اجساماً كثيرة . قال آراسم Erasme : « يأكل البدوي لحمه النتنة كأنها عنبر » ، بينما انت لا تطيق رؤيتها ، فمن هو على حق ؟

الحقيقة اذن ان تكون سعيداً . وما المعرفة التي . ذاق غيبها فرح إلا غذاء يقدم للنفس ليس أكثر . وبكلمة أوضح هي غذاء تقدمه النفوس الكبيرة للنفوس الصغيرة بلائثن ، وفي العقول اوهام تولد واوهام تموت ، لان الاوهام الضرورية للحياة تتبدل وتتغير اذ يكبر العقل . فليست اوهام الفيلسوف كأوهام الرجل العادي ، ولا أحلام الشاعر كأحلام القروي . فالاوهام والأحلام

لا تفارق الانسان .

وليست هي التي تتغير بل مادتها ، فتبنى على أسس جديدة . نحن لا نشك
أبداً ان العلم سيضع - ان لم يكن وضع - التخوم الفاصلة بين الأرض والسماء ،
أي بين الله والدنيا ، ولكن ماذا يحدث ؟ يصح فينا إذ ذاك قول الشاعر :

نرفع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

ان الدنيا كلها تختفي تحت برقع الرياء والطمع ، وأحسن عمل فيها يسبب
الحجل ، وليس فيما حولنا ما يستحق احترامنا الكامل ، وليس في أنفسنا
ما يحب ، فلجة شهواتنا عميقة ، ثائرة أبداً ، ومدها وجزرها يعملان كالقلب ،
ليل نهار .

كيف رأيتني ؟ اما تفلسفت كثيراً اليوم ؟ فالمعذرة يا أخي ؛ من حضر
السوق باع واشترى . إن هذه القضايا التي لا تحل ، هذه المعضلة التي مات لاجلها
يسوع ، واضطهد محمد ، وشقي موسى وبوذا ، هي التي شغلت بال أديبنا فرح
أنطون فتشجعت أعصابه حتى التومر ، وتهور قلبه الكبير ... ففي كتابه
« الدين والعلم والمال » أراد إصلاح المدينة التي بناها الشيخ سليمان ، فلم يقدر .
فعمل بها عمل الله في سدوم وعموره ، كما زعموا وبني على انقاضها مدينة
« الرفق والاخاء » .

ان مكان مدينة « الدين والعلم والمال » غير معروف ، لانها من استنباط
فرح . اما تخطيطها فهكذا كان ، كما روى شيخ قرية « الدخول » لحليم النازل
عليه : « اشترى الشيخ سليمان - سيظهر أيضاً هذا الشيخ في اورشليم الجديدة -
هذا السهل الواسع الذي أمامنا ، ومساحته ٥٠٠٠ فدان ، وأسكن فيه فتياناً
وفتيات من طبقة الرعاع ، وأحضر لهم زراعاً وصناعاً يدربونهم على الزراعة
والصناعة ^(١) وأقام لهم حكومة ، وسن لهذه الحكومة قوانين الخ (ص ٣)

(١) حقق فرح في اميركا شيئاً من فكره هذه .

فقد احليم - هو فرح بعينه تظهر لك صفاته في صفحة ٤ و ٥ و ٦ - إلى المدينة ومعه رفيقه ، فرأى مدينة المال كبيروت ، أو أعظم مدينة رأيتها أنت ، وقتش فيها عن فتاته ذات الحلة البيضاء التي رآها في الطريق ، فما وجدها في مدينة المال . وتقدم فرأى مدينة العلم كمصح بحنس : هـدوء شامل وصحت رهيب ، اما مدينة الدين فهي كما قال أنسى المرة :

فس يعالـج دلبة والشيخ من حنق يصيح

ويحول حليم في المدن الثلاث ، فيلتقي في الحديقة العامة بمن يعرفونه فيدعونه لجلسة المساء العامة بين رجال الدين والعلم والمال ، فيحضر ويحكي الجـدال والخصام بين العمال والرأسماليين ، وبين رجال الدين والعلم ، ثم يستتب النظام فتدرس مشكلة العمال وأرباب الأموال ، فيعرفنا فرح بكارل ماركس . - رأيت كيف سبق فرح زمانه ؟ فأين بلاشفة البلد بكرمون واحداً أعتنق القضية يوم كانوا في احضان امهاتهم - وينادي بمذهبه في ذلك الزمان ، فيقول زعيم العمال ما قاله ماركس : ان معامل الامة ومصانعها ومتاجرها وأرضها هي من مرافقها ومنافعها كالأنهر والأبحر والهواء ، فعلى الامة ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع أرباحها بين أبنائها - أي ان تجعل الحكومة نفسها التاجر الكبير . (ص ١٩) .

ثم ينذر فرح بثورة العمال (سنة ١٩٠٣) وقد تحقق حلمه الذي رآه ، ولكنه لم يخل من مرارة الحيبة المزوجة بالرجاء .

وينتصر رجل العلم للعمال ، فيناهضه رجل الدين ، ويتناطحان حول تنازع البقاء وبقاء الانسب ، فيستشهد فرح بنيوتن الضعيف ضد مذهب القوة الذي أذاعه حين عرف نيتشه ، أو حين تغيرت أحلامه وتبدلت أوهامه ، كما قلنا . وفي الحوار بين رجال العلم والدين يندد فرح بزغبات في الدين يجب قطعها ، كما يرى فيه أشياء نخرة يجب ترميمها ، وأخيراً يترأى له ان الكمال البشري ممكن دون الدين .

ويشتد الخصام والجدال فتخضب الجلسة بالدم . ثم تعقد ثانية ونحتم بتسعة بنود نصها شيخ العلماء انصافاً للعمال ، وفي أحدها وضع الضرائب على الدخل (ص ٤٢) . فقامت قيامة الرأسماليين . وبدسية منهم علق اعلان يحرض الشعب ، فيثور وتحترق المدينة . فنجأ حلیم ورفيقه بسلم صنعاء من ستائر الفندق وسجاده . وتشارك الطبيعة البشر فتثور الزوابع وتنقض الصواعق ويلجأ حلیم ورفيقه إلى شجرة يتدريان بها من المطر والبرد ، وينظران إلى خراب المدينة العظمى .

وهنا تظهر الفتيات الخمس راكبات ، وفي وسطهن حسناء حلیم ذات الحلة البيضاء كثيبة حزينة باكية ، فيلاطفها حلیم ، وبالاختصار يتزوجها ، ورفيقه يتزوج أختها ، وأخواتها الباقيات يجعلهن فرح أوفر حظاً من بنقي لوط .. فيستقدم ثلاثة من اصدقائه ليكونوا أزواجاً لهن ، ويعيد بنیان المدينة على أسس الرفق والاخاء .

لامر ما جعل فرح الفتيات خماً ، اما أنا فما وفقت إلى فلك هذا اللغز ، والا فلماذا سلمن خمستهن وهو يعلم ان هذا غريب . أيعارض بهذا قصة لوط وبنتيه وولديها - من ابيها - مواب ونعمي ؟

ومها اجتهدنا تظل حسناء حلیم أختاً المحترم « ظلانور » ملزقة تلزيقاً كالشوارب التي كنا نصنعها صفاراً تشبهاً بالرجال ، يوم كانوا يحلفون بشواربهم .

لا نعرض لهذا الكتاب بالنقد القصصي ، فهو ليس قصة كما قلنا وكما يعترف فرح ، ولكن خاتمته ، ان كان قصة أو لم يكن ، غريبة عجيبة لا تصدق . وان رأينا لها شبيهاً في التوراة فما عند الله ليس عند الناس ... والذي صنف قصة التوراة أخرج لوط وعائلته الكريمة قبل ان أحرق المدينتين بالنار والكبريت .

وبمناسبة الكلام عن هذا الكتاب نقول : لو عاد فرح ورأى ما نحن فيه

اليوم لعقدنا واياه مناحة يبلغ الجو خبرها ، بل لم يحرم مثلها اليهود على أسوار
أورشليم .

ليت عينك ترى يا فرح . فالوطن عندنا هو الدين كما جاء في اورشليمك
(ص ١٤٧) ان سياستنا في أيدي رجاله ، صاروا ولادة أجسادنا كما هم أولياء
النفوس . فعلينا العمل بقول بولس الرسول : أطيعوا مدبريكم واخضعوا لهم
كأناس يؤدون حسابكم .

كان الدين صنم العالم أمس ، اما اليوم فصنمه العلم ، فباسم العلم والتعدن
تستعمر الشعوب الضعيفة . اما في لبنان فباسم الدين غرقت البلاد في « الطائفية » .
واقرب الناس اليها وادراهم بنا بحسبوتنا همجاً يقضي عنا « رعائنا » بالأمر ،
يمجدونهم لاجلنا ، وعلى حسابنا . ان مجد الله يكفيهم ، فنحن نطلب العمل
النافع لا هذه السخرية المبهمة والضحك الصامت .

طلبت كثيراً للشعب يا فرح ، اما الشعب فشعاره : القناعة كنز لا يفنى .
انه لا يطلب الا البركة والدعاء وملكوت الله وبره .
انتظروا هذا الملكوت ، فلعله يأتيكم .

الوحش الوحش الوحش

أو سياحة في أرز لبنان بقالب رواية فلسفية اجتماعية أدبية . هكذا عنونها
فرح ودفعها إلى القراء ، ومخلصها :

تاجر من صيدا اسمه متى حاروم جاء بيروت وعظم شأن تجارته فيها .
فتزلف اليه تاجر صغير اسمه لوقا طمعون ، فاطلعه على اسراره التجارية ،
فانقلب الصديق مزاحماً لئيماً فكسدت تجارة متى وافلس . وينت بنت متى
لان اباها افتقر ، ولوقا جفاها بعدما عللها بالزواج ، فالقت نفسها في البحر ،
فانقذها شاب من تلامذة بيروت الجامعيين صوري المنشأ .

وأحبها الشاب واحبته ، ولكنها رأتة فقيراً مثلها فهاجرت تاركة له كتاباً
تسأله فيه ان ينساها . فساء يعقوب نكرانها الجميل واشتد به العشق فجبن .
اما متى ، ابو اميليا ، فقنط إذ لم يبق له بيت يستره ، فاختفى عن
الابصار . وهام عاشق اميليا - يعقوب درمان - في البلاد على وجهه . وعرفه
الناس باسم مخلوف .

اما اميليا فتزوجها في اميركا غني عظيم - المستر كلدن - فهاشت سعيدة
لولا ذكرى ابيها التي لم تكن تفارقها . وحمل زوجها جائزة منية لمن يأتيه
بخبزه فغاب الرجاء .

وحنت اميليا إلى وطنها لبنان ، فجاءت وزوجها اليه . وابت ان تمر ببيروت
هرباً من الذكريات المؤلمة فكانت خطة الموكب : طرابلس - الحدث - الأرز .

وعرف لوقا طمعون بقدم المستر كلدن المثيري الاميركي الشهير فحدثه نفسه بان يكون معتمده في الشرق ، فكتب اليه يسأله ذلك ، فاستشار زوجته فيما وقعت عينها على رسالة لوقا طمعون حتى اقشعر بدنهما وبكت امر البكاء . وجاء لوقا طمعون ليقابل كلدن في الارز فكان مشهد غريب . عرفه مخلوف المجنون - يعقوب درمان - فانقض عليه فهشمه تهشماً . وحضر ايضاً متى حاروم ، ملك رأس القضيبي ، وفي يده بندقيته ، فعرفه مخلوف ، وصاح بصوت كالرعد : « متى حاروم ، هنا حاروم ، جئت في وقتك ، وفي يدك بندقيتك ، انظر صاحبك لوقا طمعون » .

فاطلق متى بندقيته فمخاتته ، فאלقاهما واتكل على باعه وذراعه يعاونه مخلوف .

وكان في الارز جماهير وفدت لتحضر يوم كلدن - يوم في العام يوزع فيه هذا الغني آلاف الدولارات ، أراد عمله في الارز حياً بزوجه اللبنانية - فقبطوا بعد جهد على المجنونين وحبسوها في كنيسة الرب .

اما لوقا طمعون فتجلد واصلح من هندامه ما استطاع ودخل على المستر كلدن ، وبعد جدال عنيف بين اميليا ولوقا وكلدن حول الشهادات التي جاء بها لوقا إلى المستر ، اختصر كلدن الحديث بقوله : « هل تريد ان اجعل احد خدامي يحلب مثلها - بينها شهادة رئيس ديني كبير - بعشرة ريبالات فقط . يا مستر لوقا؟ جئنا بشهادة شرف واستقامة من الخواجه متى حاروم في صيدا . فاغتم لوقا وقال : « ان متى حاروم مخفي وزوجه ماتت ، وابنته الطائشة فرت وتركته » .

فانتفضت مسر كلدن لهذا الكلام ، وحاول لوقا ان يخرج فأخذه كلدن بعنف وقال له : مستر لوقا ! أجب ، اطلب العفو من مسر كلدن ابنة الخواجه متى حاروم .

فانتصب لوقا المقهور مدافعاً عن نفسه زاعماً ان لم يتعد المناقصة التجارية

التي بها نفسها تغلب كلدن على الاسواق ، وختم كلامه بقول غوت : إلى الالهام
ولو فوق الجثث .

فلم تبال اميليا بحججه وبراهينه وامضت في اهاتته ، ثم ترقرق دمعها
لذكرى ابيها فقال لوقا : انا اعرف مكان ابيك ، وسأجيثك منه بالشهادة
المطلوبة . فدهشت وصاحت : قل ابن ، فاملاً فاك درأ . فقال : الآن
في الارز .

فخرج الجميع تتقدمهم اميليا ، فرأت اباها المهنون مقيداً في الكنيسة ،
فشفي حالاً حين رآها ، ووزع هو عطايا « يوم كلدن » ، وعفا عن لوقا طمعون
الذي سار مع موكب كلدن ، وترك بخلاف الشقي تهيجه الذكرى ، ثم سيق إلى
دير « قزحيا » المستشفى البلدي للجانين .

أما بسط فرح لحظة قصته ففيه شيء كثير من فن القصصي المطبوع ولباقتة .
وللقدره على غرس المبادئ جعل فرح الكلام على لسان شابين متعلمين كلیم
وسليم . سفرهما من قلحات قبل الفجر بكثير فتحدثا عن الجداجد التي سمعا
صوتها في الليل – لا ادري اذا كانت تغني قصائدها في الدجى – وجعلا يخطئان
لافتوتين . فسئم المكاري وغضب على جواده غضب سليمان حين فاته الصلاة .
فأدرك الشابان خطأهما وسألا المكاري لماذا اختار هذه الطريق ، فحدثهما عن
خصام اهل قلحات وفيه سبب تشاتم الأولاد .

وينعم الشابان فيغني المكاري الحنيانا والميجانا ويا دوم حالي يا دوم ، فينشط
الراكبان ويعجبان بهذا الأدب الساذج الرفيع الذي يمثل الامة وحبها العنيف .
وتطلع نجمة الصبح فيناجيهما الرقيقان متفلسفين .

ولاح لهما دير حماطوره مع الشمر ، فكان حديث طويل عن الحياة
الرهبانية ، يخطئها كلیم ويصوبها سليم . ودخل المكاري في القضية شخصاً
ثالثاً خائفاً على جواده اذا ظل كلیم يحذف على الرهبان ، فيتراخى كلیم ليغلب
سليم ، فيسر المكاري ويأمن عثار الخيل .

وبلغوا عين السنديانة فأخذ رجل معنوه مجلة انكليزية من الخرج بلا
استئذان ، وقرأ فيها حادثة غرامية ، فطوى المجلة وأعادها قائلاً : كلهن سواء .
وردد :

جننا بليلي وهي جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وأغمي عليه فاسعفوه فأفـاق ، ولم يعرفوا من أمره إلا أنه مجنون اسمه
مخلف ، وتركاه على أن يلاقيهما إلى الارز ، وسارا إلى الحدث ، فدخلاها
والأهالي في جلبة وضوضى . يريد واحد أن يكري بيته من بروستانين
قدموا اليه ، والضيعة لا تريد ، وينتهي الأمر بقبولهم لأن أبا مرعب ، وهو من
الذين حاربوا مع يوسف بك كرم ، قد أراد ذلك . ويتعرف كلیم وسليم
بالاميركين ، فاذا هم طلائع حاشية المستر كلدن لا مرسلون بروستان كما توهم
موارفة الحدث .

وبيت كلیم وسليم عند صديق لها مسلول ، وهذا أيضاً من ضحايا لوقا
طمعون . وفي القد يذهبان إلى الأرز فينامان في المراء ، ويموي الذئب فيطير
النوم . ويصبحان فيطلبان الصيد في ذلك الوعر ، فيضلان في الجبل ويسقطان
في واد صغير . وتنطلق بندقيتها فتجيبها أخرى وبصرخ صوت : الوحش
الوحش الوحش .

ثم يقبل شبح كالوحش رافعاً بندقيته في الفضاء انذاراً لها فسلما . وتعارفوا
فسألاه عن تاريخ وجوده في القفر فأجاب : منذ تكوين العالم .

واستغرب كيف لم يصدقه . وحاولا كشف سره فاستحلفاه بأولاده ،
فغضب أشد الغضب . وذكر له الله فخراً إلى ذقنه ، ثم انتصب وأخبرهما أنه
في هذا القفر « يكون العالم الحقيقي » الذي يسود فيه الخير والصلاح ... وان
أصل الشر الوحش الذي في الانسان .

وتم له ذلك بمعونة الله وأنه سمع صائحاً يقول : « لقد انتهى » . ويسلح
ذئبان يقتتلان على رابية ، فيعدو إليها ويصرعها ويجرها إلى كوخه ويقول

لضيفي مملكتي : « كلاهما معتد فأرحنا المملكة منها » .
فأدرك كلهم وسلم سره وسألاه لماذا لا يذهب إلى المدن ؟
فغضب وقال : اني لا أقدر على جميع الوحوش التي فيها ، إذ ليس لي غير
يدين ولا أقدر ان أمسك بها أكثر من بندقية واحدة ... لا تصدقوا انني
ولدت هنا بل انني ولدت في المدن وعشت في المدن ، ولكن الوحوش فيها
اكلتني وطحننتني ففكرت منها ، ولكن لا بأس ستأتي نوبة المدن وحينئذ أدخل
اليها باذن الله دخول المنتقم لله من وحوشها الضارية (ص ٥٠) .
أظنك عرفت الرجل ، هو متي حاروم ، ملك رأس القضيب ، أبو اميليا
الذي أنقض مع مخلوف على لوقا طمعون في يوم كلدن .



على القصة مأخذ شتى لا يعني ان اذا كان حشاها فرح فلسفة اجتماعية ممكنة
ومستحيلة ، فهذا هدفه الادبي ، والمرء لا يساق إلى الهدف .

ولكن فرح انطون أغرب جداً في الاستنباط ، وكان اعظم من الله في
« الخلق » . فرجل مثل متي حاروم ابن ثغر ، نشأ على سيف البحر وفي صيدا
الحامية كالتنور لا يستطيع ان يحيا في رأس القضيب شهرا واحداً فكيف بالسنين !
فهذا ما يعجز عنه ابن بقمكفرا وهي أعلى ضيعة في لبنان . الوحوش ترحل عن
تلك الأرض في الشتاء لتشتي بالاقاليم المعتدلة ، فهل يستطيع تاجر مرفه كمتي
هذا ان يعيش هناك كما وصفه لنا فرح : « فعلمنا - أي سليم وكلهم - انه رجل
أضاع صوابه لظلم أصابه فبرح بلدته وأقام في تلك الجهات المقفرة وهو يعتقد ان
الله ولاه عليها لظلم والشر ، ثم يملكه المدن لاستئصالها منها أيضاً . وقد
أفتقد كلهم وسلم كوخه ومعيشته فوجدوا انه يعيش في أسوأ الحالات . ورب
يوم لا يتناول فيه غير كسرة خبز أسود يصنعه من دقيق يعجنه ويشويه على
النار ، أو قطعة من لحم الوحوش المعتدية التي يصطادها . وكان يمر عليه في زمن
الثلج والشتاء عدة أيام بظل فيها مخبوءاً في كوخه الحقيير لتراكم الثلج عليه في

ذلك الجبل . وكان قد تعود احتمال البرد كالحوانات ، فاذا ذاب الثلج زحف من
كوخه وخرج على الثلوج يسير زلقاً لا مشياً كأنه سائح فوق ثلوج القطبين (٥١) .
قرأنا عن سليم و كليم انهما لم يطبقا برود جبل الارز صيفاً ، أفلا تكون الحياة
في الشتاء معجزة المعجزات ؟ ! وقول فرح ، « وكان قد تعود احتمال البرد
كالحوانات » لا يجعل الأمر ممكناً ، ولكن الاستاذ أراد ان يتبع خطة ديماس ،
فاغرب كبونسون دي ترايل .

اما شخصية مخلوف المجنون الثاني فأجاد في خلقها كل الاجادة ، كمخلوف
أبرز أشخاص القصة . طبيعي في كل شيء ، في حواراته وتفكيره ، وحركاته
وسكناته ، ونفسيته ، وحكماته ؛ ومشهده مع حبيبته ، حين رآها في الارز
من أروع المواقف .

وقد لحظت في هذه القصة ، وفي اورشليم الجديدة ، اجادة فرح في تصوير
المتموهين وانطاقهم . وتركه هذا المجنون يطوف في البلاد واقعي جداً في أرضنا ،
وهذا ما عرفناه عن المجانين ، وليس في حديث مخلوف وأطواره أدنى قرابة
فقد رأينا باعيننا وسمعنا باذتنا معتوه حمائاً ، فيلسوف الشاغور ، يكتب آياته
على الصخور بالقلم العريض ، بل بالفحمة الغليظة ، وأبرزها قوله : من خلق
علق . انها لحكمة جموح يتمنى الفلاسفة الكبار ان تكون لهم .

كان اجتماع اميليا بابيها قريباً من التصديق لولا هذا الجو الذي وضع فيه متى
حاروم . يتراءى لي ان فرح انطون أحب الارز حتى العبادة ، فاراد ان يبتزج
فيه عجيبة تصديقاً للتسمية ، افليس هو أرز الرب ؟

اما بقية الاشخاص فطوع قلم فرح ، وان تعقد الحوار أحياناً . ففرح ابن
مدينة أراد ان يصف أطواراً قروية رآها مرة أو مرتين - وهذا لا يكفي -
فجاء عمله أحياناً مطابقاً للواقع وأحياناً لا ، ففي الحوار ما هو جيد كقول
كلدن للوقا طمعون : أنا لا أحب كثرة الكلام يا مسر لوقا ، فاذا شئت ان
تكون وكيلاً لاشغالنا فبجئنا بشهادة شرف واستقامة من الخواجه متى حاروم .

فعندي ان استعمال « مستر » للوقا وخواجه لمضى فيه تدقيق وفن. وكذلك قول اميليا للوقا : يا ظالم ، تخرب بيته ، ونميت زوجته ، وتهرب ابنته ، وتبيع منزله وتمحو آثاره الخ .

ثم بالعكس قولها له بعدئذ : « قل فاملاً فاك دراً » . فهذه نابية ، وكان على الاستاذ ان يقول « فمك » بدلاً من « فاك » على الاقل ، فهي أقرب إلى حديثنا من تلك .

وأشنع من هذه سؤال كليم للمكاري : هل ظهر نجم الصباح يا جرجس ؟ فاجابه المكاري بابشع : سيظهر بعد نصف ساعة على الكثير ، والارجح ان الشمس تشرق لنا عند بطرام فيقول : كليم فلنمجل اذن ، فائنا نروم الوصول إلى الجبل قبل اضطرام وطيسها فراراً من الحر . فوطيسها تركية في اذن المكاري اللبناني . ومثل هذا قول كليم أيضاً لرفيقه سليم : هل نركب يا سليم ، فان مطيتينا حاضرتان ، ولنلبس ملابسنا أولاً .

فكيف غفل فرح عن هذا وهو يعلم ان في الحوار كل جمال القصة . وهناك طفيليات تعلقها فرح كالقراد في جسم قصته ، كبعض حكايات من العقد الفريد ، لا يتسع المجال لسردها كلها . وفي الحدث يقلد فرح الشدياق ولكنه لا يوفق ، يقول المستر كلدن : يس يس سنأمل يوم كلدن في الهرز . يعني : سنعمل يوم كلدن في الارز (ص ٥٣) . ثم في اليوم الثاني يرينسا المستر كلدن فصيحاً كأنه بدوي لا لكاة ولا رطانة .

وكذلك تمثل لوقا طمعون بقول غوت : إلى الامام ولو فوق الجثث . فتعريف فرح له لا يؤهله للتفوه بهذا الكلام السامي ، فنفسية دنيئة قدرة كنفسية لوقا لا تتعالى إلى هذا الافق . فالحائن دساس جبان يطعن في الظهور لا في الصدور ، فلو قوله كلمة عربية لأفصح العرب كان الخطب أهون ، وجاء الكلام أقرب إلى الفن . وأرى كما رأيت في اسم ظلانور ان لفرح ولماً باشتقاق خاص لأسماء ابطاله مثل حاروم وطمعون ودرمان ، فانها تأتي كرهية وان دلت على شيء .

اما تخلص فرح في « المأزق الحرج » فإليك في هذه القصة شيئاً منه . يشفى متى حاروم حين يرى بنته ، فيعلم فرح ان ذلك مستحيل لا يصدق فيقول : « ولم يدون علم الطب شفاء كهذا » (٦٤) .

اما سير القصة فسريع نحو النهاية مرعة المسافرين إلى الارز ، وهذه حسنة من حسنات القصص . اما غاية فرح الاجتماعية فتحققت إذ مرد آراء كثيرة في كل فن ومطلب حتى كتب صفحتين عن السل (٣٣ و ٣٢) وقد وطأ لهذه الآراء كلها أحسن نوطنة فلا تشعر ان المؤلف يقصدها الا حين يعلم المكاري الديمقراطية ، فيأبى بعد قليل ان يسقيه ، ولو لم يبرطله بقنينة عرق لما فعل .

ان جعل فرح محيط قصته في وطنه بذلك على معرفته ان القصصي لا يخلق قصته في مكان لم يعرفه ، ولكن كلامه عن غوغاء الحدث وتخطيهم بيا ابن طنوس ويا ابن مرقص ويا ابن .. بدلا من الاسم ، فهذا لا يكون إلا نادراً وللتحقير .

في القصة مبادئ كثيرة عرضها فرح بلسان أشخاصه وأحسن عرضها ، كما قلنا ، وقلما تخلو صفحة من حكمة : وفي القصة فصول رائعة كالفصل السابع ، وموقف اميليا وكلدن ولوقا ، ومخلوف في ساعة الرحيل كما قلنا ، اما العفو عن لوقا طمعون فتولستوي : وأظن ان غرابة « العقدة » نبت القراء هذه القصة الطيبة ، وجعلتهم لا يذكرون لفرح إلا « اورشليم الجديدة » رائعتة السكاملة ، فإلى اللقاء في القدس والمجدل :

أورشليم الجديدة

تلخيص القصص قتل للفن ، ولكن الناقد كالجراح ، فلا غنى عن البضع أحياناً ، وفتح البطن حيناً . فعلى من يعنيه الأمر ان يقرأوا النص المنقود ليدركوا الجمال الذي يسقط تحت الردم ، ويروا الأعضاء مركبة متناسقة ، لا اشلاء على وضم .

ان اورشليم الجديدة أبعد آثار فرح شهرة ، وأكثر القراء يذكرونه بها ، ولو طول الله عمر « مريم قبل التوبة » لفاقتها ، ولكنها ماتت ولم تبلغ الرشد . علم فرح ان سقوط مملكة الروم وتقلص ظلها عن سورية كان أول أسبابه تلهي القوم بالقشور الدينية ، فبنى قصته « اورشليم الجديدة » على هذا الأساس . ورأى أيضاً ان القصة بلا حب وغرام كالطعام المسلوق ، وهو ان غدى فلا يكون شياً ، فوضع من هذه التوابل ما قدر عليه ، فدارت قصته حول فتاة يهودية أسماها أستير تيمناً باستير أحشوروش ، ولكنها ماتت مقهورة . وجدت هذه الفتاة مع أبيها في بيت لحم ليلة عيد الميلاد سنة ٦٣٦ ، وانطفأ مصباح كنيسة المهد ، فترك النصارى المعيدون مباحثهم الدينية وثاروا يطلبون اليهودي ، لأن وجود يهودي في بيت لحم يمنع المصباح ان يشتعل ، فيهزأ بخرافتهم شاب مسيحي اسمه ايليا ، فيقبضون عليه ويشبعونه ضرباً ولطعاً زاعمين انه يهودي . فتهرع سيدة نبيلة اسمها تيوفانا إلى معسوه يلقبونه النبي ارميا ، فيخلص ايليا من الفوغاء ، فيشكره ايليا ويمضي مفتشاً عن الذي حرص

عليه ، فيلتقي باستير وابيها اليهوديين خارجين من بيت لحم ، فيضحك لصدق
وهم العوام ويتبعها ليخلصها من الاعتداء ، فيلتقي بجماهير قادمة إلى بيت لحم
اذ بلغهم انطفاء القنديل ، فيعترضون البنت واباها على انها يهوديان ، فينتصر
لها ايليا مدعياً انها نصرانيان ويرسم اشارة الصليب ، ويفعل مثله أبو استير .
اما البنت فتأبى ذلك ، فيتسك الجمهور بها ، فيقول لهم ايليا انها وثنية من
بصرى لان الوثنيين أحب إلى قلب النصارى من اليهود اذ ليس بينهما دم وثأر ،
فتصر الجماهير على تعميدها ويفرحون بهداية نفس بشرية يوم العيد المبارك .
وحينئذ يطل موكب البطريك تتقدمه المشاعل والمصابيح ، فينتظر الجميع
الموكب ، فيأمر البطريك بسوق البنت وابيها إلى بيت لحم رغم مساعي
ايليا لديه .

واعاد ايليا الكرة في بيت لحم فلم يفلح ايضاً ، اذ قطع البطريك الكلام
بقوله : قد يكونان جاسوسين للعرب . ولكنه أمر بعزل الفتاة في دير الراهبات
ولم يعتمدها .

وبينا القوم لاهون بهذه الترهات والسفاسف ، بلغ البطريك اقتراب العرب
من المدينة ، فقدس مستعجلاً ليعود إلى اورشليم قبل ان يدمها العرب .
وبينا كان البطريك وحاشيته مشغولين بالعرب ، كان كبريه ايليا يزحف
على الدير متسلقاً جبل الزيتون ليرى ما حل باستير .

اما سبب حب ايليا الفجائي لاستير فهو انه رأى منذ سنوات واحدة مثلها
مع أبيها في يافا فأحبها ، ولكن حبه مات جنيماً فبعث اليوم حياً . وهناك
سبب آخر قوي وهو تأثير التوراة وتاريخ يوسفوس فقد ارت قراءتها ايليا ان
اليهود معاصريه بقايا امة عظيمة حلت قوة نفوس نساها وجمالهن مشاكل كثيرة
في التاريخ .

وفي جبل الزيتون اجتمع ايليا بالملكب بالنبي ارميا في كوخه قرب ارزة
صهيون ، فشكر له صنيعه اذ انقذه من الغوغاء . وكان ارميا حانقاً في تلك

الساعة على الامبراطور لتركه المدينة المقدسة بلا حامية ، وسماه المسيح الدجال ، فكاشف ايليا بفكرته العظيمة وهي تحرير السوريين من نير اليونان الذين يحكمونهم دينياً . فهو يرى ان يقف السوريون من العرب ويقيموا بطريركا سوريا . فيخطئه ايليا ويحدثه عن استير ، فيظهر له انه عارف بدخولها الدير ، فيعتال ايليا ليوجه ارميا في سبيل مآربه ثم يتركه قاصداً دير الراهبات ، فلا يرى استير بل السيدة تيوفانا ، فتخبره ان استير فتاة عنيدة بكنت وأغمى عليها حين رأت صليبا في غرفتها . فسألها ان تسهل له مقابلتها ليقنعها فرفضت . وهل يخفى أمر بسيط كهذا على عانس كتيوفانا ؟

وفيما هما مشغولان بالحديث إذ بارميا هروول ويصبح : وصل العرب . هذا ما كان يجري حول الدير ، اما في اورشليم فالبطريرك والوالي في خوة يتشاوران ، فدخل عليهما بدوي غساني يحمل انباء العرب وفي تلك الساعة المشؤومة ، جاءت أم تيوفانا وابو استير خائفين على ولديهما ، فتأفف البطريرك وقال : العذراء تحمي ديرها .

وعاد ارميا إلى كوخه وذهب ايليا إلى المزرعة (مزرعة الشيخ سليمان وهنا يقص فرح ميرة بطله ايليا ، فامه نذرتة لله واخذت تخبز له كل يوم ارغيفا يوزعها على الفقراء فيدعو له اولئك ان يصير بطركا ، ثم جاء احد علماء القسطنطينية وراهه يفعل ذلك فقال له : ستكون بطريرك اورشليم الجديدة . ودخل ايليا الدير حين شب ، ورأى يوماً اسقفا يلطم راهبا في القداس فاستعظم فعله ، واجتمع بالراهب ميخائيل على الجبل حيث واعد ، فافرغ هذا الراهب الآبق جعبة آرائه الدينية والاجتماعية في نفس ايليا فنفره ، والحديث طويل سماه فرح « الخطبة على الجبل » . اول الخطبة مبهم ككلام الانبياء (يا بني النخ ص ٤١) وموضوعها البحث عن اعمال رجال الدين ومخالفتها للإنجيل ، إذ عاد رجال الدين إلى الحالة التي حاربها المسيح ، ولو ظهر اليوم لاضطر ان يصلب ثانية .

واطرى الراهب ميخائيل النسطوري النبي والعرب ثم رأى ان يصيب الاسلام ما اصاب المسيحية بسبب المؤولين والمجتهدين ، وان اصلاح الهيئة الاجتماعية بواسطة الدين لا يمكن ان يتم إلا اذا عادت الانسانية إلى طفولتها ، وعندئذ يلزم نبي جديد للانسانية الجديدة (ص ١٥) .

اما ميخائيل هذا فراهب كان يجمع الصدقات للفقراء فأشاع الناس انه يخبىء المال في الغابات ، فعاف هذا العمل وانصرف إلى الحقول يشتغل مع البائسين ، فخطط قرى عديدة فاتهم بأنه يسعى لرفع نير الكنيسة ، فحبس في الدير للوعظ فقط . ووعظ يوماً فكفر وطرده ، واخذه قائد في جيشه . وبعد الحرب والظفر اسس مزرعة - كما في « الدين والعلم والمال » - واخيراً يبشر ميخائيل تلميذه الجديد بديانة « الرفق والمحبة والصفح » . وتطلع الشمس فيذهل ميخائيل ويتمعجب ويخر ساجداً لها - مشهد فولتيري - وتنتهي الخطبة فيتمشى ميخائيل وايليا حتى اذا بلغا المزرعة رحب الشيخ سليمان بايليا بعد ما عرفه ، وبشره انه سيرث ميخائيل في اورشليم الجديدة - اي المزرعة .

وبعد حين مات ميخائيل فعزم الشيخ سليمان الا يكون اكليريكي في مزرعته ، وقال للشعب . اقرأوا التوراة والانجيل ونظفوا قلوبكم وهذا يكفيكم . فقالوا : ومن يعمد ويكلل ويختز ؟ فاراد سيامة ايليا كاهناً فأبى . اهـ

هذه حكاية ايليا قبل ان عرف الشيخ سليمان . وخبر ايليا سليمان عن بلوغ العرب القدس ، وقص عليه خبر بيت لحم ، فغضب سليمان وقال : كان على البطريك الا يساير الشعب ، فان كان الرجل جاسوساً حبسه واطلق البنت . ولم يستطع ايليا الرقاد في المزرعة ، فعاد إلى جوار الدير وجلس على اكمة في الظلام يقرسه البرد الشديد . وقرب نصف الليل انسل إلى الدير فسمع زفيراً وبكاء : الراهبة تحدث استير لتقنعها ببقاء الصليب في غرفتها ، والبنت تصر على اخراجه فتخرج الراهبة غضبية . ويدخل ايليا فترقاع البنت ، وتعلم انه موفد من قبل ابيها فتهدأ . وتخرج معه من الدير واذا تراها وايليا وحدهما تفزع ،

ولكنها تشي. وتهب العاصفة فيحاول ايليا حمل استير - كما في بولس وفرجينى -
فتأبى ، ولكنها تسمح له باخذ ذراعها فيأخذ اليسرى - وهنا يشرح لنا فرح
انها جهة القلب -

ويحضر ارميا في تلك الساعة فيحملانها برداء إلى كوخ النبي ارميا . وبالله
المطر ، فذهب ارميا إلى المدينة ليحيى بملابس ناشفة وفرس ، فتخبر الفتاة ايليا
انها من مصر وانه شاعت نبوءة ان الساطنة ستصير إلى اتاس مختونين ، فجاءت
مع ابيا وامها المقعدة التي تريد ان تموت بجانب هيكل سليمان .

وسار بالفتاة راكبة إلى المزرعة ، فسلمها الشيخ سليمان إلى بناته . وفي الغد
ذهبت وايليا إلى الحقل فخبرها ان المدينة في حصار ، ولقاء ابيا صعب ،
فحزنت . واقبل عليها ارميا يخبرها عن التفتيش عن استير .

وفي جلسة أخرى في الحقل ايضاً ، ثار جدال عنيف بين ايليا واستير حول
المسيح والدينين الموسوي والعيسوي انتهى بتقبيل استير الصليب - بعد ذلك
الفرع - وكاشفها ايليا بحبه ، قرب قبر الراهب ميخائيل معلمه .

وساء ارميا استئثار ايليا باستير دونه ، فأخذ يحوم كالغراب حول المزرعة
حتى جاء يوماً يناقش ايليا الحساب . واقترح اخيراً الافتراع عليها فضاء للمشاكل .
وترى استير في تلك الليلة حلمًا فتبكي بكاء مرأ : رأت انها جاثية امام المصلوب
فدخلت امها وراءها الكنيسة وقالت لها : اهكذا تتركيننا يا استير ؟

ولم ينم ارميا على الضيم ففرّ ، استير ، ففرت تاركة رسالة إلى ايليا تسأله ان
ينساها ، ويتبعها ايليا باحثاً عنها فيأسره العرب . وكذلك اسرت استير ولكنها
تركت طليقة حرة ، وسعت لفك أسار ارميا الهائج في محبسه ، فافلح سعيها .
ودرى ارميا باسر ايليا فقال للعرب : شددوا عليه ، هذا أخو الامبراطور ،
ولكن أبا استير انقذه .

وتدل الشؤون على ان أبا استير جاسوس للعرب ، فيتذكر ايليا كلمة
البطريك فيتنازع قلبه : الحب والوطن ، فيذهب لمقابلة البطريك ويشير عليه

بالتسليم لعمر بن الخطاب كما نصح عمرو بن معد يكرب . فيأتي عمر - كما نص التاريخ - ويتسلم المدينة من البطريق صفرونيوس ، ويرى فرح ان فتح القدس كان بلاء على الشرق كله (فيا اورشليم استعدي الخ ص ١٢٨) .

وتنتظر استير عودة ايليا فلا يعود ، ويتخاصم عليها ابن معد يكرب وضرار ، فيبدو عليها نحول وهزال يحملان اياها على ترك معسكر العرب .

ودخل عمر القدس فكان أبو استير دليله ، فجاء ايليا رسولا من لدن البطريق إلى عمر فمر امام استير ، فصاحت وامتنع لونها . ثم يجتمع ايليا بها فيتصارع الحب والدين في قلب استير ، والحب والوطن في قلب ايليا ، ويتساءلان عن صحتها ، فاذا هما كالجاحظ عليان في مكانين . وتعتب استير على ايليا لذهابه بلا وداع فيتصل ؛ ولكن ارميا يصيح من الخيمة : هذا كذب .

ويتخاف ايليا وارميا فتعلم استير ان ايليا تركها لان اياها جاسوس دنيء فيغمر عليها ، ويطلب ايليا معاقبة ارميا على فعلته هذه فيصيح ارميا يحنون : انا لست منكم . انا عرب عرب .. لقد صرت مسلما .. الخ .

واستدعى عمر ايليا فجاءه كاسف البال ، ودله على قبر المسيح ليدخله ويسلم على روح الله ، ثم على مكان الصدود ففعل . وطلب منه ان يحدثه عن اسباب سقوط المملكة فاعتذر ايليا تاركاً هذا للشيخ سليمان ، فجيء به ، وقص عليهم تاريخ هرقل وحروبه مع الفرس ، وبيّن لهم أسباب ضعف السلطنة .

وعرضت في هذا الحديث مسألة خطيرة وهي حال الاكليروس ، ومداخلة الدين بالدنيا ، ومداخلة الدنيا بالدين والانشغال بالقضايا الدينية عن تدبير الملك ، وصرف الشعب إلى ظاهري الدين ، وانه كلما شغف الشعب بهذه المظاهر زادت سلطة الاكليروس عليه . فدلنا تخرج فرح على عصره .

وبلسان سليمان تنبأ فرح عن مصير الاسلام وملك العرب ، فاضطرب عمر والسامعون من القواد والامراء . وانتهى الحديث فعشى عمر وأخذ يسأل ايليا هل يعلمكم انجيلكم كذا ، وهل يعلمكم .. كذا الخ ، فيجيب ايليا : لا . ويقول

خالد : يا سبعان الله .

وبعد هذا الكلام يبكي عمر فيصبح أبو عبيدة : ما أبكى أمير المؤمنين ؟
فيزداد عمر بكاء ويقول له : « يا عامر قد سمعت من ايليا الشاب ما هي شريعة
الروم ، وسمعت من الشيخ سليمان كيف خرجوا عنها ، فأنا أخشى ان نخرج
عن شريعتنا في مستقبل الزمان كما خرج الروم فيصيبنا ما أصابهم » . وينتهي
قول فرح بيا ... ويا ... كعادته .

ويقبل ارميا ، رسول الخير ، مخبراً ايليا ان استير في خطر ، وأنه يتنازل
له عنها بشرط ان يخلصها لأنها تحبه ، وان البطريك يطلب ايليا لهذا الأمر .
فذهب ايليا وقابل البطريك فكلفه ذلك . فذهب إلى بيت لحم حيث ابتدأت
القصة ، فرأى أبا استير ينتظره . وكان حديث ، فحلل هذا عداؤه للنصارى ،
إذ لم يرَ أي عار في تجسسه لأعداء من خربوا مملكة أورشليم .

ودخل ايليا على استير فرآها منهوكة ضعيفة ، فتشددت وتعزت ، ولكن
وطأة الحمى التيفوئيدية كانت أشد فقضت بعد أن دفعت إلى ايليا شيئاً ، وأوصت
أن تدفن في مزرعة الشيخ سليمان قرب قبر الراهب ميخائيل . وم يصف لنا
— كعادته في المأزق الحرج — لوعة أبطاله في تلك الساعة بل ترك لنا ذلك .

واختل ايليا بعد الدفن ، وتذكر الهدية فاذا هي دفتر مذكرات استير ، فقبله
وقرأه بالبكاء والنحيب ثم ذهب لزيارة قبر استير فرأى ارميا منبطحاً عليه ..
وانتقل المرض إلى ايليا فأخذ يهذي باسم استير ، وفي الساعة التي كان يتها
فيها عمر للرجوع إلى الجزيرة كان ارميا الجديد يتلو مراثي أورشليم لسميه القديم ،
وينقل فرح أكثرها إذ يراها منطبقة على سحابة الفتح .

وبعد أيام يموت ايليا ويدفن بين قبر استير ومعلمه ميخائيل وتختم الرواية :
بيا أيتها القبور الثلاثة الخ .

هذا ملخص القصة ، بل هذا هيكلها العظمي ، فالمتروك منها كاللبشرة التي
فيها الرواء والآية ، فليطلب الفن محبوه في القصة كاملة ، أما نحن فنشير إلى

الحسن والقبح في فرح القصصي .

عندما ظهرت هذه الرواية الخطيرة انتقدها الشيخ سليم خطار الدحداح من الجهة الدينية فقال : ان فرح فيها يمتنع الاشتراكية التي دعا اليها أفلاطون ، وانتقد أيضاً كلام ايليا لاستير اليهودية « لا تتركي الحواجز الصناعية التي يجمعها البشر تحول بيني وبينك » . وانتقدت جريدة الظاهر ، كلمة « الميكانيكية » فقالت : انها لم تكن في ذلك الزمان ، وانتقدت جريدة « المنارة » المؤلف لأنه لم يعرف ارميا والشيخ سليمان إلى قرائه . وانتقدت « المقتطف » اعتماد فرح على الواقدي - تاريخياً - مع أن الواقدي أقرب إلى القصة منه إلى التاريخ ، وانتقدت أيضاً أن في الرواية « نصائح وحكم تشف عن لوم صاحبها الدنيا » فدافع فرح عن نفسه فكان ذا حق ، وان كانت لهجة شديدة في رده على شيخ المجلات المحترم .

ولئن أطلنا البحث فالعذر بيتن ، ان فرح انطون عميق ، وأورشليم بعيدة القمر تغذي الفكر ، وتروح الخيلة ، وهي مؤسسة على صخور الوجدان في قاع البناء الانساني ، والحياة الحقيقية . وإذا لم تكن فيها عجائب وغرائب ألف ليلة وليلة ففيها المسألة العظمى التي تشغل بال الشرق كله .

قال فرح في مقدمة أورشليم الجديدة انه عني « بجمال التأليف » ، وان نهضة أوروبا قامت على حب الجمال في الصنائع والفنون لأن الجمال الحقيقي لا ينفصل عن الخير والحق . ثم أدرك عباس محمود العقاد هذا - طبعاً بعد فرح - فراح يبشر في مقدمة « فصوله » بالوهية هذا الثالوث الأقدس في عالم الفن .

افتتح فرح أورشليم بخطبة - المدخل - التي وجهها إلى « بنت صهيون » ندل على الموضوع وجمال التأليف معاً حيث قال :

« ان حمامة الروح السماوية قد طارت من بين جدرانك ، فهلا استعدت روحك لتعيا بها نفسك ويؤهل منزلك ؟ هلا نظرت بإخلاص ونزاهة إلى مرضك ؟ انك لم تريدي يا ابنة صهيون ، فهوذا جراح وخضم شديد قادم

نحوك . ولكن ، وأسفاه ان سكينه ليست نحيفة بل هي عبارة عن سيف قوي ومع السيف رمح ونبله وترس وجواد عربي .

ان الدنيا تتمخض الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . ان رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون ، وزحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها ..

ان أبناء اسمعيل الأقوياء خرجوا لملاقاة بني اسحق الظرفاء ، ولكن ملاقاتهم كانت للاقتتال على سلطنة الأرض ، كأن هذه الدنيا الواسعة تضيق عن أخوين كريمين .. مدوا آذانكم أيها البشر ، فان أرضكم ستصير ميداناً للحروب والمجازر ..

فيا أيتها الأمم المختلفة التي تقوم وتسقط وتتطاحن كحجوب الحنطة تحت الرحى ، عليك ان تقولي « المجد لله في العلى » ، لأن الله خالقنا عظيم ، ولكن لا تقولي « وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة » ، فان الأرض ليس فيها اليوم غير السيف والنار ، وليس بين البشر شيء يسر ، بل السائد بينهم الفساد والاضطراب والبغض والشقاء والدمار .

فالشعر الذي هو « جمال التأليف » بعينه منتشر في أورشليم فرح انتشار الشرايين في الجسد ، والخيال الذي هو أبو الفن وواهب الوحي والقياس للفنان كما قال بودلير ، والخيال الذي يصور لنا الحياة بأهى الألوان حتى يجعل المدام « شعرياً » ، الخيال الذي يحفظ للحب الذي فسد عطره الإلهي - كما في مريم فرح ، وسلمى ومرثا ووردة جبران - يعزي عن بأس القلب والجسد ويحقق ظفر الروح ..

الخيال الذي لا يضل لأنه منبثق من الحقيقة انبثاق الروح القدس من الآب والابن .. هو ملاك أورشليم هذه . ففرح القوي الخيال ، المغذى بالقراءة الدسمة ، خلق استير أورشليمه مزيجاً من اتالا وفرجيني . فكما حال « النذر » دون اتالا ، كذلك حال الدين دون حب استير . وماجريات القصة وما حدث في الطريق - من الدير إلى كوخ ارميا - أشبه بما جرى لفرجيني وبولس ، ولكن فرجيني فطرية واستير بنت تقاليد ضيقة وعقيدة صارمة اقلقت الدنيا ولا تزال.

اما حمل استير في ثوب كما يحمل النعش فغريب مضحك ، يشبه تنبؤ الشيخ سليمان عن مصير ملك العرب ، الذي يشبه « نبوءة التبعمي الملك اليباني » في قصة الزير ، ولو كان فرح حياً لقلت أكثر من هذا ..

ان فرح انطون مبتلى بحمى رومنتيكية أوقدت نارها القروح الاجتماعية ، فعالج موضوعاً واحداً - ككثير من كبار قصصي العالم - لذلك تشابهت أبطاله في ملاحظها ومشاكلها . فارميا ومخوف توأمان ، والمزرعة في « اورشليم » وفي « الدين والعلم » ، واحدة ، ومؤسسها واحد هو الشيخ سليمان الذي هو فرح انطون بعينه .

أما خطة القصة فيديرها فرح كقائد محنك يعرف كيف يربح المعركة الفاصلة . يسير جيوشه زحفاً ، اما إذا عثر بحجارة القضايا الاجتماعية فيقف ويطيل الشروح ويشير ابجائاً عنيفة بين أبطاله تكاد غلبها لولا أسلوبه الحي واندفاع قلبه المحموم وعاطفته المتقدة الصادرة عن قلب مقروح . فإذا كنت تقرأ لتتسلى فعليك بغير فرح . تأخذ المؤلف نوبة الوعظ ولكنه وعظ حار غير مملول . ولا عجب ، ففرح قصصي عالج المسائل العظمى كتولستوي وغيره في « اورشليم » روايته هذه ، وفي رواية « الدين والعلم والمال » ، و « مريم قبل التوبة » ، والمسائل الصغرى في « الحب والوحوش » . وإذا جاءت عقدة الوحش كمقدمة الاسكندر ، فعقدة اورشليم انشودة - شالودة - اما الحيط فيمسكه فرح ولا يفلته حتى النهاية ، وقد يتركه معلقاً - كما في الحب - ثم لا يغفل عن صغيرة منها دقت فيعود بك اليها .

ان قصصه جميعها وخصوصاً رائحته « اورشليم » غنية جداً بالأفكار ، ولكنها أفكار كردستها المطالعة ، واعجابه بكل جديد .

رأى فقر الأدب العربي في زمانه فكان كن دخل مخزننا كثيرة أصنافه وأنواعه فتحير ، ولذلك جاءت قصصه معرضاً « امياً » ، فكل المسائل التي دوخت رأسه : كانهطاط الشعوب في الدين والأخلاق والسياسة أثارها في اورشليم

- وأورشليم سبب كل علة - ولهذا جاءت بعض شخوصه حية كأنك تحدثهم -
وعراها - ايليا ، ارميا ، البطرك ، استير ، خالد ، عمر - وبعضها تشعر بنقلها
وانها ليست بشراً بل خيالات وأشباح كأبي عبيدة ، فشخصيته « باهتة » . اما
الباقون فبين بين ، فأرميا ، وان حضر كل ساعة كذاك « الذي يبقى وحده »
في سفر أيوب ليحمل بشائر النحاس إلى ذاك الصديق المبتلى ، فحركاته طبيعية ،
وهو أهبل حلو يذكرني بكثيرين من الموسوسين .

يصور فرح لواعج أبطاله تصويراً بارعاً ، فهو خير إلى حد بعيد بالتفاعل
الداخلي كلما يظهر من وصفه انقلاب ايليا . ولكن الوصف المشهدي قليل عنده
ولا سيما في أورشليم التي جاءت كصورة جميلة بلا اطار . فقارىء لم يزر القدس
يجهل ساحة حرب أبطاله . أظن فرح ان كل مسيحي يعرف القدس وبيت لحم ،
وكل مسلم يعرف المسجد الأقصى والصخرة ؟ أم ترك للمسيحي ان يتخيلها كما
يتخيل المسيح ؟ أم توهم ان بعض رسوم طبعها في أول الكتاب تقوم بحاجة
القارىء الملحة وتستر عورة الفن ؟

هب ان هذا ممكن فأين تقع المزرعة وهي من مشاهد القصة الكبرى ؟
فوصفها الوجيز المبهم يطابق لبنان لا فلسطين : « يظهر لكل من تأمل الأرض
الجبليّة الفاحلة الجافة في النواحي ، ان صاحب المزرعة أتى ضروب المعجزات
ليجعل تلك الأرض صالحة للزراعة » (ص ٦٨) .

ان أورشليم الجديدة رواية غنائية في أسلوبها الذي يرتفع وينحط ؛ عملية
واقعية في تفكيرها ، اما مأساتها فمبتذلة ، ولكن البشرة التي تشرها فرح على
هيكلا جعلتها زينة بين عرائس الأدب . عالج فيها مسألة خطيرة جداً ، مسألة
الرهبان ، فجاءت كأنها كتبت عنا ، ولا يشين فرح ان آراءه فيهم مستعمارة من
منتسكيو ، فالجماعة هم هم قديماً وحديثاً وفي كل زمان ومكان . عشق فرح
المثل الأعلى عشقاً جنونياً وحاول اصلاح الانسانية بعنف ، فصار نصحه تحاملاً
وتوبيخه صراعاً . وكما حمل يسوع خطايا العالم - كما قالوا لنا - حمل فرح آلام

المساكين ونصب نفسه ركيلاً مسخراً ، وإذا لم يجد من يصلبه صلب نفسه .

فرح كاتب يمثل عصرأ بل شعوز شعب أثقل ظهره الكتب والفريسيون بالاهمال الثقيلة ولم يحركوها باحدى أصابعهم . فبينما يكون أشخاصه منهمكين في الحب ، إذا به يحاولهم إلى شؤونه وشجونهم . ولهذا تراه لا يمتزج بهم ولا يتحد الاتحاد الكلي المطلوب من القصصي الكامل . انه يحب التفلغل في أحشاء الماضي مفتشاً عن « الكمال » الضائع بين الأمس واليوم . فالذي يطلب من رجال الدين الا يتحولوا كالذي يطلب من الفضة الا تفسخ وتزرق ، فالنخالة نخالة دائماً ..

ان كتاب أورشليم عراك بين فرح الخارجي وفرح الداخلي تردد نفسه اصداً محيطه الموبوء . أحسن فيه فرح تقسيم شخصيته بين كثيرين ، فهو ان لم ينطق العرب كما ينطقون فالسبب معلوم ، وحسبه انه وضع في أفواههم آيات وكلمات جامعة تدل على انه يعرف نفسياتهم ، ولهذا تحرك أكثرهم تحت قلمه . اما حديث البطريرك مع ايليا فجميل جداً . وكأننا فرح اكليريكي عتيق يحسن كلام هؤلاء ويفهم روحهم وحركاتهم وانياتهم ، وكذلك حوار ايليا وارميا في مواقفها جميعها .

إذا نظرنا إلى آراء فرح على ضوء اليوم ، بدت قليلة الطرافة ، فهو فيها كخوري ماروني درس في روما وباريس ، ثم عاد إلى لبنان فرأوه جديداً ، فما مبادئه الا انعكاس أضواء ، ولكن النور حاد لحدة طبع المؤلف واباته العبودية ، ففي تعنيفه نفمة الانجيل وتهديد التوراة .

يسلم فرح - والدليل مقاله في القصة - ان على القصصي ان يفتش عن موضوعه في محيطه ، ولكن ميله إلى القضايا الاجتماعية واعتقاده ان الانسانية هي في كل مكان وزمان أرجعاه إلى الوراثة عشرين قرناً ، فنصب مسرحه في محيط لا يعرفه تماماً ، كما فعل شاتوبريان وغيره من كتاب الغرب ، ولهذا خسرت أورشليم فرح كثيراً من الجمال الفني ، فالمسرح لا يتصل اتصالاً وثيقاً بالأشخاص ، وقياس فلسطين على لبنان ، ان صح اجمالاً ، فهو لا يصح تفصيلاً ..

وقد رأيت ان فرح انطون يتعب في آخر الشوط اسلوباً ، ولكنه لا يني خطة ، فيسوق جماعته إلى الكمين سوقاً رويداً .

اما الأسلوب فتارة يكون فيه رسمياً - من المجترين - فيقول : والشمس أنقى من مرآة الفريفة ، وذو قرن الغزالة ، وشنشنة نعرفها من اخزم ، وهلم جراً وطوراً - وهذا قليل - يأنيك بتعابير شخصية تدل على لبنانيته ، وأحياناً - وهو الأكثر - يدل على تأثره بالفرنسية . أما بعض الألفاظ الدينية فمستعارة من « البعث » التي لحصها ، مثلاً : كيريا ليسون ، يارب ارحم ، وحياة العذراء ، وكذلك رسم الصليب والحلف باسمه .

وقد يستعير مشهداً قرأه فيجعله لآخر قوله : (ص ٦٣) « ومن غرائب الاتفاق ان الشمس اطلعت قرنفا في هذه اللحظة حين مكث الراهب - ان حادثاً بسيطاً كهذا ، والشمس كل يوم تطلع ، لا يستأهل : ومن غرائب الاتفاق - فوثب الراهب وقال : « هلم هلم نشهد مطلع الشمس ، نبارك الخالق » . فهذا الاندهاش لا يكون من مقدسي كميخائيل يشهد الشروق كل يوم : فهو ان صح لفولتير لا يصح لهذا الشرقي المحترم ، كما ان « هلم هلم » ليست من كلامه ، ولكن « تبارك الخالق » تستر بشاعتها .

يمعجني هذا الراهب الفالت ويمعجني حديثه في « خطبة الجبل » وان أصدر علينا حكماً قاسياً فقال بلسان الامبراطور :

« هذا شأن السوريين ، فانهم متى حكموا أنفُسهم كانوا أقرب إلى الجور منهم إلى العدل لكثرة تحاسدهم وتنافسهم ، ولعدم وجود جامعة قوية عادلة تساعد الجيد فيهم وتخذل الرديء » (ص ٦٠) .

وأعجبنى أيضاً كلام الشيخ سليمان عن الرهبان ، وان رأيت آراءه أكبر منه : « لا تنس ان الرهبان في مملكتنا . كانوا في أكثر الأحيان أقوى من رؤسائهم ، لتحريكهم الشعب عليهم ، وكم حالوا دون اصلاحات مهمة بهذا السبب الصغير .. ولذلك كانوا قادة الشعب ضد الأساقفة والبطاركة والموظفين

حتى ضد الامبراطور » .

قلت : فمن يشك بهذا فليسأل تاريخ لبنان ، وبطريك الموارنة وأساقفتهم .
وكذلك رأى سليمان في الوطن فقد قال : « ان الدين عندنا هو الوطن ، بل
الدين عندنا فوق الوطن وفوق كل شيء » . فقلوه هذا يصح فينا أمس واليوم .
وأبرز عيوب قصص فرح ظهور شخصيته فيها ، فهو ملقن عريض الصوت
لا يسكت ولو أعطيته ما أعطى الله عبده ، ولذلك أتت قصصه قريبة من الدروس
والمحاضرات في بعض المواضع ، فهو يترك القصص حين يستطيع ويمشي في
الاستنتاج هاتفاً : يا ويا ويا حتى لم يدع مكروب الحمى التيفوئيدية بلا « يا »
وكذلك ملاك الموت الذي خطف روح استير .

اما « الخطبة على الجبل » فهي مجموعة آراء فرح الاجتماعية واعجابه بالعلم ،
ولكنه عاد في آخرها إلى آراء المعلم الجليل . وحب مبادئ يسوع خلق أكثر
أبطال فرح من الخيرين يكررون نظرياته في كل قصة ، وقد يكررونها في القصة
الوحيدة . غير ان مؤلف أورشليم أمين لا يسرق ولا يشتهي مقتنى غيره ، ولا
يفعل بالناس ما لا يريد ان يفعلوه به ، ولهذا نسب كل رأي إلى صاحبه ،
ولكنه وأسفاه لو عاد اليوم لقال مع الإمام علي : أرى تراثي نهبا .

مريم قبل التوبة

لا الخصها لأنها غير كاملة ، فيها أدق وصف للعراك الداخلي في نفس المومس وأحوالها الخارجية مع الذين يزورون دكانها ليشتروا من بضاعتها الهاربة ... وفيها رأي السذج بهذه المرأة وخوفهم من الدنو من بيتها لأن فيها سبعة شياطين نقداً وعدداً ، كما خبرنا الرسل الاطهار . انطق فرح الراعي بذلك فجعله من الخالدين . وفيها الحديث الراقي بين مريم وزوارها المثقفين ، وان قل حظ منيكا الفيلسوف الروماني منها ، فلانه جاءها وقت نوبة سوداء . اما اسلوب القصة وانشاؤها فأروع ما انتجته قريحة فرح .

يظهر ان ذات الجمال الفتان مثقفة ، والبرهان تلك الرسوم الرائعة التي صورها بها الفنانون ، فهي تهيج الخصي كافور الاخشيدي وتصير الخلي شجياً . فان وضع فرح في قفها آيات بينات فلسان المجدلية يحملها بسهولة ، فالتى تعطي وتأخذ كام سيويه لا يصعب عليها ما قالت دفاعاً عن قضيتها . أما جاءها الشاب يوسف وبكى متأسفاً على جمالها الممتن ، واعتذر لبكائه بذكرى أمه فأدرك كنه عقل مريم الحصيف ، فراودته ، ولما صرح كانت أخف من النسم ودعته إلى الزواج فتلعثم ونكل ، وما هذا في نظري إلا توطئة لعذر المسيح لها غداً ، ولكن الرواية لم تتم .

ان مسرح رواية مريم هذه ومسرح رواية أورشليم واحد ، أما المبادئ فمتناقضة ، والمرجح ان المؤلف كتب أورشليم قبل قراءة نيتشه ، ولولا ذلك

لما حشر مبادئه في قصة مريم . ان نيتشه تية فرح انطون فأذاع مبداء العنيف وهدمه في ساعة بحث بين مريم وشاب روماني . ولم تم القصة لنرى رأي فرح الأخير الذي « أبقاه إلى ميعاده » كما مر ، ولكنني أعتقد ان المعلم صفى الحساب في خطبته عند شلال نياغرا التي تسوى كتاباً خالداً .

وبعد ، فانتا نشعر بأن الكثيرين من أبطال فرح هم أخوة الكثيرين منا ، نشترك معهم الاشتراك الكامل ، ومتى رأيت في البطل عدواً أو صاحباً كان مخلوقاً خلقاً سوياً ، كملاك الرب حين تمثل لمريم العذراء . ان هذا « الاشتراك » جوهر القصة الفرد . والقصصي المطبوع يلبس لكل حالة لبوسها كبن همام الحريري ، وهذا ما فعله فرح ، فرأيناه بطريركاً جليلاً ، وفيلسوفاً كبيراً ، وبهولاً لامعاً ، وعاشقاً حامياً ، وهو في كل هذه المواقف يجيد اجادة متفاوتة .

تخلق الطبيعة عوالم تموت ، أما عالم القصة فلا يموت ما دمنا نقرأ ، ومثلما ينبغ أفراد في العالم كذلك يكون في عالم القصة ، وهذا ما وفق اليه فرح الذي لم يغفل عن حل أكثر قضاياها كما يفعل القصصي الأصيل . وإذا شئت ان تعرف لون فرح فخذ حفنة من تولستوي ونيتشه وسيمون وروسكن ورتان وامزجها بيدك لك لون فرح انطون .

أما لغته فسهلة سلسة ، لم تخل من الغلط النحوي واللغوي قد يكون سببه ذهول فرح وسرعته . أما رأيه في الكتابة فهو ينبثق به عني ، وهذا ما كتب : « وعلى ذلك فحقيقة البلاغة ليست في قواميس اللغة وكتب الأدب ليذهب الطلاب ويفتشوا فيها عنها ... فمن لا يملكها في نفسه فعيشاً يطلبها في الكتب ، فانها حسناء ذات دلال لا تسي إلا مرة واحدة وذلك حين نزول الانسان من جوف أمه . فالبلاغة إذن حسن فطري باطني ، أي نفسي ، كما ان جمال الوجه حسن خارجي ... »

إلى ان يقول : « ويعلم حينئذ الذين ينسبون إلى اللغة العربية القصور عن مجازاة لغة الافرنج انهم ظلموها بذلك لأن القصور هو في أسلوبها البدوي القديم

الذي لا ينطبق على حاجات العصر لا فيها نفسها ، لأنها لا تخرج عن كونها لغة سامية رقيقة يعبر بها عن كل العواطف الجميلة متى هجر ذلك الأسلوب وحبل محله الأسلوب الذي يسمونه افرنجياً ، وهو في الحقيقة طبيعي أزلي لأنه سبق الافرنج واليونان والرومان ووجد الانسان في أول بلاغته ، (الجامعة ج ٤ ص ٣١٤ و ٣١٥ .

وأخيراً إننا نشكر فرح انطون كثيراً . فقد أمضينا وإياه أكبر حصنة من الصيف ، فأرحنا الكثيرين من شرنا فصيّفوا مستريحين ...

لقد كانت سياحتنا عجيبة إذ رأينا في تلافيف ذلك الدماغ الكبير عجائب غرائب ، وما نحن نودعه راجين ان نلتقي مرة أخرى ، وهيئات .

حول جبران ومي

بين عين كفاح وعاليه
جبران خليل تقي الدين
حول عكاظ الحكمة
ذكرى جبران الخالد
جبران اللبناني ●
مدينة جبران
من أجل الأدب
خطبة بشري
الحداد وجبران
شيء عن مي
ما بين مي وجبران
إلى شكر الله الجور

بين عين كفاع وعاليه

الاندلس الجديدة - العصبه - ابو الهول

كراتشو كوفسكي - جبران الخالد

عدنا فهل من يقول المود أحمد ؟ ..

كتب عليّ كل عام خطوتان ، بل رحلتان ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف .
وان لم أعبد رب البيت الذي أطعمني من جوع ، وامنني من خوف فلأنني أراه
يميني بما لا يعنيني ، فهو لي كابن يقطين بشار ، أريده الدنيا وراحته ، ويريدني
يوم الدين للدين ، ومن لج كفر .. فلو زوجني بنشه هذه لمهرتها من الغلف
والقلف ... أكثر مما مهر شاول بنت داود الملك والنبي التائب !!!

ويلي ان شكوت ، وويلي ان سكنت . انا بين ويلين كهريرة الاعشى . لقد
صمت مكرهاً خمس جمع ، ولو ذات سوار لطمتني للذلي اللطم وكانت المصيبة
هينة ، ولكنها ، أجلك الله ، تمسة دابة حطمت الآلة الكاتبة ، ورضت لي
اضلاعاً ، فدوختني اياماً ، والملك الخبر .

بتنا على سفر فالتأم مجلسنا - مجلس القرية - للوداع ، وكان الحديث .
ذاك يقول للكاربي : هذه آخر مرة يا بطرس يركب دابتك الاستاذ . وذاك :
غداً ، أي بعد أشهر ، تزمير سيارته في الوطا وتشق الضيعة فينزل قدام الباب .
غداً .. غداً .. وكلنا :

نرجو غداً وغداً كحاملة في الحي لا يدرون ما تضع

ثم كان الوداع الحار : بوس ، وشد أيدي حق حسبتنا نتصارع ، واخيراً هونها الله فمرت تلك الساعة بسلام .

ثم أصبحنا والاثان مربوطة امام البيت قامة الكسوة ، جلس فبردة ، ومفرشة تحتها خرج في احدى عينيه الآلة الكاتبة ، وفي الأخرى ما يعادلها من متاع ، فالاثقال كالطائفية تتطلب التوازن ...

مشت غزالة - امم الحماره - وكان العهد بها فارهة لانها غير عانس ، فاذا بها تتلكأ ، ان جذبت رسنها وقفت ، وان أرخيته اصطكت ركبناها ، فقلت لبطرس : ايش مصيبة دايتك اليوم ؟!

فأجاب : خيئسها سقوط الليرة أكثر من خمسين بالمئة ، خذ حذرك . ظننته يزل كمادته فقال : مالك ؟ ما نسينا ايام الحرب .

فصكت وسرت وانا على يقين من ان الحماره ساجدة شكراً لله على حملها الخفيف .. ولما اسهلنا أخذت تنتق بي ، ثم طفقت تنطق من خلف كحمارة الجاحظ ، فضحككت وقلت لرفيقي : انها تكذب بطرس . فسمعها بطرس وضحك قائلاً : يا ليت ...

وبعد سير قليل شرعت تحيد عن الطريق وتمشي في الحقل - والحقل عندنا ، كما علمت ، خير من السكة - فتذكرت اثنان بلعام الفصيحة ، حين قام صباحاً وشد عليها وانطلق مع رؤساء مواب ، فحمي غضب الله ووقف له ملاك الرب في الطريق ، وسيفه مسلول في يده ، فمالت الدابة عن الدرب مراراً حتى وقف ملاك الرب في مضيق ، فربضت الدابة تحت بلعام ، فحمي غضب بلعام كربه من قبل ، وضربها بالقضيب ، ففتح الرب فمها ، وكان حديث بين الاثنان وبلعام يدل على ان الحماره كانت من كبار علماء المنطق .. واصحاب البحث العلمي . اقرأ هذا الحوار في سفر العدد (الفصل ٢٢) واياك ان تنسى ان الملاك قال لبلعام : لو لم تمل حمارتك من قدامي لكنت قتلتك واستبقيتها .. اما انا فلم يقع لي شيء من هذا ، ولا أذكر من هول تلك الساعة إلا أنني

سمعت هاتفاً يقول : فلتعيا المساواة ، ولتمش وزارة النافعة !!



سبحان من عرّى صيفي ، وجعل خريفني مورقاً . كيف اطلعتني « أحد المعجبين » على مجلة « البرازيل المصورة » فزادني قرفاً للادب العربي ، ما خلا اليسير منه . كانت سياحتي فيها كوجود أحمد فارس الشدياق في مالطة حيث قال : « ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق ان يسمع الكلام المألطي على فساد » .

ومع كل ما تحلت به البرازيل المصورة من ركاكة أقول انني قرأت تقریظاً لها في الاندلس الجديدة ، والعصبة ، وأبي الهول .

صار الكلام في شعرنا البلدي - شعر المناسبات - ضرباً من العبث . كان في نيقي ان احدثك باختصار عما قيل في ماتم المتنبي بدمشق ، فوجدت القصائد متقاربة ، فقس على ما قيل وما لم يقل ، واعذرنا ، فقد تناولنا المتنبي وحفلاته العديدة أكثر من مرة ، فالحمد لله على سلامة لحيت من النتب مرة ثانية . ولكننا لن نعفي أحدهم حين تصل ائينا قصيدته الثانية التي هجا بها أمة علمته « مدرستها الجديدة » أدبه الذي يعتز به ويحمد عليه . اما الآن فاني محدثك عن « اندلسنا الجديدة » عن أدبنا في البرازيل .

فليلة سفرتي البلعامية حمل الي صاحب البريد مجلة « الاندلس الجديدة » . وما بلغت عاليه مطحطحاً حتى وردت علي مجلة « العصبة » وجريدة (أبو الهول) فتعزيت ، وهكذا أورق خريفني كما قلت لك لك ، ثم بعد أيام فرحتني كتاب « عابرة سبيل » الصادر عن بروكلين ، فانساني بعض أوجاعي .

الاندلس الجديدة مجلة مجلوة كالعروس ليلة زفافها ، حسن نفسي في جمال جسدي . فلو رأتها ولادة لضاحكت بين جداولها حبيبها « المسدس » وتذاكرا معاً شعرها الرائق مبنی ومعنى . شعر تنزه أكثره عن البضاعة الرائجة في « بندرنا » ذاك الشعر الذي يصبحني كل يوم صباح أحلت أيّ احلت ...

ان أثواب هذه المرائس « الاندلس الجديدة » ، « العصبة » ، أبو الهول ، تعبق

بعطر لبنان . اما قلبها فينبض بحب العرب ، ولا غرابة في هذا الأمر فاللغة العربية ربيبة لبنان في هذا الدهر ، رافقتهم في رحلاتهم البعيدة فاروها بحاسن الدنيا أجمع وأروا العالم جمالها الفتان . كانت ربابهم فاسمعوها الدنيا أعذب الألحان وأشجى الترانيم ، لا ينخفض لهم صوت حتى تليه نسيبرات . فما كادت تهمد مدرسة جبران الخالدة حتى طار قبس منها إلى البرازيل فاضطرم وانتقد ، والعدد الذي أحدثك عنه من الاندلس الجديدة هو عدد تموز الممتاز مهدي ، إلى روح جبران الخالد ، سيد أدباء جيله - الجيل بمعناها الأصلي - وامام المجددين في هذا العصر ، واليك عبارة صاحب الاندلس الجديدة الشاعر شكر الله الجبر ، وهي مكتوبة تحت صورة جبران .

« أجل - إلى روح جبران الحبيب - نقدم هذا العدد ، وهو كل ما نستطيعه من تكريم ذكره بمناسبة الحفلات التي يقيمها أدباء الأميركان لمرور أربع سنوات على انتقاله إلى دار الخلود .

فاليك يا جبران الحبيب هذه الاضمومة العاطرة من أزاهر حبنا تقديراً لآلامك المريرة وجهودك القاصمة في سبيل تحريرنا من قيود الجهل والتقاليد ، والنهوض بنا من مهاوي الظلمة إلى مشارف النور . اليك أيتها المسرحجة التي ستتحول مع تحولنا - قلت ولا شك - إلى منارة وهاجة تنير شواطئ أفكارنا واحلامنا ، فنهدي إلى حقيقة كياننا الضائع في كياننا ،

سلم قلمك يا شكر الله ، أمض في سبيلك فالحق معك . لا أقول شيئاً في غمائلك ، المطرزة بالوان المغيب الذي أتمتع به في عاليه كل مساء ، بل أرجى كلمتي إلى يوم تظهر في أفق الأدب وإذ ذاك نقابل طلبتها بما يستحق . لا تتوقع نبي ثناء صرفاً قبوس الأيادي ضحكك على اللحن .

صدر الشاعر شكر الله الجبر مجلته الموماً اليها بمقاطع من مواكب جبران نونها « معجزات جبران » ، كما فعل من قبل الصديق الأعز الشيخ فؤاد حبيش ، المكشوف يوم نشر رداً عليّ . قلت هذا استطراداً إلى محوما علق بالأذهان

من زعم السيد عباس محمود العقاد يوم نقد « المواكب » حين ظهر . قال في
(الفصول ص ٤٦) :

« وقد فتحنا الكتاب - أي المواكب - فوجدنا في أول شطرة من أول
بيت خطأ من هذا القبيل . في قوله :
الخير في الناس مصنوع اذا جبروا .
يريد أجبروا » .

قلت : نعم وهي كذلك . كان على الاستاذ العقاد ان يتثبت فيما يقول قبل
ان يكتب مهولاً : « في أول شطرة من أول بيت » كأنما أنزل على الأرض
كسف من السماء فخربت . راجع الفيروزآبادي وغيره حتى أصفر المعاجم لتعلم
تعنت العقاد . اننا نسأل العقاد وأضرابه : من أين جاءت الجبرية ؟ - الطائفة
التي تقول ان الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة : وان الله قدر عليه أعمالاً لا
بد ان تصدر منه - انفلط كل من قالوا الجبر الجبرية ، لنخطيء جبران ؟ فما
رأيت المهبرة إلا لابن النديم .

نعم ان جبر لغة تميم ، ولكن الذين تكلموا بهذا الحرف وجاروا بني تميم فيه ،
كلهم عرب صحاح اللسان . أياهم هؤلاء الذين يحلو لهم ان يكونوا جبران
يسقطون على هذه السفاسف التي لا تعلي ولا تسقط ! لست انكر ان جبران في
نثره أشعر منه في نظمه ، ولكنه ، كيفما دارت به الحال ، لا يقل عن العقاد
نقمة شعرية على قلة ممارسته النظم ، بل يفوقه كثيراً .

ثم قال العقاد : لم ننته من الصفحة إلا على خطأ ثان في قوله :

فأفضل الناس قطعان يسير بها صوت الرعاة ، ومن لم يمش يندثر

والواجب جزم يندثر .

قلت : لا يا استاذنا العلامة ! الجزم غير واجب ، فمن هنا اسم موصول ،
ومثل هذا كثير في كلامهم . فليراجع الاستاذ العقاد كتب النحو ، وان شاء
فأنا أدله « مغني اللبيب » ولا أشك في انه ذاك . فليفتح صفحة ١٩ من الجزء

الثاني طبعة سنة ١٣٠٢ هجرية ، على صاحبها وآله أفضل الصلوات واذكى التحية .

ثم قال العقاد : « هذا وليس في الصفحة إلا أربعة أبيات ، ليومئنا ان « مواكب جبران » الراقصة من سقط المتاع ، ولكن العقاد كان أسود البخت قاخطاً الفرض ونقد الحبة بمنقار أعوج فأفلتت منه سائلة .
ثم انتقل العقاد من نقد المبني إلى نقد المعنى فقال :

فاذا ما اللوز ألقى زهره فوق الهشم
لم يقل هذا حقير وأنا الملك العظيم

« قلنا : - أي العقاد - انه لا يقول ولكنه يفعل » . قلت أنا : ليس هذا ما عناء الشاعر ، وكان على الناقد ان يكون أرحب صدرأ وأبعد نظراً ليفهم ما يقصد .

ان أكثر من ينتقدون جبران كهذا الفاضل ، وجلهم من تبابيع أدبه ، يتمنون ان يشبهوا به وان أعجبوا بمثل هذا النقد الزيف . ولكن عارفي قدره يرون ان عناصره في الأدب الحديث حية لا تموت ، ولا يرون من يدانيه أو يقاربه من هؤلاء المقلدين ، وانه سيظل نسيج وحده ، وكأنما هذه العبارة كتبت لتقال فيه وفي أشباهه من نوابغ العالم الافذاذ .

وبعد ، فان كان لي كلمة أقولها في مجلة أخي شكر الله فهي انه يغالي كثيراً في تقديم كتابنا إلى قرائه ، وينتقي لهم أضخم الألقاب وأفخمها . لا أنكر ان بعضهم جنوا بها وقد يضربون ولا يلبون ان لم يبرزها لهم ، ولكن ما علينا لو عودناهم ، فالأديب الكبير حقاً لا يغر بمثل هذه المضحكات ، فليته يكتفي بأسمائهم فقط ، وليت أدباءنا الكبار يتشبهون بسيدات البيوت الخطيرة ، اما تركن التزين بأساور الذهب لخادماتهن ووصيفاتهن !

وأخيراً لا اكتبه ان تقریظه البرازيل المصورة بقوله : « تشمل على أروع المقالات وأبدع الشعر ، وألطف المستظرفات ، بشير ظنوني ، ويشككني فيما

يغدق من القاب .

لا تصدق يا استاذ مسرة ، فزملأوك بزحون ، والحق هو ما قلته أنا فيها .
فان كنت قرأت ، فأعمل على تهذيبها وتجميلها ان كنت تطلب لها خاطبين .
أما مجلة العصبه التي رأيت وجهها الصبيح ولم اضرب لها كف موعد فهي
اللسان حال « العصبه الاندلسية » . اخت رابطة جبران الأدبية ، بل بنت تلك
المدرسة الدارسة التي يصح فيها قول دعبيل في آل البيت :

مدارس ايات خلت من تلاوة ومهبط وحي مقفر العرصات

متع الله عصبه الخير والأدب الصحيح بعمر طويل لتحبي ثقافتنا بين الامم
تطالعك مجلة العصبه باروع مشاهد لبنان ، جبار القطر الشامي ، وتريك
امجد آثار العرب وتسري اليك بعطر الاندلس ممزوجاً باريج لبني لبنان . قال
الامام يا شباب العرب ، ولا أقول شباب لبنان فلبنان أصبح مرادفاً للعروبة ،
وان نفره ما تهربه اقلام بعضهم على الطروس . لست أعني إلا بعض ادباء
وشعراء ، فما انا بسياسي لأناقش كتابها .

ان صح ان اللسان يوحد الامم والشعوب فجماعاتنا المنتشرة في كل الاقطار
المسكونة هم دعاة القومية العربية لا غيرهم . فهم الذين حشوا أمس ويحشون
اليوم وغداً كل عربي من مهاجر ومقيم على تقديس لغته وقوميته . وهم الذين
احتلوا مقاماً سامياً بين امم الأرض والذين خالطوا شعوبها مخالطة الأشباه
والانداد ، وأفهموا بعضهم انهم أحفاد الامة العربية ، فحشوا على جدتهم المرحومة
وذكروها بالخير .

قد تظنني مبالغاً ان قلت لك ان مجلاتهم الراقية تحبب الينا لغتنا ، ولكنك
ذاهب مذهبي ، ان شاء الله ، متى طالعت « العصبه » الخافلة بكل طريف
مفيد من شعر عال ، وأدب صحيح ، إلى تاريخ مجيد يهز النفوس ويرفع
الرؤوس .

وحياتك يا أخي ، ان اثاراً كهذه تجمد شبابنا المائعين فلا يذوبون في الامم

الطارئة علينا ، أو الشعوب التي طرأنا عليها . فشكري الخوري في « أبي هوله » لبناني فوق كل لبناني ، وهو ممن عيدوا للبنان في زمن عبوديته « ٦ أيلول » حتى حاول الرجل ان ينشئ أدباً لبنانياً لغة وتفكيراً ، فأخرج لنا منذ عشرات السنين روايته الرائعة « فنيانوس » ... نعم فنيانوس وشقفه .

لم ينس المتمشرق غناطيوس كراتشوفسكي فضل صاحب أبي الهول في بحثه « أدبنا الحديث » فقال كما ترجموا لنا : وقد شرع شكري الخوري في محاولة طريفة ، وهي استمهال اللهجة السورية - قلت اللبنانية - الدارجة في الكتابة ولكن أحداً لم ينسج على منواله .

واعجباً للمتمشرق أغناطيوس ، أينسى المكرزل ، صاحب جريدة الدبور الطريفة الحلوة النكتة ، وحنا الفغالي صاحب « شموني » القصة البديعة ، فهي أخت فنيانوس شكري وعلى طرازها وان تفاوت سنهما ، بل أعجب له مبيع مرات ، وهو يؤرخ أدبنا المعاصر كيف لا ينسى حلیم دموس وينسى هذين المنشئين فيقول عن شكري الخوري : ولكن أحداً لم ينسج على منواله .

ولكنك لا تلوم غناطيوس مثلي متى علمت انه « مكبر فوتوغرافي » لما كتبه العلامة المدقق الاستاذ جب عن أدبنا الحديث ، كما ضخم العقاد مقالات صديقه المازني في ابن الرومي فجاءت كتاباً غليظاً . فالذي يقول - ان صحت الترجمة فليس الأصل عندي - ان القصة العربية التاريخية شاعت أولاً في محيط البستاني فعذره بيّن كالعنزة البلقاء .

يا لله من بعض هؤلاء المتمشرقين كيف يتصدرون للحكم وما عندهم من آله شيء ، انهم ككتابهم الذين يكتبون عننا ما لا يعلمون ، لقد ذكرني هذا بشكبير حين أرسى المراكب في حلب ، وبشاعر فرنسي - أظنه دي هيريدا - قال : ان لبنان يدخن ، ظاناً انه جبل بركاني .

فأي طالب علم لا يعلم ان المحيط كتاب لغة وضعه العلامة البستاني فأحصل فيه رأس الكلمة محل ذنبها ، أظن « غنطوسنا » هذا أراد « الجنان » فاختأ

في النسخ ، وجاءت غاطته ضخمة غريبة مثل آرائه العمشاء .
ما رأيت كراتشكوفسكي إلا ناسخاً سالخاً ماسخاً ، كما عبر ابن الأثير في
« أدب الكاتب » ، فهو لم يبرح الدائرة التي رسمها الاستاذ جب ، وان خرج من
تلك الصيرة رقص رقصة الجدي هنية ، ثم عاد اليها يفتش عن ضرع امه ...
فما كتبه الاستاذ جب عن أدبنا يدل على درس من يتفهم الكلام ويحصه ، لا على
نقل ومسح كما رأيت في فصول كراتشكوفسكي الثلاثة التي قرأتها مترجمة في
رسالة الزيات .

رحم الله الشدياق ما كان انبه ، حين خص أمثال كراتشكوفسكي بالذكر
في « ذنب الفارياق » - التعبير للشدياق - فاقراً هذا الذنب العاقل وقل ان
هذا الشدياق الذي يقول عنه كراتشكوفسكي « وفي البلاد غير العربية امتاز
العصر بظهور بعض الكتاب النوابغ كاحمد فارس الشدياق » كان بابا اللغة
لا شدياقها .

لقد حفظها عن ظهر قلبه كالماء الجاري فألف الطرائف المكدومة النظر .
وصف لك ما مر على رأسه من المحن ، وما رآه ، وما التفت . آله غرور
متعشوق وادعاؤه على قلة بضاعته ، فقال في ذنب فارياقه : « وانما الغرض من
هذا الكلام هو ان أبين لهذا الرملي المهارف المتعلق مناضلة عن شيوخه الذين
أخذت عنهم من العلم ما أخذت ، ان شيوخه لا يحسبون في عداد العلماء . نعم
ان لهم باعاً طويلاً في التاريخ فيعرفون مثلاً ان أبا تمام والبحري كانا متعاصرين ،
وان الثاني أخذ عن الأول ، وان المتنبي كان متأخراً عنها ، وان الحريري الف
خمين مقامة حذا بها حذو البديع وما أشبه ذلك ، إلا أنهم لا يفهمون كتبهم ،
ولا يدرون جزل الكلام من ركيكه ، وثبته من مصنوعه ، ولا المحسنات
اللفظية والمعنوية ، ولا الدقائق اللغوية ، ولا النكات الأدبية ولا النحوية ،
ولا الاصطلاحات الشعرية ، فغاية ما يقال انهم نتفوا نتفة من علوم بواسطة
كتب الفت بالفرنسية » .

وان شئت أكثر فخذ « كشف الغبا » واقراً ما يحدثك به عن الدكتور

لي حين كان يصحح له ترجمة التوراة ، ثم ما كتبه عن بعض أساتذة اللغة العربية ،
في جامعي كبرديج وأكسفورد .

أجل لقد بذر الشدياق لغتنا الفصحى في كل الأقطار كمصر ومالطه ،
وانكلترا وفرنسا وتونس حتى بين أتراك الاستانة ، ثم في العالم كله « بجوانبه »
و كأنما عناه ابن زريق البغدادي بقوله : موكل بقضاء الله « بزرعه » .

أقدرت الآن هيام لبنان بلغة العرب وسبقه الدائم ، أمس واليوم ، إلى
التجديد ؟ فهو باني النهضة الحديثة ولا أقول « الانبعث » فاللغة العربية لم تمت
لتبعث ، بل لا ذت ابان محنتها بكهفين : لبنان والازهر . فاللبناني مشاء دائماً
إلى التجديد والابداع ، ما وقف ولا يقف ولن يقف ، ولديه في كل زمان
شاهد عدل . حاول ومحاول التجديد في كل دهر ، وحسبك شاهداً هذا
التطور الذي تلمسه في مدارسنا الحديثة وان لم تتكامل بعد ف رؤية الهلال
تبشر بنموه .

لا أشك في انك قليل الايمان بما أقوله لك ، ولكنك ستؤمن مثل العم
توما حين يمسا أصبعك ، والآتي قريب فادع لي بطول العمر ، والله يحفظك
ويبقىك .

ولنعد إلى مساق الحديث عن هذه الصحائف التي تذاق في جنوبي اميركا ،
اليس من الحيف على شباب العرب ألا تكون في متناولهم ومتناولهم وفيها
ما فيها من أدب سني ودروس قومية ؟ فليت غرف المطالعة - على الأقل -
تطلبها ، وهل يكثر بدل الاشتراك الزهيد على من يعلم شبابنا المتهافت على قصص
الاجانب كيف يحب لغته ويعبدها ؟

ففي مجلة العصبة نصرة للمغلوب على حقه كقصيدة الشاعر شفيق معلوف
الرصينة ، وقد نقلتها صحفنا ، وفيها رسائل يتيمة لزعم الأدب الجديد جبران
تبين بعض مشاعره الدالة على انه بشر مثلنا ، وليس من الجن والعفاريت كما فهم
بعضهم . وفيها قصيدة متينة للشاعر القروي ورسوم رائعة لبعض مشاهد لبنان .

وصورة سيد المرسلين محمد - كما تخيله جبران ، نابغة الفنانين : الرسم والادب -
تلتها قصيدتان غراوان في مدح هذا النبي المفرد للشاعرين حسني غراب ونصر
سمعان . ثم رسم عربي محض - موت عبد الرحمن الثاني - كله فن وروعة .
وهناك بحوث شتى ومقالات وقصص موضوعة ومترجمة تلي على المتفرجين منا
دروساً عالية أخص منها بالذكر « ذكاء بدوي » مترجمة عن الانكليزية لاثبات
ما يدل عليه عنوانها . وفيها نبأ ترجمة كتاب نبي جبران آية الشرق للغرب ،
بقلم الكاتب يوسف مرعب ، ترجمه إلى البرتوغالية كما ترجم من قبل دمنة
وابتسامه ، والاجنحة المتكسرة ؛ والارواح المتمردة وغيرها من مقالات
جبران ، فاستقبلت بما يستحقه خيالها السامي وابداعها الطريف ، فهل تسمح
مديرية المعارف الجليلة فتتصرف باديها المنفي ؟

وفيها اخيراً : « أصدر الكاتب المدقق واللغوي المعروف جورج مسرة مجلة
شهرية في الحاضرة دعاها « البرازيل السورية » ، وقد مر ذكرها . قد يكون
الاستاذ جورج كاتباً مدققاً ولغوياً محققاً ، اما الكعلك فما دل على المعجيز .

ولا أنسى قصيدة الشاعر الياس قنصل « كيف خلق الله الازهار » ففيها
شعر أكثر مما في ديوانه « السهام » كله ، وهذا دليل جديد - لي - على ان
الشعر الوطني أمسى علكة يتعذر الابداع فيه إلا على القروم ، لكثرة ما
لاكته الشعراء منذ ابن كلثوم حتى بشاره الخوري وعمرابي ريشة . فليس كل
ما يقوله الشعراء شعراً وطنياً .

وما وقعت عيني على فهرست العدد السادس من العصابة حتى رأيت توفيق
ضعون ، فتذكرت ما كان يذيعه في « النصير » ، رحم الله ذاك العهد ، فهل انت
هو يا توفيق ؟ فإن كنت ذاك فابعث الي بعنوانك فلي كلمة أسريها اليك .

والعدد السادس حافل كأخويه بالشعر الطلي والمباحث المفيدة التي تم عن
مجاهدة مستمرة . امد الله الاستاذ حبيب مسعود ، مدير العصابة ، بصحة
وعافية ، وأخذ بيده ليشابر على عمله النبيل ، وحياء الله اخوتنا في وطنهم الثاني ،

ولا أقول غربتهم فمن كان هذا شأنهم فكل بلاد الله أرضهم ، والعربي مطبوع على الفتح .

أما شكر الله الجر ، ذاك الكناري الفصيح ، فما قرأت له شيئاً في «العصبة» . أتراه اكتفى وترك سربه ليفني وحده كأنه نسي ان الطيور على أشكالها تقع ؟ وأخيراً لا بد لي من رأي أبدي به باخلاص للشاعر القروي صاحب « شرر الفكر » في هذا العدد ، فقله :

رباه اني قد عصيتك عامدا لأراك أجمل ما تكون غفورا
ولقد جنيت من الذنوب كبارها ضنا بعفوك ان يكون صغيرا
رصين بليغ لا يمكن سبكه في قالب أبدع وأجمل ، ولكن الفكرة طريفة
أجيال ودهور ، فمن عهد الخيام وأبي نواس حتى زمن اسمعيل صبري أمس ،
وهي تتدهور في حناجر الشعراء ، الأخيار والأشرار منهم ، اما قائلها الأول
الذي لا كها ومسها أي مس ولم يترك إلا المجاجة فهو افرام السرياني الشاعر
الصوفي العظيم في عرفي ، والقديس الطاهر وملفان البيعة في عرف الكنيسة .
ليت المقام يسمح لي فاترجم لك كثيراً من اقواله لترى كيف كان يتغنج ويخاطب
ربه بلا كلفة ، أي SANS FASONS كما يقول الشيخ فولتير ، ولكني لن
أحرمك واحدة منها وهذه هي : « ان كان العبد بلا خطيئة فمن اين تعرف
رحمة السيد ، ارحمني يا الله الخ » .

أرأيت الغنج والدلال ، أيقنت ان الله ، جل جلاله ، سبحانه وتعالى ،
طويل البال واسع الصدر ما انتعر ولن ينتعر أحد من عشاقه الكثيرين ،
وسيعفو عنك عفواً كبيراً يليق بعظمته وجبروته . وبينما انا أحاول ختم حديثي
بالتي هي أحسن عن رواد أدبنا الحديث ودعائه في العالمين ، وقد أدهشني
اخلاصهم للفتهم ، اذا بأحد تلاميذي - عراقي - وقد بلغه اني لزمت غرفتي
لعارض فأتاني عائداً ، فتجملت في محادثته هنيئة ، ثم عدت إلى شغلي واخذ هو
الاندلس الجديدة والعصبة وأبا الهول وقلب أوراقها ، وما كاد ينتهي من استقراءها
جميعها استقرأ هجلان حتى أعجب بعروبة أصعابها وكتابها وقال لي بلاهجته

العراقية هَلَقَدَـتْ عرب ، أي أم عرب بهذا المقدار ؟

قلت : نعم وزيادة ؟

وهكذا أيد التلميذ معلمه ، وأحسن ختام مقالة من حيث لا يدري .
وعندما قرأ الأستاذ جب هذه المقالة بعث إليّ بهذه الرسالة ، وهي ليست
أولى رسائله ، وقد آثرت نشر صورة لها ليقدر القارئ العربي همة هذا العلامة
الكبير واهتمامه بأدبنا العربي الحديث .

SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES.

VANDON HOUSE.

VANDON STREET,

LONDON, S.W.1.

Telephone : WHITEHALL 4735.

Telegram : SOSINST, PHONE, LONDON.

في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٦

سيدي الأستاذ المحترم

أُعْتَرِفُ بِتَقْصِيرِي فِي حَقِّكُمْ وَأُتَسَرِّعُ
إِلَى تَعْدَاكِكُمْ ، وَلَا عَذْرَ لِي إِلَّا أَنْ شَغَلَتِ الشَاغِلُ
قَدْ حَالَتْ دُونَ مُتَابَعَةِ دَرَسَاتِي فِي الْإِدْبِ
الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ مَعَ شِدَّةِ انْتِهَامِي بِهِ ، حَتَّى
عُضُوبِيَّةِ الْمَجْمَعِ اللُّغَوِيِّ لِأَنَّ غَيْبَتِي السَّنَوِيَّةَ فِي
مِصْرَ وَالْقِيَامَ بِأَعْمَالِهِ يَضْطَرُّنِي إِلَى مُضَاعَفَةِ مَا
عَلَيَّ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمَدْرَسِيَّةِ فِي لَنْدُنْ وَكَذَلِكَ
مَنْعَتِي مِنَ الزِّيَارَةِ الْمَسْتَوْدَةِ إِلَى لُبْنَانِ .

وقد نسيت "ولكم مزيد الشكر" مثالك
الأخير في الادب العربي في بوازيل وقدأت
بكل اهتمام لاسيما وليس لي معرفة شخصية
بالأدباء هناك ومحتاجهم . وقد شوقني
ما كتبتم فيهم الى الحصول على ^{بعض منها} ~~بعضها~~ .
وسأحاول ذلك لأدرسها في الوقت القريب
الا انه لا يمكنني ان اوافقكم فيما قلتم
عن الاسناد كراشكوكي "فانه باحث
جليل القدر في الأدب القديم والادب الحديث
قد تفرغ له من ثلاثين سنة ومنذما .
ابتدأت بدراسة الادب الحديث اتصلت
به كتابة وانتفعت كثيرا برسالاته
ومقالاتها وارشاداته " وهما يجوز ان
يقربه لكم انه تخصص بدرسي الادب
البشراني وأراه شيئا بهذه الساعة .
وختامًا ارجوكم قبول هذا الرسم
منى مع تحياتي واحتراماتي .

شكري

جبران خليل تقي الدين

قرأت في جريدة « المكشوف » الغراء مقالة « جبران خليل جبران » كما أفهمه ، للشيخ خليل تقي الدين ، فخلته يحدثنا عن طهرا بك الفقير الهندي الذي جاء بيروت منذ أعوام وعمل المعائب ، أو عن « مغربي » جاز الدكتوراه من « مغارة دانيال » التي ينفثع بابها كل عام مرة كما يقول الناس .
أجل ، ان جبران خليل تقي الدين أحجية لا تفك ، فكأنه في مولده عمرو بن كلثوم ، وفي موته أمية بن أبي الصلت .
ولماذا لا ، ألم يقل الصديق خليل في جبران : فاذا مولده مطلع عهد جديد ، واذا وفاته تاريخ !

ما هذه الحيرة يا استاذ ؟ جبران بشر مثلنا ، ولد في بشراي من ذكر واتى (سنة ١٨٨٣) أمه « كامله » بنت الخوري اسطفان رحمه ، وهي أرملة لا عذراء ... امم زوجها الأول حنا عبد السلام رحمه ، واسم الثاني خليل جبران « سميك » . لا أدري من أوحى إلى الشيخ يوسف توما البستاني تلك الكلمة التي كتبها في مقدمة « البدائع والطرائف » عن مولد جبران ، « ويقال بل في بومباي الهند » ، حتى جعلها نخائل نعيمه مفتاحاً لقبر صديقه جبران ... لست أعني ان نعيمه أساء إلى جبران بقوله عنه : انه حب واحب ولا فيما خبرنا من قصص ، فليس جبران ذا طبيعتين ..

أما كلام جبران ، وهو موضوع بحثنا ، فعربي مفهوم . اما كيف يخفى على

الشيخ خليل ذي العقل الراجح ، والنظر الثاقب ، فهذا ما يحيرني لقد حيرني
تحويل الشيخ ودورانه ، وهذا التجاهل ، وتلك الالفاظ الضخمة الطنانة التي
أنعم بها على جبران بلا كيل ولا ميزان : سر من الأسرار ، نبوغ ، عبقرية ،
رسالة ، خلود ، نبي ، رسول ، فيلسوف ، الغاز ، رموز ، وهلم جرا . فكأن
جبران هندي حقاً ومن مواليد بومباي ، والشيخ أيده الله ، يريد ان يقلده عقداً
من أزهار بستان اللغة ...

أنا قلت : ان لجبران أسلوباً عربياً معروفاً كالعزة البلقاء . ولجبران تلاميذ
في كل قطر يقرأ أيحسد ، هوز ، حطي ، وبسم الله الرحمن الرحيم ، وطوبى
للرجل .. أقرأ ما كتبه « حجازي » في رسالة أحمد حسن الزيات (عدد ١٤٩ ،
ص ٧٨٤) عن النهضة الأدبية في شبه جزيرة العرب . فصاحبها يعترف بانهم
كانوا تلاميذ المدرسة الجبرانية قبل ان « يرتدوا » ويتلمذوا للمدرسة المصرية
التي تاهضت مدرسة جبران باسم الثقافة الاسلامية ، كما قال المتشريق « حب » ،
وقد نشرت السيامة الاسبوعية هذا الزعم بكل فخر (عدد ٢٠١ ص ٢) .
فلماذا نتجاهل هذا ونحاول تحديد جبران من الجهات الأربع ، كأننا نكتب فيه
صك بيع ؟ . ان بحثنا لم يتعد الاسلوب الجبراني ، ولم نسأل مجلس المعارف
الأعلى إلا وضع صاحبه بين أصحاب الأساليب ، فكان ما كان مما لست أذكره .

أما زعم الشيخ انه قال في ذلك اليوم وتلك الساعة . ان جبران خليق بان
يدرس في كلية من كليات الآداب ، فذكرني قصة رجل عزل عن وظيفته فعار
في أمره حين سقطت سلطته ، وقد تعود الأمر والنهي ، فاشترى بضعة أباريق
صفها أمام داره لعابري السبيل ، فكان ان تناول أحد منهم الابريق العتيق
فأمره باخذ الجديد وبالعكس .

ان كلية الآداب هذه يا شيخ ؟ اكلية « عليكروه » ببومباي حيث ولد
جبران ؟ . ثم رأيتك ترجع وضعه في منهاج الفلسفة لتسلا بغضب اذا لم ير أعمى
المعرة . فعنانيك يا شيخ ، اننا نشرب بالابريق الذي تنقيه لنا فاسقنا ...

لما بغير الوعد يا كهون .. ألا تذكر وعد عام أول ؟

لا أخالك تنسى كم ناقشناك ، وكم سألتك ، حتى ناشدناك ملتمسين « صفو الخاطر ، على الفقيد الكريم ... فما رحمته ولا تركت أحداً يرحمه ... وهكذا اصطاحت الاضداد في تلك الساعة ، على روح جبران كما اصطلحت من قبل على جسد الحافظ .

والآن فلأمر مرة خفيفاً بنقط لا بد من ايضاحها تفصيلاً لما كتبت اثباتاً لغموض جبران

قلت : ان مخائيل نعيمة الذي عرف جبران وآكله وشاربه أرائاً ، وتراب جبران لا يزال مبللاً بدموع الباكين ، انه رجل مادي يبيع بالمال كل شيء حتى جسده ، ويشترى بالمال كل شيء حتى الحب .

أسمع لي ان أسألك : ما علاقة هذه الحكاية بأدب جبران وأسلوبه هل خبرك أحد انني أريد « تطويبه » قديساً ؟ ثم من يدري ، فقد تكون توهمت ذلك حتى قلت بعد أربعة أسطر : فاذا مات - أي جبران - أرقده رجال الدين في ظلال الأرز الخالد ، وجعلوا قبره حجة ومزاراً ، وأضأوا من حوله الشموع ، وقدسوا التراب الذي ضم رفاقته ، ثم دعوا المؤمنين لزيارته على انه قديس ..

على مهل يا شيخ ، لقد استعرت قلم غبريال شارم ، وبيار بنوا ، فكأنك من أولئك الكتاب الغربيين الذين يزورون ديارنا ويقولون علينا مثل هذا . فواعجباً لك وانت اللبناني الصميم ، ورئيس ديوان المعارف اللبنانية ، كيف لا تعرف ان رجال الدين لا يقدسون حتى البوابات والبطاركة !! ان الشيوخ الأجلاء عندهم - الجويدين - لا يرحمون من في حياته أقل شبهة ، والمساءلة في ايديهم فكيف رجال الدين عندها ويديهم قصيرة عن هذا ان مساءلة تطويب القديسين مسألة شرحها طويل ، واليك مثلاً يحلو لك الكثير من غرامضها :

حكيم ، والله أعلم ، ان الجمع الروماني حال دون تطويب أحد الرجال الصالحين حين ثبت له بعد بحث مئة مئة انه كان يتنشق العاطوس مثلي .

أرأيت ما اصمبها خطة وما أبعدني عنها ؟

اما قصة جبران فهالك حديثها : في صيف سنة ١٩٣٠ زرت بشري وحدثت الخوري فرنسيس رحمه ، وشبل بك عيسى الخوري ، والشيخ خليل صادق بامر شراء دير مار سر كيس ، ليكون مأوى لجبران في آخر العمر ، فأبى الرهبان الكرمليون بيعه . وبعد شهر مات جبران عن تلك الوصية التي خاب امل نخائيل نعيمة فيها ... فغر المال الرهبان ، والمال غرار ، فباعوا الدير - بل الكهف المهجور - ونام فيه جبران إلى يوم يوقظه بوق نخائيل .. أو حين تلده امرأة أخرى كما توهم في نبيه ...

ان كل ما يتمتع به جبران من احترام وتكريم لا يد لرجال الدين فيه . فلو مات جبران فقيراً لما عرف احد ابن قبره حتى ولا الذبان الأزرق... المحن في امة تعرف أقدار التواضع ؟

ولزيادة الايضاح راجع ، غير مأمور ، رسالة البطريرك الياس الحويك تعزية لبشري بفقيدها جبران ، فهي لا تتضمن العبارة « التقليدية » . كل هذا يشهد لك ان لا يد لرجال الدين في كل ما صنع ويصنع لجبران .

كتب واحد - من غير رجال الدين - فوق ضريح جبران بنور الكهرواء « هنا يرقد نبينا جبران » ، فأمر باصلاحها فاطاع وصارت نبينا « بيننا » وأراني مضطراً ايضاً إلى تفنيد زعم آخر وهو قول الارشمندريت بشري في مقدمة « النبي » : ان جبران مرشوق بالحرم الثقيل . فلا ثقل ولا خفيف ، ولا كبير ولا صغير ، فلو كان جبران محروماً لما صلوا عليه .

ما هذه المصيبة ! ما اتهمنا من اصلاح « سنكسار » جبران المخرفش حتى اصطدمنا بفنه التصويري . ليقول الشيخ في هذا ما شاء ، فماذا يعني مثلي من « الفنون الجميلة » ؟

هذا وقد وصلنا إلى عبارة تمس موضوعنا . قال الشيخ : « ونقرأ كتبه - أي جبران - فاذا العربية منها خليط من مقالات كتبت لمناسبات معلومة

وروايات أملتها عاطفة الشباب ، بعضها يمت إلى الأدب بصلة ، وبعضها يمت إلى الفلسفة بصلات .

كيف تكون الروايات والمقالات يا ترى ؟ ومن يكتب غير متأثر بحال من الأحوال ، بل من يطلب من الكاتب ان يصير جنياً حين يكتب ، فلا يحس ولا يشعر ؟

تم قال : « ولكن أكثرها لا يجعل من جبران الأديب الخالد والفيلسوف صاحب المذهب المعروف » .

اذن بقي اسم صالح من أدب جبران . وحيث انه لا منهاج في الدنيا يدرس الكاتب جملة ، فليستق لنا جناب الشيخ هذا « البعض » ، وبهذا يكون حل جزءاً من مسألة جبران الهندسية ...

أما زعمه ان جبران هدم بعض الاسس التي قامت عليها اللغة ، فوالله لم أدر بعد ما هي ، فهل من يدلنا عليها وله أجر وحلوان ؟

فان كانت الاخطاء النحوية والصرفية واللغوية ، فلجبرير والفرزدق وعمر وبشار وابي تمام والمتنبي وغيرهم خطيئات ما زال بنونا يتحملون عقابها كالخطيئة الأصلية .. وان كان يعني الأسلوب أو التعبير فكتاب الله - القرآن الكريم - نبذ أساليب الناس وتعابيرهم البغيضة الخشنة حتى قالوا عن الرسول ، ﷺ ، انه ساحر مجنون ، وشاعر مفتون . فهل فينا اليوم من يشك في ذوق الله ، تقدس اسمه ، كما فعل أبو جهل وأبو لهب ؟ أيضاً جبران خروجه من صيرة القدماء ؟ أما فعل ذلك غيره من مجددي الكتاب في الامم ، هذا هيغو الذي ندرسه في المنهاج ، ألم يقل :

J'ai mis un bonnet rouge au vieux dictionnaire .
plus de mot Sénateur ! plus de mot roturier !
Le mot propre ce rustre
N'étant que caporal, je L'ai fait colonel .

أما كفانا هذا الجهود احقأباً ؟ فقد أساء الناس الظن بالعقلية العربية .
أما قولك ان جبران قد يكون فكر ان يكون نبياً ، وما عليه لو فكر ؟

ألم يفعل ذلك المتنبي ؟ ثم من يقاص الناس بخطيئة الفكر غير الله ؟! هذا نيتشه الذي نحناؤه جبران في نبيه ، لم يقل انه صار الها إلا ساعة خرف ، فأخذ يصافح كل من يعرفه قائلاً له : فلنغتبط ، اني اله .

أما جبران فلم يخرف ، ولم يقل شيئاً من هذا . وكأني بالكتور فيليب حتي ، وقد رأى الناس في حفلة تكريم جبران يسمعون كلمته واقفين ، خاف عليه من هذا التعظيم الفائت فقال له ما قال في تلك الساعة ، فمثل دور « اليوناني » الذي كان يهمس في إذن البطل ساعة تأليهه قائلاً له : لا تنس انك انسان .

أما الكنيسة التي تليت فيها كتب جبران كالكتب المقدسة ، فهاتيك مرشح لا كنيسة ... أصدق الشيخ ، جزاء الله صالحة ، قول نعيمه عن بيع جبران جسده بالمال ، ولا يصدقه حين تكلم عن هذه الكنيسة المجنونة ؟ .

ثم قال : « وبعد ذلك يقوم صديقنا مارون عبود - أذكر جيداً اني قمت ولم أتكلم قاعداً - فيعجب كيف لم يدخل اسم جبران في منهج الأدب العربي في البكالوريا اللبنانية ، وادخل فيه أسم المنفلوطي ، وحققنا نحن ان نعجب من هذا ، وبعد ان يبين ان لا شبه بين المنفلوطي وجبران قال : « ألا يعلم الصديق ان مناهج الأدب توضع لبيان تطور الآداب في سيرها نحو الكمال ، ؟ » .

قلت : بلى . علمت شيئاً ، وبناء عليه طلبت تدريس جبران لانه أخطر حدث أدبي في تاريخ نهضتنا الحاضرة ، فلا يشق عليك ، ايها الصديق ، ولا على شيخنا المنذر ان قلت لكم ولكل من يقرأ : ان عمل المنفلوطي لم يفتق عمل من يجلو الصدا عن حوائج البيت المدنية ... وان كل ما كتبه همد همد القبور ما خلا بضع مقالات تجول فيها الروح جولان الهر المنازع في جراب ... أما التجديد فلا أشرك المنفلوطي فيه ولا بسهم ، لانه مقلد للاقدمين يفتش عن خريثهم ، ويحسب الفن كله في العبارة المصقولة . وفي فقه اللغة ، والالفاظ

الكتابية ، ونجعة الرائد ، ومعين الشرتوني ، غنى للتلميذ عن المنفلوطي .
وبرهاني على ما قلت أخذه ترجمة فرح انطون لبولس وفرجيني ، فرمى برزدين
وفرحا بحجر واحد ، وكذلك فعل بقصة جبران « صراخ القبور » ، فخلق
فن جبران ولم يفهم خطأ واحداً من خطوطه ، فكان كصانع أحق ينقض على
التمثال بمهدة ليجعل منه زاوية للدماء .

ثم قلت ان المنفلوطي « قدم للادباء الحقيقيين قوالب مصنوعة بيد
صانع ماهر » .

اما أنا فأقول : وهو يستعير الاديب الحقيقي قالباً من عند أحد ؟! ومتى
كانت الروح تخلق قبل الجسد أو بعده ؟!
اليس الكاتب الحقيقي من يخلق الاجساد ولا يستعيرها ؟ فهو كالاسكاف
وغیره ممن لا غنى لهم عن القالب .

ان الخياط الاستاذ لا يتقيد بالهنداز ، وان فعل فما يخطط ثوباً مهندياً ، بل
قباء كالذي خاطه عمرو لبشار .

ثم قلت ان المنفلوطي « كصانع الأقداح يصب الزجاج ويلونه ، وعلينا نحن
ان نملأه بالراح » اليس الاولى بالاديب والحالة هذه ، ان يتشبه بالراعي الذي
يكرع من النهر والعين ويترك طاسة الزنخ ؟

وبعد ، فلا تسم هذه الاباريق والاكواز والدوارق والصحون اقداحاً
ملونة ، فيتسرب الشك إلى نفسي فيك ، فلا تززع ايماني ، اما ولغ في هذه
القصاص مليون لسان ؟ اما مستها مليون شفة ؟ ليس هذا ما ندعو اليه ابناؤنا .
اما اذا كنت تريد ان يلهم ابناؤنا هذا الجيل بالقشور فاوصهم بقراءة « افتتاحية »
أحمد حسن الزيات في رسالته ، فيشبعوا من هذا الخروب حتى البشم ...

ولما عرضت لما وقع سنة ١٩٣٣ في مجلس المعارف الأعلى قلت : وضعت
موضع البحث اسم جبران ، فقال هذا العاجز . الاترى ان هذا « العاجز »
منفلوطية بل اقدم عهداً ؟ انها تستاهل الجواب المؤلف : كلك خير وبركة ،

فلماذا هذا التواضع العميق يا شيخ شباب الأدب ؟
أما قولك أخيراً « وليس من نخرج لنا من هذا المأزق إلا أن يتقدم صديقنا
مارون عبود باقتراح يرمي إلى ادخال الارشندريت انطونيوس بشير في منهاج
البكالوريا وعند ذلك تفحل العقدة » ...

الله كريم يا شيخ ، ولعل من عقد الامور يحلها ؛ فايترك تصوير جبران ،
ويترجمك الارشندريت ...

وبعد فاراك تتغنى كثيراً بالقصة ، ألم يعجبك شيء من قصص جبران ؟
ليس بين قصصه العربية قصة تستحق الدرس ؟ فلماذا تتذرى خلف جبة المطران
انطونيوس بشير ، وتتلطى وراء « لاطيته » ؟ ! ما لنا ولأدب جبران
الانكليزي ، فنحن نبحث أدبه العربي وأسلوبه وما فيه من فن ، فلماذا
المغالطة ؟ هات الحديث فاما ان تشابهي فيه أو انني اشابعك عليه .

أما جبران فهناك رأيي الصريح فيه : هو فيلسوف يلبس مطرف الشاعر
وطيلسان الأديب . وبكلمة أوضح ، جبران فيلسوف في أدبه ، وأدب جبران
فلسفة ، والعنصران متحدان في كلامه اتحاد اللون والعطر في الزهرة المنعمة .
حاشية : ايها القارئ الكريم ، لا تتوهمن بعد قراءة هذه الكلمة ان
جبران لا عيب فيه ، ففي جبران من العيوب ما في كل أديب خطير ، ولكن
لا تنس ان جبران من افراد الجيل « العالمين » الجديرين بالنقد والتقدير ، وان
ضاق عنه منهاج البكالوريا اللبنانية فحسبه رفوف مكاتب الادباء في العالمين .
لقد عاد جبران إلى خاصته وخاصته لم تقبله ، وكذلك النابغة يزعج
معاصريه لانه لا يساير الجماعة كما قال جورج سوريل .

حول عكاظ الحكمة

كتاب ابراهيم المنذر

الجمهورية اللبنانية - مجلس النواب

اخي مارون .

اجدت امس كما اجدت في بعض ما كتبته قبل امس ، شان كل كاتب وناقد يصيب احيانا ويخطئ احيانا ، وقد خرج الخطباء على الأثر من الحفلة فحييناهم ولم تخرج معهم فنحييك .

اما جبران فقد اصبت في ما ذكرت عنه ولكنك اطلت وطلبت ما ارجع ان المدرسة لا تجيبك اليه ، ولا شك انك تذكر اني كنت واياك في جانب جبران وزيدان في لجنة المعارف فلم تفلح . ولا يعني انتصارتا لجبران انتقاصاً من قدر المنفلوطي ، فان اسلوبه في الانشاء (العربي) يفوق أسلوب جبران ، ويجب ان نضم الرجل إلى ناشري لواء البلاغة والتهديب في الشرق فقولك « ان اللجنة ابدلت المنفلوطي من جبران » فيه تحقير للمنفلوطي ، ولا اظنك تعني هذا بل تعني وجوب وضع جبران في مصف الكتاب المصلحين في منهاج البكالوريا .

واما حملتك على شعراء العصر في النهائي والترحاب والاستقبالات فحملة مردودة لان كل شاعر مها علت منزلته في مثل هذه المناسبات مضطر ان

يقول كلمة شكر ، ولا تكون كلمة الشكر آية من آيات الفن والخيال والتصور والابتكار .

وهناك أبيات كثيرة من غير هذا الباب فسرتها ، يا أبا محمد ، بغير ما يريد صاحبها ، أو شرحتها باستهزاء والمعنى فيها مقبول مأنوس ، وليس بالصعب على كل ناقد أن يزدرى قول اعظم شاعر متهمكاً ويجعل الفاظه مبتذلة ومعانيه مسروقة .

بقيت المحاسن يا مارون .. ابن هي ، فقد يكون للشاعر بيت في قصيدة يعادل قصائد - ويظهر أنك تريد أن تهدم البيوت على أربابها فتقتل جميع ما فيها ، وكـ هنالك من كنوز تضيع تحت الانقاض ، وليس هذا عمل النقاد المنصفين .

أحييك وأدهو لك .

أخوك المنذر

بيروت ، ٤ - ٥ - ٣٦

الجواب

الجامعة الوطنية - عاليه ٧ - ٥ - ٩٣٦

أخي وشيخي إبراهيم ،

لا أنسى يوم كنت تشجعني فتى - عفواً ما عنيت أنك اسن مني كثيراً .. - ولكنني أذكر بلذة أياماً كنت أمر بها على « مكتبك » فتبسم لي واعدتها نعمة ، وإني لا أزال أحرص على رضاك الغالي جد الحرص .

قلت في كتابك الكريم المفتح بهذا التعبير ، فلا حياء الله ولا سلم الله : « اجدت أمس كما أجدت في بعض ما كتبتة قبل أمس شأن كل كاتب وكل ناقد يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً » وقد خرج الخطباء على الأمر من الحفلة فحييناهم ولم تخرج معهم فنحييك .

لم أخرج مع الخطباء لأن همتي قليلة فسبقوني ، واكتفيت بتسليمي عليك ، سلام الاحباب بعد الغياب ، قبل أن صعدت المنبر ولم يدرك في خلدي قط أنني

غير حاصل على رضاك . اما الاصابة والاجادة فحسبنا منها الافادة وانهاض
أديننا المقعد ما نستطيع . اما الخطأ - والعصمة لا أدري لمن - فليتك تدل عليه
ولك من الأدب أجر غير ممنون .
يا شيخنا ،

حمل الي امتيائك وبلغني رسالتك الشفوية بل نصيحتك الاخوية ، من حلت
اياها ؛ فشكراً وعذراً وان كنت تأمر فتطاع ، فأنا ماض في صبيلي ، فادع لي
بالتسهيل ... فان تقدمت بهذا الأدب خطوة صغيرة بلغت أقصى الاماني فأنا
رجل قنعان .

أما قولك إني أصبت فيما ذكرت عن جبران فلك الشكر على ذلك مني ومن
نزيل وادي قاديشا ومجاور الأرز . وأما اني أطلت الكلام عنه وطلبت ما
ترجع ان المدرسة لا تجيبني اليه فجوابه : إنا في زمن « مطالبات » أو لستم
كذلك في المجلس ؟ فان فعلت المدرسة أحسنت ، وإلا فلا حرج عليها .
الزاد زادها تأكل منه ما تشاء وتطعم ما تشاء ، كما قال معن بن زائدة
للأعرابي .

ثم قلت لي « تذكر اني كنت واياك في جانب جبران وزيدان في لجنة
المعارف فلم نفلح » . اني أذكر ذلك ولا انساه ، وقد أشرت بقولي : ولم يبق في
جانب جبران إلا المتهمون في دينهم مثله . أي أنت وأنا ومن لف لقنا ...
أما اني قلت « ان اللجنة أبدلت المنفلوطي من جبران » فما هكذا قلت ،
بل : وهكذا أقر المنفلوطي في المنهاج ونفي جبران من وطنه الذي يردد
كل يوم :

ملء	عين الزمن	سيفنا	والقلم
أرز	عزه	رمزه	للخلود

أما ان أسلوب المنفلوطي يفوق أسلوب جبران ، فأننا لا نتفق في هذا
يا شيخ ، اننا نريد غير هذا الكمك ، انما من المعين ، وبكلمة أوضح قد قررنا

خبز الملة ...

ثم تقول لي « واما حملتك على شعراء العصر في التهاني والترحاب والاستقبالات فحملة مردودة ، لان كل شاعر مهما علت منزلته مضطر في مثل هذه المناسبات ان يقول كلمة شكر ، ولا تكون كلمة الشكر آية من آيات الفن والخيال والتصوير والابتكار » .

أظن - وبعض الظن اثم - ان هنا « التخلص » يا استاذ ، فان شئت رأيي في شعر الفرح والترح فاليك : ليقبل الناس الترحيب والتهاني والتعازي نثراً فهو خير من هذا الشعر الدميم المقرف . وان وفق الشاعر إلى ابداء عاطفته بفن وابداع فليقل شعراً . أما متى قال شعراً مثل هذا الذي نقرأ فليطمره ، ولا يدع الهرة أفطن منه كما قال البديع للخوارزمي .

ثم قلت - وأراك تقول كثيراً اليوم - « وهنالك أبيات كثيرة من غير هذا الباب فسررتها ، يا أبا محمد ، بغير ما يريد صاحبها ، أو شرحتها باستهزاء والمعنى فيها مقبول مأنوس ، وليس بالصعب على كل ناقد ان يزدري قول أعظم شاعر متهاكاً ، ويجعل الفاظه مبتذلة مسروقة » .

اما اني فسررتها بغير ما يريد صاحبها فلا أظن ، أما شرحها باستهزاء فهذا لا شك فيه ، ولكن هل يتيسر لي هذا الاستهزاء اذا لم تكن الالفاظ والمعاني مبتذلة ؟ أما السرقة فاظنني قبضت على مرتكبيها متلبسين بالجريمة ، اما المعاني فاعترف لك انني ما عدت أقنع منها « بالمقبول » ولا اغضب نفسي عليه .

أسمح لي ان أصارحك بما في نفسي يا سيدي الشيخ ، يظهر انها قصة الباذنجان .. لا قصة منفلوطي وجبران ، وانك لمروان كما قال علي لعثمان .. لبتك تفقاً هذه الدملة فتستريح .

ثم قلت :

« بقيت المحاسن يا مارون .. أين هي ، فقد يكون للشاعر بيت في قصيدة

يعادل قصائد .

أظن انني أشرت إلى بعض المحاسن يا أستاذنا ، ولكن يظهر ان ما يسرك منها أكثر مما يسرني ، وأنا لا أستطيع ان أرى إلا بعيني ، وهي ضيقة كما يقول الناس ، ولا تكبر الأشياء .
وأخيراً قلت :

« ويظهر انك تريد ان تهدم البيوت على أربابها فتقتل جميع ما فيها ، وم هناك من كنوز تضيع بين الانقاض ، وليس هذا عمل النقاد المنصفين » .
لا يا شيخ - يقطع السم - تروّ قليلاً ، هل النقد في عرفك هدم ؟ وهل هدمنا حتى الآن غير أكواخ عششت فيها البراغيث والبق والحنافس ؟! ما هدمنا بعد يا شيخ غير أكواخ خشبية جرياً على قوانين « البلديات » الحديثة .
ليتك تسمي من تعني لنجول جولة حول هذه « الرمم » فتوافقني على هدها ، رحمة بأولادنا ، ولا يؤثر بقبالك الرقيق عويل أصحابها ..
سيدي الشيخ ،

حييت ودعوت في ختامك ، ولم تقبل ونصافح كمادتك ، أما أنا فعالي معك لا تتغير ، وهي دائماً على حد قول شاعرنا العامي القديم :
لمن يشوفك بنفعطلك من بعيد وبستحي سلم عليك بفرد إيد
وأخيراً وكأني بالغضب قد ضيق صدرك الواسع فطويت كتابك على البطاقة التي سطرت عليها ما يأتي : « اذا شئت يا أخي ان تنشر هذا الكتاب وتجيّب عما فيه فلك ذلك » .

لبيك يا شيخ والأمر لك ، ما قد فعلت ، وشرطي في الأمر ألا نقف ، وأن تصرح في الآتي ولا تلمح ... والسلام عليك من أخيك .

مارون عبود

لذكرى جبران الخالد

إلى حضرة الاستاذ حبيب أبو شلا وزير التربية الوطنية .
أما وقد نسخ الاستقلال شعار منصبكم الخطير ، فراح وزير المعارف وجهاً
وزير التربية الوطنية ، أفرجوا تنسيقاً جديداً في منهاج البكالوريا اللبنانية ؟ أم
فظل ندرس فتياننا ما ينعتسهم ، فيرون وجهنا كوجه الناعي ؟
ان الجديد في هذا المنهاج فلتة ، فأكثر شعرائه وكتابه من طراز واحد .
نفقته بامرئ القيس - أول من بكى واستبكى ، وقيد الأوابد - فنبحت
معلقته بيتاً بيتاً لندل طلابنا على ما أبدع ونفهم خطة الشعر العربي .
ونتغلغل في الانجاد والصحاري والبطاح فيقبل علينا زهير ، أبو من ومن
ومن ، وربيب أوس المقعد ، فتكبح « شمت تكايف الحياة .. » طموح
الشباب وتكرهم العيشة قبل العشرين . ونتركه ينبجع بحكمة مبتذلة يضحك
بعضها الاطفال ، فيلاقينا طرفة الشاب على ناقته فيصفها لنا من رأسها إلى
ذنبها حتى يقتلنا الضجر قبل ان يدعونا إلى « كأس روية » وتبيري لنا قيته
ونرى نداماء البيض كالنجوم ... فنقول شيئاً غير ما قلناه في زهير
وامرئ القيس .

ولا نخلص من هؤلاء حتى يطل علينا عنزة على ناقته « أولاً » ويباديننا
كاللثة السابقين ، في استنطاق دار عبلة بالجواء ، وينزل ذلك الحر الطازج عن
ناقته ليركب جواده ويكر ، فيشكو الحصان بعبرة وتحمحم ، وتلين نفس عبلة

العتية امام البطل الطب بأخذ الفارس المستلم .
وعلى حدود العصر الجاهلي يلاقينا التابغة المربان من وجه أبي قابوس فينشد
في البلقاء وقلبه في الحيرة . فهؤلاء خمسة في واحد لولا فرق زهيد لا يساوي
تعب الاستاذ وتلاميذه . فهلا نكتفي بتدريس اثنين ثلاثة منهم ، وان قلنا
الحق : فاثنا عشر يبشمان .

ونبلغ صدر الاسلام وهو أعظم عصور تطور الأدب فنتمسك بالفروع ونترك
الأصل . ندرس الحجاج بن يوسف ، وعبد الحميد ، وسجستانا بدلت الكتابة
بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وعلى الدنيا السلام ...

ثم نتشرف بزيارة البلاط الأموي فنرى هناك ثلاثة فحول يتناطحون ،
وملوكا وامراء يتلهون في نقارهم . نرى الأخطل والفرزدق وجريراً ينبشون
قبور القبائل ويمزقون الأكفان وبصابون الموتى على مصليات الطرق ، فننتظر
كارهين إلى تلك المقابر المفتحة ونظمها آسفين ، موصين طلابنا باحترام كل دين ،
لافتين نظرهم إلى شعرهم الانساني فقط ...

ولا نتنفس الصعداء حتى يطلع ابن ابي ربيعة « يعدو به الاغر » في ميدان
الشعر الحي فتطيب نفوسنا إذ نرى الشعر يقطع ثوبه العتيق ويلبس جديداً .
ويعتد ظل الزمان فنبلغ العباسيين ونرى ابن برد الأعشى بصيراً بالفن ، يقعد
القرفصاء بالبصرة ويرسل شعره طيراً أبابيل ، وحجارة من سجيل . ونشهد
أبا نواس مقبلاً في ظل كرمه يستعرض القدماء البائسين الباكين ويكركر في
الضحك . فنهجد الفن في شاعرين ظريفيين : خفيف وثقيل ، أحسا الحياة
وأحبها فجعلها شعراً نستأنا شهوراً هوداء الجبين .

ولا نفارق هذين الشاعرين حتى نعيد سيرتنا الأولى ، فنرى أبا تمام والبحثري
وابن الرومي . ان في الطائي غنى عن الكبير ، اما ابن الرومي فيشفع تصويره
في تعبيره .

ونطوف مع المتنبي في الامصار فيسمع المعلم والتلميذ ما يرضيها ، فنهيم

— كل يغني على ليلاه — حتى نستيقظ على صراخ النواحة الأسير في « رومياته »
فتمتلئ الفرقة بكاء بليداً ، ولولا « رائتيه » لفطشنا . فما دعا هذا البكاء
الحردان إلى محضرتنا ، إلا قول حسود : « بدىء الشمر بملك وختم بملك » .
وينقضي نواح أبي فراس فيتلوه غناء الاندلسيين فتشجينا أنغام موشعاتهم ،
ونرى صورة حياتهم تتحرك أمامنا .

ويحيى النثر فنرى ابن المقفع في كلية ودمنة يعملو ويسفل كالمكاء ، فنقول ما
يحضرتنا في أسلوبه ، وحسبنا منه انه عدل عن سجع الكهان وفصل الكلام
ثياباً للأفكار . وتنسى التعب إذ يواجهنا الجاحظ ، أبو الطرف الكحيل ، يحمل
على لسانه أدباً نابضاً في كلام راقص ، فنمرح في مقاصيره وجناته التي تجري من
تحتها الأنهار فيهزنا الفكر يزهر بثوب النكتة الشفاف .

وننتقل إلى مقلده بديع الزمان فخرناح إلى أدبه الشخصي ونعذره على تقليد
بارى فيه معاصريه . ثم تنتقل إلى الحريري — شيخ لنا من ربعة الفرس —
فينعس الصف وليس على الأستاذ إلا ان « ينتف عشونه من الهوس » ويرفع
الصوت جهرة ، ولا بأس عليه من آية انكر الأصوات ... فهو ان لم يفعل
يرقد تلاميذه رقدة أهل الكهف ، ونختم درس الكتاب بالترحم على الجاحظ
الذي خلق أسلوبه الأصفهاني وكتابه الأغاني ، خزانة الأدب العربي .

أما ابن الأثير ، وحظه قليل من المدرسين والدارسين ، فما أحوالنا إلى
درسه ، فهو مذهب الذوق اللفظي ، وأستاذ نقد بصير بمواضيع الكلام ، وان
نفخنا ادعائه ، فالصبر جميل ، ولا سيما أزمة البكالوريا كادت تقتل الانشاء
فامسى الطالب وليس يمه إلا « المنهاج » ليحمل شهادة .

ونشرف على النهضة الحديثة فنرى على قمعتها أحمد شوقي وفي يده كتابه
مرآة العصور السالفة كلها ، فترد الكثير من شعره إلى أصعابه ، ونذل على
ابداعه ، ونلهو وأولادنا بمسرحياته أياماً ، ثم نتركه لنزور بضعة نفر من أضياف
المنهاج : اليازجي والبستاني والمنفلوطي وولي الدين ، فنرى الثلاثة يقدون

القدماء ولا يزيدون إلا صقلاً وتمليساً ، ونرى عند الرابع تجديداً استمدته من نفسه الحائقة لا من جملته ..

وهكذا نغسح أيدينا من تراب المنهاج اللبناني الذي يستغنى عن نصفه ويظل حملاً ثقيلاً ، لا نسمع ذكر لبنان إلا مرتين عند المتنبي ، حين رأى جبلنا من خلف ، وعند شوقي في قصائده أنطقته بها المكادب والأوسمة . هذا في القسم الأول ، أما في القسم الثاني فلا شيء من هذا ، فلبنان شاعر لا فيلسوف ... فكيف تكون البكالوريا لبنانية ونوابغ لبنان مطرودون خارجاً .

ابن زعيم النهضة جبران خليل جبران ، جبران الشاعر الناصر الأديب الفيلسوف ، جبران أبو القصة اللبنانية الحديثة ، جبران الخالق أديباً لبنانياً شرقياً . فموسيقاه من عيوننا وجداولنا ، ورهبته من أوديتنا وكهوفنا ، وأهته من ربانا وقممنا ، وسفينته من أخشاب غاباتنا ، ومداد ألوانه من قوس قزح لبنان .

جبران الذي عاش لبنانياً بين ولولة المعامل وعجيجها فما التهي بحسرو وكلين عن قنطرة المدفون ، ولم ينس نواح المعصرة وهزج البيادر ، فنظم لبنان نشيداً سليمانياً . استوحى هذا الجبل فكان له برقه ورعده ، وصواعقه وعواصفه ، وصفائوه وهدوؤه . لم يبال بناطحات السحاب ، فمات وهو يحن إلى شماریخ لبنان . رأى الخلود كله على القرنة السوداء فنام نومة الأبد مغطى بأذيال برقعها ، الناصع البياض .
يا حضرة الوزير ،

ان منهاج البكالوريا اللبنانية ناقص جداً جداً ... ولا يتعه إلا اثنان : الشدياق وجبران . فهذان كاتبان مبدعان حقاً ، ونواحيهما شتى ككبار كتاب العالم وأدبائه ، وما أبعد النوم والضجر من الدارس والمدارس في ناديها العامر . فمر بصف كرسين للاميرين تغم ثناء الأدب الحي ، وأرحنا من بعض أوثان الأدب ، وأجرك على الله .

أما أنت يا جبران ، يا عريس نيسان الذي غنيته في موكبك ، فلا تقنط
من رحمة تاريخ الأدب . أنك لحي في الكثيرين وإن لم تتجمع عناصرها كلها
في واحد .

نم يا فتى الليل ، ولا تترجّ القيامة ثانية يا ابن الفجر ، فبهات - كما قلت
لك مرة - أن تلدك امرأة أخرى .. هذا حلم رأيته عند صياح الديك ولا
تعبير له .

إن للعاشق من نيسان ليوم تاريخ نهضتنا الحديثة ، ففيه انطفأ كوكب طلع
من لبنان ، ودار دورته في الأبراج وعاد الينا رماداً مطهراً .

جبران اللبناي

اذاعت هذه المحطة^(١)، بمناسبة ذكرى آلام السيد وعيد الفصح المجيد قطعتين من الأدب الجبراني الخالد ، فتذكرت جبران الذي مات في الحادي عشر من نيسان وقلت لقلبي : امش على خيرة الله ولنكتب شيئاً عن جبران الذي لا يموت في ذكراه السابعة عشرة .

ان عناصر جبران الفنية لا تعد ولا يستطاع درساها إلا في مجلد ضخيم ، هذا اذا اعتصمنا بالايجاز ، ولهذا أحببت ان أتحدث الليلة عن جبران اللبناي .
ترعرع جبران ونشأ في لبنان فانطبع بطابعه ، ثم طوى سجل شبابه واكتهل في أميركا ، ولكنه لم يتحدثنا عن غير الشرق ، فكان معامل أميركا وعمليتها لم تؤثر شيئاً بروحية جبران ، فعاش بين فاطحات السحاب يحلم بظهر القضيبي والقرنة السوداء شاعراً ومصوراً وكاتباً .
فكر أولاً بإنشاء مدرسة أدبية عربية فكان مؤسس مدرستين في لغة الضادة الرومنيسكية والرمزية . ففي جبران ، وهو سليل الشدياق واسحق والحداد ، وسبط أيوب واشعيا وارميسا وسليمان ، وافرام ويعقوب ، والمعري والمتنبي والفارسي ، عناصر تفاعلت فكونت الأسلوب الجبراني .
والرابطة القلمية التي خالقها جبران هي أول مدرسة منظمة في أدبنا العربي ،

(١) القيت هذه الكلمة من دار الاذاعة اللبنانية ببيروت .

كان غرضها خلق مدرسة أدبية جديدة ، فاشبهت من جميع مناحيها المدرسة الرومنطيقية الأوروبية ، حتى في التصوير . والأسباب التي كونت هذه المدرسة الأدبية عندنا هي التي كونت تلك هناك ، فهناك الثورة الفرنسية وهنا الحرب العظمى الأولى .

وكما زعم رجال النهضة الرومنطيقية ان الشاعر يقوم بأهم عمل اجتماعي ، وانه فوق الناس ، كذلك اعتقد جبران وتلاميذه . تصوروا ، كما تصور هيفو ، ان الكتاب هم قادة الانسانية ، والكاتب أكبر من المزيان ، وعليه ان يحمل مشغله حتى الموت في يده . وكذلك اعتقد جبران حتى كتب النبي ويسوع ابن الانسان وآلهة الأرض وظل يكافح حتى النفس الأخير .

وكأني بالدكتور فيليب حتي ، حين رأى الناس يسمعون كلمة جبران في حفلة تكريمية ، وقوفاً ، ويقدمون للناس كتبه مجلدة مفضضة كالانجيل والكتب السماوية ، أعلن على الملأ في كلمته التي القاها في تلك الحفلة :
اننا نرجو ان يظل جبران بيننا .

وبعد موت هذا المعلم العربي العظيم قال الدكتور حتي أيضاً :
والحقيقة هي ان اسم جبران ، وحده ، لسمعتنا ونفوذنا في هذه البلاد ، يساوي كل ملايين الدولارات التي أدخرناها .

هذا هو جبران اللبناني في نظر المتزهين ، وقبلما نرى كاتباً تعصب لجنسه وعرقه ولغته كجبران ، فاذا فتشنا عن الألوان المحلية المستمدة من المحيط اللبناني وجدناها صارخة في ما كتب جبران بالعربية والانكليزية . استمد الشاعر هذه الألوان الزاهية في انشائه من سماء بلاده وأرضها . ففي التعابير الجبرانية بياض الثلوج ، وخضرة المروج ، واصفرار البيار ، وأنين المعاصر ، وشققة العواصف ، وشموخ الجبال ، وحزم الأرز ، ونواح الهاوية ، وزججرة الأودية ، وثرثرة ، الينابيع ، وعريضة الأنهار ، وهلملة الضباب .
استمد هذه الألوان واللونة والمرونة والنعومة من أجواء لبنان ، فاشتعلت

حافات عبارته ، وأرسات نوراً وذاراً وموسيقى . إن تسك جبران بشرقيته
حملة على المحافظة على قوميته ، فوقف كل ثروته على بلدته . ووعدده هذا وذاك
بشيء من ماله ، ان صحة الرواية ، يذكرني بالثوري أحد بخلاء الجاحظ الذي
كان يقول عند الاثهاد « قد علمتم انه لا وارث لي ، فاذا مت فهذا المال لفلان » ،
فعلل الكثيرين بالآمال ، وورث واحداً لا غير .

إن جبران لم يغنى عن الالتئيب إلى قومية جديدة فهو وحدة قومية .
وحرصه على قوميته حملة على ان ينفخ روحاً جديدة في لساننا العربي المبين فقال
في ذلك بك . بعضنا لمن ماتوا ولا يدري ان قراءه في المقابر ويكتب بعضنا
لارضاء معاصريه حاسباً ان في ذلك العظمة والخلود فيخطيء المرمى . ويكتب
بعضنا لانه ان لم يكتب يت . وهذا من الخالدين .

والذي عندي هو ان من يغالي في المحافظة على القديم بحذافيره يكون كمن
يحفظ جميع أفراد أسرته ويبقيها في بيته ، فاي رعب يحدث له . فلنكلف
انفسنا عناء الخلق ، فالحياة إنما تجدد نفسها بمواليدها ، ولا نخف آلام الخاض
واخطار الولادة ، فهذه من لوازم الحياة .

يظن بعضهم ان ليس جبران إلا كاتباً خيالياً ، وقد ضل من ظن ذلك .
فلجبران غرض أبعد جداً من هذا يابسه ثياباً محاكاة على نول حديث ومفصلة
طرازاً جديداً .

إنني لا أسمع حين أقرأ جبران في جميع أطواره إلا صوتاً عاماً يغني على
نايه لجميع النفوس ، صوتاً يغني لجمال الليل وأخطاره ، ونشوة الصباح البكر ،
يرثي الامنيات بنشيدته الهزنة فتصبح صلاة الأطفال عند يقظتهم في الليل .
انه ينشد أروع شعره الحزن لتذكاراته القوية التي لا تموت ، فيحس بتساقط
أوراق الخريف موسيقى الابدية . وهكذا يريك خطوات الموت واحدة أثر
واحدة ، فاذا شئت ان تحس وطنك وتشم أرض بلادك أيها اللبناني فاقراً
جبران ، واشكر للعناية هذه الهبة ، فقد أعطتك ادبياً عالمياً خالداً .

لا تنس أيها اللبناني من لم ينس لبنان حين رأى الدولارات تفد إلى صندوقه

فجمعها اتركها من آثاره حيث نشأ وحيث يرقد الآن جثمانه . لا تبال بما يقال ،
فالذين يحولون إلى الوجوه عنه لن يظفروا بشيء إلا الأسف واللوعة . اسمع الآن
صوت جبرانك اللبناني فتعلم ان في الأدب الرفيع نفحة من النبوة . قال جبران
منذ عشرات السنين :

« لكم لبنانكم ولي لبناني . لكم لبنانكم ومعضلاته ، ولي لبناني وجماله .
« لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمناسزع . ولي لبناني بما فيه من
الاحلام والأمانى .

« لبنانكم عقدة سياسية تحاول حلها الأيام ، أما لبناني فتلول تتعالى بهيبة
وجلال نحو أزرقاق السماء .

« لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي ، أما لبناني فأودية هادئة سحرية
تتموج في جنباتها رنات الأجراس وأغاني السواقي .

« لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب . أما
لبناني فصلاة بمنحة ترفرف صباحاً عندما يقود الرعاة قطعانهم إلى المروج ،
وتتصاعد مساء عندما يعود الفلاحون من الحقول والكروم .

« لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة ، أما لبناني ففكرة بعيدة ، وعاطفة
مشتعلة ، وكلمة علوية تهمسها الأرض في اذن الفضاء .

« لبنانكم موظفون وعمال ومدبرون ، أما لبناني فتأهب الشباب وعزم
الكهولة وحكمة الشيخوخة .

« لبنانكم وفود ولجان ، أما لبناني فمجالس حول المواقد في ليال تفرها
هبة العواصف ويحلبها طهر الثلوج .

« لبنانكم طوائف وأحزاب وخطب ومحاضرات ومناقشات « أما لبناني
فتغريد الشحارير ، وحفيف أغصان الحور والسنديان ، ورجع صدى الغابات في
المغاور والكهوف .

« لبنانكم شرائع وبنود على أوراق ، وعقود وعهود في دفاتر ، أما لبناني
فمقطرة في أسرار الحياة وهي لا تعلم أنها تعلم ، وشوق يلامس في اليقظة أذبال

الغيب ويظن نفسه في منام .

« لبنانكم ، شيخ قابض على لحيته ، قاطب ما بين عينيه ، ولا يفكر إلا بذاته . اما لبناني ففتى ينتصب كالبرج ، ويبتسم كالصباح ، ويشعر بسواء شعوره بنفسه .

« لكم لبنانكم وابناؤه ، ولي لبناني وابناؤه .

« فابناء لبنانكم هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين ، واستيقظت عقولهم في حضن طامع يمثل دور أريحي .

« اما ابناء لبناني فهم الفلاحون الذين يحولون الوعر إلى حدائق وبساتين . هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من واد إلى واد ، فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء ، وصوفها رداء .

« هم الاباء الذين يربون التوت والامهات اللواتي يغزلن الحرير . هم البنتاؤون والفخارون والحائكون وصانعو الأجراس والنواقيس ، وهم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة ، وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنى والزجل .

« هم الذين يغادرون لبنان وليس لهم سوى حماسة في قلوبهم وعزم في سواعدهم ، ويعودون اليه وخيرات الأرض في أكفهم ، وأكاليل القار على رؤوسهم .

« هم الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم . هؤلاء هم أبناء لبنان . هؤلاء هم السرج التي لا تطفئها الريح والملاح الذي لا تفسده الدهور . هؤلاء هم السائرون باقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال .

لكم لبنانكم ولي لبناني ، هذا ما يقوله جبران أما أنا فأقول لروحه في ذكره السابعة عشرة: لقد تحقق الكثير مما تنيت وحسب لبنان انه له جبران.

في مدينة جبران

ما هذه أول مرة أزور فيها بشري عاصمة مقدمي المردة يوم كان لبنان
مهاجراً . عرفتُها سنة ١٩١٢ ، وغت تحت أرز لبنان الراكب على كتفها ، تنظره
من الحدث والديان فتغاله زهرة ناضرة شكها الزمن في عروة لبنان .
مررت بها في ذلك الحين بعدما زرت شيخ الجبل البطرك الياس الحويك ،
بت عنده ليلتين أحلى وأقصر من ليل عمر ... كانت نكاته ونوادره الوجيزة
تنمش حضرة ، وإذا احتشمتنا تحكك بنا لنقول ، ويأبى إلا التبسط فنفعل ،
متذكرين قول الفرزدق في زين العابدين :

يفضي حياء ويفضي من مهابة فما يكلم إلا حين يتسم
ودرى غبطته أنني زائر الأرز غداً فضحك ضحكة خرساء ، ولكنه خبأ
النادرة لساعتها . وجثته في الصباح مودعاً فقال : وأين مكاريك ؟
وجاء المكاري فإذا هو من بطانة الذيل البطريكي ، والبغلة بغلة الكرسي
فقال له : توقّ صاحبك ، إصْحَ هه ، الطريق عكسه .
وأخذت يده فوضع بسراه على كتفي وقال : زر قصصيا بدربك . فقلت :
زرت وما انتفعت .

فضحك وقال : لأن شيطانك كبير ... مع السلامه .
وبت بالأرز ، وكلفني نفس الأركبة ثلاثة بشالك - اجرة رسول إلى
بشري - وتعيشيت كبة نية ، ونمت في خيمة نصبها الشيخ نسيم حنا ضاهر

لزوار الأرز . وفي الغد اجتزت بشري فرأيتها بيوتاً متراكمة . أوسع طرقاتها
أقل من باع ، وأكثرها أزقة بالكد يسلكها شاب ضخم مثلي .

وزرت بشري بعد الحرب الكبرى مرات فإذا هي هي ، بيوت ملزوزة
كخلايا النحل ، وقرايا النمل ، فقلت في نفسي : يا ضياع الماء والهواء في هذا
البلد . هيهات ان تظفر بشري بصيف واحد .

وزرتها أمس فأنكرتها . الشوارع مفتوحة كذراعي يسوع حين قال :
« تعالوا إلي أيها المتعبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم » والسبل منفرجة كيدي
أم تستقبل وحيداً حديث الكرج والدبدبة . ومساحات فسيحة كصدور أهلها
الكرام ، وأقنية حديثة تجيش فيها المياه جيشان النخوة في صدور أبناء بنت
الأرز . وبكلمة تغني عن الف : آمنت بفورونوف ورجوع الشيخ إلى صباه بعدما
رأيت بشري تهرجت بعد حياء وخفر .

فمن أبرز هذه العروس وجلاها ؟ انه جبران . هذا أول أديب عربي ائرى
من القلم ، عفواً ، من الريشة . ولست أعني ريشة التصوير بل تلك التي كتبت
المجنون ، والسابق ، ويسوع ابن الانسان ، وآلهة الأرض ، وحديقة النبي ،
ورمل وزبد .

وصى جبران بهذه الثروة الطائلة لمدينة بشري ، وحرم منها أخته وأهل
جميعاً حتى صديقه غيائل نعيمه الذي لم يصح حله كما قال في كتابه جبران
خليل جبران .

اما القائمون بهذا العمل فلجنة جبران الوطنية ، يرأسها شاب ناهض وفي هو
السيد سليم رحمه ، ومن أعضائها الذين اجتمعت بهم ، وكلهم ذوهمة كرئيسها :
الشيخ القاضي طنوس جمجع ، والحوري طانيوس جمجع ، والشيخ مجيد حنا
ضاهر رئيس البلدية ، وشابان ماهضات من امرقي الفخري وسكر ، وأمين
صندوق اللجنة السيد منصور حبيب لدوس .

أما أمين الصندوق فشيخ يطل على السبعين ولكنه نشيط حريص على المال

ككل خازن وقيم يؤله انفساق فرنك ، على رخصه ، إذا لم يكن طبقاً لنية جبران ، هذا الشيخ لم يعقب وقد جمع مالا كثيراً أنفقه على البر والاحسان ، وهما في عرفه محصوران ببشري كما حصر جبران ثروته بها .

بشري فائقة في حضان الجبل تغني لها الجداول ويهددها الهواء ، ويمر نهر قاديشا تحت أقدامها فهي أبداً في حمام بارد . ينتصب فيها الحور كالعمالقة بين أقزام الأشجار المثمرة ، فلولا البيوت لخلتها غوطة ، ولولا الأجراس التي تقرع دائماً للصلاة ، وخصوصاً جرس الابهاء الكرمليين لحسبت انك في خلوة . لا صراخ ولا عياط في بشري ، تمر بقهواتها كأنك مار بغرفة قراءة ، وان لم تر كتباً أو جرائد .

تحيط بها الجبال من الجهات الأربع ، وكيف التفت ترى شماریخ منتصبة كأنها التائل والقباب ، ومن الشرق يتدلى الشلال فتخاله ملسة فضية في عنق « الجبة » الحسناء ، وترى أنابيب كهرباء قاديشا كأنها الحية التي خدعت أمنا حواء ، هذا اذا كانت سوداء ، فكل لاهوتي يكسوها لوناً من مخيلته ، أما الماء فمشلوج أبداً ، وهو مريء هدام لما تبنيه المطابخ .

وصلت بشري عصر الاثنين ١٢ آب ، وقرب الغروب زرت جبران في بيته الموحش ، في دير مار سر كيس الخبأ في عب خابة تجري من تحتها الأنهار كأنها الفردوس المحكي عنه . يذكرنا هذا الدير بالآية القائلة : « وينعتون من جبال بيوتا » . وهذا شأن سكان لبنان القدماء وخصوصاً النساك والحبساء . الدير رهيب لا جميل ، كان ملعباً لجبران في صباه فأخذ عنه أشباح الليل ومواكب النهار ، تحيد من السكة وتمشي في لحف الجبل قليلاً فتبلغ الكنيسة ، وهي خارج سور الدير كمادة رهبان لبنان في ديورتهم ، فالنساء لا يدخلنها أبداً . تلج الكنيسة ، وهي كهف غائر في صدر الجبل ، فيواجهك تابوت جبران المسطح في مغارة كأنها حنية كنيسة مارونية ، شرقية لا غربية ، مزينة برقرف من متحجرات مغارة قديشا التي اكتشفها الحوري الناهض طانيوس جميع ، ومرتبة التابوت مفروشة بخشب زيتون عتيق كأنه مأخوذ من البستان الذي

صلى فيه يسوع ، حبيب جبران .

كتب بول بورجه يوم زار بيت غوته شاعر الالمان مقالا جاء فيه : إن صورة الأشياء التي يعيش بينها كاتب عظيم تتحد باثاره لتكلمها وتوضحها . إن هذا ما شعرت به ثلاث مرات : الأولى في أورشليم والجليل ، والثانية في المعرة ، والثالثة في بشري .

نمت تلك الليلة متأثراً وأصبحت ناسياً ، فزرت صديقي الاستاذ خليل صادق ثم اجتمعنا برئيس لجنة جبران المنصرف إلى تكميل فندق جميل أحدثه في قلب بشري . وطوفت في بشري يرافقي أمين صندوق اللجنة السيد لدوس ، فأراني أعمال لجنة جبران التي أنفقت في هذا العام على ترميم بشري نحو عشرة آلاف ليرة فحمدت المسمى .

وبلغنا بيت جبران حيث نمت رواية وع وع وع ، التي أتخفنا بها نخائل نعيمه ، فاجفلت كمن رأى أفعى . إنه أشبه بمزرب حمير ، لا سقف له ولا جدران . وأدرك ذلك مرافقي الأمين فانبأني بالمشروع الخطير الذي سيتم في العام القادم ، وقد وافق عليه غبطة البطريك أنطون ، وهو هدم كنيسة مار سابا التي يعاد بنائها على حافة الجبل .

يرى البشر اويون جبران غير ما نراه نحن الادباء ، يرون فيه مسيحياً مخلصاً حتى للطغسيات ، ولذلك يقدمون لراحة نفسه كل أحد على مذبح مار مركيس ، اما الترحم عليه فلا ينقطع .

وانتقلنا من بيت جبران إلى متحفه فمررنا على ساحة جديدة في وسطها ينبوع يتدفق من أشداق الأسود ، ولا عجب ان أوحى اليهم هذا المشهد فهم أسود تلك الغابة .

استقبلنا محافظ المتحف الشجاع وعرفنا فرحب بنا ترحيباً شوفياً ، بنم عن وفاء ورحابة صدر ينسيان الضيف وحشته ، وما اكتفى الرجل بالترحيب بنا حتى رحب أكثر من مرة بالسيارة التي حملتنا إلى بشري . وأخذنا نوا إلى

غرفة جبران فرأينا تحته البسيط وعليه فراش ذكرني بالفراش الذي للأب اغناطيوس التنوري ، منتثرة فوقه وسائد ونخيدات ، والصليب معلق فوق رأسه ، وفي الناحية الأخرى شمعادين دهرية أظنها عمل بيت شباب ، فخلت انني في مار روحانا عين كفاح . وهناك أيضاً شمعادين ذات سبعة أنوار وجبران مولع بهذا العدد . وتحت الرف القائمة عليه الشماعدين مطبخ جبران الزاهد ، من المقلبي إلى القصعة والمعلقة الخشبية . وقد مدت في أرض الغرفة صورة جبران التي أهداها ميشال العبد إلى بشري ، وهي من بلاط صيني كالتق في بكركي تمثل البطريق عريضه بتاجه وصولجانه وبرفيره . وضعت هذه الصور هناك مؤقتاً وستنقل إلى بيت جبران مع متحفه .

ومضينا إلى قاعة ثانية فاذا هناك أيضاً أشياء جبران الكثيرة ، منها عصاه التي رفعها مرة كما أخبرنا الاستاذ نعيمه في رده على الريحاني . وفيها ساعات جبران وكلها عادية ، وأقلام وتحف وطرف وتماثيل صغيرة بينها صورة ماري هكل وكل عدة مصنع جبران التصويري . وخرجنا إلى الدار نطوف على الصور المعلقة على جدرانها وأكثرها رمزية توحى حيرة وخشوعاً وعجباً . ذكرني متحف جبران بقول نشيد الانشاد : « هوذا سرير سليمان حوله ستون جباراً ... كبرج داود المبني للسلاح علق فيه الف مجن » . وفي الدار مكتبة جبران أكثرها انكليزية ، أما كتبها العربية فالأغاني ، وبعض كتب نحو وبيان ، وكتب عديدة مهداة اليه .

فتشتها فلفت نظري رواية نجائيل نعيمة « الآباء والبنون » التي يقول في أهدائها إلى جبران انها أول آثاره يهديها إلى عزيزه جبران وهو ذاهب إلى الحرب ، وقد تكون الأخيرة . الحمد لله انها لم تكن الأخيرة ، ولو كانت لخسر الأدب العربي كثيراً .

وأستوقفني أكثر كتاب للآنسة مي ، قدمته لجبران بهذه العبارة : إلى « النبي » مع الرعب . وهناك كتاب آخر منها نسيت عبارة أهدائه .

وأخذت أتأمل الصور المجموعة في جلود من الكرتون وكلها بالقلم الرصاصي فمثير بينها على واحدة مقدمة لميشلين سنة ١٩٠٨ وهي صورة جبران الشاب بقله . وفي المتحف صورتان كبيرة وصغيرة عليها تخايل القدم لم أفهم سرهما ولكنني متكل على الصديق الفنان الشيخ قبصر الجميل الذي سيدرس متحف جبران بدعوة من اللجنة .

وخرجنا من المتحف مشيعين بنظرات محافظة الباسل السيد حنا مارون الذي ينام على مكدس كاد يذهب ضحيته ليلة لولا لطف الله به وبمائلته . وعدت إلى الفندق أتمتع بلطف صاحبه بربر بك الضاهر وإيناسه ، وقبل الغروب جاءني السيد لدوس لنذهب إلى اجتماع لجنة جبران في هذه السنة الضيقة . وفي النادي تعرفنا بوجوه بشري أعضاء اللجنة ، وببحثنا شؤوننا تتعلق بجبران الخالد لو كانت وافقت اللجنة لانتعش الأدب العربي كما أراد جبران وفعل . وسرنا خطوة ثابتة إلى الأمام ، والكحل خير من العمى .

لا تتعجب ان قلت لك كنا نخال جبران معنا . فصورته ، بريشة الجميل ، في صدر القاعة التي اجتمعنا بها . إن جبران أول أديب عربي له متحف آثار وبيت يزار ومدفن فخيم ، وسيكون له أشياء غير هذه وهو يستحق . وعلى ذكر يستحق أخبرك انه استحق شكر لبنان ، بعد الموت - من الدرجة الثانية - والبراءة معلقة على جدار متحفه .

ان جبران في تأليفه العربية لبناني محض بل أقليمي حتى في سماء بعض أبطال قصصه وأماكنها ، ولا يسد للراغب في فهم جبران فيها ثاماً من زيارة الاقليم الذي نشأ فيه ودرسه إذ يلح في كل مقال كتبه . جبران في هذه الكتب العربية من أعظم مفاخر لبنان الأدبية ، أما في كتبه الانكليزية فانساني شامل وهو فيها مفخرة الشرق كله . حمل إلى العالم عطر الشرق وبخوره وأنوار شموعه ...

هرب جبران من ظل الاكليروس ووقف بعين الشمس ، ولكنه اليوم ينام

بينهم . فهم الذين يصلون عليه كل أحد كما قلت لك . ثابت عندي ان الذين كرههم جبران من رجال الدين هم غير كهنة بشري الودعاء النقية قلوبهم . فكهنة بشري ، كما رأيت ، ديمقراطيون لا يعرفون ارستقراطية الاكليروس ولا يرون لانفسهم سيادة إلا تحت القبة وجناح الهيكل .

في بشري نحو ثلاثين كاهناً ! لا تتعجب ، فأنا أذكر انه كان في عين كفاح تسعة خوارنة ، وعين كفاح أربعون بيتاً ، كلهم من طراز : الكبير فيكم فليكن لكم خادماً .

وأخيراً لا تتعجب من صوفية جبران ، فموقع بشري مدرسة يعلم الصوفية بلا استاذ ، فحيا الله بشري وأهلها ، وحيا لجننتها الجبرانية العاملة بلا ملل ، ووفقها إلى احياء ذكراه وان كان في غنى عني وعنهما وعن منهاج البكالوريا .

من أجل الأدب

إلى الرئيس اده - مجمع جبران وجائزته

سيدي الرئيس ،

أذاعت الصحف انذاراً يمنع رعبتك القلبية ان تذكرك ، فهل يمنعنا هذا ان نتذكرك وقد كترك ؟

اننا نباهي بثقاقتك العميقة الواسعة ، ونعلم انك حفيد شاعر لبناني جريء^(١) كان قذى في عين الجزائر وقد أرخ وفاته التأريخ الرائع .

ولا نزال نذكر بالفخر موقفك النبيل عبر البحر المتوسط ، غير ناسين انك باهيت بثقافة هذا البحر . الحق معك يا سيدي ، أترى دول أوروبا العظمى تحوم حول هذا الحوض تدعيه ، وتنسى أنت أياها الغر على شاطئيه الشرقي والغربي ؟ الا تذود عن حوضنا ولو بالكلام ؟

أراني فهمت كلمتك الشهيرة على غير الوجه الذي فهمه بعضنا . أدركت انك تقول للغرب : ولئن كنا اليوم أمة صغيرة فنحضر هذا المعرض بتواضع عميق ، فلا تنسوا اننا كنا السابقين في هذا الميدان ، فاستعمرنا الدنيا وعمرناها ، كنا معرضاً جوالاً فتنت العالم محصولاته وكما ملوك الشرق الغرب برفسيرا وأرجوانا .

نعم وتعلم انك قلت لاوريا : لئن فاتنا الغاز الحائق ولم يكن لنا طائرات

(١) الشيخ الياس اده المتوفي سنة ١٨٢٧ .

ومدرعات وغواصات فما فاتتنا الثقافة ، ولم ينقصنا الاختراع ، فصيرنا البحر
طريقاً معبدة فذل لنا وخضع .

ما وجدت مجالاً للفخر بالسلح المدمر فطاولت بنبوغ أمتك الذي عجز
الدمر عن طمسه بعد الوف السنين ، وكيف لا تطاول بهؤلاء النوابغ وأنت
واحد منهم ان شاء الله .

فكرت بهذا يا سيدي ورجعت لنفسي في الحلاء الوها ! لقد أفلست يا
نفسي ، اما سفتهك قومك بافراد وجماعات ، فلا غني فتح كيسه ولا جماعة
أهتزت لما دعوت اليه ، وبعد الف جهد ظفرت بمئة ليرة ورقاً ، جائزة لاحفاد
أولئك الذين أفتخر بهم فخامة الرئيس في باريز فلماذا لا تقررعين بابيه ؟
أتفتح لنا يا سيد؟ أنت تعلم انه ليس في مكنتنا بنيان دولة عظمى كبريطانيا ،
مثلاً ، ولكنه في اليد انشاء دولة أدبية تمتد حدودها إلى حيث نشاء تخومها كما
تروم ، فقل كلمتك وهات يدك .

تذكر جيداً كلمة بطرس ليسوع : « يا سيد قد تعبنا الليل كله ولم نصطد
شيئاً ، ولكننا لأجل كلمتك نلقي الشبكة » . أتقول هذه الكلمة لأطرح
الصوت فيأتي الناس ويعينوني على اخراج شبكتي من بحرك الطامي ..؟
أتكون الفقيه المثقف ويشقى في عهدك الادباء؟ ان أشقى الجمهورية اللبنانية ،
أدباؤها ، وهم الذين يبنون مجددا الحالد مسخرين غير مأجورين . لست أطمع
من فخامتكم بشيء ، فعندي من خير الله وخيرك خبز وكسوة ، ولكني أسألك
المعون على هذا الادب ، ذخيرتنا الباقية وسلاحنا الفرد . فالادباء أيتام في مادبة
الجمهورية .. لا يذكروهم أحد بكسرة يسندون بها قلوبهم . فيما يمنع ان تكون
لهم « جائزة اده » يتسابقون إلى نيلها واحداً أثر واحد ؛ تشعذ العقول وينبه
بين امم الأرض ذكر الجمهورية التي أحبتها .

قلت لك - عفواً اذا تركت المم - انني لا أتمنى شيئاً غير هذا . فوالله
وبالله والله (بكسر الهاء) بل لا أتمنى الحياة إلا للعمل الدائم في بنيان هذه

الدولة التي نحن بها مستهزون .

انتا في انفسنا قوة ولكننا ، وبإلاسف ، عن أظهارها عاجزون . ما نفع
« الاستحقاق اللبناني » يعلق على التوابيت ؟ وهل تروق دفيناً جودة الكفن ؟
إذا استعرضنا التواريخ تخبرنا ان الأدب لا يعيش إلا في ظل دولة ، فابسط عليه
ظلك ، ورفه عن رجاله تسمع الأناشيد الخالدة . انتا نريحك من الأنعام السمجة ..
ونسعلك ما تروح اليه نفسك . خذنا حصتك وانت الرابع .

جعلت في الربيع الفائت جائزة ضخمة للخيول الأصيلة ، فجرب أجعلها
العام القادم للبشر ، هؤلاء الذين يصاولون بأيديهم وأرجلهم ليخلقوا اللون اللبناني
الذي لا يحققه لك غيرهم ، هؤلاء الذين يحرون كل يوم شوطاً وعليهم غير
مضمون في المساء .

ضع لنا هذه الجائزة وخطيئتك في رقبي ان ندمت ، انك ستري كل مهر
وقارح يحري في هذا الميدان الخالد . ستري بينهم الف عبدو^(١) . وبهذا تبني
دولة ثابتة لا يغزوها فاتح ولا تؤخذ عنوة ، ولا ينتدب عليها يوماً من الأيام ...
وان صح زعمي فهي مفرق طريق الاستقلال التي شققها لنا ، ولا شك ان التاريخ
سيقدر جهادك ، ويذكر البطل الأعزل المظفر في أنصع صفحاته بياضاً .
وللتاريخ يحيا الرجال وهو جنتهم التي يخلدون فيها .



اما الآن فلنؤد الحساب لآخواننا الأدباء . إن سعيانا المستمر لم يذهب مدى ،
ولم تعد بدنا فارغة ، فلجنة جبران الوطنية ما خاست بعهدنا ، وإن نفرح
الآن فبالنواة التي نسوسها لنمسي دوحة اذا انعشها الهواء وواتها الماء والغذاء .
وهذه قطعة من رسالة رئيس لجنة جبران توضح ما نقول .

(١) عبدر اسم الحصان الذي ربح جائزة فخامة الرئيس وقدرها الف ليرة .

« قياماً بما قطعناه من العهد امامكم يجعل جائزة أدبية لجبران عقدت جلسة خصوصية للبحث بهذا الموضوع ، فعلقت اللجنة النتيجة على استشارة رئيسها الفخري غبطة البطريرك عريضة . وفي موعد آخر تقرر ان تكون الجائزة مائة ليرة لبنانية تدفع للفائز نقداً ، وأرصد ستائة ليرة أخرى لنفقات مجمع جبران الأدبي ، فتكون الجائزة بظاهرها مائتين . ولم نتوقع إلى أكثر .

« وان شاء الله تعلمنا التجربة الأولى وتفهمنا نتائجها وفوائدها فنجعل الجائزة التالية أضعافاً . وقد اتخذ قرار يعهد اليكم بتأليف مجمع جبران من خيار ادبائنا بنظام رسمي معترف به ، وتعطى النتيجة - الحكم بالجائزة - في بشري خلال حفلات ذكرى رجوع جبران إلى بلده كما اقترحتم في الاجتماع .

سليم رحمه

رئيس لجنة جبران الوطنية

يقول المثل العربي : أول الفيث قطر ، ويقول المثل اللبناني : مص القصب عقدة عقدة ، وطلوع السلم درجة درجة . اما المجمع فنحن ساعون إلى تأليفه ووضع قانونه ، اما عدد اعضاءه فسبعة ؛ ينضم اليهم عند الحكم رئيس لجنة جبران وعضو آخر تنتخبه اللجنة . اما جائزة جبران لعام ١٩٣٨ فتكون للقصة الطويلة يحكم بها المجمع في بشري وفقاً للشروط التي تذاق قريباً مع اسماء الاعضاء ليعت اليهم الادباء بقصصهم .

انا نشني أطيب الثناء على لجنة جبران الوطنية ، فلعملها تهلل روح جبران ، وهو عندي أقرب اعمالها إلى نية الواهب كل ما يملك لبلده . فجبران سعى جهده في حياته ، بل وقفها كلها على هذه الفكرة ، فأنشأ الرابطة القلمية التي مرضت بمرضه وماتت بموته . فعسى ان يكون هذا المجمع الجديد من ابناء الحياة فتفرح به روح جبران فرح الجد بحفيده ، وعسى ان نبشر الادباء بجائزة الرئيس اده التي ستكون سنية ان شاء الله .

حاشية - اذا متع الله هذا الأدب اليتيم بجائزة اده فلتكن محرمة علي منذ
الآن ما عاشت وعشت ، وكذلك جائزة جبران التي تحققت . اقول هذا دفعا
لسوء الظن . رب يسر ولا تعسر .
عاليه

اخي الشيخ فؤاد حبيش

قرأت كلمتك الآن عن مجمع جبران وجائزته ، ورأيتك « قود » - وردك
في محله - ان يكون للشعراء والمصورين نصيب من جائزة جبران .
سيكون ذلك يا شيخ ، فالجائزة القادمة عام ١٩٣٨ للقصة الطويلة ،
وجائزة ١٩٣٩ للشعر ، وجائزة ١٩٤٠ للتصوير . هذا اذا بقيت الجائزة قزما
ولم تكبر ، اما اذا نمت فسنجعلها للفنون الثلاثة في كل عام . صل معي للقديسة
تيريز من كل قلبك ..

شكرت لك ثناءك عليّ ، وتقنفت ، ثم اقمست . لا تتمجب يا فؤاد
فالشاعر صادق .

يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الانسان

ساعدونا يا اخي ، طوفوا معنا حول الصناديق وانفخوا في الابواق فلعلها
تسقط امامنا كما سقطت أسوار أريحا عند أقدام البطلي يشوع بن نون
عدونا الألد ..

ليس فينا من يستطيع ان يمدق إلى الشمس دقيقة ، انما نحن أبناء الليل
تطربنا موسيقى الزوابع وترجفنا الصواعق ولا تخيفنا ، اننا نرقب وجه الصباح
لننام في الضحى كصاحبة امرئ القيس رحما الله .

اليوم قرعت باب رئيس الجمهورية ، كما قرأت أو تقرأ في صوت الاحرار .
أقول انه يصرفني ؟ لا تذر يا فؤاد ان مارون لا ينصرف ، والرئيس غير
شاعر . عفواً الرئيس شاعر اعمال ، والصرف وعدمه بضاعة كلام . فستري

ان رجائي لن يخيب وقد رفعت اليه الآن كتاباً خاصاً ، أحسن الله الجواب
والمآب .

اصافحك مشتاقاً إلى احماضك الحبيسية التي تقني عن « معكرونيكم » ،
فامأل الستار ان يكشف عني هذه الكربة ، وينبت المرعى فلا تبقى حزازات
النفوس كما هي ..

أخوكم مارون

ولبراءة الذمة أقول للقاريء الكريم انه لم يتحقق شيء من آمالي .

خطبة بشرى

جئت وفي نيتي ألا اتكلم ، ولكنني فعلت اذ بلغني ، والعهد على المخبرين
انكم سيدات وسادات ، مشتاقون جداً إلى طلعتي البهية . اشكركم جداً ،
فقد جبرتم خاطري المكسور ، وفهمتوني ان الله لا يبسلو حق يعين ، فهو ان
تكرم علي ببطن كافوري يتقدمني بلا حياء إلى كل محضر ، فقد رزقني من
يقبلني على علاتي .

سيداتي وسادتي ،

لست اليوم خطيباً ، ولكنني محشّر ، اعلق على الهوامش ، وبكلمة أبرع :
رجل يقطع من كل واد عصا ، فانعتوه ما شتم .
جئنا لتعظيم جبران ولا بد لكل زعيم في الدنيا والدين من ثامن تؤيده ،
فعاكم لا تشد ظهره رعية لا يحابه الناس وأمره يكون رخواً ، وقديس لا
يطلب شفاعته أحد ولا تفرع له صدور المعائز يعيش بلا شأن في عالم الايمان .
فالقديس برلام ، مثلاً ، زبائنه قلائل جداً ، ولا يعرف أحد باب بيته مع انه
اختصاصي بحب الصبا والنمش .. وله رأي مفيد يشفي من المغص .. وان قلتم
من اين جئت بهذا القديس الذي لم يسمع به حتى الحوارة العتاق منا ، اقول
لكم راجعوا السنكسار فاسمعه مدرج فيه كبقية الآباء القديسين .
اذن لا بد من تعظيم جبران ، وتمجيد أورفليس مدينة المصطفى . فهنا أروع
أودية الدنيا ، كان وادي الحبساء والقديسين ، وصار اليوم وادي النوابغ

وابطال الدنيا والدين .

يقولن ان الله موجود في كل مكان ، وفي ملتي واعتقادي انه ، لاسمه السجود ، يمضي أغلب أوقاته في الجبة ، فجبة بشري جبة الله ، والله في الجبة كما قال الحلاج المتصوف المتهوس .. فلا عجب ان يصيِّف سبحانه وتعالى بين الأرض والديمان . فهذا الماء يطول العمر ، وهذا الهواء يصفى الأرواح وينقي الأبدان .

واذا كانت السماء يا أخي عمر فاخوري ، جنات تجري من تحتها الأنهار كما وصفها الله في كتابه العزيز ، فهي ، علم الله ، هنا ، أو هنا ملحق لها كما هي الحال في لو كندات المصايف . وكأني بالجبة من الحدث إلى اهدن قد خلقها الله مقرأ لعباده الصالحين الذين يصابون بالضغط العالي وتصلب الشرايين ولا يستطيعون الإقامة عنده في أعلى عليين .

واذا كان في بيت أبي يسوع منازل كثيرة ، كما حدثنا انجيله الطاهر عن مساحة السماء ، فهنا أحد هذه الامكنة . أجعل اللهم نصيبي من جنتك في بقعة خيرة كهذه ، وما يضرك لو تخلدني بشحمي ولحمي فالأقيلك في السحب مع الجدين الجليلين : ايليا واحنوخ . وان لم تعد ، كما وعدت ، فخير وبركة ، فالإقامة هنا لا بأس بها .

سامحوني ان تفلسفت اليوم قليلا فقد فعلت دفعا لتوهم الناس انني مع هذه الشبهة الطاهرة لا أعرف اتفلسف . الخير فضلي يا جماعة ، وانا كالتفلسفين من معاصري ، والفرق بيننا ، انهم يتفلسفون « رسميا » وبكثرة تقطع الرزق ، وانا اتفلسف ضاحكاً ومضحكاً . تلبس فلسفتي ، غصباً عن رقبتي ، ثوب المرافع القليل الحشمة ، وما حيلتي فيها ؟ انها تحب الرقص ، فاعذروها اذا لم تترصن ..

هنيئاً لبشري ارزها الخالد ، وبطركها الشيخ الفتى ، ووادها الرهيب ، وجبرانها العبقرى ، ومفارتها المعجبة ، كاتدرائية الله — لا تنسوا انه يصيِّف

هنا - ما اعظم حظ بشري ! اعطاها الله وكتر ، وهي تستاهل .
واذا ذكرنا مغارة قاديشا ثقل لنا الخوري طانيوس جميع : كولومب الجبة
أو القائد المتنكر بثوب خوري ، كما سماء الجنرال غورو . فمضى ان تشمله
الحكومة الكريمة بنظرة ، فابتسامة ، فكلام تأويله استحقاق شكر لبنان .
في لبنان أعياد صيفية أكثر من أعياد الطائفة المارونية ، فعيد كبير للشجرة .
نتمنى ان تثمر طحيناً وبرغلاً ، وعيد أزهار نتمنى ان تضرع أكليل حمد
لحكومتنا الساهرة ... وفيه محاضرات في عواصم الاصطياف أحدثتها وزير
التربية والاقتصاد الوطنيين ، فشكراً لما يبذل معاليه من جهود جبارة في سبيل
الانعاش .. أخذ الله بيده .

أف ! لعنة الله على الشيطان ، نسيت أعياد ملكات الجمال . ليتهم يعملون
جائزة للجمال المعتدل ، ولو مرة ، فأريحها واستريح قليلاً ، فلا راحة لي ما
دامت غلة الأدب : سلم بوزك .

اذن لا عيد أدبي في الصيف الذي يضيع اللبن ، الا عيد جبران ، نبي
لبنان . لست أريد النبي بمعناه الديني ، فالانبياء قد ختموا ، ولكن عنيت
جبران النبي بأسلوبه وتفكيره وخياله ، ان جبران وسام رفيع ، لا كالأوسمة ،
علقه الدهر أبو المعائب ، على صدر لبنان ، مصدر البرفير والأرجوان .
واليوم يحدثكم عنه أديبان خطيران يفهمان سر الأدب ، ولا شك ان
حبيبنا جبران سيفتبط جداً إذ يسمع ما يقال فيه من الاستاذين عمر فاخوري
وخليل تقي الدين . ولما سيكتب الحبيشي غداً في « مكشوفه » سائر عورات
الكرام .

فلحظة هذه السنة معان كثيرة يستنتجها اللبيب ، ففيها المراعاة للمادة ٦ و٦
مكررة ، ومنها يعلم ان في لبنان كنيسة أدبية جامعة من امرائها جبران وفرح
انطون والشدياق ، ودفترا العباد في دار المكشوف . كثر الله هذا النسل المبارك ،
فيه لا بغيره تمتاز الجمهورية اللبنانية .

ان في لبنان اليوم بنائين جدداً يزيدون على هذا الهيكل قيباً شائخة تسر
العيون ، وأجراًساً عبثودية تشرح وترعد . فكاتب « الباب المرصود » أديب
بكل حواسه ، بل هو الرصد الذي ينشر أمامك ذهبه ، ثم يحوله حجارة انت
جهلت قيمته ، فحذار . فكلمنا بحققة العقل يخلقه خيال الأديب أولاً .
هلم ايها الاستاذ وأركب المنبر في هذا الزمن العصيب ، فعمها يكن شموساً
فان ظهره سيلين لك ...



قد سمعتم عمر فاسألوا الله ان يقلل من كسله ، وألا يشغله السجل العقاري
عن تسجيل قطع أدبية واسعة الأطراف مفلال يملكها أبناءنا وينعمون
بخيراتها .

اما السيد حليم كنعان الذي أقدمه لكم الآن فهو كاتب فتي جديد يتأهب
باخلاص واجتهاد للمعالم الأدبية ، وانني أتوسم فيه خيراً ، وان زججناه اليوم
بين القحول فليتعهد ان يسد المكان الذي سدوا ... والآتي قريب .



والآن جاءت نوبة الاستاذ تقي الدين ، والشيخ خليل من رجال الحكومة
كصاحبه عمر أفندي . عمر يقيد صكوك البيع وخليل يراقب تدوين الحكمي ،
أي ما يقال في مجلس النواب ... ولكن هناك إلى جانب الحكمي كتاب « عشر
قصص » وهي حكايات بلدية طيبة كعرائس المروج والأرواح المتمردة ، انما
بصورة أخرى . ولو كان خليل أصغر سناً لقلت جبران قد تقمص . « القضية
ثابتة » يا شيخ ، وجبران يؤمن ان امرأة أخرى ستلده ...

اتنا تنتظر من خليل تصوير « الخلوة » وما فيها ، كما صور جبران الصوامع
والديورة ، فأدبنا مفتقر جداً إلى تصوير الخبايا والزوايا والتكاييا ، وبدون هذا
لا يصير عالمياً .

المنبر يدعوك يا شيخ ، فانس ثرثرة مارون ، فالعمر حق ، وللسن حصنة

كبيرة ... اسمع جبران صونك ، فبيته قريب منا ، وان شككت مرة
فبطرس شك ثلاث مرات ، وبولس أكل كفاً سخناً على طريق الشام ...
لو كنت على رأس الدولة لعزلت خليل تقي الدين - لا تخافي يا ست ، مع
المعاش وحبه منك - وما فعلت إلا لأصرفه إلى الأدب الخالص ، فيخلق أبطال
قصصه وأحاديثهم كما يشاء ، لا كما تقتضي الجريدة الرسمية .



يظهر ان الحال اقتضت ان يتكلم الاستاذ الشهير فؤاد افرايم البستاني ،
فأكثركم ان لم أقل كلكم ، يعرف صاحب الروائع ، ومن جهله فستعرفه به
محاضراته المتتابعة كقافلة ابن العاص إلى ابن الخطاب ... ان كلمته استغاثت ،
كما سماها لي ، فمسي ألا تكون من « الأعماق » .



أما كلمة الختام فلا تزعجكم ، فليس هناك خطيب آخر ، انها كلمة : شكراً ،
شرفتم ، قوموا إلى المأدبة .

الحَّدَاد وجبران

الْخُورِي يُوْسُفُ الْحَدَادُ هُوَ ابْنُ عَمِّي ، وَابْنُ ضَيْعَتِي ذَاتِ الطَّرِيقِ الْمَشْهُورَةِ .. وَهُوَ أَيْضاً أَحَدُ شُيُوخِي الَّذِينَ أَخَذَتْ عَنْهُمْ ، وَكَثِيرٌ مَا حَاوَلْتُ أَنْ أَظْهَرَ عَبْدِيَّتِي لِهَذَا الَّذِي عَلَّمَنِي حُرُوفاً وَأَمْسَكْتُ قَلَمِي . خَفْتُ أَنْ تَتَّهَمَ حُكُومَتِي فِيهِ وَأَنْ يَقْرَأَنِي « مَادِحُ نَفْسِهِ » سَلاماً أَنَا مُسْتَفْزِعٌ عَنْهُ .

ظَهَرَتْ « النَّجْوَى » كِتَابُ ابْنِ عَمِّي الْحَيِّ بِتَفْكِيرِهِ وَتَعْبِيرِهِ ، فَقَرَأْتُ أَقْوَالَ الْمُنْصَفِينَ وَلَمْ أَحْرِكْ سَاكِنًا كَمَا يَقُولُونَ ، وَمَا لِهَذَا الْخُورِيِّ ذَنْبٌ إِلَّا أَنْ أَبَاهُ مِنْذُ مِئَةِ سَنَةٍ اخْتَارَ عَمِّي مِنْ بَيْنِ الصَّبَايَا .

وَعَامَ أَوَّلِ ، أَوْ هَذَا الْعَامِ - لَا أَذْكَرُ - أَذَاعَ مَعْهَدُ الْحِكْمَةِ الْخَطِيرِ أَسْمَاءَ الَّذِينَ حَرَّثُوا كَرَمَهُ وَنَسِيَ الْحَدَادُ . مَعَ أَنَّهُ ذَكَرَ الْجَمِيعَ حَتَّى فَاعِلَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ ... فَعَتَبْتُ وَجَاءَ الْعَذْرُ مَقْبُولاً ، فَكَانَ الْعِتَابُ صَابُونَ الْقُلُوبِ .

وَالْيَوْمَ وَقَعْتُ عَيْنِي عَلَى كَلِمَةِ الْأَسْتَاذِ الْيَاسِ أَبِي شَبَكَةَ مُقَدِّراً الْأَسْتَاذَ الْكَبِيرَ مِنْهَا بِهِ بَعْدَ مَا تَنَاسَاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَحِبِّهِمْ حُبّاً جَمّاً شَارَكَهُ فِيهِ الْكَبِيرُ وَالْمُطَرِّقَةُ وَالسَّنْدَانُ ، عِدَّةُ الْحَدَادِ ...

أَرَى أَنَّ عَقْلَ الْأَسْتَاذِ أَبِي شَبَكَةَ وَقَلْبَهُ قَدْ اشْتَرَكَا فِي الْمَقَادِرَةِ بَيْنَ الْخُورِيِّ يُوْسُفَ الْحَدَادِ وَرِجَالِ زَمَانِهِ . عِدَّةُ الْأَسْبَقِ فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ أَدْبَاءِ الْجِيلِ السَّابِقِ ، وَهَذَا حَقٌّ نَنْفَقُ فِي سَبِيلِ تَأْيِيدِهِ عَنْ سَعَةٍ . أَمَّا الْعَاطِفَةُ فَفِي قَوْلِ الْأَسْتَاذِ « وَلَا أَذْكَرُ أَنَّيْ هَفَفْتُ إِلَى رَجُلٍ قَطَعَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ مِنَ الْعُمُرِ كَمَا أَهَفُ

إلى الحوري يوسف الحداد ، .

لقد صدق الأستاذ ، فكل من عرف شيخنا الجليل يهفو إليه فتحت جيبته
السوداء قلب كالذي تمنى داود أن يخلقه الله فيه ، ونفس ذكية لا تحتاج إلى
الفصل بالثلج . ذهبي القم على المذبح ، كناري في المجالس ، وهبه الله إحدى
خصال أمه ، بلغه الله عمرها ، فهو يجبو إلى السمانين ولا يزال كايوان كسرى
الذي يقول فيه البحتري :

وكان اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس

فشكراً لأبي شبكة عن سيدي الرائع الجائي كل مساء بين ساعدي شط
جونيي اللازوردي كأنه الرمح دارجاً ، مشغولاً في جسده عن متاعب القلم
ولكنه - كما وصفه أبو شبكة - « ما برح أخضر الذوق ، طري التفكير ،
طلي الحديث » .

كتبت إليه عام ١٩٣٦ أسأله عما ترك جبران في ذهنه من أثر ، فأجاب غير
عابىء بتقطع النبض وأدرجت مكتوبه في ظرف « وثائق جبران » فنام مع
النائمين فيه ينتظرون الساعة . ولكن كلمة الأستاذ أبي شبكة أيقظت كتاب
ابن العمه في تلميذه جبران ، وهذا رأيه فيه مكتوباً يؤيد الحديث المردي :
ابن الخال الحبيب ،

السلام عليك ، وعلى شق الطريق إلى عجوز ابن الخطاب .
كتبت الي تستفسرني عن جبران ، وهل كان من تلاميذي في مدرسة الحكمة ،
ثم تشعرني بتوفيقك إلى شق الطريق ...

أما جبران فهالك عنه ما يعلق بذاكرة استاذة ، درس عليّ جبران سنة
واحدة فيها كنت له لساناً وقلماً ، وكان اذنأ تعي ما عناها ، وقلماً قابلاً لهوى
متبوع ، ونفساً وثابة ، وعقلاً متمرداً ، وعيناً هازئة بكل ما تقع عليه ، مقلداً
من الاخوان ، يزرع حقله في عقله وفي يوسف سعد الله الحويك ، مجتزأ به بين سائر

الرفاق . كثير الانتقاد ، شديد التمسك برأيه ، مفكراً قلتما ترسم الابتسامة على ثغره ، طموحاً تحت مهراز لا رفق معه ، يحبّ ليجمع ناظراً في أفق بعيد .
وفي قص خبر اتصاله بي ما يفتح لدرسه منفذاً يطل عليه ، وكثيراً ما يقاس الحاضر على الماضي (والطبخة الطيبة تعرف من العصر) إسمع : في أواخر تشرين أول سنة ... قرع علي باب غرفتي ، وعلى كلمة « تفضل » دخل شاب ربعة ذو وجه حنطي مشرب حمرة ، وعينين ناعستين مابين أجفان ذابلة كزهرة تطل من أكامها ، ترسلان نظرات طويلة مثبته ، وله شعر مرسل يلامس أذنيه .

— الاسم الكريم ، وهل أصلح لخدمتك في شيء ؟
— أنا جبران خليل جبران من بشراي ، أنهيت دروسي في الانكليزية ، نائل شهادة الفلسفة ، أتيت لبنان لادرس آداب لغة وطني وأبدي فيها أفكاري ، فكان نصيبي الصف الابتدائي .

— ماذا تعرف من مبادئ العربية ؟
— أحسن القراءة فقط .
— أفلا تعلم ان السلم يرقى درجة درجة !
— وهل يحل الاستاذ ان الطائر لا ينتظر السلم في طيرانه ؟
— انني لم أرك قبل الساعة فمن ذلك علي ؟
— عيني رأيتك وقلبي دلني .
اقشعر بدني من الجوابين وشعرت ان أمامي عقلية بارزة في فتي له حكمة الشيوخ ، وذكرت للمتنبّي : ليس الحداثة من حلم بمائعة .
— والآن ماذا تريد مني ؟

— رأيته مراراً فسألت تلميذك يوسف الحويك من يكون هذا الخوري ؟
فقال : هذا أستاذنا الحداد وله رفق بتلاميذه وعطف ، وكلمته مسموعة عند الرئيس ، فبعثتك في أمري . دعني أحضر عندك لا أسأل ولا أسأل ، واني

دافع مرتب المدرسة كله حالاً ، وأنا المسؤول عن نفسي ، لا أمي ولا أبي ، وان لم أنل مطلوبي فلتشت عن غير هذه المدرسة التي تتعلق بحرفية القانون ولا تفهم تلاميذها .

- مهلاً وأعود ... وما زلت بالرئيس حق قال كلمته « التاريخية » :
النتيجة يا حبيبي أنت المسؤول ، وأين راتب المدرسة ؟
- حاضر ...

وعدت إلى جبران . وما رأني حتى أقمر ليله وابتدرني قائلاً : انقضى
غرضي يا أستاذي .

- ومن أين عرفت ؟

- من وجهك الضاحك وعينيك .

وثاني يوم كان جبران بين تلاميذي على مقعد التدريس ، وقدامي على
المكتب كتابة منه : قبل مرور ثلاثة أشهر لا تسألني عن شيء وبعد ذلك
سل ما تشاء ..

لم يكن جبران وقت اللقاء الامثولة يفتح كتابه بل كان اذنأ وعيناً ، وتلك
الاذن العطشى لا تمزقي وتلك العين لا تشبع . وكان يختلف الي حيناً أثر حين
يلقي علي أسئلة ويستشيرني في انتقاء كتب المطالعة فحولته على كيلة ودمنة ،
والأغاني ، ومقدمة ابن خلدون ، ونهج البلاغة ، ورمائل بديع الزمان ،
والدرر لاديب اسحق ، والمتنبي ، والبهاء زهير ، والتوراة ... ودرس الطبيعة
وطبائع البشر واخلاقهم وعاداتهم والتواريخ .

وكان يأتيني بمقالات من عندياته يستقل بها ، فارى منها جسماً متناسق
الأعضاء عليه مسحة من الجمال تحت ثوب من اللفظ لا يشاكل المعنى ، فامشي
معه في ثقافته مشية من يرى تلميذه أكبر من تلميذ . وضعت له هذه القاعدة :
فكر طويلاً ، وأكتب قليلاً تكتسب كثيراً إلى ان تفيض القريحة فيضاً .

ومن أول مقال له أدركت ما هو جبران وقلت له : انك صائر شاعراً

مطبوعاً ، وكاتباً خيالياً فاتق الله ، إلى الامام .
وكان جبران ينمو في أسلوبه نحو الحورة وينبثق انبثاق الحوض ، ومعه
تقوى الروح الوثابة العابثة المتمردة .
وفي آخر الحنة تركت المدرسة ولم أهد أذكر إلى أين اتجه إلى ان أهدى إلى
كتابيه وعليه العبارة « أنت أولى بأولى بواكيري » فكتبت إليه في بعض نقط
فقطم الحبل وكل ما أقوله : لا تتعجل بنشر نقد جبران قبل ان
تلم به من كل ناحية . وجبران كان يحذق فن التصوير وهو في المدرسة .
لا أقدر أن أبدي رأيي في جبران لأنني لم أطلع تأليفه كناقده ، ولا جلد
لي اليوم ، بل أعتقد أنك بدرسك له الدقيق تجد الفث والسمين . وعسى نقدك
ان يكون نظير عصا موسى وراء عصي سحرة مصر . . . إن شاء الله الذي لا
توفيق إلا منه .

ابن عمك الحوري
٩ آذار سنة ١٩٣٦

شيء عن مي

يا حبذا !!

هكذا أجابتنني مي إذ دعوتها إلى الكلام في حفلة جبران التذكارية .
كانت يومئذ مجاورة بالفريكة ، بعد محنتها ، وقد صحبنا إلى زيارتها صديقنا
وصديقها الريحاني .

تلك أول مرة رأيت فيها وجه مي الذي أطراء الناس نعتاً . رأيتها فخلتني
أمام كنيسة مهجورة ، في عتمتها روعة وجلال ، وفي شقوق جدرانها رائحة
الغن والدهر . من أين جاءت إلى ذهني ، في تلك الساعة ، صورة ابن الفارض
كما رسمها جبران ؟ لست أدري . رأيت في عيها ظل الشباب مسفوحاً على
المهرم . قعدت على « طراحة » كعادتنا اللبنانية ، وجلست هي على كرسي
بالقرب مني ، فاعتراني اضطراب القاعد قرب جدار متداع . أدركت فوراً
انني أمام امرأة لبنانية لم تمح مصر ولا مدينة الغرب خطاً واحداً من
خطوطها الجميلة .

يا حبذا ! تلك عبارتنا الاقليمية عند الحسرة المزوجة بالآلم ، فهي بنت
قرية من قرانا المتواضعة وهي ما برحت تحتفظ بلحن عذب تحدث به لبنانياً
عتيقاً لا يتمطق ولا يلوك لسانه ، قابله ماري زيادة بالمثل ، وهي بنت الجبل
مثله ، لا تعرف مضغ الكلام ولا صبح الاحاجيب كبدويات المتنبي .
كم كنت غليظ القلب في الحاحي عليها ، فواعجبا ثم واعجبا ! كيف لم

أفهم ان هذه الهاء هي هاء السكت والندبة . كيف لم أدرك ما احتوت عليه
« يا حبذا » من تفجع يعتلج في صدر تلك المسكنة ، فرحت أزيد الطين بلة
ولا أحس . كانت مي تلك الساعة :

كعصفورة في كف طفل يهينها . تقاسي عذاب الموت والطفل يلعب
قد ، والله ، كنت أقل من طفل ، واني لاذكر ذلك وضميري يؤنبني .
مغفرة يا روح بنتنا العزيزة .

كنت أتأمل مي وأنا في حضرتها ، كأنني غيلان أطوف بربعها الحرب .
كانت تحدثنا بصوت في قرارته حسرة تحاول اخفاءها فلا تختفي . رأيتها تأتي
الجلوس بين الصديق الشيخ فؤاد حبيش والسيدة عقيلته ، عملا بتقليدنا اللبناني
الذي تلقته في مدرسة البيت . لم تبدر منها بادرة لا عهد لي بها ، فباتت في عيني
مثال المرأة اللبنانية ، لا تجود بأكثر من ابتسامة لما كنا نقهقه من نكات شاردة
حضرتنا في تلك الساعة . اسمعت بقولهم : بنت مقهورة . لقد رأيتها تلك الليلة
بشخص مي فاستغنيت عن البحث والتفتيش .

قرأت ان الدكتور فهمي ختم خطبته ، وموضوعها « نزعات مي في حياتها »
بهذه الكلمة التي يقال انها كتبتها قبل موتها : « هذا قبر فتاة لم ير الناس منها
غير اللطف والبسات ، وفي قلبها الآلام والغصات ، لقد عاشت ، وأحبت ،
وتعذبت ، وجاهدت ثم قضت » .

من نكد الحظ ان تبتدىء حياة مي بالقلوب ، فبعدما أمست الكاتبة الأولى
أحبت الكاتب الأول فمضى لسبيله . وكان الكبت وكان الانفجار ، ولم تفز
مي بالتصعيد الفرويدي المزعوم لتتسامى بفنها وتستولي على الأمد . فلو أحبت
في فجر طلعتها الأدبية لظلت أمامها رقعة الأمل واسعة ، ولكنها ابتدأت
حيث ينتهي الناس فلم تتحول غريزتها الجنسية إلى أسى من الهوى ، إلى حب
الجمال والموسيقى فذهبت ضحية « الفكرة الثابتة » .

« الفكرة الثابتة » شر من التنين الذي رآه يوحنا ، فاذا أحتلت ساحة

الشعور سيطرت عليها واستعمرتها ، وكيف لا تفترس حملاً وديعاً لا حاجب على حظيرته ولا بواب . مات الأب ولحقت به الأم ، وأمست البنت وحدها ، وجهها والحيط كما يقولون ، وجبرانها أمسى عريس البلى .

قد يقال ما هذا الحب وبينها بحور أقل أمواجها جبل . فتعجب ان بشار ابن برد قد أنبرى لحل هذه العقدة فاستفتوا شعره . وإذا كان علم النفس يعلل الحب العياني زاعماً ان المرء لا يحب شخصاً حقيقياً ، بل يعشق شخصاً خيالياً فينتزع من نفسه أشياء يسبغها على معشوقه حتى يخال انه اكتشف بذلك أسرار النهاية وحقيقة الوجود ، فكيف بمي المفتونة بسحر جبران حتى ترى فيه شخصاً أمسى من البشر ؟

ان التقاليد التي شن عليها جبران الف غارة هي التي ختمت مأساة من أحبته حباً جماً ، هذا الحتام الفاجع . أبت البنت ان تخفف رأسها وتذهب إلى لقاء الشاب ، فعلى الشاب ان يسعى . وقبل ان يلها حلاً ملائماً مات جبران وعاشت مي بعده كراحيل لا تريد ان تتعزى . استبدت بها « الفكرة الثابتة » فابغضت الناس ومحامتهم لانهم سعدوا دونها ، حتى أبت أن تستقبل الدكتور طه حسين الذي سعى اليها ، بل انبأه - كما روى - بان ليس بينها وبين غيرها من الناس اتصال ، ولا خطاب ولا حديث إلا من طريق الكتابة فان كانت لك كتب لم أقرأها فإرسلها الي ، وأما شخصك فلا أراه ولا يراني .

أقيمت لمي في العالم العربي أعراس تليق بالعروسة الخالدة ، ولا بدع ان كان خيرها عرس مصر ، فقد أسدت إلى الكنانة خير الأيادي ، وجددت عهد الاندلس في ذلك الوادي البهيج . فهذا اسمعيل صبري باشا يتلف بشعره الرصين إلى يوم الثلاثاء - يوم صالون مي - ليرى مي وإلا فلا كان يوم الثلاثاء . وهذا أمير المنبر الدكتور نقولا فياض يهتف من على منبر الجامعة الأميركية :

يا مي ، هذي ساعة الميعاد فلي فؤادك عن خفوق فؤادي
وهذا الدكتور طه حسين يقول في ناديا ، (وحسبكم انني استطعت ان أصل اليه حين

لم أكن أكثر من طالب بالجامعة القديمة (.
وهذا الدكتور شميل يخاطبها بقصيدة لتلين ويفرخ روعها بعد ما دخل
خدرها محتشماً فانزعها :

إذا ما قمت أطري الحب يوماً ألا تدرين أنك في خيالي

ومى مرصد هذا الحساب الضخم بما أوتيت من فصاحة ولسن وشدة عارضة .
كانت في ذلك المعترك ، معارك العقول الكبيرة لا الأحداق والمهج ، كما يقول
المثل اللبناني : يا بحر ما يهزك ريح : وظلت شاعخة كأنها سندية الكنيسة حتى
اقتلعتها العاصفة الشمالية .

ليس بين يدي من كتب مي إلا كتاب واحد عنوانه بين (المد والجزر)
كأنى به عنوان حياتها ، ولكنه لا يكفيني لرسم صورتها كاملة . بيد أنني
أستعين بذاكرتي فاتخيلها وارسمها ببضعة خطوط قد تبدي للاذهان صورتها
المصغرة .

مي غربية شرقية في تفكيرها ، تفاعلت في قلبها الثقافتان فكان من نتائجها
تعبير رصين لم تظفر بمثله أنثى قبلها . فمي السكاتبة خير أنثى عرفها الشرق
العربي ، وهي في أسلوبها المتين تبرز الكثيرين من الفحول كما قيل في بنت
عنها الخنساء .

نفت الخنساء كريتها بما قالت في رثاء أخيها صخر ، واعتصمت مي بالحياة
فهائت بدائها . ولها عذرها فالأم غير البنت ، والشقيقة غير الحبيبة .

في منشورها رائحة شعر ذكية ، وفي تعبيرها موسيقى بعيدة الأثر . كان
أدب المقالة مسيطرأ في عهد صباها فتأثرت كغيرها بأسلوب الشدياق والحداد
واسحق وغيرهم من كتاب القرن التاسع عشر ، ثم ضمت إلى قسماها الفنية بعض
ملاحج جبرانية ريجانية .

الكثير من ادب مي يؤثر بقارئه لانه ابن الانفعال ، والانفعال كما يقول

ريبو ، خيرة الابداع الفني .

بحس قارىء مي انها قرأت كثيراً ، وتمثلت مما قرأته فاخرجته متسماً بطابعها الشخصي ، وان لم يكن في هذا الطابع تسوء بذلك عليه فتعرفه أنى وجدته . والذي عندي ان مي ليست ممن يرسلون المقال عفو الخاطر بل تنقح وتحكك ، فاذا كان الخطيئة عبد الشعر ، فهي أمة النثر . اما أثرها في بنسات جنسها فبعيد جداً ، انها ربة البند والعلم ، وبحق يعقد لها اللواء في أدبنا النسائي الحاضر والغابر ، وحسبها هذا .

رحم الله فتاة نابغة هي إحدى حلقات سلسلتنا الذهبية ، وفي ذمة الله حياة ضاعت (بين الجزر والمد) « ان المطرة ظلت وحدها تشيع السفينة - سفينة نبي جبران - بنظرها حتى توارت بالضباب .

أشارت اليها المحبة فاتبعتها ، قدرستها على بيدرها ، وغريبتها لتحررها من قشورها ، وطعنتها لتجعلها نقية كالثلج ، وعجنتها بدموعها حتى تلين ، وأعدتها لنارها المقدسة ، فكانت خبزاً طاهراً ، ومحرقة نقية .
أمد الله في حياة اخواتها الكاتبات وأبقى لمن رداء الشباب .

ما بين مي وجبران

رسالة تكشف الغطاء وتزيل الستر
ذميمة وكتابه « جبران خليل جبران »

يا صديقي ،

لا تتعجب ان أخاطبك بياصديقي ، فقد كنا ومازلنا أصدقاء وان ضرب
الدهر بيننا ، وفرقنا أيدي سبا .

تذكر أيام المدرسة ، وقد شبت وشبنا . وحينما - تمرون الديار ولم تعوجوا -
أنظر إلى حركاتك وسكناتك فأتذكر مارون المرح كالبرذون الفاره . لا تسمعه
الأرض التي يحلها أو يحتلها . وعندما اسمع حديثك أو أقرأك أتذكر لواذع
نكاتك التي كنت ترمينا بها فنفرنقع عنك بعد تكأ كئنا عليك نتحرش بك .
أتذكر « عاصي » و « الناكوزي » وغيرهما ؟ ! .

تلك أيام « وهدي بدا لها » يا مارون .

سمعت حديثك في راديو الشرق فعرفتك ... ارشدني اليك ما في صوتك
من بحة وصحل لا أزال أذكرهما - ماركة مسجلة - فبقيت أسمع حتى انتهت
كلمتك عن مي - الله يساعدها - واعلن المذيع انك انت هو ، ذلك المارون
الذي كنا لمحب قوارص كلامه كالنساء اللواتي يستطعن اللطم والضرب ...
أسمعت بهن ؟ يظهر مما أقرأ لك انك بكل شيء عليم - الحمد لله على هذه
النعمة ...

قد طال الحديث وأنصورك كماداتك سئمت وقلت : أبش بدتك يا خيمي !
قل وحل عني .

ألومك يا مارون ، لأنك نبشت قبر مي ، وشرحت تلك المستورة على
قارعة الطريق . اليس الراديو مثل قارعة الطريق وأكثر ؟ ما كنت ألومك لو
لم تأت ما نهيت عنه . أما لمت الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة حين تحدث عن
حب جبران لميشلين ، وما كان بينهما من علاقات ؟ أليست هذه كتلك ؟ ماذا
تهم الأدب هذه النواحي ، اليست عيوباً يجب ان تغطي ، فالإنسان ضعيف ،
وما خلق الهاً كاملاً منزهاً عن كل عيب وضعف .

الامضاء ب.ع .

ب.ع. نصف ببيع . من هذا ؟ لست أدري . جمعت قوى ذاكرتي
واستعنت بدفائري ، وانتظرت الفرصة انتظار القطار اللحم والصائم بيضة
العيد فقرأت ، كتابي الجوائز لسنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦ من الجلد إلى الجلد ، فلم أوفق
إلى شخص عرفته وعرفني في مدرسة الحكمة يبتدىء اسمه واسم أسرته بهذين
الحرفين .

ذكرني هذا الرفيق بإيام « البنوتية » التي لا أنساها ، وأحس أنني أحيائها
وأنا ازاحم الستين . فلم أبلغ بعد الساعة التي أقول فيها مع أبي فواس : وأراني
أموت عضواً فعضواً . واظنني لا أبلغها .

اسمع أيها الصديق « الحشري » . أنا لم ألم الأستاذ مخايل نعيمة لأنه قال ان
جبران بشري أحب كما يحب الناس ، ويشرب كما يشرب عبيد الله ، وجمع من
حطام الدنيا مثلما يجمع معظم الخلق . وهل أنا مجنون لاعتقد ان جبران لا
يعيش باللحم والدم كسائر الناس ؟

لا أشك أبداً في ان دم جبران حار جداً ، وان زعمت غير ذلك فرسومه
تكذبني . إن تياراته الفكرية في أدبه وفنه تتجه دائماً صوب الحب الذي يراه
الحياة كلها . ومن قرأ أول حرف وآخر حرف بما كتبه جبران — حتى يسوع

ابن الانسان - رأى « الحب » كنجمه القطب واليهما تتجه سفينة جبران .
ولست امثلك أيضاً في ان حياة الأديب الفيلسوف مخايل نعيمه أقرب إلى
الصالحين المتعفين ، وان حياة جبران أقرب إلى الوثنية اللبنانية العريقة منها
إلى المسيحية الطارئة . ولكن كل هذا لا يدعو إلى تلك (الزحمة) الكبيرة التي
صرف اليها نعيمه همه ، بدلاً من ان يدرس أدب جبران درساً جامداً وعلى ضوء
لا يترجرج ولا يتذبذب .

انا لم اكتب حرفاً بعد عن كتاب نعيمه في جبران ، وان كان ، في نظري ،
على علاته ، خير ما كتب عن جبران . ما ابطأت عن ذلك إلا لأنني سأتكلم عن
مدرسة جبران وأثرها في أدبنا الحديث حين تتجمع لدي الوثائق الكافية فلا
بأس علينا من قول كلمة عابرة .

بين كلامي وكلام نعيمه فرق واضح . إن الاستاذ نعيمه تحدث عن
(فضائح) وأنا لم اتحدث إلا عن حب طاهر ابن منه الحب العذري . قد رأى
جميل بثينة ، والمجنون ليلى ، اما مي فوا لهف قلبي عليها .. ان نعيمه يروي
حديثاً يعجز عن اثباته بالوثائق التي هي مقطع الحق الأول . أما انا فسأريك
- امهلي قليلاً - ما يزيل كل شك يخامر ك ولا يس مي وجبران بضر .
إن حبها كحب ابي وامى ، وابيك وامك يا صديقي بع . اما ما ذكره
الاستاذ مخايل - ولا استبعد وقوعه - إذ ليس جبران اعظم من داود - ففيه
جموح وتعدت يؤاخذ عليه من قال فيه تابغتتنا الدكتور فيليب حتي : ان ملايين
الدولارات التي كسبناها في هجرتنا لا تساوي جبران خليل جبران .

ليست (ميشلين) شخصاً وهمياً في حياة جبران ، فهناك صورة لها بريشة
جبران محفوظة في متحفه ، واذكر ان تاريخها سنة ١٩٠٨ . إن ميشلين شخص
من لحم ودم مرّ في طريق جبران ، ولكنه اصبح - كما اظن - تحت قلم الاستاذ
نعيمه شخصاً روائياً .

فكتاب نعيمه في جبران وان كان ذا قيمة فنية رفيعة ، فهو كروايات

ديماس يختلط فيها حابل التاريخ بنابله . أخرجه الأديب الكبير بشكل رواية بدأها بوع ، وع . وختمها بغر و غر . أي من المهد إلى اللحد . وهدف نعيمه في كتابه اعلامنا ان جبران بشر مثلنا - آمنا وصدقنا .

وما رأيت نعيمه يملك وثيقة تؤيد ما زعم ، ولا هو شاهد عيان ... بل لا يملك آخر مقطع من مقاطع الحق وهو « التواتر » . فاكثر الذين خالطوا جبران ولا بسوء ردوا على نعيمه بعنف وقسوة .

خاف نعيمه ، كما ظهر من مقدمة كتابه ، ان يصير صديقه جبران أسطورة أو نبياً ، فارأنا ان جبران انسان لا غير . والافنا هذه الحكايات عن فلانة وفلانة ... والاوربيون يذكرون المرأة التي أحبها الأديب ليبينوا أثرها في فنه وأدبه ، ولم نرَ شيئاً من هذا في كتاب نعيمه . فميشيلين وفلانة أشباح لا علاقة لها قط في الأدب الجبراني ، وقد يكون لهن علاقة ولكن شيئاً من هذا لم يذكر . فكان الغاية القصوى من سرد الحوادث بيان ان جبران أحب حباً خفياً واعلان ان جبران « نبأ كاذب » .

يقول ذلك نعيمه في (ص ١٧٩) ويروي ان جبران قال ذلك عن نفسه . اراد ان يعترف لصديقه في البرية ، ولكن تواضع ميخائيل حال دون سماع ذلك الاعتراف القاسي . (هالتي ان يمضي في اعترافه امامي فيجلد نفسه العاتية المتمردة أمام عيني ، ويتزع عنها دروعها العديدة ، ويتركها عريانة وبلا سلاح . ومن ثم فمن أنا لافتبيل اعتراف نفس وان تكن اختاً لنفسي ؟! وقصد تكون نفسي احوج إلى الاعتراف منها) ص ١٩٠ .

لبيته سمع ذلك الاعتراف وحلّ جبران من خطاياہ بعد التثبت من توبته وندامته .. وجساءة بالتفاصيل ولم يتركنا فيما تركنا من حيرة . فأنا اجلّ الاستاذ مخايل واحترم اخلاقه النبيلة واصدقه اذا قال سمعت بأذني . وبعد فهذا الاعتراف يذكرني باعتراف دوستوفسكي لتورغنيف ، ولكن نعيمه كان أرحب صدرأ .

لقد وفق الاستاذ نعيمه كل التوفيق في اخراج قصة جبران ، فهي خير ما كتب ، وخير ما أذاع وما اذيع له . شاء الدكتور طه حسين والامتداد توفيق الحكيم ان يكونا بطلي قصة فكتيبا ، في سالفش ، قصة « القصر المسحور » ولكنها قصرا جرداً عن الاستاذ نعيمه في كتابه جبران خليل جبران ، الذي هو ابن عم المثل السائر لحنا . فكثيراً ما يلتقي نعيمه بابن الأثير فيدعي أبو الفتح ويتواضع مخايل والمطلوب واحد .

ولنعد الآن إلى حب مي المسكينة ، فقد كان له أعظم أثر في توجيه حياتها ، فغضمت تلك المأساة ، كما علمنا وعلمت ، أيها الفارسي العزيز . فهي بين المحبين كداود بين التائبين . توبة داود متقدة صارمة ومحبة مي مؤلمة عارمة . وفي كليهما لذة كالقشعريرة التي تأخذنا عند فجر أيلول في الحيمة . وإذا صح ما زعم علماء النفس في تولد الهوى كان الجاني على مي خيالها القوي .

يعلمنا مبحث اللاشعور ان ميول الناس واعتقاداتهم تتبدل ، من حيث لا يدرون ، اذا خابت امالهم وكبت خيول أمانيتهم في ميادين الحب . والخبر عن مي ، كما روى أدباء مصر الذين خالطوها بعد محنتها وقبل ان يلفها الفسق ان ان عاطفتها الدينية نمت وتضخمت في طورها الأخير . إن طور اليأس والغم والقنوط ، ومنبعه الكبت ، يوجه الضعاف إلى هذا الملاجئ المنيع . فكل عمود من أعمدة قصر العواطف الدينية يرتكز على قمة هرم قطعت حجارته من مقلع ميول وأهواء مكبوتة .

تلك حالة المغلوب اذا كان رجلاً فكيف به وهو امرأة بل بنت (مقطوعة) منبئة . فكم أدى الفشل الحبي إلى ظلمة الديورة ، وما الفرق بين فتاة تدفن حبها المقهور في قرنة ، وبين مي التي جعلت من بيتها ديراً قبرت حبها في زاويته ، وصارت عليه صباح مساء . إن عزلة مي لمفرجة ، فقد عادت طفلة في دنيا الحب والهوى اذا اعتبرنا الحب كما سماه برغسون « طفولة جديدة » . وقد انتهت مي في طفولتها الجديدة إلى نسيان (الأنا) فصارت ميولها (غيرية)

وعالية ، كأنها أدركت ان سفينة امالها الأثانية قد تحطمت على صخور جزيرة
الحب ، فكتمت داءها واستعلت على حبها بينها وبين الناس . اما بينها وبين
نفسها فطلت متمسكة بذلك الحيط الواهي تجد لذتها في ألمها ، وفي الألم لذة لا
تخفى على الخبراء ..

ولا بدع في ان تلجأ مي إلى دينها في تلك العزلة الموحشة ، فالحياة الدينية
ينبوع المواطف العذبة والاحلام اللذيذة : طوبى للحزاني فانهم يعزّون .
والعاطفة الدينية تنمو غالباً في تربة الحرمان ، وتنتد جذورها حتى الطبقة
التي يعيش فيها الكبت ، وهي الطبقة القريبة من النار في قلب العالم الأكبر
الأصغر - الانسان -

وكأني أسمعك يا صاحبي ب ع تقول : قتلنا يا هو ! هات البرهان
ودعنا من اللت والمط . فاقراً اذاً يا صاحبي المجهول هذا الكتاب من مي
إلى جبران .

١٥ يناير سنة ١٩٢٤

مصطفى :

« ماذا جرى للبريد ، لقد كان يصل سابقاً في ثلاثة أسابيع أو أقل
أحياناً . وها مكتوبك يصل بعد أربعين يوماً ، ومعك تذكراً بريد في غلاف
خاص تمثلان الوجهين اليونانيين البديعين تناسقاً ومعنى . ما أبطأ الرسائل في
انتقالها ! أتراها تجيء من أفاصي الدنيا ، من أميركا ، لتصرف كل هذه الأيام
في الطريق ؟ »

عيد ميلاد يسوع ، يوم رأس السنة ، عيد معمودية يسوع وميلاد جبران
في يوم واحد . أتصور كم في هذه المواسم من فراغ ووحشة لا سيما عندما تمر
أمامنا وجوه ، ثم وجوه إلا ذاك الوجه الذي نشوق اليه . ونسمع أصواتاً ثم
أصواتاً ثم أصواتاً إلا ذلك الصوت الذي نطلبه ونناديه فيلبي منه الصدى
(المفترض) . حتى نسيت ان تعايدني يا كثير النسيان ! في حين ان بعض

أصحابنا يفتنمون هذه (الفرصة) لينهثوني (كثيراً) . أو على الأقل لينحفوني
بزر كشة كهذه : يا مي عيدك يوم وانت عيد الزمان الخ ..
لقد كنت يوم ٦ يناير بطوله موضوع تفكيري . وكنت ماثلاً أمامي
بصورة طفل ، نونو نونو ، تتحرك يدها الصغيرتان في الهواء بإشارة الباحث عن
أدوات قدر له ان يحملها ويعالجها . وتيسر لي ان أتفرغ للتفكير والتأمل في
المولود النونو ، لاني كنت مصابة بنزلة طفيفة علقت من رسالتك انها جاءتني منك
(كيف ذلك ؟) تستفهم أنت ؟ ذلك انك اجتزت كما تقول ، مسافة طويلة
ليلا وفي سيارة مكشوفة فكنت معرضاً نفسك للبرد فظهرت نتيجة ذلك البرد
في . مفهوم ؟ قلتوفر علي في المستقبل جميع صنوف النزلات والوافدات وما
شاكلهن . لا تعرض نفسك للبرد وأتق كل ما يؤذيك . مفهوم ؟ وهل يوافق
مصطفى على هذا الاقتراح ؟

كأنك تلومني لاني أسألك عن سمحتك ! وهل يمكن الا أسأل ؟ انك
مدين لي بأن تقول عنها ما قلته في هذه الرسالة ، فتسعدني بعد ان كنت تطعنني
في الرسائل السابقة كلما قلت انك مريض . وبدلاً من أشكرك على هذه
البشرى أراني مسوقة إلى العتاب لان في نفسي لك قطاً وافرأ من العتاب ،
على ما يلوح .

لماذا لم تخبرني بشفائك قبل اليوم ، قبل ان أسألك ، قبل ان نعود إلى
التراسل ؟ لماذا لم تقل لي انك شفيت منذ ان شفيت ؟ لست مفرمة بحكاية
ابريق الزيت إلا إلى حد محدود . ولكن كيف استطعت ان تهمل تطميني وانت
تعلم ان ليس من يطمني غيرك ؟ كيف استطعت الا تفكر في كل هذه الشهور
ولا مرة واحدة ؟ .

(علامة الاستقلال هذه) ، قد تقول انت . (النسيان بعض أشكال
الحرية) قد يدل كذلك على شيء آخر في بعض الظروف .
(اذا تخاصمنا في المستقبل فيجب ألا نفترق مثلما كنا نفعل في الماضي بل

ان تبقى تحت سقف بيت واحد حتى نمل الخصاص الخ .
سمعاً وطاعة ، يحيب أهل اهدن . ولكن الرجاء إلى سيدي الاستاذ ان
يذكر انه لا بد من اثنين للخصومة ، فيجعل لأهل بشري نصيباً من النصيحة
الحكيمة التي نفع بها جيرانهم ومنارثهم . وأن يذكرهم (هم يعني أهل بشري)
بأن نصائحه ومشوراته أثمن من ان يفرط فيها كم فعلوا (هم أهل بشري الذين
فعلوا) يوم ان نسوا (هم أهل بشري الذين نسوا) صندوق الذهب الحلو
الملبح الذي كان يصلح الأمور ويحل المشاكل . أفدني - أبارك الله من
غضبات أهل بشري - أيجوز لجيراننا هؤلاء ان ينسوا ذلك الصندوق الواجب
الوجود ؟

أما من جهتي فلدي من خطير المشاغل ما يبعدني حينا عن كل تنازع وضوضاء .
اني عاكفة على تفهم هذه الأعجوبة : أعجوبة أبيضاض الشعر بفودي تلك
الجهة التي أعرفها . يا للتفصيل الحلو الحلو الفتان ! انه يستحق لفرط لطافته
ان يدمج في صف واحد هو والذقن المطبوعة .

وعلى ذكر نقرة الذقن لا تحسب اني سأخاصمك لأجل اللحية التي تهددني
بها . بل بكل حصافة وهدوء أتشرف بأن أحيط مولانا علماً بأن من الشؤون
ما لا شأن فيه لمولانا . وإن ذقن مولانا من الشؤون التي لا شأن فيها لمولانا .
فليتفضل إذن - بلا مؤاخذه - فيقف عند حده .

انتهيت من الكلام الرسمي الحصيف . واذا شئت ان أترجمه لك بلغتي
العامية قلت : انني لا أريدك بلحية . واذا أبيت إلا ان يكون لك لحية توليت
أنا أمر حرقها . ها !

هذه الابنة - يتحدث مولانا - هذه الابنة تصل منها الجرأة بل الوقاحة إلى
اخطاري بأنها ستحرق لحيتي المنوي ارسالها ، ا
الأمر كما تفضلت يا مولانا . سأحرق لحيتك ضاحكة كما أضحك الآن . ولا
أحتاج للقيام بذلك خير قيام إلى أكثر من سيجارة أقدمها لك ، وعود كبريت

(أتلطف) بأشعاله . وهناك يكون ما أريد . فتظل الذقن على ما ارادتها الطبيعة تحمل بين هضاب (الجود والنقمة) صورة مصغرة للوادي المشحون بشتى المعاني ، وصورة من عطف الزهرة التي وضعت عليها علامتها ..

أما (الشروط) التي تتعهد بتتبعها بعد الاطلاع عليها فحسبي ان أقول ان هذا كلام يليق بقائله . فاعلم إذن ان البند الأول من هذه الشروط هو أن يهتدي اليها (المغلوب) من تلقاء نفسه . أما البنود الأخرى فتأتي بالتبع . فهاث ارنا مثالا جديداً من ذكائك الفريد ! واحذر خصوصاً ان تخطيء في معرفة ذلك البند لئلا تزعج حسن ظني بفراستك وصدق نظرك !

ما احلى رسالتك في قلبي يا مصطفى . ما احلى كلامك بين نافه الكلام وركيكه ! ان الفاظك وسطورك جدول نور وندى وتشمع وحرارة ولطافة وانشاد . ومع ذلك فقل " ما اخبرتني به عنك . لم تقل شيئاً عن كتاب (نحو الله) وعن تلك الرسوم الزيتية ، وعما يشغلك الآن من كتابة أو تصوير أو مجس ، ولا نصف خبر هن الوادي ! أصدق اني أشعر بأسف كلما فكرت في الرسوم التي تنقشها ولا أراها ؟ فأستعيض عنها بالنظر إلى الرسوم المنشورة في كتبك واكتشف فيها كل مرة شيئاً جديداً . هي خاصة فنك الاولى ان يكون زاخراً بالاسرار والمعاني ، متفلتاً من كل تعريف ، هازئاً بكل حصر وتقييد .

جبران . كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد قول انك محبوبي . لأتحايد كلمة الحب . ان الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ينمو الحب في اعماقهم قوة ديناميكية رهيبية . قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في الألاء السطحي لانهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر . ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون ان يتمنوها لنفوسهم . ويفضلون وحدتهم ، ويفضلون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائهم والتلهي بما لا علاقة له بالقلب والعاطفة . يفضلون أي غربة وأي شقاء (وهل

من شقاء وغربة في غير وحدة القلب ؟) على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ اني لا أعرف ماذا أعني به . ولكني أعرف انك محبوبي واني أخاف الحب . اني أنتظر من الحب كثيراً فأخاف ان لا يأتيني بكل ما أنتظر . أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير . ولكن القليل في الحب لا يرضيني . الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير .

كيف أجسر على الافضاء اليك بهذا وكيف أفرط فيه ! لا أدري . الحمد لله اني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به . لانك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت لخبلا بعد هذا الكلام ، ولأخفيت زمناً طويلاً ، فما أدعك ترائي إلا بعد ان تنسى . حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً لأنني بها حرة كل هذه الحرية . أتذكر قول القدماء من الشرقيين : انه خير للبنات ان لا تقرأ ولا تكتب ؟ ها قد صبح علي ارتياهم وصدق في سوء ظنهم . لا تقل ان القديس نوما يظهر هنا . وليس ما أبدي هنا أو الوراثة فعصب ، بل هي شيء أبعد من الوراثة . ما هو ؟

قل لي أنت ما هو هذا ؟ وقل لي ما اذا كنت على ضلال أو على هدى . فاني أثق بك واصدق بالبداهة كل ما تقول . وسواء أكنت مخطئة أم غير مخطئة ، فان قلبي يسير اليك وخير ما فيّ يظل جائئاً حوالياً يحرسك ويحنو عليك .

غابت الشمس وراء الافق . ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصصت نجمة لامعة . نجمة واحدة هي الزهرة ، الالهة الحب . أتري يسكنها كارضنا بشر يحبون ويشوقون ؟ ربما وجد فيها من هي مثلي ، لها واحد جبران ، حلو بعيد بعيد ، هو القريب القريب . تكتب اليه الآن والشفق يملأ الفضاء . وتعلم ان الظلام يخلف الشفق . وان النور يتبع الظلام . وان الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة ، قبل ان ترى الذي تحبه . فتسرب

اليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقي بالقلم جانباً لتعتمي من الوحشة
في اسم واحد : جبران ! .

ماري

لم أتناول بحث حب ماري لجبران اشفاقاً من ان تصوير ماري نبية مثل صفورة ،
وجبران كموسى أو أجد الأنبياء ، ولكنها نواة درس نبداً به على ان يتمه
غيرنا ان لم نتعه نحن .

هد بنا إلى الوراء ، إلى أول كتاب ماري فقيه كلمة جبران النونو . إن الطفل
يا صديقي يشغل حيزاً كبيراً من دماغ ماري . وجبرانها النونو يذكرني بأحلام
الصبا ، فكم عرس كاذب افمناء ، وكم بنية رأيناها تحتضن دميتها وتحنو عليها
حنو المرضعات على الفطيم . أقرأ لمي في (ظلمات وأشعة) (أنا والطفل)
تعرف حب ماري للأطفال . طالع أولاً قراءتها ما خطته يد الأقدار في كف
روبرت من خطوط الحياة والعقل والقلب ، وكيف رأت تلّ المريح يرتفع في
تلك الكف الصغيرة متهدداً متوعداً . (ص ٧)

ان ماري أنقبت مع روبرت - اسم هذا الطفل - (بصارة براجة) وهذا
ما يثبت ما يؤكده علم النفس من ان صاحب الميل والهوى يتعلق بحبال الهوا
ويصدق السفاسف . واذا بلغت (ص ٣٤) وقعت على مقالة (بكاء الطفل)
فتقرأ فيها (قدنوت منه متوسلة) وضمته الى بذراعي التي لم تضم يوماً أخاً
أو اختاً صغيرة ، وأجلسته على ركبي حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء .
(صمت الطفل حائراً لانه شعر بان روحاً تناجي روحه . صمت هنيهة ثم
حدق في سائل عن أعز عزيز لديه . وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء :
ماما ، ماما) .

(صغيرك يتناديك فلماذا لا تجيبين ، يا أم الصغير ! لست بالعليلة لاني رأيتك
منذ حين تيسين بقصدك تحت برنيطتك ، والجواهر تطوق العنق منك . أنت
صحيحة الجسم فلماذا لا تسرعين) ؟

(عودي من نزهاتك الطويلة ، وزياراتك العديدة . وأحاديثك السخيفة ،
عودي وأركعي أمام الصغير واستمعيه عفواً . لقد خلقت امرأة قبل أن
تكوني حسناء ، وكيفتك الطبيعة أما قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة) .
(تعالي أسجدي أمام السرير ، سرير الصغير . اسجدي أمام هذا المهد
الذي لعبت بين ستائره طفلة ، وحملت به فتاة ، وانتظرت زوجته ، فما خجلت
أن تهمله أما) .

هذه هي أحلام مي . هذا هو الشوق الكين في سجاياها ، والحنين الدفين في
لا شعورها ، هذه أحلام الفتاة الكامنة في كتلتها كمون الحياة في البرعم تحت
برد كانون ، وعواصف شباط ، وصواعق آذار ، تنتظر نيسان لتبرز . ولكن
نيسان مزق سجوف أحلام مي ومات جبران فيه ، ولاخ لها غدها الأشمط .
إن أدب مي نوعان : أدب منبري ، وأدب شعري ، وفي أدبيهما كليهما
تسود عاطفة الشفقة والحنان والرحمة ، وهذه كلها وليدة الألم . فمي تألمت جداً
وأنكى الأمها الحرمان . حرمت الزوج والأمومة وهي ترى أن المرأة ما
خلقت إلا لتكون أما .

يلوح من مكتوب مي أنها البائدة في إعلان حبها ، وإن جبران كان كمادته
يطوف حول الموضوع ولا يلج . إن بين سطور (مكتوبها) مشاهد وآلاماً
وشجوناً فيه حب مي وأطواره كلها . وفيه ارتياح من مستقبل هذا الحب .
وفيهِ شروط وبنود لا يوضحها لنا إلا المفقود من رسائلها ، فرسائل مي لجبران ،
ورسائل جبران لمي - الموجودة مسودتها - لم تسعني على البت في حل عقدة
مهير هذا الحب .

قرأت في كتاب (حياة مي) للاستاذ محمد عبد الغني حسن أن مي أعادت
رسائل الأدباء إلى أصحابها ، فإلى من أعادت رسائل جبران يا ترى ؟ فهل من
يرشدنا إليها وله الشكر .

لنا نسال عنها لنثبت أمر هذا الحب ، فهو لا يحتاج إلى اثبات ، وقد

حالت تقاليدنا الشرقية دون تحقيق هذه الأمنية . فجبران لم يستطع المجيء أو لم يجيء ، والبنت لا تذهب ، وهذه هي البنود والشروط المومي اليها في رسالة مي .

وإن زالت مي من دنيا الحب والهوى فهي باقية في دنيا الأدب بقرب حبيبها جبران . وقد تكون صارت اليه أقرب ، اذا اعتقدنا كما يعتقد أصحابنا تلاميذ جبران ..

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل . بل ما أقل عقل الانسان . إن العقل في المعنويات كالبطنة في الذاتيات أصل كل بلاء . فيا ويل الانسان من عقله .

الى شكر الله الجحر

أخي شكر الله ،

يخلق الشعر كل يوم عروماً	مثمنا تخلق الخمر الحبابا
تتجلتى لنا العذارى فنكسو	عريها من بياثنا جلبابا
لا تقولوا شبننا فما الشيب عيب	ان في الشيب من يبرّ الشبابا
رب شيخ قضى الحياة قتيلاً	وغلام في موهة العمر شابا
رب شيخ يظلّ عارض رمح	يتصايى لو استحال ترابا
لو أتننا الحياة تسترزق العزم	خلعنا على الحياة شبابا

مكذا أنا يا عزيزي شكر الله ، فما زلت كما فارقتنى على مقعد التدريس في
جبيل . أراني ، كما كنت تسمع مني ، من على ذلك المنبر :

يفنى الزمان وصوتي تتجدد . فكأنتني في كل يوم أولد
لقد صدق الحوراني ، فما يأخذ الدهر مني مثقال ذرة عزماً ، ولم يذل الزمان
من همّي قدر (حبة الخردل) ، وفيّ من الايمان بالحياة أكثر من مقدارها ،
ولهذا أحس انني أستطيع ان أقول للجبيل انتقل من هنا هنا إلى هنالك
فينتقل ...

تطلب صورة (معلقك) لترى تلك الكهولة الصالحة ، ولا تقول الشيخوخة
لئلا .. فاليك أحدث صورة في مكتبه بعالیه ، واليك أيضاً صورة أخرى وهي

صورة تلك (الدابة) التي تتصورني أركبها منتصباً من فوقها كالرمح ، وهي من تحتي تغني الميجانا والعتابا وتدق موسيقى .

لا تساني ابن ذهبت شوارب الزناتي خليفة ! فقد سددت بها منذ زمان فم
الدهر ليراني الناس جديداً أو أقل سنين ، فاطلب ان يطول الله عمري لاؤدي
رسالة نذبت نفسي ، او لا ادري من ندبني اليها . . وانني لأتخيل انني استأجرت
الدنيا من الذي نفسي بيده ، فأجرنيها عشرين سنة ، وعسى ان نجدد العقد
بعد انقضاء مدته . . . ومن الشروط بيننا وبينه ان يظل (الطابق العالي)
عامراً . . . ابشر بطول سلامة يا مربع ، ان لم يجد ما يفسخ الايجار ، والا
فاقول انا :

وما مات من عاشت بقاءه مثلنا شباب تسامى للعلو (فحول)
لا اخالك ناسياً ايام جبيبيل ، مسقط رأس جدك وجدتك لأمك ، وملعب
صباك ، ولا يوم كنت تجلس قبالي على مقعد التلعة ، كأنك (الحركة الدائمة)
التي اخترعها ابوك وحده . . . تدندن كالنحلة في القفير ، وتحاول نظم الشعر
الذي افلحت فيه ، فكنت تلميذاً طاهراً كبطرس ، وحبیباً كبوحنا .

أي يا بني في الأمس ، وأخى اليوم ، نق الكلمة التي تريدها ، لا تهب
الشيخوخة فتشيخ قبل الأوان . هات اصبعك من وراء البحار والمس فؤادي ان
كنت لم تصدقني ، وكن مؤمناً لا غير مؤمن ، اسمعت يا توما ؟

اقرأ السلام عني جميع اخوتك ، رسل الأدب العربي المبشرين بعهد الجديد .
وليكن شعاركم - وهو كذلك - ما قاله سيد الشعراء : ما جئت لآحل الناموس
بل لاكمل .

كملوا رسالة القدماء ولا تنقضوها كلها ، ففي ذلك القديم جديد رائع . إن
شعر الحياة يبقى جديداً إلى الأبد ، وهذا ما يجب ان يعلمه الادباء واخص
الناشئين منهم . . إن أدبنا كبيت قديم راسخ بنيانه ولكن ابوابه شبابيك ،

وشبابيكه نوافذ ، فعلينا ان نوسعها لتدخله الشمس ، ويصح البدن ...
الحياة عندنا - عنيت الأدبية ولا يعني غيرها - في نشاط ، والشباب
الثقف يسمي إلى مقعده وسيجلس عليه أو كاد . ويا ويل من لا يعيش الزمان
ويظل قاعداً أمام دكانه يكتس الذبان عن « الحلاوي » المحمضة ...
ان مملكة لبنان الأدبية ، كمملكة انكلترة ، لا تغرب الشمس عن أرضها ،
والفضل لكم أيها المجاهدون ، وللغزاة الفاتحين وزعيمهم جبران وأركان حربه
الذين شيدوا وأسوا قبلكم فلا تنسوه . لا نكن كأولئك الملوك الذين كانت
يحور الخلف منهم أسم السلف ويكتب اسمه موضعه . فليضع كل منا مدماكاً في
هذا الهيكل العظيم كما يفعل القرويون حين يبذون كنيسة لتمجيد ربهم ، واكتساب
رضى قديسهم ..

ان من يفعل هكذا فقد وفى نذره ، أما من يفعل كذلك الملك فهو ديوث
منافق .

كتبت اليك اليوم من مكتب عاليه ، وأوراق تلاميذي أمامي تنظر إلى
بالف عين ، وما كتب اليك غداً من « أبرشيتي » الصغيرة - عين كفاح - صفحة
من ذكريات الماضي ، وما أكثرها ، وما أحلاها ! أما الآن فأعانقك ، واعانق
كل أخ لنا بالأدب ، وراء البحار في امبراطوريتنا الواسعة ...

١٩٣٧/٥/١٧

عاليه ، الجامعة الوطنية

الشدياق والجاحظ والمتنبي

ضريح الشدياق
الشدياق بين مصر ولبنان
يوبيل منوي
الشدياق وهيفو
أبو الأدب العربي ، الجاحظ
ليلة جاحظية
أبو عثمان وأبو علي
زيارة شاعر

ضريح الشدياق

يظهر هذا الكتاب ويكون قد مر على ميلاد أحمد فارس الشدياق مئة وخسون سنة ، فهل يفوز الشدياق اليوم بما لم يفز به في ذكرى مرور خمسين سنة على وفاته ؟

أيمكن لبنان المستقل برآ بنوابغه العرب أكثر من لبنان الانتداب ؟
أتقوم جمعية أهل القلم ، بهذا القسط وتحيي ذكرى أبي النهضة اللبنانية ،
وطليعة أدبائها ؟

قد يقال : اتظل تتحدث عن شدياقلك ، أما كتبت كتاباً عنه وسميته
صقر لبنان ؟

بلى يا أخي ، ولكن لا يزال عندي شيء لا بد منه : لقد أحببوا مساعينا
هناك ، فنرجو ان تقوم هنا ببعض ما يحب نحو الرجل . فكثيرون لم
يفهموه بعد .

أما عده الأستاذ محمود تيمور ، في محاضرة « القصة العربية » التي القاها في
مؤتمر الدراسات العربية ، في الجامعة الأميركية ، بين كتاب المقامات ، وهو
لم يكتب الأربع مقامات في (الفارياق) إلا ليسنهيها بكتبتها ويضحك منهم .
وذاك الضريح الذي وثا على مكانه الشائن ، حتى قضت هندسة طريق الشام
بنقله ، ها هو يفرق اليوم بين البيوت التي أحدثت حوله ، حتى خشنا على
الشدياق ان يفتس .

لقد أمست قبور حكام لبنان في غمرة لا تتجلى . ولكن جبار القرن التاسع عشر يظل في قبره الحالي ارفه منه في قبره القديم الذي قلنا في وصفه منذ بضعة عشر عاماً ما يلي :

قبر أحمد فارس الشدياق مثل عين كفاح ، بلا درب . يعترضك الشريط الشائك ان حاولت الدنو منه ، فعليك ان تتسط فطاً ، او تحلق ، ان تقدر ، كما حلق شعراؤنا الكبار في (مناسبات) شتى !... اما اذا كنت اكرش مثلي فعليك ان تترقى الشريط لتلا يعلق بشيء منك ، فيغضب لك الشيخ في قبره ...

القبر في الحازمية عبر طريق الشام ، يمر به الناس غير دارين انه مرقد الذي ملأ مشارق الأرض ومغاربها ، وانفتحت لتبوغه ابواب ملوك عصره وسلاطين زمانه . شكل الضريح الخارجي مثنى مقبب كأنه فانوس هرقلي ، او قفص مثق في رأس قبة هلال ، باهت كالدرويش في مفرق الطرق . داخله افخم من ظاهره وابدع ، كالكتب التي ابدعها الراقده فيه .

زرتة ، اول مرة ، منذ سنوات ، فرأيت درابزين صفته ساجداً ، وبابه مفتوحاً للزائرين من ذوي الحاجات ... والوسخ للزئار ... فتألمت وغضبت للنبوغ الممتن . لم ادر من اسب فالتقطت (الدهر) سبة الضعفاء ، واشبعته سباً وشتماً فانقشت كربني ، ومضيت في طريقي . ثم عدت بعد اشهر فرأيت الحال قد تحسنت : القبر مكنوس ، والباب مقفل ، اما الدرابزين فمقلوع ، كأنهم استصعبوا اعادته كما كان فحذفوه ، وفي الحذف بلاغة ... سلحت يد من فعل ففي تسكير البسب احسان وأي احسان ، وحسبنا استراحة الفقيد من زيارة الاوباش ، واثارهم الظربانية ...



ثم انقضت سنوات ولم أعرج عليه حتى جثته منذ ثلاث جمع فكدت انفسخ قبل ان أنحطى الشريط ، وما بلغت القبر حتى طفت حوله أطلع على ما فيه

من شبابيكه ، فرأيت أنه قد أمن غزوات الفاتحين القليلي الحياء ... وبينما أنا واقف
إذا بعجوز صعلاء ، شمطاء ، هر كولة ، تقبل علي متخصرة فسبقتها إلى التوبة
بقولي : الله معك يا سني .

فاجابت الله يحيرك يا عمي .

ظننتها تقول يا ابني ، فقالت يا عمي ، رأيتني أعجز منها ، فتأملت جداً
ومرحت على الأخطل الأصيل ، وابن من مصيبي ، فالتقي دعيتني (مها) عجوز
محطمة . وفيما أنا أفكر ببقية شباب نعمتها إلي هذا المعجوز الدردبيس ، إذا بها
تشق الحديث قائلة : الميت من قرابيك ؟

قلت : رجل هو أم مرأة ؟

قالت : يقولون رجل تركي .

قلت : وماذا رأيت في يا خالتي من ملامح الترك ، أوجهي الأبيض الحلوا !

فابتسمت وقالت : هكذا حسبتك ، مما تعودنا نرى أحداً يزوره .
لا تؤاخذني .

قلت : حاشاك يا ... وابتلعت المنادي لئلا تباليخ في توقيري فتجعلني
جدها . وتذكرت في تلك اللحظة يوم حبسني لمخرب دواليب سيارتي في خان
بعمرة النعمان . ما عرفوا اني اتيت خصيصاً لزيارة قبر ابي العلاء حتى اخذوا
يتساءلون : منو ابو العلاء ؟ فقال واحد منهم : هذا رجل من عندنا كان مثل
الزير وعنتر واكثر .

وقال آخر : وله شعر كالزناقي ، ومعارك تشيب الاطفال . فتجلى لي حينئذ
سبب قهرم أبي العلاء ، وترك الحان كئيباً ، أوثر عليه قارعة الطريق وعين
شمس الممر التي تشوي المصفور .

وأمس اصابعي هكذا في الحازمية ، فالمرأة القاعدة بيت على كتف قبر
الشدياق لا تعرف جارها ، وتحسبه تركياً . وما انتبهت من غفلي حتى رأيتها

توليني ظهرها فقلت لها : كلمة واحدة يا عمتي ، أمس كانت هذه الأرض بوراً ؟
فكيف زرعتم وغرستم حول القبر ؟

فقلت : فلانة الحاج اشترت الأرض من المير ، الأرض ملكها أما القبر فلا .

فضحكت وقلت : كنتم اشتريتم القبر أيضاً ... أين المفتاح ؟

فأجابت : مع الحكومة . وكأنها شعرت باستيائي وظنتني شيئاً ، فقلت

بتلطف : ماذا ضرروا القبر يا شيخ ، كان العليق آكله عندما اشترؤا .

قلت : بارك الله فيك . فتمتعت : وفيك يا أخي ، فسرتني عني قليلاً لأنها

صغرتني ، وشعرت أنها ردت إلي شباي مثلاً كان . وطأبت نفسي وأردت

العيب فقلت : أياكم وزراعة البطاطة ، فالمرحوم كان يبفضها لكثرة ما أكل

منها في بلاد الانكليز .

فنظرت إلي مشدوهة ثم قالت : مليح ، لا تزرع بطاطة . قلت : ولا الفجل

ولا الرشاد ، فهو يعير الانكليز انهم أرادوا أن يسقوه القهوة ، ويطعموه معها

الفجل والرشد .

فقهقهت وقالت : يا تقبرها أكلة ، الحق معه ، من يشرب القهوة ويأكل معها

الفجل والرشاد !

قلت : الانكليز ، كما يقول هذا المقبور هنا .

فاقتربت صوبي وقالت لي : بحيانك يا ابني تقول لي أيش كان دينه ، وأيش

كان يحب .

وحملت بي تتوقع الجواب ، فقلت لها : النساء فقط ، هن دينه ومعبوده .

فصفت بكفيها وحلي فخذها وقالت : به ، به ، به ، يا صباح الشوم .

قلت : نحن عند المساء يا ست ، لا تقولي يا صباح الشوم .

فأجابت بتواضع : ستك العضرا يا عيوني ، هذه كلمة تقال .

قلت : لا تخافي منه ، هو يحب الفتيات لا العجائز مثلي ومثلك . ولا أدري

إذا كان فعل كداود في مرضه الأخير ...

فقلت : وماذا فعل داود ، فقلت لها : أسألي معلم ذمتك - الخوري في لغة المناق -

فتأوهت وقالت : يا حسرتي ، راح ساقنا وسماقنا ، أيش بقي منا ... ثم تأملتني وقالت : أراك محب الضحك .

فأجبتها : وجارك هذا كان يضحك أكثر مني .
فقلت : الحق معك ، اضحك ، كل حياتنا مضحكة ، ولكن بشبابك تقول لي اسمه .

فتمنفت وقلت : أحمد فارس الشدياق .
فصكت وجهها وقالت : أقبر عمري ، أنا خرفت ، عرفته ، عرفته ، هذا فارس ابن الشيخ يوسف ، هذا ابن ضيقتنا .

قلت : نعم . من الحدث انت ؟
قالت : نعم نعم ، كثر الله خيرك يا عم - فاعادتنا إلى المحس من ذي قبل -
ولكنني كنتها وقلت : وخيرك ، وخير هذه الأمة التي لا تكلف نفسها ارشاد الناس إلى صاحب القبر .

وتركتني ومشت صوب الشمس ، وهناك قرفصت تسند الحائط كأنها تنحصر في العشي كعمر بن أبي ربيعة . فقلت في قلبي : لو أفاق أحمد فارس ورأى هذه الجارة الفرفورة ماذا كان يعمل وإية نكتة يكتب ؟ وحضرت النكتة ولكنني أرجعتها بسلام كأبي تمام ، فالحقوق محفوظة للشدياق ، ومعاذ الله ان نكون من المقلدين والمفترين ...

وفيا أنا افكر اذا بانثى أخرى تطل من فوق سائلة: من الذي هندك ؟ فقلت عجوز الخير هماً : رجل غريب مطحول ، كثير الحكى .
فقلت تلك : من هو . فأجابت المعجوز بنبرة : تعالي أسأليه ، أنا ما سأله ، وما عرفته .

فلاوصت لأرى أمي كالتى حدثتها فاذا العصا من العصية ، والفرق بينهما
زهيد جداً ، فأسرعت إلى السيارة ، وقلت للسائق : إلى عاليه .



— جان تذهب بكرة إلى الحازمية ومعك آلة التصوير .

— شو بيروخ يامل — يعمل —

— تصور لي قبرا .

— كبر مين هادا ؟ — قبر من هذا —

— قبر احمد فارس الشدياق .

فردد : كبر احمد فارس الشد ... وظل يشد نصف ساعة وما استطاع ان
يخرج الياق من فمه .

فأخذت ادله عليه فلم يفهم ، واخيراً قلت له : يا جان ، اتعرف قبر الباشا؟
فقال كبر والي . قلت : أي نعم ، اسمع ، تحت قبور الباشاوات قبر وحيد
لا سرو حوله ولا شربين . حوله شريط شائك يصون المفروسات الجديدة من
الحير والبقر والمعزى .

قال : ما بيعرف ، فقلت : يا جان ، تعرف الهلال ؟

قال : وف ، كيف ما بيعرف الهلال .

قلت : تصور القبر الذي عليه هلال .

قال : كبر موسلم ؟ قلت : نعم مسلم .

فقال : شو بيريد انتي من كبر موسلم هنيك — عتيق —

قلت : هذا لا يعنيك ، صوره وخذ اجرتك ا

قال : والمسروف — المسروف — قلت : انا ادفع المسروف ، وثمان الصور ،
ولك مني علاوة اعلان عن فصاحتك .

وبعد يومين عاد جان يحمل الي صورة الضريح وخبرني احاديث شتى جرت
بينه وبين جيرة القبر . فقد تركناهم حيارى ولا سيما انهم رأوا زواراً عديدين

في هذه الأيام - من اساتذة الجامعة الوطنية وطلابها - حتى ظنوا ان انقلاباً عظيماً يحدث في الجمهورية ، أو ان قديساً ظهر هناك عندهم ولم يعرفوه .

فهل لي ان اقترح على بلدية بعبدا أو الحدث ، أو على الحكومة اللبنانية الجليلة وضع بلاطة فوق باب ذلك القبر الفخم ، أو على دكة امامه ، للدلالة عليه ، فيعلم المتمشرون والعلماء والمشايع والادباء والشعراء والصحافيون انهم مارتون بضريح الشدياق ، العالم والأديب ، والشاعر والكاتب ، واول صحافي شرقي عربي من الطراز الأول ؟ أليكون انبغ رجالنا ومؤسس نهضتنا الحديثة نكرة بيننا ، فنمر بمشواه كأننا نقطع وادياً كجوف العير؟

وهل تفكر الحكومة الجليلة بل الدولة الفتية بعمل هامش لهذا الكتاب الخالد المطروح في الحازمية ، فتعلق عليه الحواشي والتشروح الدالة على يقظتنا الروحية ، لتعظيم اخلص ابنائنا للغة الفصحى ، واعظم العرب ادراكاً لاسرارها؟ قد يكون الناس مشغولين باحاديث المعاهدة ، والاستقلال ، والتظاهرات ، ولا تلد لهم قراءة هذه السخافات - الأدبية - اما أنا فأقول لهم ، وسواء عندي اسمعوا أم لم يسمعوا ، ان للبنان دولة أدبية يعز بنيان مثلها على اضخم الدول ، فعلينا ان نخلد زعماءها . الدولة السياسية تضيق وتتسع ، وقد تكتسح ، أما دولتنا الأدبية فخالدة أبدية ، لا يكتسحها فاتح ، ولا يدخلها غاز عنوة ، فابوابها مشرعة لعابري السبيل ، والفضل لمن يدخل ، ولا يزيد هذا الا مناعة وقوة . فهبوا إلى احياء رجالها ، فهم ميراثنا الخالد .

سئل امير الجبل الأسود مرة : ما هي حاصلات بلادك ؟ فأجاب بابهة الملوك وغطرستهم : الاميرات . لأن أكثر الملوك - قبل الحرب الكبرى - كانوا أصهاراً له .

أما لبنان فلو سئل مثل هذا السؤال لأجاب :

الآدمغة الكبيرة ، والتاريخ يشهد له .

الشدياق

بين مصر ولبنان

استولت مصر العريضة على مبادرتين كان من واجب لبنان ان يستولي عليهما:
الأولى يوم مجدت ذكرى مارون النقاش ، ابي المسرح العربي ، والثانية حين
خصص مجمع فؤاد الأول جائزة ، لأدباء مصر ، قدرها الفأ ليرة لبنانية يعطاها
من يكتب أحسن بحث موضوعه : أحمد فارس الشدياق وأثره في اللغة ، والأدب ،
ووضع المصطلحات الحديثة .

هذا نبأ اذاعته أول من أمس وزارة التربية الوطنية عندنا . ترى ، هل
فكر من يعنيه الأمر فيها ان يدرجوا في منهاج البكالوريا العتيد اسم من أقرت
له مصر بالفضل ! حيتيت يا مصر ، لكأنك تقولين لنا : هذا رجل النهضة لا
غيره . لقد ظن المتعمدون طمس ذكره انهم أحيوا غيره وأماؤه ، فما حقاق
المكر الا بأهله . لا بد لأحياء الموتى من مسيح جديد ، ومن أين ! .

ما كنت لاعرف من عدل ذاك المنهاج لو لم أرَ في كل وادٍ أثرًا من ثعلبه .
كنت أسائل دائماً : اما نزلت طبخة عجوز ابن الخطاب ؟ فيجيبني الصديق
جوزف شمعون رئيس الديوان في ذلك الزمان : منهاج يرضيك ويعجبك . ولما
فرض علينا ما أنكرت منه ، ما كنت أعرف انها شنشنة أعرفها من «أخزم» ..
عجيب غريب !! الا يكون لرب البيت مكان يسند اليه رأسه ، الا يذكر
الشدياق في منهاج وطنه وهو أمرؤ قيسه ، وجاحظه ، وخليله ؟ أيمكن ان
تبني نهضتنا على أساس ان لم يكن الشدياق حجر الزاوية ؟ ترى ، بماذا كننا

نباهي لو لم تكن آثاره ؟ حقاً ، لا يكرم نبي في وطنه !
هل من يقول لي ، وأجره على الله ، أي عمل للخلاصة اللاهوتية في منهاج
البكالوريا ؟ ألحن نعد أكليريكين ؟ وبعد فهل يعرف ذلك « الذكي » من
الخلاصة اللاهوتية غير اسمها . أما الهمة شيطانه حين جعل فلاناً وفلاناً « فرضاً » ،
يحمل الشدياق « نافلة » ، مثل جبران !! أتقر سوريا جبران في (متن) منهاجها
ونضعه نحن على (الهامش) .

لماذا طرد الشدياق خارجاً ... لأنه انتصر لآخيه الذي قتل صبراً ... أما
حمل فولتير قبله حملات غواشم ، وهو يدرس في مدارسنا ومدارس من لم يهادنهم
قط ... قد يقولون : في كتب الشدياق أحباط ، فهل في كتب أبي نواس
والجاحظ وعمر ، وروسو لافوتتين ، كناية يجبن وعسل بشهده ١٢

ماذا يريد « رتبلاء » وزارة التربية ان ندرس أبناءنا من آثار من أقروهم في
عصر النهضة ! فواحد ، أجزل الله ثوابه ، جمع ولم كثيراً ، ولكنه لم ينشيء
شيئاً ، وآخران ما كانا إلا مقلدين للقدماء . ومقدمة سليمان ليست مقدمة ابن
خلدون ولا سفر الجامعة . كان لها شأن قبل ان وجدت كتب الأدب المختصة ،
أما اليوم ؟؟

إننا نفهم منهاج البكالوريا معرضاً لانتاج نوابغ الأمة ، لا مأوى عجز . ان
لبنان موطن الحرية الأممية . فلنعمل له منهاجاً بريئاً من كل ميل ، فكم هي
مضحكة تلك الخلاصة اللاهوتية في منهاج أدبي . فمتى كان المنهاج نوفيسيا
Noviciat يا جماعة الخير ! ومتى كان بأوي المنهاج غسير بلفاء الكتاب
والمبدعين ؟!

تعد وزارة التربية الوطنية بمنهج سويّ فأين غربالها ؟ عفواً . اين الاعدت ..
ان الغرض الأسمى ونعراتنا القومية والطائفية تحول دون التطهير ، فلا بد
لنا من مكنسة لا شعور لها لتغذف الاقدار ، مكنسة كهربائية لا تحس بما تعمل
فلا تشفق على أحد ...

ان لهذا المنهاج التربوي قصصاً أطول من قصص الحيات . ففي عام ١٩٣٢ التأم ما كانوا يسمونه مجلس المعارف الأعلى ، فكان كسفينة نوح ... دار البحث فيه حول الفطاحل فرفعت الطائفية اذنيها وكان الشدياق كبش المحرقة . اما كتب أحمد فارس (الفارياق) فكيف تطلب من رجال الدين وربيتهم ان يؤيدوه ! لا أعيد عليك قصة جبران فقد سبق ذكرها بالتفصيل . ولكنني أريد هنا ان أريك ما حصل بعد حين لتعرف مقدار التعصب البشع .

في عام ١٩٤٨ اثمرت دول منظمة الأونسكو في لبنان ، فكانوا أربعاً وأربعين دولة . وشاء لبنان ان يرحم وجهه الادبي فاختاروا منتقيات لاعلام ادباء النهضة وشعرائها ، فكانت المقدمة وتراجم ادباء هذه المجموعة من نصيب الاستاذ فؤاد أفرام البستاني ، المقيم العام (الدائم) في وزارة التربية ، فهو الضيف الخفيف الظل الذي لا يحول ولا يزول من تلك الوزارة . كتب تلك المقدمة (أعزه الله) ببلاغته المعهودة .. فقال في المقطع الأخير منها :

« فأتت المجموعة انسانية المرمى ، رافرة التنوع فكراً وتعبيراً ، جامعة بين الرصانة التقليدية والجرأة الظافرة ، تتدرج شعراً من ثامر الملاط وداود عمون إلى فوزي المعلوف والياس أبو شبكة ، ونثراً من ابراهيم اليازجي إلى عمر الفاخوري ، ومن بطرس البستاني إلى شبلي الشميل ، وهي ، على أي حال ، تحمل ذلك الطابع من العمق والشمول الذي ماز الأدب اللبناني على مختلف العصور » .

انتهى (الفرمان الشاهاني) ولكن اين أبو النهضة الحديثة احمد فارس الشدياق ؟ انك تجده في طليعة المنتقيات في الصفحة الخامسة والسبعين من كتابهم (اعلام اللبنانيين في نهضة الآداب العربية) اما كيف أبعده الاستاذ فؤاد افرام في مقدمته السابقة الذكر ، فهذا دهاء اقتبسه الاستاذ وتدرّب عليه . انه أراد ، إذ لم يستطع حذفه للمرة ، الا يذكره في مقدمته ، والا فكيف يستطيع ان يذكره قبل المعلم بطرس البستاني كما جاء في ترتيب الكتاب .

وأبى قلم فؤاد افرام إلا ان يغمر من قناة احمد فارس ، فقال حين ترجم له في الصفحة السادسة والسبعين :

« ولم يبد ان ضاق به دينه لينتقل إلى آخر فأخر . ذلك انه ليس في الكثير الذي يقرأ للشدياق ما يدل على أزمة ضمير » .

وانتقلت إلى ترجمة المعلم بطرس لاقرأ ما قيل في دينه ، فما وجدت أقل إشارة إلى ذلك ، مع ان الرجلين رحمهما الله ، عافا مارونيتها .

اظنك أدركت الآن اين هو حجر العثرة في طريق المنهاج التربوي اللبناني تعصب قومي طائفي ، ورجال هم هم يولجون أصبعهم في المنهاج ... ويأبون إلا أن يكون حسب ميولهم وأهوائهم . تلصق تصرفاتهم التعصب بالمارونية ، والمارونية قومية قبل ان تكون طائفية ، والبرهان على ذلك صراعها المستمر مع رومية محافظة على « المجمع اللبناني » دستور استقلالها . كانت ولا تزال في نضال دائم لتحقيق هذا الدستور ، وكان الغربيون يحاولون دائماً هدمه ، وأخيراً تم لهم النصر « ليتنوا » الكثيرين من كنهة الموارنة ، فتبرنطوا وعافوا « الاكليل والقاووق » . ومات « المجمع اللبناني » ولم يدفن دفنة مكرمة ، فأصبحت الأساقفة تعين كما يعين « الضابط » وينقلون كما ينقل .

رحم الله البطرك الياس الذي قال لي حين كتبت محتجاً على انه ليس مننا كردينال :

اسكت يا صبي ، تريد ان تجعل بطرك الموارنة موظفاً عند الفاتيكان ، ينقله حين يريد إلى حيث يريد .

بطركك مستقل أكثر من البابا ، والأول في لبنان أفضل كثيراً من الثاني في روميه . الا تعرف هذا المثل ؟

فقلت : وكيف !

فقال : فاذن أسكت . سد بوزك .

الحاذق يفهم .

يوسيل مسوي

لكلمة تحققت بعد قرن

غداً تبتلع هاوية الزمان هذه الضجة الصاخبة حول مرّة البطرك الماروني على بيروت ، بطريقه إلى رومة المدينة الأزلية ..

وبعد غد تفتح اللجة حنجرتها ، وتزدرد الشؤون والشجون ، هذا القيل والقال ، فتنام الألسنة في مضاجعها وتسكت المهاضر سكوت الأرض بعد العاصفة ، وترمح السنونو في الأفق مبشرة بربيع جديد .

وبعد سنوات معدودات ينسى المؤرخ ما أصيبت به الجسوم من حكاك ... ولا يسجل التاريخ إلا ثلاث كلمات ستكون فاتحة عهد جديد . وكما يحمل الفجر بين أظلاله الوردية قرصة برد ، هكذا يتبدى هذا العهد . فليطمئن المخلصون المصلحون ، فما بعد الفجر إلا النهار ، والنهار لا يكون لبسلا مهما تلبدت في سمائه الغيوم ..

سينسى التاريخ طقطقة خيول الحرس الجمهوري ، وزفيف الدراجات ، وتحيات العسكر ، وارتعاشات الموسيقى ، ورنين الكؤوس ، وكياسة المرحبين ، وبلاغة الخطباء ... انه سينسى كل هذه ولا يحفظ في ذاكرته إلا ثلاث كلمات فقط .

ان المؤرخ كالناقد ، لا يبالي إلا بالروائع . وروائع زيارة صاحب الغبطة في

بيروت ثلاثة اسطر . فلا تلك المآدب ولا الحفلات ، ولا السيارة ولا العلم ، ولا
الآلوف المؤلفة من جماهير النظارة ما يصفه المؤرخ الذي يماشي الدهور ، انه
سيسجل هذه السطور الثلاثة .

زار البطررك انطون مفي المسلمين .

زار البطررك انطون حاخام اليهود .

زار البطررك انطون المرسلين الاميركان .

وان لم تأت الزيارة الأولى بالحلب المروم فمق ثنيناها وثلثناها بكفل
الزمان عقد الخطبة . ستثمر هذه الزيارات في الزمان الآتي ، وتبج الأعصاب
المتوترة ، وتنسى عناصر البلاد - وما أكثرها - (رقم ٦ و ٦ مكرر) كما
نحت أنامل الدهر البطيئة غيرها من مواد .

الله كريم .

كثيراً ما تخرب الصحف ما يعمره الأدباء ، الصحف تنظر إلى حوادث
اليوم ، أما الأديب الملهم فيرى ما وراء القرون . يحلم الأديب فيضحك قومه
من أحلامه ، أما الأيام فتعققها بعد حين . قد يضطهد الأديب المصلح حتى
يموت لأجل اطمئنان الخلق ، فيضحك الناس خلف جنازته - ان مشوا
خلفها - وتخرج قهقهتهم بقصفضة عظامه ، ولكن دمه يسقي نواة الحق
وينمىها حتى قصير دوحة يتفياً ظلالها الهازنون ، ولا يذكرون الفارس
والساقى .

قد يكون أعداء المرء أهل بيته كما فعل طنوس الشدياق - صاحب تاريخ
أعيان لبنان - شقيق أسعد الشدياق حين تنصل من تبعة ضلاله ، والتمس له
المغفرة من البطريرك . أما أخوه فارس - أحمد فارس الشدياق - فتمرد ،
وهاجر متمرداً ، وعاش متمرداً ، ومات متمرداً ، واليك الخبر :

في مطلع القرن التاسع عشر قدم مرسلون بيبليشيون أي الجيليون^١

١ - تاريخ المقاطعة الكسروانية للغوري منصور الحدوني .

قصد الانذار في لبنان في شيعتهم ومعتقدهم... فتصدى البطريرك يوسف حبيش لمقاومتهم بأشد غيرة ، وأبرز ضدهم « منشورين » بهما ينبه ويحرض ويحتم على أبناء طائفته ليكونوا محترسين من خداعهم (كذا) .

ففي المنشور الأول يحظر البطريرك الحبشي على الكليروس والعلمانيين الموارنة الا يقتنوا كتب البروتستان ، والا يبيعوها أو يشتروها ، أو يأخذوها هبة ، والا يطالعوها لأي سبب كان ، أما هذه الكتب فهي التوراة والإنجيل وغيرها من كتب صلوات ومواظ وجدل ديني ، وعلى كل من عنده شيء منها ان يحرقها أو يرسلها إلى الكرسي البطريركي ، والا يتعلوا في مدارسهم ، والا يطالعوا مؤلفاتهم ، وان خالف ذلك الكليركي كان « مربوطاً » أو علماني كان « محروماً » .

وجاء المنشور الثاني في ٤ كانون الثاني سنة ١٨٢٦ فكان أشد لهجة . أمر فيه البطريرك الحبشي أبناء ملته ان يتجنبوا البروتستان التجنب التام دينياً ومدنياً ، فلا بيع ولا شراء ، ولا قرص ولا استقراض ، ولا مؤاكلة ولا محادثة ، وبالاختصار لا سلام ولا كلام . ومن يخالف ذلك يسقط في (الحرم الكبير) المحفوظ حله للسلطان البطريركي .

هكذا أمر البطريرك ، وهكذا كان ، فأصبح الماروني يهرب من البروتستاني هربه من الجدرى والطاعون ، وان يخالف فالويل له . فالبطريرك الحبشي بطرك تقي صارم لا يحابي ولا يهاود . كان يحكم لبنان دينياً حكم الأمير بشير مدنياً ، وهما معاصران شهران يعرفهما تاريخ لبنان .

في ذلك الزمن العصيب نهض شاب ماروني يجبو إلى الثلاثين ، هو أسعد الشدياق فعصى أوامر البطريرك الخطيرة ، ولم يبال بظهيرة أمير الجبل الرهيب ، وناصر البروتستان علانية ، فاستدعاه البطريرك اليه ووبخه ، ويش من ردهه فسله إلى الحاشية ليرشده فتنازبوا الأمر ولم يفلحوا ، فصدر أمر البطريرك بسجنه في قنوبين - الكرسي البطريركي - وهناك مات سنة ١٨٣٠ .

احفظت الأرقام جيداً ؟ اني اراجع : اصدر الحبشي منشوريه ضد

البروتستان سنة ١٨٢٦ ، ومات أسعد الشدياق في سبيلهم سنة ١٨٣٠ .

ووقف فارس الشدياق - أحمد - في جانب أخيه أسعد ، ولكنه لم يسجن في قنوبين بل هرب إلى مصر ينادي بحق أخيه أسعد في الحرية ، وينتصر له ويشكو إلى الدنيا ظلامته ، ويخطئ في (فارياقه) مضطهدي أخيه ، ونادي منذ قرن بما تكبر من يتفوه به اليوم : الدين لله والوطن للجميع .

وفي سنة ١٨٣٧ جاء أحمد فارس الشدياق إلى لبنان سراً وما قاله لجماعته : أن رأس الفقير ليس بأضيق ولا أصغر من رأس الأمير ، وإن يكن أكبر عمامة منه وأغلظ قذالاً .. ارفعوا فرق المذاهب من بينكم فذلك أدعى لكم إلى الحظ والسرور . واعلموا هداكم الله ، إن فرق الآراء في الأديان لا يمنع من الألفة والمخاللة ١ .

هذا ما قاله في ذلك الزمن الأسود ، أحمد فارس ، أخو أسعد الذي نام في كهوف قنوبين نومة الأبد .

لم انشر هذه الصفحة المطوية من تاريخ الحبشي البطرك الماروني (١٨٢٣ - ١٨٤٥) لأقبح عمل ذلك الراعي الصالح ، فنحن تعلم انه لم يفعل في زمانه الا واجبا دينياً نام بعده مستريحاً على رجاء القيامة بالرب ، والفوز بالأجر الجزيل ، ولكن لنفهم اخواننا اليائسين ، مما يحدث غالباً فيؤخر التقدم المنشود . فلا تقنطوا يا اخوتي من رحمة ربكم ، واصبروا فالزمان بطيء السير ، وأقدامه تمحو حتى النقش في الحجر . ان تطلبوا مني برهاناً ، فزيارة البطرك انطون للرسولين الاميركان بشخص زعيمهم الدكتور بيار ضودج رئيس الجامعة الاميركية برهاني .

ففي سنة ١٨٢٦ حرمهم الحبشي مرتين كما قرأتم ، وفي سنة ١٨٣٠ ذاق أسعد الشدياق غب انضمامه اليهم فمات فتياً ، وفي سنة ١٨٣٧ قال أخوه أحمد

١ - الفارياق طبع باريس ص ٤٦٣ .

فارس : ارفعوا من بينكم فرق المذاهب فذلك ادعى إلى الحظ والسرور الخ .
فلم يصدق أحد .

وفي سنة ١٩٣٧ أي بعد قرن ، زار البطريرك انطون المرسلين الاميركان وشرب الشاي مريثاً . لم تنقل الصحف ما قيل هناك ، ولكنها نقلت ما قاله الجالس اليوم على الكرسي الذي جلس عليه الحبيشي ربع قرن ، وهذا هو كما سمع في بيت سماحة المفتي الجليل الشيخ توفيق أفندي خالد .

« الخادم منا السيد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، وكلنا أخوة . يجب ان يحب بعضنا بعضاً حباً صادقاً ، نحن البشر جميعاً المنحدرنا من أب واحد ، إذن نحن جميعنا اخوان مهما اختلفت مشاربنا ووجهاتنا في الحياة ، فكل فرد منا يسمى لتمجيد الله ، والله ينظر إلى نفوسنا . علينا ان نحسن أعمالنا وتكون رابطتنا اخوية . »

وعدت في مساء ذلك النهار (٢١ نيسان) إلى عاليه فنظرت إلى قبر أحمد فارس الممزول فرشقته بوردة ، أما ضريح أخيه أسعد فلا وصول إليه لأنه في وادي قنوبين .



سألني ويسألني كثيرون ماذا عند أحمد فارس حتى تطنب في الثناء عليه هذا الاطناب وتنادي به أبا وزعيماً للنهضة ، فجوابي إلى هؤلاء كلهم : طالعوا كتب أحمد فارس فهي لا تقرأ من عنوانها ، ان في كتب الشدياق لأدباً وعلماً وسياسة . ويقولون : والاحماض ؟ فأهز برأسي وأعجب من هؤلاء ، وفيهم من يدعي سعة الاطلاع ، فكأنهم لم يقرأوا من كتب أدباء العرب غير مختاراتها ، فلو قرأوها كلها لعلوا ان احماض أحمد فارس أقل من التي عند (المؤلفين) العرب الذين اتفقت جميع المناهج المربية على تدريسهم .

ما كان أحمد فارس منشئاً مقلداً ، بل كان كاتباً عملياً مجدداً ، جريئاً إلى أقصى حد ، يخطىء الدول العظمى ويعنفها ، ويلوم الملوك والسلاطين ، ويعالج

المجتمع معالجة النظامي .

ان في كتبه لخبرات كثيرة ، وعلى مائدته طعام مختلفة ألوانه يوافق كل ذوق
ومزاج حتى أصحاب الحمية منكم ...

لا تسألوا المغامر من أية الطرق وصل إلى القمة فهذا لا يعنيكم . كبروا
الجرأة والجمارة والجهاد ، فليس الفنان من يحمل البركار والزاوية ، والذراع
والهندازة ، الفنان لا يبالي بالمقاييس لأنه هو يخلقها ويتركها بعده للذرية . ليت
شعري من علم أيوب وداود وسليمان واشعيا وارميا ويوحنا مقاييس الفن .

اقرأوا كتب تابفتكم تعلموا عظمتهم . ففيه كل سمات الأديب الذي يستحق
الدرس والتعظيم . يرحم الله بودلير الشاعر الفرنسي القائل : لا يكون للأمم
رجال عظام الا على كره منها .

الشدياق وهيغو

إذا وضعت الكتبة الافكليز ، سكيت ،
وامرسون ، وداوردووث ، وبلوز ، في شخصية
واحدة ، امكنتك انت تصور جيداً عظمة
الشدياق . ولو ولد هذا الرجل في ارربا لدفن
مع نخبة العظماء ولنصبت له التائيسل في أكثر
مدن بلاده ...

الاجهشيان غازت

خففوا من عتبكم أيها الأخوان فما مت وما افلست كما ظن أحدكم ، وما أنا
خصم أحد من الناس فاصالحه وتكون الغرامة سكوتي . لا أسكت حتى تقوم
ناقة صالح ، ولكني أخشى ان أفضح شبابي الفص ان بحت بما عاقني ، فعذراً
أيها المراسلون ، ولتكن كلمتي هذا جواباً لكل منكم .

ثم أليس من الصقاعة والبلاهة ان نبحث الأدب والحبلى على الكرسي
تتمخض وتملأ البلاد طحيراً وزحيراً ؟

أليس من الخفة والسخف ان نقفي النهاوند والرصد للفرغاء والضوضاء ؟

فوالله لو فعلت وحدثكم عن الأدب في موسم الانتخابات لقلتم ما أبلده وما
ابرده . الدولة تعلم الحياة الدستورية وهو غارق إلى أذنيه في الكنب الصفراء .
صدقتم يا بشر ، ولكن دستوركم المسخ يكلفنا كثيراً وما لنا منه إلا الاسم .
فهو ، وحياتكم ، مخلوق غريب عجيب ، كثير الرؤوس كتنين يوحنا الحبيب ،

وعديد الأيدي والأصابع كالأخطبوط ، يأكل ولا يعمل ، فلا أبوه فرح بميلاده
ولا عين أمه قرت به ، بل جفلت منه تنظر اليه كناقاة عمر المجنونة .

عفواً ، ما لنا والسياسة ، قد اشتط القلم والشدياق في الحازمية ينتظرننا ،
مرت على رأسه ثلاث وزارات : أبو شهلا ، وبللمع ، وثابت . فلعل الثالثة ثابتة
كما يقول المثل اللبناني ، فيعمل صاحب المعالي الجديد جورج بك ثابت شيئاً
بييض وجه الأدب . أبو شهلا نوى واستعد ، وبللمع قامت قيامة الانتخابات في
عهده وغطست الوزارة على دررها ففزنا بعد تلك الزوبعة بعقد أطول من
(العقد الفريد) فيه ثلاث وستون خريزة من خيرة المعادن ؟ ..

لعن الله هذا القلم فهو شמוש جموح لا يخاف الملوي المحصد من النقد كناقاة
ابن العبد ، ان أخذت من لجامه قنطر كأنما سرت اليه العدوى من أحاديث
الناس ، فماذا أفعل به ؟

أما الوزير الثالث في عهد ذكرى الشدياق فالله نأل ان يبسط السكينة
فوق كرميه في عهد الائتلاف ... ليعيرنا اذنًا صاغية . وينجز ما وعد به
زميله الأسبق .

واخجلتنا من جريدة « البورس اجبسيان » الافرنسية التي كتبت ما يلي
تحت عنوان : فارس الشدياق شاعر الشرق الأدنى الكبير .

« ما بين سنة ١٨٠٢ و ١٨٨٧ نشأ رجلان ان اختلفا موطناً ولغة فقد
اتفقا في الاتجاه والمثل الأعلى . من المفيد جداً ان نعلم ان هذين الرجلين اللذين
لم يتعارفا أبداً قد جريا لغاية واحدة طول حياتهما فهذان الرجلان المعلمان
المطلقان للفتما قد تصرفا بها كما شاءا بسهولة عجيبة . اسخطهما محيطهما فعاشا
هجواناً ، شعراً ونثراً ، المتسلطين في عصرهما ، مقبحين الاساءة والجور .

هاجم فكتور هيفو الهيئة الاجتماعية من الجهة المدنية فهجا العظماء ونابليون
فأرسله إلى المنفى ، أما الشدياق فانتقد في معظم كتبه رجال الدين الذين تتألم
منهم بملاده وهم الذين سببوا موت أخيه أسعد الشاعر المعروف في الثانية

والثلاثين لأنه بشر بالمذهب البروتستاني . ثم انتهى أمر الشدياق باعتناق الدين الإسلامي .

أما هينغو فاقامت له فرنسا التماثيل وتغنت بذكراه ، وأمس الشدياق فلم تذكره شعوب الشرق الأدنى الا هذه السنة أي بعد مرور خمسين عاماً على وفاته ، إذ شعروا انهم لم يفعلوا شيئاً حتى الآن لتقادتهم الأكبر ، وسيد فقهاء لغتهم في القرن التاسع عشر . ادر كوا ان منشيء أول وأشهر جريدة عربية الجوانب - أمسى نسباً منسياً ، وان مؤسس الصحافة العربية لم يعرفه الشعب في احتفال وطني .

ففي تشرين أول ستقام ببيروت أعظم حفلة عرفتها تلك البلاد ، يتوأسها فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية وتمثل فيها أمم الشرق الأدنى لتكريم ذكر لبناني كان اجراً وأعظم نقادة ، بل أعظم علماء القرن الثامن والتاسع عشر .
فنتمنى للناطقة العظيم الذي دافع طويلاً عن مصر وخديويها في جريدته الشهيرة ان تكون حفلة ذكراه لاثقة بمقامه السامي .
قلت : يا ليت ..

ان حكومتنا تقدر ، لو شئت ، ان تناصرنا على احياء ذكرى مفخرة من أسمى مفاخرنا ، ودرة نفيسة من درر تاريخنا الخالد .

هذا غوبلز وزير الدعاية الألمانية أعلن ، أمس ، في « اسبوع الكتاب » فقال : ان السياسة القومية التي تمثل الأمة تتجلى في الكتاب ، والثورات قامت على اكتاف الخطباء والمفكرين ، والانقلابات تقوم على المبادئ لا السلاح .

ثم أعلن في آخر خطابه الذي نقله إلينا البرق ان حكومته خصصت مئتي ألف مارك لمساعدة الأدباء والشعراء والفقراء .

قلنا : اما والميزانية اليوم تحت الدرس فهل تفكر حكومتنا بتخصيص شيء لتأبقتها الأكبر ؟ انها تفكر ببث الدعوة للاصطياف ، فلماذا لا تكون ذكرى الشدياق احدى هذه الدعوات ؟

يا ليت شعري أية فخيرة تفاخر بها هذه الجمهورية ؟ أهناك غير الأدمغة
الكبيرة . وإذا كانت حكومة ألمانيا ، وهي من أعظم الدول ملاحاً ، ترى
الكتاب مبعث قومية ، فلماذا لا نمضي نحن بكتب الشدياق الفريدة ؟
عسى أن يحقق وزير معارفنا الجديد هذه الآمال ، فقد طال الانتظار
ويبس الكمون .

أبو الأدب العربي

أبو عثمان ، عمرو بن بحر الكناني ، عصامي الأدباء ، كان بياح خبز وسبك بسبحان ثم استحال زعيماً أدبياً ، بل أبا الكتاب العربي فجعل النثر يقف تجاه الشعر وقفة الند أمام الند . أراد ، أولاً ، كما فعل المتنبي بعده ، ان يقيد اسمه في التاريخ « إماماً دينياً » فوضع « الجاحظية » وكان نصيبه السجن ولكنه ارعوى فصار إمام الأدب العربي . قضى التسعين عاماً كاتباً باحثاً فأمست كتبه مستودع المعرفة يرجع اليها الناطقون بالضاد حتى عصرنا هذا . وهكذا خلده ذكره في تأليفه التي صورت الحياة في عصره أصدق تصوير وكانت لنا ذخيرة لا تنفد مادتها مهما استطالت المدة .

وظل ذلك الرجل يعالج الكتب ويحشدها حتى تحبنت منه غرة فأنقضت عليه وفطس تحتها كما زعموا . عجز الفالح عن وقف قلبه السبال ، وحرار عزرائيل في قبض روحه فعاربته أخيراً بسلاحه ، فعق الجاحظ ان يقول : اتق شر من احسنت اليه . مات الجاحظ ، بياح الخبز والسبك ، فاضرب قصر الخلافة ، وقال المعتز بالله لوزيره ، يا يزيد ، ورد الخبر بموت الجاحظ ! فأجاب يزيد معزياً الخليفة الكتيب : لا مير المؤمنين البقاء ودوام النماء .

يقولون : لا يصدر عن القبح شيء ملبح ، وأنا لم أر أحلى وأظرف وأجمل مما كتبه هذا الرجل هجاء الشاعر بقوله :

لو يخلق الخنزير خلقاً ثانياً ما كان الا دون قبح الجاحظ

فاذا عدت الأمم كتابها وقيل للعرب بمن تعتدون ، فهل نستطيع ان نقدم أحداً على ابن بحر ؟ لقد كان بحراً حقاً ، وما زلنا على بعد عهدنا به نعرف من خضمه . إذا جلسنا اليه خلنا أننا نعيش معه في ذلك الزمان إذ يعرض علينا رجال عصره من ملوك وأمراء وسوقة ، عرضاً غريباً عجيباً . فمن منا لا يعرف باب بيته ، ومضيفته وسفرته الممدودة التي « لا تنقش سماؤها لكثافة غيمها » . لقد شق للعرب طريق الثقافة وعبدتها ، ومهد عقاب العلوم فسارت الذرية في شعابها باسمه ضاحكة ، لا تلهث ولا تكل . وعى صدره علوم ومعارف البشر اجمع في زمانه ، فكان ، وحده ، جامعة تلقى المباحث عن منبره ، فتلقاها الامصار معجبة ومكبرة .

فمن يقاس بأبي عثمان الذي ناقش أرسطو كالأعرابي وجعل عقله حكماً يرشده إلى نجمة القطب . فكم فك من عقد ، وك حل من طلاس أكبرها غش النظر ، فزخرت الحياة حيث مر قلمه . ارانا عوالم جديدة منها المكتشف ومنها المبتدع . ومن رأى قبل ابن بحر أن في غير القصور حياة ، بل من راز أدب عوام الناس قبله فصف الأمراء والسوقة في معسكره ، فكانوا جميعاً أبطاله الخالدين . ان أدب الدهماء الذي يعارض به أدباء العالم اليوم أدب الطبقات العالية ، أنشأه منذ اثني عشر قرناً ، مولانا أبو الكريمتين البيضاويتين . فلئن فخر الفرنج بموليرم فهذا موليرنا في بخلائه .

هنيئاً لمن تهكم به الجاحظ فقد ابقاه .. فما الاصبهاني والهمذاني والمعري وابن العميد القائل : كل من جاءوا بعد الجاحظ عيال عليه ، الا مقلدون له وآكلون عن طبقه حق البشم .

قد يعجب من لم يقرأ كتب الجاحظ ان قلنا له : الجاحظ عالم يدرس طبائع الحيوان والنبات والمعادن ، ولا هو تي يقضي عن الله في الأرض فيجعل بعضنا لجهنم وقوداً ، ويجلس البعض على سرر متقابلين . حكم عقله في القضايا السموية ، وعينه في المشاكل الأرضية ، فبنى بيته على البصيرة والبصر ، يوم

كان الناس لا يفكرون . رحل في سبيل تمحيص العلم إلى الأقطار حتى شرفنا
بزورة يوم كان يقال : السفر قطعة من العذاب .

لم يعرف العرب قبل هذا الرجل المظلم الملامح أدبياً نيراً ضاحكاً ، أدبياً
يتفرق فيه طيب الحياة فتقرأ كأنك في مجلسه الراقص . كان معلماً صادقاً
قافداً الألباء ، أما المقلدون فرجعوا من عنده رجعة المحار من العرس .

ما رأيت لعظيمنا شبيهاً إلا فولتير ، أديب أوروبا الأعظم ، فكأنها جبلا
من طينة واحدة حتى اتفقا في ابن الأخت . صبها الباري في قالب واحد ثم
كسره وهيئات ان يبدع ثالثاً .. من يجعل من الحبة قبة غير الجاحظ ، فله
بشاعته ما أحلامها ، وما أكثر خير دمامة خلعت على أدبنا العربي جمالاً وظرفاً ،
فهل لنا ببشع آخر يملأ عالمنا الأدبي حقاً ونوراً بعدما ملئ مواء وهريراً .

لقد كبر عقل الجاحظ عن السفاسف ، فما هال امتداد الظل ذلك الذي
يحدق إلى الشمس ويراعيهما . لقد حطمت النظائر الذي يغزع ثعالب الحقول
ومشى بحرية الفكر خطوات .. ما عاق رجله القيد الذي كسره جد الإنسانية
الطالع ولا خنق عنقه الغل ، فلم يكن ، والحمد لله ، (ثاني اثنين إذ هما في
التنور) ، بل عاش للعلم والحق والحياة والأدب الحي . فلولا بقية وجدان في
صدر القاضي ابن أبي دؤاد لانهدر النور وطمر كنز الثقافة في القبور إلى يوم
يبعثون ، وكان العرب بلا جاحظ . قيل ان انكسرة قد تتنازل عن أحد
مستعمراتها ولا تتنازل عن شكبير . أفلا يصح هذا في الجاحظ ؟

ليس الجاحظ الا تلك النبتة التي تحيلها الأخطل في مدح أصحابه الأمويين ،
بل تفوقها الشجرة الجاحظية سمواً ، ففي كل فرع منها جمال ، وفي كل ثمرة طعم
خلقه فيها كوثر الجاحظ .

ان اكسير « الحديقي » حقق أحلام العرب وحول اتفه المعادن ذهباً ابريزاً
ونفخ من روحه فيما كتب فأرانا في كل كلمة عرقاً ينبض ، وفي كل جملة دماً حاراً
يحترق ويحرق . ان ذاك المركب الشنيع مستودع جمال لا ينضب ، ظل حتى

مضى لسبيله في موعة الشباب . ولا تزال جدته القديمة تهزأ حتى الساعة بظرف هذه الأيام .. أليس بيننا وبينه ألف ومئة عام ؟ أجلس إليه لترى كيف انك تحدث ابن اليوم لساناً ومعرفة ، وتعلم ان لغة العرب تصلح لكل عصر لو أحسن التفكير ولكنهم قليلو الرؤية .

ابى الجاحظ ان يكون تعبير العربي كعباءته ، تصلح لكل شخص ولا تلائم أحداً ، فعبّر بلسان فصيح يتصل بالحياة والأحياء ، فحرك القلوب وانعص النفوس . وابى الا العمل بكُلّوا من طيبات ما رزقناكم فأكل كل غير محتشم . تمتع بالحياة استمتاعاً عريضاً ، وشاء بخته فكان طويلاً ، وعاش للأدب قرناً كاملاً كتب في اخرياته بشقير واحد ، فحقق اسطورة العرب في كاهنيتها سطيح وشق أنار .

ليت شعري ، هل عندنا رجل يحد من الجهات الأربع غير الجاحظ ! والغريب اننا نرى كيف التفتنا ، رجلاً كاملاً متين العضلات ، هو البحر من أي النواحي اتيت ..

يعجز القلم عن تصوير الجاحظ في كتاب ضخّم ، وأشهد اني ما رسمت لأعظم شخصية أدبية الا صورة شمطاء كلحية الأشيب المهنّاة .

هذا الغرب الذي نقلده في الملبوس والمأكل والمشروب وكل أساليب العيش بكرم كبار أدبائه ويحيي ذكراهم من السنة إلى آخر الأرقام ، انه يحتفل بيلادهم وبذكرى تصانيفهم الخطيرة . فهل خطر لنا ان نذكر أديبنا الأعظم ولو بعد مرور ألف ومئة عام !

يسمع الناس ان للجاحظ كتاب الحيوان . أما من قرأه فيعلم انه كتاب الإنسان ، فهو مستودع كل ما عرفه الانسان في ذلك الزمان . يسرد الجاحظ كل ذلك بأسلوب قصصي واقعي ، وهو لا يلقي سلاح الجدل والمنطق في جميع جولاته . ميزانه منصوب دائماً على منصة العقل ، وهو لا يقبل إلا ما يسلم به تفكيره الصحيح .

كان الزمانُ أكبر مثقف لذلك الرجل . فحياته تاريخ قرنٍ كامل ، بل تاريخ زهرة العصور العباسية ، فقد شهدت عيناها الكبيرتان أعظم صراع سياسي وفكري ، وخرج هو من ذلك المعترك بنتائج باهرة لم يظفر بمثها أولئك الذين نعدّهم فلاسفة وعلماء .

كان مولانا أقدر الناس حجةً ، تبرز لك شخصيته من وراء كل عبارة خطها قلبه . لا ترتيب ولا نظام عنده ، ولا تبويب لما يكتب . مزج العلم بالأدب ، والشعر بالفلسفة والحديث ، فهو كـرُخّ ألف ليسة وليسة ، ينقلك من وادٍ إلى جبل ، ومن جبل إلى بطحاء ، ثم يعيدك إلى حيث كنت ، ولا تدري إلا أنك تقرأ الجاحظ . يتغير أجمل الألفاظ وأحسن التعابير ويفر سريعا من الأسلوب العلمي إلى مناحي الأدب حيث يتنفس ببله رثيته .

وإذا سألتني تحديداً للأسلوب الجاحظي قلت لك ما قاله ديكارت لخدمته : لا (تخريط) عدم نظام مكتبي .

إن أسلوب الجاحظ هو عدم الأسلوب ، فلا تحاول تقليده إلا إذا كنت ذا شخصية كشخصيته .

ليلة جاحظية

كنت أفكر في إحدى امسيات تشرين بموضوع اكتبه بمناسبة انعقاد الاونسكو في لبنان فنمت مبهوماً . وكأنما الأحلام بائنة تحت مخدتي ، فما أسندت رأسي اليها حتى سحبت في دنيا الله الواسعة ، وبعد طواف أضناني رأيتني في بيتي في عين كفاح انشر على مكتبي كتاباً دهرياً فيه تخاريب واثفاق . وبينما كنت أتبين كلمة أكل أكثرها سمك المكاتب ، إذا ببابي يدق دقاً غريباً فقلت : من ؟ فلم يحبني غير قلقة المفتاح في القفل كأن فاعلها لا عهد له بالأقفال الحديثة . وطال الدق والقرع ، فنهضت أرجف غضباً ورعباً وفهت بما يدور على لسان كل غضبان . وفتحت الباب بنزق فانشق عن رجل ما رأيت قط أبشع منه وجهاً بعينين مثل الكلوتين وشفة كقطعة من طحال ، مربع بدين ، كل ما فيه راعب حتى الابتسامة . فصحت من هلمي : اسم الصليب وذكر الصلبان .

فما راعني الا زائري الجميل يرد علي بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

فصرخت به لما انكشف عن انسي : وأنت تبسمل أيضاً يا حلو ! فضحك وقال لي : لأمك الهبل ، اوحسبني شيطاناً ، أين الذنب والفرون يا ذكي ! ..

ولم يمهل حتى ادعوه للجلوس بل استوى على الكرسي ثم قال : اجلس ،

جشاك ، قل ما تريد منا . فسكت . ثم حاولت الأخذ بالحديث فما قدرت ،
وفيا أنا أتفرس فيه رفع يده وحركها في وجهي قائلا : لماذا تعوذت بأقانيك
لثلاثة ؟

قلت : لأخزيك ، هكذا علمتني أمي ، رعبني جمالك الفتان يا شيخ . وأنت
لماذا بسلت ؟

فمجمع في حديثه ثم أفصح قائلا : اتراك أجمل مني ؟ أحقا خلّنتي شيطانا ؟

قلت : نعم ، ومن يدريني ..

قال : لعن الله تلك اليهودية .

قلت : من الشيخ ، ومن أين مقدمه السعيد ؟

قال : لولا عرفتي لانفرج شذراك ، وامتلأ فمك فرحا .

فقلت : هلا تقول وتريمني ؟

فأجاب بعد قليل : إنا نبأوك ليكشفك الامتحان ، كيف لا تعرف من
تمنيت زورقه ، وقلت لبيته يعود إلينا ساعة فراء ، قد أدرك مالك شهوتك
هذه فأشر لي آذنا بالجهم اليك .

فاستغربت حديثه وقلت له : منو مالك ؟

فأجاب بلا اكتراث : خازن النار .

قلت : إذن لا بد من جواز سفر حتى في مملكة جهنم ..

قال : لا يكون شيء إلا من بعد اذنه .

ورأى ارتباكى وتعسر معرفته علي فأشار بمدراء وقال : انك لا تفلح ،
وما في الناس هبقرى كشيخ النار ..

فعرفته بها وعلمت انه الجاحظ لا شك فيه ، فقمت اليه اصافحه قائلا : اهلا
برجل يتوب عن الجحيم بنفسه . لبتك اسقطت عن نفسك هذه المؤونة . كنت
أمرت فذهبت اليك .

فكركر في الضحك قائلا :

كل آت قريب .. طرقتك زائراً اللية وسردتها لي ، ان بي لشوقاً إلى رؤية
جهنمكم ، وتقبيل وجنتيك .

قلت : ابهاتين الشفتين القرمزيتين الرقيقتين ؟

فقال مشيراً إلي : ليس إليك منها بهذا الجمال الساحر ، والشباب الغض ،
والجسم البض .. وكان يعض على الضاد فتخرج من فمه عريضة ضخمة كأنه لم
يبرأ من الفالج كل البرء .

وامتد بنا السخر والتهكم والمزاح حتى تجرأت عليه ، وقمت اعلق في جيبه
منديلاً بقي صدره من اللعاب السائل . فضحك وقال : ذاك كان في دنياكم ، أو
ما تراني غير ما سمعت بي ؟ فضحكنا وقعدت استعط . فما رأى عيني حتى
انقض عليها بخالبه الخمس كأنه يأخذ ملحاً لقدر هريسة ، ثم غيَّب العاطوس
في أنفه ولم يعطس ولكنه تجلى وفرح ، ثم فرك أنفه وقال ان عاطوسنا افعل
من هذا وستفرح كثيراً يوم تصير إلى جنتنا ذات اللهب ، فنظراؤك كثر هناك ،
ان حققهم الذهبية ملأى من المعطوس الروماني .. انه اطيّب من هذا .

قلت : ويحك ما أمر نكتتك ، الا تتركها حتى في النار ، فكيف حال من
فارقت ؟

قال : بخير يسلمون عليك .

قلت : بحياتك تقول لي أين موقع جهنم ؟

فأجاب : في الدرجة الثالثة والثلاثين من عقلك .. وما يهمك هذا الأمر ،
ان طريقها معلومة ، والمجاز غير قلق .

قلت : والزبانية أهم على كيدهم لنا ؟ وكيف حال لوسيفورس ؟

قال : نعم ، ولكنهم سيحتفلون بمقدمك احتفالاً لا تنسا .

قلت : ما بال هؤلاء الشياطين حاقدين علينا ؟ أنحن من وسدتم تلك المهاد ،
ونحن وقفناهم على النار ؟ عليهم ببخائيل وجنوده من كل ذي جناح في الجنة ..
قال : هو كذلك في دين النصارى ، اما في ديننا فلولا سجدوا لآدم دخلوها .

وسكت بغتة ثم قال : قريتني كلاماً يا هذا .

قلت : عفواً يا عمرو ، الفرح ينسي ، تاهيك بأني تائق لاخباركم .
فاستبشر لما دعوته بأحب الأسماء عليه وقال اني لم اطعم منذ يوم وليمة ،
فقد الزاد في الطريق ، ونفقت الجراب على رصافة هشام قدام كنيسة
مار جرجس .

قلت : وهل رأيت الأخطل هناك ؟

قال : لا اخطل ولا مخطل ، أين المشاء ؟

قلت : ليتك نفقت جرابك على هذا المكتب فكنت أرى طعامكم .

قال : سوف تراه وتشبع منه ان شاء الله ..

وسكت وسرت لأقول على عادتنا : أهلاً وسهلاً بالضيف ، شرفتني بأن
جعلت راحتك عندي الليلة .

فصاح : اف ، اف ، حقاً انك بليد ، حطّ الطبق ثم نثر ما شئت .

قلت : حقاً انك جوعان و ..

فقال : هفوان ، أين المشاء وما هو ؟

قلت : هو مضيرة وسمك ، ورزّ بارد ..

فضحك وقال : يسخك الله مثل رزك ، هات السمك والمضيرة ومرحباً
بالفالج ..

فقلت : وكيف حال ابن ماسويه ، فقال : رفعه الله إلى أسفل ، فصار
طبيب خازن النار الذي سميت أنت .. ماذا سميت يا ربي .

قلت : لوسيفوروس .

قال : أي نعم . ورأى الطبق مقبلاً فتعرك ليحكم قعدته فسقط بضعة
بجلادات عن الرف فأجفل وانتصب .

فقلت : لا يلدغ مؤمن من حجر مرتين . فأجاب وعيناه في الطبق : ولا
كافر مثلك ..

قلت : لولا تموت بها يا شيخ مرة ثانية فتزاح من عذاب النار . فتبسم وقال
بعد ان بلغ اللقمة : اصدقت هذه الرواية ، فلو اهوى علي جبل عبود ، واطبق
فوقي أحد لما فطست ..

وانقض على الطعام بالسكين والشوكة فقلت : كأنك ابن زماننا يا أبا عثمان !
قال : نعم ولا فخر ، قد علمني فولتير آداب سفرتكم .
وتذاكرنا الشعراء على الطعام فأثنت علي جديسد بشار ، ففص الجاحظ
ومصمص لسانه ، فغمزت الخادمة فصبت له الخمر في كأس نواسية وتمثلت :
تدار علينا الراح في عسجدية حبثها بأنواع التصاوير فارس
فانسته حلاوة أبي نواس مرارة بشار . فاستزاد من الحمرة المعتقة حتى كرع
ثلاثاً اخطليات وقال : ان شرابك المفلعل الخليلق بذاك الظريف الديوث ..
فقلت له : لقد أجدت يا استاذ العرب وسيد الأدباء .
قال : وبماذا ؟

قلت : بقولك في ابياته هذه بلسان أحدم وهو جرار : هذا شعر لو نقر
لطن ..

قال : حزرت ، وماذا يحبس في صدر الزجاجة ..
وجاءت الجارية لترفع الطبق ، فصوب الجاحظ نظره فيها وصعده فقلت
له : لا تخف ان عدت الينا مرة أخرى ، فهي ليست سندية فتقول (الجاحد)
أو (الحلقي) بالباب . فبدعني بقوله : ولكنها تقول المسيو جاهز ، أو المسر
هدكي ..

وادركت حقارتي ازاءه فتوقيته ، ورفعت الحديث وقلت : ما أدري كيف
اغفلك أبو الفرج الاصفهاني ولم يترجم لك .

قال : لأنه مثلكم يعني بالشعراء ، ويبغض الكتاب اشيائهم .
قلت : الحق معك يا استاذنا الأعظم ، ان العرب ليباهون بك ، وما هذا
الإنسان ، وان أنا ذكرتك دونهم فلانني اقدارسك مع قلاميذي فأنت أحد

الثلاثين (الخالدين) في منهاج البكالوريا اللبنانية .

وردد كلمة بكالوريا حتى استقام له لفظها وسألني : ما البكالوريا ؟ فخبرتة
فاستضحك واثني ثم قال : وهل سألوهم عني ؟ قلت : نعم وكنت ميمون
الطالع عليهم يا أبا عثمان .

أما الاحتفال بذكرائك فهذا مجد للعرب ، بل هو قسط من دين لك عندم
مستحق منذ ألف ومئة عام ، أما هزرت (العصا) في بيانك وتبيينك دفاعاً
عنهم ، قلله أنت من ابن بار ..

فتناول الكلام وقال : والله انت ، والله ابوك ، والله جدك ، يا اديب الادباء
وسيد البلغاء ، وامام الفصاحة واللسن ، ونبراس الزمن و ..
فصحت : وي وي وي وي ، ايش هذا ، حقاً انك ابن بحر . أخرفت
يا شيخ ؟

فقال : لا والله ، عشت مئة وخمس سنين بعقل كامل ، ولكنني سررتني
بكلام ففرحتك بثله . اتريدني على الصمت وقد اطريتني حتى فلقطني .
قلت : أنا لم أعد القيام بالواجب لك .

قال : ومن قال لك اني لنيم ؟ فأنا رجل لي بصر بالكلام وانشاؤه صناعتي .
قلت : لقد صدق ابن أبي دؤاد إذ وثق بظرفك ولم يثق بدينك .
قال : عليه لعنة الله ؛ فهو كسفود النابغة في سقر ..
قلت : انتشفى ، وأنت كيف ؟

قال : في نعم ، في نعم مقيم ، ثم مسح فمه بكفه وقال : قم بنا فنزور
الاونسكو ونرى ما هندكم من علم وأدب .
فقلت : اما وقعت على غيري .

فأجاب : ان الطيور على أشكالها تقع . ان سيري معك أستر لي . مجنون
أنا حتى انتقي غيرك خريتنا .

فصحت : يا ويلاه . أما وجدت غير كلمة خرييت يا أبا عثمان ؟ !

فضحك وقال : لكل مقام مقال ..

وبلغنا بوابة مدينة الاونسكو فرأى الأعلام منصوبة على الركائز فعددها وقال وهو يقهقه : أم أربع وأربعين .. وما دخلنا قاعة المحاضرات حتى سمعته يقول : كأنها دارة جليجل .

فقلت : أتراها صالحة لاحدى اللذات الأربع المنقوصة . فأجاب : لو كان فيها ماء :

وشاع الاستغراب والرهب في وجوه النظارة والهيئات حين دخولنا ظنونا من عالم آخر ، أما المحاضر فكان يتحدث بحرارة عن السلام والهيبة . وأفاض في الكلام فمال علي الجاحظ وقال : دعنا من شعر الكلام ، فهو ألهية لا غير . ودق جرس التلفون فانقطع الحلم . كان المتكلم الاستاذ بهيج عثمان يطلب مقالاً للاونسكو فقلت له : الليلة يكون عندك ، ولكنني كتبت موضوعاً آخر يطابق مقتضى الحال ..

أبو عثمان وأبو علي

هذا رغييف عتيق جداً ، من كعب الجراب ، بالغ من العمر سبعة عشر ربيعاً .
العمر كله ان شاء الله ، وهذا غير بعيد ما دام الأدب عندنا عنوان يؤس ،
وحسبك برهاناً على هذا ، كلمتنا المرددة منذ أيام ابن المعتز : ادركته حرفة الأدب .

سبحان مقسم المخطوط ! فبينما نرى العراق يدعو رجال الفكر في أقطار
المسكونة ليحتفل بذكرى أبي علي ابن سينا إذا بإيران تدعيه ، وكذلك تركيا .
أما الجاحظ الأديب ، العالم العربي الأصيل ، فرجونا بشأن ذكره الألفية
وزيرين عراقيين السيدين صادق البصام ويوسف عز الدين وما عملا له شيئاً .

كان ذلك عام ١٩٣٦ فجاء جواب البصام كما نقرأ : نشكركم جداً على ما
ابديتم من عواطف سامية في كتابكم المؤرخ ١٩٣٦/٦/٢١ . راجين لكم اضطهاد
التقدم والنجاح في خدمة العلم والأدب . وفقكم الله لما فيه خير البلاد وصلاح
الامة . ودمتم بخير .

صادق البصام

وزير المعارف

وراح البصام بعد أشهر وجاء عز الدين ، فكتبت اليه فكان أكثر اهتماماً
من سلفه ونهض الجاحظ بلا ذكرى ، وان كان الخالد بدونها .

ان ما حدث اليوم بين دولتي العراق وفارس ، هو وفق لما يحدث في كل بلد .
يختلف « ملا » كان ، على شبر أرض ويملان املاكها الواسعة ، ويتركها بوراً
بلا حرث ولا غرس .

قرأت في جريدة تلغراف : « ان الايرانيين يعتبرون ابن سينا مواطناً لهم بسبب ولادته في احدى مناطق بلاد العجم . » هذا ما ظهر اليوم ، أما الحقيقة فهي ان الايرانيين لا يعتبرون ابن سينا ، وحده ، عجيباً ، بل يحصون في تاريخ الأدب الفارسي الكثيرين من كبار رجالات الأدب العربي كابن المقفع ، وبشار ابن برد ، وبديع الزمان ، وغيرهم . لقد طالعت هذا المؤلف منذ أعوام فقلت في نفسي لم يبق لنا غير أبي عثمان ، ولما وقع حول أبي علي هذا التنافس تذكرت هذه الصفحة مطوية ، فبعتها من مرقدها .

ان الشيخ الرئيس ابن سينا عظيم حقاً ولكن هذا لا ينسي العراق ابنها الأصيل . ان الرجل الذي دق اسفيناً في كل صخرة من صخور الفلسفات والمذاهب ، ولم يسلم من غمراته أحد حتى ارسطو ، ليستحق ان يحتفل وطنه ولسانه بذكراه .

ليت شعري ، ايفاخز العرب الموالي ، فخرأ لا غبار عليه ، بغير الجاحظ والمتنبي والمعري ؟ لقد قضت الشام واجب الاثنين وما بقي غير هذا ، فهل تهتم العراق بابنها العبقرى ، ولو بعد فوات الأوان ؟

التقى الجاحظ وابن سينا في حرم العقل ، واحب كلاهما الحياة وملاذنها ، وإذا كان الشيخ الرئيس ابن سينا قد عالج الجسد ، فالجاحظ هو أول من طبب العقل وفك عقاله . واني لا أستطيع القول ، ولا ينكر علي أحد ما أقول : ان الجاحظ هو أول عربي دق باب الإيمان المصفح بيد الفكر الحر ، ففتح أمام الفارابي وابن سينا والمتنبي والمعري وغيرهم باب الشك في « جاحظيته » ثم في كتبه ، فبعراً ابن سينا على القول فيما بعد :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

كانت حياة ابن سينا (عريضة قصيرة) كما كان يقول انه يريد ، وكانت حياة الجاحظ طويلة عريضة ، وكلاهما خلف لنا تراثاً ضادياً خالداً ، فمن الانصاف ان يسوّي العراق بينهما في التكريم والإجلال .
أليس الأقربون أولى بالمعروف !

زيارة شاعر

صافحته مرحباً ونفسي تقول لي انه المتنبي ، فصعدت نظري فيه وصوبته ،
وقلت له : كن أبا محسد ، فأجاب : أنا ذاك . واجمال نظره في مكتبي ثم
استوى على امثل كرسي .

قلت : منذ شهر وأنا اتلفن إلى الجنة ثلاثاً ، كل يوم ، فلم يجيني أحد لا
رضوان ولا بطرس . وتلفنت إلى الجحيم فأجاب مالك ليس عندنا من اسمه أبو
الطيب ولا المتنبي ، ولا أحمد بن الحسين ، فضربت لك الكائنات كلها ولم يأتني
نبأك ، فمن أين هببت ؟ بحياتك تقول لي ؟ !
فأجاب بصوت يكاد لا يسمع :

وهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

قلت : إذن لا جحيم ولا نعيم ، وأنت بين بين ..
فبسم كالساخر وقال : اما فرغتم بعد من هذه المعضلة ؟ عدّ عن ذا ..
فقلت بعد صمت يسير : كيف نجدك بعد ألف عام ؟
قال لا أحمد الله على شيء .

قلت : ولا تقول ان شاء الله ..

ففطن لها واستضحك قائلاً : وكيف أنتم ؟

قلت : كما وصفتنا منذ عشرة أجيال بقصيدتك : أحق عاف بدمعك الهمم ..
وجعلت انشدها حتى أتيت على خامس بيت ، فزفر ، وامسكت . وخفت ان
يبرح بغته فقلت له : من غرائب الاتفاق ان تحتفل بيروت وباريس بيوم واحد

في ذكرى شاعرين كلاهما شغل الناس .
فكسر عن أسنانه وأجاب : ولا فرق بين الذكرين ، ذلك تحت قبة المجد ،
وأنا تحت المصابيح الحمراء ..
فظننته يزل فقلت : وأين تريد ان يضموك وأنت القائل :

كم قتيل كما قتلت شهيد	لبياض الطلى وورد الحدود
بترشفن من فمي رشقات	هن فيه أحلى من التوحيد
كل خصانة أرق من الخمر	بقلب أفسى من الجلود

أوتطمع بعد هذا ان تكون بين الكنيسة والجامع !
فنظر إلي نظرة كادت تقتلني .. وكان سكوت .
وحضرت القهوة فحساها بعد امتناع ، فاستعطاف . ورأيت الأجل ان
نكسب عن هذا الحديث فقلت : أترى أعمى المعرة في جوكم ؟
فأجاب : نحن الشعراء لا نعرف إلا من تقدم ، أما من تأخر فيعرفنا ولا
نعرفه .

قلت : تعني ان المعري امتضاء بنورك ، وفصل ما اجملت .
قال : وأقول أني لا أزال نهياً مقسماً للشاعر والشويعر والشعور منكم .
قلت : ان في لسانك أثراً من كل مصر .
قال : الا تذكر قولي : أبداً أقطع البلاد ..
قلت : واليوم ، أين بيتك ازرك في ديوانك ؟
قال : أما منزلي فكما علمت ، وأما ديواني ففي دواوين شعرائكم .
قلت : ما عانيت هذا يا أحمد .
فامتعض لأنني لم اكنه ، الا انه ابتلعها وقال : بلى وأكثر من هذا تعني .
فانجز الحديث وقلت له : حقة يا أبا الطيب لقد نهجت نهجاً جديداً في الشعر
العربي وقلت كلمات لا تقنى ، ابصرها العميان واسمعت الصم .
فانتفش وطابت نفسه ، فقلت : ولكن . - وحدقت اليه فاذا الغمامة

تنشر مطارقها - ولكن لو .. لو نظمت لنا ملحمة عربية كشاهنامة الفردوسي
لتم أدبنا كما يزعمون .

فحك صلته واتسعت صدقته ، وانتظرت الجواب فقال بعد اطراق : ما
عرفت شاعراً اسمه الفردوسي .

قلت : ولا أبا القاسم ؟

قال : أعرف كثيرين ولكن بلا شاهنامة . ثم زحزح كرسيه وأقبل علي
وتوكأ على الطاولة حتى واجهني وقال : الشعر يا أخا العرب ، عسجد يضرب
نقوداً على السكة الرائجة ، فلو قامت لكم سوقنا فعلتم فعلنا .

قلت : ولكنها دنائير تفر من البنان .

فتعالى وقال : أقرأتها جيداً ؟

قلت : مرات .

قال : إذن أنت تدرك اننا نبز الشعراء لو قلنا مثلهم .

قلت : نعم يا سيد المتقدمين والمتأخرين ، ويا عظيم شعراء الأرض قاطبة .

قال : كنت تحدثنا بهذه اللهجة ، من قبل ، فتطيب نفسنا ، فومن نفسي
بيده كنت ظننتك الصاحب بن عباد .

قلت : لا أحكم فيه شططاً ، فوالله العظيم لولا انك تستعنتها لما سمعتها
مني وأنت المتنبى .

قال : انك تغيظ الناس وتحفظهم عليك ، يريدون الثناء من فم قرينة وأنت
تقطره تقطيراً .

فقطعت عليه الكلام وقلت : أما سمعت حسين هيكل يغفر لك بلسان
مصر هجوك اللاذع ؟

فانتفض وقال : وما ذنب الأمة فاهجوها ، فوالله ما كنت إلا عرضاً لها
على ذاك العبد الخصي .

قلت : فلندع ذا ، أعرفت لبنان قبل العام ؟

قال : عهدي به بعيد ، وكان ذلك في الشتاء .

قلت : إذن أنت تستحق شكر لبنان .

قال : وعلى ماذا ؟

قلت : على هذا ، أما ذكرته ؟ وحقك لو دروا بوجودك لمنحوك وسام الاستحقاق اللبناني الأسمى .

قال : وما الوسام ؟

قلت : سبيكة صغيرة من النحاس أو الفضة أو الذهب .

فهش ، يا سبعان الله ، عندما ذكر الذهب .

وكرر في الضحك إذ درى ان الوسام يشك في الصدر .

وخرج التلاميذ للتنفس ربع ساعة ، وكان من دروس يومهم : لا افتخار إلا لمن لا يضام .. إحدى فائتات المتنبي ، معشوقة الملك فيصل رحمه الله ، فأخذوا ينشدونها أجواقاً ، بصوت جهوري لتعلق في أذهانهم ، فانتفض المتنبي فجأة وبرز لهم من الشرقة .

فما أبصرنا التلاميذ حتى صاحوا بلاء أفواههم : يعيش الشاعر العربي ، يعيش يعيش يعيش ، وهم يظنونهم معروفاً الرصافي ، كما صورته الصحف في عباته وكوفيته وعقاله .

أما المتنبي فأخذ يخنثني - كظل صموئيل من وجه شاول بعد ما احضرته هرافة عين دور - وممعناه يردد في الفضاء :

وتركك في الدنيا دوا كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

قَادَة ذَهَبُوا

الأب هنري لامنس
عمر في يومه الأسود
في ذكرى عمر
الموسفيور فقالي
فؤاد سليمان الأديب والشاعر
خسة في عام واحد
ابراهيم عبد القادر المازني
المنقلاوطي ورسالة الفقرا
أبو الفضل الوليد (الياس طعمه)

الأب هنري لامنس

المستشرق البلجيكي اليسوعي

« لا حاجة الى ان نبين لقرائنا ما بنجم
من الفوائد الجمّة من تشكيل جمعية تاريخية في
سورية كما وصلها الأب لامنس ، بسبل يأخذنا
المعجب من عدم افشائها حتى الآن ، لا سيما ان
بلاد الشام من الأقطار التي توقرت فيها الآثار
التاريخية . ونحن الاوربيون نبني املاً طيبة على
جمعية تاريخية يكون أعضاؤها شرقيين لأن
أبناء البلاد يتألمون بزمان قليل ما لم ينله الغرباء
بعد الجهد الجليل ، وإذا تشكلت هذه الجمعية
بادرت الجمعيات الاوربية الى مكاتبها فتقوى
بذلك على اتمام مشروعات علمية ذات شأن
خطير . »

الدكتور ج. كمبفاجر
مستشرق الماني

تواري وجه الأب هنري لامنس في ظلمة القبر فانطوت صفحة مجيدة من
محملي تاريخنا المجلد ، وآثارنا الدالة على من ملكوا هذه الطرق قبلنا .
كان لامنس لا يصيح ولا يماحك ولا يطفي سراجاً مشعلاً . حياة كلها عمل
لا تعرف الملل ، وعزم لا يفله الكلل . لقد ترك فيما كتبه هذا العلامة المفكر
منارة للتائهين في مجاهل التاريخ ، يقرأون على ضوءها الوهاج سطور المعضلات

المبهمة ، ويفكون اختام الأمس . عاش الرجسلى مجرداً عن الأهواء ، وكتب منزهاً عن الغرض لا يتعثر علمه بدينه ، فمات بريء الذمة .

حرث كرم ربه من الصبح إلى المساء ، واشتغل من الفجر إلى العتمة ، فاستحق دينار ربه حلالاً زلالاً . لقد ترك آثاراً تدل عليه فلننظر إليها باحترام واجلال .

لقد أحيا الأب لامنس آثار لبنان ، فعلى لبنان ان يمجده .

لقد أحيا لامنس صفحات مجيدة من تاريخنا العربي فلنكتب اسمه في امثل صفحة من هذا التاريخ .

كان لامنس ضيفنا ، ولكنه ضيف فعل ما عجز عنه رب البيت . فلنتعاون على تكريم ذكرى هذا الضيف الذي لم يحسب قط انه غريب . فمئذ أربعين عاماً كتب « هيا بنا على درس تاريخنا » ثم درسه فأحياه .

أرأيت هذه (النا) في تاريخنا ما أعذبها وأحلاها في ذلك القم الطاهر . لقد انطق لامنس خرائب لبنان المبعثرة ، وخلق من صخورنا الأرملة لساناً فصيحاً يخبر بأعمال السلف ، وجعل من قلمه دعامة تقيها الانهيار ، ولكن يد الجهل محت كثيراً مما ابقى يد الدهر منها ، إذ لم تتحقق فكرة الأب لامنس بتأسيس جمعية وطنية قصونها . (راجع كلمة الدكتور كعبفهاير) .

ان لبنان يا لامنس ، بقلاعه وحصونه ، ومعاقله وكهوفه ، بكنايسه المسيحية ، وهياكله الوثنية ، من قرن رأسه إلى كعب رجله ، من الشمال إلى الجنوب ، يذكر وجهك الصابر على معارجه وأوديته ، وجباله وقممه ، وهو يقف اليوم حيال قبرك يرثي ذلك الجهاد الصامت والثبات الباش .

حدثتنا في ما كتبت عن آثارنا كأنك ابن عمنا ، وواحد منا ، وقمت تحثنا على حفظ آثارنا ، وتقرئنا سطور أمجادنا بالمدل ، فليشاركنا اليوم في تمجيد ذكرك من أرخت معابدهم ، وانتزعت ذكراهم من قم العوادي .

ان ابني بلدي ، أدونيس والزهرة ، يشيان معي في موكب مجدك فهل

تقبل تمجيدهما لك ؟ لست اشك في ذلك ، فأنت عشت للتاريخ ، والتاريخ لا دين له ، وهما من أبطاله الخالدين . هما بطلا الأساطير اللبنانية العالمية ، انعشت سيرتهما الحياة العقلية زمناً في هذا الجبل الذي سرحت بصرك في آثاره ، ثم شاء ربك ان تنام على ساحله الضحوك تناجيك نجومه الساهرة وشمسه المتجردة ، فتم بأمان الله يا لامنس .

لومات لامنس في غير لبنان لتولت الحكومة دفنه ، ولو كان راهباً . ما كان لامنس للآباء اليسوعيين ، وحدهم ، بل كان للبنان ، وللعرب أجمعين . فمن لنا بأمة تعيده مثلاً يذكرنا بأياديه البيضاء على تاريخها المجيد . ان لامنس أحياء الأمة وآثارها فلتحتفل الأمة على الأقل بذكره .

أين أنتم يا هواة الأدب ! ألم تعينوا بعد تلك الساعة التي تجتمع فيها لتعظيم رجل خلق العظمة من صخورنا ، والمجد مما غربه ولا نشعر بفخامته ! ففي مفرق كل قمة من قممكم تاريخ شعب هذا كم اليه لامنس .

لست ادرس الآن ما تركه هذا الكاهن من آثار ، ولست انقد واحل ، فأنا لم اقرأ من آثاره الا ما نشر في بيروت ، ولكن هذا يكفي لأكتب مقرأً بفضل رجل على أمة منشورة تحت سماء الله الواسعة . فهل يضيع فضل رجل في أمة شيمتها عرفان الجميل ؟ اللهم لا .

اننا لا نتصف الأب لامنس إذا لم نعرف عن شعورنا نحوه بأثر فخم يذكرنا بفضله علينا ، وهذا أقل ما يجب نحوه هذا الراحل الجبار . فلهوا يا أصعابنا الى احياء ذكرى علامة جليل . أيموت رخيصاً من أنفق أغلى ما يملك على درس بلادنا دراسة عميقة هي ذخيرة لنا ؟ فهذا الفقيد العظيم متمشوق فاهم ، وليجز الله عنا العلماء الفقهاء ، فهم سرج الأزمنة .

عرفت لامنس في وادي عين كفاح الرهيب . عرفته يوم كان نشيطاً يفر مثل الطوير ، ويتسلق جبلنا « العاصي » ليصعد إلى الكهف الأشدق ، ليكتب عن « دير القطين » ويصف « سيدة البزاز » تسريح الأبصار ج ١ ص ٩٢ .

كنت يومذاك فتى لا أعرف عن لامنس الا انه « بادري » كما قال لي معاز الضيعة . ولامنس لم يلتفت إليّ إلا مرة لبأخذ عني اسم الدير والكنيسة كما يعرفان . وأنا ما كنت اطمع منه الا « بصليب وايقونة ومسيحة » ولكنني لم أظفر بشيء ، غير تحزق ثيابي ، فعدت إلى الضيعة ليضحك مني رفاقي ، وانمت أنا هذا البادري بالبخل . ومنذ تلك الساعة لم أرَ وجهه قط ، ولم أعرفه فيما بعد الا من صورته المطبوعة لا أذكر أين .

وجاء بعده بادري يحمل مطرقة يكسرها بالصخور فلم أذهب اليه بعد خيبي الأولى ، وأظنه زمتوفن الجيولوجي .

فهل حمل لامنس على صعود جبالنا ودخول كهوفنا الخيفة غير خدمة العلم ؟ فلننهض اذاً جميعنا لتكريم العلم والعلماء المخلصين بشخص هذا الفقيد الغالي .

انني أوجه كلمتي إلى الذين عرفوا لامنس ، ومن منا لم يعرفه ! من منا لم يقرأ شيئاً من فصوله الرصينة ، وكتبه الثمينة التي تلقي الأشعة الثاقبة على ظلمات تاريخنا . انني أوجه كلمتي خصوصاً الى ادباء الشباب الذين ميرونا معيناً أصفى من عين الديك في آثار لامنس ، فقد عبّد لنا الطرق القلقة المجاز ، فلنتذكر جميعاً هذا الغريب الذي أحب بلادنا حباً جماً ، ومات تحت سمائها . فلنجعل ذكره ممجداً .

أنا عالم ان شعار لامنس كشعار رهبانيته « المجد لله الأعظم » فالله نسأل أولاً ان يحزي من عمل المجده ، ثم نسأل الناس ان يحملوا قسطهم من الجزاء « الغاني » تشجيعاً للأحياء واعترافاً بفضل المحسنين .

عمر في يومه الأسود

لا أظنني أمنح عمر فاخوري ومساماً بعد الموت إذ اكتب عنه هذه الكلمة المغمومة . لقد تناولت عمر في ما مضى جملةً وتقارباً ، والعهد بآخر كلمة غير بعيد . كنت فيها مصوراً ومقارناً وباحثاً جهد الطاقة .
لست آسف على سنوات عجاف يعيشها عمر ويمشي فيه أدبه مشية السرطان في بدنه . لقد أحسن القضاء صنعاً إذ جذب ثوبي الطوال المرخي وأراح عمر من بقاء هو فيه .

عليل في مكانسين من الاسقام والدين

ما قال الجاحظ عن نفسه في آخر العمر .

عدت عمر أول مرة فخلتني أمام مومياة تحدثني ، فارتعت ثم تجلدت لثلاث أريعه ، ولعله قد رأى ذلك في وجهي حتى قال لي : وجهك أصفر !
فاجبته : الدرب طويل ، والسلام عال ، وأنا ابن ستين ، فاصبر عليّ قليلاً بعد جهالي الهارب !

فابتسم ابتسامة دميمة جداً وقال : تنهك عليك إذا لم تجد واحداً غيرك ..
فقلت : ما وجدت ترياقاً لسم الحياة أشقى من الهزة بها وبنامها ..



رأيت اليرقان قد خلع على عمر كل ما عنده من زعفران ، فسأله عما به ، فأجاب بعد سكوت لا أجد له نعتاً : قلة العافية ، وعناء الحمية . الغمرة انجلت ، ولكن ..

قلت : دعنا من لكن . السلامة غنيمة يا أخي .
فأطرق ولم يجب ، واطرقت مثله ألوم نفسي . وطال السكوت فقلت له :
مق تعود إلى عشك ؟
فأجاب بهزء شفتيه ، فعلمت ان للبرقان احلافاً تشد أزره في حرب عمر . ثم
مشى بيننا حديث متقطع ، موجع ، انصرفت على أثره بأمل قصير الخطى .
وبلغني ان عمر عاد من عند أمه ، فهرعت لاهنثه بالسلامة فقالت لي الخادمة :
معلمي في السببتال .
فقلت : والست ؟

فأجابت : معه . فكملت طريقي إلى المستشفى الاميركي فلم أستطع
مقابلته . وتلفنت مراراً اسأل عن صحته ، فكان الجواب برداً وسلاماً .
ثم فصل بيني وبينه الصيف ، فما ضيعت اللبن فيه . وعاد عمر إلى بيته فبعثته
مستكشفاً ، فرأيت له لا حياءً يرجي ولا ميتاً فيسلى . وتسقطت رأيه في نفسه
فوجدته عريض الأمل ، كبير الرجاء . وقعدنا حيث اعتدنا ان نجلس فلم يشك
عمر الداء بل شكا سوء الحال وقلة الوفاء .

رجونا ان يكون سفيراً أحمر فاذا به يمسي شهيداً أخضر . . وتباحثنا الغد ،
فاذا بصاحبي متبرم ساخط . تعاون عسره ومرضه على هيكلة الواهي . عاف
عمله في الاذاعة انتصاراً لوطنه فذاعت القلة في كيه ، وخسر موردين :
الاذاعة وكلية الآداب ، واثقل دينه ظهره . لم يبق له غير جرابية وظيفته
الحكومية وهي لا تسد ثغرة العقاقير ، فاضطر إلى بيع أعز المقتنى ، وكانت
مكتبته كبش المحرقة .

قال لي : غداً - وغداً بمعناها اللبناني الواسع - ادع كل هذا وانصرف إلى
العمل حراً .

فقلت : وما نويت ان تعمل ؟

قال : أعود إلى الهاماة ، واعلمّ معك إذا اقتضت الحال .

وحدقت اليه لعلني ادرك عمق يأسه ، ومدى ألمه ، فرأيت بريق زجاجتيه
قد تضائل ، وزيت قنديله قد شح فقلت له : يا قليل العقل ، تعود إلى الحمامة
والتعليم بعدما خيمت في الشاطئ ، يا أبا منذر ؟

فانفجرت شفتاه زهاء ميليمتر ولم يجب .. فقلت له : كفاك الله شرهما
يا عزيزي ، فالذي لم يسهل عليك عمله شاباً يعتاص عليك كهلاً . أما سمعت
قول المثل اللبناني : بعد ما كبر وشاب حطّوه في الكتاب ؟
قال : ولم لا تقول شيئاً ؟
قلت : لكيلا اصير أنا هرماً .

فضحك ضحكة فزعني .. ليس بينها وبين ضحكة الهيكمل العظمي فرق
كبير .

كان عمر قليل الكلام معافى ، فكيف به وقد هدّ حيله اليرقان ، وله كبـد
مقروحة ، لا يبيعه أحد بها كبداً ليست بذات قروح . كان يعاني مرضاً كالنعاس
هدّ ولا يؤلم .

وثنيت هنان الحديث صوت النوادر والفكاهة فوجدته لا ينشط لها ،
فعدت إلى دار المكشوف أحدث صديقنا الشيخ فؤاد حبيش عن الخطر العتيد .



وفي خـطرة ثانية سألت الشيخ الحبيشي عن حال عمر فقال لي : بخير ، كان
هنا . فقلت في قلبي : إذن ما أبعد الموت عنك يا مارون ، ان صح عمر وسلم .
وذهبت اليه لاهنّه بالسلامة فوجدتني أقول . عفواً : لا تخدع نفسك ، توق
ما استطعت . ما أراك كما اشتهي .

فأجاب ، ما كنت يوماً في حياتي كما تروم أنت .. أحس أنني التحسن ، ولا
أدري إذا كنت أبلغ المرتبة التي أجلس فيها أمام قدح من عرقك المثلث ،
وخرتك الدهرية .

فقلت : الله كريم ..

ونظرت اليه فخلتني أرى ملامح رجل من وراء برقع ، وانتي أمام شبح
يمثل عمر . وقرأت ان أحدهم حمل إلى عمر وسام الاستحقاق اللبناني فقلت :
ولم هذه العجلة ؟ خامرتني ريب فيها فسألت أصحابنا فقالوا لا ، ولكنني رجعت
إلى نفسي وقلت : انه قال غير مليح ..

وعدت من « فرصة الربيع » ومعني لأخي عمر شيء من تلك التي شبه بها
سليمان حب الشولية في نشيد انشاده . وما وضعت الأثقال لأفعل ، كما قال
الأخطل عن قطار فلسطين ، حتى حمل إلى الأثير صوت الأستاذ رثيف خوري
يؤن صديقنا عمر . فضربت المكتب يجمع يدي وهجم الدمع إلى الحدود ،
ولكنه لم يتجاوزها ، كعادته في المصائب الجلتي .

ان حصة عمر محفوظة وستبقى مختومة على « السدة » ولا ترى النور إلا
حين نشرها في عين كفاع مع اخوان عمر واصدقائه ، صانعين هذا لذكر كاتب
عظيم مات .

سنصنع هذا الذكر . ركن من أركان هذه النهضة ، لذكر موظف عاش
وظيف اليد والجيب . ما مد يده قط ، ولا اشتى مقتنى غيره . عاش لا يفصل
بينه وبين الناس ذاك التعفص الذي يتنكر به بعض الأدباء والمتأدبين لأصحابهم
مق وظفوا .

كان لا طائفاً ، ولكنه لم يتشدد يوماً بدم الطائفية كأصحابنا الأشد
تعصباً من الكهان ، ثم يتفانون غيرة على الأوطان . كان عمر لا يصيح ولا يماحك
ولا يداهن ولا يصانع ، فظل حيث هو لأنه لا يحسن المداجاة والمصانعة
والمداهنة ، لأنه أبي ثابت يزدرى المنافقين والزنادقة الذين يكرون مع كل
خيل مغيرة .

ترك ما ترك من موارد رزق تعصبا لبلاده ، وانتصاراً لها ، ولم يشعر أحد
بما صنع ، ولو فعل ذلك غيره لاقام الدنيا واقعدتها .

عاف موارد رزقه وعاش مكثوراً عليه ليتضامن مع بلاده . فعل كل ذلك

صامتاً لأنه ليس من الذين يحملون من الحبة قبة ، ومن القبة جبة .. لأنه من غير الذين يحمزون كالبابيط في حقل المراتب ، ويدعون على جثث اصدقائهم ليرتقوا درجة ويكسبوا ليرة ورقاً .

ان هذا الاستطراد يجرني إلى الكلام عن شخصيته . لم يكن عمر حسوداً ولا حقوداً ، كان على ما فيه من شمم واثاء لا يزهد ولا يتكبر . كان محباً وإذا ابغض اعرض وازدري ، وخرج بالصمت عن لا ونعم كصاحبه بشار .

كان فمه نظيفاً لا يتبذل حتى في المجالس الخاصة التي كنا نعطي فيها المرح حقه . فكان يقابل تلك النكات الصارخة بربيع ابتسامة ، ويشارك بكلمات كان يستعد لتأديتها استعداد طالب غير واثق من ذاكرته .

ولم يكن عمر عدواً في ثياب صديق ، ولم يكن من الذين يقتلون الرجل ويمشون في جنازته شاقين الجيوب حزناً على الفقيد الغالي . أما في الأدب فكان مؤمناً ولكنه غير ممارس الطقوس المنظمة . يصلي لآلهة الفن بما يدور على لسانه .. لم يكن أديباً محترفاً بل كان أديباً هاوياً . كان كسميه الشاعر عمر ، غفر الله لهما ، موكلًا بالجمال يتبعه . كان لعمر بن أبي ربيعة ، لذة النظر ، كما زعم ، وكانت لعمر فاخوري لذة العمل الفني ، وما معشوقاته غير الكلمات اللواتي يؤلف بينهن ولا يجعلهن ضرائر .. أروع بالجديد ولم يتنكر للقديم فكانت من خير من كتبوا بلسان العرب من المحدثين .

وأخيراً مات هذا النسر وعينه إلى القمة ، لم ينظر قط إلى الأوحال التي يتمرغ بها بعض زراير الأدب .

لا أقول ان خسارة الأدب العربي لا تقدر أو لا تعوض ، فحسب الذريسة ما تركه لها عمر من نماذج ، وقد لا يصنع أجمل منها لو عمر كتوشالغ ..

في ذكرى عمر^١

لقد اشبعت عمر درساً في حياته وبعد مماته . أما الآن فسانحدث اليكم كما يطيب لي ان أتحدث ، ولعله يطيب لكم .
أفلا يعنيانا من الأديب غير تعبيره وتفكيره ؟ فأين نحن من أخلاقه ؟ السنا أحوج إلى هذا منا إلى غيره من الخصال ؟ !

مساكين أهل الفن ، حتى قبورهم عليها تراب الذل دون الخلائق .
اسرجوا الخيول ، واقرعوا الطبول . أي خيول يا سادة ؟ خيول الفكر لتجلسي في ميادين الورق ، وطبول الخطب لتقرع في حفلات التكريم والذكرى ، مسكين الأديب . يعيش على الكلام ويموت على الكلام . فكل ما يُعمل للأدباء عندنا هو من بضاعتهم تلك : « حكي بحكي » ، والذي مات بداء الحكي غماً نحاول ان نحياه بالحكي ، ثم نعد هذا خلوداً .

خلود ، نعم . قال جبران : يقولون لن تعرف قدرك حتى تموت . لقد اصابوا . فمن يا ترى يعرف طبيعة البذور التي تطرح في الأرض قبل ان تنبت ؟ هذي غير تلك يا جبران ، وأنا لست على رأيك في هذا القول . لا أريد ان أموت ليعرف الناس قدري . فيوم حلو جميل ، وأمسية أو عشية نتمتع بها بمثل هذا الاجتماع بكم يا سادة ، يسوي ألف خلود أدبي بعد الموت . وما هذه الآمال والأمانى الا تعلقة البائسين ، وجلهم من الأدباء .

١ - القيت هذه الكلمة في دار المكتبة الوطنية ببيروت .

هذه علكة كالتى يلهون بها الأولاد عن أكل لباب اللوز حين يستأجرونهم لتكسيرة . ما لنا ولهذا الخلود الكاذب . أنعيش فقراء منكوبين يحيوننا ؟ أينعم بخيرات الأرض لننعم نحن فيما بعد بحفلة تكريم ؟ أليس كل راحل عظيماً ؟ أليس كل ميت عبقرياً ؟

أنا لا أقول ما قاله الحجاج : والله ما أحب ان ما مضى من الدنيا لي بهامتي هذه . يظهر ان عمامته تلك كانت ارتى واعتق من عمامة نقولا الترك التى سأل الأمير بشيراً ان يعتقها مع ذلك الشر وال ..

وبعد فلنفرض أن أديباً عظيماً مات ، فمن يشمر بموت هذا الأديب غير المصابين مثله بداء الكلام ؟ يموت رجل وارم الكيس ، منتفخ الصندوق ، فتتهتز الأرض بالطول والعرض ، حكومة وشعباً . ويموت الأديب الألمى فلا يشيعه غير جيرانه واخوانه .

وبعد هذا ، ماذا ؟ اسمعوا . علينا ان نقيم لنوابغنا آثاراً مشهودة لنحث شبابنا على اقتفاء آثارهم ، فقد كادت لحية لبنان ان تنصل . علينا ان نعزز الأديب حياً ليقتردى به النشء ويكون للوطن غيره ، والا انقطع النسل الأدبى . فهذا الأديب العظيم الذى اجتمعنا لاحياء ذكره الليلة ، أتمرفون ماذا حل به قبل لفظ روحه ؟ لقد مات معوزاً وكفى ، وما يوم حليلة بسر . فلننتقل إلى أدبه .

قرأت ، بعد موته صفحة من انشائه فكدت انكرها لو لم يثبت لي ذلك خطه . تسمعون ، ولا شك بالعملية القيصرية . هكذا كان عمر يضع مواليد . اثنان كانا مقلين مجيدين : جبران وعمر ، وكلاهما كان صائفاً متأنقاً ، وقد عرفت ذلك أثناء اطلاعي على مخلفاتها التى لم تبس كمخلفات الجيش .

كان عمر صريحاً لا يوارى ولا يوارب ، وحسبك منه قوله : « فاذا بما يفيض من عبقرية جبران يروي بطاح المستقبل ، بينما عبقرية شوقي مسفوحة على مضاب الماضي . وشوقي من الشرق وجبران من الغرب ، فلا يلتقيان إلى يوم

القيامة . ويغلب على الظن ان الشرق سيظل كامرأة لوط ، في موكب الزمان ،
ناظراً إلى وراء فيمسخه الله صنماً من ملح ، أي من دموع جوامد ، على حد قول
اندره جيد الذي يزعم ان لوط ضاجع ابنتيه في احدى منعطفات التاريخ ، وهو
ناظر إلى المستقبل .. »

أجل ، كان لعمر فصول ولكنها روائع حقاً لأنها ملك صاحبها ، وعليها
ماركنه المسجلة .

اما وقد انتهيت من عمر ، فلا بد من كلمة دعت اليها الحال . أما حان
للأدباء ان يدعوا الشكوى ؟ فاصحاب ارميا كفوا البكاء ..

الأدباء من المواطنين ، ولهم على الدولة ما يطالب به كل مواطن منكوب
بزلال ، ولهم اسوة بمن ذهبت الثلوج والعواصف بموزه وليمونه ..

الأدباء دعاة الأمة ولهم على الدولة ما له عليها كل رجل من رجالها . فاناشد
الله مَنْ يعينهم الأمر ان لا يتركوا الأديب حتى يموت ليتبرعوا بتجهيزه ..

ان يوماً هائلاً على وجه الأرض لخير من كل ما يعمل له وهو في بطنها . إذا
ذهبت النفس فلا أسف هل الجيفة .

وأنتم أيها المحتفون ، بذكرى عمر ، هلموا بنا نعمل أثراً يحيي ذكرى عمر في
غير هذه القاعة أيضاً . اخرجوا « الأديب إلى السوق » فينعم بمشاهدة أبطاله .
لقد كثرت ضيوف المكتبة الوطنية ، وانني لأخاف ان تضيق صدورهم يوماً
فتعلمو صيحتهم ، ويتكلم كل منهم على هواه ، فما يفهم الحداث الا التراجم .
فهبوا بنا نخرج الخالدين إلى الهواء الطلق .

رحم الله من سمع ووعى ، والسلام عليكم .

المونسينيور فغالي

في مدرسة أكثر من متواضعة ، نشأ المونسينيور مخايل الفغالي حيث نشأ قبله ، أخوه المطران بطرس . تلك المدرسة الصغيرة الجائئة على كتف جسر المدفون ، في مزرعة اسمها كفر شعي ، كانت ملعب صبانا . كان نخلة يوسف - أي المونسينيور فغالي - أكبر مني قليلا ، فكنا صديقين صغيرين ، وعشنا كذلك كبيرين ، والرأي مختلف ..

لا تبارح مخيلتي صورة صديريته الديما - من حياكة فغال - ذات صفين من الأزرار الزجاجية الرخيصة . ولست أنسى شراويلنا البيض المصنوعة من المقصور ، وكانت بذلة الأحد والعيد غنباراً من الجوخ الرصاصي شتاء ، ومن الحريو المهاك في بيت شباب أو السقي كروزا صيفاً . أما اللباس الفرنجي فلم يكن له أثر .

كان يرعانا ويعلمنا كاهن جليل اسمه الخوري مارون شكور ، وهو ابن كفر عبيدا ، ضيعة نخلة يوسف . كان معلمنا ، رحمه الله ، عارفاً بأصول العربية معرفة دقيقة ، وبارعاً في « الليشيات » أي لماذا رفعوا اسم كان ، ونصبوا اسم ان ، مثلاً . فكان يحملنا من تلك الأثقال ما استطاع لا ما نستطيع .

وكان نخلة يوسف في الصف الأعلى ، فكنت استفتيه فيما يشكل عليّ من مسائل ، وما يفوتني من « درر » الليشيات . وكان صديقي كريم الأخلاق لا يستثقل ان يحجب على اسئلة طالب في الثالثة عشرة . لم أكن في ذلك المهد أحسن درس الأخلاق ومع ذلك كنت اعجب بهدوء نخلة يوسف ورزاقته ،

واحاول ان اترصن مثله ولا اقدر .

كانت ابتسامته حائرة ولكنها صافية خالية من كل معنى الا معنى المحبة .
وكان قدوتنا في اجتهاده ، فلا يخلو من كتاب ، ان لم يكن في يده ، فهو
لحت ابطه أو في جيبه .

ومات في تلك السنة - ١٨٩٩ - البطرك يوحنا الحاج فهب شعراء المدرسة
يرثونه ويتفجعون عليه ، خائفين على الطائفة بعده .. وانتخب المطران الياس
الحويك بطركاً ، وكان هوى رئيس المدرسة - الحوري بطرس بوصعب - مع
المطران ابي نجم فغمرت المدرسة موجة يأس وخسرة (الفادوس) ثم كانت
الرضى والتسليم فاقترح معلمنا وراعينا ، على الشعراء من كبار التلامذة ، ان
يهنئوا صاحب الغبطة الجديد ، فقال الكثيرون منهم شعراً . قال معلمي الأول
طنوس حنا الياس من عين كفاح :

قد مدت يا بدر السعادة والهدى وبدا ضياك لكل مغور فاهندي
وقال الحوري مارون شكور ، مدرس البيان في مدرسة مار ساسين فقال :
أحن الى النظم الرقيق توددا وقلبي بحب الغيد لن يتقيدا
وقال نخلة يوسف كفر عبيدا :

الا أيها النشوان من خمرة الذعر افق لا تخف أمتت من نوب الدهر
هذا هو المونسنيور فغالي في مار ساسين فقال . وافترقنا سنة ، ثم اجتمعنا
في مدرسة مار يوحنا مارون الاكاريكية . وهناك في الغابة التي تلف دير
كفرحي التاريخي جددت مع صديقي نخلة يوسف ذكرى سديانات مدرسة مار
ساسين فقال . كنت كهوت قليلا وأصبحت أقدر على ادراك معاني الحياة
فصارت عشتري ألد . كانت لنا حركات تستفز الأساتذة وتضحك التلامذة ،
فكان المرحوم نخلة يفوز من حركاتي بالغتم وافوز أنا بالغرم .

لم أكن أبالي بما عند جبابرة الأساتذة من بطش في سبيل توطيد عرشهم ..
خاطروني مرة في مدرسة مار ساسين على التدخين في قاعة الدرس فدخنت .
وكان الجالس سعيداً على عرش « المناظرة » حنا الخوري حاقل - الخوري مخايل
الخوري ، كاهن رعية مار مارون ، في بيروت سابقاً - فانزلوا بي عقاباً شديداً .
أطعمت الخبز اليابس راكمأ في المائدة ، مدة اسبوعين فقط ، ومع ذلك لم أثب
فتركت في مار يوحنا مارون قصصاً خالدة ..

وأخيراً صح الصحيح ولبى صديقي نخلة دعوة نعمة روح القدس التي لم تحل
عليّ .. فبعثوه إلى فرنسا حيث انتم دروسه الاكليريكية . وهكذا حدث عن
ذلك الدرب وافترقنا . ثم اجتمعت به بعد الكهنوت أكثر من مرة ، وتبادلنا
« النظريات » في حياتنا ، وكان آخر اجتماع في مكتبي بعاليه . جلسنا ساعات
نتذكر الماضي ونستعرض شريط حياتنا الماضية ، فعشنا بها هنية .

كان صديقي غير مغرور ، فرأيته بحلاه الذهبية من سلسلة وصليب وخاتم ،
وأزرار حمراء ، أكثر منه تواضعاً في صديرية الديما ، وشروال المقصور . لم
يتغير فيه شيء غير علمه العميق ، وثقافته الواسعة . قد زودت طلاباً كثيرين
أمتوا فرنسا ببطاقات توصية فكان يحسن استقبالهم في باريس ، ويمد لهم يد
المعونة غير مدخر شيئاً من وسعته ، فيمهد العقبات التي تقف في وجوههم . كان
يقابل كل لبناني وسوري ، على اختلاف الملل والنحل ، ببشاشه وعناية ، فكان
كما قال مار بولس : صرت لكل حتى أربح الكل .

لندع الآن نخلة يوسف ولنقل كلمتنا في المونسنيور فغالي . كان هذا الكاهن
الفاضل نموذج البساطة اللبنانية في حركاته وسكناته ، وفي أساليب حياته . لم
ينصل لونه اللبناني في الغرب ، فرغماً عن تزييه بالسمت الأوروبي كنت ترى
سيما كهنة لبنان في القرن التاسع عشر بادية على وجهه النقي وهو أحد الذين
شرّفوا لبنان في الغرب ، وبنوا مدماكاً بارزاً في صرحنا العلمي العالمي .
فالمونسنيور فغالي ظل لبنانياً حتى في لهجته وحديثه . رأى منه الغرب لونا

لبنانياً لم يعرفه من قبل . عرفهم بلغتنا اللبنانية العامية الفصيحة ، المنفوخة فيها الروح اللبنانية ، وحسبك كتابه المعنون لهجة كفر عبيدا .

كان رحمه الله عالماً بالآداب الشرقية والمغربية ، عارفاً لها كل المعرفة . علم لغة العرب وآدابها في كلية الآداب ببوردو ، وفي مدرسة باريز الوطنية للغات الشرقية الحية ، فأحيا ذكر نوابغنا الذين كانوا أساتذة لغة الضاد ينشرونها في أربعة أقطار المسكونة .

قد أريتك في مطلع كلمتي انه قال الشعر عربياً ، لتعلم انه رجل خدم وطنه ولغته . فاذا ذكر القروم منا كالسمعاني والتولاوي والحاقلاني وغانم وغيرهم حق لنا ان نضيف الخوري نخايل إلى ذلك الفهرست الطويل . وإلى عمله في حقل العلم ، يمكننا ان نضيف عمله الخصب في القضية اللبنانية ، فقد عهد اليه بأمور جسام فحل معضلاتها .

قلت له في عاليه : اعرفك يا خوري نخايل رجل علم وأخلاق وفضيلة ، فأريتنا انك تصلح أيضاً للسياسة . فأجاب بالتفاته إلى فوق ، وكثيراً ما كان يعبر بهذه الالتفاتة البليغة ، ويستغني عن الكلام الفارغ .

لست اعدد ما كتبه المونسينيور فغالي من تأليف فهذا لا يعني الآث . فالذي يهمني ان اتحدث عنه هو ما قلته . واني اختمه بقولي : كان صديقي ، رحمه الله ، على علمه الواسع ، كما قال الانجيل عن يوحنا : قصبة مرضوضة ، لا يصبح ولا يماحك ولا يطفئ سراجاً مشعلاً ..

فؤاد سليمان الأديب والشاعر

فؤاد سليمان في نظري ، وحدة شعرية لا تتجزأ . هو شاعر في كل ما خطه قلمه من منظوم ومنثور . قد يكون شعره ك شعر غيره ، أما نثره فذو طابع خاص ، وكتابه « درب القمر » ديوان شعر له مقوماته وخواصه التي لا تجددها عند غيره . وربما كان هذا الكتاب ، على صفره ، خير ما انتجه شابئنا في الفترة التي عاش فيها فؤاد سليمان . كأني بهذا الأديب الشاعر نظام مستقل في كون الأدب . له شمس ، وكواكب ، ونجومه ، وكل في فلك يسبحون . فحينما تصادفه تنبئك عنه خصلتان : عاطفة من نار آكلة ، وكلمة من حديد محي .

هو شاعر الألم وكتبه ، فكل ما نراه على موائد الآلام يتجسد في جل كتبها قلمه التاريخي . ما رأيت مرة إلا تخيلت الزئبق الرجراج . لا يستقر على حال من القلق ، هو دائماً متحفز للقفز ، فكأن في داخله لولباً يدور أفقياً . نصف ابتسامة ، بل ابتسامة كالجهشة ، وضحكة لا تفتح لك باباً للانطلاق . ما نسيت يوم عرفته في دار المكشوف فقلت له : كيف يكون سوط النار الذي يسوق أبو شبكة به الشعراء كما قلت ؟

فاطرق اطراقة من يتهاى للوثوب ثم قال : مثل السوط الذي تستعمله أنت في نقدك لهم .

ما أسرع ما أمسى فؤاد سليمان ، وأسفاه . كلمات نرددها ، وأكبرهم الأديب هو ان يستحيل في الغد كلمات تجد لها رواة ومرددين . أجل هذا هو ملكوت الأدب الذي يموت العباقرة على رجائه ويعدون به أنفسهم . كانت

فؤاد من المؤمنين بألوهة الحرف ، وكان يقول الصحيح ولو حرقت الكلمة فهـ ، كما يقول المثل اللبناني . والكلمة دعامة الحياة وركيزة صرح الانسانية ، بل هي قوة غير منظورة تلقنها الحياة من يستطيعون تأدية رسالة الحق .

ان تلك الكتلة البشرية التي كان اسمها فؤاد سليمان قد كانت ثورة قائمة برأسها . كانت عاصفة تخبيء تحت جناحيها ابتسامة البرق وقهقهة الرعد . فهو وصاحبه أبو شبكة توأمان ، وان ابتعدا نسباً يجمع بينهما الشكل والمزاج والعاطفة . كلاهما غنياً قلوبهما أولاً ، وهذه المنعطفات والقمم ثانياً . كلاهما ربيبا القرية اللبنانية ، فكان لها من شعرهما ونثرهما نصيب . انفتحت اذا فؤاد سليمان على رنين الجرس المتأرجح في القبة ، وكان ملعب صباه تلك البيادر المنبسطة حد بيته في فيع ، تلك البلدة الجاثمة على صلعة الجبل . لعب الشاعر ومرح في تلك المطارح الحلوة فانطبعت صورها في نفسه لتستحيل فيما بعد شعراً طلياً ، كما تستحيل قبلات النحلة لثغور الزهر شهداً .

لفؤاد سليمان ثلاثة آثار : ديوان شعر ، ودرب القمر ، وما كتبه بتوقيع تموز . وهذه الآثار ، وان اختلفت موضوعاً ، هي واحدة من حيث الروح والمحبة والبغض . لقد بكر فؤاد في الحنين إلى أيام الطفولة ، ومراتع الصبا ، فكانه كان شاعراً بقرب وفود ذلك الضيف الثقيل عليه .

كان هذا الأديب مناضلاً في درب القمر وفي تموزياته . كان يفضيه كل شذوذ حتى شذوذه هو ، فيحتدم غيظه وتخرج الكلمة من تحت قلمه كأنها حديدة خارجة من الكير تقطر دماً وتشع نوراً وناراً . فاذا تصفحنا ديوانه رأيناه يبكر في التوبة . ففي عام واحد ، عام ١٩٣٤ ، نشر أولى قصائده « إلى أين » وختمها بهذا البيت :

يصفق الوادي لأعراسنا إذ يسمع الوادي صدى القبلتين

وفي العام نفسه نظم « مزمور الخلاص » الذي يقول فيه :

اتوب عن الماضي المجهتر باللظى واغسل ادراكي بقارورة العطر

فكانه ما شب حق شاب ، ولكنه رغم توبته في شعره ظل حاد الشهوات
فتخيل الزنابق ، وهو رمز الظهر عند البشر ، كأنه يحس ما نحس من شهوات
لحمية ، فقال في ابتسامة الزنابق البريئة :

ما للزنابق فوق النبع خالمة عذارها وشباب النبع يفويها
أظنها صورة لم تمر في خاطر شاعر ، وما أكثر مواليد قرائح الشعراء .
أما ألفاظ فؤاد وصوره الشعرية فأرى الكثير منها منتزعا من محيطه ،
وهذا أثر المربي فينا ، فاسمع كيف يخاطب واحدة في قصيدة «عابرة طريق» :
لست من عجنتي ولا من خميري فاتركيني اسر وحيداً وسيري
أما الموت ، أبعد الله ، فكنت أراه في شعره أنى اتجهت في ديوانه ، كقوله :
إذا تلقين في عينيّ هماً وفي وجهي اصفرارات المغيب
وكما يقول في قصيدة عنوانها « مقبرة » ،

أنا وجه القبر تلقين على جبهي الصفراء أشباح المنسايا
غلغلت في كل ضلع غصة وجنازات تهادت في الحنسايا
أرأيت هذا الشعر الزوالي ؟ حقاً ان خاطر الإنسان دليله .

وبعد فلنطو صفحة الفناء لنرى بعض نماذج من ألوان الحب الجارف . ففي
قصيدة « الهوى المكتوم » يخاطب حبيبة بشأن ثغر لها خاف ان تجعله وقف
ذرية ، فقال لها :

خليه لي وحدي على طهره ، انا اللظى ، والناس ماء وطنين
وفي قصيدة « عذراء » يقول :

ان في صوتك الحنون جراحاً ألف آه تموج فيه وآه
أنا أهوى على شفاهك شيئاً غلّ في فتحة الشفاه وقاه
أنظرت إلى ألفاظه ؟ فلفظة غل ، وفتحة ، وعجيني ، وخميري قروية

لبنانية مئة بالمئة ، ومما أكثر الفصيح في لهجتنا ، فليته لم يستعمل الا الفصيح الخالص .

ليس شعر فؤاد سايان ألفاظاً منمقة مرصوفة ، ولكنه كلام يحيا بما في قلب قائله من حرارة محبيه . ليس هو من أصحاب الرموز وان قال في قصيدة « العرس الأسود » :

يا حلمي الأشقر يا رفقة طافت بقلب أخرس معتم

وإذا ما تصفحنا درب القمر رأينا ان نثره فيه كديوانه شاعرية . ولذلك عدده ديوان شعر ، فاذا واجهت « مرايا لم تعد تضيء » اقشعر بدنك لتلك التعابير التي تصف البيت في غياب ربه . لقد أظلم كل شيء في عيني الابن البر ثم ما لبث ذلك الظلام ان انقشع حين عاد الولد إلى عشه وملأت الحيرات البيت . أما مقال « طفولتي » فأقول ، ولا احسب أنني أغالي ، انه أروع مقال قرأته في هذا الموضوع . فهذا التجريد الذي وفق اليه فؤاد جعل الطفولة كأنها حياء وكأنه من لحم ودم .

قلت ان فؤاد سليمان ابن برّ بوالديه ، وهل يعبر كما عبر إلا من كانت له محبته ؟ اسمع ما يقول في وصف وجه أمه : « أمي .. من ألوان عود الصليب وجه أمي . وكان الذي حاكه مرة ، حاكه وقطع يده ثلثا يحوك مثله » .

وفي « مطارف من ارجوان » منتهى حرية الفكر ، وقد استحال فيها فؤاد الأديب ، عالماً نفسياً حين حلل نفسية الشاعر وحاجاتها .

أما مقال « درب القمر » فنشيد أناشيد شوليتة القرية اللبنانية . وفي « مرايا لم تعد تضيء » نفحة طاغورية .

اقرأ تصويره فيها للبيت والأم المهجورين . هناك تجد صورة البيت اللبناني العتيق قامة الخطوط ، فكأنك ترى بعينيك ما يحدثك عنه هذا الأديب الشاعر .

واقراً « حبة رمل » وقابل بين ما قاله في النبي محمد ، الرسول الأعظم ،

وبين ما كتبه غوت شاعر المانيا العظيم ، لترى ان الموت يقطع الأوتار ولا يرحم .
انها « حبة رمل » ولكنها جبل من شعر .

وفي مقال « في موكب التائبين » نسمع شاعراً بوهيميا يقول : « أنا هنا في
سكرة معربة محومة طائشة ، حيوان يمشي مع حيوانات ، بهيمة تعيش مع
بهائم ، ملعون من ملاعين الدنيا . اجر جناحي المنتف ورائي على الدروب وفي
الشوارع . أنا هنا لم أطلق بعد .. متى اتمكن يا صديقي من ان انفلت من قيود
المرأة والتراب ، وأوهام اللحم والدم ، ومقاييس الزمن ، فأصبح انساناً كاملاً ؟ »
لقد اخطأت يا فؤاد ، فلو صار كما تمنيت لكنت لا شيء . فلو لا اللحم والدم ،
وما على هذه المائدة من مغريات ومقبلات ، ما كان لنا فؤاد سليمان .

وبكلمة عابرة أقول : ان درب القمر انشودة لبنانية اصيلة ، كتب الله لها
الخلود . وشاعرها يحلي حين يصوب قلعه نحو الينابيع والكروم وكل ما يمت
إلى القرية بصلة .

اما ما كتبه هذا الأديب بتوقيع تموز فقد تصفحته من أوله إلى آخره ، حتى
وصلت إلى أوراق بيضاء لم يمهل الموت تموز ليسودها ويبيض وجه الأدب . لا
أدري لماذا عرّتي رعدة عندما وقعت عيني على تلك الوريقات البيضاء . أحسست
ان دمة رقصت بين اهدابي مع ان دمعي في الحوادث غال .

أجل ، لم يبق لنا من فؤاد سليمان غير هذه الجزازات من تلك الصحيفة
وهاتيك المجلة ، ولكنها جزازات تتضمن روحاً كانت تتردد في لحم فؤاد ودمه ،
فأبقت للذرية هذا التراث الحي .

ففي « التموزيات » يشور فؤاد على كل اعوجاج وقسح نحت عينيه . يشور
للانسانية المعذبة كما في الكلمة التي عنوانها « انسان مدود » . وهو في كل ما
كتب في الواقع ما تخلى عن بيانه ولا تجرد من خياله . يخاطب الناس من عل
مهما علوا ، ويقذفهم بكلام كأنه القنابل ، ويزدريهم ولا يبالي . وقد يتفق له
تهكم مر بآتيه عفواً ، فيبدو جميلاً كقوله :

« صرنا نخشى على البيت اللبناني ان ينهار ، فالمرأة مشغولة بقضيتها ، أعطوها حقها وخلصونا . جربوها ، فقد تصلح ما أفسدناه نحن » .

وما أبلغ كلمته ، بل ما اصدق قائلها حين تحدث عن لص سرق الشاعر ميشال طراد صاحب جلنار . قال : « ما كنا نعلم ان الشاعر الجميل الذي لم يبق شاعر في لبنان الا وسرق منه لفظاً وطيباً ولوناً » .

انها كلمة لها ما بعدها ، ذكرتها قصداً ، وموعداً في التفصيل حين ندرس الشعر العامي اللبناني .

وأخيراً هذه صورة الشاعر والأديب الذي كانت النار تندلع من عينيه ، والكهرباء ترعد أعصابه . هذه صورة ذاك الذي كنا ندعوه فؤاد سليمان يوم كان بيننا ، أما اليوم فلا أجد له لقباً لأن الأسماء والألقاب مبتذلة كلها . فعلى بنات الشعر اللبنانيات ان يحددن عهد النواح على « تموز » ..

خمسة في عام واحد

الحداد ، المطران ، المازني ، محمود طه ، البعيني

لم يفجع الأدب العربي في تاريخه المديد كما فجع ، في عام واحد ، بجمهرة خيرة من أدبائه وشعرائه وكتابه . فبعد موت جرير والفرزدق ثم شوقي وحافظ في عام واحد ، لم يصب الأدب العربي بما أصيب به هذا العام - ١٩٥٠ - قد توارت خمسة وجوه من دنيا الأدب : خليل مطران ، عبد القادر المازني ، محمود علي طه ، يوسف البعيني ، والختوري يوسف الحداد . عمل كل من هؤلاء الخمسة جهده بل فوق مجهوده ، فازدادت اللغة العربية ثروة ضمت إلى تراثها القديم .

الختوري يوسف الحداد

مشى الختوري يوسف الحداد في طليعة موكب الأبد ، كما عاش أربعة وثمانين عاماً معلماً ومربياً . لم يسأم الحياة كزهير ، فظل يكتب وينظم رغم ما كفت العصر من بصره . ترك مئات من رجال هذا الزمان الذين علمهم وهدّتهم ، وترك مسرحيات منها المترجم ومنها الموضوع ، وكتب قصة طويلة - المروءة - وحبر مقالات رائعة في كتابيه : اللبنانية ، والنجوى .

كان هذا الكاهن وقفاً على أمرين : ثوبه وعلمه . كان ثوبه يزجيه دائماً نحو الكمال ، وكان علمه يحثه دائماً على بلوغ المدى الأبعد ، والعلم من قوابع وزوابع الاكليريكي الحق . لا يعني هذا ان الختور أسقف الحداد تبنتل فعاف كل

مسؤولية عيالية ، فكان كراهب امرىء القيس لا شغل له إلا امالة السليط بالذبال المقتل . كان الرجل معلماً وأباً ومربياً . حملته الأقدار عبء وصاية بني أخيه ، فربى وعلم كما يفعل الأب المستطيع . فهذا الكاتب الذي نراه في كتاب النجوى يبحث على الادخار كان عدو كيسه . وعظ الآخرين وما اتعظ هو . لم يجعل مخزنه عبء بل جعله في العقول والقلوب . كان في القول معلم اقتصاد من الطراز الأول ، أما في العمل فاتكل على قول معلمه .. لا تهتموا بما للفد ... وكان ربه عند ظنه فهاه مكفياً كما عاش عزيزاً .

لا يعرف الخوري يوسف الحداد الأب الا أقرب الناس اليه . ضحى بكل ما يملك ولم يترك خلفه غير فضله وتلاميذه . كان مربياً حقاً ، كانت للمعارف والتربية يوم لم تكن لها وزارة في لبنان .

قالوا عن الأخطل ضيق عليه دينه ، وابن عمي هذا ضيق عليه ثوبه في دنياه وأدبه ، فعسى ان يوسع عليه في آخرته . وعلى ذكر الاخسرة أقول : كنت أجده ، لما بلغ الثمانين ، خائفاً من الرحلة العتيدة ، على قلة الزاد لها ، كما كانت يقول تواضعاً . قلت له مرة : شد حيلك يا بيه .. أنت قادم على كريم ، ولسانك طيب ، وقلبك نقي . والله لا يحب غير هذين .

كثيراً ما كنا نتفلسف ضاحكين لنخفي الذعر ، وكنت اشجعه كلما التقينا حتى قلت له مرة : تتذكر هذا البيت ؟

كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت : بعد غد

فأجاب : وكيف ! أتظنني خرفت ؟ هذا لعمر .

فقلت له : هذا لسان حال الدنيا معك . لا تخف .

فضحك ضحكته المعهودة . وكنا كلما التقينا بعد ذلك ، يقول لي : كيف

حال هند من صوبك ؟

واجيبه : ما زالت تضحك وتقول بعد غد .

وتطيب نفسه ويقول : سبحات مقسم الأرزاق ا الذي لم يوافق عمر وافقنا نحن .

خليل مطران

هذا هو الكاهن الأديب الذي سبق القافلة المجيدة إلى واحة الموت وتلاه في هذا المضمار ، غير المرغوب فيه ، الشاعر العظيم خليل مطران الذي أعدّه كعادته القدماء بشار بن برد ، جسراً يصل القديم بالحديث . فمطران مجدد في تصويره وتفكيره وخطته الشعرية . تلد مخيلته الصور الرائعة الطريفة التي قلما خلت منها قصيدة من روائعه المشهورة . انه أحد اقانيم الثالوث الشعري في القرن العشرين . كان هؤلاء الثلاثة شوقي وحافظ ومطران يتبارون عند كل حدث خطير يحدث في الشرق ، وان توسعنا قلنا عند كل نكبة عالمية ، فكان حافظ يأتي ثالثاً ، الا في عهد شبابه ، فقد جلتى مرات . اما مطران فاستطيع ان أعدّه مجلياً — عند الحاجة — في شبابه وكهولته ، وقد سكت في شيخوخته ، بينما ظل أخوه شوقي يرسل الصرخة أثر الصرخة حتى قضى ، وقضى له بالزعامة ولم ينازعه فيها منازع .

ولمطران أيد بيضاء ليس على الشعر وتجديده بل على المثر أيضاً ، وخصوصاً المترجم منه . فقد عمل الرجل كثيراً ، وأفاد كثيراً ، وصلى خلفه في هيكل الشعر خلق كثير . فهو ، حقاً ، فجر مدرسة جديدة . انه الشاعر الابداعي كما عدّه الدكتور اممميل ادم . ولئن قصر عن شوقي في التعبير فقد فاته في التصوير والتفكير .

عبد القادر المازني

ثم كانت الخسارة الجلتي بالمازني الأديب الكبير المهبوب ، البعيد عن العنجهية والادعاء . كان هذا الأديب الطريف يعمل ساكناً ، ويكتب صامتاً . حاول في فجر شبابه ان يكون شاعراً فما اعجبه شعره ، فانصرف أولاً إلى

دراسات في الشعراء القدماء ، فكان أول من اهتمدى إلى ابن الرومي ، فكتب عنه فصولاً رائعة شائقة دلت على ذوق فني رفيع ، ثم تناول بشاراً فكان الأسبق إلى دراسة هذين الشاعرين دراسة اصولية .

وأخيراً اعتدى المازني إلى نفسه ، وعثر حين طوف في دنيا الثقافة على أسلوبه الذي عرف به فكان أسلوباً خاصاً نقرأه مسرورين مفتبطين . قلما مر اسبوع لم يكتب فيه المازني فصولاً مختلفة ، ولكن بدون ضجة وقعقة . فهو بمقدار كاتب نضال ، لأنه كتب ليعيش ، فكان يحلي في الميدان ولا يترك خلفه غباراً يؤذي العيون ، ولا صهيلاً وصليلاً يصم الآذان ، بل كانت طعناته صامته ، لا أجد أصدق وصفاً لها من قول عنتره :

برحمة الفرغين يهدي جرسها بالليل معتمس الذئباب الضرم
مسكين المازني ، إذا صدق الخبر الذي قرأت ، وإن اولاده في حاجة ، بعد ان ألقى كاسهم في قعر مظلمة كما قال الخطيئة مسترحماً عمر بن الخطاب .. ولكن أين ظلمة البشر من ظلمة القبر ! ! ان هذا حيف ، فعلى الأمم ان تراعي ادبائها كما تراعي جنودها الذين يموتون في ساحة الجهاد .. أليس هذا جهاداً ؟ أليس حامل القلم أخا حامل السيف في ساحة التضال عن الأمم ؟

اذكر انني قرأت بعد موت ولي الدين ، ان ابنه كان يلم "أعقاب السكاير في شوارع العاصمة وسككها وليس من يأبه له ويذكر فضل أبيه . رحم الله عبد القادر المازني وجبر خاطر الأمة المكسورة واعاضها مازنياً آخراً . ولعل مازنيا لو بعث ساعة لقال لنا : لو كنت من مازن .

محمود علي طه :

أما الفقيه الرابع ، وهو المهندس محمود علي طه ، فشاعر مجدد ينحو نحو شعراء الوقت في لبنان ، وله قصائد غراء . يحق لنا ان نقول في هذا الشاعر ما قيل في أبي تمام : انه مات ولم يستمتع بخاطره .

كان له شعر رائق طريف يطبع على غرار الشعر الحديث ، وإن لم تنقطع

الصلة كل الانقطاع بينه وبين القديم ، وان نهج شعراء الفرنجيسة في أساليب الكلام . لقد انطفأ خبر هذا الشاعر كأنه لم ينظم دواوينه « الملاح التائه » و « أشباح وأرواح » و « ليالي الملاح » فما أرخص موت الأدباء والشعراء .

يوسف البعيني

أما الخامس فهو الأديب يوسف البعيني أحد أعضاء العصبة الاندلسية في البرازيل . شاء هذا الكاتب الأديب أخيراً ان يكون ناقد العصبة فكتب في النقد فصولاً ، ولكن الموت عجل عليه قبل ان نستطيع الحكم على ما كان يرجى منه من خير أدبي ، بيد ان ناقد العصبة كفتى ووفتى على قلة ما كتب . انني انظر إلى القدر نظرة خشية ، فمضى ان يحل ادباء الشباب محل هؤلاء الجهابذة الذين تواروا في عام واحد ، والحبل على الجرار . أرجو ان يقدر الشباب المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، فهم خلفاء هؤلاء الأدباء الذين ذهبوا ، فليعدوا العدة .

على الجيل الطالع ان يتعمق في دراسة الاصول ، وان يتبحر في متون اللغة وهوامشها ، وان يعب من ينابيع الثقافة الحديثة ، وإذا لم يجد دلواً فليعب بيديه من نهر العلوم والآداب العالية ، والا فاني أخشى ان يصح فينا قول الحجاج في إحدى خطبه : ما لي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ؟ ان العلم أوشك ان يُرفع ، ورفع ذهب العلماء .. أما أنا فلا أزعم زعم الحجاج المتشائم ، بل اتجمل وأقول مع السموأل :

وما قل من كانت بقاياها مثلنا شباب تسامى للعلی وكمول

ابراهيم عبد القادر المازني

المازني كاتب متفرد ، هام حيناً في اودية الشعر ، ثم اهتدى إلى شخصيته فعرف ذاته . ادرك انه لن يصير شاعراً محلقاً فمال عن القول المنظوم إلى الكلام المنشور فخلد بنثره في دنيا الأدب . انفصل المازني عن اقرانه - حسين والمعقود والرافعي والزيات وهيككل - بأسلوبه الشخصي المستملح ، فكان نسيجاً وحده كما عبر أسلافنا القدماء . تعرفه حين تقرأ مقالاً له ، وان كان غير مهور ، وتلك سمة الكاتب الفذ .

ليست معرفتي به على قدر اعجابي بما تفرد به من حلو الكلام ومروءة ، فألم أره غير مرة في الحياة . التقينا عند المصور الشهير أسعد دقوني ، وكان مرافقه الخاص يوم جاء لبنان الصحافي العصامي المرحوم جبران التويني ، فتعارفنا على يده ، وكان تسليمنا وداعاً كما قال الشاعر .

رأيت فيه يومئذ رجلاً أعرج قليل الظل ، ذا عينين كأنهما محاجر مسك ركبت فوق زئبق . ثم كنت أقرأه بامعان واستقري أخلاقه من خلال ما يكتب ، فاذا بي أراه جباراً ولا ذا عنجبية وان كان ذا عاهة . فهو ، في نظري ، ان صدقت تلك اللحظة العابرة ، حمل كتاب عصره الوديع ، لا يتنفس ولا يتفرعن . لم يفرق في السياسة لأذنيه ، لم يكن اهوج الحزبية ، فظل حيث هو . لم يته في مجاهر السياسة ، فعاش أديباً ومات أديباً .

كان (أمن) عبد القادر ، كما كان يسميه ذاك الناظر الأخن ، مثال الأديب العربي المثقف ، وان زعم لنا انه لم يعرف من النحو غير اسمه . لم يقطع المازني

الصرة بينه وبين القديم ، ولم يتنكر للجديد ، فجاءت عبارته حلوة ذات ألوان طريفة حديثة ، ليست بالقديمة الغربية ولا هي بالجديدة المبتذلة . تلمع شخصيته في خلال سطوره ، حتى في المواضيع الجافة التي لا تجد فيها الشخصية منفذاً تبرز منه .

لم يرفض المازني الألفاظ العامية الفصيحة ، ثم استكفى بروحه الفنية عن الالتجاء إلى الفصاحة والبلاغة ؟ فكان له من ظرفه وخفة روحه أكبر عون على نفخ الحياة في كتابته التي تستحلى وتستملح . ناهيك بأنه الكاتب اللبق الذي لا يتعالى ولا يطرق المواضيع التي تظهره بمظهر العلماء الكبار ، بل يعالج ، وخصوصاً حين شتخ ، المواضيع المتصلة بالحياة اليومية . قلما عناء ان يناقش فيلسوفاً كبيراً عالمياً ليريك انه من اقرانه أو أعظم منه ، كما هم من يخطيء بالأقلام الحسابية الأربعة ان يناقش انشتين ، وقد يخطئه ولا يستحي . ان المازني يفعل غير ذلك فاسمع كيف يحدثنا عن نفسه في مقال عنوانه : « في الكتب » :

« وتمنيت وأنا أدير عيني في كتي على رفوفها ، لو ان هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم ، بيتوا لنا ، أو لي أنا على الأقل ، ماذا يريدون ان يقولوا . عجيب أمرهم والله اقرأت مرة لأحدهم ، وأظنه « هجل » كتاباً في فلسفة التاريخ فخرجت منه كما دخلت ، وقلت لنفسي : أما اني حمار ، وأما ان هذا الرجل لا يحسن العبارة عما في رأسه ، ولكنني أفهم عن غيره فلماذا اراني لا أفهم عنه !

ودارت الأيام ووقع في يدي كتاب لرجل أمريكي اسمه دريبر ، يكتب كما يكتب خلق الله ، لا الألمان ، فاذا فيه فصل طويـل عن العرب بعد تطبيقاً لنظرية هجل التي لم أفهمها . فسألت نفسي : لماذا لم يكتب « هجل » كما يكتب هذا الرجل ؟ ثم عدت أسألها واتعجب : لماذا فهم « دريبر » عن « هجل » ولم أفهم أنا عنه ؟

وأسأت الظن بنفسي ، واعتقدت ان بي نقصاً في التدريب العقلي . وراجعت

هجل وكررت إلى هؤلاء الألمان المعوصين كرة المصمم المستعيت ، ولكن مضى
الجلاميد اعياني ، فنفضت يدي منهم ، ومن نفسي يائساً ، وقلت : يا هذا ، لقد
صدق القائل : كل ميسر لما خلق له ، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان ، فارجع
عنهم وانج بنفسك منهم .

ألا ترى معي ان استاذاً غير المازني لا يعترف هذا الاعتراف ، بل بعد ألف
هجل حماراً ..

والمازني قرض الشعر أولاً ، كما سبق القول ، ولكنه لم يصر على النظم مغالط
نفسه ، بل أدرك ما في شعره من سماجة ، فعدى عن النظم الذي كان يحب فيه
بالفت ، وبحسب انه صنع شيئاً . ولم يكتف المازني بارشاد نفسه ، بل كثير
ما نصح غيره ليعدي عمالاً يحيد فيه . تراه مثلاً ، في آخر عبارة من كتابه
« قبض الريح » ينصح أحد رفاقه في الشوط الأدبي الأول ، قائلاً له : ان
« الاستاذ » أي الدكتور طه حسين - ليحسن جداً إلى نفسه إذا تحاشى الخروج
من النقد العام الذي يسهل مع التحصيل ، إلى النقد التطبيقي أو الدراسات
الفردية .

أجل لم تطب نفس المازني بشعره فارعوى حين ضل ، وانصرف إلى النث
فاحسن صنفاً ، لأنه لم يُبلِ الأدب العربي بمنظومه بل اسكره بمنثوره ، فكاد
نثره هذا مرقاة له فمرج إلى سموات الفن . فهو ، ولا شك ، واحد من أعاظ
كتابنا الفكهين الساخرين .

لست احدثك عن كتبه المشهورة لأنك تعرفها . « فحصاد الهشيم » وه
أشهر ما يقرأ من كتبه ، يقبل عليه النشء لما فيه من دراسات أدبية دقيقة لام
الرومي وبشار . فالمازني كان اسبق أدباء جيله إلى التعرف إلى هذين الشعراء
الكبيرين ، فكتب عنهما فصولاً تفني من شاء التعرف اليهما ، هن المجلدات
الضخمة . وقد يكون حبه العبث باللحن الكبيرة صغيراً هو الذي هداه إلى
شاعرية ابن الرومي الفذة فكتب عنها دراسته القيمة .

فابراهيم المازني ، كما يعترف في مذكراته « قصة حياة » يقول : « لا أعرف ما سر حبي للحق في وجوه الناس ، ولكنني اعترف اني ما رأيت قط لحية طويلة تتدلى كالخلاة إلا نازعتني نفسي ان أجعل لها من أصابعي مشطاً . وقلما أرى الآن لحية تستحق ان اعبت بها . فان الناس في زمننا يخلقونها أو يقصرونها ، ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستغناء به عن الحقيقة الخشنة أو الشائكة . »

ولا احدثك عن كتابه « صندوق الدنيا » فهذا أيضاً في تناول الناس ، وقد اقبلوا عليه ايام اقبال . ولا عن كتابه « قبض الريح » الذي مر ذكره سابقاً . فهذه الكتب اشتهر بها المازني ، وهي معروفة من دنيا القلم . ولم يسود وجهه من كسبه الأولى غير قصته « ابراهيم الكاتب » . شاء أديبنا الكبير ان يكتب قصة فكتبها ، فكانت قصتها قصة تطول ، كما عبر قبلنا صاحب ابن الرومي ..

اخالك ادركت ما في عناوين كتب المازني من طرافة وغرابة ، وهذه سجية الناقد الأصيل . فالمازني ناقد في جميع ما يكتب ، وقصصي في كل فصل حبره ، وأكثر قصصه طرافة وأحلاها هي تلك الأقاصيص التي تتصل بذاته اتصالاً وثيقاً ، وخصوصاً في الفصول التي كتبها في مجلة « الرسالة » وغيرها بعد ظهور تلك الكتب . ففي مقاله : « عجوة ببيض » وغيرها يذكرني بقصص الجاحظ وأخباره ، وان كانت هذه من نوع آخر .

لقد حلت بالاستاذ نكبة البرامكة حين صبَّحه أولاده وزوجته بطلب الفلوس . ولكن « المعجوة بالبيض » هونت عليه الكارثة التي حلت به ، وتمزى الكاتب الفارغ الجيب بالكلمة الماثورة التي خاطب بها زوجته مسلماً نفسه : « انفق ما في الجيب بات ما في الغيب . لا بأس ، لا بأس ، سيرزقنا الله . »

بيد ان الكاتب لم يرزق ، فعاش غير ميسور ، ومات مكثوراً عليه ، ولولا صرخة رفيق الرحلة الأولى لتناه بنوه في الأزقة كما فاه من قبل ابن ولي الدين لما أعقاب السكاير عن أرصفة شوارع القاهرة ..

قلت لك فيما مر ان المازني « كاتب جامع » ولكنه متشد السير في كل ما يكتب ، يهز هزاً لا يلوي ، ولا يفرض آراءه وأفكاره على الناس فرضاً . اسمعه يحدثنا في عام ١٩٣٥ عما اسميناه منذ أعوام « الجامعة العربية » وقد سماه هو في ذلك الوقت « القومية العربية » ومما قال فيها : « لقد احطنا قوميتنا بمثل سور الصين . ولو ان هذه القومية العربية لم تكن الا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ لوجب ان نخلقها خلقاً . فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة ، وما خير مليون من الناس ، مثلاً ؟ ان أية دولة تتاح لها الفرصة ، تستطيع ان تثب عليهم وتأكلهم أكلاً بلحمهم وعظمهم . ولكن مليون فلسطين إذا اضيف اليه مليوناً الشام ، وملايين مصر والعراق ، مثلاً يصبحون شيئاً له بأمن يتقى » .

قد يقال : ولكن هذا ليس إلا حلماً ، فنقول : نعم انه الآن حلم لا أكثر ، ولعله لا يتراءى الا لأحاد يعدون على الأصابع في كل بلد . ولكنه ، على كونه حلماً ، ليس أعز ولا أبعد مناً مما تحلم به امم أخرى في هذا العصر ، وبالأمم حاجة إلى أحلام . والأحلام ضرورة من ضرورات الحياة للأفراد والجماعات ، ومن لا حلم له لا أمل له ولا مستقبل ، فلماذا يعيش إذن ؟ !

هذه بعض خطوط من صورة أديبنا المازني ، وإذا أردنا ان نرسم لكاتب عظيم مثله صورة قامة الخطوط ، فمثل هذا الإطار لا يتسع لمثل هذه المادة الغزيرة . فكتاب بكامله يكاد لا يفي بالمازني ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله . فشكراً لمحة الشرق الأدنى التي تذكرنا في كل مناسبة باخواننا الذين طواهم الموت ، وكم في التذكر من منافع وعبر .

رحم الله المازني ، وما احوج الأدب العربي إلى بضعة كتاب من طرازه ، فينتعش لسان الضاد وتدب الحياة في كتبه . فالرجل كان غني النفس على بؤسه ، كريماً معطاء على خصاصته ، وربما كان البؤس مصدر هذه الثروة الأدبية .

من يدري !

المنفلوطي ورسالة الغفران

ليتك تترك الأموات يرقدون في قبورهم مطمئين ،
فمالك ولهم ، الخ ..

من رسالة كاهن

ابن واستاذي .

لا أخالك ناسياً ما كنت تقوله لنا ، ونحن صغار لم قطر شواربنا بعد ،
عن وقفنا أمام ربنا حفاة عراة ، حين لا يشفع بنا غير أعمالنا الصالحة ،
وسيدتنا مريم العذراء .. ولست أنسى تغنيك بهذا النشيد : ان قلبي في هوى
مريم .. من كان للعذراء عبداً فلن يدرك الهلاك أبداً ..

أما الأديب فيدان مرقين : مرة بحسب تاموس دينه ، وأخرى بحسب تاموس
الأدب . فلا تجزع ولا تحف ، فقبور الأدباء معرضة للنش كل ساعة ، ولا يقام
على تابشها حد زياد في (البتراء) فهنيئاً لمن ينش النقاد قبره وينقل آثاره الثمينة
إلى متحف الفن ، ويا ويله إذا لم يكن فيه غير عظام نخرة ..

وبعد ، فان معضلة الاسلوب أو القالب أو المنوال قد شغلت العقل العربي
أجيالاً ، فاحتال لها جماعة في كل عصر باخذ الحبل من طرفيه . لم يعافوا
القديم جملة اتقاء ثورة غوغاء الأدب وهم أكثر من السوقه وأشد خطراً ، وأخذوا
من الجديد بمقدار ارضاء لنفوسهم الظامئة إلى ورد غير الحياض المطعلة .. أما
المجددون الذين تمردوا وخاطبوا الناس بلسانهم فانكرهم جيلهم وكان كلور شليم ،

قاتلة الأنبياء وراجة المرسلين إليها، فعاشوا في امتهم كالدجاجة الغريبة لا تصادف
الا مناقير من فولاذ تغرز في رقبتها .

أمامي الآن مقدمة ابن خلدون فاسمع ما يقول في هذا الشأن :

« فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب - أي أساليب
القدماء - فلا يكون شعراً ، وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا
في هذه الصناعة الأدبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في
شيء ، لأنها لم يحريا على اسلوب العرب » .

فهل من حرج علي ان وقفت من هذه الشهادة التي ينقلها لنا ابن خلدون
موقف المراقب الشاك ! فاما انه يشهد بالزور ، أو ان شيوخه هؤلاء شيوخ حقاً
لم تبق منهم الأيام قوة تميز بين شعراء المتنبي والمعري . ومهما يكن من أمر هذه
الشهادة فهي دليل على تمسك العرب بالقلب حق صيروا التعابير العربية كحصى
(الدومنو) وحجارة الترد يسوقها الزهر ، وينزلها منازل لا يشتهيها اللاعب .
اما الفنان فينظر إلى ألفاظه ككائن حي يستمد الحياة مما حوله ، وان كان
للصينيين قوالب حديدية يحصرون فيها أرجل بناتهم فلا تنمو ولا تكبر ،
فالقلب العربي فعل أكثر من هذا بمقولاتنا . فما أفقر أديباً لا أداة له من الكلام
إلا ما قاله آباؤه وجدوده ، وان لم يعبر كما عبروا فقد كفر .

اننا نعجز عن خلق تعبير جديد فنحتج لضعفنا بتقديس الاسلوب ، ومن
استعرض آثار العرب رأى ثورات الزعماء في كل جيل ، ونحاة وبلغاء يقمعونها .
أما الجبار الذي خرج على أساليب القدماء وأغراضهم وتعابيرهم فهو المتنبي وقد
سمعت ما يقوله فيه ابن خلدون ويسنده إلى شيوخه .

ولكن ما نعاه فيلسوف المؤرخين على أبي الطيب أصبح اليوم دعامة
خلوده . فكأن هذا الشاعر الأعظم قد نظم شعره لهذا الجيل الكفاحي ،
ففيه مرعى لكل نفس غير بلهاء كاشياخ ابن خلدون الذين يجارهم طه حسين .
فقد سمعته يختم كلمته في حفلة الجامعة المصرية للمتنبي بقوله : انت فن المتنبي

لا يعجبه ، وهذا ما توقعته من طه بك فلا بد للدكتور من مخالفة ليقال : قال .
وطه ، كما أراه ، يعتق شيئاً فشيئاً ، ولا يبعد ان تستهويه الماوية والسجتمجل ،
فهو يمشي الوراب كالسرطان ولا نعلم أي وكر يلاً .

مسكين أدبنا المريض بسل الاسلوب وسرطان القالب . انه لا يؤمن إلا
بتعازيم الكهان ورقى الحواة ولا يعرف من الطب الا الكي ، وهو خير دواء
لكثيرين من هوائه . يخدعك طلاء هذا الأدب حتى اذا رزقه عرفت انه دنانير
ولكنها من (شوكلاته) !

سقنا هذه الكلمة لحديثنا عن المنفلوطي ، والمنفلوطي جدول ينحدر ونهر
ثرثار تقطعه غير خالغ نعليك ولا تشمر بكرم فضاح كالتي حدثنا عنها الريحاني
في ملوك العرب . المنفلوطي من مناجذ الأدب الذين لا ينأ لهم عيش إلا في قرض
الجدور ، ونحن إلى من يغرس جديداً احوج منا إلى من يقرض ، فالقارضون
عندنا لا يحصون ، وقلما ينامون قبل ان يكسبوا بيتاً .

لا أدري لماذا صرت أرى المنفلوطي رخواً مترهلاً كالمرأة الهر كولة التي
تعتمد على يديها ورجليها لتنهض ، وتكاد تقعد لولا التشدد كهريرة الأعشى .
فأدب المنفلوطي أدب مفلطح متنفش اغثرت الصحف بخمرزاته وودعاته فلقبته
« أمير البيان » فتطوح في حقول الأقدمين كلاقطي السنابل « العفتارين » وناه
في الجادات كجامعي لقاغات التبغ ، وان اعدل عن رأيي هذا فيه حتى تستبدل
مقاييس الأدب وعباراته بغيرها فيصير الرطل كيلوا والذراع متراً ..

ما خدع المنفلوطي عن نفسه حتى جاء بهذه المهرقعات ، الا كذب بعضنا
على بعض . واننا ما فتشنا نفعل هكذا بالأحياء الذين يعطون في جهلهم ولا
يتأدبون حاسبين النبوغ في اجتراح التعابير كالمترزة القائلة .

لقد فتشت آثار المنفلوطي كلها فما عثرت بتعبير شخصي لهذا النابغة . فهل
بين الناطقين بالضاد من يدلني على واحد ، ثم لا يثنيه هذا الضعف ان يحترق على
المعري ويلخص رسالة الغفران بأسلوب منفلوطي ، فتتكررت لنا كالذين يتلبسون

بقبص المرفع والبرbare .. ولو لم يقل المنفلوطي انها رسالة الغفران لجهلناها ،
فقد استحال فيها أدب المعري معرة ، واستناب المنفلوطي نفسه عن علي بن
منصور .

رحم الله ع. م. أحد رسامينا القدماء ، فقد خبرونا انه كان يصور الغزال
ويكتب اسمه تحته ليعرف الناظر انه يرى صورة غزال لا صورة ضبع . انت
ع. م. في الرسامين كالمنفوطي في المنشئين ، ولم تعدم البلاد ممن يعدون ع. م.
مصوراً بارعاً .. وكأني بمنفلوطينا قد استضعف خيال المعري فبدأ رسالة
الغفران - غفر الله له - حيث أراد ، وأخذ يروح فيها ويحيى كسيارة بدورها
سائق عكش في كوع ضيق .

قد بدأها كما شاء هو فرأى نفسه في صحراء مد البصر ، وما أكثر ما يرى
المنفلوطي نفسه في الصحاري ، حيث لا حارس ولا ناظر ، بل ما أكثر احلام
هذا الرجل وأقرب اغفائه ، وما أطول نومه فكأنه اليربوع أو الغرير . عفواً
ابن الغرير منه وقد نام ألف سنة في رسالة الغفران .. تحرش المنفلوطي بالمعري ،
ثم يجبران في قصة « صراخ القبور » فكان كولد يخربش على الحيطان قبالة فنانيين
حاذقين . وجاء عمله في رسالة الغفران كعمل سميل ابلة يذهب بجوهر السيف
ليجعله لماعاً أبيض ، وان شئت فقل ليعيده حديدة .. أو كعراث عثر وهو
ينقب أرضه على قطعة أثرية فجلاها بحقوق كسر الجرار ليزيل زنجارها ،
فخمشها وعراها من هيبة اندهور وجلال الأجيال . وهكذا فات البصير ، أمير
البيان ، ما أدركه الأعشى الذي لم يعجب شعره ابن خلدون وأشياخه

لقد مسخ المنفلوطي رسالة الغفران مسخاً لا يغتفر لصية الكتاب ، فكان
كالقصاص ، بل من أين للمنفلوطي براعة ذاك . فالنصاص لا يمل الخطوط التي
تريك ملامح أبطاله ، أما المنفلوطي ففاته هذا . اقرأ تر كيف غاب عنه ما فيها
من جمال فبدل التعابير الأثرية بكلام مزيف مصقول ، ولم يعجبه ، يا سبحان
الله ، من كلام المعري الا « فبعلت بالأمر » التي لا تدل الا على ذوق المنفلوطي ،
فأبقاها .

هل من معترض إذا سمينا المنفلوطي بحيري المؤردات فقد أحيا لنا
تلك كثيرات منهن مثل : فتاته عنه ، والفينة بعد الفينة ، وعين زرة ، حاجة ،
وقلب أي بشر الخ . عدا عن الصعراء التي حل فيها حل ابن القارح ، ثم خلق
أيضاً في الجنة دهلزاً - كالذي كان يأكل فيه المعري - وهذا شيء غريب
عجيب لا يلهي إلا أن المنفلوطي كان يسكن بيتاً ذا دهلز . فالمعري الذي عاش
في دهلز أبدي ما خطر بباله قط أن يعمل في جنة الله حتى ولا في الجحيم دهلزاً
كهذا الذي خلقه المنفلوطي .

قال المتشوق جيب في مجلة الدروس للشرقية الانكليزية : (ص ٢١٦ سطر
٢٢ مجلد ٥) أن المنفلوطي كان متأثراً بالأدباء السوريين ، وأيد كلامه بتلخيصه
رسالة الغفران التي لحصها زيدان قبله ، ولم يتعرض الأستاذ جيب لهذا التلخيص
المشوه بكلمة . نعم أن المنفلوطي حذا حذو زيدان كما قال جيب ، ولكن
زيدان لحص هذه الرسالة تلخيصاً أميناً ، ولم يستضعف المعري ، فقدّم لنا
خلاصة ترينا هيكل رسالة الغفران فقرة فقرة وعظماً عظماً . أما تلخيص
المنفلوطي فلا نظير منه إلا بفقاعات منفلوطية كالتي يعجب بها بعضنا ويخالفها
الأدب كله . أما صاحبهم ففشل فشلاً مخزباً في تلخيص رسالة الغفران ، وفي
قصة العقاب التي كتبها على نسق قصة صراخ القيور ، كما سئى ، فكانت
فيها ، كما هو في كل ما كتب ، رصاف ألفاظ يلهو بها هو الوليد بالقطع الحشبية ،
يبني منها قصراً أو قبة ، حتى إذا وفق إلى رصف تلك القطع في مواقعها صفق
له أبوه ، وقبلته أمه بين عينيه اعجاباً بذكائه واكباراً لتبوغه .

أن تعابير المنفلوطي في كل ما يكتب هي هي بعينها ، بتأجبة صفراء
كقوس الشنفرى ، أو كبنى يربوع الأخطل . أما سياق تفكيره فواحد . كل
ليلة غداقية الأهاب ، وكل حقل مد البصر ، وكل وقت تضي الأقطه ، وكل
رؤيا يبدأها بقوله : رأيت فيما يرى النائم . . وقد يكتب سفجات فلا تدري
ماذا يريد ، فتأتي معانيه كعجة قمح في عدل تبن . ولا التحيلة إلا كأولئك
الواعظين الذين يمدون مواظهم على الناس بشحمها ولحمها وعجرها ونعمرها .

فكرت كثيراً بما أشبه به آثار المنفلوطي واسلوبه وتعبيره وطلبت فلم أجده مثلاً إلا الروبل الروسي ، والمارك الألماني .. وإن أردت مثلاً تراه بعينيك فانظر إلى الظرف والذكورة المنفوخين وترحم على نحاة العرب ، فلحكمة سامية خلقوا حرف التنفيس .. واذكر بالخير صاحبنا بشاراً وقلل لعشيقته عبدة : عجلي فقد كاد صاحبك ينفزر ..

لقد ضاق التفكير بالمنفلوطي فليجأ إلى قوالبه المعلومة وأخذ يرجعها كساعة (الكوكو) التي بتقلقك زمناً ، قبل أن تعد الثانية عشرة . أليس عجباً أن نسعى إلى التجديد بكل ما فينا من قوة ورغبة ثم ننصر هذا العتيق ونسميه جسراً ، وهو قنطرة نافرة الغلق .

وأخيراً إن شئت ادراك فهم لمنفلوطي لرسالة الغفران فاقراً كلام إبليس ويشار في الرسالة وقابله بتلخيص المنفلوطي ، ثم قل سبحان من يخلق لكل جمل عبقرياً كالمنفلوطي .

اني افرح كثيراً بما اقرأ من محاولات شبابنا في التجديد ، وسأجعلهم الإخلاص لهم وللفن فأعرض عليهم ما افهم وادرك ، ولا غرض لي إلا تحسين نسل الأدب . وأسعد أيامي يوم ازيل فيه من ادمغتهم عقيدة الاسلوب والقالب لينظروا إلى التعبير ككائن حي ينبغ فيه الأديب الفنان من روحه . ففي قوالب العرب ما بطل ، وفيها الصالح لهذا الزمان ، فلنميز بين الاثنين . إذا كان الناس يحسنون نسل القطط ، والسكاف يجدد قوالبه كل عام ، فكيف بالأديب وهو الخالق المبدع !

اني لا احترم ولا اقدس إلا الأدب الصحيح ، وسيان عندي قديمه وجديده ، وسواء عندي اجاء من غلام مغرور ، أم صدر عن شيخ وقور .

انا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، فان استمرأتم زادنا زدناكم منه ، وإلا فافرموا أيديكم عن قدورنا ، فلا يد لهذا الفول من كيال .

أبو الفضل الوليد

كان اسمه الياس طعمه حين كنا في مدرسة الحكمة رفيقين في الصف العربي ،
يعلمنا بيانها وقواعدها الخوري يوسف بو صعب . ثم انتضى ذلك العام الدراسي ،
عام ١٩٠٥ ، فترك الياس المدرسة إلى غير رجعة وكان آخر عهدي به .

قضى في بيته ثلاثة أعوام كانت من أطيب العمر كما قال . ألف خلالها
مسرحيات عديدة ، شعرية وفثرية ، منها ما وضعها ، ومنها ما عرّبها ، حتى
انه نظم نشيد الأناشيد وعذره بمقدمة . ويزعم الياس انه لما هاجر عام ١٩٠٨
أضاع تلك الدفاتر في إحدى رحلاته ، ولذلك لم نضع نحن الوقت في سرد
اسمائها . وفي ١٥ نيسان سنة ١٩١٣ أصدر في المهجر جريدته « الحمراء » تيمناً
باسم حمراء الأندلس ، وقريته اللبنانية « قرنة الحمراء » ، فعاشت تلك الجريدة
أربع سنوات خلقت في أثنائها روحاً قومية عربية قلما تجدها ، وإذا وجدت
فلا تجد تلك الحماسة والعصية حتى الهوس .

قلت : كان اسمه الياس طعمه ، ولكنه « في تشرين الأول من عام ١٩١٦
اتخذ كنية أبي الفضل واسم الوليد ، وقبدهما في سجل الحكومة البرازيلية
فأصبحا رسميين شرعيين يعرف ويعامل بهما » .

يقول أبو الفضل الوليد « انه لم يغير اسمه لأنه غير عربي ، بل لأنه ابتذل
وقصد به علم النبي اليهودي . فهذا الاسم حمله أحد أجداد العرب وهو الياس
ابن مضر بن نزار » .

ان جنون الياس بحب العروبة وكرهه اليهودية أنساء ان الكتاب المنزل

تدين به العروبة التي يقدسها قد جاء فيه : وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين (سورة الانعام ٨٥) وان الياس لمن المرسلين (الصافات ١٢٣) .
ومن الصدق الغريبة ان حاجر الياس في نيسان ، وان ينشيء جريدته
(الحمراء) في نيسان ، وان يعود إلى وطنه في نيسان ، وان تبارحنا نفسه
الكبيرة في ٢٩ نيسان يوم الثلاثاء سنة ١٩٤١ .

أما هدف الأديب الشاعر في الحياة فقد عبر عنه بما يلي : ولولا بياض أمله
لما شهد الملاء سواد ورقه ، ولولا حبه لقومه ووطنه لما أضاع في الكتابة أحسن
العمر . فليس هو إلا صاحب دعوة له عتيقة مليّة وطريقة سياسية . حمل القلم
لاظهارها ولاظهارها فكتب للعزم والعمل لا للعب والكسل . فكان نثره
ونظمه مبدئين لشعوره وإيمانه ورجائه .

انه مجاهد قديم ، حارب حتى تكسر سلاحه . وبعد ما قام بالفرض ووفى
بالعهد هجر الدواة وسائر الأدوات . ولم يعتزل الا لتيقنه انه لم يبق للقدم
مفرع ، وللسم منزع ، فحكى قائداً رومانياً كان يعود من بقاع الحرب إلى
بقاع الحرب . وما كان ثائراً وناظماً ليعد كاتباً وشاعراً ، وما اتخذ الأدب حرفة
ليداومه لكن بلاغاً ورسالة . فلا يصح الا به وبأمثاله قول الرسول في حديثه
الشريف : يوزن مداد العلماء ودم الشهداء يوم القيامة فلا يفضل احدهما الآخر .
وينتقل أبو الفضل الوليد إلى وصف خلقه ليعرفه الآتون بعده . فكانه ،
رحمه الله ، قد ادرك انه سيمهل وينسى ، فدوّن بقلمه تذكرة نفوسه فقال .
وانه طويل القامة ، قوي البنية ، متناسب الأعضاء حنطي اللون ، كبير
الرأس ، كثيف الشعر ، واسع الجبهة ، أزج الحاجبين ، انجل العينين ، عسلي
الخدقتين ، ضخّم الأنف ، غليظ الفم ، عريض الذقن والصدر ، طلق الحيا ،
حسن المقابلة ، لين الجانب ، حلو الحديث ، لطيف الحس ، شديد الطرب ،
صبور جليل ، محب للعلم والرحمة والإحسان ، ذو انفة وعفة ، ونزاهة وشهامة ،
مترفع في العزلة ، متواضع في العشرة ، حافظ للعهد وفي بالوعد ، غضوب للحق ،
ولوع بالعدل .

أما في وصف أدبه فيقول : « ما كان التهاب فكري إلا من اضطرابه
نفسي واضطراب قلبي فالفضل في الهامي لروح العروبة التي لاحت لي من
ورائها روح عليين .

اني أموت كما عشت عربياً آملاً مشوقاً ، وأرد أن تضم جسماني تربة دمشق
الطيبة .

هناك تهيم روعي في البادية ، وتنشق نفحاتها الطاهرة ، وتطرب لهدير
الوادي .

تلك رقدة اشتبهها واعل نفسي بها ، وأراها خير مكافأة لي إذا كنت
مستحقاً . »

ومشى الياس الخطى التي كتبت عليه حتى استولى على أمد العروبة فقال :
« وإذا لم تكن عروبة إلا بالاسلام فاني عربي مسلم مؤمن ، أشهد أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله . »

هذا ما كتبه أبو الفضل الوليد معرفاً الذرية بشخصيته ونفسيته . أما ما
ذيل به أكثر كتبه فهناك بعضه ، آملاً أن تصدق ما تقرأ . فرفيقي وصديقي
الياس كان غريب الاطوار كما ستعلم حين انحدث أنا عنه كما أعرفه . أما الآن
فلتر رأيه هو في نفسه . قال تحت عنوان (شهادة عبد وكلمة حق) :

« أبو الفضل الوليد عبقرى نابغة متفرد مندر ، أشهر من أن يعرف وأكبر
من أن ينمت ويوصف ، ان هو إلا الحكيم الأعظم والشاعر الانظم . وكل ما
كتبه يعد من نفائس الأدب العال ، وعليه طابع ممتاز من الإجابة والابتكار .
ألف في اللغة والتاريخ والأدب والشعر والتمثيل والفناء والنقد والاجتماع
والرواية والسياسة والفلسفة ، فكان عقله من العقول المحيطة التي لا يخفي عنها
شيء ، ولا يفوتها أمر . فأصبح رب الصناعتين وحامل الرايتين ، الحكيم
الآخر والفيلسوف الأكبر ، وشاعر العرب الأمثل ونجى الملائكة الأعلى .

انه الشاعر الملي ، والفيلسوف ذو البصيرة النيرة والسياسي المطلع الخبير .

كل بيت من شعره قصيدة ، وكل جملة من نثره مقالة ، وله في الإنشاء ميزة
يفطن لها الارب فيقرر بأنها معجزة .

لقد برز بما ابتكره واحتكره على المتقدمين والمتأخرين . مسا كان التهاب
فكره وقلبه ونفسه إلا من شعلة سماوية . وليس لهذا الجيل بل للأجيال الآتية
ان تنفي حقه وتعرف فضله وقدره . فقد كان ظهوره قبل أوانه ، وعلى غسير
استعداد من أهل زمانه .

ان هذه الشهادة تقرأها في آخر كتبه جميعها ، ما عدا « رياحين الأرواح »
و « أحاديث المجد والوجد » ، وعندما طبع أول ديوان كنب على جلده ما يلي :
« رياحين الأرواح . الرقن الأول من قصائد الملهم الذي نظم الشعر عقوداً ،
والحكيم الذي ضرب النثر نقوداً ، صاحب الطرب الأعلى ، والوטר الأمدى ،
اشعر من شمر ، واكتب من كذب ، ملك الـثر والنظم ، المبداع المجرود السيد
أبي الفضل الوليد . »

أما جلود دواوين شعره الأخرى فاكتفى لها بوشم شاعر العرب فقط .
لقد انتهى بعض ما قاله أبو الفضل الوليد ، وجاء دوري الآن ، لأقول أنا
فيه ما أعرفه . رافقته في مدرسة الحكماء فتصادقنا . ولكنني كنت أرى فيه
صديقاً تخشى بواده . كان ذا عنجهية ، ارستقراطي الطلعة في غنباره الحريري
الذي كان يتفرد بلبسه دوننا ، فكان العروبية فيه طبع لا تطبع . كان استاذنا
الـثوري يوسف بو صعب يداوره ولا يحابه ، حتى قال مرة على أثر خروج الياس
من الصف غاضباً : أبوه من بيت طعمه ، وأمه من بيت طويبا ، وجددهما
الشـثيري وكيف تريد لنا مطيعاً .

كان يجلس وحيداً لا يأخذ ولا يعطي ، فكانه صف مستقل عن الصف .
وكذلك كان في الخارج ، فكانه لا يعنيه من المدرسة شيء كما يريد ان يعنيه
منه شيء ، ولهذا تركها دون أن يتم دروسه .
كان مستبداً برأيه حتى في التعليم ، فاذا سيره الاستاذ على غير هواه تنفس

كالهر وتأهب للستال . لم يكن يهجه من الدروس الا نظم الشعر . ينظمه في
الصف ، وفي قاعة الدرس ، وفي الكنيسة حتى ... وراه المناظر الخوري يوسف
الخوري يخربش على ورقة في الكنيسة ، وقت القداس فقال له : هذا بيت
الله !

فأجابه الياس : وأنا انظم له ترنيمة ليس فيها ركافة ترانيم حنا يو سمع .
وطغت الكلمة استاذنا الصعبي ، وكان يحب الياس وبرايعه كثيراً ، فعأله :
اية قصيدة تمنني من قصائد حنا بك يو صعب ؟
فأجابه الياس : اعني يا خالق الأكوان يا باري الورى .
فقال الخوري : وما الذي لا يعجبك فيها ؟
فقال الياس : انه يخاطب الله بلغة النحاة فيقول فيها : يا عالماً ، هل انت
حنا ينصرف .

فقال الخوري : هذا حلو ، كيف لم يعجبك !
فقال الياس : لم يعجبني لان الله وعبيده لا يستعملون مثل هذه اللغة
في الابتهاال .

وأخيراً سكنت الخوري ، وكانت دائماً الكلمة الأخيرة لتلميذه الطاهر الياس .
كانت ذاكرة الياس قوية جداً ، وكان شديد الميل الى انغريب من المفردات
فيحفظ منها الكثير ، وكان يترنح طرباً حين يسمع الوحشي منها في الشعر
الجاهلي وغيره ، فتلتقطه ذاكرته فلا يفلت منها فيما بعد .

وكان الياس يعيش على هواه ، يركب رأسه ساعة يشاء فيجمع ثم يشوب
ويسلس قياده لمعلميه ورفاقه . تراه وديعاً كالحمل ، وفي جلسة واحدة يلبس
جلد النمر وينقلب شموساً لا يؤتى من قبل ولا من دبر . بدوي في ثوب حضري ،
غريب الأطوار ، ولعل هذه الغرابة كانت من أول أسباب هجرته ، التي كان
في غنى عنها . أما حبه السياسة فكان فيه ككل ابن بيت لبناني عتيق : ان
الفريكة التي شهرها الريحاني لا تخوم بينها وبين قرينة الحمرا ، وبين الريحاني

وابي الفضل الوليد قرابة لعل للنسب والمكان يداً فيها . فأم أمين من بنات عم الياس طعمه ، وهكذا كانت العروبة عندهما فوق الجميع ، ولأجلها فاه الياس بكلمة الشهادتين ، وهذا لم يفعله أمين .

هذه هي الفكرة الجارفة فيما خطته يد أبي الفضل ، ولا اعد ما نقلته عنه في مدح نفسه إلا من غرور العبقرية . ولا بدع ، فالعبقرية والجنون عيشان في صعيد واحد .

لم يمدح الياس كما يشتهي فتولى هو بنفسه مدح نفسه ، فأطنب وغالي وأغرق . كان أيبساً لا يستجدي التقريظ من أحد ، ورأى انه مغموط الحق فحك جلده بظفره ، وإلى هذا أشار في كتابه « التسريح والمصريح » فقال : « أعرف كثيرين من الشعراء والكتاب يكتبون بأيديهم تراجمهم وتقاريظهم فينشرها لهم اصحاب الجرائد على علاقتها لصداقة أو قرابة أو شفاعة أو طماعة . وبعض صحافتنا اتخذها محترفوها مهنة للخداع والكذب . فقد تحمي بالريحان من يرجمه الناس ، وتجعل الجاهل عالماً والسارق محسناً . قرب صحافي برشوة أو اكلة أو سكرة صير القدم فريد عصره والفلسل وحيد عصره . وبورقة عملة يملأ ورقة جريدة من صورة الراشي وشما ريخ الألقاب والنعوت . فالذي يشاء يصبح أمير أبلاد وزعيم العباد ، وعميد الكتاب وصيد الشعراء . »

وكأنني بالياس قد أخذ حقه بيده بعد ما رأى ما لحق به من حيف . فما كان كفيده - كما قال - شاعر نهر ولا بحر ، ولا شعب ولا قطر ، ولا فيلسوف شرق ولا علامة غرب ، ولا امير شعراء ولا رئيس كتاب ، بل نصب نفسه ملك الشعر والنثر وكفى .

ابو الفضل الشاعر

شاعر مطبوع ، خلق ليقول شعراً ، كان يحكي شعراً إذا شاء ، وظل يقول الشعر حكياً معرباً ، فهو في هذا ضريب عبد المحسن الكاظمي وان لم تكن له

الديباجة الكاظمية . يعني أبو الفضل الوليد أن يؤدي فكرة لا أن يبدع فناً ،
وان ادعى الخلق والابداع . فقلما تقع في دواوينه الأربعة على صورة بيانية ،
ولكن نفسه تحن كثيراً إلى الخلق الذي يزعم أنه سبق إليه المتقدمين والمتأخرين .
فهو في ديوانه الأول « رياحين الأرواح » يناجي « العصفور » سائلاً إياه أن يحود
عليه بشيء من ابداعه :

أيتها العصفور قل لي	أتغني أم تصلي
هذه تغريدة قد	طيرت قلبي وعتلي
أبت بالانشاد فوق	أن تكن بالنظم مثلي
زادك الله جمالاً	في التغني والتغلي
اعطني وزناً جديداً	لم يكن للشعر قبلي

أرأيت هذا التوق وهذا الوجد ! فهو يتعنى أن تكون له لغة العصافير
وأناشيدنا . أدرك أبو الفضل المدرسة الجديدة ولم يتأثر بها ، بل نستطيع
القول أنه ازدراها . كان يزرع حقله بعقله كما يقولون ، ولهذا يقول لنا : « في
شعري هذا لهجة صادقة ، وطريقة جديدة . وقد فتحت فيه أبواباً لم تطرق ،
ومهدت للشعراء سبلاً ، فما نظمت قط مستزقاً أو متعلقاً ، وما طمعت بنظم
ذليل في مال قليل ، فما اسقطه متاعاً إذا طرح في الاعدام على الاقدام . وشر
البلية من ذي رأس خفيف وكيس ثفيل . »

ان صدق اللهجة والاباء وعزة النفس ملء دواوينه الأربعة . أما الطريقة
الجديدة والابواب التي فتحها فما هبت علي منها نسمة ، إلا إذا كان التجديد فيما
قال : « وأحببت الشعر مصفى منقّى لا جوازات فيه ، ولا قواف
مكررة ، ولم استعمل كلمة أعجمية ولو راسخة في التعريب غيرة على الاصيل
من الدخيل . »

اشهد أنه في هذا صادق ، وصادق أيضاً حين يقول : « كثيراً ما لا يكون
الشعر لصاحبه ، أما أنا فصاحب شعري . تنسأثر من قلبي زهراً عن غصن

وريشاً من جناح ، فعلى طريق الحياة نثرت شعوري ثم نظمته في شعري . فما شعري إلا تذكاري لمروري في هذه الدنيا . وكنت اود أن لا اترك أثراً ولا ابقى خيراً ، فأكون كعصفور يلقي غردة ويمر وهو غير مكترت لما تردد في الفضاء . »

ان في هذا المنشور شعرا كثيرا لا نجد مثله في منظوم الوليد الذي يرى الشعر سليقة وفطرة ، لا صناعة وفكرة . فأبو الفضل سليقي يقول فيعرب ، كما قال ذلك الشاعر عن نفسه . طويل النفس كإبن الرومي وان لم تكن له معانيه الغريبة . قد يتفقان في وحدة القصيدة ويختلفان في أن الوليد لا حشو عنده ولا ركاكة . تمنى أبو الفضل لو وضع اوزانا جديدة ليكون ذا بدعة وابداع كما قال ، ولكنه لم يفعل شيئا من هذا ، وما عبر في قريضه إلا عن آماله وأمانيه بعربان الكلام البعيد عن الخيال الشعري ، المنطق العبارة .

والشعر في نظر رفيقي الياس نبوءة حقاً ، ولهذا قال في مقدمة الرياحين : « كان اليهود يقولون تنبأ اي قال الشعر . فالنبي في عرفهم هو الشاعر ، وقد كانوا ، وايم الحق ، مصيبين . فما الزبور والامغار والنبوءات إلا قصائد . وما داود وسليمان وسائر الانبياء إلا شعراء ، وكفى بنشيد الاناشيد شعراً غزلياً يخلب القلوب ويسلب الالباب . أن التوراة رُقن - دواوين - شعر مجموعة ، وهي كتاب اليهود ، ولكل امة كتاب هو كتاب شعرها ، تذكر به ما كان وتأمل ان يكون . »

ويعرفنا ابو الفضل الوليد بدنوان « رياحين الارواح » فيقول انه مظهر الروح المتأثرة . وكذا يكون شعر الصبا والفتوة . فهذا كتاب الوليد حقاً ولا اسميه عبثاً كما سمى المعري ديوان البحثي ، إذ لا يحق لي ولا لغيري ان نعبت بالشاعر الصادق الذي يكشف لنا خبايا نفسه .

هذا الديوان غزل كأكثر الغزل ، ولكن فيه وثبات كما في قصيدة مداعة عذراء :

مجلسها صمت وإيجاز	ولحظها للقلب مهاز
مالي على عفتها طاقاة	تلك على المجروح إجهاز
مزلي بها والدين دون الهوى	وفي يد القيس عكتاز
وصورة العذراء في خدرها	والسبعة البيضاء إيماز
قيسها ينهى ولا ينتهي	وهي عجين وهو خباز
ان قلت مولاتي عديني وفي	فالقلب من عينيك قفتاز
قالت وقد عضت على كفها	لم أدر ما وعد وانجاز
أرشدته يا يسوع واغفر له	من اجلسنا جرحك تزاز

اظن انها قصيدة فريدة ، وهي في نظري ريحانة دواوين الياس الاربعة ،
لا ديوان رياحين الارواح وحده .

وفي قصيدة « إلى فتاة ترهبت » رأيت هذا البيت في المحل الارتفاع من سموات
الشعر . قال يذكرك تلك الفتاة التي عاذت بالدير من شياطين العاشقين :
ولم انس يوما فيه جثتك زائراً فقلت « الا هتبي » فقلت « قفانبك »
اجل هذه لقطات ترميها الآلهة في طرق ابنائها الشعراء ، وهنيئاً لمن يقع
على مثل هذه الكنوز .

اما ديوانه الثاني . أو الرقن الثاني في لغته هو ، فمصدر بصفحة كتبها
الشاعر بخط يمينه ليثبت ايمانه ويقينه بسمو العرب وحق العرب بسلطان لا
يزول . ان قصائد هذا الديوان يدل عليها عنوان « اغاريد في عواصف » وهي
قصائد انين وحنين ، وغزل ونسيب ، وذكرىات اوحتها إلى الشاعر هجرته .
فكان من امه ، قعيدة بيته في الحمراء ، كابي فراس من عجوز منبج . في هذا
الديوان تتفجر عواطف الياس بسبب ما ادرك من خيبة في هجرته . اصابه ما
أصاب النعمامة كما قالت العرب : ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا اذنين .
وذهب هو في طلب الطريف فأضاع التليد ، وذاك حظ كل من تدركه حرفة
الادب . فكم من معزاز أو عتال هاجر فاعتنى ، وكم من اديب لبس لم يعط

خبزه كفاف يومه . فاسمع كيف يخاطب نفسه :

انطمع كالضليل بالوטר العسالي واذت قليل الحظ والصبر والمال
اطرفة في العشرين فاجأك الردى وبا ابن زريق مت من طول إهمال
وفي قصيدة خاصة بابن زريق يخاطبه فيها :

شقينا كلانا فمت وكدت اموت ، فجسمي براه السقام
فمثلك خضت بحاراً وجبت قفساراً وشيت لفرط اهتمام
ويقول في قصيدة اخرى :

والحظ لما طلبت المجد ارجعني صفر اليدين إذا فتشت لم أجد
ثم يختم هذه القصيدة موجهاً كلامه إلى والدته :

ماذا تقولين أو ماذا اقول إذا عاد البنون الى المأرى ولم أعد
لهفي على ولد يقضي الحياة بلا أم ، ولهفي على أم بلا ولد
وإذا شئت أن تتذكر أبا فراس فاسمع :

هناك وراء البحر أم حزينة تكابد آلام الشهدات من احلي
ابيت اناجي طيفها قائلاً لها رويدك اني كالألى فعلوا فعلي
لقد مات (دنتي) يائساً في جهاده وقدمات في المنفى (امرؤ القيس) من قبلي
واني لأدعو كل ذي محنة أخي فللسبل حنات إلى زارة السبل

ويأس الياس فيرى الكون من وراء نظارة سوداء فيقول :
من يعط لا يوهب ومن يمنع ينل كن مؤمناً بالله واشبع ديننا
ثم يرى سبب شقاء هذا البلد في طوائفه ، وإلى رجال الدين يعزو فقر البلاد
فيقول فيهم :

متى ينتهي كهاننا وشيوخنا فنخلص من حياتهم والعقارب
شقينا لنعمائهم وراحتهم فهم يسوقوننا كالعيس نحو المعاطب
يقولون صلوا واصبروا وتقفوا وتوبوا وصوموا وابتوا في التجارب
وهم بين عواد وزق وقينة لها عبثات بالاحى والشوارب

يجمع ويعرى في الكهوف فقيرنا ويشقى ويبكي صابراً غير عاتب
وقد أكثروا ديباحهم ودجاجهم وقالوا لشعب الله عش بالمعائب
فكم أكلوا القربان بعد فطيعة وكم جعدوا الايمان عند المكاسب
خلاصي، وما اغلاه، لست اريده إذا كان من خوري وقس وراهب
مق يهزم القربان نسر محلق وتبطش آساد الشرى بالشعالب

هذه هي (اغاريد في عواصف) ، وسرى إلى أين سار هذا المتعرد مع العاصفة .

والديوان الثالث : الانفاس الملتهبة ، نظم في الحرب الكبرى الأولى فجاء صورة للزمن الذي نظم فيه ، طافحاً بحب الاستقلال الذي حنت اليه الامة العربية وحاربت من أجله . والشاعر في هجرته يحلم بالمجد العتيق ويتسالم ويحن الى ارض هجرها :

ذكرت بلادي والكواكب تسطع ونفسي بما فوق الكواكب تطمع
وجدت لكى ارعى نجوماً كثيرة ولكن نجمي بينها ليس يطلع
فهو في هذا ينظر إلى قول المتنبي : فلا تقنع بما دون النجوم . ابدأ اقطع البلاد ونجمي .

ويرى الشاعر ان البلاد لا تنهض إلا بالسيف والقلم متعاضدين فهتف :

صليل الظمى وصرير القلم لفك القيود وشق الظلم
بدونها لا حياة لنا فهذا وذاك حياة الامم

وشمرت الحرب عن ساقها فشمير الياص معها ، واطربه زئير الحديد فصاح :
السيف يخطب فاسكت ايها القلم لا خير في الخبر حيث الدمع ينسجم
اليف منه صلاح فاضربن به ان النبي لنصر الله قد ضربا
ان اخفق الحق والايمان بر أحد فيوم يسدر ازال الكفر والشغب
أما تراجع محروساً ومحترساً فالليث يرتد احياناً لكي يشا

ويذكر مسقط رأسه لبنان في تلك الأيام السوداء فيهتف :

لي أمة شطرت شطرين شطر نوى وشطر موت فكيف الشمل يلتئم
قد مات أبناؤها حتف الانوف على مرأى الألوف فلم تنهض بها الهمم
وثوقهم بوعود المعجم ضيعهم فذمة المعجم ألا تحفظ الدمم
يا ليت اعلامهم اكفانهم فلم منها حياة وللأبناء معتصم
لكنهم تحت رايات العدى سقطوا صرعى، وفي ارضهم من قوتهم حرموا

حقاً انها صفحة طواها الشعراء وما أتوا على ذكرها إلا قليلاً . اني اضحك حين اقرأ اليوم هذه العبارة : الحرب الباردة . فأين برودة حرب اليوم من صقيع تلك ؟! فما مرت حرب باردة في دنيا الله كتلك التي مرت على لبنان في حرب سنة ١٩١٤ . ماتت الناس بعدما أكلت الفئران والجردان والحخير ، والشعير من روث خيول العربات . اجل لقد أكلت الناس هذا وماتت ولم تطلق بارودة ولم تهز عصا .

وكان الياس حين سمى ديوانه الاخير « نفخات الصور » قد تخيل امته راقدة وهو رافائيل ينفخ في الصور ليبعث من في القبور . لا تستغرب هذا القول ، فما هو الشاعر يصدر ديوانه هذا بما يلي :

« لقد كان هذا الكتاب من الشعر وحيًا وتنزيلاً للعرفان والهدى ، فالعواطف والافكار التي تجيش في ابياته لا تكون الا من نفحات علوية تنعش السماء بها الارض ، كيف لا وناظمها ابو الفضل الوليد . قد نشأ مارونيا لبنانياً وتخرج من مدارس نصرانية كهنوتية فكان معلوه قسيسين ورهبانا . وتغرب في بلاد افرنجية وامريكية اهلوها لاتين بحورهم تفرق الشرقيين ، فمن يصدق ان من هذه تربيته يشعر ويفكر بما لا يدور في خلد عربي مسلم في مكة . ان هذا إلا دليل على ان شعره موحى به اليه ومنزلاً عليه ، فليس هو مسؤولاً عنه ، انما الله وليه فيما كتبت يده لخير العرب والمسلمين . وقد تدرج حب حتى حبيت العروبة اليه الاسلام وهو روحها وجوهرها . »

ثم يختم هذه الصفحة من تاريخ حياته بهذه الكلمة : « فاذا لم يكن نبياً
- أي أبو الفضل الشاعر - لا شك بأنه ملهم من خاتم النبيين » .

أما النبوة فلا ، أما الإلهام فهذا فيض من النفس ، ونفس الياس تهدر في
أعماقها المروية ثم تجري أنهاراً جارفة في « نفحات الصور » وليس أصدق من
عناوين قصائد هذا الديوان في الدلالة عليه وهذه هي أولاً : (الرؤيا النبوية)
وفيها يقول أبو الفضل :

تشوقت حتى زارني الطيف مؤنساً واشرق نور الشمس الطلعة النبوية
ويبلغ الوليد الجنة فيرى على بابها رضوان لابساً من الأضريح أفخر حلة .
ويدخل الجنة ويشرب من رحيق الحور والولدان باكوأب من در ، وقوارير من
فضة ، حتى إذا ما توغل في الجنة بلغ حضرة من على العرش استوى ، فرأى :
غمامة عليين تستر نوره ترفع رب العرش عن كل هيئة
ويتحير الياس في ذلك الموقف ومعجز عن الوصف كما عجز ماربولس من
قبل فيسمع صوتاً يناديه : دعوتك فاسمع أنت صاحب دعوة .

وكن منذراً بين الوري ومبشراً وبلغ جميع المسلمين وصيتي
فشعرك وحي منزل في جهالة كما نزل القرآن في الجاهلية
تشجيع وآمن يا وليد فأنت لي رسول وفي الإبلاغ فضل الرسالة
أنا المصطفى المبعوث للحق والهدى وقد صحفوا في مصحفني كل آية
وقل لجميع المسلمين تجمعوا وصونوا وقار الأمة العربية



ريمضي الياس في البلاغ المبين الذي تجلى له في تلك الرؤيا ، فيسدي إلى
العرب نصيحاً جزيلاً صادقاً لقنه إياه الرسول عليه الصلاة والسلام - كما زعم -
وينقطع الهاتف فيجفل مرعاً من الصمت ، ويأسف لانقطاع الرؤيا وما
اشتمه من حسنات عدن من نفحات طيبة ، ويختم هذه الكلمة بقوله :

وفي الشعر ربحان وراح وكوثر فما في من ريّ وريتا لامي
أما المطولات الآخر فهذا بعض عناوينها : « الشرقية ، المغربية ، المقدسية ،
الشامية ، العراقية ، المصرية ، الأموية ، الاندلسية ، وكأنها معارضة لنونية
ابن زيدون ، وفيها ينحني على جماعة الغرب باللوم والشجب فيقول :

المريمات مذلات فواطمنا كما تذل الأناجيلُ الفراقينا
وللفلانسُ هزء من عمائمنا وهي التي صغرت في عين قاضينا
فما لنا قوة إلا بسيدنا محمد ، فهو يرعانا ويحمينا
ثم تلى هذه القصيدة « الدمشقية والصحابية والجندية » وفيها يحیی الراية
العربية بقوله :

بروحي وأهلي راية عربية لها النصر في سود المعارك باسم
حماها النبي المصطفى واستحبها وناسجها جبريل والله راسم
ثم يذهب في حسن تعليل ألوانها الأربعة مذهباً موقفاً. وبعد رفع هذا العلم
لا بد من ان يأتي الجهاد ، ففي القصيدة الجهادية يتغنّى ما شاء . ثم تليها قصيدة
(الشهادية) وهي من مطولات الديوان وقد ختمها بقوله :

تمنيت مع فتیان قومي شهادتي ولكنني أهوى الحياة لأثارا
ويختم الشاعر رقبته الرابع برباعيات وسباعيات بنى قوافيها على حروف
الهجاء .

أما رأي الشاعر في ديوانه هذا فهو : « انها من نوع الايبوبه - الملاحم -
هند الافرنج ، فهي ملحمة العرب الكبرى ، وتفوق الملاحم التي نظمها اليونان
واللاتين والافرنج بعظمة المعاني ومتانة المباني ! »

ولابي الفضل الوليد غير هذه الدواوين الشعرية الأربعة « منقمة غافر
ولبانة » التي لم تقع في يدي ، ولكنني تعرفت اليها وعرفت مكانتها في الشعر
بما كتبه أبو الفضل الوليد في آخر دواوينه . قال ، كعادته ، في تعريفها :

« هي منعمة شعرية نظمها أبو الفضل الوليد من أجل مصر . وضعت على أسلوب جديد وطريقة مبتكرة جمعا محاسن الأدب الرفيع . ولا بدع ، فناظمها قد تفرد بإبداءه وانذاره في النظم والنثر وجاء ، بالعجب العجيب .

قال خبير مطلع على المناغم عند الافرنج ان « منعمة غافر ولبانة » أجل المناغم التي تلوتها وشهدتها ، فهي تحفة هذا الفن . وكان نظمها على نسق مبتكر فشيئها أحد قارئها بواجهة جوهري معروضة فيها الجواهر على اختلاف أنواعها وألوانها . والخير يظنها تأليف موسيقي لا تأليف شاعر لما حوته من الصناعة الموسيقية . ولما تلاها أحد الموسيقيين قال : « هذا تنزيل لا تلحين . »

قلت : وعنا لأمر الاستاذ سعيد تقي الدين ..

أبو الفضل الناصر

لأبي الفضل الوليد أربعة كتب نثراً : « أحاديث المجد والوجد » ، وهو حكايات مستوحاة من التاريخ العربي في الشرق والغرب . وهذا الكتاب ككل كتبه ودواوينه لمحته وسداه العروبة والقومية . وفي نهاية ستة فصول سماها رسائل بها ينتهي إلى كتابة ما سماه « الفاتحة الوطنية » ، وفيها يقول : « يا مالك السماوات والأرض وقابض الدول والسلطين ، خلص الشرق من الغربيين ، ونجنا من مكائد الاجنبيين . واجعلنا متدينين غير مغالين ، احراراً مستقلين ، غير مسيطر عليهم ولا متفرنجين ، فنعيش ونموت عرباً سوريين . »

ولا يكتفي بهذا بل يكتب « تعلما » جديداً على نسق التعليم المسيحي الذي يتلقنه الناشئون على هذا الدين فيقول :

س - أعربي أنت ؟

ج - نعم أنا عربي بنعمة الله وذمة العرب .

س - من هو العربي ؟

ج - هو المتحدر من السلالة العربية أو المولود في الأرض العربية .

س - ما هي الأرض العربية ؟

ج - هي كل أرض أهلها عرب ومستعربون .

س - هل سورية منها ؟

ج - نعم وهي من صميمها ، فأنا عربي سوري .

إلى ان يسأل :

س - ماذا يريد العربي المخلص للعرب ؟

ج - يريد لهم دولة عامة ، وراية جامعة ، ولغة واسعة .

وأخيراً :

س - اتحافظ على هذا المذهب ؟

ج - نعم ، به أعيش وعليه أموت .

أما كتاب « القضيتين » فموضوعه يدور حول السباستين الشرقية والغربية وما يسديه فيه لقومه من النصيح قوله : « ليعمل للتوفيق أهل العصبية من المسلمين والنصارى فيكونوا خير العاملين . فمن الكبائر ان ينجل العرب والنصارى أمام العرب المسلمين ، فما أجل تعاون المسلمين والنصارى على الأجانب والحوارج .

ان كرام العرب والنصارى مخلصون لأمتهم ، متعلقون بعروبيتهم ، يفضلون حكم بدوي على حكم أجنبي . ويرون المنقصة ان ينوب عنهم ويكون كهان لهم منهم زعماء . إلى ان يقول : « لا أوطان في الوطن ولا طوائف في الأمة » .

وفي كتاب « المآلك » أي الرسائل يكتب في العلم والفن والاجتماع والفلسفة فلا يدع شيئاً من الشؤون والشجون إلا ألم به . وكأن المعاملة ، وخصراً المالية منها ، قد نفست عيشه فقال « ثلاثة لا تفتحها إلا عند اللزوم بابك وكيسك وفمك . وأشد الخطر في فتح الكيس الذي يفلق القلب . فتحصيل الدين أشبه شيء بقطع الأضراس وشتت الشعر . ومجاولة الدائنين للمديونين كمجاولة السباع ومزاولة الأفاعي » .

ويختتم هذا الكتاب برأي في الأدب فيقول : « الأدب حق الرفيع منه كان منه اضرار واضلال وليس إلا نوعاً من الملاهي . ولم ينفع الناس في كل اطوارهم إلا العلم الثابت الصحيح » .

وفي كتابه « التسريح والتصريح » ولعله آخر ما ألف يتعرض للفسة ، فينظر فيها نظرة فاهم ، ويتشدد كثيراً حتى يصفى اللغة من كل عجمة ، فينصح لمن يريد ان يتخلص منها بتاتاً ان يقول في الجلتجين ورَّسَلْ ، لأنه مصنوع من الورد والعمل ، وفي الفالودج دَمَمَلْ لأنه معمول من دقيق وماء وعسل !!

وهذه أيضاً تذكرنا بما نحتة سعيد تقى الدين من مفردات خالدة ..

ويتعرض أبو الفضل للكتابة فيثني على الخط العربي ويقرع دعاة العامية تقريباً عنيفاً ، ويدعو إلى التكلم بالفصحى .

ثم يتعرض للركالة في الكتب الدينية ، كما فعل الشدياق من قبل ، ويدعو العلماء من الكهان إلى تهذيب لغتها . ويرى « في قصص التوراة ما ينجبل من تلاوته الحليع ، ناهيك انه يعلم الفاسق ما يحبل ، فحول وجهك عما فيها من دعاة بني اسرائيل بل بني عزرائيل » .

أما الآن ، وقد انتهينا من هذه الدراسة ، فهل كنت تحلم يا أخي الياس ، ان رفيقك مارون الذي كانت نكته توجعك سوف يكتب عنك هذا الفصل ؟ لقد كنت بك رفيقاً كما كنت لك صديقاً ، وأنا ، قبل وبعد ، مولى باحياه المؤودين من اعلامنا .

في المضمار

شibli الملائط

جمعية الصياد

معجم العلابي

حول القصة

معيد نقي الدين

الأمير عبد الله الفيصل

ديوان الملائط

يعذرنني أصحاب الدواوين والكتب إذا ما قدمت ديوان استاذي شبلي
الملائط ولم أراع النوبة التي يراعيها جميع الناس حتى أصحاب المطاحن .. أما
هكذا أدبنا الشاعر القديم حين فضل الاستاذ على الوالد .

إننا أمام حقبة لا يد من تدوين كلمة شاهد رأي معاركها وخاض غبارها..
فشبلي زعيم من المحاربين القدماء عركه الفضل عرك الرحي بثقالها . هو سيف
غساني لا عيب فيه غير ان به قلولا من قراع الكتائب .. ناطح وساور في مجال
الأدب والسياسة ، واطنه لم يلق سيفه وترسه بعد . ما زال على شيخوخته في
عرنيته شمم منتصب كبرج لبنان الناظر إلى دمشق . لا يحبو إلى الثمانين كما عبر
القدماء ، بل يقفز ويحمر نحوها غير منحن تحت أنقالها . سبقت ساعته ساعة
سواه خمس دقائق فأحرز في زمانه لقب الشاعر المصري ، فكان في ديوان
العرب ، فترة من الزمن ، كبير امرئ - التيس : كبير افام في بحاد مزمل .

إذا عتق شبلي اليوم ، في نظر الجيل الطالع ، فهذه سنة الوجود . ولنعمد
الله على امرين ، على ان لنا جديداً وعتيقاً ، وانثسل يقول : احفظ عتيقك
فجديدك لا يبقى لك .

لست تأمن غضب شبلي ، فرب كلمة تخرج من فمك ، وأنت لا تقيم لها
وزناً ، ترجع كفة ميزان غضبه وتقوم القيامة . يقعنس ويشمخر ، والكتب
عاصفة تمر . وقيد شوك وبلان ترتفع السنة لهيبه حتى تلاقي السقف ، ثم تهد

النار. وتحمّد ، فاذا خفت غضبه فلا تيأس من رضاه القريب جداً .

شيلي تاريخ حقبة لبنانية ، وليس استطاع تاريخ حقبة في مثل هذا المقام ، ولكن لا بد مما يقال ، أو لا بد مما له علاقة بشعر الرجل وأدبه . فالمعركة الأدبية التي نشبت حوله في فجر هذا القرن أشبه بمعركة قروم القرن التاسع عشر : الشدياق وأعوانه ، واليازجي وأنصاره . وإذا كانت هذه المعركة محلية ودون هاتيك ديمومة وحدة فقد انجلت عن غنائم أدبية وكانت لنا مدرسة ثانية .

كنت يومئذ في مدرسة الحكمة . وكان يوم أحد ، فدعانا استاذنا الملاط ليمرّتنا على تمثيل روايته « الذخيرة » ، ففادرتا قاعة الدرس مبتهجين لاننا استرحنا من رؤية وجه الراعي الحامض . وما توسطنا « اللبوان » حتى رأينا النمر غضبان ، ورأينا الأستاذ بشاره عبد الله الخوري يصفر ويخضر ، والشيخ ابراهيم المنذر يشير بيديه وعلى فمه ابتسامة حائرة . وهتف الملاط بنا : امشوا . ومشى ومشينا ، وراح المنذر وبشاره الخوري ، وكانت دقيقة لها ما بعدها في تاريخ نهضتنا .

تجمع ثلاثة على شيلي : المنذر ، وبولس زين ، ويوسف مراد ، وكل واحد من هؤلاء عارف بأسرار اللغة وان لم تكن له شاعرية شيلي وترسله ، فراحوا ينتقدونه لغوياً ، على طريقة الشيخ ابراهيم اليازجي في لغة الجرائد . ابتدأوا بمسرحيته (الفرد الكبير) فوقعوا فيها على اخطاء كثيرة ، فكانت لنا من مطالعة تقديم فوائد جمة .

قد تقول ومما علاقة بولس زين ، وكيف دخل في القضية و شخصاً ثالثاً ؟ .

— كان بولس زين محامياً . وكان ثامر الملاط ، شقيق شيلي ، قاضياً في كسروان ، فكان إذا جاء زين ليرافع ، ومن عادته التطويل الممل ، ضاق به صدر الملاط ، وكان ضيقاً بلا سبب ، واسكتته بهذه العبارة : صه يا رجل .

ودارت الأيام دورتها ، فعزل مظفر باشا قاهر الملاط وعين بولس زين قاضياً لهاكمته ، فكان إذا حاول قاهر ان يتكلم اسكته زين بقوله : صهن يا رجل .
أي اسكت ابداً .

هذا ما حمل بولس زين على المساهمة في فقد استاذنا . وانفتح لهم صدر جريدة لبنان لابراهيم الأسود ، عدو بيت الملاط . كان الأسود مقرباً من مظفر باشا متصرف لبنان ، واليه يعزى تعيين بولس زين قاضياً . وهكذا اتفقت الأغراض وكانت تلك المعركة . ولكن النقد ينفع ولا يضر ، ولو كان من العدو ، أما قال الشاعر :

عدائي لهم فضل علي ومنة فلا أبعد الرحمن عني الاعاديا
هم كشفوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكنتبت المعاليا
فكما تتعلم كيف يكون الدينار الزيف حين يعيده اليك الصيرفي ، وكذلك يفيدك نقد الكلام . فلا تلمن أبا الناقد ولا تحرق دينه ، فليس للناقد دين ولا مركع ..

قد يقال نراك استعجلت هذه المرة ، فمن عادتك ان تبقى الكتب عندك شهوراً واحياناً سنة وأكثر . قلت : وهناك سبب آخر غير الذي تقدم ذكره وهو انني أعرف أكثر شعر الملاط على غزارته وكثرته ، فاللهم زد وبارك . هذا هو الجزء الثاني منه المتضمن الألوف من الأبيات ، وهو لو جعله دواوين ، لكان له بضعة عشر ديواناً من طراز دواوين هذا الزمان . ان هذا الديوان الضخم الفخم لاشبه بفساطين وسراويل السيدات القديمة التي لو فصلت قصيرة مزمكة ، لكسا الفسطان الواحد منها بضع نساء .. ولكن استاذنا أراد تعبئة أكبر كمية ممكنة في عدد واحد .

لقد اساء استاذنا إلى نفسه العتيدة في تاريخ الأدب ، فسوف يقال - بعد العمر الطويل - له ثلاث مسرحيات ورواية مترجمة ، وديوان شعر ضخم .

فلو فصلنا ديوانه - فسطان الملكة فكتوريا - على الطراز الدارج اليوم

لكان لنا منه ، على الأقل ، عشرة دواوين ، كل واحد منها قائم برأسه وفيه وحدة . فالقصائد التي عنوانها وقفاتي في بلاد العرب ، ديوان كبير لو صفف على طريقة علب الشوكولاتا .. أي في كل صفحة بيتان ثلاثة . وقصائده القصصية ديوان آخر لا يقل عنه حجماً ، ويهوديت مسرحية شعرية تعبوية كتاباً ، وغزله ديوان ، واجتماعياته ديوان .

لقد ظلم الأستاذ نفسه ، لأنه لم يرتب مخزنه الكبير على طريقة الـ ا.ب.ث. بل كوّم هذا الشعر فكان لنا منه بيدركثير الغلة ، فإذا سقط منه تحت الغربال مقدار تبقى مقادير تملأ بهواً لا ديواناً .

فيا معلمي العزيز . إذا عجزنا عن اقامة يوبيلك الذهبي فديوانك هذا يقيم لك الآن ، وفي كل أوان ، يوبيلاً الماسياً . ان فيه منه ما يقاس بالدرهم لا بالقيراط .

ولا يتوهم أحد ان ما قلته يعفيك من النقد ، فالتناس لا ينقذون الا الذهب اما النحاس فمن يقيم له وزناً . أنت تراثنا الغالي والموعد الغد . ومعاذ الله ان يلقيك العقوق من البنين .. فعلى كبر سني ، وشيبي بحمد الله غير وقار ، كما قال أبو نواس ، ما زلت أسعد وأعتز يوم أراك وأبوس يدك الطاهرة كلما التقينا .

ولكن كل هذا الحب والإجلال لا يغل قلبي ولا يشلّ فكري أمام مهابتك .

ومن ذا الذي ترضى سجاياء كلها كفى المرء نبلاً ان تعد معايبه

جاء في رسائل رسول الأمم : على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كلمة . وفي عنق هذا الديوان الأغر تيمتان نفث في عقدهما شاعران قارحان : شكيب ارسلان و خليل مطران . فديوان الملاط ، إذن ، أصيل مطهم ، حجته برقبته ، كما يقول الفرسان .

ولكن هل تحول هذه التعميذة دون قول كلمتنا فيه ؟ لا . وما دمنا لم نقف بعد على حقيقة الجمال ولم نعلم إذا كان موجوداً في نفس الناظر أم في

نفس المنظور ، فالجمال أمامنا واسع . ولذلك قال الأولون : لولا اختلاف النظر
ما نفقت السلعمات

ما هذه أول مرة اتجاسر فيها وأدخل قبة العهد وقدس الأقداس ، ففي
« على المحك » ومجددون ومجترون ، ودمقس وارجوان ، كلام عن شاعر الأرض .
واني لأخشى أن أكرر ما قلت حين اتحدث عن هذا الجزء من ديوان شاعرنا
الكبير شبلي بك ملاط . فالملاط مثل لبنان في الأقطار الشقيقة امثل تمثيل ،
فكان كما قال الفرزدق في المرحومين جدوده : برزوا كأنهم الجبال المثل . ان
شبلي نموذج لبناني قح ، ففي عتوه وشموخه ، مثال صادق للجبل الأشم ، وكأنه
قد أحس ذلك في أعماق نفسه فقال :

انا فلذة سخرية مقطوعة من ذلك الجبل الأشم الراق
انا جذع لبنان القديم فما ذوى ورقى ولا لوت الشدائد ساقى
أشهد انك لست تقول معي - ان رأيتك والنفس خضرا - انه في الثمانين ربيعاً ..
وفي مكان آخر ، بعد ما حمد فخامة الرئيس وأثنى عليه ، راح يطرح
الصوت ويعرض ربحه هاتفاً :

قل للألى شادوا المطار بخلدة انا قبلهم بالأرز كان مطاري
لا قمة ، لا ايكة إلا على شجراتها غنى وطار هزاري
ولئن شملت ولاية شوقي الشرق كله حين قال : كان شعري الغناء في فرح
الشرق الخ ، فشبلي أراد ان يحصر امارته في هذا الجبل مع مراعاة العلاقات
الطيبة وحسن الجوار .. لم يشأ ان تتسع رقعة ملكه فيما خسر ولا ضعف قريضة ،
لأنه ما تكلف ولا طمع ، والطمع قلما نفع ..

والآن فلنقل كلمة عامة في شعر استاذنا الجليل : في شاعرنا كثير من
ملامح البحتري ، فهو مثله لا يفصل الكلام على قدر المعنى ، بل يدع معانيه
تخرج من نظامه . بحتري في ألفاظه السهلة المنتقاة ، بحتري في تقطيع أبيات
أجزاء متساوية ، فكان كل فافية من قوافيه (قرار) العواد ، حين ينطع

برأسه اللاشيء وتجهز ريشته على النغم ، فتصعد روحه وتتعالى الآهات .

في شعر شبلي سرعة النهر المنحدر . أما على المنبر ، فهو مكر مفر ، ينصب وينقض كجلود صخره حطه السيل من عل . لا يترك لك شبلي مجالاً متى أنشد ، فأنت مسير لا تخير . تخرفك (حاملة) النهر فقد تصفق للشيء ومع ذلك تصفق بشدة تشبه الهوس .

وإذا عدت إلى ذلك الشعر الذي ارقصك واسكرك انشاد قائله ، شككت في بعضه ، وعجبت لضعيف شعر شبلي الذي يغلب قوي غيره في الميدان . ان هذا هو الذي يدللك على ان الشعر موسيقى ، ويحاو لك سر قول العرب : انشد فلان قصيدة .

وشعر شبلي قليل الظلال كثير الأنوار ، ترتاح العين حين تنع على صورته ، ولكنها قلما تكتشف فيه شيئاً فيما بعد ، وهذا ما يجعل صورته ، على قلتها ، باهتة . فإذا أردت مثلاً للشعر المطبوع في هذا الزمان ، فاقراً شعر شبلي . ليس شبلي من الشعراء المحكمين المتصنعين ، فبنات أفكاره لا يعرفن البودرة والحرة والمانيكير . هن أشبه بظباء فلاة المتنبي . أما خاصته المثلى فهي تلك السهولة النادرة الوجود ، ولكني لا أحدها كثيراً متى جمعت كل موزون .

ان هذه السهولة محودة جداً في شعره القصصي ، فهو لو فكر في نظم ملحمة لما سبقه شاعر من الناطقين بالضاد . انه ومعروف الرصافي خير من قص . فشبلي حين لين ، ضرب برأسه ، ورفس برجله عمود الشعر ، منذ خمسين عاماً . أما الرصافي فشديد الأسر وما تنكب عن طريق السلف المعبدة .

ان عبد الله البستاني معلم شكيب ارسلان والملاط ووديع عقل وأمين تقى الدين وغيرهم من شعراء الطراز الأول - المحضرمين - كان أول من نقد الحجة أمام تلاميذه ، وعلمهم ذلك كما تعلم الدجاجة فراخها . نظم المعلم عبد الله حكاية شعرية عنوانها (الفرصاد) ومطلعها :

ودات صيانة عقدت بينا على حب امرئ عقدأ متينا
فاقتدى به تلميذه شبلي ونظم اقصيصه الشعرية التي أولها :
طفلة فوق سرير من خشب في زوايا بيت صياد قديم
وهنا اريد أن اسأل معلمي : كيف راح ذاك الشطر الذي حفظته منذ نصف
قرن هتفوا طوبى لثدي ارضعك ؟ ! اخفت يا استاذي من الخليل وسيبويه ؟ أم
نالك (معلم ذمتك) فحذفته ، وهو تلك الماسة الرائعة !
لقد جلست في اغراض الشاعر الكثيرة ولكنك كنت الشاعر الأوحده في
القصص . فقريحتك السائلة ، وهي أقوى من خيالك ، هي التي سيرتك في هذه
الطريق .

وإذا قرأنا مقدمة هذا الديوان الضخم رأينا الشاعر العظيم يتأسف في
(الصفحة ٢٤) على ضياع ترجمته لقصيدة بحيرة لامرئين ، حتى إذا بلغ
(الصفحة ٤٩٧) نشرها برمتها ونسي ما قال . فعلى كل الحمد لله على السلامة
ضاعت ولقيناها .. انها قصيدة موفقة يؤسف عليها ، وكم كنت أتمنى ان يضيع
غيرها من ديوان استاذي . ما اعني إلا بعض شعر المناسبات الذي هو أشبه
بالحكى منه بالشعر . رحم الله أبا تمام الذي قال : « موقف الشاعر من شعره
موقف الأب من بنيه فهو لا يتعنى هلاك أحد منهم . »

وبعد فقلنا خلا ديوان شاعر من الشعر المتخلف عن رفاقه ، أما قال
فيكتور هينغو - الترجمة لحافظ ابراهيم - :

انا كالمنجم قبر وحصى فاطرحوا تربى وصونوا ذهبي
فلنصن ذهب الأستاذ ، وأما التراب فالى التراب يعود .
ان لشاعرنا اسوة بالشعراء الكبار . أما قالوا قبلنا : ان رذل المتنبي ليس
تحته تحت . ومع ذلك سمعناه يقول :
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

ومثله قال الملائكة :

من كل قافية ترت كأنها أوتار عود في بنان الموصل
ينغضي جرير والفرزدق دونها ويذوب من حدير فؤاد الأخطل
طبعاً يريد استاذنا الخطل الأمل لا غيره .

وقد عجبت لأستاذي ، وقد كان مديراً في الهدن ، كيف يقول دير مار
قزحيا ، وقزحيا اسم المكان لا القديس . ان هذا القديس اختصاصي باخراج
الشياطين وطردها وأظنه طرد شيطان شبلي فقال فيه تلك الأبيات الباردة .
اظن ان موقف الشاعر من الدير ورئيسه قد كان كموقف بشار من ربابة ربّة
البيت .. احتفى قديس رئيس دير قزحيا بالقيام شبلي فقال فيه ما قال ..
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر .

وقف شاعر الأرز أمام أروع منظر لبناني . النهر تحت قدميه ، والجبال
تحدق به وتحقق اليه بأعين كهوفها ، والقمم منتصبة كالجبابرة لتحمي ذلك
المقل الحصين ، ومع ذلك لم يقل شاعرنا شيئاً . ما شغل باله إلا معجزات
(مار قزحيا) ، وترميم - المحترم - السير علي المدير ..

وهنا جاءني كلمة اكره رجعتها خائبة إلا وهي ان معلمي شاعر بشر
أكثر منه شاعر طبيعة ، فما الهمة هذه إلا كلاماً عادياً . واني اعزو ذلك إلى
نشأته الأولى . قد درج وشب في زمن كان الشعر فيه يقال في الناس فقط .
وما شعره القصصي الذي فاق فيه معاصريه إلا من ذاك ، وان لم يكن هو
هو .. ولكنه يجيد حين يعرض لوصف مشهد اقتضته القصة ان يصفه ، مثل
وصف البحر مثلاً ، في الجمال والكبرياء . والعجيب فيه هو انه إذا شرع
يقص يخلص شعره من تلك الزمات التي تتعلق به في أغراضه الأخرى فلتشوه
محاسنه .

وبكلمة مختصرة وأخيرة أراني مضطراً إلى ان أقول ، وآمل ان لا أغضب

الملاط كما اغضبت الفياض من قبل : ان شعره اشبه بحقل من الزهور المختلفة .
الوردة حد القويصة ، والاقحوان حد بخور مريم ، وشقائق النعمان بين الاعشاب
المختلفة ، والوزان بجوار القندول ، ولكليهما زهر وعطر وجمال .

انك لتظفر من كل قصيدة من قصائده الطوال - وهي كثيرة - بما يظفر به
المؤمن من الحقل يوم الجمعة العظيمة ، فيعود حاملا الى يسوع ، عريس الاحلام
والآلام ، باضمامة زهر طريفة ، واكليل شوك اذا شاء ...

بارك الله في عمر معلمي ، وحسي رضاه .

جعبة الصياد

في جعبة سعيد فريجة سهام ولكنها اخف من ريش النعام ، وصاحبها صياد اي صياد . ولست ارى من صورته على جلدة كتابه في تلك الانحناءة العميقة الا ظالماً له . فهو لا يحتاج الى مثلها الا في صيد الفيلة والتاسيح ... اما ضرباته الاخرى فيرسلها على الهينة ومن تحت ابطه ..

لقد شئنا المقلدين ومومياءاتهم ، بل تلك الاحذية الجاهزة ... كانوا يقولون فيما مضى : فلان شاعر مطبوع ، وهم يريدون انه يقول الشعر عفواً طبعه . ان هذه الكلمة تصح في سعيد الذي يعترف ان الاستاذ كنيدر ، صاحب جريدة التقدم الحلبية ، هو من علمه كتابة الناء وغيرها . فقير قليل ان تؤدي تلك البداية إلى هذه النهاية ، وبصير سعيد فريجة كاتباً نسيج وحده أي صاحب اسلوب هين لين ، يفهمه العامي ويرضى عنه الفصيح المتنطع . قد يكون سعيد كشمشون الذي لم يمر على رأسه موسى ، أي لم يعمل رأسه سقف مدرسة ولا غصن سنديانة .. ومع ذلك فاق الكثيرين ممن تتلذذوا للأئمة ، وقتلوا الكتب انصفراء درساً حتى اصفرت وجوههم ، فوجوه قرائهم ...

اقول هذا بعد مطالعتي لكتابه «جعبة الصياد» التي اخرجتها دار المعارف المصرية مطرزة مدبجة كتلك الجعاب التي كانت تنسجها عذارى لبنان لمن تيمن من الشباب السمر وفتنهن كما فتن قلم سعيد قراءه . ان قلم سعيد لا يؤلم ولو نفذ إلى الصميم ، وضربته الخاطفة لا ترجع لانه لا يشتهي . وكل من يذوقون طعمها لا يستثقلون تلك اليد التي تسدها .

أطلت جمعة الصياد على ديوان الأدب وعليها تعويذتان، وفي تعبيرا اللبناني
خرزتا عين ...

المقدمة للشيخ خليل تقي الدين ، والختام للدكتور سهيل ادريس . اما الذي
عندي فهو ان سعيد فريجة « حاف » غني عن التعريف لان قراءه لا يعدون ولا
يحصون . ما أظن ان هذا الجواد الأصيل كان يحتاج إلى هذه الناصية وذلك
الذيل لولا دخوله ، جديداً ، إلى كاتدرائية الادب الارستقراطي ، بيتا هو ما
اعتاد الجلوس إلا في قرنة كنيسة قروية ...

لا أرانا محتاجين الى مذاكرة سيويه والفراء والحليل وابن منظور حسين
نقراط أو نستقد جمعة سعيد فريجة ، فما فيها غير انفاظ لبنانية فصيحة عامية ،
ولو لم يقل الدكتور ادريس في هدايا الجمعة ما يلبي : « لست ارى في جمعة
الصياد سيئات لسيين : اولهما ان صاحبه وكل الي ان ازيل منه السيئات قبل
دفعه للطبع ، فلا يعقل ان ابقى على شيء منها » لما خطر لي ان اقول
فيها شيئاً .

اجل ان الاختيار جيد ، والغربال غير واسع العينات ، وكل ما يقصه الاستاذ
فريجة خالماً عليه طيلسان ظرفه وبرنس أنسه جميل ، وطيب ، وحلو يؤكل
بالعيون . ولكن الى الصديق الاديب المرتجى الدكتور ادريس اقول : كنت
تقيد ألفاظاً فصيحة عامية بين خطين ، وكنت تترك ألفاظاً عامية تسرح وتمرح .
فحوت في الأمر ولم أفهم السر . وهناك شيء آخر كثيراً ما وجدته مثل :
قلت : لم لا . ثم بعد اسطر في آخر الصفحة ، تأتي هذه العبارة : بتسلم
عليك خالتي ، وبتترجاك . فاذا كانت هذه من كلام الولد ، فليست « لم » من
كلام سعيد .

وقال سعيد في مقدمته : « أما اذا وجدت فيه ما يستحق الهجاء فأرجو
ان تخص به الدكتور ادريس ، وحده ، لانه هو صاحب الغربال ، وانا بنساء
على هذا التوجيه اسأل الدكتور عن كلمة واحدة فقط ، هي « أهل » في هذه

العبارة : لا ادري اهل كانت لي وحدي ، ام كانت موزعة الخ .. ترى الا يرى معي الدكتور سهيل ان كلمة اهل لا هي من كلام سعيد ولا من كلام الجندود رحمهم الله ... لان اداة الاستفهام لا تدخل على اداة استفهام ، ومن يأكل خبزاً بكمك ! .

وبعد فما لنا وهذه التوافه ، فليس سعيد نحويًا يلوك لسانه ولا من علماء البلاغة واللغة . فما ايسر وجود هؤلاء ، فايئنا اجلت يدك تقبض على نواصي من يعرفون هذا على حقه . ولكن ليس من السهل ان تجد سعيد فريضة آخر يسد ما سد من فراغ .

عشاً نتعب في تكوين رأي جديد في هذا الجثي ، فالرأي مكوّن ، فلا النقد يجدي ولا التقريظ يزيد ، فكل صورة من تلك التي يوحى بها ذهنه وتخرجها مجلته تغني عن ابلغ الأقوال واثقها ..

فكلنا معجبون بظرفه في فني الكتابة وايحاء الصور والتزاويق البليغة . فالرجل كذا خلق ولا حيلة لنا فيما خلق الله . حقاً ان الله كريم .

قرأت الجعبة كلها ، ولم اخرم منها حرفاً ، بل كبتها كما كب عبد الملك بن مروان كنياته ووجد الحجاج اصلها عوداً واشدها مكسراً . وقد اعجبتني جداً غمزاته ولمزاته في سياحة انكلترا . ذكرني بكشف الحبا ، فأخونا سعيد وشيخنا الشدياق تشغل رأسهما المرأة دائماً . وكما تذكر الشدياق الطبخ في لندن كذلك فعل اخونا سعيد ، ومن يقول ، بعد هذا ، ان ليس في الدنيا قوارد خواطر ! فكلامهما مشغولان بالبطن وما يليه .

التهمك والاتفاقات العابرة ، والاستطرادات والقرصات الموجهة ، هي زينة كتابة صاحب الصياد ، فنهياً له ولقرائه بها . رأيت سعيداً او سهيلاً يسمي مقال (آخر العنقود) قصة . انها قصة ، ولكن اروع قصة فنية في الجعبة هي (ليلة الميلاد) فمق حذفنا من ختامها بضعة اسطر صارت في طبيعة أقاصيصنا الحديثة . فسعيد قصصي طبعاً ، ويتفوق في الحوار . اما سلاح هذا القنفذ الفني فهو تلك التعابير الخاصة التي يلقنه اياها شيطانه المرید .

كل شيء في اللعبة لذاتي ، الا فصل القمار ، والمرء عدو ما جهل . اني لا افهم الالفاظ التكنيكية ، ولا اعرف المحيط لأتصوره ، بل ما رأيت اللعب قط ، والحمد لله . كنت اسر حين افهم ، أما حين اصطدم باللون المحلي ، فكان يقصر حماري في العقبة . قد كنت احدث نفسي بالصعود الى السماء كإيليا ، ولكنني بعدما قرأت وصف سعيد لاهوال الطيران ورعباته طلقت الفكرة ثلاثاً ، وترحمت على بديع الزمان الذي قال بلسان بشر عوانة يخاطب حصانه :

أنل قدمي ظهر الأرض أني رأيت الأرض اثبت منك ظهوراً
ما حسدت سعيداً على شيء مما ظفربه من صيد غزالات وحمم وبنام ...
ولكنني حسدته على رفقة تلاميذي الطاهر الأستاذ اميل البستاني الذي شهدت
فجر نهاره ، ولم امتع قط بضحاياه وظهوره الرائعين . كنت أسمى اميل الزئبق
لانه لم يكن يستقر قط . واميل من نوابغ تلاميذي ويزيد عليهم انه كان
حركة دائمة ، وهذه الحركة كانت تبشرني بالنجاح الفلاح ، كما كانت تعبني
أحياناً . كانت وفقة الله ، عرق « الجمعيات » النابض كما هو اليوم وريد
المعارضة ... وسبحان من يغير ولا يتغير .

وبعد فلنعد الى سعيد ، ان سعيد فريجة سيبقى بين كتاب الظرف والنكته
الخاصة بصاحبها دون غيره ، وهذا يكفيه . ولو وزعنا ظرفه على عشرات
من ثقل الاقلام لأنعشتها روحه . وما ضره ان يكون حظبه من الفصحى
كحظه من « محاسن » بطله « آخر المنقود » ...

معجم العلابلي

اعرني طرف زرقاء اليامة لأبصر ما وراء تلك العمامة
حقاً ان وراء عمامة الشيخ عبدالله العلابلي لعلماً جماً وتفكيراً فذا يوغل صاحبه
في الغابات البكر ، ليكتشف الكنوز المرصودة في الجاهل . لقد حطم الشيخ
عبدالله العلابلي ذرة الكلمة وأرانا القوى الكامنة في الحروف ، وأي شيء في
الكون اقوى من الكلمة التي قالت العوام فيها : من وطأ كلمة وطأ جبلاً .
وقد قال احد الانجيليين ايضاً : في البدء كان الكلمة ... إذ لم يجدوا له
نعتاً اقوى من هذا النعت .

فبعد ان كانت كلمتنا مبعثرة لا تدل على شيء ، وتسدل على كل شيء ،
جاء هذا العلامة وخص كل لفظة بما تدل عليه . وهكذا صار عندنا معجم ،
كمعاجم امم الأرض ، منظماً منسقاً . كان معجمنا كدكاكين السمانة والعطارين .
الاكياس مكدمة : السكر حد الكبريت ، والرز الى جانب الشعير وو .. أما
اليوم فقد اصبح لكل مادة عندنا مكان . كنا نقرأ مثلاً في المعاجم : شقي ضد
سعد ، حتى إذا ما رحنا نفتش عن معنى سعد رأينا هكذا : سعد ضد شقي .
وفسر الماء بعد الجهد بالماء ...

أجل فجر العلابلي الذرة اللغوية ولم يكلفنا معمله قرشاً واحداً ... حل
على عائقه أثقل الاعباء حين هدم صروح المعاجم ليشيدها من جديد بحجارة
فيها النحت والقلب والابدال ، فجاءت خدمته من أجل الخدمات واسنائها
لأن اللغة هي العروة الوثقى .

عشرين عاماً قضاها هذا العلامة الأكبر معتكفاً في بيته . سميره كتابه ،
ونديه قلمه . يفكر ويدون ويستنبط واجرته اجره . لم يطلب معونة احد غير
ربه وعقله - عفواً نسينا سعيد عقل المنوه به في مقدمة المعجم - حتى إذا ما
فرغ من التفتيش عاد الى الوضع ، والعلماء يترقبون انبثاق هذا المعين ، فاطلت
علينا هذه الدفقة من ذلك ينبوع الغزير فمحت وصحة دمغنا بها ابن منظور حين
كتب مدجمه لسان العرب وقال لنا : خذوا لغتكم من اعجمي .

والآن يحق لعلامتنا الشيخ عبد الله العلايلي ان يخاطب أمته قائلاً : خذي
لغتكم وأرقى لغات المسكونة في كتاب واحد .

وليس على الله بمستكبر ان يجمع العالم في واحد

منذ قرن بالضبط ظهر « سر الليال » ل احمد فارس الشدياق فحدث
انقلاباً كبيراً في مفهوم لغة الضاد ، فهل الناطقون بها لعلمه الجبار . وكان
الله ، جلت حكمته وقدرته ، لا ينسانا فيجود علينا في كل قرن برجل وها هو
ذاك الرجل .

فحين يتحدث الدارسون غداً عن الاكتشافات اللغوية في القرن العشرين
سوف لا يذكرون المجامع وجهودها و « اجتهاداتها » التي نجحها ونقدها ، بل
يذكرون عبد الله العلايلي الذي عمل منفرداً ما لم يعمله العلماء مجتمعين .

وان عُدت رجال العلم يوماً فهذا واحد بمقام الف

قلت يا امام اللغة المعاصر ، انك اشبهت الشدياق ، وكيف لا تشبهه وانت
من طرازه جسماً وعقلاً وبادرة ! فأنت تريد ان تطلق لفظة الأراضة على علم
الجيولوجيا ، وتقول ان الازيم عربية من بزم ، والشدياق قال : ان الكنيسة
عربية مأخوذة من الكناس حيث تختبئ الغزالة . وكذلك كان النصارى ، في
أول عهدهم يختبئون في الكهوف من وجه مضطهديهم .

انه ليسر لغة العرب ان يخلق لها في كل عصر احمد فارس جديد . وكما

اوضح العلايلي الوحدة المعنوية في كل جذر ، كذلك حاول الشدياق ان يخص كل حرف من حروف الالفباء بمعنى عام لا يعيد عنه إلا نادرا . ولثنائية التي كثر الكلام عليها اليوم ، واتجهت الابصار نحوها قد نشأت في ظل ذاك الدماغ الجبار .

والآن يقوم عندنا رجل يعمل موسوعة يحتاج اليها كل ناطق بالضاد من اصيل ومستعرب . ففي هذه الموسوعة موسوعة العلايلي : اللغة وفتحها ، والعلم وتحديداته ومسمياته ، والفلسفة والتاريخ . وإذا قال العلايلي انه يفضل شرح غوامض تاريخ الامة بكلامها فهو على حق ، فالكلمة لم تخلق الا لمرجود يعرف بها ، كما يخلق الاسم للطفل الجديد .

الكلمة كائن حي خالد ، لانها تبقى حية بعد الحي لتدل على انه وجد . وما وجدت الا لتصور كائنا حقيقيا أو تراثيا ، كما عبر الشيخ عن الميثولوجيا . كنا نشكو من معاجنا خلطها الحقيقة بالجواز فجاء من نظم ورتب ، وكلف الكلمة جهدها ، وبعدها كانت اللفظة « مشاعا » حددت ملكيتها ، فجاء معجمه موسوعة حقا لا ينقصها الا الاعلام ، ولعله يخصها بجزء فيكون كتابه معجم القرن العشرين .

فحسبك منه انه ذكر الابر كسيس او الابر كساس ، وسيدكر ، ان شاء الله ، في الاجزاء الآتية : النافور ، والشحيمة ، والجليان ، والسنكار والريش قريان ، والزياح ، الجناز ، وغيرها وغيرها ، فيسهل فهمي انا ، خاصة على القاريء العربي ، في كل قطر . ويعرف كل جار منا ما عند جاره .

قلت ان هذه الموسوعة رحبية الجوانب ضمت القديم والحديث وشبهتها بالمخزن ، ولعلي ظلمتها في ذلك التشبيه الضيق ، فهي اصح تشبيها بالفيبارك العظيم مثل معمل سانت اتيان مثلا الذي تجد فيه كل حوائجك ..

ليس المجال الآن مجال مناقشة ولكنه لا بد من الاشارة الى شيء وهو أن الشيخ ، متع الله العربية بطول بقاءه ، قد تمادى في الخلق حتى شاء ان يضع

الفاظاً عربية موضع الفاظ صقلتها الألسنة واستعملتها الاقلام . فمن يستعمل ، مثلاً ، كلمة الاجيلة بدلاً من الكمبيالة أو السند ؟ والابادية للسريالية ، والمصفق للبورصة ، والترهية للاساطير - الميثولوجيا - والنهجية الكلاسيكية ، والأجد للباتون ، والأبير للجراح الماهر جداً . ثم ما حاجتنا الى اشتقاق فعل من ابريل - نيسان - لتقول ابرل ابرلة وابرولة أي كذبة نيسانية ! أظنك اهتمت بها يا شيخنا الكبير لأن كل الأيام عند اكثرنا أول نيسان ..

و « الابريفونيه » التي نشكر لك تعريفنا بها وبغيرها من الشؤون والشجون الممتعة ، ما حاجتنا الى اشتقاق فعل من لفظتها لنقول : ابرغ أي أخذ بتقاليد ابريفون أن رهبانياتنا ، وابناؤها من قومنا عرب اقحاح ، يعتبرون علمنا إذا لم نشق لهم فعلاً ...

واقول بلا محاباة : اني أوثر أن نعرّب كما عرب العباسيون ، أي أن نفعل كما يفعل المهندس حين يخطط طريق ضيقة ، فهو أول ما يتعرف إلى طريق القدم والحافر ، ثم يماشيا ويحورها طبقاً لفنه .

اني أوثر التعريب والنحت ، وأن قال علامتنا الشيخ عبد الله أن اللغة العربية لا تبيح النحت « جنوحاً وراء ما في طبيعتها من رغبة في التجسيد الكامل . »

أليس عند الفرنسيين كلمات بمعنى مسكين ودرويش وبرنس ! فلماذا فرنسوها هكذا ؟ فلنفعل مثلهم .

كنت اتوقع من الشيخ الذي أجلّ علمه اكبر اجلال ان ينحو نحوم في المسميات ، وهو قد فعل ، ولكنه في أماكن قد ابعد اللفظة عن مدلولها المعاصر وفتش لها عن اسم في مخلفات جيش المحاربين القدماء ..

فانا أوافق على « تأصيل » أبرل وأبرغ لو كنا في حاجة اليها . اني أحب جداً أن يقال : تلفن يتلفن تلفنة ، بدلاً من هاتف المتلبسة .

ولكن كيفما دارت بهذه الموسوعة الحال ، وكيفما كان حظ بعض الفاظها من الاستعمال ، فقد دلت على فهم لسر اللغة منقطع النظير وستكون موسوعة الشيخ العلايلي كتاب القرن العشرين في احياء اللغة العربية ومعرفة اسرارها . انه عمل تعجز عنه الجبارة والعمالقة ، ولكن الامثال تصدق دائما : الرجال لا تقاس بالذراع .

فهنئنا لنا وللعلايلي كتابه الذي هو نسيج وحده . وعسى أن يتحرك أحد من رجال هذا العصر ، حكومة وشعبا ، كما تحرك ذلك الامير الهندي - لست في مكتبي لاذكر اسمه - وطبع كتاب سر الليال .

حول حديث القصة

اي لون من ألوان القصة كان أوفى نصيباً من النجاح في البلاد العربية ؟
- إذا كانت تعني بالنجاح الرواج ، فروايات زيدان كانت تقرأ منذ عشرات السنين وما زالت تقرأ ، أما إذا كنت تقصد الفن فعندنا قصص انجح منها .
وهنا لا يسد من القول : أن القصة أنواع . وأن القصص المتمسكة بأذيال الفن لا تروج كثيراً عندنا ، لأن جمهورنا لا يدرك ذلك المجهود كل الإدراك . تهمة الحكاية والمعقدة الغربية .

- في أي البلاد العربية كانت القصة أكثر رواجاً ؟
- وهل هنالك سوق غير مصر ؟ هناك البندر يا أخي محمداً . اكتب على كتابك طبع في مصر تكفل له قراء . وإذا كنت تتصد بأين راجت ، أين نشأت ، أو أين اقبل على تأليفها ، فجوابه ان القصص الأولى من عمل سليم البستاني وزيدان وصروف وانطون وغيرهم وغيرهم ، أما الأقصوصة فمن عمل جبران ثم احمد تيمور . هؤلاء هم رواد القصة والأقصوصة . ثم جاء غيرهم بحذو حذوهم فصار عندنا قصصيون . أنا متفائل لا متشائم ، نعم عندنا قصص وأقاصيص وجل من لا عيب فيه وعلا .

- هل استكملت انقصة العربية كامل شروط القصة الحديثة ؟
- هنالك قصصيون كفؤوا ووفتوا . وقبل وبعد فانا لا أو من بالهندازة ليصير انقص عليها ، دون ان نحيد عنها قيد شعرة . فعلى الفنان ان يخلق هندازته ، بشرط ان لا يتمدى المباديء العامة المتفق عليها . وهذه المباديء

(١) كان السنتق في هذه الجلسة الامتاز محمد قرا علي .

لم تكن لتوضع ، لولا انها نسخة عن الطبيعة . فالشرع ، كما تقول المعتزلة ، لم يجعل الشيء حسناً بأمره به . فالقصة اذن يجب ان تكون طبيعية ، وعندنا قصص كثيرة مستوفاة هذه الشروط . لا اسمي لثلاث انسى أحداً منهم ، والادباء كما تعلم وأعلم يفضبون ، فمالنا وسخطهم . اما اعتقاد بعضنا اننا متأخرون جداً ، فهذا تطرف . نعم لم نبلغ القمة بعد ، ولكننا على الاقل صرنا على اكتاف الجبل ، وهذا كاف ، فالقصة عندنا صغيرة السن ، ومع ذلك صارت تشتبهى ...

— هل ترى ان يكون للقصة هدف اجتماعي ؟

— وأي عمل فني بلا هدف يا استاذي . ان القصة الرائعة لا تكون بلا هدف اجتماعي ، فهي صورة عن المجتمع . أما الذي لا يصح فهو ان يكون القصصي واعظاً . يجب ان يختفي القصصي وراء شخوصهم ويسيرهم دون ان يُرى . لا تفس دون ان يرى ، فوقف القصص من ابطاله كموقف الملقن من الممثل . عليه ان يلقي ، وعليه أن لا يسمع صوته الناس . وكذلك على القصصي أن يوجه بطله إلى الهدف دون أن يدرك قصده ، لئلا يعرف سير القصة . فعيب مسرحيات شوقي ، وروايات فرح انطون ، هو ان المؤلفين لا يختفيان وراء ابطالهم . كثيراً ما يتقف فرح انطون ليطرح الصوت ويوبخ الانسانية ، وهذا عيب قصص فرح الاكبر بالنظر للفن . وعيب مسرحيات شوقي هو أنه فكر بالشعر اكثر من تفكيره بالمسرح . كان ينظم ويفكر بعيد الوهاب لا بالمسرح والنظارة .

— ما هي الاسباب التي يمكن ان ترجع اليها اهمال الادب العربي القديم للقصة ؟

— الأدب العربي اهتم القصة ، ومن قال ذلك ؟ الأدب العربي ابو القصة في العالم . فهذا كتاب الأدب المقارن للدكتور بول فان تياجم لا يذكر أدب العرب إلا بسبب الف ليلة وليلة . ففي الف ليلة دخل

الأدب العربي في الآداب العالمية واحتل الصدر .

وهذا المتشرق الانكليزي ، جب ، عضو المجمع الملكي العربي المصري ،
هذا الاستاذ المختص بدراسة القصة يقول : ان الغرب لم يعرف القصة قبل
اطلاعه على الف ليلة وليلة . وهذا الأديب العظيم اندره حيد يرى الف ليلة وليلة
بقيام التوراة .

الآن الف ليلة وليلة ليست على نسق القصة اليوم ، نقول ان العرب أهملوا
القصة ؟ هل لي أن أطلب من جد جدي ان يلبس مثلي ! وهل إذا لم يلبس مثلي
أعده عارياً أو أهمل اللبس . جدتي لم يكن من العراة ، ولكنه ماشي زمانه
ولكل زمان زي .

- هل عرف العرب المسرحية وما هو اثر احمد شوقي في هذا الميدان ؟

- المسرحية ، لا . لم يؤلفوا في المسرح ، ولو كان لهم مسرح لكانت
المحاذير موليرنا في بخلائه . اما شوقي فجزاه الله خيراً ، وقد وفى قسطه
للمسرح ونام . وعلى الذرية ان تسير بالعمل الى التمام . شاء أن يكون شاعراً
جاسماً فكان .

- من هو القصاص الأول في أدبنا الحديث ؟ وهل يستحق ان يجلس في صف
القصاص العالميين ؟

- هو ، هو ، زدتها يا شيخ . انا رجل ميسور امري أعسر ، كما قالت
نعم لصاحبها عمر . ولكن بما ان اسهم الدكتور طه حسين في صعود وهومرشح
لجائزة نوبل كما يقولون ، وهذا فخر لنا نحن العرب ، فلا بأس ان يجلس مع
القصصيين العالميين .. يجب أن نتق بأنفسنا يا استاذ .

- اي قصة عربية تختار لتكون من القصص العالمية ؟

- اية قصة عربية اختار لتكون من القصص العالمية .. لا جواب على
هذا السؤال . بلى كان بوسعي ان اختار واحدة من قصص طه حسين لولا
خروجه على قوانين القصة واعلانه العصيان المدني في « المعذبون في الارض » .

وكما حرم هو المتنبي من الشعر الملحمي لأنه فكر بذاته ، فأنا احتج على قصص طه للسبب عينه ..

— هل يعتبر طه حسين قصاصاً ، وما منزلة كتابه الايام في عالم القصة ؟
— معلوم ! ألم تسمع ما قلنا ، معلوم ، معلوم . طه حسين ، قصاص وعنصر القص سائد في جميع ما كتب ويكتب معالي الوزير طه حسين ، فهو يقص دائماً حين يكتب . وإذا لم يكن موضوعه يحتمل القص جرد طه منه أو مني ومنك شخصاً يقص عليه .. لطه حسين دعاء الكروان وشجرة البؤس ، قصتان جيدتان . أما كتابه « الايام » فسيرة حياة أو مذكرات ، ولكن عنصر القص سائد فيه وإن لم يكن قصة .

— انت ابن تضع نفسك في عالم القصة ، وأي قصة تفضل قصصك ؟
— آه يا لآلتي ... هذا سؤال ، ابن اضع نفسي ؟ من يكون الدفتر بيده ويجعل نفسه من الأشقياء . أسأل الناس ابن يضموني ... الناس تقرر لا أنا . المسيح سأل حواريه بطرس : من يقول الناس اني أنا .
ان مقدرات صاحب القلم في احناك الناس يا استاذ . هم الذين يقررون ، اليوم وغداً وفي الدهر العتيد . وسألتني اية قصة افضل ، وهذه العصا من تلك العصية . اسأل نفسك ، فكل فتاة بابيها معجبة .

— هل تتوقع مستقبلاً زاهراً للقصة العربية ؟
— وكيف !! القصة عندنا راكضة نحو الكمال الفني . بارك الله في الشباب وفي المطالعة . فلو تجلدوا وقرأوا وتأملوا لعملوا قصصاً تعيش . انالست متشائماً ، يزعم غيري انهم يقلدون قصصي الغرب وهذا لا يضيرهم . فتولستوي استعد من موباسان وفلوبير ، وأنا كآرنين بنت عم مدام بوفاري ، ولكنها ليست هي . فمستقبل القصة يكون باهراً إذا عمل شبابنا قصصاً تستمد عناصرها من محيطهم . فالغرب إذا اطلع على قصة يصح ان تحدث في كل مكان ، او تشبه محيط بلاده ، يقول كما قال صاحب بن عباد : هذه بضاعتنا ردت إلينا .
يخيل للبعض منا ان القصة لا تكون عالمية إذا كانت ذات لون اقليمي ،

اما انا فأرى العكس ، فالناس هم هم في كل مكان . وهل جرت قصص دوستوفسكي في اليمن !! وهل صور بها غير روسين .

— ما هي نصيحتك لكل من يعالج القصة ؟

— طلبك نصيحتي لكل من يعالج القصة ، معناه نصيحتي للشباب لان الكبار اكبر من النصيحة ، او بالاحرى الحصان القارح يصعب تطبيعه وترويضه . وعلى كل فنصيحتي لمعالجي القصة : ان يعنوا أولا بالمحيط ، فالحقصة مسرح يجب أن ينقل القاريء اليه ، والقصة الرائعة هي تلك التي تنقلك إلى الساحة التي تحدث فيها .

هذه واحدة ، وواحدة ثانية ان يعنوا بابطالهم ليعرفهم القاريء . بطل الرواية مثلي ومثلك يا اخي محمدا ... وقد يحيا عمرا اطول من اعمار ابطال حقيقيين إذا كان خالفه قادرا . لا بد لبطل القصة من بطاقة هوية . والعلامة الفارقة مهمة جداً في الهوية .

وواحدة ثالثة ان ينطق اشخاص القصة بما يمكن ان يحكوه او يصدر عن مثلهم ، وهذا رأي شيخنا الجاحظ .
فالحوار عنصر اساسي في القصة .

وهناك أمر يجب الانتباه اليه وهو ان تكون الحوادث ممكنة الوقوع .
وأخيرا العنصر الشمري في انشاء القصة ، فالقصة محتاجة اليه جدا .
القصة قطعة فنية ، ومعظم قصصي العالم شعراء .

ان اقدام المتأدبين على القصة قبل ان تكتمل لهم آلاتها يضيعهم . ليست القصة بالأمر الهين . لا أذكر ابن قرأت ان الثلاثين وما دون هو سن الشعر ، وما فوق الثلاثين هو زمن القصة ، أما وقت المذكرات او الذكريات ، فمن الخمسين فصاعدا . ما عدا مذكراتك الطريفة ، فأنت مثلي لا تزال تحت الثلاثين ، طبعاً ، وان كتبت مذكرات طريفة .

اكثر منها يا استاذ ولا تسليني اكثر ، فقد عييت واعييت .

سعيد تقي الدين الدرامائي

افتتح سعيد مقدمة « نخب العدو » بما يلي : انني ادفع الى المسرح العربي برائعة يفتخر بها أي درامائي كان ، في أي لغة وأي زمان ، ولئن دار في خلدك انه قد تدحرجت من فمي كلمة ادعاء ضخمة ، فأنا ادعوك الى المقابلة ، فأت بآية رائعة افرنجية وقابلها « بنخب العدو » حادثة ومواقف ونكات ، واشخاصاً ومفاجآت ، وحركة وتضاد ، وشبكة فنية وسلاسة ، تجدد نخب العدو تضاهي اجملهن في كل شيء ، وقد تكون دون بعضهن في روعة المأزق ولكنني واثق ، من ان نهايتها هي اجمل نهاية رواية تعرفها بدون استثناء وعلى الاطلاق . (انتهى التبجح)

ربما تصدق ما تقرأ . بلي صدق . فما نقلته لك ليس من مخطوطات وعاديات رأس شمرا وحجر رشيد . انه من كتاب تستطيع ان تتناوله بسهولة . قد يكون سعيد مبالغاً فيما كتب ، ولكنه قادر على عمل كوكتيل عجيب من الجدد والهزل حتى لا تدري ان كان هزل أو يحد . ولكنه كما قال مولير - الذي تبنيت سعيد مواقف من مسرحياته - لا هزل بدون حقيقة . فسعيد في أسلوبه ومردده كلاعب السيف والترس - الحكيم - رشاقة وخفة يد ، وحركة دائمة ، فما عليك إلا ان تشد حذاءك جيداً وتشمر وتلحقه .

قد يكون سعيد مبالغاً ولكنه خير من ألف مسرحيات ناجعة ، بل هو الدرامائي الأول عندنا في هذه الفترة ، وان شئت فكما كتب على قفا غابة الكافور ، والكلام للشاعر تزار قباني :

« هو اله صغير سقط من شبابيك نجمة متألثة فشربته ارض لبنان . »

لم تدلنا كلمة « صغير » على حجم هذا الإله ، وعلى كل فأقل جرم الهي يكون عظيماً جداً بالنسبة إلينا نحن الترابيين . إذن فلأقل « النومن » قبل ان أبدأ عملي .

أؤمن بسعيد تقي الدين ، الخالق الضابط الكل ما يرى وما لا يرى الخ . أجل أنا أؤمن بعبقريه سعيد وبمخيلته الوثابة ، وبمبارته المصنوعة حديثاً ، وأويد رأيه في نفسه ، فهو درامائنا في هذه الفتوة ، ولو كان عندنا مسرح لكان يجلس سعيد في لوج الشرف وينظر إلى الجماهير من على ويقول للانظارة : فكروا يا ذبّان ، افهموا الفن !

وحق ربنا يا سعيد أنا في هذا جاد لا امزح ، أما إله صغير فهذا كلام هراء .. ان « لولا الهامي » التي تزدرها أدت و « نخب العدو » و « حفنة ربيع » تحف جادة ، ومع هذا لا بد من النقد . فلنفرض ان هذا العبقري إله لا نصف إله فلا بد له من نقد . فالله جل جلاله انتقد ، ولا يزال ينتقد ، وأول ثورة كانت عليه : خلقتني من نار وخلقته من طين .

قد يقول القاري : أنت لم تعودنا هذا اللف والدوران فما بالك اليوم تغيب عادتك ولا تقول كلمتك وتمشي ! ؟ فإلى هذا القاري أقول : يجب قبل كل حساب ، ان نصفي الحساب ، حساب الناقد . فسعيد ليس له عدو على الأرض إلا الناقد . أما في العالم الذي سقط منه إلينا فهذا علمه عند نزار قباني ..

نرى سعيد تقي الدين يزدرى الناقد ويحتقر ما يقول « فالنقد فن زائف ومهنة طفيلية . النقد يوم صاحبه ، ولو ضمناً ، بالتفوق على المنقود . أنا انتقدك ، إذا أنا أفضل منك .. زد على ذلك ان النقد يضع بين يدي الأديب أو المتأديب موضوعاً جاهزاً فلا حاجة إلى حلق الرأس والتنقيب عن موضوع . كذلك ليس من انتاج مهنا عظم إلا وفيه نواح ضعيفة يسهل اكتشافها ، فتسري نشوة الظفر في عروق الناقد مكتشفها . كذلك التطرف يولد التطرف ، والمديح بلا وزن سبب النقد الأهمي . »

ترى من أي وزن هو قول نزار قباني الذي زينت به قفا غابة الكافور .. ؟
ذاك رأي سعيد في الناقد ، كما اثبتته في الصفحة الثامنة من نخب العدو ، واما
ما في ذيل (حفنة ربح) فيقول سعيد حين قرأ نقد الدكتور سهيل ادريس
لنخب العدو : « شعرت بقربى تربطني بك بعد قراءة نقدك الرائع ، في جريدة
بيروت ، لنخب العدو ، ولو انه اعطني لي قبل اليوم ان اطلع على مثل هذا
النقد لترددت في قول : النقد فن زائف ومهنة طفيلية . »

اسمح لي يا سعيد ان اعود بك إلى البدء ، إلى ما قبل الخليفة عندما بدأ الله
في تأليف كتابه الأعظم ، أي تكوين الكون . اما قال ليكن نور فكان النور ،
ورأى ان النور حسن ومضى في الخلق والتساؤل فيرى ان ما خلقه حسن حتى
اليوم الأخير . أظن ان هذا التساؤل يدلك كما بدلتني على انه ، تعالى ، كان ينظر
إلى عمله كناقد ، حتى إذا ما رآه حسناً راح يتم تأليف كتاب الخلق المؤلف من
سنة أقسام ، وفي القسم الأخير خلق الإنسان ، ولو لم يكن الله ، جل جلاله ،
ناقداً لما وجه إلى أعماله هذه النظرة .

فالناقد الأول كان الله ، وهو في الوقت نفسه المؤلف الأعظم وان لم يؤلف
مثل نخب العدو ! وانه اطرى عمله كما اطريت أنت مسرحيتك .. ولو لم يكن
الله ناقداً ملهماً لما عرف ولا قال ان ما خلقه حسن .

قلت ان الناقد يجد موضوعاً جاهزاً ، وأنا أقول لك : نعم ، ولكن المواضيع
جاهزة كلها ، والذي مثلك من يفصلها ويضعها في واجهة دكانه . ثم يبيعها
كأنها « استعمال » .

النقد فن يا سعيد . أما أنت فكبطل صديقك مولير تسب الناقد وأنت
ذاك . ففي جميع مسرحياتك : لولا الهامي ، ونخب العدو ، وحفنة ربح ،
أنت ناقد وسأريك . أما الفرق ما بيننا فهو انك تفتش عن بطلك بين الناس ،
وأنا افتش عنه بين الكتب .. اظنك قرأت مسرحية مولير « البورجوازي »
استغرب ذلك البورجوازي جداً حين قال له معلم الفلسفة ان النثر هو ما يحكيه .

فقال لمعلمه : إذن أنا اتكلم النثر منذ اربعين عاماً دون ان أعرف ذلك . كثر
الله خبرك لأنك خبرتني ذلك .

فهل تستغرب أنت أيضاً إذا قلت لك انك ناقد أدبي ثم لا تخرج من الجو
الأدبي الا لتكون ناقداً من نوع آخر ؟ فانت إذن ناقد منها اغرتك انانيتك
وحملتك على ازدراء النقد .

ان الناقد هو الذي يدل الناس على مواهب المؤلف كما سادل على مواهبك ،
وأنت ناقد يا بطل مولير ، وناقد لا يرحم . يتكلم من الأعالي وعلينا ان نضع
على وجوهنا برقماً ، كما كان يفعل موسى حين يتحدث إلى ربه .. وإذا لم
تصدقني فراجع نقدك لتخصص صديقك الذي اكتشفته ، الدكتور سهيل ادريس .
لقد تشكيت في مقدمة (نخب العدد) كثرة المديح المتفشي عندنا ، وكذلك
تأملت من النقد ، فحيرتني والله . وأخيراً اهتديت إلى حل لهذه المعضلة وهو ان
نمدح حيث يجب المدح وننقدح حيث نجد مدخلا « للخرير » .

فلنبداً عملنا .

المسرح عندنا صغير السن حديث الميلاد . نشأت مسرحياتنا الأولى لا هي
عامية ولا هي فصيحة ، ثم صارت فصيحة حتى التقعر في أواخر القرن التاسع
عشر ، شعرية مع عبد الله البستاني ، وشعرية نثرية مع أديب اسحق ، وأخيراً
مع نجيب الحداد . كانت مواضيعها مختلفة ولكنها كلها تمثل الطبقات العليا
أو ما أشبهها من حوادث قديمة ، إلى ان جاء شوقي ونظمها شعراً رائعاً في
مواضيع تاريخية أدبية . ونهض فرح انطون بالمسرحية فجعلها شعبية استقى
مواضيعها من الحياة العامة . وقفز سعيد تقي الدين من مقعد المدرسة إلى المسرح
وهو العتليت بلغته ، والعتيت بلغتنا العامية ، فكانت قفزة موفقة جداً .
وحسبك الدليل على هذا التوفيق ان يسمع مؤلفها سعيد ، في مخزن أمين أبي
ياغي ، كلمة : أهلاً بالنايفة ، من أمين الريحاني . فنام سعيد على الكليل الغار
منذ عام ١٩٢٤ ولم يستيقظ من تلك النوم الذهبية الأحلام الا في جزائر

الفيليبين ، الشرق الأقصى عام ١٩٣٧ . وليسمح لي ان احرف ما قال : ناخ
نوخة جمل ، وقام قومة سبع . فمسرحتنا طليانية فرنسية مسع أبي المسرح
اللبناني مارون النقاش ، وفرنسية انكليزية مع الذين جاؤوا بعده .

كانت تعتمد أولاً على البيان الاصطناعي لأن الذين ترجموا أو ألفوا في هذا
الفن كانوا يكتبونها للقاريء ولا يفكرون بالمرسح ، ولذلك جاءت شخوصهم
جامدة لا تدل على انها بشر تحيا وتتكلم كما تحيا وتتكلم ، وتروح وتجي ، وتجي
وتروح . كان مؤلفوها متزمطين حتى لا ترى على المسرح وجهاً ضاحكاً هازلاً ،
وإذا كان لا بد من الضحك أو الاضحاك ألفوا فصولاً مضحكة تمثل بين الفصول .

اما الهزل والدعابة والتقيد والهجاء الاجتماعي فلا نكون مبالغين إذا قلنا
ان سعيد تقى الدين هو الذي اشاعها في المسرحية . فالهزل يسيطر حتى على
درامته ، فكان ليس بين أبطاله وأحد يحبه ، أو كأنه لم يخلق بطلاً ، أو لم
يستعر من المجتمع بطلاً الا ليضحك من الناس ، أو يضحك الناس منه . وإذا
كانت أبطال مهازله قومية بلدية فلا يعني هذا انه خلقها ، ولا انه استعارها
من روائي آخر (كمسطرة) يعمل مثلها ، بل انها نماذج عايشها ورآها بعيني
رأسه ، كما عبروا .. فموفي (لولا المحامي) مثله في نخب العدو وحفنة ربح ،
يمثل اشخاصاً عايشها وآكلها وشاربها وتأمل حركاتها وسكناتها ، وراح يخلق
منها قصة بعدما انطقها بما يلائها من ألفاظ وتعابير تضحك المقلس .. وتعابير
يتعمدها ويعتمد عليها في اخراج روايته ، وهو لم يبدعها كلها ولكنه جلاها
وصقلها جميعاً حتى لاءمت مذهبه الفني . وهذه العبارات هي من صميم حياة
ابطاله فكانهم هم قالوا حقاً . ليست عبارة مسرحيات سعيد من المصنوعات
البيانية . وهذا سر نجاحها ، ففي فم كل شخص كلمات وعبارات لا تصدر الا
عنه . وإذا لم ترض أحياناً هذه العبارات البيانية فليسعيد بيان خاص به ،
وليدق البيانيون رأسهم بالحيط .

تدل مسرحيات سعيد تقى الدين على عين لاقطة كعدسة المصور . ولا عجب
إذا ظهرت أبطاله بهذا الوضوح فهو قد تأملهم كثيراً ، وربما ان بينهم من حمله

مرضعاً وما شاء صبياً . وهو لم ينقطع عنهم إلا حين شعر باستقرار طبيته .

انه يعول كثيراً على استحسان الجماهير وضحكهم وتصفيقتهم ، ومن كان كذلك عليه ان يفتش عن مثل ما يفتش عليه سعيد . ومن هنا جاءت حملات سعيد القواشيم على الناقدين حتى عدّه طفيلياً يعيش على الهامش ، يجد موضوعه جاهزاً فيتمالك عليه كجوعان لم ير الخبز منذ اسبوع الخمس وعطشان .

ان ضحك الجماهير وتصفيق النظارة هو عند سعيد ، الفوز الأعظم . اما الخاصة ففي فهم التراب . وليقولوا ما شاؤوا . اما صفق الجمهور وضحك .. ولهذا يعتمد العبارة الطريفة والنكتة البارة .

اما قال سعيد المخرج : ازرع بين النظارة من يصفقون ، وهل في الدنيا كاتب غير سعيد يصرح بهذا . وان كان الفن الدرامي هو في اثاره الضحك واشاعة الاستحسان ، فالخراج الاصطناعي لا يعمل الا انطس الاطباء .

اما انشاء سعيد فهو معمول في مسرحياته ليحكى لا ليقرأ ، وسنعود إلى هذا في الكلام التفصيلي على مسرحياته ونقصه .

يحاول سعيد ان يقول الحقيقة دائماً ولو كانت تمس أقرب الناس إليه بـل ذاته ، وهو دائماً يخرج من هزله حقيقة عملاً بقول مولير أيضاً : لا حقيقة بدون هزل ، ولا هزل بدون حقيقة . انه كالصيدي الذي يعطيك ملبسة فيها اندواء المر ، وسيموه سماجه الطعم بالحلاوة . السر في ان تقبلها وتزدردها ، والله الشافي فيما بعد .

يريد ان يضحك الجمهور ويهذب أخلاقهم ، وهذا ما عمله كل من كانت له طباع سعيد وقريحة سعيد ، ومواهب سعيد واطلاعه الواسع على الروائع العالمية التي يريد من كل قلبه ان يعمل مثلها وقد عمل . اما هذا الهزل في الادعاء فمن بضاعة سعيد ، انه مؤمن بما يقول هازلاً فيورده لك بهذا القالب المضحك ، حتى إذا لم تصدقه عدّه هزلاً وكفى الله المؤمنين القتال .

وسعيد يخرج مقاله أحياناً بشكل تمثيلي ، وهذا يدل على انه خلق كاتباً

مسرحياً . اقرأ حديثه مع المخرج ، بل سيرة حياته ترى كيف مثلها تمثيلاً لا ينقصه إلا المسرح والمخرج .

أما المسرح فيعني أن يكون سهل الوجود ، فبدلاً من الموبيا لا بأس بالسحارة ، لأنه يهدف إلى أن يكون كل شيء طبيعياً .

ليس سعيد من ذوي الانبساط والمرح وليس من ذوي الضحكة الداوية . ومواضيع مسرحياته ليست كذلك ، فمن أين يتبثق إذاً هذا الضحك ؟ في الغالب يكون التعبير مصدر ذلك ، أو التكوين الذي خلقه لأشخاصه ، أو الموقف الذي يراه صاحبه جدياً كل الجد ، بينما الآخرون يمزأون به ويضحكون من عقل صاحبه . أن تكبير الأشياء الهزيلة الحقةرة هو عنصر هام عنده بل هو وسيلته إلى إبراز هؤلاء الأشخاص الذين عرفهم صغيراً وابتعد عنهم كبيراً . أنه شيخ وانهم عوام ، فصار يسلم عليهم برؤوس أصابعه . ولكن صورتهم كانت قد انطبعت في مخيلته ، وهو يستعيدّها بتفاصيلها ساعة يشاء ، ويؤلف منها مشهده متى أراد فيأتي كل شيء طبق الأصل .

أن مشيخته جعلته يستمزيء بهم . فيجعلهم يقتلون على لا شيء تقريباً ، على (عصا النوطرة) .. صحيح أن هذا أمر واقعي ، ولكن المؤلف يحتقر تلك الحفنة من البشر . وحسبك استهزاء بهم ، عند عقد الصالح ، تقديم تلك العصا إلى بيت المحصي كأنها صولجان ملك .. لا عصا ناطور .

أما الرواية الثانية فاسمها يدل على تقدير المؤلف لأبطالها : حفنة ربح .. ازدراء وإيما ازدراء . جلّ هذه المسرحيات نقدية فلا يفلت من قلم المؤلف شيء ولا يسلم من لسانه أحد .. فهو ينتقد حتى أقرب الناس إليه ويجعله مثلاً لبطل من أبطاله .

بنتحل سعيد كلام ومشاهد غيره كما في ختام رواية لولا الهامي حيث يشن الغارة على مولير . فوحدة الحال بينه وبين مولير تبريء الموقف ، فدستور سعيد الفني دستور موليري : قاعدة القواعد هي أن ترضي وتعجب .

كل حياة سعيد قفز وجمز . فمن مدرسة مارونية الكليريكية ارسقراطية محافظة ، إلى جامعة اميركية ديمقراطية لا تعباً بالتقاليد الموروثة ، ومن لبنان ، بل من الشوف الدرزي المحافظ ، إلى المهجر . من لبنان أرض الثروة والانطواء على الذات ، إلى أرض العمل حيث لا ذات إلا للدرهم والدينار ، ولا حديث غير حديث الجمع والقسمة والطرح والضرب .

شاب نشأ في بيت عتيق ، زرع في رأسه أبوه محبة هذا البيت ودعمه بكل ماله من قوى ، فراح يفتش عن الدعامة المثلى - المال - وهناك رأى هموم الناس الكبرى فراح يضعك في مسرحياته من هموم القرية الصغرى . وانتزع من اختباراته العالمية فوائد شتى ، وصور ابطال لها إلى الساعة التي استيقظت فيها قريحته الهاجعة على اكليل الغار ، فكانت مواد مسرحياته واقاصيصه . تنظر اليه فتحسبه جباراً عنيداً ، ولكنه يبدو لي مما قرأت له أنه رجل طيب العنصر ، وفي إذا أحب ، دمت الأخلاق على تمام الواحه وعرض كتفيه . فذلك الهيكل الضخم الذي يبديه كمصارع أو ملاكم من الطراز الأول ، فيه نفس طيبة تم عنها تلك التعابير التي يخلقها ، وان لم يكن من العدم ، فله فيها فضل التطبيق . الرجل ملهم بدون شك .

سعيد في نظر بعضهم يعتمد النكتة تعمداً . أما أنا فأرى ان التعمد هو عمل ارادي لا بد منه لكل من يريد ان لا يكون متلداً . يقول هؤلاء انه متطرف في هذا ، وأنا لا أقول لهم أكثر من هذا ، أي ان سعيد تقي الدين إذا لم يوفق إلى مثل هذه العبارات في مسرحياته وأقاصيصه ومقالاته يمزق أوراقه . فثابته الأولى هي ان يستولي على الجماهير ويحرفهم في التيار الذي يصطنعه لجرفهم إلى حيث يشاء .

مسرحيات سعيد تصوير للحقائق بشكل مضحك ، أما عقدة «نخب العدو» التي كلفته اجتراح المعائب كالمسيح ، فهذه في نظري ليست بالعنصر الهام في مسرحياته ، لأن دراماته ومهازله تقوم على نماذج وشخصه المعمولة على قالب « استعمال » لا جاهز . بل على ذلك الحوار الرائع .

أما عيب هذا الحوار فهو ان عبارته تكون أحياناً عامية حتى يسقط الخليل وسيبويه وابن عقييل تحت الردم . وفي لحظة يستحيل التعبير فصيحاً حتى التقعر ، بينما يكون المتكلم واحداً بل في حوار واحد .

فهذه أم وسيم تخاطب خادمتها زليخة قائلة لها : ادجاجة أنت فتنامين قبل المنيب ؟ أخطأ هنا سعيد من جهتين أولاً لأنه قال فتنامين ، وهي فتنامي وهو لو قالها على حقها لدنت جملته قليلاً من واقع الحوار .

وفي حوار واحد أيضاً تقول زليخة : دخلك يا معلقي ، لا أريد الذهاب إلى العين . اني كلما التقيت على العين بنساء عائلة المحصي يهزأن بي . والبارحة قالت لي ورد المحصي ساخرة : اننا نوصد الأبواب في النهار .

فبعد دخلك يا معلقي تجيء كلمة : اني ، ونوصد .

وبعد قول أم وسيم أيضاً : يا تقبر أمك ، تأتي كلمة : لماذا تأخرتم .

قد يقول سعيد وكيف تقول ؟ وأنا اجيبه : نقول : لبتك تقبر امك ، بدلاً من يا تقبر امك . والخادمة تقول : نغلق الأبواب بدلاً من اننا نوصد التي لا ينطق بها لبناني .

وهنا يلذ لي أن اذكر عبارة لافهم كل مسرحي وقصصي كيف يدني حوارهم من طبيعة الحكيم . جاءت هذه العبارة على لسان أحسد شخوص مسرحيات سعيد قال : يكفي خمسون ، بينما العوام لا يقولون الا خمسين ، فكيف نعمل حتى نقرّبها من الواقع ؟ أنا في مثل هذا الموقف افتش عن تعبير عامي فصيح فاقول مثلاً : نكتفي بخمسين .

ولا يكتفي سعيد بحشر أن وقد في كل مكان ، بل يدخل لام المزحلاقة على خبر ان فيقول راجي : ان ابنك يا خالتي أم وسيم اولد عجيب .

وتقول أم وسيم لراجي : سأتركك ووسيم في دعابتكم . لا نطالب بنصب وسيم بعد واو المعية ، فما لنا وللنصب . ان أم وسيم ككل لبنانية تستعمل (مع) في مثل هذا الحديث ، فيقول : اتركك مع نسيم ، أو أنت ووسيم .

وبينا نراه يتشدد في استعمال هل والهمزة إذا به ينزل إلى حضيبض

العامية . يقول وجيه في حفنة ربيع : ما هذا بعذر ، ثم يتبعها بقوله : القهوة
سعرها بالجو . وبينما يقول : تشكرات . إذا به يتبعها بالقول : هل اعددت
اللحن ، هل اقضيت . وفي موضع آخر : هل عابدة بخير .

اما سين الاستقبال فتزد كثيراً على لسان فلم سعيد ، وهي ليست من بضاعة
الحوار الواقعي . ومثلها لقد : لقد هرم وطالت لحبته وابيضت . فآه من لقد
في الحوار يا سعيد ، انها تستاهل مسبة دين فخمة ..

وإذا اعترضنا على حوار شخوص سعيد فأننا لا نعترض على شخصياته الذين
نجدهم في كل ضيعة بل في كل مزرعة مكونة من بيتين وتنور .

لم يخرج سعيد من قمعه حين وضع شخوص مسرحياته . ففي نخب العدو ،
ولولا الهامي ، والمنبرذ ، قد لا يكون تجاوز خراج بعثلين كما لم يتجاوز محيط
بيروت في حفنة ربيع .

اما خواص سعيد العامة فهي انه غير كلاسيكي ، مبدع في التعابير الخاصة ،
خلق قصصاً . يعتمد النكتة ويحبها موجهة مرة ، وتعنده إياها أحياناً يفقدها
الحفنة المطلوبة . لا تعرف هزله من جدده . فهو في الأدب عتليت ؛ كما عبر هو ،
وعتليت كما نعبّر نحن في منطقتنا ..

وحى الحرمان

ديوان الامير عبدالله الفيصل

يا صاحب السمو الملكي ، ويا معالي الوزير الخطير ،
ايها البطل ابن البطل ، يا حفيد اسد الجزيرة ،
يا طویل العمر ،

أما وقد دعيتك آلهة الفن إلى دخول هيكلها المقدس ، فاسمح لنا ان نضع جانباً
القابك الزمنية ، وثيابك القصصية المزرقة ، وخنجرك الذهبي المرصع ، وسيفك
العدائي الموروث من ايام حليلة ... ونلبسك الثوب الذي زر كشته اصابع الآلهة
العلوية لتخلعه عليك في هيكل قدسها .

اسمح لي ان اخاطبك ، بعد الآن - في هذا المقام فقط - باسمك (حاف) ،
غير محوط بحيوش جرارة من الالقاب الاميرية الملوكية . انت آثرت ان تكون
أمير بيان فكنت . لقد شرفت الشعر بعدما تأبى عليه الاشراف القدماء ،
وقالوا في خليفة يوم وليلة : أدركته حرفة الأدب . وبهم تشبه العلماء والفقهاء ،
حتى قال أبو حنيفة :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنك اليوم أشعر من ليبد

لقد استحققت بتشريفك ساحتنا اجل الترحيب منا ، فاسمح لي إذن ان
أخاطبك بشاعر الأمراء ، واسلم عليك بهذه الامارة الادبية
كانوا قيا مضى يقولون ذو الوزارتين فأى بأس علينا إذا ما قلنا ، ذوالامارتين؟

ان امارتك الجديدة هبة من الله كما رتك القديمة ، والله يعطي من يشاء بغير حساب .
زعمت يا شاعر الأمراء ، انك محروم ، تحس بالحرمات ، لان المركز الخطير
والنفوذ الكبير ، والمال الوفير مدعاة لتغيير اسلوب الناس في معاملتك . ثم
تقول : « انك لا تدري هل ما تحس به من معاملة خاصة أو عامة هو لانك
انسان يستحق هذا عن جدارة » أو لأنك تستمتع بهذه الميزات الثلاث ؟

انني اتعهد لك ان أكون صريحاً معك إلى أبعد مدى الصراحة ، وان كنت
لا أحب أن أشفيك من شعورك بالحرمات الذي هو ، في الفن ، خير وبركة . بل
ربما كان سبب تساميك في حبك وفك . أولست أنت القاتل لذلك الحبيب المتمرد :

ولولا الحب في الاعناق رقّ ملكتك باليمين وباليداني

ليت كل قارىء يفهم ما هو ملك اليمين . فإني قول عنبرة :

ان تغد في دوني القناع فإني طوب بأخذ الفارس المستلثم

من هذا القول ؟ ان عنبرة ، محروم حقاً يا عبدالله ، ولذلك لم يلطف القول
ولم يعمل مثلك . صعب عليه ، ككل ذي عاهة ، ان يذكر عاهته - العبودية -
ولو في الحب ، لانه معتوق من رقه حديثاً .

نعم سأكون صريحاً جداً فلا تبهر عيني هالة المجد التي تحيط بك . فإنا وان
كنت أحبوا إلى السبعين فلي عين لا تطرف ، عين لا تزال حادة جداً حتى انها
تنظر إلى عين الشمس صلاة الظهر ، ولا بأس عليها .

أجل هذا ما ستراه مني ولو كنت اميراً ووزيراً وحفيد اعظم ملوك هذا
العصر ، وابن اخي ملك هو قبلة ابصار العرب .

ان للملوك والأمراء قلوباً يا عبدالله ، ولهذا كان ويكون وسوف يكون منهم
شعراء . فأني بأس عليك إذا لم ترد ان تدفن موهبتك الخالدة فأقدمت على ما لم
يقدم عليه سواك من ابناء القصور . نشرت على الملاء ديواناً رفعت به مقام الشعر
فطار يحنأين عظيمين ، بعدما كان يحجل بخطى قصيرة عند بابك ... لم تحمل
عظمتك دون البوح بأسرار قلبك البشري ، فلم تنتحل الاعذار لقلبك كأبي فراس

الذي قال وكأنه يستحي بالحب : إذا الليل أضواني بسطت يدي الهوى ... ان
الحب يخاطبنا بلسان المسيح : الذي يستحي بي قدام الناس استحي به قدام
ابي الذي في السماء .

لقد بسطت يدك « العليا » الالية على قارعة طريق الفن ، والفن ناز آكلة
تطهر وتنقي .

ثق ان الصراحة التي وعدتك بها لا تباع ولا تشرى ، فأنا لا أبيع مدحاً ولا
قدحاً ، وإنما أقول ما عندي غير راج شيئاً مما عندك ، وان كان « يدو طك »
ينقمني ... كما قال الجاحظ لذلك الاموي حينما زاره وهو مفلوج يتدأري ببرادة
الحديد .

ان لهيكل الفن حرمة هيكل الدين ولذلك أتورع وأخشى حين تطأ رجلي
عتبة بابه . قد كان المتوجون ، ولا يزالون ، يخضعون تيجانهم عندما يدخلون
بيت الله ليعلموا ، أمام المعبود ، أنهم بشر ... فاكسية الاضريح فوق المشاجب ،
كما قال نابغة بني ذبيان في بني غسان الملوك والاخوان .

سوف نحبيك مثلهم بالريحان لا لانك صاحب سمو ملكي فقط ، بل لانك
شاعر مخلص كبير باح واستراح . ان الاعتراف ، في كل مقام ، يزيج الكتابوس
الرابض على باب الوجدان ، والاعتراف هو أن أقول اني احببت واحب ، وآني
ضير على الامير إذا صاغ اعترافه شعراً ؟

وهنا يلذ لي أن أروي قصة صديق لي ، وربما كان من اقربائي او يكبرني بالسن
أربع خمس سنين . أعجيبته انثى من نساء « شركائه » . كان يدخن في بيتها
التارجيلة فانطفأت الجمره : فهبت بجمرتها ، لا بصحنها كما قال ابن كلثوم ، واحلت
معلها واحدة متقدة ، فاضطربت النيران ، وباس « البيك » شاكرأيد شريكته
بوسة كقصائد ابن الرومي طول نفس .

اخجل الشريكة تواضع « معلتها » فاستعنت وقالت له بكل بساطة : حاشا
قدرك يا معلمي !

فتنه البيك وقال لها : الحب ما فيه معلم ولا شريكة ، الحب رب لا شريك له . هاتي خدك ...

انها فلسفة ارجالية نطق بها صاحبنا بأسلوبه الخاص ، فلا امير ولا سوقة في دنيا المحبة ، وما دام الله محبة هو ، كما علمونا ، فما قولتك بنا نحن المخلوقين على صورته ومثاله ؟ وإذا قال زهير :

وان اصدق بيت انت قائله بيت يقال إذا انشدته صدقاً

فشعرك يا عبد الله الفيصل «هو الشعر» كما قلت في ختام مقدمة ديوانك «وحي الحرمان» . ان شعرك قوامه الصدق ، وملاكه الاعتراف الواضح الذي يربح وينقي ويطهر . ومحمو شعرك هو في تلك اللغات الخاطفة ، والوثبات العالية التي تدل على الشاعرية كما تدل الحضرة على النبوع المكبوت في قلب الارض .

فلا تحسن بالحرمان لأنك خامس الأسماء الخمسة - ذو مال - فليس لاجل هذا المال تمدح وتوقر ، فكم من ذي مال يُبخل عليه باللعنة . انيت ان الخلفاء مدحوا ، والامراء مدحوا ؟ ان المتنبي مدح سيف الدولة وكان يأخذ من ماله ، ومع ذلك ما رأينا احداً من هؤلاء احس بما أحسست انت به من حرمان . ربما انك كنت تحس بالحرمان قبل أن نفعت الأدب بهذا الديوان ، أما الآن فما بالك ؟!

نحن نعجب بالرجل إذا كان ذا موهبة ، ولكنه إذا كان محروماً من المواهب وعنده مال قارون ، وملك هامان ، وسلطان فرعون ، فهذا هو المحروم حقاً ، وماذا نعمل له ؟ هب اننا استطعنا ان نعمل الأبيض اسود أفنستطيع ان نصير الاسود ابيض ؟

لقد حاولت أن انتقدك ففقدت مرأى ولكني لم استطع لاني لم اجد المرعى الذي يدر عليه قلبي . انك شاعر مطبوع ، ومن لا يتعمل ويخالف الطبع فليس لنفدي في جلده نصيب .

ان حبك الشعب الذي ينضح به ديوانك جرانني على مخاطبتك بيا هبة الله ،

وكيف لا اسميك وأنت قد خاطبت الشعب ، شباب بلادك ، بمثل هذا القول :

مرحى ، فقد وضع الصواب وهما إلى المجد الشباب
عجلان ينتهب الخطى هيات يستدني السحاب
في روحه أمل يضيء وفي شيبته غلاب

وأي نور أهدي من نور الأسل واوضح ، وأي عزم امضى وأغلب من الشباب
بل أي صرخة ديمقراطية أروع من ختام قصيدتك هذه : فلکم حياتي يا شباب .
أن كلمة (دائماً) في صدر هذا البيت ، بيت الختام ، لم تعجبني . ولذلك
اكتفيت بالعجز ، ورب عجز كان خيراً من ألف صدر . يظهر انكم يا ال سعود ،
تحرصون على الديمقراطية في كل مقام ، وحسبكم انكم رفعت السجف التي كادت
تفصل بين العبد والمعبود ، فقضيت على « الواسطة » في دينكم ودنياكم .

فيا طويل العمر ، دع الفكرة التي حدثتنا عنها في مقدمة ديوانك . انس
المركز والنفوة والمال ، ولا تظن اننا نحابيك ونمالك لأجل ذلك . ثق انك قد
عملت في ديوانك بقول فرلين الشاعر الفرنسي الخالد : خذ الفصاحة وفك رقبتها .
فديوانك إذا لم يعج بزخرف الفصاحة ويهرجتها وزبرجها ، فهو حافل بالشعر
الصحيح الفصيح ، ولا غبار على بيانه .

قال كاتب عظيم أحدث عهداً من فرلين : عندما تعوزنا الافكار نلجأ إلى
الفصاحة . وانت ، والحمد لله ، قد اغناك تفكيرك عن تزويق تعبيرك .

قال شاعرنا الاستاذ صلاح لبكي في تقديمه ديوانك : محروم بعيد جد البعد
عن شعراء الصحراء الاقدمين والمحدثين معاً . وهو أقرب ما يكون إلى شعراء
لبنان ، وإلى الشعراء الوجدانيين منهم .

أما أنا فأزعم انه ليس في الدنيا شاعر صحراء ولا شاعر غوطة ، ولا قديم ولا
جديد ، انما هناك نفوس وطباع . ونجد مهد الشعر العربي وسريه ، والليونة ،
اللهم في الشعر ، من سمات قوهم . ولعل طبيعة المحيط التي تشبه لبنان هي التي
قربت بين محروم وبيتنا ، وما هو محروم ، شاعر الامراء ، يدلنا على عمل

المحيط حيث يقول في أولى قصائده ديوانه :

هل تذكرين بوادي « وج » وقفنا وقد افاضت علينا الطهر عيناك
أرأيت هذه السلاسة والسهولة ، أما فكّ عبد الله الفيصل رقبة الفصاحة ، كما
أوصى فرلين ! أما قال شعراً يصح ان يقال فيه ما قيل في شعر ابن أبي ربيعة :
كانه الفستق المقشر ؟ ان عبد الله ربيب وادي وجّ الذي قال فيه عروة بن حزام :

أحقاً يا حمامة بطن وجّ بهذا النوح انك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لان ليلى أواصله وأنك تهجعينا
واني ان بكيت بكيت حقاً وانك في بكائك تكذبينا

نرى انقول في هذا الشعر أنه لبناني لانه سهل ؟ انه لمجدي ، وعرق الأصل
نزار . أما قال جرير النجدي في أول شعر سمعه لعمر ابن أبي ربيعة : شعر
حجازي تحس فيه البرد في تموز .

أما كلمة « وداعينا » في مطلع هذه القصيدة فما أراها طبيعية ، وكيف تكون
ونحن في حديثنا نقول : وداعنا . لا ثني ولا نجمع . انها اخت قول شوقي : واحمر
من خفريها خداك . وأما وقد وعدنا شاعر الامراء بالصراحة كلها فلنقل ايضاً :
أن كلمة رؤياك ، وهي احدى قوافي هذه القصيدة ، يجب أن تحمل محلها كلمة
مراك . ولكننا ننسى هذه الهنات الهيئات حين نبلغ مثل هذا الشعر الصافي
من القصيدة :

ففيك للقلب أهواء مجمعة وفي لقائك دنيا الشاعر الشاكي
دنياي نار من الهجران معرقة إذا نأيت وروض حين القاك

أما البداوة في ديوان « وحي والحرمان » فلا يدل عليها شيء غير تلك الصور
الفنية الرائعة التي زين بها الكتاب ، وهذا البيت مثلاً :

ازمعوا بينا وشدوا رحلهم فتواري طيف احلامي الجميل
ولعل هذا هو الذي عناء (محروم) في ختام مقدمته : أريد أن يكون
شعري « صورة طبست الأصل » لحياتي ، وصدى حقيقاً لشعوري وعواطفني

وامالي وخيالاتي وانفعالاتي النفسية .

نعم ، لقد طبق الشاعر على نفسه ما اشترع ، وها هو بدلاً من أن يتهبأ ، على هادة الشعراء ، ليبرز لنا فكرته في يجاد الفصاحة ، نراه يقول واصفاً جموح عيون الماشقين :

نحن صرعى لفتات ورؤى وأمان ما اليهن سبيل
وفي قصيدة « ثورة وخيال » نحس شوقاً كاريماً في قلب تغلي مراجله فتقطر
شعراً يذوب قائله وجداً ، فيذوب شعره رقة :

قلت أهواك وعن دنياك بالحب شغلت
وبودي لو تحدثت الى الدنيا بحبي واطللت
وتأملت الذي يوحى إلى قلبي وقلت



هل سمعت اللحن من قلبي ينساب لتلي
ثم يرقد فيروي لك ما قصة حيي
ويناديك إلى عش هوانا المستحب

وفي قصيدة « توأم الروح » تفور عاطفة الشاعر العربي الأصيل ويطغى عليها اللون المحلي فيسبق إلى قلم الشاعر وينطقه بكناية لا يفكر بها إلا عبد الله الفيصل سايل الذين قالوا : السفر قطعة من العذاب :

يا توأم الروح ونور البصر ضاقت مني الروح بهذا السفر
وغشت الوحدة عيني فما يؤنس عيني كل هذا البشر

فهنا تبدو للتأمل صورة العربي أخى الحب النبيل . لست أدري لماذا أعجبت للعجب كله بقوله : ضاقت مني الروح بهذا السفر . حقا ان سفره المحب طويلة كلية النابغة . وإذا كان محروماً حقاً فهي أطول وأطول ، كان الله في عونته . وإذا مضينا قدماً حتى نبلغ آخر هذه القصيدة سمعنا الشاعر يتغنى بهذا

الحبيب ويشبه صباه الغض بالبرعم . فلندع التحليل الذي يسقط موضع التعجب
من الشعر كما قال الجاحظ ، استاذ الدهر . اسمع النص بحروفه :
لا اوحش الله خيالي من الحب ولا تلك الليالي الأخر
حيث صباك البرعم الغض في اوراقه يشاقه من نظر
انه يخاف عليه حتى من النظر ، خطيئة الفكر ... ثم يمضي الشاعر الى أبعد
مدى الظن ، وهناك تهبط عليه هذه الصورة الرائعة :

يوحي الى الدنيا اهازيحه مبتدعاً من كل قاب وتر
انك تحال شعر عبد الله الفيصل بسيطاً جداً ، إذا قرأته قراءة عابرة ، فلا
كاف ، ولا كأن ، ولا مثل وشبه ، وهذه هي البساطة التي تضرع فرلين إلى ربه
طالباً منه ان يهبها له .

وفي قصيدة « منى غدي » يتغنى الشاعر بآلامه ، ويشبه ، كما شبه السلف ،
بمعني المهابة ، وبالعقد المنضود . ولا بدع إذا رأيناه لم يقطع السرة بينه وبين
القديم ، فهذه سمة الشاعر الذي يثل عرقه . فعبد الله الفيصل يصح فيه قول
الثعالبي في البحتري : اعاد الشعر سيرته الأولى ، ولنا نحن ان نزيد على هذا
فنقول : اعاد عبد الله الفيصل الشعر الى مهده الأول ، إلى مرقص الاحلام امرئ
القيس ، إلى حلاوة كلام جرير في الغزل .

لقد عبر الشاعر عن آلامه وآماله ولم يلجأ إلى التخيل لانه يصف بكل صدق
خلجات نفسه . أفلا يكون صادقاً كل الصدق من يخاطب نفسه الكبيرة يعلاها
بالآمال من حبيب عرف مقامه فتدل :

وكلمنا رمت وعداً	بهجره يتوعد
وان خلوت بنفسي	وجدتها تتمرد
اقول يا نفس صبراً	فبابه غير موحد

هكذا يصور لنا الصراع النفساني متى سيطر الحب على الامير ، وأبت نفسه
الامارة بالمجد والعزة ، انه يصبح بين ويلين ، كما قالت هريرة الاعشى : ويلني
عليك وويلني منك يا رجل .

كل هذا حسن ، ولكن الشاعر ارضاء لنفسه الامتارة بامارتها قال :

اني وحيد القوافي وأنت بالحسن أوحده

انها كلمة مقولة يا مولاي ، ولا وحيد قط إلا في دنيا الاساطير ..

والشاعر يتخلص من قيود القافية في الكثير من قصائد ديوانه ويترك نفسه على سجيته في القول . وها هو في قصيدة « عواصف حائرة » يفاجئنا بمطلع ينطح السماء بروقيه ، والمفاجأة من العناصر الجوهرية للصورة الشعرية ، كما يقول جورج ديهامل :

اكاد اشك في نفسي لأني اكاد اشك فيك وأنت مني

أرأيت ما أعمق هذا الحب وأخلصه ؟ ان الحب يلقي برقعا كثيفا على وجه المحب فيرى ولا يصدق . ان الروعة ، في هذه القصيدة ، شاملة ، وهي من الشعر الجدير بان يغتنى في اسمى المقامات ، وبأليت مواطن امرئ القيس ضرب صفحا عن هذا البيت :

على اني اغالط فيك سمعي وتبصر فيك غير الشك عيني

ان معناه جميل جداً ، ولكن هذه « العلى اني » من بضاعة النثر ، وفي « القافية » سناد كنا في غنى عنه .

وفي قصيدة « كنا وكان » صرخة عبقرية قلما نسمع بمثلا في شعرنا المعاصر ، وهي درس عميق في الهوى :

يا حبيبي كيف ذاك الحب مات عندما دببت به روح الحياة

إذا كان هذا قد حير علماء النفس ، فكيف لا يحير شاعراً لا يضاهيه شاعر في مثل هذا الحب العنيف ، وهذه الحاسة التي تنفذ إلى الأعماق .

وفي قصيدة « حلم الهوى العذري » نقع على كلام رائع في وصف الحبيبة :

وبالوجنات فيها الضوء يلهب لونها الخري

فتحسب انها شفق تلفح هالة البدر

حتى الآن اكاد أقول ان شاعرنا ، كجميع شعراء العرب ، قديمهم وحديثهم ،
ليس للجمال المعنوي أية وزن في ميزانهم . ان هذه خاسة أصيلة فالحسن متى
ملأ القلب كان الفيض .. اسمع ما ختم به قصيدته « على ضفاف النيل » مناجياً
الحبيب :

ارع حبي ذاكراً أيامنا فعلى ذكراك للعهد اتكالي

وكأني بذاك الحبيب يحيب كما نجيب نحن : التكلة على الله .

أما في قصيدة « أطيلي الوقوف » فيقشعر البدن لما توحيه هذه القصيدة :

هو الداء يبعث في اضلمي	إذا ما نعبت فلا تفزعي
ولا تبغشي صرخة في الفضاء	ولا ترسلي مدمع الموجه
ولكن عليك بحفظ الوداد	وصوني عهد الفتى الألمي
وعيشي مدى العمر بالذكريات	وطوفي بمنى الهوى واخشمي
وزوري ثراي إذا ما السكون	اطلّ وعند الثرى فاركمي
لئن ضم جسمي ذاك الثرى	لقد ضم عهدي وحبي معي

اطال الله بقاءك يا طويل العمر ، ولا خلا قلبك من هذا الحب العنيف
لتسمعا الكثير من هذه الروائع التي تقطر دماً .

واني هنا أوافق شاعرنا الاستاذ صلاح لبكي القائل في مقدمة الديوان :
« ومحروم في أول الطريق لم يعط بعد كل عطائه ، على سخاء ما أعطى ، ولم
يفرغ غير الحرف الأول من الكلمة التي تحتلج في صدره وتضج بين ضلوعه » .

وفي قصيدة « هل تناسيت » هذا المطلع الصارخ :

ليتة يعرف الملل	دائم الحقيق لم يزل
هذه الهجر فانبرى	يقتل الياس بالأمل
هل تناسيت ليلنا	إذ دفناه في القبل

ما على قلبنا شر ، ما دام يخفق ، وإذا عرف العلل يا أمير ، فعلى الدنيا

مليون سلام . ألا تذكر قول أبي الطيب :

آلة العيش صحة وشباب وإذا وليت عن المرء ولي
وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة ولكن الضمف ملا

فلا زال قلبك خافقاً إلى أبد الأبدن ودهر الداهرين . آمين .

أما دفن الليل في القبل فصورة جميلة جداً ، ولعلي لم أقع على أروع منها .
وان كان الخبراء الصحيون يزعمون أن كل قبلة تذهب بدقيقة من العمر .. فأنا
اشتريها بساعة بل بيوم ، وربما بشهر إذا وافقت الهوى وحي الوطيس .. وحي
صديقي الشاعر بشاره الخوري الذي حرق نفسه ونفس حبيبته في جحيم من
القبل ، ومع ذلك لا يزال بألف خير يهجم على طاوور ..

إذن فليخفق هذا القلب ، وليقرع هذا الجرس فرحاً حتى يقلق أربعة
أقطار المسكونة . ان دقائق الحزن ، أبعدنا الله ، آتية ولا ريب . واليوم خمر
وغداً أمر :

ان قصائد « وحي الحرمان » كلها مطبوعة على غرار واحد ، شعر نقي
الديباجة ، حديث قلب بطل يتجلد ، تأبى عليه عزته ان يثذل ، فهو يخبر
بجلاء ووضوح عما فعل به الحب ، وعن لوعته المحرقة في قصيدة « لوعة » حين
يسر إلى حبيبته :

فكل حديثهم محض اختلاق	فلو زعم العواذل بي سلوكاً
وان كانت ضلوعي في احداق	وما ابدي لهم غير التماسي
يلاقني في الهبة ما يلاقي	واخشى ان يقال صريع شوق
فاغرق في اصطباحي واغتباقي	واغرق في ظلام الليل يأسى

المثل عندنا يقول : جاء الليل وجاء الويل ، ولا أدري كيف استطاع شاعرنا
ان يغرق في ظلمة الليل ما اعتاد أن يطفو .

وفي قصيدة « ردوا سهام الجفون » يذكرني الشاعر بعهد مضي يوم كان
شعراء القرن التاسع عشر يردون العجز على الصدر ، فهو يختم هذه القصيدة

بالشر الذي افتتحها به ، فيول :

ردوا سهام الجفون عن قلبي المسكين
لا توقظوها جراحاً اغشى عليها حنيني

الا تذكرك هذه الغفوة بغفوة الأطفال الملائكية ولكن بدون هذا الألم !
حقاً أن الحب ، ولو أميراً ، لطفل كبير .

فقد بذلت شبابي ضحية للعيون
أما رحمت حطاماً ناداكم بالأنسين

أظن أن القارئ ، يشاركني في الزعم بأن في كلمة حطام - هنا - حلاوة
شعرية . وأخيراً يختم كما ابتداء :

فان أردتم بقائي ردوا سهام الجفون

الله ، الله ، كيف يستغيث البطل في الحب ! ألا تسلم يا طويل العمر ، بقول
صاحبي : ليس في الحب معلم ولا شريكة . هاتي خدك .

أما ذكر المدام والراح والكاس فلم يرد إلا في قصيدة « إلى ذات الوشاح »
ذات هذا المطلع :

تسألني العواذل ما اقتراحي وأنت على الزمان مدى اقتراحي
بيد ان هذه المدام والكاس هنا مجازية كالتي عند ابن الفارض ، ولكنها من
نوع آخر .

وفي قصيدة « أمل المحروم » ، وان كانت قوية العاطفة حادة الشعور ، صور
غير جديدة كالبيان والعتاب . إلا أن الشاعر أخرجها بأسلوب مستملح جداً فقال :

وقوام يتهادى في الربي فيقول البيان ما أهيفه
وفهم لو قال من ينعمه هو كالعتاب ما عرفه

أما بيت الردف ، وان كان قد مضى يوم كانت فيه الأرداف تستحلي
مقنطرة ، فقد أخرجها الشاعر إلى معرض الفن جميلاً طريفاً ، حافلاً بلون محلي

صارخ ، حين قال :

وباردافك حادٍ صلفٌ منقلٌ خطوك ما أصلفه
فجَمِيلٌ منك بعد الظلمِ يا أمل المحروم ان تنصفه

أما نونية (يا ناعس الطرف) فلا تقل عاطفة وجمالاً فنياً عن نونية ابن زيدون ، ففيها تلك السهولة الرائعة وذاك السياق المستعجل ، فكأنها نهر لبناني ينصب مترالكضاً نحو البحر ، حتى تختتم بهذه الأبيات :

إنتا وإيتاكم نجهانٍ في فلكٍ يديره الحب في آفاق ماضينا
مهما اختصمنا فان الشوق يجمعنا أو افترقنا فان الحب يدنينا
فما ترى اليوم من صبر ومن جلد فللكرامة فضل من تأسينا

انه في اخرج المآزق لا ينسى من هو . بيد انه يغلب على أمره ويعود إلى تواضعه ، والحب إله قدير لا يزهى أمامه أحد ولا يتكبر ، فيقول في مطلع قصيدة « عتاب » :

لما نظرت إليّ أمس مشيخة بين الجموع بلعظك المرقاب
وجرت على شفّتك بسمة حائر ما بين شبه رضا وشبه عتاب
ابصرت في عينيك عمري كله وعرفت اني قد أضعت شبابي

حقاً أنها أبيات من أمثل الشعر وارقاه . وهكذا يختم هذا الديوان كما ابتداءً : تحرق دائم ، وشكوى مستمرة ، وظماً إلى الجمال شديد ، وثلاثة في الدنيا لا يشبع منها : الجمال والعلم والمجد ، وان قال الشاعر : ولا مجد في الدنيا لمن قل مائه .

وبعد فائنان في ديوان « الحرمان » يتصارعان : قاب الشاعر ونفسه ، فقلبه يهوى الجمال ونفسه يشوقها العز والمجد ، وهو بينهما كما يقول المثل : ساعة لك وساعة لربك .

هو شاعر غنائي رومنتيكي يقول الشعر في حاجات قلبه ونفسه ، عربي جلود ، محافظ لا يريد الخروج بالشعر العربي عن طريقه المثلى : الصراحة ،

الوضوح ، الموسيقى . لا يتفنى بوصف الطبيعة ، ولكنه يهيم بسيدها الذي خلقه
الله في أحسن تقويم ، على صورته ومثاله .

والحرمان عند الأمير موجود حقاً ، فهو إذا لم يجد من يحرمه حرم هو
نفسه ، والمهروم وحارم نفسه سيان في الحرمان . لا يضحى بالعزة والكرامة
في سبيل حب أي كان ، وقد تكون مصيبته انه يبتلى بمن لا يرخص لنفسه
الانحدار اليه ، ولذلك يصح فيه قول الشاعر :

ارى ماء وبى عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورود
الحبل والدلو موجودان ، ولكن الشمم العربي وابعاء الامارة يصيحان به : لا .
ولهذا لا نسمع إلا ترانيم عذبة هي صدى طبيعي لأغوار نفس يسدها حب
الجمال ، أو قتهدة نفس متأللة لا أدري من ماذا .

ان ما سماه شاعر الأمراء حرماناً هو ما يسميه علماء اليوم كبتاً ، وهذا
الحرمان أو الكبت يرهف حساسية الشعراء ، فلا حرم الله الأمير هذا الحرمان .
أما ثقافة شاعرنا فعربية صرف ، وما احسبه استلهم غير الشعر العربي ، فهو
في قوله الذي اعجب الشاعر الأستاذ صلاح لبكي :

أرى الصبر أوشك أن ينفدا وأوشكت في القرب ان ابعدا
يدنو ويبتعد ، في وقت معاً ، من قول الشاعر القديم ، وقد عدوه مخالفاً
لفصاحة المركب لغوضه :

ماطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا
ان الوطن الذي كان لنا منه أمير الشعراء امرؤ القيس ، وجريرو وغيرهما ،
ما هو في القرن العشرين يستعيد مجده الأدبي بانجابه عبد الله الفيصل ، وإذا لم
يكن للروح والجمال المعنوي إلا أثراً يكاد يلصق في ديوانه ، فاعلم ان هذا هو
الدليل القاطع على النفسية العربية التي لا تعجبها الصوفية .. وإذا رأينا شاعرنا
لم يتخيل كثيراً فلأن شعره وصف خوالج نفسية ، والبوح لا يتطلب امعاناً في
الخيال ، فاهيك ان الاغراب في الشعر ليس من طباع العرب .

فشاعرنا اوتي البساطة التي سأل فرلين السماء ان يعطاها . قد اعطياها عبد الله
الفصيل فرأى الحبيبة انسانة من لحم ودم ، لا من نور والحنان ، وورق ورد ،
وضياء ونور ، وأغاني حمراء وصفراء ، وأحلام بيضاء وخضراء ، وأشعة قوس
قزح ، كما يراها أصحابنا - بعض شعراء اليوم - ويخاطبونها بلغة لا تفهمها هي ،
ولا الانس والجن أيضاً ..

فهذا الشاعر ، وهو نموذج للرأس العربي ، وقد اجتمعت فيه جميع خواصه
وخصائصه ، لا ترى في ديوانه رمزية ولا سرىالية ، ولكنك ترى شعراً عربياً
صافياً تفكيراً وتعبيراً . شعراً لا تحمل الكلمة فيه فوق طاقتها ولا تكلف
إلا وسعها .

فكأنني بديوان محروم قد جاء رداً ، في الوقت المناسب ، على لبدة الجديدة
التي يجاولونها في العراق ، كما نرى في قصيدة « النهر العاشق » للآسة الشاعرة
نازك الملائكة . عدت نازك تلك القصيدة « انشودة عزاء لبغداد التي تفرق »
وما هي في نظري إلا (جنّاز) لشعر نازك الذي غرق في بركة التجديد ،
ومحاولة الابداع ..

بعد ظهور ديوان نازك شظايا ورماد نصحت لها ان تعود إلى حبيبها الأول ،
إلى عشق الليل ، وإذا بي أقرأ في هذه الأيام عشق النهر .. واتبعها نفر من
شعراء احببناهم كيلند الحيدري وفلان وفلان .

فيا اخواني ، انكم بهذا تعتقون ولا تصيرون جديداً . فليست آفة شعرتنا في
وزنه وقوافيه ، وإنما آفة بيت الشعر العربي في تعيئة وزنه ، وأحكام بنيان
زواياه ، اعني قوافيه . انكم بهذا تقلدون الغرب ، ولو استطاع شعراء الغرب ان
يحدوا لهم اوزاناً كالوزاننا ، وقوافي كقوافينا لما تخلوا عنها كما تتخلون ، ولما
فعلوا غير ما فعل قدامى العرب . احكموا بنيان البيت الشعري ولا تهربوا
من الساحة .

لقد استطردنا ولكننا لم نبتعد عن الموضوع كثيراً ، وحسبنا من محروم
ابتعاده عن تلك التعابير الموروثة مع انه ابن المحيط الذي ابصرت النور فيه .

فأنت لا تجد في وحي الحرمان تعبيراً كلاسيكياً ، والتعبير الكلاسيكي المنقول هو أخطر سلاح يجعله الشاعر والنثر في معركة أدبية .

اسمعت ما قالوا عن السلاح المصري الذي كان في جرب فلسطين يقتل صاحبه لا العدو ؟ كذلك هو التعبير القديم ، انه يقتل صاحبه .

فالشعر قبل كل شيء هو صدى النفس ، ولا يمكن ان يعبر عن هذا الصدى إلا بلسان صاحبه . ان هذه لحسنه كبرى لعبد الله الفيصل الذي خاطب الأجيال ، وهم من ناس هذا العصر ، بلغة هذا الزمان والعصر ، ناسياً أو متناسياً ما ترك مواطنوه من ميراث تعبيرى باق ، فعبر هو كما شاء ، ولم يبال بعمود الشعر بل حطمه تحطيماً .

بقي علينا ان نقول كلمة في وحدة هذا الديوان ، فكأنه ملحمة حب وهيام ، وغير قليل ان يكون لشاعر ديوان كامل في موضوع واحد ويحيد قائله كما أجاد محروم .

فلا حرم الله شاعر الأمراء ذاك الحرمان لطيبيل الغناء . ومتى كانت لك نفس تحب ، وقريحة تسعد وتسعف على القول فأنت شاعر . وتظلل شاعراً في التسمين ، فسر زلا تبال (بحد الأربعين) فليس للعبقرية نهاية ولا حد .



يا صاحب السمو الملكي

أما الآن وقد خرجنا من الهيكل فاسمح لي أن أعود إلى « البروتوكول » ، وأرجو من سمو شاعر الأمراء ، ذي الوزارتين ، الأمير عبد الله الفيصل ، ان يقبل مني الهدية الأدبية . أما قال شاعرنا : ويأتيك بالأخبار من لم تزود . ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بناتاً .

فأنت أيها الأمير النبيل ، لك في تأييد الأدب يدان : يد بذلت بسخاء ، ويد عملت بكد وجد ، فكان من ثمرها اليانع هذا الأثر الفني .

الا بارك الله في يديك الثنتين .

يَقْظَةُ وَنَهْضَةُ

الخيال اللبناني

ليس للبنان اليوم اساطيل ماء وهواء ، ولكن له في دولة الفكر فضلا يعرفه ذوو الالباب .

وبعد ، فعندما نظم الله قصيدته الفريدة في سنة أيام كان أشد اعجاباً بالبيت السادس - الانسان - لانه نفخ فيه شيئاً من روحه . وبعد أيام - واليوم في عين الله كآلف جيل في عيوننا اللوزية - بدا لذي الجلال ان يحوّث البيت الذي رآه حسناً جداً ، فاستودع فكرته سفينة نوح ، حرصاً عليها ، ومحا بطوفان عرمرم قصيدته العصاة ليعيدها أحسن سبكا .

وبعد لحظة من تقويم الخلود ، استنشق الأب القديم الأجيال قنار ذبائح نوح ومحرقاته ، فطاب نفسا وقرّ عيناً ، وقال : لا اعود إلى لعنة الأرض من أجل الانسان ، لان تصور قلبه شرير منذ حدوثه .

وحانت منه التفاته فرأى جبل أرارط ينظر بفطرسية إلى سهول الشرق ، والكبرياء هدوة الله الغيور ، فغمز بعينه ابنته المجنونة فأخرجت انقالها ، فاصطفت جبال لبنان كمعسكر من العماليق في جبهة الوجود .

وشفى الرب نفسه من ركافة ثانية ، فالمثل والنتوء ملاك الفن الرفيع : لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منها ملكوته .
هكذا زعم شوقي ، ولكن أيها 'نسيخ عن الآخر يا ترى ؟ لبنان أم جنة الخلد ؟ ! هذه مسألة تشغل حيزاً من دماغني ولا أقول كبيراً لثلاثتهم بالمبالغة .

وتنمو الخيال اللبناني فحقق ظن الله بالإنسان. خلق الآلهة وسرحهم قطعاناً
تتصارع وتتناطح في بطاحه وعلى روايه ، وكانت بينهم حروب كالتى نشبت بين
الملائكة في البدء ، وكان من شروط هدمتها استعمار الشياطين للأرض ..

الخيال خلعة الله السنية على من خلقه على صورته ومثاله ، وهودج قنسينا
زركشة مجوفه هول الطريق والمركب الوعر . إذا جردنا الإنسان من خياله
انكسر ما يحيط به وأمسى كالمنبت . لا يذكر الأمس ولا يحلم بالقد .

والخيال ينمو في بقعة كلبنان ، فولولة رياحه وعريضة شلالاته ، ومس
ينابيعه وأنهاره ، وهدير بحره ، ووشوشة أشجاره ، وقصف رعوده ، وومض
بروقه ، وعواء مباعه ، وصرصره بثزانه ، وصغير نسوره ، وتفريد طيوره ،
تنصب وفوداً وفوداً في حناجر اوديته ، واشداق كهوفه ، فتؤلف موسيقى
داخلية لا تجدها في غيره .

فمن لا يرتعش متى استيقظ مع الفجر ورأى بنية نور القرص الفضي تنسكب
على ربي لبنان الحاملة ، فتخلق ظلالاً كثية ، وأشباحاً حائرة . سيناء الله
الأزلية تتزين بألف لون وتنطق بألف لسان قبل بزوغ القرص الذهبي وعند
غروبه .

وما ظنك بجبار نسجت عمامته عوانس كانون ، وحاك آذار عباءته المفوفة ،
وطرز نيسان قميصه ، ونممت طيلسانه عرائس نوار ، والبحر يغني عند قدميه ،
والضباب يؤزره ليحلم ، أفلا يلد خياله أساطير كانت أم الثقافة العالمية ؟ !

لبنان هو الأولب الأول ، وقد فاق جوفانس لما جعله الصوفيون مقراً
لأبداهم . انه آدم الخيال الانساني وحواءه . فمن قممه المتمردة رفع بنوه
عرشاً لمركيل ، ومسرحاً لأدونيس ، وخدراً للزهرة . ومن طيوبه صنعوا
عشاً لفينيق رمز القيامة والحياة المتجددة . رموز عبقرية افرغها الخيال اللبناني
على الحقيقة فنعم بها الانسان زمناً .

’منى‘ ان تكن حقاً فتلك هي المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغداً

لثقافة منبعان : دين حافل بالرموز والأسرار ، وخيال يحلم بالجمال فيخلقه ،
وكلاهما انبثقا من لبنان فعمما البحار وما وراءها ، ابصر اللبناني جبلا قلق
المجاز وبحراً مكارراً لا يؤخذ بالعنف ، فشرع يحتمل للتفوذ في ذلك المضيق .

وتحرك الخيال اللبناني الأول فكانت فتنة بين أبناء الهواء وبنات المساء .
صرعت فأس اللبناني عمالقة الأرض وجعلها مراكب قدان له البحر . ورأى
المستقبل مظلماً فتحرك خياله أيضاً فخلق الأبطال والآلهة ، وتحرك أيضاً
وأيضاً فكان البناء والارجوان والزجاج والطرف والتحف .

وتحرك أخيراً خيال الطموح فمشى البحارة أبناء الشمس فاستعمروا الشرق
والغرب ، وفتحوا الدنيا سوقاً لحضارتهم وفنونهم ، فعق لهم ان يرددوا قول
ابن عمهم عمرو بن كلثوم ولا ابتهار :

كانتا د والجواري منشآت ولدنا الناس طراً اجمعينا
ملأنا البحر حتى ضاق عنا وظهر البحر غلاء سفينا

وأبى الخيال اللبناني ان يستريح فانشأ سفر التكوين الأول ، وعلم افلاطون
حقيقة « الوجود الفام » وافترض (الجواهر الفردة) لحل عقدة الهيولى ،
 ووضع « ايجديته » مستودع الثقافة الحاضرة ، ولا يزال بعضها كما رتبوه هم منذ
خمس آلاف سنة ABCD ايجد KLMN كلمن QRST قرشت .

فليست الثقافة اللبنانية وهماً من الأوهام ولكنها حقيقة تقدم كل الكائنات
حديثها ، ولا قبلها قبل كخمرة ابن الفارض .

تقدمت موسى وحمورابي والهمت هوميرو وماريني وشكسبير ، ولا يزال
بعضها حياً في أقدس امانينا . فمن هذه المزرعة المنتشرة على سيف بحرينا ، من
هذا المليمتر من مصور الدنيا الضخم ، خرج خيال جبار كسا المرأة برفيراً
وارجواناً ، وبدل الكهوف بالقصور والهياكل الرفيعة العماد ، وصار معسماً
القرون الأولى .

فمن يصدق ان شعباً عبقرياً كشف أسرار الكون لا يدرك سر احمرار مياه

نهر ابراهيم ؟ ان منطق المعتقدات يحتاج دنيا العقول ويكتسحها .. هنيئاً لهم
بجدهم الفذ ، فلا يشوب فخراً بهم شيء ، إلا انهم لم يعيشوا إلى ضوء نار الهدى
مثلنا ، فضلوا وقادوا وانهم يعذبون اليوم في جهنم .. وأسفاه !!

أتقولون ان احسانهم إلى الانسانية لم يشفع لهم عند ربهم ؟ فلولا ايجديتهم
ما قرأنا كتبه المنزلة ، ناهيك ان جهنم عرفت بعدمهم ، والقانون لا يشمل ما قبله
مدنياً ، ولا هوتياً الجاهل معذور . وأخيراً أقول : ما لنا وللجدل العقيم
ففتسلم مشاطرين الأب مرتين اليسوعي ، صاحب تاريخ لبنان ، أسفه العميق
لهلاك نفوس أوائل اللبنانيين ، ممدني البشرية ..

كلما بلغت نهر ابراهيم اتخيل نساء بلادي باكيات على تموز . وكلما دخلت
جبل اتمل الكهنة يندبونهم في الشوارع ، حتى إذ بلغت عين كفاح ومررت
بكنيستها البعلبكية الأساس أقول في نفسي : من هنا طرد زين الآلهة ادونيس
ليحل محله ابن أراط ، أي مار روحانا ، الجالس سعيداً فوق مذبح كنيستنا .
وتتداعي الأفكار فتنبري كلمة الأخطل : هو الدين يا أخا العرب ، فاصمت
غريب ابحاء بلادي ، كل حجر من حجارتها سفر جليل . وان قيل ابهذه
الخرافات تفتخر ؟ ! اجبت . من منا بلا خطيئة فليرجعها بحجر .

خلقت العين البشرية جمالاً قليل له كن فكان . أما العين واليد اللبنايتان
فامتلهما خيالاً لا يضل كالحك الذي اخترعوه ، فابدعنا كونا جديداً حافلاً
بطرف الفن وروائع الفكر .

وارام خيالهم السامي ان التطور سنة الحياة وأقدس نواميسها ، فداروا مع
الزمن محتفظين بخواصهم الاكتسابية والغريزية ، فعدوا عن لغتهم الهرمة ،
وخطبوا لغة بني عمهم الجميلة . نصروها عزيزة ، واحبوها مقهورة . فبينما كانت
كتبها تتدهور في دجلة والفرات وتحمل بها الافران والحمامات كانوا يخشونها في
احشاء كهوفهم - وهل كانت الديرة الا كهوفاً ! - وتنكر لها الناس حتى
بنوها الخلاء ، فأووها ونصروها ، وافرغوها حلة قشبية على كتابهم

المقدس ، فاحتبت ناعمة الببال عن يمين المذبح ، وأمست لغة خيالهم وأحلامهم .
تصوروا راهباً لبنانياً - المطران جرمانوس فرحات - ينتقل في أواخر
القرن السادس عشر ، بين أعمدة جامع قرطبة ومحرابه ، يتأمل بأعجاب واجلال
آثار ذلك الفردوس المفقود . أما مات ذلك الراهب عشر مواعيد قبل بلوغ
الأندلس ؟

وتحرك الخيال اللبناني ، بعد حين ، فرأينا كاهناً آخر يركب البحر بينما كان
شاعرنا العربي يقول :

لا اركب البحر اخشى علي منه المعاطب
طين انا وهو ماء والطين في الماء ذائب

إلى رومة أبحر السمعاني حاملاً على سفن أجداده حاصلاتنا الثقافية ، وفي
مكتبة الفاتيكان هدأ روح العربية الملهوفة ، وهناك خلدت ذكر السمعاني كما
خلد السمعاني ذكر العرب بما ترجم للبأبا اكليمنضوس الحادي عشر . هذا
حديث البحر ، وقد احتاج إلى معجم كلاروس إذا عمدت إلى ذكر الأعلام ،
فلنتفحص .

اللبناني قديماً وحديثاً ، مطبوع على الأخذ والعطاء . وفلسفة النفس الحديثة
تثبت ان للوراثة والجنس تأثيراً في العبقريّة ، فاذا ورث الرجل عن أبويه تخيلاً
شديداً هيأ هذا الاستعداد للشعر أو للتجارة والمالية . وصورة العبقريّة تختلف
بحسب المحيط وهذا ما عملته العبقريّة اللبنانية . تعلم اللبناني لغات الغرب ،
وعلم الغرب لغات الشرق فكان تبادل الثقافات ، كتبادل البضائع ، ينمى
الأسواق . وهكذا انتمشت اللغة العربية ووجد المتمشرون .

ثابت ، علمياً ، ان التطعيم خير الوسائل وأجداها لترقية الأنواع . وهذا
ما عمله الخيال اللبناني المعاصر في الأدب العربي . طعمه بالثقافات الأخرى
فأتم ما بدأ به العباسيون الأوائل . والثقافة كالتبجر تنمو وتزداد بالتبادل
والعمل المنتج ، واللبناني فاجر عبقري . وصورة الثقافة ، كما قالوا ، تختلف

باختلاف المحيط والزمان .

اعتدى لغتنا الجميلة شلل كاد يذهب بحياتها وجمالها فتحرك الخيال اللبناني
فاذا باليازجي يقف بازاء الحريري .

ثم تحرك الخيال اللبناني وانتفض ذلك العرق الأصيل في أحد فارس الشدياق
فخلق الأدب الجديد في الفاريان وكشف الغبا ، واخرج لسان العرب من
مراديب الحريري ودهاليز القاضي الفاضل .

وتحرك الخيال أيضاً فكان الكشف والاشراق على عقل الشدياق النير فأبدع
سر الليال ، ثم نفخ في الصحافة نفخة احتيتها وكانت من ذريته النبيلة اسحق
والحداد وعبدو وصروف وزيدان وتقلا وغيرهم ممن اعجز عن عدتهم .

وأبى اللبناني ان يستقر فعاد مارون النقاش من اوروبا يحمل الينا المسرح ،
وكان بيته أول مسرح عربي .

وهب المعلم بطرس البستاني يطعم ويلقح فأخرج من « جنانه » ثماراً
جديدة شهية ، وجاءنا بالمحيط « الهادي » ، « والدائرة » التي جعلت منه
جماعة في رجل .

ثم ضاقت بالخيال اللبناني أرضه ، كما ضاقت من قبل ، فكانت الهجرة
الثانية إلى الأقطار التي اكتشفها اللبناني الأول ، فحمل لغته في قلبه ولسانه ،
وهب ينشرها في قارات الدنيا الخمس .

للأديان رسل ومبشرون ، واللبناني رسول لغته لا دينه ، ينقل منها واليها .
وكما نشر اللبناني الأول امجديته واختراعاته في دنيا الأمم فما هوذا لبناني
اليوم ينشر لسانه العربي مبشراً برسائله الخالدة .

وأبى الخيال اللبناني ان يهدأ فكانت المدرسة الرومنطيقية الرمزية
فخلقت القصة والشعر والنثر الجديدين .

انه لدم جديد لقحت به مدرسة جبران والريحاني أدبنا العربي الحديث

افوهيته مناعة ووقاية .

وأبى الخيال اللبناني ان يستقر فكانت في لبنان مدرسة شعر جديدة ، فيها ازرقاق البحر ، واخضرار الأرز ، وابيضاض الثلج ، واحمرار الشفق ، وروحي النسق ، والموسيقى البعيدة القرار .

ولا يزال الخيال اللبناني عطلا لا يستقر ، ولن يستقر . فالسديم يصير نجماً ، والنجم يمسي كوكباً ، ثم ينطفئ ليشتع غيره . لا يتوارى نظام شمسي حتى يظهر وراءه نظام آخر . ان الأرض لا تظلم ما دام الخيال ساطعاً .

وكأني بالقارىء ينتفض قائلاً : هات لنا مثلاً لخيال لا وجود له إلا في خيالك . وأنا اجيب : على رأسي ثم عيني .

ان جبران خير مثال للعرق والبيئة اللبنانيين ، قديماً وحديثاً . فالشوق والضباب الجبرانيان من عمل الخيال اللبناني الأول . يفسر التكوين اللبناني ، وهو اقدم الأسفار عهداً ، افترض الشوق فاعلاً والضباب منفعلاً . فجبران في خلقه وخلق لبناني أصيل ، يدين بالروح والحب . ولكنها ماديان كما تخيلها اللبنانيون الأول ، فما المِطريرة نبي جبران ، غير ميتر روح النور الالهي . وكأني بالعرق اللبناني قد تجمع كله في هذا الرجل ليجعله مثلاً لثقافته وخياله في عهديهما ، ويرى الناس تطورهما في مسالك العصور .

عندما خطر لي هذا الموضوع خفت جماع العاطفة فافترضت عدة ديكرات هنية وقلت : ماذا يحدث لو احتى لبنان من سفر الوجود ؟ فرأيت السهول اقفرت ، والجنات صارت هشيماً ، والقرى والمدن والمدارس أمست خراباً ، فقلت : حقاً أن لبنان خزان الله العظيم .

ثم وثب الخيال وثبة أخرى فافترضت أن نسور هذا الجبل الملهم لم تطر أفواجاً أفواجاً إلى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأميركا ، فرأيت ظل العربية يتقلص بعد انتشاره وخلت الدهر يمشي القهقري ، فارتعت كمن دهمه الغروب صلاة الظهر . فقلت : إذن والله نحن موجودون وليس ما ازعم تبجحاً وابتهاراً .

قال التفكير والتأمل ادعو الشباب المثقف والكهول العاملين ، والشيوخ الذين لم يعدموا طراوة النفس . ان الخلق يقتضيكم تأملاً عميقاً ، ونقاشاً صارماً وانتقاداً مرأً ، وسعيّاً متصلاً . المبقرية هبة اجتهاد وثقافة ، والاشراق لا يدركه إلا التأملون .

قال ريبو : المصادفات السعيدة لا تعرض إلا لمستعفيها . ففكروا لكي تستحقوها وتنتجوا ثماراً شهية تضمونها بكل فخر على مائدة أدبنا العربي الخالد . والا فانكم تقطعون الجاه الطويل العريض الذي خلعه الخيال اللبناني على لساننا العربي المبين .

الفهرست

القسم الأول		شعراء الأمير
ما هذه المقدمة	٧	التاريخ الشعري ٥٥
		نقولا الترك ٦٥
		بطرس كرامة ٧١
قبل المعركة		ناصر البازجي ٨١
سنديانة الضيعة	١٣	الشعراء العلماء
مدرسة تحت السنديانة	١٩	
بين الكهف والدار	٢٦	الشيخان الأحذب والأسير ٩٣
		عمر الأنسي ١٠٠
		القاسم الكسني ١٠٤
الرواد العتاق		محمود قبادهو والدحداح ١٠٧
		يوسف الشلفون ١٠٩
بلا عنوان	٣٣	
المطران جرمانوس فرحات	٣٤	
الحوري نيقولاوس الصائغ	٤٠	فجر التجديد
النابلسي والحر والنحلاوي	٤٣	خليل الحوري ١١٣
أحمد البربر	٤٦	فرنسيس مراش ١٢١
ابن فرنجة	٥٠	شاعر الكلية ١٣٧

كتاب النضال	١٤١	البارودي وأرسلان
٢٣٥ أديب اسحق	١٤٨	شاكر بك الحوري
٢٤٩ محمد عبده	١٥٧	أسعد رستم
٢٥٣ شبلي الشميل		شعراء متفلسفون
٢٥٧ عبد الرحمن الكواكبي		
٢٦٤ مصطفى كامل	١٦١	عبي الدين الحياط
٢٦٦ قاسم أمين	١٦٢	سليم عنحوري
٢٦٨ فرح انطون	١٦٤	تامر الملائط
٢٧٥ فهرس الاعلام	١٦٧	سليمان البستاني
٢٨١ فهرس الجزء الأول		
فهرس الجزء الثاني		الرائدات
من كتاب الشعر العامي	١٧٣	الوردتان
	١٧٥	عائشة تيمور
٢٩٧ القرية في أمثالها		الرواد الكتاب
٣١٢ ليلي القرية ومواسمها		
أطوار الزجل اللبناني	١٨٠	روادنا والقصة
	١٨٩	مارون النقاش
القوال الأول	١٩٢	نجيب الحداد
٣٦٣ الطور الكلاسيكي		
٣٧٥		رواد الصحافة
الشعر العامي		
٣٨٩ عود على بدء	١٩٩	الشدياق
٤٠١ الطور الرومنطقي الرمزي	٢٠٤	بطرس البستاني وولده
٤١١ من قلبي لأسعد سابا	٢١٠	الشيخ ابراهيم اليازجي
٤١٩ جلتار لميشال طراد	٢١٩	صروف وزيدان وتغلا وسركيس
٤٣٣ ياجوج وماجوج لمنير وهيبه	٢٢٣	المبشران فان ديك وشيخو
	٢٢٨	البستاني والحوراني والأزهري

فهرست القسم الثالث

من كتاب جدد وقدماء

الأدب الساخر

أدب الظل

فرج انطون

سيرته وآثاره وأثره

في مجلته الجامعة

فرج انطون القصصي

الحب حتى الموت

الدين والعلم والمال

الوحش الوحش الوحش

أورشليم الجديدة

حول جبران ومي

بين عين كفاح وعاليه

جبران خليل تقي الدين

جبران عكاظ الحكمة

لذكرى جبران الخالد

جبران اللبناني

في مدينة جبران

من أجل الأدب

خطبة بشري

الحداد وجبران

شيء عن مي

ما بين مي وجبران

إلى شكر الله الجبر

الشدياق والجاحظ والمتنبى

ضريح الشدياق

الشدياق بين مصر ولبنان

يوبيل مثوي لكلمة

الشدياق وهيغو

أبو الأدب العربي

ليلة جاحظية

أبو عثمان وأبو علي

زيارة شاعر

قادة ذهبوا

الأب هنري لامنس

عمر في يومه الأسود

في ذكرى عمر

المونسنيور فغالي

فؤاد سليمان الأديب الشاعر

خمسة في عام واحد

ابراهيم عبد القادر المازني

المنفلوطي ورسالة الغفران

أبو الفضل (الباس طعمه)

بقفلة ونهضة	في المصباح
٧٥٧	الخيال اللبناني
٧٦٥	فهرست الاعلام
	٧٠٥ ديوان الملاط
	٧١٤ جعبة الصياد
	٧١٨ معجم العلايلي
	٧٢٣ حول القصة
	٢٨٨ سعيد تقي الدين
	٧٣٨ وحي الجرمان للأمير عبد الله الفيصل

